

مَسَائِلُ الْأَبْصَالِ فِي مَسَائِلِ الْأَمْصَالِ

لابن فضائل العمرى
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

أُشْرِفَ عَلَيَّ تَحْقِيقَهُ الْمَوْسُوعَةُ
حَقَّقَهُ هَذَا السَّفَرُ
كامل سماك البوري
مهدي النجد

المجلد الثاني عشر

كتاب الإنشاء المشاركة



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
DKI

أسستها مركز بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : **MASĀLIK AL-ʿABṢĀR
FĪ MAMĀLIK AL-ʿAMṢĀR**

الكتاب : **مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار**

Classification: Lexicons

التصنيف : موسوعات

Author : Šahābuddin Ibn faḍlullāh al-ʿUmari

المؤلف : شهاب الدين ابن فضل الله العمري

Editor : Kāmil Salmān al-Jubūrī
and: Mahdi al-Najm

المحقق : كامل سلمان الجبوري
ومهدي النجم

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Pages : 10240 (15 Volumes)

عدد الصفحات : 10240 (27 جزءاً في 15 مجلداً)

Size : 17*24

قياس الصفحات: 17*24

Year : 2010


سنة الطباعة : 2010

Printed in : Lebanon

بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st

الطبعة : الأولى



DKI
**Dar Al-Kotob
Al-Ilmiyah**
Dir. by **Mohamad Ali Raydan**
1871 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Qubbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg
Tel. : +961 3 854 810-1112
Fax : +961 3 894813
P.O. Box 77-3424 Beirut, Lebanon
Régist. al-Tajār: Beirut 1167 2260

جميع حقوق الملكية الفكرية
للدار العلمية
+961 3 854 810 / 1112
+961 3 894 813
بيروت لبنان
بيروت 1167 2260

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beirut-Lebanon No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any form or by any
means, or stored in a data base or retrieval system, without
the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation
préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à
des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية
بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

9 00000



ISBN 978-2-7451-3441-7



ISBN 2-7451-3441-8



9 782745 134417

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذا السفر الثاني عشر من موسوعة ابن فضل الله العمري.

(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)

التي أرخ فيها الحضارة الإسلامية عبر سبعة قرون، وقد قصر هذا الجزء على كتاب الدواوين في شرق الدولة الإسلامية. وقد بدأه بتعريف كتابة الإنشاء من بدايته أيام الدولة العباسية حين كانت منوطة بالوزراء (ثم أفردت واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة) وقسمهم إلى قسمين.

القسم الأول، ومنهم عبد الحميد وابن العميد، والصاحب بن عباد، قال: وهم وإن كانوا من مشاهير الكتاب فإنهم بعداء من الغوص وحسن التوكيد والاختراع، وأشار إلى أنه قدم تراجمهم مع الوزراء.

وترجم لمن جعلهم في القسم الثاني (من أصحاب الغوص، وأكثر ما تجد ذلك للمتأخرين).

وطريقته أن يورد تعريفاً بالكاتب بأسلوب أدبي جميل مسجع، وربما متكلف في بعض الأحيان، ثم يورد له مختارات من نثره تكثر أو تقل حسب أهميته. كما يختار شيئاً من شعره. وقد تفرد هذا الجزء بتسجيل مختارات نثرية وشعرية جديدة لم نجدها في مصادر تراثنا الأدبي الأخرى، مما يجعل لهذا الجزء أهمية خاصة.

اعتمدت في تحقيق هذا الجزء على النسخة التي نشرها الدكتور فؤاد سزكين عن الأصل المخطوط في المكتبة السلিমانية باستانبول - أياصوفيا المرقمة ٣٤٢٥، وهي نسخة تامة ليس فيها حذف أو بياضات، كتبت بقلم واحد وبخط واضح مقروء إلا أنها قليلة الإعجام، ويبدو أن الناسخ كان غير ضليع بقواعد اللغة ومتعجلاً، فكان يرسم بعض الكلمات دون إدراك معانيها، ولربما أعجمت بعض الكلمات على غير

هدى، وقد حاولت أن أضبط النص على النسخة الأخرى التي نقل عنها المؤلف أو نقلت عنه، إلا أنني وجدت أكثر نصوصه جديدة لم أقع عليها في مصدر آخر، مما يدفع المحقق إلى تقليب الكلمة ليقع على المعنى المناسب مع السجعة أو السياق.

ولعجلة الناسخ فقد سقطت كلمات كثيرة مما تسبب في غموض المعنى في كثير من الجمل، وعلى المحقق أن يقترح لفظاً بديلاً أو كلمة مناسبة يقتضيهما السياق أو يستقيم بها الوزن إذا كان النص شعراً.

وفي دار الكتب المصرية نسخة أخرى برقم ٢٥٦٨ لم أطلع عليها أثناء التحقيق. ولكنني أرجو أن أكون قد وفيت هذا الجزء حقه من متطلبات التحقيق العلمي، فقد حاولت أن اضبط النص وأترجم للأعلام والمواضع والمصطلحات ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأشير إلى مصادر التعريف والترجمة ما استطعت.

والحمد لله رب العالمين.

مهدي ع . الحسين النجم

المسيب - العراق

٢٠ محرم ١٤٢٥ هـ

٢٠٠٤/٣/١١ م



صفحة العنوان - مخطوطة أيا صوفيا - المكتبة السليمانية - استانبول رقم ٣٤٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم • بحمد الله توكلت •
 ثم كانت وزرا وكنا مع من جينا وبعدهم في خدمة الخلفاء والملوك
 ممن لم يرض البرق شران من زياده ولا العنبر الهديك مدك للملاده
 حالها عند الللال لفتله وكان الاقن لزهن كانه ومد الصلح
 له محبته والقي بالرياح لتقصيه ساكده بحبفه وحصل لم من النعم سا
 فاض فضله ومن النعم ما اعنت عقله وسناني ستم على العوض منهم
 من يذكر لا شها واسمه وسنم من يذكر باسحقانه ثم هداوا على نسيم
 سم استمر لله كسار ولا يعدي طيفه المقول وقسم منهم
 اصحاب العوض واكثر ما تعد ذلك للمتاخرين فدادوا عواني استحقاق
 المعاني وتوليدها وتسل ذكرهم فتول ان كتابه الانشاكات في
 المشرف في حله ندمي العباس سوطه بالوزراء ورما انفراد بها رجل وذكر
 ان بعدد من في مواضع من كتابه من ديوان السر وديوان التوسل
 ثم كانت اخروقت قد افوت واستقل بها كتاب لم يلهوا بلغ الوراان
 وكان في المشرف يسمي كتاب الانشام لما كثر عددهم سمي بيهيم ريس
 ديوان الانشام في يطلق عليه تان صاحب ديوان الانشام وتارة
 كتاب السر وهي الى اوت رعندي ابنه وعمها تاس اذل وكان في دول
 السلامه وملكه الشرف يسمي ديوان الطغراويه وبه سمي بويد الدين
 الطغراي والطغراي الطره وهي التي كتبت فوق السلمه بانتم انقلظ
 بنصر القاب الملك وهي نظمه اعجميه وكانت تتوزم مقام خط
 السلطان بيده على المنا شعير والكتب رينغني بولك عن ان يكون
 للسلطان عليه تحظه ككثه الوثوق بصاحب هذه الرتبه راهل
 الغريب يسمي ريس ديوان الانشام صاحب التز الاعلى واهل هذه الرتبه
 لم يزلوا للاحتصاص والتريب اكثر من كل عام وخاصر عجاج الاسرا سلا

مرويه من
 والمطالع
 حازه
 صاحب
 وعاصره
 في
 سمي
 لغيره

ملذات

٢

وهذا **أحص** من ختمهم اهل نظرنا احباً وامواتنا ولا حيله
 من تحطيتنا نواتنا اذ كان هؤلاء اعيان القوم من اول هذه الملة دالي
 الهم من استهسر لغلوذنه او لغلوذنه ونمقنا ما طواع احد هذين
 والاكثر اية صحتها اللذين **وهو** من جملة كافيته في الكتاب
 المشاركة وانما اطلعنا من مجموعهم شارقة وهي دالة على ما عدنا من
 نهاد مطب سية الخافقين **ويطيل** ملا في النبرين الشارقين
 آخر السفر الثاني عشر من مسالك الابصار
 في ما لك اللصار وتلوه ان شاء الله تعالى في السفر
 الثالث عشر فاما الكتاب المغاربه وما لم تر نحو غير هذا
 لجهت درب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
 خاتم النبيين وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين
 ، **حسنا للدينم الكليل** ،
 مع

٢/ بسم الله الرحمن الرحيم

على الله توكلت

ثم كانت وزراء وكتّاب مع مَنْ سَمِينَا، وبعدهم في خدمة الخلفاء والملوك مَمَّنْ لم يمرض البرق شرارةً من زنادِهِ، ولا العنبر الهندي مدّةً لمداده، طالما غدا الهلال لَقَلْمِهِ قُلامَةً، وكان الأفقُ لزهره كمامة، ومدّ الصباح له صحيفة، والقي بالرماح لقضيته في كفه نحيفة، وحصل لهم من النعم ما فاضَ فضله، ومنّ النقم ما أغيثَ عضله، وسنأتي منهم على الغرض، فمنهم مَنْ نذكره لاشتهار اسمه، ومنهم مَنْ نذكره باستحقاقه، ثم هؤلاء على قسمين:

قسم اشتهر للاكثار، ولا يتعدّى طبقة المقبول.

وقسمٌ منهم أصحاب الغوص، وأكثر ما تجدُ ذلك للمتأخرين، فقد أبدعوا في استخراج المعاني وتوليدها.

وقبل ذكرهم نقول: إن كتابة الانشاء كانت في المشرق في خلافة بني العباس منوطة بالوزراء، وربما انفرد بها رجلٌ. وذكر ابن عبدوس^(١) في مواضع من كتابه ديوان السرّ وديوان الترسل: ثم كانت آخر وقت قد أُفردت، واستقلّ بها كتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة، وكان في المشرق يسمّى كاتب الإنشاء، ثم لما كثر عددهم سمّى رئيسهم، رئيس ديوان الانشاء، ثم بقي يطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء، وتارة كاتب السرّ، وهي إليّ أحب، وعندني أنبّه، وعند الناس أدلّ. وكان في دول السلاجقة وملوك الشرق يسمّى ديوان الطغراوية، وبه سمي مؤيد الدين الطغرائي^(٢)، والطغراء

(١) محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشياري، صاحب كتاب الوزراء والكتّاب، كان حاجباً بين يدي الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح، مات مستتراً سنة ٣٣١هـ. انظر: الوافي بالوفيات ٢٠٥/٣ والفهرست ص ١٩٠.

(٢) أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الأصبهاني، المنشيء المعروف بالطغرائي، شاعر اشتهر من شعره لاميته المسماة لامية العجم، قتل سنة ٥١٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ١٨٥/٢. وللدكتور جواد علي الطاهر كتاب عنه (بغداد ١٩٦٣) وجمع مع الدكتور يحيى الجبوري شعره ونشراه في بغداد، وسنأتي ترجمته.

هي الطرّة، وهي التي تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، يتضمّن ألقاب الملك، وهي لفظة أعجمية، وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب، ويستغنى بذلك عن أن يكون للسلطان علامةً بخطه لكثرة الوثوق بصاحب هذه الرتبة.

وأهل المغرب يسمّون^(١) رئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى، وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كلّ عام وخاص. يحتاج الأمراء إلى /٣/ مداراتهم، وتقصر الوزراء مع علو رتبة الوزارة عن مراتبهم، يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الانفاس، وهم معنى الدولة، وعليهم عولة كل الناس، وآخر ما كانت الملوك لا تكتب الخلفاء ببغداد إلا إلى هذا الديوان، أعني ديوان الإنشاء؛ وكانت تسمّيه الديوان العزيز، ولهذا كانت كتبهم تستفتح: ادام الله أيام الديوان العزيز إشارةً إلى ديوان الإنشاء؛ لأن الكتب كانت إليه، والمخاطبة له، وهو المراد بقولهم فيما يوجد في التواريخ وكتب الإنشاء والترسل: الديوان العزيز، وعليه كان يطلق هذا الاسم، وله بهذا من الشرف ما لهُ، ومن الفخر ما يجرُّ على السماء أذيالهُ.

وقد آن أن نذكر من القسمين مَنْ يُذكر:

* * *

(١) الأصل: يسمّي.

== [القسم الأول] ==

فأما القسم الأول:

فمنهم: عبد الحميد^(١)، وابن العميد^(٢)، والصاحب بن عباد^(٣)، وهم إن كانوا من مشاهير الكتاب، فإنهم بُعِّدوا من الغوص وحسن التوكيد والاختراع، وقد قَدِّمنا في تراجمهم مع الوزراء عنوان قولهم، ومبلغ طولهم.

[١]

[أبو إسحاق الصابي]

وأما أبو إسحاق^(٤)، فهو الصابي وإن كان منهم، وفي طبقتهم غير بعيد عنهم،

(١) عبد الحميد الكاتب بن يحيى بن سعد، مولى بني عامر بن لؤي بن غالب، الكاتب البليغ المشهور، وبه يضرب المثل في البلاغة حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل، أصله من الشام وكان أولاً معلماً صبية، ثم صار كاتباً لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وقتل معه سنة ١٣٢هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢٨٨/٣ وثمار القلوب ١٩٦ وصبح الأعشى ١٩٥/١٠ والفهرست ص ١٧٦.

(٢) أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد أبوه، من الكتاب المترسلين الشعراء العلماء، ووزر لركن الدولة البويهية سنة ٣٢٨هـ، ومدحه شعراء كبار مثل المتنبي والصاحب بن عباد، توفي ببغداد وقيل بالري سنة ٣٦٠هـ. انظر: وفيات الأعيان ١٠٣/٥ وبيتمة الدهر ١٥٨/٣ ومعاهد التنصيص ١١٥/٢ والشذرات ٣١/٣.

(٣) الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني، وزير، من الكتاب الشعراء المصنفين، أخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي، صحب ابن العميد، فسمي بالصاحب، ووزر لمؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهية ثم لأخيه فخر الدولة أبي الحسن علي، واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره من الوزراء، وصنف كتباً كثيرة، توفي بالري سنة ٣٨٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢٢٨/١ وبيتمة الدهر ١٩٢/٣ ومعجم الأدباء ١٨٦/٦ وبغية الوعاة ١٩٦ وألف فيه الشيخ محمد حسن آل ياسين كتاباً ونشر بعضاً من كتبه.

(٤) أبو إسحاق الصابي، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن جتّون الحراني، الصابي، من الكتاب المترسلين، الشعراء. كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدين بختيار البويهية، وتقلد ديوان الرسائل، ولما ملك عضد الدولة ببغداد اعتقله، ثم أطلقه وأمره أن يضع كتاباً في أخبار البويهيين، فألف كتابه (التاجي) وكانت له مع الشريف الرضي مراسلات، نشرها الدكتور محمد يوسف نجم (الكويت ١٩٦١)، توفي سنة ٣٨٤هـ ببغداد. انظر: وفيات الأعيان ٥٢/١ ومعجم الأدباء

ولكنّه جوال الذكر في الكتاب، مشهور شهرة [الشمس]^(١) في يوم الصحو، تكلم وما تكلف، وتقدّم ومن قبله تخلف، جرى على سجيته في الطباع، ودعا عاصي البيان فأطاع، ولم يقف مع السجع يرسف في قيوده، ويكلف فكره فوق قدرته. فجاء بالعاطل [و] بالحالي، وتقدّم على أهل العصر الخالي. وكان حلو الجنى، عذب المشارع، لا يرتق مورده، ولا يُظفأ موقده، وهو في الكتاب بمنزلة امرئ القيس في الشعراء، أمام القوم وحامل لوائهم، وكان يحفظ القرآن الكريم، وينتزع منه الآيات، ويستشهد بها، وكانت بينه وبين الشريف الرضي^(٢) صداقة مؤكّدة، ورثاه لما مات برثاء اسمع الخافقين، وطلع في المغربين والمشرقين، وأوله:

أرايت مَنْ حملوا على الأعواد
أرايت كيف خبا ضياء النادي^(٣)

٤/ فاسمع بهذا الرثاء ما أعظمه وأفخمه، ولا سيما من مثل هذا الشريف القائل، واستدليل به على ما لهذا الرجل من الفضائل، عودٌ عبق أرجه وهو حطب، (ودي)^(٤) رقى المنبر فضله وخطب، عقّد نذّه سماءً من دخان، وأدار مُداماً مِن دنان، وكتب (دنه)^(٥) عن الملوك البويهية، قراراً بأولئك القساور، وزار النجوم وسلّب الأهلة الأساور. فضرب النحر بالاسداد، وكايل البحور بالأمداد، وأبدع عجبا، وأبعد فساكن عجما وجاور عربا، وتوفي سنة اربع وثمانين وثلاث مئة.

ومما له قوله:

«له يدٌ برعت في الجود بنائها، ونظّم الدرّ بيانها، فحاتم^(٦) كامنٌ في بطنِ راحتها، وسحبان^(٧) مستترٌ بنمارق فصاحتها، فلها يد في كل يد، ومنة في كل عنق،

^١ ٢٠/٢ وبيمة الدهر ٢٤٣/٢ والفهرست ص ١٩٩ والوافي ١٥٨/٦.

(١) زيادة يقتضها السياق.

(٢) الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، الشاعر المشهور المتوفى سنة ٤٠٦هـ، وأخباره كثيرة جداً وكتب عنه كثيرون.

(٣) ديوانه ٢٩٤/١ وفيه: أعلمت من حملوا....

(٤) كذا وردت في الأصل، ولعلها: وذمي.

(٥) كذا رسمت في الأصل.

(٦) حاتم بن عبد الله بن الحشر الطائي، الذي يضرب بجوده المثل.

(٧) سحبان بن زفر بن إياس اللواتلي، جاهلي، أدرك الإسلام فأسلم ولم يجتمع بالنبي ﷺ وأقام في دمشق أيام معاوية، كان يضرب به المثل في البيان. انظر: خزائن الأدب للبغدادي ١٦٧/١ والإصابة (ترجمة

٣٦٥٨) شك في إدراكه الإسلام، والأعلام ٧٩/٣.

وقرط في كل اذن، وسمط في كل (مهرق)^(١) لها في كل يوم مزيد، وعبد الحميد عبد الحميد.

وقوله:

من عهد لقاض^(٢). وأمره إن ورد عليه أمر يعييه فصله، وَيَشْتَبُهُ عَلَيْهِ وَحَكْمَ الْحَكْمِ فِيهِ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَطْلُبُ فِيهِ سَبِيلَ الْمَخْلُصِ مِنْهُ، فَإِنْ وَجَدَهُ وَالْأَثْرَ فِي الْأَثْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ أَدْرَكَهُ، وَالْأَسْتَفْتَى فِيهِ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ ذَوِي الْفِقْهِ وَالْفَهْمِ، وَأَهْلِ الدَّارِيَّةِ وَالْعِلْمِ، فَمَا زَالَ الْأُئِمَّةُ وَالْحُكَّامُ وَالسَّلْفُ الصَّالِحُ وَطَرِيقَ التَّسَنُّنِ الْوَاضِحِ يَسْتَفْتِي وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَاحِدًا، وَيَسْتَرْشِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَزُومًا لِلْاجْتِهَادِ، وَطَلْبًا لِلصَّوَابِ، وَتَحَرُّزًا مِنَ الْغَلْطِ، وَتَوْقِيًا مِنَ الشَّطَطِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣). وَأَنْ لَا يَنْقُضَ حُكْمًا حَكَمَ بِهِ مِنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَلَا يَفْسُخَ عَقْدَ مَنْ تَقَدَّمَ، وَأَنْ يَعْمَلَ عَلَيْهِ وَلَا يَعْدِلَ عَنْهُ مَا كَانَ دَاخِلًا فِي إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِعًا فِي أَوْضَاعِ الدِّينِ. فَإِنْ خَرَجَ عَنِ الْإِجْمَاعِ، أَوْضَحَ الْحَالَ فِيهِ لِمَنْ بَحْضَرْتَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ حَتَّى يَصِيرُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِهِ، وَيَجْمَعُوا مَعَهُ عَلَى رَدِّهِ، وَحِينَئِذٍ / ٥ / يَنْقُضُهُ نَقْضًا يَشِيْعُ وَيَذِيْعُ وَيَصِيرُ بِهِ الْأَمْرُ [إِلَى] وَاجِبِهِ وَيَعُودُ مَعَهُ الْحَقُّ إِلَى نَصَابِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤).

[وقوله في رحلة صيد]^(٥):

واعتمدت في الصيد على من يحضرني من أوليائه، على قوّة أبدانهم ونشاطها، ورياضة خيلهم وانبساطها، والزمان ساقطة جماره، مفعمة أنهاره، ونحن غبّ سحاب ألقع بعد الارتواء، وأقشع عند الاستغناء، والرياض زاهية بحمرائها وصفرائها، تائهة بعوانها وعذرائها، وما نرد منها حديقة إلا استوقفتنا نضارتها واستنزلتنا غضارتها، وخيلنا تشتاق الصيد^(٦) وهي لا تطعمه، وتحن إليه كأنها تقضمه^(٧)، وعلى أيدينا

(١) المهرق: الصحيفة.

(٢) المختار من رسائل الصابي ص ١٦٨ وفيه: إنها من عهد الطائع لله العباسي إلى أبي الحسين محمد بن عبيد الله بن محمد بن معروف.

(٣) سورة النساء: ٥٩. (٤) سورة المائدة: ٤٧.

(٥) موضع العبارة بياض في الأصل وبعضها في معاهد التنصيص ٢/ ٦٥ وبتيمة الدهر ٢/ ٢٥٤.

(٦) في التيممة: وخيلنا كالأمواج المترفقة، والأطواد الموثقة، متشوقة عاطية، مسبقة جارية، تشتاق الصيد....

(٧) في معاهد التنصيص والتيممة: كأنه قضيّم تقضمه.

جوارح مؤلّلة المخالب والمناسر، مذرية النصال [و] الخناجر^(١)، سابغة الأذنان، كريمة الانتساب^(٢)، إذ وردنا ماءً زرقاً جمامه، طاميةً ارجاؤه، يَبُوحُ بأسراره صفاءه، ويَلُوحُ في قراره حباؤه، وأفانين الطير به محدقة، وغرائبُه عليه محلّقة^(٣)، متغايرة الألوان والصفات، مختلفة اللغات والأصوات^(٤)، فلما أقبلنا^(٥) عليها، أرسلنا الجوارح كأنها رُسُلُ المنايا، أو سهام القضايا فلم يُسمع إلا مسمياً. ولم نَرَ إلا مذكياً، وانطلقنا بعد ذلك نعتام في الطير ونتخيّر، ونقترح ونتحكّم فاختطفنا بيزاتنا ما طار منه وانتشر، وأخذنا بجوارحنا ما لاح منها واستتر، واهتدت إليها، تستدلُّ عليها بالشميم، وتهتدي إليها بالنسيم، فلم يفتنا ما بَرَزَ، ولا سلم منا ما احترز. ثم عدلنا من مطاير الحمام^(٦) إلى مسارج الآرام، وأماننا أدلّة فرهة يهتدون، ورواد مَهْرَة يرشدون، حتى أفضينا إلى اسراب كثيرة العدد، متصلة المدد لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها، ومعنا فهود أخطف من البروق، وألْقَف من الليوث، وأجدى من الغيوث، وأمكن من الثعالب، وأدب من العقارب، وأنزى من الجنادب، خُمصُ البطون، رقص المتون. خزر الأحداق، هُرْتُ الأشداق، غُلِبُ الرقاب، كاشرة عن أنياب كالحراب /٦/ تَلَحَّظُ الطباء من أبعد غاياتها، وتعرف حسنها من أقصى نهاياتها، فأقبلنا من تجاه الريح عليها، وأغذدنا^(٧) نحوها وإليها، ثم وثبنا لها الضراء، وشننا عليها الغارة الشعواء، وأرسلنا فُهودنا، وجرت خيلنا في آثارها، كاسعةً لأذنانها، فألقينا كلاً منها على ظبي قد افترشهُ وصرعه فجعجه^(٨)، وأوغلنا من بعد في اللحاق وقص آثار ما ندّ وبعُد، وقد انتهت النوبة إلى الكلاب والصقور، ومعنا منها كلّ عريق المناسب، نجيح المكاسب، حلو الشمائل، نجيب المخايل، أغضف^(٩) الأذنين أسيل الخدين، أبّي النفس، ملتهب الشدّ لا يمسّ الأرض إلا تحليلاً وإيماء ولا يطاها إلا إشارة وإيحاء، وكل صقر ماضٍ كالحسام. قاضٍ

(١) بعده في معاهد التنصيص واليتيمة: طامحة الألفاظ والمناظر، بعيدة المرامي والمطارح، ذكية القلوب والنفوس، قليلة القطوب والعبوس.

(٢) بعده في المعاهد: صلبة الأعواد، قوية الأوصال، تزيد إذا طعمت شرهاً وقرماً، وتتضاعف إذا شبت كلماً ونهماً، فيينا نحن سائرون. وفي الطلب ممعنون.

(٣) في المعاهد، واقعة.

(٤) بعده في المعاهد واليتيمة: فمن صريح خلص وتهذب نوعه، ومن مشرب تهجن أو أقرف عرقه.

(٥) في المعاهد: أوفينا. (٦) في المعاهد: مطارح الخيام.

(٧) في الأصل: أعدنا. (٨) عجعج: رفع صوته.

(٩) الأغضف من الكلاب: المنكسر أعلى أذنيه (القاموس).

كالحمام، مُسْتَطُّ في مطاليه، خفيف النهضة في مآربه، سريع الوثبة فيما يريد، ثقیل الوطأة على ما يصيد. فما لبثنا أن أشرفنا على يعافير^(١) متطرفة، ويحامير^(٢) متعرفة فخرطنا القلائد والشناقات، فمرّت متوافقاتٍ مترافقات، قد تباينت في الصور والأجناس، وتألّفت في الإرشاد والالتماس. فسبقت الصقور إليها ضاربة وجوهها عاكسةً رؤوسها، ولحقت الكلاب بها، مُنْشِبة فيها، مدميةً لها، فبادرناها مجهزين، وغنمناها فائزين، ثم أخذنا في صيد ما يقرب ويخف، وتحصيل ما يلوح ويستدف، فلاح لنا قنبر فأطلقنا عليه (بؤبؤاً)^(٣) فغاب عن الأبصار، واحتجبا عن الأنصار، وصار كالغيب المرجم، والظنّ المتوهم، ثم [خطفه]^(٤) ووقع به وهما كهياة الطير الواحد، وعُدنا وفي حباثلنا الصيد والصائد، ورجعنا والشمس مصبوبة للغروب، مؤذنة بالمغيب، والجوّ في أطمارٍ مبهجة في أصائله، وشفوف مورّسة من غلائله، فالله ينظر مولانا في دقيق الأغراض وجليلها، ويقضي له بالظفر في جسيم المطالب وضئيلها.

[فصل من رسالة في وصف الرمي عن قسي البندق]^(٥)

مآرب الناس / ٧ / منزلة بحسبٍ قربها^(٦)، وأولاها بأن يعتدّه الخاصة ملعباً^(٧) والعامّة مكسباً^(٨)، الصيد الذي هو رائص الأبدان^(٩)، وجامع الشمل والاخوان^(١٠)، ولما كانت الجوارح المثمّنة ليست لكل الناس ممكنة، بل لمن عَظَم شأنه وحاله، وجَمَّ نَشْبُهُ وماله، جعلت القول مقصوراً على قسيّ البندق التي لاتعذر على مكثري ولا

(١) اليعفور: الخُشْف، ووليد البقرة الوحشية أيضاً.

(٢) اليحامير، وأحدها يحمور، دابة وحشية نافرة لها قرنان كأنهما مشاران (حياة الحيوان ٢/٤٣٤).

(٣) البؤبؤ: من جوارح الطير، يشبه الباشق (حياة الحيوان ٢/٤٣٣).

(٤) في الأصل: حفظه.

(٥) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات. والعنوان عن يتيمة الدهر ٢/٢٥٦.

(٦) بعده في اليتيمة: من هزل وجد، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد، وإذا وقع التأمل لها والتدبر بها، وجد اولها.

(٧) في اليتيمة: نزهة وملعباً.

(٨) في اليتيمة: حرفة ومكسباً.

(٩) في اليتيمة: الصيد الذي فاتحته طلاب لذة ونظر، وخاتمته حصول مغنم وظفر، وقد اشتركت الملوك والسوقة في استجماله، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله، نطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه، وهو رائص للأبدان...

(١٠) بعدها في اليتيمة: وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحة، وموجب لاستحكام الألفة لبيّنهم والمحبة وبه ينتهي نقل اليتيمة من الرسالة.

مملق، وأنا اكتفي بترغيب من كان عنه منحرفاً، وتثبيت من كان إليه متشوّفاً، بوصف موقف منه شهدته في بعض ظواهر مدينة السلام، وهناك غيضة ذات ماءٍ أزرَق، وشجر مرجح^(١) مورك، فيينا أنا مائل فيها ومنتزعة في نواحيها، وقد تاودت في حُلل الورود شجراؤها، وتفاوحت بروائح المسك أنواؤها، إذ أقبلت قبل الذرور والشروق وشمرت عن الاذرع والسوق مقلدين خرائط تحمل من البندق الموزون المعلوم ماهو في الصحة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم، كأنما خرط بالجمر فجاء كبنان الفهر وقد اختير طينه، وملك عجينه، كافل مطاعم حامله، محقق لآمال أمليه، ضامن لحمام الحمام، متناول لها من أبعد مرام، يعرج إليها وهو سم ناقع، ويهبط إليهم وهو رزق نافع، وبأيديهم قسي مكسوة^(٢) بأغشية السندس، مشتملة منها بأفخر ملبس. مثل الكماة في جواشنها^(٣) ودروعها، والجياد في جلالها وقطوعها، حتى إذا جردت من تلك المطارف، وانتضيت من تلك الملاحف، رأيت منها قدوداً مخطفة رشيقة، وألواناً معجبة أنيقة، صلبة المكاسر والمعاجم، نجبية المنابت والمناجم، خطية الانتماء والمناسب، سمهرية الاعتزاء والمناسب، تركبت من شظايا الرماح الزاغية، وقرور الأوعال الجبلية، قد تحنت تحني النسك. وصالت صيال الفتاك. ظواهرها صفر وارسة، ودواخلها سود دامسة. كأن شمس أصيل طلعت [في] متونها، أو جنح ليل اعتكر في / ٨ / بطونها، أو زعفران جرى فوق مناكبها، أو غالية جمدت على ترائبها، أو ثني قضبان فضة اذهب بعضها واحترق شطر، أو حبات رمل اعتنقت السود منها والصفير. فلما توسطوا تلك الروضة، وانتشروا على اكناف تلك الغيضة، وثبتت للرمي أقدامهم، وشخصت إلى الطير أبصارهم، وتروها بكل وتر فوق سهمه. وافق انقض نجمه، مضاعف عليها من وترين، كأنه بروح ذو جسدين، في وسط تسريحة كيس مختوم أو سره بطن مهضوم، كأنها متخازر ينظر شزرا، أو مصغ يتسمع نزرا، تصيب قلوب الطير بالأنباض، وتصيب منها مواقع الأعراض، فلم يزل القوم يرمون ويصيون. وينجحون ولا يخييون، حتى حلت من البندق خرائطهم. وامتلات بالصيد حقائقهم. فكم عارضت الطير فكسرت اجنحتها وجأجياها، واستطارت في الجوّ قوادمها وخوافيها، تعاجل قبل فناء ذمائها، ويصير ريشها كالمجاسد من دمائها، محمولة على حكم الكفار. إذ يقتلون ومصيرهم إلى النار، تحنط بتوابلها وأبازيرها،

(٢) في الأصل: مكسورة.

(١) المرجح: المائل المهتز.

(٣) الجواشن: الذروع.

وتُوَارَى في قدورها وتنانيرها، ثم تُبْعَثُ إلى إخوان متوافقين، وخلان مُترافقين قد تمالحوا في الطعام، وتراضعوا في المدام، ولا يشوب صفوهم شائب، ولا يُعيب فضلهم عائب، والحمد لله الذي أباحنا لذيق المطاعم ونَهَجَ لنا سبيل المغانم.

ومن كلام أبي إسحاق الصابي قوله في عهد كتبه لطفيلى^(١):

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا^(٢) إلى علي بن عرس الموصللي حين استخلفه على إحياء سنته، واستنابته في حفظ رسومه من التطفيل على مدينة السلام، وما يتصل بها من أكنافها، ويجري معها من سوادها وأطرافها، لِمَا تَوَسَّمَهُ فِيهِ مِنْ قَلَّةِ الحياءِ وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ورآه أهلاً له من سدة مكانه^(٣) في هذه الرفاهية المهملّة التي فَظَنَ لها، والرفاغية^(٤) المطرحة التي امتدَّت إليها والنعم العائدة على لابسها بملاذ الطعوم، ومناعم الجسوم، مُتَوَرِّداً / ٩ / على مَنْ اتسعت مواد مالِه، وتفرَّعت شُعبُ حالِه، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفَرَهُ ببدايع الطيبات. آخِذاً من كلِّ ذلك بنصيب الشريك المناصف، وضارباً فيه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملاً للمدخل اللطيف عليه، والمتولِّج العجيب إليه، والأسباب التي سَتُشْرَحُ في مواضعها من هذا الكتاب، وتستوفي الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب. وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله، التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجنتُّ الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، يوم لا ينفعُ إلا مثله من الأزواد، وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ومراقبته في قوله وفعله، ويجعل رضاه مطلبه، وثوابه ملبسه والقربة منه إربته، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرَّضُ عنده لعاقبة ندم، وأمره أن يتأمل اسم التطفيل

(١) كتاب التطفيل للخطيب البغدادي ص ١٧٥ وصبح الأعشى ١٤ / ٣٦٠.

(٢) قال الخطيب البغدادي: «حدثني القاضي أبو القاسم علي بن الحسن بن علي التنوخي قال: كان في نعباء الأمير بختيار المعروف بعز الدولة رجل يسمى عليكا، وكان كثير التطفل على جميع أهل العسكر من الحجاب والقواد ووجوه الخاصة والغلمان، وشاع ذلك له عند بختيار، فرسم له أن يستخلف على التطفيل خليفة. وتقدم إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب أن يكتب له على طريق الهزل عهداً لابن عرس الموصللي عن عليكا، وأن يجعله خليفة على التطفيل، فكتب له عن طريق الهزل عهداً، قرأه أبو إسحاق علينا.

(٣) كذا في الأصل: وفي التطفيل وصبح الأعشى: من سدّ مكانه.

(٤) الرفاغية: السعة والخصب، وفي التطفيل وصبح الأعشى: الرقاعة.

ومعناه. ويعرّف مغزاه ومنحاه، يتصخّفه تصخّف^(١) الباحث عن حظه بمجهوده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده، فإن كثيراً من الناس قد استتبعه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، فمنهم من غلظ في استدلاله، فأساء في مقالته، ومنهم من شخ على ماله فدافع عنه باحتياله، وكلا الفريقين مذموم لا يتعريان من لباس فاضح، ومنهم الطائفة التي لا ترى شركة العنان، فهي تبذله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم الآكل وفي المشروب^(٢) للوارد والواغل، وهي أحق بالحرية وأخلق بالخيرية، وأحرى بالمروءة، وأولى بالفتوة، وقد عرفت بالتفصيل ولا عار فيه عند ذوي التحصيل؛ لأنه مشتق من الطفل، وهو وقت المساء وأذان العشاء، فلما كثر استعمال في صدر النهار وعجزه وأقله، كما قيل للشمس والقمر: [القمران]^(٣) وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر، وأمره / ١٠ / أن يتعهد موائد الكبراء والعظماء بغزايه^(٤) وسمط الأمراء والوزراء بسراياه، فإنه يظفر منها بالغنيمة الوافرة، ويصل منها إلى الغريبة النادرة، وإذا استقرأها وجدّ فيها من طرائف الألوان الملذّة للسان، وبدائع الطعوم السائغة في الحلقوم، ما لا يجد عند غيرهم، ولا يناله إلاّ لديهم، وأمره أن يتبع ما يعرض لموسري التجار ومجهزي الأمصار من وكيرة (الدار والعرس)^(٥) والأعدار، فإنهم يوسعون على أنفسهم في النوائب بحسب تضييعهم عليها في المراتب. وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم، وإذا عدت هذه الطائفة أحداً من الناس من خلانها، واتخذته أخاً من إخوانها، سعد بمرافقتها، وحظي بمصادقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، وسار به إلى جنباتها^(٦)، وأمره أن يتعهد أسواق المتسوقين، ومواسم المتبايعين، فإذا رأى وظيفة قد زيد^(٧) فيها، وأطعمة قد استحشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها،

(١) كذا في الأصل، وفي التظليل والصبح: يتصفحه تصفح. ولعل الصواب: يتفحصه تفحص.

(٢) كذا ولعل الصواب: المشرب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) وردت في الأصل مهملة، وقرأتها هكذا.

(٥) الزيادة عن التظليل والصبح. والوكيرة: طعام يتخذ لفرغ البنيان.

(٦) في التظليل وصبح الأعشى: ومآربه في جنباتها.

(٧) في الأصل: زاد.

وشيّعها إلى المنازل الحاوية لها، واستعلم ميقات الدعوة، ومن يحضرها من أهل اليسار والمروة؛ فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصعبه، ويدخل معه، وإن خلا من ذلك اختلط بزُمر الداخلين، فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب ويخرج من سلطان البوابين والحجّاب، حتى يحصل محصلاً قلّ ما حصله أحد قبله، فما انصرف منه الا ضلعاً^(١) من الطعام نزيفاً^(٢) من المدام .

وأمره أن ينصب الأرصاء على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الاناث والمخنثين، فإذا أتاه خبرٌ بمجمع يضمّمهم أو مأدبة تعمّمهم، ضرب إليها أعقاب إبله، وأنضى حولها مطايا خيله، وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والشعبان الملتهم، والليث الهاصر^(٣)، والعقاب الكاسر، وأمره أن يتجنّب مجامع العوام المقلّين، ومحافل الرعاع المقترين، وأن لا ينقل إليها قدماً / ١١ / ولا يفغر لمآكلها فمأً، ولا يُلْفى في عتب دورها كيسانا، ولا يعدّ الرّجل منهم إنسانا. فإنها عصابة تجتمع لها ضيق النفوس والأحوال، وقلة الأحلام والأموال، وفي التطفيل عليها إجحاف بها يؤثم، وإزراء بمروءة المتطفّل (بوصم)، والتجنب لها أجدى^(٤) والازورار عنها أرجى. وأمره أن يحزر الخوان إذا وُضِع، والطعام إذا نُقِل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يُخطئه الحظُّ من دقيقها وجليلها، ومتى أحسَّ بقلة الطعام، وعجزه عن الأقوام، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه، الرشيد في أمره، المالىء لبطنه من كلِّ حارٍّ وبارد، فإنه إذا فعَلَ ذلك سلم من عواقب الأعمار الذين يكفون تظرفاً، ويقلون تأدّباً، ويظنون أن المادة تبلغهم إلى آخر أمرهم، وتنتهي إلى غاية شبعهم، فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الواثق، وينقلبوا بحسرة الخائب أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم.

وأمره أن يروّض نفسه، ويغالط حسّه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً، ويطوي دونه كشحاً، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، ويغمض عن اللفظة الخشناء،

(١) في الأصل: فانصرف فيه إلا ضلعنا، ولعل الصواب ما أثبت، والضلوع: الثقل، لعله أراد فما انصرف

إلا ثقيلاً من الطعام.

(٢) في الأصل: الصاهر.

(٣) كذا في الأصل: ترتعاً.

(٤) الأصل: أجلى.

وإن أتنَّه اللكزة في حلقه صبر عليها في الوصول إلى حقه، وإن وقعت به الصفعة في رأسه، أغضى عنها لمراتع أضراسه، فإن لقيته لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذ كان إذا ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، ولا بُدَّ أن يلقاه المُنكرُ لأمره، ويمرُّ به المستغرب لوجهه، فإن كان حرّاً حياً، أمسك وتذمّم، وإن كان فظاً غليظاً همهم وتكلم، وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة، ويستعمل مع المخاطب الملاينة، ليردّ غيظه، ويفلّ حده، ويكفّ غربه، ثم إذا طال المدى تكررت اللاحاظ عليه فعُرف وأنست / ١٢ / النفوس به فألف، ونال من الحال المجتمع عليها منال من حشم وسئل العناء إليها.

ولقد بلغنا أن رجلاً من هذه العصابة، كان ذا فهم ودراية، وعقلٍ وحصافة، طفل على وليمة رجلٍ ذي حالٍ عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وتصرف بهم فيه الظنون، فقال له قائل منهم: مَنْ تكونُ أعزّك الله؟ فقال: أنا أوّل من دُعي إلى هذا الحق، قيل له: وكيف ذلك ونحنُ لانعرفك؟ فقال: إذا رأيتُ صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي، فجيء به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لصاحبك أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين ومقدار حاجة المدعوين؟ فقال: نعم، فقال: إنما تلك الزيادة لي ولأمثالي، وبها تستظهر لمن جرى مجراي، وهو رزق أنزله الله على يدك، وسببه من جهتك فقال: مرحباً بك وأهلاً وقرباً، والله لا جَلست إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلساء والأناس، إذ قد طرفت في قولك وتفتنت في فعلك فليكن ذلك الرجل إماماً لنا نقتدي به، وحاديا نحذو على مثاله إن شاء الله.

وأمره أن يكثر من تعاهد الجوارشانات^(١) المنفذة للسدد، المقوية للمعد، المشهية للطعام، المسهّلة لسبيل الانهضام، فإنها عماد أمره وقوامه، وبها انتظامه والتأمُّه؛ لأنها تُعين عمل الدعوتين، وتنهض باليوم الواحد بالأكلتين، وهو في تناولها كالكتاب الذي نَقط أقلامه، والجندي الذي يُصقل حسامه، والصانع الذي يجدد آلاته، والماهر الذي يصلح أدواته.

هذا عهد علي بن أحمد المعروف^(٢) بعليكا إليك، وحثته عليك، لم يَألك في ذلك ارشاداً وتوقيفاً، وتهذيباً وتثقيفاً، وتمعناً وتبصيراً وحثاً وتذكيراً، فكن بأوامره مؤتمراً، وبزواجره مزدجراً، ولرسومه متبعاً، ولحفظها مضطلعاً، إن شاء الله تعالى

(١) الجوارش: نوع من الأدوية يعين على هضم الطعام.

(٢) مكررة في الأصل.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلت: وسئلت في تقليد لطيفلي فعملت:

الحمد لله الذي نَعَمَ في طيبات رزقه، ورزق بعض خلقه من خَلْقِهِ / ١٣ / وأجاز للمرء في بعض المذاهب التوصل بما قدر عليه إلى أخذ حَقِّه، نحمده على نِعَمِهِ التي وَسِعَتْ الولائم، وَمَتَّعَتْ بِأَكْلِ كُلِّ مَلَأَمٍ، ونشهد أن لا إله إلا الله وَحُدَّهُ لا شريك له، شهادة أوَّل ما يبدأ عنها باسم الله الأَكَل. ويهنا بها ما يُهَيِّأ من المآكل، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، الذي ماعاب قط طعاماً، ولا دُعِيَ إلى طعام إلا أَكَل ما لم يكن نوى صياماً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتلقمها المسامع التقاماً، وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد؛ فلما كان الغذاء هو قوام الأبدان ونظام عمارة البلدان، وموائد الطعام هي التي يجتمع عليها الإخوان، وتزهى بها صدور الإيوان، وتفتح وتختم بالحمد، وتمنح من أطياب الطعام ما يتجاوز الحدّ، ويكون فيها ما يسرّ العين من بدائع الألوان، ويسري نجوم زياديتها في سماء الإخوان، وقد تحويه دور بعض البخلاء ومن لا يدعو الناس إلى طعامه دعوة الجفلي^(١)، ويكون في ماله الممنوع حق للسائل والمحروم، ومن لا يتوصل إلى الحقّ منه إلا بالتطفيل المعلوم، ممن تعيّن الأكل من ماله بأنواع الحيل والهجوم على موائده المحجوبة وراء الحُلل، واستعمال الأقدام على هذا وأمثاله لأكل طعامه، وإخلاء المادة من قدامه، ولم يوجد لهذه العظيمة، ولا يُلام صاحبُ كل وليمة، إلا مَنْ كان إذا أَكَلَ اضطلع، وإذا مدّ يده إلى السماط اقتلع، أو صعد إلى السماء ذبح سعد الذابح وبلع سعد بلع ولم يزل يزلزل الموائد، ويملاً وعاء بطنه بزائد، ولا يعرف ما تكون البطنة، ولا ما تكفي منه اللقمة وتعني منه اللهنة ولا تقابله صدور الأطباق إلا وهي غير مطمئنة، وكان فلان هو الذي طالما كشف وَجْهَ السماط، وحلّ من سفر المخالي الرباط، وجال في جنبات الموائد حتى أخلاها، ورَكَضَ فيها ركض الجواد حتى ألحق أхраها بأولاها، وعرف في الولائم التي لم يزل فيها مشهور الحملة، آتيا على التفصيل والجملة، ومعروفاً بكبر اللقم التي / ١٤ / يكاد يخنتق، وترك التشهي وأكل ما يتفق، وقوة النهمة التي لو لقمتم الصخر لسحتته، أو كلّفت حوض البحر إلى كل لقمة واحدة لاستهوتته، واشتهر بطبع طبع، عَنَى كُلٌّ من يجيء بعده وأتعب، وفرط طمع أطفأ كل طفيلي وأمات أشعب وأم

(١) الجفلي: الدعوة العامة (القاموس).

أشعب، ولم يعصم منه بابٌ مغلق، وستر مطبق، ولا طعام جالسٍ على طريق ولا محبوس وراء مضيق، بل لو قيل له: إن اللقمة خلف جبل قاف لقام إليها يسعى، أو في فم الأفعى لمدَّ يدهُ إليها ولم يخف لسعا، قد تبلط وجهه الوقاح، وأفنى لحوم ذوات الأربع والجناح، ولم يدع في القدور شيئاً عليه يدور، ولا في المخافي ما هو عليه خافي ولا نوعاً من الأنواع، ولا ما يصلح للأكل مما يشتري ويبيع. أو واكل ابن أبي سفيان^(١) لأشغله عن العيان، أو سليمان بن عبد الملك^(٢) لهلك، أو الملك العادل^(٣) لأفقره في العاجل، أو عاصر ميسرة التراس^(٤) لما اشتال له معه راس، أو عاشر القائد المغربي مولى فارح لأراه في الأكل كلَّ قارح. لا يُعجبه لأجل السعي للأكل إلا كلُّ يوم أغرَّ يبدو نورُهُ، وكل ملك إذا تغدَّى رُفعت ستوره، ولا يعدُّ فرداً إلا مَنْ قدَّم إليه قِصعةً مكلَّلةً لحماً مدفقةً ثرداً، ولا يكون نازلاً إلا لمن قال: «وإني لعبدٌ^(٥) الضيف مادام نازلاً»، لا يتغدَّى بجمل ويتعشى بوسقه^(٦) ما حمل، يصرف الأكل بغرارة، ويحمل معدته فوق السبع كارة، ولا يلفيه قدر الرغبة إلا كلما أرهن عليه قوسه حاجب بن زرارة، ولا يقنعه طبخه القدر إلا بجميع ما في الكوارة، ينتقل بأردب^(٧)، ويأكل كلما سعى ودب، ويتملح بمدَّ ملح وقوصرة بصل، ويتحلَّى بعديلة تمر ووطب عَسَل، يشربُ من اللبن وطباً، وينتقل بحمل الحديدية رطباً، القنطار عنده أوقية، والرطل توابل التغذية، لا يحب إلا اسم بلعام^(٨) وطعمه، ولا يأكل ملء الطبق إلا في لقمة، يأكل باليدين، ويشبع بالعين، لم يعرف في طول عمره التخم، ولا خاف الوحم، ولا وقع على جيف المآكل / ١٥ / إلا وقوع الرخم، ولم يأكل ما شاء في سبعة أمعاء، وإنما يدخر معه في وعاء، ماقرأ من الفقه إلا كتاب الأطعمة،

(١) يريد به معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي، وقد اشتهر بكثرة الأكل.

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، الخليفة الأموي، اشتهر بكثرة الأكل (عيون الأخبار ٣ / ٢٢٧ والعقد الفريد ٦ / ٣٠١).

(٣) الملك العادل محمد بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدين، كان يوصف بكثرة الأكل (انظر: وفيات الأعيان ٥ / ٧٤).

(٤) ميسرة التراس، كان في عصر المهدي، قيل كان يأكل الكبش العظيم ومئة رغيف (نثر الدرر ٢ / ٢٤٩ وريع الأبرار ٣ / ٣٥٢).

(٥) من قول المقنع الكندي:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما شيمة لي غيرها تشبه العبداء

(٦) الوستق: حمل بعير. (٧) الأردن: مكيال لأهل مصر.

(٨) بلعام بن باعورا: من علماء بني إسرائيل.

ولا سئل كيف الطريق إلا قال: أنا ما أحبُّ الأشياء الحلوة الدسمة، ولا نعرف أعرف منه بتلفيق الاسباب، وتخريب عرائش النفاق وقباب الكباب، فما حظَّ يده في طعام إلا محقه، ولا في مأكولٍ إلا وعاد في الحال كأنَّ الله ما خلقه، فاقضى له تقدّمه هذه الطائفة^(١) أن يكتب له هذا التقليد. ويراد به طول يده وباعه المديد، ويميز على أبناء جنسه من طائفة الشيخ ساسان^(٢)، ومن يأخذ أموال الناس باليد ويأكلهم باللسان، ويفعل الفعائل التي ما يظن بها إلا أن زمان أبي الأكاسرة عاد، وينصب النصبات التي لو كان أبو زيد السروجي^(٣) حاضرها لما زاد، فرسم أن نقلده أمر طائفة الطفيلية، ويعاد إليهم أمورهم بالكلية، وأن يكونوا جميعهم تحت أمره المطاع، وأعوانه إذا أكل كل ما على السماط، وخلّى الناس وهم جياع، وهو ما يحتاج إلى الوصايا التي تشغله عن الابتلاع، وتلهيه عن النهم الذي هو من خلق السباع. وإنما نقول له على سبيل التذكرة، ونكتفي بالقليل لما عنده من المخبرة.

فأول ما نوصيه أنه لا يقف عند منهل، ولا يتوقّف في أيّ شيء تسهّل، ولا يتخير ليتحير، ولا يفكر إذا تقدم إلى الطعام بحقد من حقد، ولا لوم من لام ولا يحسب حساب بقية من حضر، بل يأكل الكل ولا يذر، ولا ينتظر من غاب. ولو كان أسد الغاب، ومهما جاء قدماه رماه بالمحاق، وعاجله خوف اللحاق. وإذا قدّمت المائدة. بذكر اسم الله لتهرب الشياطين، وتغنى لثلاث تحضر الملائكة وتحيل بكل طريق في عدم المشاركة، وتعجلّ مهما أمكنه فإنه ما يؤمن المداركة، وليلفّ الخبز والإدام، ولا يعفّ عن لحسّ الزبادي وقرقشة العظام، ولا يتلافى خاطر من حرد، ولا يترضى، ولا يدع شيئاً مما يطلق عليه اسم الأكل /١٦/ حتى النار التي تأكل بعضها بعضاً، وليباكر الغداء فإنه مكرمة، ويلازم العشاء فقد قال ﷺ، تعشوا ولو بكف من حشف فإن ترك العشاء مهزمة، وليداوم على ما هو عليه من هذا الأمر، ولا يلتفت لقول زيد ولا عمرو، وليأكل ما حضر. ويحرص على الطيبات، فقد كان ﷺ^(٤) يأكل القثاء بالرطب، ويحبّ الحلو والعسل ويحبّ الزبد والتمر، ولا أقل أن يكون

(١) الطائفة الأولى: الجماعة، والثانية: من الطواف.

(٢) بنو ساسان: طائفة من المكدين، ظهرت في العصر العباسي، منهم أبو دلف الخزرجي البينوعي، له قصيدة في يتيمة الدهر ٣/٣٥٤ تسمى الساسانية.

(٣) أبو زيد السروجي، شخصية وهمية. يروي عنها الحريري مقاماته، وفي ترجمة الحريري بوفيات الأعيان، خبر يفيد أنه أعرابي عرف الحريري كنيته ولقبه فنسب المقامات إليه.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي ٣/٤٣٢.

فيه هذا من السنّة، ومن تتبّع مآكل السلف، وإن كان لا يريد إلاّ زهد، لا مصور على خاطره، ومُمثل في ناظره، ثم ليتعهد المهضّمات وما يقوّي المعدة ويزيد لهب نيرانها المتقدّمة. ولا يدع استعمال المسهلات لهييء المعدة لمواقع الغذاء والعشاء، ومواضع الأكل في مطاوي الأحشاء، وليستعلم أخبار الآكلين وطوائف الطفيلية المحتالين. لما يحصل بذلك من التأسّي، وينهض الشهوة للأكل والتحسّي، وإياه والمضغ، فإنه يطيل المدى، ويقلّل معه مقدار ما يؤخذ من الغذاء، ومهما استطاع فليحسن المآكل ويحزن صاحب الضيافة الحزين الثاكل، وليصرف شهواته إلى ما لا يتصرف، وما يقف على المعدة ويتوقف. ويلازم مغلطات الغذاء، ولا يسمع ممن قال: إنه المذموم.

وليستكثر من لحوم الجمال والجواميس والبقر، وما أشبّه هذه اللحوم. وكذلك ما رزن من الحبوب، ووزن، فجاء أضعاف مثله في القدر المحسوب، ودأبك أن تعرف موسم كل مجتمع، ومكان يرجى فيه ملء البطن للشبع، وصرّف أعوانك لتعرف أخبار الأعراس التي يولم فيها الولائم، وبقية المواضع التي ينصرف عنها بشبعه الطاعم، وأسْمِطَة الأمراء ومآدب الوزراء، ومواضع مناصفات الفقراء والأوقاف التي تعمل لها جلسات الفقهاء والقراء. ومظان الرهان التي تؤخذ فيها الدراهم وتصرف غالبها في أنواع المطاعم ودعوات الإخوان، / ١٧ / وأهل القصف، ومن يكون على ميعاد استعدّ له، وما لا يبعد من هذا الوصف، ودور أهل اليسار وكبار العامة، والتجار. والجندي إذا جاء من الريف، وحطّ هديته عن الحمار، وأرباب الصنائع الذين منهم من أوتي رزقه. ومن لا يبلغ أجره عمله في اليوم درهمين، وينفق بعض الأيام أكثر من دينار، ومواضع النزّه، فكثيراً ما يُستخرج بها مال البخيل، والبيوت التي تُطلّب إليها المواشط والدايات فإن النفقة فيها غير قليل، وأقم لك ربيّة على كل رابية وكلّ مكان يدقّ عليه بالطبول، وتتبع من يقوم منهم لتهنئة من تجددت له نعمة أو دُفعت عنه نقمة، أو غير هذا مما يقتضيه الفضول، ثم أقصد هذه المواضع وابسط يدك كلّ البسط، وتذكر ما كتب ساسان على عصاه ولا تنس الشرط، ولفّ الأوز والدجاج والبط. واشرب بالزبادي المرق ولو أنه ماء الشطّ. وأحرق كلّ ما قدّامك، ولو كان النار والكبريت والنفط، وُضِلْ صولة الفحل وكلّ الشهد وإبر النحل، ولا تخل جنى النحل. ولا ما غرست فيه من الوحل، واهجم واسأل ولا تُسَلْ، ولا تفرق في سدّ الجوعة بين الصّبر والعسل، وإذا رايت جماعةً فاحدس أنهم اجتمعوا لطعام، أو أفراداً فاجزم أنهم تفرقوا حيلةً للالتئام، فاعمل بالحزم واقصدهم وصمّم العزم، وانضمّ إليهم، واهجم هجوم الأسد المفترس، وكُلْ كل ما بين أيديهم، وتنوّع في الشهوات واقترح

ولا تخف من غضبهم، فلا بُدَّ أنك وإياهم تصطَلح، وكل أكلةً تكفي سنين، واستكثِر بالآلاف المبين. وقل: [من الكامل]

يا أكلةً مَنْ عاشَ أَخْبَرَ أَهْلَهُ أو ماتَ يلقى الله وهو بَطِينٌ

فإن ضاقت منك عين بخيل، وإن عجلت عن الطعام قبل امتلاء الخرطيل، وبسط إليك /١٨/ أحدُ يَدُهُ ليقْتلك، أو صفعت بالخفاف ونطلك، فاحتسب مصابك، واصبر على ما أصابك، ولا تهتم بما نزل عليك، ولو نزل الماء الأسود في عينك، وورم وجهك وخلف أذنيك، ولا تنظر هذا الخطب الجليل إلا حقيراً، ولا هذا التعزير البليغ إلا على ما سمى به في الأصل توقيراً، ولا يردك هذا عن فعلك في المستقبل، واسمع من هذه الوصية، وأقبل ولا تستكثِر حمل ألف بعير، ولا تستقل حبة خردل، واجمع جنودك على هذه الطاعة، وإن كانوا ما يجمعهم مندل، وبصرهم بشرق البشرة، وعودهم أن لا يأكلوا بالخمسة والكف دون العشرة، وافتح فمك والتهم، وأوسع بطنك واضطرب في السماط واضطرم، وانتقد على البخيل وانتقم، وافعل في هذا فعل مَنْ لا يحتشم ولا يخاف أنه ينبشم، وأبرك في المائدة وارتطم، واضرب للعجلة وجهك بيديك والتطم، وحافظ على هذا واستدِم، واستمك ظهور الموائد واستنم ولو رَفَسَكَ بخفه البعير، نَزَله منزلة القرص الكبير، واهجم على الرغيف ولو أنه الرغيف^(١)، واهجم على الفريسة كالأسد. وادخل الطعام على الطعام ولو فسد. وغالب البخلاء على أموالهم، ولا تفكر في أحد، وطالب من لا لك عنده شيء ولا يضرك من جحد، واضرب الجيش بالجيش، وكل السخلة والكبش، والجدي والتيس، وكتب جموع ربيعة على مضر، ويمن على قيس، ولا يلح على مسامعك عدل عاذل، ولا يرد يدك منع بخيل ولا بذل باذل، ولا يغب عنك الماء لتسويغ العُصص، وارفاد الطعام به بالقفص، وعليك بالعزائم وإياك والرخص واحذر كل الحذر من الكسل والتواني والقيود عن المواضع التي يُطلب إليها القراء والمغاني. فإن كل هذه المظان التي تسلط فيها السكين على الضأن. فما كل وقت تصح وليمة، ولا كل حين /١٩/ يمضي عزيمة، والإنسان الشاطر، مَنْ أَكَلَ أَكَلَ البهيمة، وما كل أوان يتبوأ الأكل مضيف يحلها، ولا ينعم في جنات جفانٍ أَكَلها دائمٌ وظلها. فلا يؤخر يوم سرور ينتظر له غدا، ولا يشيل لعشاءٍ مَنَت غدا، ولا يفوت دعوة كريم يضيف يديه في داره ويقول: «وَكَلّا منها رَغدا»، ومُر أعوانك فليحمدوا الله الذي أطعمهم من أموال

(١) الرغيف: القصباء، والحلفاء (القاموس).

خَلَقَهُ، وجعل أيديهم تُعاجل يَدَ صاحب الطعام في سبقه، وأَوْصِيَهُمْ بالشكر وقل لهم: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا﴾^(١)، والله تعالى يمتعه بما وهبهُ من بطنٍ لا يشبع. ونفس أذنى من نفس أشعب الطعام وأطمع، وسبيل كل واقفٍ عليه الانتهاء إلى ما يتقدّم به من الأمر. وسلوك مسلك أصحاب أبي نعامة معه حتى يأكلوا معه الجمر، ومن خالفهُ منهم يسقط من جريدة هذا الحساب، ويوقف وراء الحجاب، وأدّب بني الطفيلية أدباً يبقى به إعجوبة، ويترك في مكانٍ يبصر الناس منه يأكلون ولا يصلُ إليهم، وكفاه هذا عقوبة. والاعتماد على الحظّ الكريم أعلاه.

وعنوان قوله في النظم^(٢): [من الكامل]

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي الْمَوْدَةِ سَاعَةً فَذَمَّمْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودَا
وَرَزَعَمْتُ أَنْ لَهَ شَرِيكاً فِي الْعُلَا وَجَحَدْتُهُ فِي فَضْلِهِ التَّوْحِيدَا
قَسَمًا لَوْ أَنِّي قَدْ حَلَفْتُ غَمُوسَهَا لَغَرِيمٍ دَيْنٍ مَا أَرَادَ مَزِيدَا
وقوله: [من الكامل]

قَلَمٌ يَفْلُ الْجَيْشَ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ وَالْبَيْضُ مَا سُلِّتْ مِنَ الْأَغْمَادِ
وَهَبَّتْ لَهُ الْأَجَامَ، حِينَ نَشَابَهَا كَرَمَ السَّيُولِ وَهَيْبَةَ الْأَسَادِ
وقوله: [من الكامل]

حَمَلُوا قُلُوبَ الْأَسَدِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ وَلَوْوَا عَمَائِمَهُمْ عَلَى الْأَقْمَارِ
وَتَقَلَّدُوا يَوْمَ الْوَعْيِ هَنْدِيَّةَ أَمْضَى إِذَا انْتَضَيْتِ مِنَ الْأَقْدَارِ
قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الدَّرُوعَ حَسَبَتَهُمْ كَسْحَابِ غَيْثٍ مُمَطَّرٍ بِنَهَارِ
إِنْ خَوْفُوكَ لَقِيَتْ كُلَّ كَرِيمَةٍ أَوْ آمَنُوكَ لَقِيَتْ دَارَ قَرَارِ
/ ٢٠ / وقوله: [من مجزوء الكامل]

وقوله وقد شكَا وَجَعَ المفاصل^(٣): [من مجزوء الكامل]

وَجَعَ الْمَفَاصِلِ وَهُوَ آ خَرٌ^(٤) مَا لَقِيَتْ مِنَ الْأَذَى
جَعَلَ الَّذِي اسْتَحْسَنَتْهُ وَالنَّاسُ^(٥) مِنْ حَظِّي كَذَا

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) بيتمة الدهر ٢٣/١ ومعجم الأدياء ١٣٤/١.

(٣) الأبيات: في معجم الأدياء ٩٧/٢ وبيتمة الدهر ٣٠٠/٢.

(٤) في المعجم والبيتمة: أيسر.

(٥) في البيتمة: واليأس.

- والعُمُرُ مثل الكأسِ يَزُ
وقوله^(١): [من مخلع البسيط]
- والنُّقْلُ مِنْ فُستقِ حديثٍ
زُمُرْدٌ صَانَهُ^(٣) حَرِيرٌ
وقوله^(٤): [من الطويل]
- وللسرِّ فيما بين جنبيِّ مَكْمَنٌ^(٥)
كأني من فرطِ احتفاظي أَضَعْتُه
وقوله: [من الوافر]
- لقد فاوضتُهُ وسَدَدْتُ أنفي
عَجِبْتُ لأمِّهِ إِذْ قَمَّطْتُهُ
وقوله^(٦): [من الطويل]
- إذا لم يكنْ بَدٌّ من الموتِ للفتى
فكنْ غرضاً بالعيش لا تغتبط به
وقوله^(٧): [من الكامل]
- حتَّى إذا داع دعاه إلى الهوى
كذِبَالَةٍ^(٨) أَخْمَدْتَهَا فكما دَنَا
وقوله^(٩): [من الكامل]
- قد كُنْتُ طَلَّقْتُ الوزارةَ عندما^(١٠)
سُبُّ في أواخره القذى
رَطْبٌ تبدَّى به الجفائفُ^(٢)
في حُقِّ عَاجٍ له غِلافٌ
خَفِيٌّ قَصِيٌّ عن مدارجِ أنفاسي
فبعضي لَهُ رَاعٍ وبعضي لَهُ نَاسِي
فما نفع احتراسي واحتياطي
لقد وَضَعْتُ خَرَاهَا في القماطِ
فأرُوْحُهُ الأُوْحَى الذي هو أَسْرَعُ
فمحْصُولُهُ خَوْفٌ، وَعُقْبَاهُ مَصْرَعُ
أَضْغَى إليه سَامِعاً ومُطِيعاً
مِنْهَا الضُّرَامُ تَعَلَّقْتُهُ سَرِيعاً
زَلَّتْ بها قَدَمٌ وسَاءَ صَنِيعُهَا

(١) البيتان من قصيدة له في يتيمة الدهر ٢/٢٦٢.

(٢) في اليتيمة:

والنُّقْلُ مِنْ فُستقِ جنبيِّ
في اليتيمة: زانه.

(٤) البيتان من مقطوعة له في رسائل الصابي والشريف الرضي ص ٨٤، وهما في المختار ص ١٥٥ وفي غرر الخصاص منسويين للشريف المرتضى.

(٥) في الأصل: ممكنٌ.

(٦) البيتان من ثلاثة في يتيمة الدهر ٢/٢٩٣.

(٧) البيتان من أربعة في: معجم الأدباء ٣/٦٩ ويتيمة الدهر ٢/٢٥٧.

(٨) الذبالة: الفتيلة.

(٩) الاييات في يتيمة الدهر ٢/٢٨٥: كتبها إلى الوزير أبي نصر سابور بن أردشير وقد أعيد إلى الوزارة.

(١٠) في اليتيمة: بعدما.

فَعَدَّتْ بِغَيْرِكَ تَسْتَحِلُّ^(١) ضُرُورَةً
فَالآنَ عَادَتْ^(٢) ثُمَّ آلتِ حِلْفَةً

/ ٢١ / وقوله في مبخرة: [من الرجز]

وَقَبَّيَّةٍ ذَاتِ حُدُودٍ أَرْبَعَةٍ
فِي دَرْعِهَا ضَيْقٌ وَفِي الطَّيْبِ سَعَةٌ
مَزْفُوفَةٌ لِفَتْيَةٍ مَجْتَمِعِهِ
صُبَّتْ عَلَيْهَا خَلْعٌ مَرْتَجِعَةٌ
وقوله: [من الخفيف]

أَقْبَلْتُ ثُمَّ قَبَلْتُ ظَهْرَ كَفِّي
فَعَضَّضْتُ يَدِي الَّتِي قَبَلْتُهَا
وقوله: [من الطويل]

فَلَا تَتَّخِذْ لِحَمِي غَدَاءَ تَسِيغُهُ
فَقَدْ يَلْسِبُ الْفَيْلَ الْمَعْظَمَ عَقْرُبٌ
وقوله: [من الكامل]

مَا زِلْتُ أَمَلُّ فَتَحَ أَمَلٌ^(٣)
لِلَّهِ مَا نَطَقَ اللَّسَانُ
وَاسْتَكْتَمَتْ أَسْيَافُنَا
فَطَعَانُنَا يَفْرِي الْكُلِّي
يَا بَرْدَ حَرِّ حُرُوبِنَا
أَبْدَأُ تُرِينَا فِي الْأَوَا
فَامدُدْ يَدِيكَ لِمَا دَنَا

وقوله^(٤): وكان شيخنا أبو الثناء^(٥) يستحسنه: [من الطويل]

(١) في اليتيمة: تستحيل.

(٢) في اليتيمة: آلت.

(٣) أمل: مدينة بطبرستان (معجم البلدان - أمل).

(٤) البيتان في: معجم الادباء ٧١/٢، وبيتمة الدهر ٢٥٩/٢ والوافي بالوفيات ٢١/٦.

(٥) أبو الثناء، محمود بن سلمان (أو سليمان) بن فهد، شهاب الدين، أبو الثناء الحلبي الدمشقي، =

أقول وقد جردتها من ثيابها وعانقت منها البدر في ليلة التّم
لقد آلمت صدري بشدة ضمها^(١) لقد جبرت قلبي وإن أوهنت عظمي

وقوله: [من مجزوء الكامل]

٢٢/ قُلْ لابن نصرٍ قولٌ مَنْ سَمِعَ الأذى مِنْهُ وشَمَّه
يا ليتَ مَنْ حَفَرَ الكنيـ ف بوسطٍ وجهك منه ضمّه

وقوله يصف الجوزاء بين الشعرين: [من البسيط]

وقد تجذلتِ الجوزاء بينهما كأنه جثةٌ مضروبةُ العُنقِ
ورامٌ أخذَ الثريا وهو يحسبُها خريطةٌ سَقَطَتْ مِلايَ مِنَ الوَرِقِ

وقوله^(٢) في الخمر: [من المنسرح]

صفراء كالتمر جامها يققُ كأنها في كفِّ مَنْ أتاك بها
شُعاعها كالذبال يأتلقُ ضحى نهارٍ في وسطه شفقُ

وقوله: [من الخفيف]

بين فكّيك يا ابن نصرٍ مضيئُ فاتق الله في الورى وتلكم
فيه بالشّم للمنايا طريقُ أي نفسٍ لبعضِ هذا تطيقُ

وقوله^(٣): [من الطويل]

إذا كنتَ قد أيقنت أنك هالكُ ومما يشينُ المرءَ ذا الحكم أنه
يرى الأمر حتماً واقعاً وهو يقلقُ

وقوله: [من البسيط]

بكى المظفرُ من أفراطِ قروته^(٤) فكلُّ مَنْ أبصرته عينُه ضحكا
كأنها إذ بدت والأيرُ راكبها زق يصيد عليها سابح سَمكا

= صاحب ديوان الانشاء بدمشق. ولد سنة ٦٤٤هـ، وتلقى العلم بدمشق وولي بها ديوان الإنشاء ثم نقل إلى مصر وبها توفي سنة ٧٢٥هـ. وكان أديباً شاعراً من الكتاب المترسلين له مصنفات نشر منها التوسل إلى صناعة الترسيل. انظر: فوات الوفيات ٨٢/٤ والوافي ٣٠١/٢٥ والبداية والنهاية ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة ٩٢/٥ والنجوم الزاهرة ٩/٢٦٤.

(١) في اليتيمة: لئن آلمت.. لشدة.

(٢) اليتيمة ٢/٢٦١.

(٣) البيتان في: معجم الادباء ٨٤/٢ وبيتمة الدهر ٢/٢٨٥ والوافي بالوفيات ٦/١٦٠.

(٤) في الأصل: قروته.

وقوله^(١): [من الخفيف]

بقبيح^(٢) يقولُهُ لِجوابي
لَسْتُ أُسْخُو بِهَا لِكُلِّ الْكِلَابِ

وقوله: [من الخفيف]

أعجزتُ كلَّ ناظرٍ يشتهيها
فيشَّةٌ منه ربَّما تدرّيها
فإذا أوحشتُ تراجعَ فيها

أيها النابح الذي يتصدّى
لا تؤمّل أني أقولُ لك: أخصأ

عظمتُ قروةً المظفر حتى
/٢٣/ غيّبتُ أيره فلم يبق إلا
كالسّلحفاة حين تُطلُع رأساً

وقوله: [من الوافر]

ببطنِ القاع ينعاني نُعاتي
فكيف تجيزُ هجري في حياتي

أبا الخطاب لو أني رهينٌ
لألزمتُك الوفاءَ وصالَ رَمسي

وقوله^(٣): [من مجزوء الكامل]

للغُرِّ مَنْ سَرَوَاتِهِ
قَوَّضتْ مَنْ شُرْفَاتِهِ
لكتّته بنبّاتِهِ
ت أجاحهُ بفراتِهِ
بالصفرِ مَنْ دَرَجَاتِهِ
وسفالهُ مِنْ ذاتِهِ

قل للشريف المُنتمي
شاد الأولى لك منصباً
والعودُ ليس بأصله
والماء يفسدُ إن خلطُ
وأحقُّ مَنْ نكسّتهُ
مَنْ مَجْدُهُ مِنْ غيرِهِ

وقوله في إمام آخر: [من المنسرح]

يطولُ في إثرها قنوتُهُ
رَبِّ فَمِ أجْرُهُ سُكُوتُهُ

يا مَنْ يُصَلّي صلاةَ شكِّ
إن كنتَ تبغي الثوابَ فاسكُتْ

وقوله^(٤): [من مخلع البسيط]

بالسيف في جُملة الأضاحي
تصلحُ للذّبْحِ والنكاحِ

وانحرُ أعادي بني بُويهِ
فالكلُّ منهم ذوو قرونِ

(١) يتيمة الدهر ٢٨٤/٢ ومعجم الأدباء ١٥٤/١ والوافي ١٦٢/٦ ومعاهد التنصيص ٧٦/٢.

(٢) في الوافي: لقبيح.

(٣) من مقطوعة في يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢.

(٤) من قصيدة كتبها إلى صمصام الدولة البويهية يهته بالأضحى، في يتيمة الدهر ٢٨٠/٢.

وقوله في مدخنة^(١): [من الطويل]

ومحرورة الأحشاء تحسب أنها
يحرق فيها العود عوداً وبدأة

وقوله: [من الكامل]

قبّلتُ منه فمأ مجاجثه
/٢٤/ كأن مجرى سواكه برّد

وقوله: [من الطويل]

وقالوا اتخذ أخرى سواها لعلها
فقلّت لهم بعداً وسحقاً لرأيكم

وقوله في وردة: [من البسيط]

حمراء مصفرة الأحشاء ناعته
كأن في وسطها تبراً يخلطه

وقوله: [من الطويل]

وهبتُ له عمر الشبيبة ضحبة
فلما ألمت للزمان مليمّة
فصمّ ولم يسمع نداءً ولم يجب
ورقتُ ضروف الدهر لي من صنيعة

وقوله: [من الكامل]

مازلتُ في سُكْرِي ألمع كفها
حتى تركت أديمها [وكأئما]

وقوله: [من السريع]

ومن طوى الخمسين من عمره
وإن تخطاها رأى بعدها

وقوله^(٢): [من البسيط]

مُتِيمة تشكو من الحُبّ تبريحا
فتأخذهُ جسماً وتبعثه رُوحاً

تجمعُ معنى المُدام والشهدِ
وريقه ذوبٌ ذلك البُرد

تُنسبُك ذكراها التي تتردّد
أقلعُ عيني حين تذرّو وترمدُ

طيباً تخال به في الطيب عطارا
قَيْنُ يضرُّم من أوراقها ناراً

وأكرمُ بذِي جودٍ إذا وهبَ العمرا
فزغتُ إليه والتمستُ به النصرا
دُعاءً كأنّي فيه مستنطق صُخرا
فأصبحتُ أشكوه واستصرخ الدهرا

وذراعها بالقرص والآثارِ
غُرسَ البنفسجُ منه في الجمارِ

لاقى أموراً فيه مُستنكرة
من حادّاتِ النقص ما لم يره

(١) معاهد التنصيص ٦٨/٢.

(٢) البيتان في: بيتمة الدهر ٢٥٩/٢ ومعجم الادباء ٧٢/٢ ومعاهد التنصيص ٦٧/٢.

إِنْ نَحْنُ قَسْنَاكَ بِالْغَصْنِ الرَّطِيبِ فَقَدْ
لَأَنْ أَحْسَنَ مَا نَلْقَاهُ مَكْتَسِبِيَاً
وقوله: [من مجزوء الكامل]

يَا مَنْ بَدَتْ عَرِيَانَةً
/ ٢٥ / كَانَتْ ثِيَابُكَ عَوْرَةً
وقوله: [من الطويل]

خِضَابٌ تَقَاسَمْنَاهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فِيَا قَبْحَهُ إِذْ حَلَّ مَنِي مَفْرَقِي
ولكنَّ شَأْنِي فِيهِ خَالَفَ شَأْنَهَا
وَيَا حَسَنَهُ إِذْ حَلَّ مِنْهَا بِنَانَهَا
وقوله في إسطرلاب أهداه^(٢): [من البسيط]

أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الْأَجَالِ وَاخْتَلَفُوا
لَكِنَّ عَبْدَكَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ رَأَى
لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ مُهْدَاةً إِلَيْكَ فَقَدْ
وقوله: [من الخفيف]

يَشْتَهِي النَّذْلُ أَنْ يَكُونَ كَرِيمَاً
فَهُوَ مِثْلُ الْعَيْنِ يَشْتَهِي النِّيْ
وقوله^(٥): [من الكامل]

وَمِنْ الْعَجَائِبِ انِّي هِنَّا تُهُ
وقوله^(٦): [من الكامل]

يَا ذَا الَّذِي جَعَلَ الْقَطِيعَةَ دَابَّةً
إِنْ كَانَ وَذَلِكَ فِي الطَّوِيَّةِ كَامِنَاً
وقوله: [من الخفيف]

صَدَّ عَنِّي مُسْتَعْذِبَاً لِعَذَابِي
وجفاني كعادة الأحاب

(١) كذا في الأصل، وفي البيضة: خفنا عليك إذا ظلماً وعدواناً.

(٢) الأبيات في معجم الأدباء ٢/٣٤.

(٣) في المعجم: بنو الحاجات.. مهرجانٍ عظيم.

(٤) في الأصل: عن شيء والتصويب عن المعجم.

(٥) بيضة الدهر ٢/٢٨٣.

(٦) البيتان لجعفر بن ورقاء الشيباني في بيضة الدهر ١/٩٧ قالهما لأبي إسحاق الصابي.

كَلَّ يَوْمَ يَرُوعُ قَلْبِي بَفَنٍّ من تَجَنِّيهِ لم يكن في حسابي
 وقوله: [من الطويل]
 لَمَّا صِرْتُ جِلْسَ الْبَيْتِ خَلَفَ جِدَارِهِ فبالأمس مني تستعيذُ النَّجَائِبُ
 كَذَاكَ أَبُو الْأَشْبَالِ يَرْبُضُ مَرَصِدًا ولا بدَّ من أن يغتدي وهو آيِبُ
 وقوله^(١): [من الطويل]
 تَوَرَّدَ دَمْعِي فَاسْتَوَى وَمُدَامَتِي فَمِنْ مِثْلِ مَا فِي الْكَأْسِ عَيْنِي تَسْكُبُ
 فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَبَالَخْمَرِ أُسْبَلْتُ جَفُونِي أَمْ مِنْ دَمْعَتِي كُنْتُ أَشْرَبُ
 وقوله: [من السريع]
 سَأَلْتُ عَنْهُ مَجْلِسًا قَامَهُ قَدْ كَانَ مَأْكُولًا لَهُ مُعْجِبًا
 فَقَالَ: مَا قَوْلِكَ فِي مَدْخَلٍ وَجَدْتُ مِنْهُ مَخْرَجِي أَطِيبًا
 وأما:

[٢]

محمد بن أبي محمد بن الفياض^(٢)

كاتب^(٣) سيف الدولة، فكان يكتب في ماله، بل كان الممّول له، والمخوّل في كل ما ملك. وكان يعجن مداده بالمسك. ولا يليق دواته إلا بماء الورد، وكان شعله لا تطفأ، وبارقة لا تخفى، بذهن متّقد، وفكر منتقد، إلا أن مادته مقصورة، وجادته محصورة، وبدائعه كثيرة، على قلتها يسيرة، إذا قيسَتْ إليها النجوم بجملتها أرضى سيف الدولة بن حمدان، وامضى عزائم رأيه وقد نَعَسَ الفرقدان. فتقدّم أمام الكتاب، ولواؤه منصور، وعدوّه بيانه كالليل بالكوكب الدرّي منحور.
 وَلَهُ نَثْرٌ مِنْهُ قَوْلُهُ:

وقد علم الدُّمستقُ مواقعَ سيوفنا منه وأيامنا الماضية معه، وأنه ما تحاملَ إلينا إلا على ضلع، ولا أقبل حتى رَجَعَ، وها نحن ننشده أما القطيعة وأما الوقيعَة والسلام.
 ومنه قولُهُ:

(١) بيتمة الدهر ٢/٢٥٦.

(٢) كذا ورد اسمه في الأصل، ولعله أبو محمد عبد الله بن عمر بن محمد الفياض.

وترجمته في: بيتمة الدهر ١/١٠١.

(٣) في الأصل: كان.

وأنتم أحوج إلى طلبِ الفداء لأسراكم منا إليه، وأجدر إلى استهتت رماح
الجبليين عليه؛ لأنكم تربعون به تكثراً من قلة، وتعزّزاً من ذلّة، ولسنا كذلك، إنا لا
نأسف على من نقص من عدد. ولا نبالي بمن أمسك من مدد. ثقةً بما عود الله من
النصر، وأتى من الأجر بالصبر.

ومنه قوله:

ورَدْنَا والأرض كأذنب الطواويس، والطيّر زجله كأصوات النواقيس، وقد اهترّ
الشجر، وكلّل النبات المطر. والطرف قد رتع كالطرف في تلك الميادين. والنسيم قد
ضمّخ من شذا تلك البساتين، فلم تكن لنا أمنية إلا أن نراك. ونثري بلقياك سقي ثراك.
ومنه قوله:

وقد أجلتنا يومين / ٢٧ / وهذا ثالث، وأعطيتني عهدين وكنت الناكث، فهل
أبتدعت ما أتيت؟ أو كان لك عليه باعث. فيا قسيم روحي ويا نسيم صبحي. ها قد
آن العَبُوقُ إلا أنه بقرقف مرشفيك، وكأس عينيك، ووالله لا شربت إلا على آس
عذارك وورد خديك، فابرق قسيمي. وردّ الجواب من فمك إلى فمي.

وسياتي ذكر أبيه في الشعراء، وبه كانت لابنه هذه المكانة من سيف الدولة
وكلاهما أعني هذا وأباه ذو تيه وصلّف، وكلاهما من صاحبه خَلْف.

وأما:

[٣]

الحريري، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، صاحب المقامات^(١)
فإنه فيما سواها ما قاربها ولا داناها، حتى عجز عند الامتحان عن كتابة كتاب
أمر به على ما وشّع من تلك المقامات ووسع من تلك المقالات. وبرع في ذلك
المذهب، وعرف له من الحريري المذهب. هذا: والدهر من روايته، والناس سواء في
عدم مساواته، وهو مادة أهل الأدب والذي ينسلون إليه من كل حدب. إلا أنه لم يقدر
أن يكون مكلفاً، ولا استطاع أن يكون لغير أمالي خاطره متلقفاً. وهذا مذهب غير

(١) أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات، الأديب
الشاعر، صاحب التصانيف منها: (درة الغواص في أوام الخواص) و(ملحة الأعراب). ولد سنة
٤٤٦هـ، وتوفي سنة ٥١٦هـ بالبصرة. انظر: وفيات الأعيان ٤/٦٣ وإنباه الرواة ٣/٢٣ ومعجم الأدباء
١٦/٢٦١ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٥ والشذرات ٤/٥٠٠ وخزانة الأدب ٣/١١٧ ومعاهد التنصيص
٣/٢٧٢ وسير أعلام النبلاء ١٩/٤٦٠ والبداية والنهاية ١٢/١٩١ والوفائي بالوفيات ٢٤/١٣١.

مذهب كتاب الانشاء المكلفين اتباع غرض غيرهم، حتى يقسروا خواطرهم على ذلك. على أن الرجل فضله عظيم ومثاله الدهر به عقيم، وقدره جليل. ونظيره قليل، منبَع الفضائل ونبعتها. وصيَّت الفواضل وسمعتها، توقته الأعداء سماماً، وألقته الأولياء سهاماً، وكان معدن نائل. وموطن كلِّ طائل. باري غرب يريش ويبري. ويجيش قليب خاطره ويجري.

أبرز ما لم يستطعه الأوائل، وأحرز قصبات السبق على كل قائل، وكان سبب وضعه لمقاماته ماحكاه ولده أبو القاسم عبد الله، قال^(١):

كان أبي جالساً في مسجده ببني حرام^(٢) فدخل عليه شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح الكلام، حسن العبارة، فسألته الجماعة: من أين الشيخ؟ فقال: من سُروج، فاستخبروه عن كنيته، فقال: أبو زيد. فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية، وهي الثامنة والأربعون. وعزاها إلى أبي زيد المذكور. واشتهرت فبلغ خبرها ٢٨/ الوزير شرف الدين [أبا]^(٣) نصر أنو شروان بن خالد القاشاني وزير المسترشد، فلما وقف عليها أعجبتُه وأشار [على والدي]^(٤) أن يضم إليها غيرها. فأتمها خمسين مقامة. وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في الخطبة: فأشار من إشارته حُكْم، وطاعته غُنم، الي أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع.

قال ابن خلكان^(٥): ورأيت في سنة ست وسبعين وست مئة بالقاهرة نسخة مقامات بخط الحريري. وقد كتب أيضاً بخطه على ظهرها أنه صنعها للوزير جلال الدين^(٦) عميد الدولة ابن صدقة وزير المسترشد أيضاً. قال ابن خلكان: ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنّف. والله أعلم.

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام، فإنما عنى نفسه، وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «كلكم حارث وكلكم همام» فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام. وما

(١) الخبر نقلًا عن وفيات الأعيان ٦٣/٤.

(٢) حرام التي نسب إليها الحريري، اسم سكة من سكك البصرة (وفيات الأعيان ٦٧/٤).

(٣) في الأصل: أبو. وهو أبو نصر شرف الدين أنوشروان، كان نبيلاً فاضلاً مصنفاً، توفي سنة ٥٣٢هـ. انظر: وفيات الأعيان ٦٧/٤ والمتنظم ٧٧/١٠ والبداية والنهاية ١٩٢/١٢ والشذرات ١٠١/٤.

(٤) في الأصل: إليها، والتصويب عن الوفيات.

(٥) وفيات الأعيان ٦٤/٤.

(٦) أبو علي الحسن بن علي بن صدقة، استوزره المسترشد سنة ٥١٣هـ ثم عزله، ثم أعاده وخلع عليه توفي سنة ٥٢٢هـ. انظر الفخري في الأحكام السلطانية ص ٢٢٣.

من شخص إلا وهو حارث وهمام؛ لأن كل أحد كاسب ومهتم بأمره. وكان الحريري قد عمل من المقامات أربعين مقامة، وحملها إلى بغداد وادعاها، فقال جماعة من أدباء بغداد: ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي مات بالبصرة، ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته فقال: أنا رجلٌ منشىء. فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عينها، فانفرد في ناحية من الديوان. وأخذ الدواة والورقة، وسكت زماناً فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان، وكان من جملة من أنكر دعواه أبو القاسم علي بن أفلح^(١) فأشدد^(٢):

[من المنسرح]

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رِبِيعَةِ الْفَرَسِ يَنْتَفِ عَشْنُونُهُ مِنَ الْهَوَسِ
أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ كَمَا رَمَاهُ وَسَطَ الدِّيَوَانِ بِالْحَرَسِ

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس، وكان مولعاً بنتف لحيته عن الفكر. وكان يسكن في مشان البصرة. فلما رجع إلى البصرة عمل عشر مقامات أخر وسيرهنّ واعتذر من عيه وحصره بالديوان مما لحقه من المهابة^(٣).

وللحريري عدّة تصانيف طريفة لطيفة «كدرة العواص» و«ملحة الأعراب» ويقال: إنه عملها لجواري الخليفة / ٢٩ / لكي يحفظنها ويقمن الستهنّ بها.

قلت: وهي [على] ما حوت من العلم سهلة المأخذ، كأنما شعرها غزل. ولو لم يكن منه إلا قوله: [من الرجز]

وَلَنْ يَطِيبَ الْوَصْلُ حَتَّى تَسْعِدِي يَا هِنْدُ بِالْوَصْلِ الَّذِي يَرُوي الصَّدي
وله نظم ونثر في غير المقامات، ومنها قوله نثراً:

ولما استخدم الخادم فيما أهّل له آنفاً، اعتمد في الخدمة ما يتهبّب قلمه الافصاح عنه، ويعرف بأن سعادة الديوان العزيز هي التي سنّت ما تسنّى منه. وتقدم له الوعد بانه عند تصفح مساعيه يمنح من المساعفة بما يرتجيه، ولم يقدم قلمه على التذكير بالوعد الشريف إلا بعد ما أنطقه لسانُ التوفيق للخدمة، وكفل له بمزيد الحظوة من النعمة، فإن اقتضت الآراء العلية إنجاز مواعده، كان ذلك إنعاماً يقع عند معترف

(١) جمال الملك، أبو القاسم علي بن أفلح العبسي، شاعر ظريف من الهجائين. توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٩.

(٢) نسب ابن خلكان البيهقي إلى أبي محمد الحسن بن أحمد المعروف بابن جكين الحريمي البغدادي.

(٣) إلى هنا انتهى النقل عن وفيات الأعيان.

بوقعه، مستنفد في الطاعة غاية وسعِهِ.

ومنه قوله:

لولا خبرتي بفضلله السائر، وانعامه المستجد الغابر، لاستريت فيما يُحكي
وامتريت فيما يروى. ولكن ما خلا عصر من جواد، ولكل قوم هاد، فإنه أبقاه الله،
وإن تصرفت الأحوال. وتشعبت الأقوال. كالغمام لا يقطع سُقياه، ولا يستطيع أحد
يردّ حياه، وللرأي الشريف مزيد علوّه في الانعام. بتأول ما أوضحته. والتطوّل بما
اقترحته.

ومنه قوله^(١):

رزةٌ تساهم فيه الأنام، وأظلمت ليومه الأيام، واستغرب عنده الحمام وعزي فيه
الدهر بكامل أبنائه، وندب فيه شقيق السحاب، فاستعبر بدموع أنوائِهِ.

ومنه قوله:

وصل من المجلس أكمل الله سعوده، وأكمد حسوده، كتابٌ اتسم بالمكرمة
الغراء، وابتسم عن النعمة العذراء، ووجدت بما ألحف من الجميل وأثحف من
التجميل. ما كانت أطماعي تهفو إليه. وآمالي تحوم حواليه، إذ ما زلت مذ استملت
وصف المناقب الشريفة، أبعث قلبي على أن يفتح. وأن يكون الرائد لي والماتح.
وهو ينكص نكوص / ٣٠ / الهيوبة، وينكل نكول الكهام عن الضريبة، إلى أن بدت
وهديت. ورأيتُ كيف يُحيى الله ويُميت، فلم يبق بعد أن انشط العقال، واستدعي
المقال، إلا أن أنقل التمر إلى هجر، والهشيم إلى الشجر، فأصدرتها متشحةً
بالخجل، مرتعشةً من الوجل، وأنا معترفٌ بالتقصير، معترضٌ باللسان القصير، «ولكلّ
امرى ما نوى»^(٢)، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٣).

ومنه قوله:

ولعلّ الأيام تسمح بمتعة الملاقاة، فأجعلها غرة الأوقات. وأعظمها كتعظيم
حُرمة الميقات، وهو إذا أتحنفني بسطرين في كل شهرين يكون قد أمطاني رتبةً تضاهي
النسرين. وأولى نعمةً تبقى على العصرين.

ومنه قوله يهنئ به شهر رمضان: [من الخفيف]

(١) له من تعزية بموت المستظهر وتهنئة بخلافة المسترشد في الخريدة (قسم العراق) ج ٤ ق ٢ ص ٦٣٠.
(٢) من حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى «البخاري ٢/١».
(٣) سورة البقرة: ٢٣٧.

أنتَ في الناس مثل ذا الشهر في الأشهر، بل مثل ليلة القدر فيه
 أسعدَ الله المجلس بمقدم هذا الشهر ومطلع هلاله المنيف، وهذا دعاءً لو سكتُ
 كفيته. وسوّلُ والله الحمد أوتيته.
 ومنه قوله:

إذا كانت المودات حرسَ الله عزّ سيدنا أنفَسَ المرام المخطوب، وأنفَع ما اقتنى
 لدفع الخطوب، فلا لوم على مَنْ استسعى قَدَمه لخطبتها، واستعلق قلمه لطلبها،
 لاسيما إذا كانت تعجب المتأمل، وتسعف المؤمل، هذا وأنا مع المغالاة في
 الموالات، وعلى هذه الصفات من المضافاة، اعترف بوجوب معاتبتي لقصور
 مكاتبتي، واعتذر من عظيم هفوتي لتماذي جفوتي، ولولا أن لمفاتحة حضرته ووقفهُ
 المتهيب. وخجَلَةُ القَطْر من الصيب، لما استهدف قلمي لمرام الملام، ولا استتكف
 أن يكون سَكِيْتاً في حَلْبَةِ الأَقلام، وها هو الآن قد أقدم إقدام الوَاقح. وتعرّض
 للافتضاح، فإن رزق بالقبول تحسينا، أو بمصافحة يديه تزييناً، فقد فاز فوزاً عظيماً،
 وحلّ محلاً كريماً، وأنى له ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾^(١)، فما قيل إلا بما هو له أهل.
 [من الكامل]

ولربما استيأستُ ثم أقول لا إن الذي استشفَعْتُ منه كريمُ
 / ٣١ / ومنه قوله:

ولم يزل الخادم يستملي من أنباء الكرام الطاهرة، والفضائل المتظاهرة، ما يوُدُّ
 لو سعد برؤيته، وقرب إسعاده في روايته، ويوقن معه أن الله أعلم حيث يجعل
 رسالاته، ويخصّ بكراماته، وقد أقدمَ الآن بعد أحجامه في استخدام أعلامه، فإن
 رزق من الايجاب الشريف ما يحقق التأميل، فهو المظنون في كرمه البديع، وطوله
 الواسع، والآن فللخادم حرمة من أحرَم وقصّر وظَلَبَ النصر فلم ينصر، والله تعالى
 لا يخلي المجلس من تفاديه واسترقاق الأحرار بأياديه.
 ومنه قوله:

سطرّها الخادم وهو متمسك بالولاء الذي يُتمسك بحبله، والدعاء الذي هو جهد
 مثله، والثناء على صنائعه التي طالما أبكى بها، وأضحك الآمال، وقصده أن يتعمد
 بعواطفه التي تحقق الأمل، ومجاراته على حسب النيّة لا العمل.

ومنه قوله:

أصدرتُ هذه الخدمة، واليد تنكل عن مطاوعة القلم لهذه النازلة التي أصمّ نعيها
السامع وهونَ وَقَعُها الفجائع: [من الطويل]

فلا قلب إلا قد تباين صدعُهُ ولا عين إلا وهي تذرِفُ بالدم
ومنه قوله:

وهنا بالنجاح كلُّ مَنْ عَشَى إلى ضوءِ نارِهِ، وانتجع صوب أمطارِهِ، وسمع أخبار
كرمِهِ، فاهتدى إلى قصد الكريم بأخباره.
ومنه قوله:

وَحَبَسَ عليه المدائح التي حازها بالاستحقاق، واستخلصها بكلمة الاتفاق.
ومنه قوله:

وما زال متصلاً من الكمال، بما لا يقبل معه مزيداً، ولا يستطيع خلق لملايسِهِ
تجديداً، خلقاً دان الخلق لمعجزاته، وقصرت الأفعال عن تحقيق صفاته، والله أعلم
حيث يجعل رسالاته.
ومنه قوله:

واشتاق إلى تلك الالفاظ المعسولة، والمعاني المشمولة، التي تميل / ٣٢ /
بأعطافها نشوة الفصاحة، وتَفَتَّرُ عن محاسنِهِ شفاهُ الرجاحة، فلا جَرَمَ، أنها قد
شَغَلتني أن أنطق بمشور مُلقح أو منظوم مُنقح.
ومنه قوله:

وكتب الخادم هذه الخدمة أواخر شعبان عَظَمَ اللهُ لدى مولانا ميامن نقضِيهِ،
وبركات ما يليهِ، جَعَلَ الأيامَ كُلَّها مواسم مساره وصحائف مباره ومعالم مآثرِهِ
الحسان وآثاره.
ومنه قوله^(١):

مِنْ شِيَمِ السادات حفظ العادات، فما بال سيّدنا أَعْلَقَ باب الوصال بعد فتحِهِ،
وأصلد زند الإيناس بعد^(٢) قَدَجِهِ، وأوردني أولاً شريعة برّهِ، ثم أجلاني^(٣) عن

(١) خريدة القصر ج ٤ ق ٢ ص ٦٥٢.

(٢) في الخريدة: عقبب.

(٣) في الخريدة: حلأني، وحلأه عن الشيء: حال بينه وبينه.

شاطيء بحره، إن كان [ذلك عن ملل] ^(١) فأنا أنزهه منه، أو لزلل ^(٢) فاستغفر الله منه، ولعل سيدنا يعود إلى عطفه الكريم، ويروح قلبي بمؤانساته الأرجة النسيم. وإذا تكرم عند عرض ما كتبه بما تحسن به الجلوة، وتجلب به الحظوة، شكرت العارفة الحلوة. ومنه قوله ^(٣):

جعل الله الدولة القاهرة مونة النضارة، مشرقة الانارة، ممنوحة الاطالة، ممدوحة الإيالة، ولا أخلاها من مآثرة تروى عنها وتؤثر، ومنقبة تُذكر على تعاقب الأزمنة وتُشكر، ولا زالت مُطررة الأزمنة، حالية بالمناقب البيّنة، مثلوة الأوصاف بجميع الألسنة، مبنوثة المدائح بكل الأمكنة، وأسبغ على أطراف البلاد من عواطفها ما أضحك مباسم الظنون، وحل كالغيث الهتون، ولا برحت أيامها ممتدة المدّة، مُحففة بالتهاني المستجدة. وأورف ظلّها على الخلق. وأعلى كلمتها القائمة بنصر الحق. ما [دارت] ^(٤) الشُّهب، ودرت السُّحب وشهرت القُضب، ونُشرت الكتب. واستهلت الأهله، واستهلت الأنواء المنهله. ومنه قوله:

وصل إلى العبد ما أهل له من مدارع التشريف الذي أحيا رمته، وجلا غمته، واتخذة فخراً لأعقابه، وذخراً لمآبه، وهو يرجو أن يقابل مواقع النعمة بما يجب من الشكر بلسان الخدمة، وسيضح من مساعي الخادم ونصائحه تأثير شكر جوارحه.

ومنه قوله: [من الطويل]

/ ٣٣ / ولو أن أنفاسي أصبن بحرّها [حديداً] ^(٥) إذا كاد الحديدُ يذوبُ
ولو أن عيني أطلقت من بكائها لما كان في عام الجدوبِ جدوب
بي ^(٦) من الاشتياق إلى الخدمة ما يصدع الأطواد، فكيف الفؤاد؟ ويوهي ^(٧)
بالجبال فكيف البال؟ ولولا التعلل بترجي الالتقاء لقل عنه لك يا مولانا البقاء. إلا
أنه يستدفع الحزن بسوف، ويزجر الأسي بعسى، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ^(٨).

(١) في الأصل كلمة غير مفهومة: والتصويب عن الخريدة.

(٢) في الخريدة: أو لعثور على زلل.

(٣) بعضه في الخريدة (قسم العراق) ج ٤ ق ٢ ص ٦٣٥.

(٤) زيادة يقضيتها السياق. (٥) زيادة يقضيتها السياق.

(٦) خريدة القصر (قسم العراق) ج ٤ ق ٢ ص ٦٤٠ وفيه: وعنده من تباريح الاشتياق.

(٧) في الأصل: تهوي، والتصويب عن الخريدة.

(٨) سورة الشورى: ٢٩.

ومنه قوله^(١):

المراتبُ تتفاضل مراقيها بتفاضل راقيها، وتتفاوت معاليها بتفاوت^(٢) مَنْ يليها. ولولا ما يعلمه سيدي من وظائف الخادم في التوفير على الدعاء لما سبقه إلى الخدمة قدم ولا ترجم تهنته قلم. فمتَّعه الله بما وهبهُ من المعالي، وأحلَّهُ من مقاماتها في المكان العالي. وبارك له في وصل عقيلتها التي تغتبطُ بوصله، وتقول^(٣): الحمد لله ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤)، وهو أعزُّه الله يجعلُ قدره إن يُهنأً برتبةٍ وإن عَلَّتْ، وترخص عنده قيمة كل حظوةٍ وإن عَلَّتْ، فليهن الأنام ما تجدد له من المرتبة المنيعة الذرى. والمهابة التي خَصَّعتْ [لها]^(٥) أعناقُ الورى. والله لا يُخلِّيه من زيادةٍ يستمدّها وتهنته يستجدّها.

ومنه قوله:

وشكري لما أولى مِنْ مكارمِهِ، يوفي على شكر الروض الذابل لصنيع الوايل، بل شكر مَنْ أُطلق من أسرِهِ. وجِبِرَ بعدَ كسرِهِ، ولو نهض بالعبد القدمان، أو أسعدَهُ الزمان، تقصد الباب العالي ولو على الأجنان، وقام في زمرة المداح يتلو صحف الشكر باللسان. ولما قصرت به الخُطوةُ عن هذه الحظوة. أقدمَ على أن يهدي الورق إلى الشجر، ويبيض من مدائحهِ شِعراً كبياضِ الشَّعر، هذا على أن ذنب المعترف مغفور. وإن أخطأ معذور.

ومنه قوله:

طالما شجَّع الخادم قَلَمُهُ على إيضاح ولائِهِ، فنكص إلى ورائِهِ، وأحجم للتهيب عن إنهائِهِ. وقد أقدمَ الآن على أن أبان. فإن أسعدَ بجواب يُبهج بتأمليهِ، فقد حصل على مؤملِهِ، وإن رجع بصفقة الخائب، / ٣٤ / وطرده طرد الغرائب: [من الكامل]
فلربما منَعَ الكريم وما به بُخل ولكن سوء حظ الطالب
ولعلَّهُ يرفع الطرف ويشرف في الجواب ولو بحرف. وعليه سلام الله ماخطت أقدام، وخطت أقدام.

(١) خريدة القصر (قسم العراق) ج ٤ ق ٢ ص ٦٥٨.

(٢) في الخريدة: لتفاوت.

(٣) في الخريدة: فهذه التي تغتبط بوصله وتقول:

(٤) في سورة فاطر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٣٦) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ^(٣٧).

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

ومن شعره^(١): [من البسيط]

قال العواذِلُ ما هذا الغرامُ بهِ أما ترى الشَّعْرَ في خدَّيه قد نَبَتَا؟
فقلتُ: والله لو أنّ المفنِّدَ لي تأمل السحر^(٢) في عينيه ما ثبِتا
ومن أقامَ على أرضٍ وهي مُجدِبَةٌ فكيفَ يرحلُ عنها والربيعُ أتى
وقال وقد أتاه رَجُلٌ لسمعته. فلما رآه استزراه^(٣): [من البسيط]

ما أنتَ أوَّلُ سارٍ غرَّةً قَمَرٌ ورائدٍ أعجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدَّمَنِ
فاخترُ لنفسكَ غيري إنني رَجُلٌ مثل المعيدي فاسمع بي ولا تَرَنِي^(٤)
وأوردَ له عماد الدين الكاتب في الخريدة^(٥): [من مجزوء الخفيف]

كم ظبَاءٍ بحاجرٍ فَتَنَّتْ بِالْمَحاجرِ
ونفوسٍ نفائسٍ جُذِرَتْ^(٦) لِلجَاذِرِ
ورنينٍ لخاطري هاجَ وَجُدًا بخاطري
وعذارٍ لأجْلِهِ عاذلي عاد^(٧) عاذري
وشجونٍ تظافرتَ عند كشف الظفائر

فهذا مقدار كاف في القسم الأول من مشاهير الكتاب الذين عظم صيتهم، ولا غوص لهم فأما هذا الرجل أعني أبا محمد الحريري، فإنه على ما رأيت، انموذج كلامه هنا قليل الغوص خلاف مقاماته، فإنه فيها كمن طلب الروض فجنى زهرها، وصعد السماء فاقتطف زهرها، وإنما تركتُ اختيار شيء له منها لشهرتها؛ ولأنها صارت كتاباً بذاته لا تعدد في سلك ترسلاته، وبينهما في حسن الكون ما رأيت من

(١) الأبيات في وفيات الأعيان ٦٦/٤ ومعاهد التنصيص ٢٧٥/٣.

(٢) في الوفيات والمعاهد: الرشد.

(٣) الأبيات في وفيات الأعيان ٦٦/٤ ومعاهد التنصيص ٢٧٥/٣.

(٤) إشارة إلى المثل: (تسمع بالمعيدي لا أن تراه) أو (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) والمعيدي منسوب إلى معد بن عدنان. أول من تكلم به المنذر بن ماء السماء، قاله لشقة بن ضمرة التميمي، وكان قد سمع يذكره، فلما رآه اقتحمته عينه، فقال هذا المثل، وسار عنه، فقال شقة: أبيت اللعن، إن الرجال ليسوا بجُرُزٍ يراد منها الأجسام، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فاعجب المنذر ما رأى من عقله ولسانه، وهذا المثل يضرب لمن له ذكرٌ وصيت ولا منظر له. (انظر الوفيات ٦٨/٤).

(٥) خريدة القصر ج ٤ ق ٢٦٤. أوردها أيضاً ابن خلكان نقلاً عن الخريدة، وواضح أن المؤلف هنا ينقل عن الوفيات.

(٦) في الأصل: حدث. والتصويب عن الخريدة.

(٧) في الخريدة: صار.

هذا البون، على ما أُورِدَتْ له من هذه الرسائل هي الفرائد التي لا تقوّم. والفوائد التي تعني من يتعلم متماثلةً في توفية الأعراض مغازلةً كالجفون المراض، سهلةً على فهم المتناول قريبة^(١) لا تنالها يد المتناول.

* * *

(١) في الأصل: قرمة، ولعل الصواب ما أثبت.

[القسم الثاني]

وأما القسم الثاني من أصحاب الغوص، فسندكرهم على أن حكم أكثر الكتاب القدماء / ٣٥ / حكم العرب. كلاهما له فضيلة سبق، وفتح الطريق، وحكم المتأخرين منهم حكم المولدين من الشعراء في توليد المعاني باللطائف، وقد وشّحوا صناعتهم بالاستعارات الصحيحة والتشبيه والاستخدام والتورية وأنواع البديع. وتناهوا في التدقيق والتنميق، وتباهوا في التخيل والتخيير، وقيدوها بالاسجاع. ولزموها كالقوافي، فلم يعوزها من الشعر إلا الوزن، فأحملوا الأوائل، وأحمدوا كلّ قائل، وأتموا الفن وكمّلوه، وزينوا الفضل وجملّوه، وهذا مكان للمغرب فيه مع المشرق مجال، وميدان له في فرسانه رجال. وهو في هذا غير ممنوع ولا مدفوع، لكنّه فيما تقدّم المائة الرابعة لا يذكر له في هذه الفينة فئة ولا تظهر له هيئة، ثم ما عدم في هذا الشأن ما أوهرنّ زجاج حاسده، واشرق بغصص الدمع شأن معانيدّه. ولا نقول هذا على أن للغرب بهذا المزية على الشرق، ولا انه سلم إليه في هذا الحقّ، وإنما نحن بصدد إنصاف وما نبعث في ما بين الغرب والشرق في هذه الفضيلة، ولا نجحد ان له بمن نعدّه هنا وسيلة، وإلا فالمشرق من كتابه المتأخرين من اقتطف الزهر والزهر، وجرّ رده على المجرّة والنهر، وأتى بما هو أضوع من العبير، وأضوء من جبهة القمر المنير، وردوا عُدر البلاغة فشرّبوا زرق نطافها. وساموا رياض البراعة وشرعوا في قطافها، فولّدوا المعاني واخترعوها وابتدؤا حسن الطرق وابتدعوها، وفتنّ الألباب كلامهم الدر، ولفظهم الرقيق الحرّ، وأدعى قول نقولّه للحق: إن من لدن المائة الرابعة وهلمّ جرّاء، أهل المغرب في هذه الصناعة أكثر رجلاً، وأهل المشرق أبرع رجلاً، وإنما أردنا بتقديم من قدّمنا ذكره من الوزراء والكتاب، وإن لم يكن ما يؤثر عنهم مما يناسب دره كلّ نظم هذا السحاب، لا ثبات الفضل للشرق على الغرب في تلك المدد الطوال والسنين الخوال. فإن الشرق كان معهداً بمثل هؤلاء والغرب قفّرياب.

/ ٣٦ / أكتب من فيه نقول له: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾^(١)؛ على أن هؤلاء

(١) سورة الشورى: ٥٢.

القدماء وإن لم يدخلوا في الغوص من هذا الباب، ولا أتوا باللب اللباب، فما فاتهم سابقة فضل في فضل، ولا قصرت بهم راية عن غاية وفي أثناء ما ذكرناه دليل لولا الاكتفاء به لبيّناته، مع سعة هذه المقدرة، والتقدم في دول الخلفاء، والتقرب في خواطرهم إلى محل الاصطفاء، وما أُجْرِي لهم من الأرزاق أو جرى لهم من الأموال، وأقلّها خزائن والإقطاعات، وأصغرها مدائن والنفقات، وأهولها قناطرٍ مقنطرة، والعطايا وبعضها جُمِّل مستكثرة والدولة الزاهرة، وكانوا أطوادها، والصولة القاهرة، وكانوا إذا رؤوا آسادهما، والخلافة وكانوا عمادها، والامامة وكانت أقلامهم سيوفها، والسيوف أعمادها، المفاجر وقد جمعوا شتيتها، والمآثر وقد استطابت على مطارف السحاب بيتها، واغتنام الايام، وصنائع ملكوا بها رِقّ الأحرار، وأطافوا بها على الاكباد الحِرار. فيا أيّها المباهي للشرق بالمغرب، والمباهل في هذا الفضل المغرب. ها قد قلنا لك بعض ما عندنا، فقل لنا كلّ ما عندك، وأرنا نارك إن كنت تحرق، واقدح زندك.

فأما ما نذكره لأصحاب الغوص قديماً، ونَصِلُ جناحَهُ بالآخرين فسنغصّ به حلوق المفاخرين. ونقذي عيونهم في الآخرين، ونخرّمهم للأذقان على وجوههم داخرين، وها أنا ذاكر القسم الثاني.
فمنهم:

[٤]

أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد القرشي المخزومي،
المعروف بالبيغاء^(١)

وهو رأس الجماعة ورئيس القوم في البضاعة. ما قصّر في معنى تشبيهه عن ابن المعتز. ولا في ديباجة لفظه عن البحري، ولا في إحكام معانيه عن أبي تمام وفي

(١) أبو الفرج البيغاء: من أهل نصيبين، من الادباء والشعراء والكتاب المترسلين اتصل بسيف الدولة الحمداني، ورافقه في بعض وقائعه، لقب بالبيغاء للثغّة فيه، وقيل بل لفصاحته. توفي سنة ٣٩٨هـ وله «ديوان شعر» ذكره ابن النديم و«ديوان رسائل»، لم يعثر عليهما أحد، جمع الاستاذ هلال ناجي ديوان شعره ورسائله وقصصه، وقدم لها بدراسة عن حياته وأدبه، ونشرها ببغداد/١٩٩٨. ونشر الدكتور سعود محمود عبد الجابر (شعر البيغاء) الدوحة: ١٩٨٤.

ترجمته في: تاريخ بغداد ١١/١١، والمنتظم ٧/٢٤١، وفيات الأعيان ٣/١٩٩، يتيمة الدهر ١/٢٣٦-٢٧٠ والوفائي بالوفيات ١٩/٢٧٧ والعبر ٣/١٥٢ وسير أعلام النبلاء ١٧/٩١ والبداية والنهاية ١١/٣٤٠ والنجوم الزاهرة ٤/٢١٩ وشذرات الذهب ٣/١٥٢ وتاريخ بغداد ١١/١١.

كثرة تنويعه عن أبي نواس، علم لا يخفى، وقلم لا يحفى، غرس آداب خصل النبات، مخضّر الجنّات، رأى المجد هضبة فأناف / ٣٧ / رأسها، وحلبة فأجرى أفراسها، فطرف بطارفة الناكد، وشرف بمطارفه الوالد، وأحيا شرف مخزوم، ومذ فرع عمّر وفات خالد.

توفي البيغاء سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة.

ومن كلامه يصف حماره^(١):

مُخَطَّطَةٌ يَسْتَطِيلُ بِيَاضِهَا، فِيمَا يَسْتَطِيلُ مِنْ أَعْضَائِهَا، وَيَسْتَدِيرُ فِيمَا يَسْتَدِيرُ، وَهَذِهِ الْأَتَانُ مَاخَرَجَتْ عَنِ الْعَادَاتِ، وَخَالَفَتْ الْمَوْصُوفَاتِ، نَاطِقَةٌ فِي كِمَالِ الصَّنْعَةِ بِأَفْصَحِ لِسَانٍ، مُشْتَمَلَةٌ عَلَى غَرَائِبِ الْإِحْسَانِ، أَنْفَسُ مُدَّخِرٍ، وَأَغْرَبُ مَوْشَى، وَأَفْخَرُ مَرْكُوبٍ، وَأَطْرَفُ مَحْبُوبٍ، وَأَعْجَزُ مَوْجُودٍ، وَأَبْهَرُ مَحْدُودٍ، كَأَنَّمَا وَسَمَهَا الْكِمَالُ بِنَهَائِيَّتِهِ، أَوْ لِحَظْهَا الْفَلَكُ بِعِنَايَتِهِ، فَصَاغَهَا مِنْ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَحَلَّاهَا بِنَجْوَمِهِ وَأَقْمَارِهِ، وَنَقَشَهَا بِبِدَائِعِ آثَارِهِ، وَوَشَّى رُوضَهَا بِبَيَانِعِ أَزْهَارِهِ، وَرَمَقَهَا بِنَوَاطِرِ سَعُودِهِ، وَجَعَلَهَا بِالْكِمَالِ أَحَدَ حُدُودِهِ، جَامِعَةً شَتِيَّتَيْهَا بِالْقِسْمَةِ وَالتَّرْتِيبِ بَيْنَ زَمْنِي الشَّبِيْبَةِ وَالْمَشِيْبِ، قَيْدِ الْأَبْصَارِ وَأَقْدِ الْأَفْكَارِ، وَنَهَايَةَ الْاِعْتِبَارِ، بَسْتَانَ بِسْرَجٍ، وَرُوضَةً بِمَرْجٍ، مَنْزَهُ عَنِ الْحَلِيِّ عَطْلُهَا، مَزْرِيَّةٌ بِالزَّهْرِ حُلُّهَا، حَدَّ جِنْسِهَا، وَعَالَمَ نَفْسِهَا، صَنْعَةَ الْمَنْشِءِ الْحَكِيمِ، ﴿ تَقْدِيرُ الْمَرْيِزِ الْعَلِيِّ ﴾^(٢) ﴿ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾^(٣).

ومن قوله^(٤): قرين اسطرباب أهدها:

أجل الهدايا - ياسيدي أطل الله بقاءك - موضعاً وأظفها من الملاطف بها موقعا. ما لآم الاختيار، ووافق الايثار، وكان العقل أخصّ بفائدته، والفهم أحظى بيؤمن عائدته، ولما كنت أيدك الله ممن لا يتوصل المتوصل إليه إلا بما يتفق العادة والحكمة عليه، آثرتك وفقك الله ببرهان الحكمة، ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها، ومرشد الفكر ومناره، وميزان الحسن ومعياره، ونافي الشك ومزيله. وشاهد العالم ودليله، ومصوّر الهندسة وممثلها / ٣٨ / ومقسّم البروج ومعدلها، وموقف النجوم ومثيرها، وجامع الأقاليم ومدبرها، مرآة الحبك وصورة الفلك. وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب، مما اخترعت العقول تسطيحه. وأتقن الحساب تصحيحه،

(١) مما أخل به كتاب (البيغاء: حياته، ديوانه، رسائله، قصصه) جمع وتحقيق الأستاذ هلال ناجي.

(٢) سورة الأنعام: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: ١٤.

(٤) مما أخل به كتاب البيغاء.

وتمارت الفطن في ترتيبه، واصطلحت الحكماء على تركيبه. فأوضحت باليقين تقسيمه، وأبانت بالكتابة قلمه ورسومه، إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته وحصر متفرق الأنوار في مجرى عضادته، واحتوى على قطبي الشمال والجنوب، واطلع باللطف على خفيات الغيوب، متعك الله باستخدامه، واسعدك بمواقع أحكامه، وأغناك بالتوفيق عما يستمدّه منه، وبالخيرة عن الاختيارات الصادرة عنه، وقد أنست وحشته من فهمك بسكنه، ورددته من ذكائك إلى وطنه، فإن رايت أن تديله من الأفهام الصدئة بصفاء بصيرتك، وتقرّه في أمتع قرار ومن كنف فطنتك. فعلت إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله^(١) يستهدي دواة من الآبنوس بآلاتها:

ولعلّ المولى يُنعم بدواة تكون للكتابة عتاداً، وللخواطر زناداً، جدولية العطفين، هلالية الطرفين، مسكية الجلدة، كافورية الحلية، فسيحة الأحشاء مهفهفة الأعضاء، فهي من لون جلدها، ووشائع حليتها: [من الخفيف]

كشبابٍ مجاورٍ لمشيبيٍّ أو ظلامٍ موضّحٍ بنهار
أضمرت آلة النهى فهي كالقلـب وما تحتويه كالأفكار
يقارنها قضبانٌ من ذخائر السحاب، وودائع التراب، كل معدل الكعوب، قويم الانبوب. باسق الفروع، رويّ الينبوع، نقّي الجسد، نازح العقد، مختلف الشيات، متفق الصفات، مما اعتنت الطبيعة بتربيتها، وتبارت الديم في تغذيتها، كالجوهر المصون واللؤلؤ المكنون / ٣٩ / ملتحف الاجساد، بمثل خوافي أجنحة الجراد، أولى باليد من البنان، وأنس بخفي السرّ من اللسان، مقترنٌ ذلك بمدية لا تفتقر إلى جلب، ذات غرارٍ ماضٍ وذباب قاضٍ ومنسرٍ نادٍ، وحديد سمائي وجوهر هوائي ونصاب زنجي معه مقطّ يرتفع عليه تقديرها وينحطّ، ذو جسدٍ بجراحها مكلوم، وجلد بآثارها موسوم. [من البسيط]

في كل عضوٍ له من وقعها ألمٌ وليس ينجع فيه ذلك الألم
كأنه وامتهان القط يرغمه أنف الحسود إذا أرغمه النعم
حتى إذا جئت غاربه وأطلقت مضاربه، انصاع من أهون جفير، وكرع في أعذب غدِير، لاترده غير الأفهام ولا يمتح بغير ارشيه الاقلام، تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سحب البلاغة من قراره، منير مظلم، مشمسٌ معتم. [من الخفيف]

(١) وهو مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

يجري واجزأؤه في الوصفِ جامدةً ويستهل ومايجري له مُقلُّ
 إذا الخواطرُ حامتْ حَوْلَ مَوْرِدِهِ لَمْ يظْمها مِنْ قِراءِ العَلِّ والنَّهْلِ
 كأنَّ أقلامنا فيما تحمله إلى القراطيس عن أسرارنا رُسلُ
 ومنه قوله^(١) لرجلٍ في تزويج أمه:

واتصل بي ماكان من أمر الواجبة الحق عليك، المنسوبة بعد نسبك إليها إليك،
 واختيارها من الصيانة التي تحفظ جلالها، وتحسن إيالتها، وتنمي مالها، وتشد
 أحوالها، ويعين طباعها على كرمها، وتقيم مهابتها على خدمها، ما لولا ان النفس
 تناكره بغير طريق شرعي ولا دليل قطعي، لكنت في مثله بالرضا أولى، وبالاعتداد بما
 جدده الله من صيانتها أخرى، وقد آثر الصلة بها من تقوى بصلته، قوة اليد بالساعد
 وتعتده عما بحكم المجاز والعم صنو الوالد. وتزوجت أم زيد بن علي^(٢) فلم يمنعه
 عما جاء به الشرع حمية النخوة، وسئل: لم تزوجت أمك بعد أبيك / ٤٠ / فقال:
 لتبشر بأخر مثلي من الإخوة، وفي هذا لها - أصانها الله - مزيد للعفة، وموئل للكلفة،
 والزواج يُستحبُّ للرجال والنساء سواء، في طلب تجديده شهوات الأمهات والآباء،
 وقد جدع الإسلام أنف الغيرة، وجعل فيما اختاره الخيرة، ولا يسخطك - أعزك الله -
 ما رضيه موجب الشرع وحبب ادب الديانة، وحكم به حاكم العقل في الصيانة،
 فمباح الله أحق ان يتبع، وهوى النفوس في الحمية أولى أن يمتنع، فإياك أن تكون
 ممن إذا عدم اختياره، تسخط اختيار القدرة.

ومنه قوله^(٣): في فتوح: أصدرت هذا الكتاب بمواقع نعم الله الشاملة، وآثار
 نعمة المتواصلة، وهو أنا لما رأينا السيوف متوثبة في الأيدي للضرب، وحاذرنا
 هجوم الشتاء على مضيق الدرب، جعلنا آخر الأمر أوله، وركبنا من الصعب أهوله،
 وأرسلناها تبارى في الركض، وتلاعب بالأرض، وتتوائب كالظلمان، وتتهافت
 كالعقبان. أسرع من النجوم السائرة، وأنفذ من سهام العائرة، إلى أن نزلنا بطن
 هنزيط^(٤) فكنا أسبق إلى عيون أهلها من النظر، وأدخل في نفوسهم من تسقط الحذر،
 ولم يمض صدر اليوم إلا وقد حصل جميع من فيه من المقاتلة والحامية، والسبي

(١) بعضها في صبح الاعشى ٧٩/٩ والبيضاء ١١٧.

(٢) لعله أراد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) وامه أم ولد اهداها المختار
 لايه، ولم يذكر أحد من المؤرخين انها تزوجت بعده (انظر في ترجمة زيد ونسبه: مقاتل الطالبين ١٢٧).

(٣) مما أخل به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٤) هنزيط من الثغور الرومية، ذكرها أبو فراس والمتنبي في شعرهما «انظر معجم البلدان ٤١٨/٥».

والماشية، والغلام والجارية، تحت رقّ الصفاح وفي ملك الخيل والرماح، ثم يجمعنا بلد قالي قلا^(١) فوردناها، وقد سبقنا الانذار، وتقدمنا إليهم بالحدار، فرجعنا إليهم بالعزائم الثاقبة، والكتائب العالية، فما كان بأسرع من أن زلزلت بهم الأقدام وتحصنوا بالهرب من الحمام، ودخلوا البلد، فكاد السور يقذف بمقاتلتهم، والأرض تنخسف زلزلاً بكافتهم، ثم دخلنا البلد والسيف يأخذ من أدركه، والطعن ينحر من استملكه، ثم زحفنا على من استعصى بالكنيسة، فخطبونا بلسان الإذعان، وراسلونا في التماس الأمان، فأجبناهم إلى ذلك مشترطين / ٤١ / ما منعهم حظ الإسلام من قبوله، فاقتطعهم الطمع عن تحصيله، ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتْهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَّ اللَّهِ فَانْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾^(٢)، وبرقت لهم مكائد النشاب، ودخلت عليهم رسل الموت على أجنحة النور من كل باب، فاستنزلناهم بحكم السياف وهم مهطعون، ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرَ اللَّهِ وَهُمْ كَاِرْهُونَ﴾^(٣)، وأقمنا على أعلى جدران الأذان، ورتبنا المصلين مواضع الصلبان. ثم انقلبنا بأسعد مُنْقَلَب، وأربج مكتسب، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

ومنه قوله^(٥) يصف تشريفاً وفرساً وصلاً إلى أبي تغلب^(٦) بن حمدان من الخليفة:

وصل كتاب أمير المؤمنين^(٧)، مطلقاً إلى الرشد بالتوقيف^(٨) مقترباً بخصائص التكرمة والتشريف^(٩)، فقبلت من المجلس الشريف مواقع افضاله، واعتلقت من السعد بأذياله، وبرزت في الخلع الموسومة بانعامه، والمناطق الناطقة باكرامه،

(١) قالي قلا، وتكتب قليقلا، والنسبة إليها قالي، وهي مدينة بأرمينية من نواحي خلاط، وهي مدينة حسنة عامرة، وتغلب عليها الروم وعلى ماجاورها مرّات واستنقذها المسلمون من أيديهم، انظر معجم البلدان ٢٩٩/٤ والروض المعطار ٤٤٧ وفيه (قالي قلا).

(٢) سورة الحشر: ٢. (٣) سورة التوبة: ٤٨.

(٤) سورة الزمر: ٧٥.

(٥) صبح الأعشى ٤٩٣/٦ وعنه في مجموع رسائله ضمن (البيغاء، حياته، ديوانه، رسائله، قصصه) تحقيق هلال ناجي ص ١٠٢.

(٦) أبو تغلب.

(٧) بعده في صبح الأعشى: أدام الله نصره.

(٨) في صبح الأعشى: مشتقاً على فوائد الإرشاد والتوقيف.

(٩) بعدها اختلاف كبير بين نص المؤلف وصاحب صبح الأعشى.

متدرعاً منها ثياب السكينة. والهدي، مختلاً من حللها فيما يروق الأولياء ويروع العدا، متقلداً عضبه الذي هزّ النصر غراره وأحسن آثاره، عالياً على عنق الزمان بامتطاء ماحباني به من الجواد الذي تزل الأبصار عن صهواته^(١)، وتبليج غرة الفجر في ظلماته، وهو مع كونه تحلى بحلية الكافر، يروع كل كافر مشرك. ويحقق بركضه انه الليل الذي هو مدرك. والحمد لله الذي جعل صنائع أمير المؤمنين عند مَنْ يرتبطها بعلائق شكره ويحرسها بالتوفر على جميل ذكرها في ذكره.

ومنه قوله^(٢):

فلان يطرق الدهر إذا نظر وينظر المجد إذا افتخر، سعى إلى العلياء فأدركها، وعاقده عليها الآراء فملكها، وهي ماتدرك بغير السماح، ولا تملك إلاّ بأطراف الرماح.

ومنه قوله^(٣):

والبلاغة ميدان لا يدرك إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلاّ ببصائر البيان، وقلّ من يركب طريقها على التغيرير أو أمل قطعها بالتقصير، إلا فضحته المطاولة، وكشفت خَلَّةُ / ٤٢ / المساجلة، فسقط مِنْ حيث أمل الرفعة، وذل من حيث حاول المنعة.

ومنه قوله^(٤):

وأما هذا الفتح، فأوصافه لا تُدرك بالعبارات، ولا تدخل تحت العرف والعادة: [من البسيط]

فتح أنار الهدى بعد الظلام له واسترجع الدين من بعد الرهان به
تاهت بأيامه الأيام واعتذر الدهر الخؤون إليه من نوائبه تباشرت بورود أخباره
المنابر، وشهدت بفضله البواتر، ووفت فيه الحيل بعقد الضمان، وناب الخوف له
عن ملاقة الأقران، وأذن بالعاجل على ما أدخره الله في الآجل.

ومنه قوله^(٥):

وقد شرفني سيدنا بأعز الحملان، الحامل لي على عنق الزمان، فجاء موفياً على

(١) من قول امرئ القيس: (ديوانه ٢٠): [من الطويل]

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المشقل

(٢) لم يرد في نشرة الاستاذ هلال ناجي.

(٣) لم يرد فيما نشره الاستاذ هلال ناجي بكتاب (البيغاء).

(٤) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٥) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي. والأبيات فيه ص ٦٨.

التأميل فيه، مناسباً لصنائع مهديه، متفاوت العدو، متقارب الخطو، حديد النظر محمود الخبر، عريق النسب، مخبور الحسب، أخفت من الوهم، وأمرق من السهم، وأسرع من البارق، وأشهر من لاحق^(١)، شخص إقبال، وجملة كمال: [من الكامل] إن لآخ قلت أذميّة أم هيكل؟ أو عنّ قلت أسابح أم أجدل؟ تتخاذل الألحاظ في إدراكه ويحار فيه الناظر المتأمل فكأنه في اللطف سهم ثاقب وكأنه في الحُسن حظّ مُقبل ومنه قوله^(٢):

وإذا كان الشكر ترجمان النيّة ولسان الطويّة، وسبباً إلى الزيادة، وطريقاً إلى السعادة، فألسن آثارها على الشاكر مع الصمت أفصح من لسانه، وبيانها عند الجحود أبلغ من بيانه. ومنه قوله^(٣):

فلان يسع العالم إحسانه، ويستغرق الشكر امتنانه، ويستخدم الدهر عزمه ويؤدب الأيام حزمه، كعبة فضل، وغمامة وبل، الليالي بأفعاله مشرقة، والأقذار من خوفه مطرقة، تحمده أولياؤه، وتشهد له بالفضل / ٤٣ / اعداؤه، ولا يصل الشك إلى سريرته، ولا ترقد عن الحق عين بصيرته، كالقمر السعد والأسد الورد: [من البسيط] إن^(٤) سار سار لواء النصر^(٥) يقدمه أو حلّ حلّ به الإقبال والكرم يلقى العدا بجيوش لا يقاومها كثر العشائر^(٦) إلا أنّها همّ ومنه قوله^(٧):

والحمد لله على ما وهب مولانا من عافية يقتضي بها شكره، وعارض مرضٍ يختبر بها صبره؛ ليجب له الزيادة من نعماء بالشكر، ويدخر له أرفع درج الجزاء بجميل الصبر. [من الطويل] فبالمجد فقدانٌ يصحّ له امرؤُ بقاء العلا والمكرّمات بقاؤه

(١) لاحق: فرس كان لغني بن اعصر (أنساب الخيل للكليبي ص ٢٢)

(٢) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٣) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٤) البيتان من أبيات في معجم البلدان (ديار بكر) ٤٩٤/٢، وعنه في مجموع شعره، قال إنها ضمن رسالة يمدح بها سيف الدولة وقد انصرف من بعض غزواته.

(٥) في المعجم: الحمد. (٦) في المعجم: العساكر.

(٧) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي وكذلك القصيدة.

يداوي مِنَ الوَعَكِ الاطباءِ جَسْمَهُ ويعدم مِنْ وَقِعِ الرماحِ اتِّقاؤُهُ
 فياذا الذي في رأيه وُحْسامِهِ إذا اعتَزَما يبرا الزمانِ وداؤُهُ
 رويداً فبالآمالِ أَعْظَمُ فاقَةٍ إلى غيثِ جودِ في يديكَ سماؤُهُ
 فرفقاً بجسمِ إن أردتَ بقاءَهُ فصفْحُكَ للترفيهِ عنه شِفاؤُهُ
 فما حُمَّ حتى حَمَّتِ الخيلُ قبلَهُ [وحتى ترى] (١) الصمصامِ يبدو اشتكاؤُهُ
 ولا تنكرنَ مِنْ ذا الدُّووبِ اعتلالَهُ بحالٍ فَقَدْ يصدي الحسامِ انتضاؤُهُ
 ومنه قوله (٢):

وقد ذهب رمضان عن سيدنا يشهد له عند الله بأفعاليه، ويثني عليه عند الله بأعماله، تحسد لياليه على صيامه أيامه. وينافس صباحه على تهجده ظلامه، موصولة الطاعات ساعاته، مقرونة بالخيرات أوقاته: [من الكامل]
 ولّى ولو ملكَ اختياراً انزلتُ شوالَ عن أيامِهِ أيامُهُ
 وأسعدُ بعيدٍ لم يزلْ يهدي له من قبلِ مقدمِهِ البشارةَ عامُهُ
 ومنه قوله (٣):

كُتِبَتْ إِيكَ بِيَدِ أَطْلُقِ الثِّقَةَ بِيانِهَا مِنْ اعْتِقَالِ الْيَاسِ، وَعَنْ رَغْبَةٍ انصَرَفْتُ إِلَى تَأْمِيلِهِ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ، مُسْتَظْهِراً عَلَى الدَّهْرِ بِالصَّبْرِ، إِلَى أَنْ عَدَلَ بِي الْحَزْمُ عَنْ طَرِيقِ نَوَائِبِهِ، وَاجْتَنَبْتُ يَدَ التَّوْفِيقِ ثَمَرَ السَّلَامَةِ مِنْ مِصَائِبِهِ، وَأَنَا مِنَ الْمَوْلَى مُتَوَسِّطٌ رَغْبَتِي وَعِلاهُ، وَبَيْنَ شُكْرِي / ٤٤ / وَنِدَائِهِ. مَعَ أَنِّي كَمَا قُلْتُ: [من الطويل]
 يَطْوُلُ عَلَى الْأَيَّامِ أَنْ تَسْتَرْقِنِي مَعَ الدَّهْرِ إِلَّا لِلْكَرَامِ الْمَوَاهِبُ
 وَمَا كُلُّ حَالٍ يَكْسِبُ الْمَالَ يُرْتَضَى وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ النُّفُوسِ الْمَكَاسِبُ
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ (٤) يَشْكُرُ مَنَعِمًا سَلَكَ بِهِ مَسْلَكَ وَالدِّهْ، لَوْ ارْتَفَعَ بَرٌّ عَنْ شُكْرِ، أَوْ جَلَّ انصاف عن اعتراف، لارتفع قدرُ تفضيلِكَ الذي تواليت عليَّ أنواؤه، وسابق رجائي ابتداؤه، ولم يجسر حمدي على مطاولة إحسانك، ولا أقدم بناني على وصف امتنانك، ولكن حق لما انتحى إليك أن يفوت الأكفاء، ويبذ النظرء، لاسيما مَنْ قَصَدَكَ مقصد أبيك فغدا يرتجيك: [من المتقارب]

(١) زيادة يقتضيها السياق واستقامة الوزن.

(٢) مما أخل به مجموع الاسناد هلال ناجي.

(٣) مما أخل به مجموع الاسناد هلال ناجي.

(٤) مما أخل به مجموع الاسناد هلال ناجي.

فقد كان شكري ملكاً له وأنت أحق بميراثه
 غمام أنت ماؤه، وبدر أنت ضياؤه، وعَضْبُ أنت غراره، وحق أنت مناره،
 سعى فجنّت على أثره، وصمّت فنطقت عن مفخره، فكرمك فرع كرمه، وهممك
 نتائج هممه.

ومنه قوله^(١) في التهاني بعام أسعد الأعوام:

- أطال الله بقاء الأمير - ما ألقى عليه سيدنا أيده الله بالمجاورة شعاع سعادته،
 التي هي حلى الدهور. وغرر الأيام والشهور. وقد أكلّ هذا الحول السعيد، مبشراً
 بأكمل مزيد، وأحسن تجديد. [من الوافر]

فلا برح الزمان بكلّ سعدي سفيراً بين ملكك والدوام
 إذا أفنيت عاماً منه أضحي ضمينا للبقاء بألف عام
 فما عرف التمام الخلق حتى ظهرت فصرت حداً للتمام
 ومنه قوله:

غرة الدهر، وقبلة الشكر، إن رفع الجيش حماه، أو هزّ الحسام أمضاه، أو أورد
 السنان أرضاه، تتعزز بخدمته الأيام، وتضيء بمناجاة ظلم الأفهام. خصم النوب
 وشخص الحساب: [من المتقارب]

يجلّ عن الهز عند الجلاذ ويضحك في حالة المغضب
 شجاعته عدة المرهفات وهيبتة موكب الموكب
 لا تطمع الأفهام بلوغ حقه في مطاولته، ولا تسمو همم الخواطر إلى مساجلته،
 غاية المادح أن يرجع عن الإطالة إلى الاختصار، ويقتنع بالقليل من الإكثار: [من
 الكامل]

يامن سطوت على الزمان تهاوناً بالحدائث مدامت عليه
 لا غرو أن أحرّت عنك مدائحي مدح الحسام العضب في حديه
 ومتى تشابهت الشيات فإنما يجري الجواد إلى مدى أبويه
 ذلك المقام مخاطباً على البعد بالفاظك. مرموقاً بالمراعاة من ألحاظك، غير
 نازح عما ألقه من عواطف الولادة وانبساط الأنسة المعتادة، وإن شيئاً أوثق حسم
 دواعي الخلاف، وأدى إلى دوام الائتلاف، لتحقيق بالمبالغة في تأكيده بالحرمة،

(١) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

وتخويله في النعمة.

ومنه قوله^(١) في هذا المعنى:

وأما أبو نجم^(٢) فقد أدى الأمانة إلى مُتَحَمَلِهَا، وسلَّم الذَّخيرةَ الجلييلة إلى متقبِّلِهَا، فحلَّت من محلِّ العزِّ في وطنها، وآوت من حمى التودد إلى مسكنها. صادرةً من أنبل وِلادةٍ ونَسَبٍ إلى أشرف اتصال، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يُحضُّ القلب على حفظ سروره. ولو لم يَمُدَّ أبو النجم بغير الخدمة في هذا الأمر العظيم محلاً، السعيد عقداً وحَلاً، لكان للحظوة أهلاً، ولرفع المنزلة أولى إن يملى، فكيف وآثار نُصحِه في جمع الشمل لائحة، ودلائل وفائه بهذه الألفة واضحة؟
ومن نثره أيضاً:

وأما فلان فقد أمنت الأعداء فتكات حسامه، وبُعِدَ عهدُ الخيل بإسراجه وإلجامه.
ومنه قوله:

رئاسة تزهو المناقب في أفق علائها، وتتنافس الأشراف في التعلق بولائها. أُسْبِق إلى الطعن من الأسنَّة، وأحذق من زيد الخيل^(٣) بتصريف الأعنة، إن قالَ فَصَلَ، أو حَكَمَ عَدَلَ، أو نَطَقَ صَدَقَ، أو سُوبِقَ سَبِقَ. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عفو خطراته، مبرقع الطلعة بالخفر، مُسْفِرُ الوجه عن دارة القمر، ماينفك من الكمد حاسده، ولا يسلم من الدهر معانده. [من المتقارب]

٤٦/ أقام حُقوقَ النَّدَى والقَنَا ليومِ السَّماحِ ويومِ الطَّعانِ
بجودٍ يُسَابِقُ نجمَ السَّوَالِ وبأسٍ يُطَاعَنُ قبلَ السَّنَانِ
الحسامِ حَدِيثُهُ، والرمحِ قَرِينُهُ، والسرِّجِ وطنُهُ، والتيقِظِ رَسْنُهُ، فسائره قلب،
وجملته لب، من الدوحة التغلبية، والنبعة الحمدانية. [من الكامل]

نَسَبٌ لو أنَّ الليلَ ألبسه انثنى بضيائه لسنى الصباحِ يُضاهي
وخلائقُ لو صُوِّرتْ لظننتها زهراً أو انبجست حَدَثَ بمياهِ

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٧٣ وعنه في مجموع رسائله.

(٢) أبو نجم: هو بدر الحرمي.

(٣) زيد الخيل بن مهلهل الطائي، أبو مكنف، من فرسان الجاهلية وشعرائها، سمي زيد الخيل لكثرة خيله، وفد على رسول الله ﷺ فسماه زيد الخير، وعاد إلى نجد فمات في الطريق سنة ٩ هـ. وكان شاعراً خطيباً، جمع د. نوري حمودي القيسي شعره ونشره في المورد ٣/ ٢٢٨، وانظر الأغاني والإصابة ترجمة ٢٩٣٥ وخزانة البغدادي ٢/ ٤٤٨ وأخباره كثيرة في كتب الأدب.

قومٌ بلوتٌ مديحهم فوجدتهُ أحلى من الرشفات في الأفواه
 وطلبتُ مجتهداً نهايةً وضمفهم فوجدتهُ مالميس بالمتناهي
 ومنه قوله:

حقٌ لمن انتمى إليك أن يفوت الاكفاء، ويبدُ النظراء، لاسيما من قصد بك
 مقصد أبيك، وغد يرتجيك، فقد توات عليّ انواؤه، وسابق رجائي ابتداؤه، [من
 المتقارب]

فقد كان شكري ملكاً له وأنت أحقُّ بميراثه
 غمامٌ أنت ماؤه، وبدرٌ أنت ضياؤه، وعضبٌ أنت غراره، وحقٌ أنت مناره،
 سعى فجئت على أثره، وصمتَ فنطقتَ عن مفخره، فكرمك فرع كرمه، وهممك
 نتائج هممه، ذهب وأبقاك، ونام مطمئناً وقد استرعاك، فلقد خلقت عندي أياديه خلقاً
 جديداً، واستصحت لي من نعمه كرمًا موجوداً.

ومن شعره^(١): [من البسيط]

أحبابنا^(٢) هذه نفسي^(٣) تُودِّعكم إذ كان لا الصبر يُسليها ولا الجزعُ
 قد كنتُ أطمعُ في روح الحياة لها فالآن إذ بنتُم لم يبقَ لي طمعُ
 لا عذبَ الله رُوحِي بالبقاء فما أظنني بعدكم بالعيش انتفعُ
 ومنه قوله^(٤): [من البسيط]

يامسئمي بجفونٍ سُقمها سببٌ إلى مواصلة الأسقام في جسدي
 عذرتُ من ظلٍّ في حُبِّيك يحسدني لأنه فيك معذورٌ على حسدي
 ومنه قوله^(٥): [من البسيط]

يسعى به البرقُ إلا أنه فرسٌ من فوقه^(٦) الموتُ إلا أنه رجلٌ
 /٤٧/ يلقى الرماحَ بصدرٍ منه ليس له ظهرٌ، وهادي جوادٍ ماله كغلٌ

(١) الأبيات في يتيمة الدهر ٢٧٣/١ ووفيات الأعيان ٢١١/٣، وشذرات الذهب ١٥٢/٣ والوافي بالوفيات ٢٧٨/١٩، ومجموع شعره تحقيق الأستاذ هلال ناجي.

(٢) في اليتيمة: ياسادتي.

(٣) في اليتيمة: والشذرات: روعي.

(٤) يتيمة الدهر ٢٧٤/١ وعنهما في مجموع شعره ص ٤٢.

(٥) يتيمة الدهر ٢٨٣/١ ومجموع شعره ص ٧١.

(٦) في اليتيمة: في صورة الموت.

ومنه قوله^(١): [من الكامل]

وكأنما نَقَشَتْ حوافِرُ خيلِهِ للناظرينَ أهْلَةً في الجَلْمِدِ
وكأنَّ ظَرَفَ الشَّمْسِ مطرووفٌ وقد جَعَلَ الغِبَارَ لَهُ مَكَانَ الإثْمِدِ

ومنه قوله^(٢): [من البسيط]

ياغازياً أَبَتِ الأَحْزَانُ غَازِيَةً إلى فؤادِي والأشْجَانُ^(٣) حِينَ غَزَا
إنَّ بارزَتَكَ كَمَاةَ الرومِ فارمَهُمُ بِسَهْمِ عَيْنِكَ تَقْتُلُ كُلَّ مَنْ بَرَزَا
ومنه قوله^(٤): يصف كأساً، وأجاد في وصفه، وتقدّم السابقين، وخلاهم من

خلفه: [من المنسرح]

من كلِّ جِسْمٍ كأنه عَرَضُ يكادُ لُطْفاً باللحِظِ يُنْتَهَبُ
لا عَيْبَ فِيهِ سِوَى إِذَاعَتِهِ الـ سِرِّ الَّذِي فِي حِشَاهُ يَحْتَجِبُ
كأنما صَاعَهُ النِّفَاقُ فَمَا يَخْلُصُ صَدْقُ مَنْهُ وَلَا كَذِبُ
فَهُوَ إِلَى لَوْنِ مَا يُجَاوِرُهُ على اختلافِ الطَّبَاعِ يَنْتَسِبُ
إذا ادَّعَاهُ اللَّجِينُ أَكْذَبُهُ بِالرَّاحِ فِي صَبْغِ جِسْمِهِ الذَّهَبُ

/٤٨/ ومنه قوله^(٥) في خلعة و فرس: [من البسيط]

لَمَّا تَحَصَّنْتُ مِنْ دَهْرِي بِخَلْعَتِهِ سَمَتْ بِحَمَلَانِهِ أَلْحَاظُ إِقْبَالِي
وواصلتني صِلَاتٌ مِنْهُ رُحْتُ بِهَا أختالُ مَا بَيْنَ عِزِّ الجَاهِ وَالْمَالِ
ومنهم:

[٥]

بديع الزمان الهمداني^(٦)

بديع الزمان الهمداني، وهو نادرة الدهر، وبادرة الزهر، قلّ أن ولد الزمان

(١) من قصيدة في يتيمة الدهر ٢٨٧/١، والوافي بالوفيات ٢٧٨/١٩، ومجموع شعره ص ٤٥.

(٢) يتيمة الدهر ٢٧٦/١ ومجموع شعره ص ٥٨.

(٣) في اليتيمة: الأحشاء.

(٤) الأبيات من قصيدة في يتيمة الدهر ٢٧٧/١ ومجموع شعره ص ٧٢.

(٥) البيتان من قصيدة في: يتيمة الدهر ٢٦٣/١ وتاريخ بغداد ١٢/١١ ومجموع شعره ص ٧٣.

(٦) أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني، الحافظ المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل والمقامات وعلى منواله نسج الحريري مقاماته، تتلمذ على أحمد بن فارس في اللغة، وسكن هراة من بلاد خراسان وبها توفي سنة ٣٩٨ هـ مسموماً.

ترجمته في: يتيمة الدهر ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ والوافي بالوفيات ٣٥٥/٦ ومعهاد

التنصيب ١١٣/٣ والبداية والنهاية ٣٤٠/١١ ووفيات الأعيان ١٢٧/١ وسير أعلام النبلاء ٦٧/١٧ =

مثله، أو ولد شكله، إن الزمان بمثله لعقيم، ولا عصبية للعظم الرميم، بل هو والله البديع حقاً المعتكر طرقا، كاد يلهب فكره ذكاءً، وينتهب ذكره ذكاءً، كأنما كلمه حير، أو لفظه زبر، سَجَعُهُ قَصِير، وَنَفَعُهُ كَبِير، من سمع حسانه تبع إحسانه، وَمَنْ فَهَمَ بيانه علم أن فوق السحاب بنانه، وربما كاد يحكيه لو وهب، لو كان كما قال طلق المحيّا يمطر الذهب نافع الرياض فأخذ أنفاسها، وسافح السحاب فنثر أكياسها. بزّ الكواكب ولبس لباسها، وبذّ المدام وسلب الحميّا كاسها، فجاء بسحر عظيم إلا أنه حلال، وخمر لا لغو فيها ولا تأثيم، وفيها انحلال^(١). ووراءه جرى الحريريُّ لكنه نقح، على أنه مما ترك البديع ولقح.

وذكر البديع، أبو منصور الثعالبي فقال^(٢): هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني، معجزة^(٣) همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومَنْ لم يَلْفَ نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن، وقوة النفس، [ومن]^(٤) لم يدرك قرينه في ظرف النثر ومُلحِه، وغرّ النظم ونكته، ولم يروا أن أحداً بَلَغَ مَبْلَغَهُ من لبّ الأدب وسرّه، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب.

فمنها أنه كان يُنشد القصيدة لم يسمعها قط - وهي أكثر من خمسين بيتا - فيحفظها كلّها ويوردها إلى آخرها لا يخرم حرفا منها^(٥).

وينظر في الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره [إلا]^(٦) نظرة واحدة خفيفة ثم يهدأ عن ظهر قلب هداً، ويسردها^(٧) سرداً^(٨).

وكان يقترح عليه عمل قصيدة^(٩) وإنشاء رسالة في معنى غريب وباب بديع، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عمّا فيها.

وكان ربّما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بأخر سطر منه، ثم هلمّ جرّاً إلى الأول، ويخرجه كأحسن شيء وأملحّه، ويوشح القصيدة الفريدة من قبله^(١٠) بالرسالة

⁼ وشذرات الذهب ٥١٣/٤.

(١) كذا في الأصل، ولم أفهم لها معنى. (٢) في يتيمة الدهر ٢٥٦/٤.

(٣) في الأصل: مفخر. (٤) ومن: ليست في الاصل.

(٥) في اليتيمة: لا يحزم حرفا، ولا يخلّ بمعنى.

(٦) إلا: ليست في الأصل. (٧) في الأصل: يسرده.

(٨) بعدها في اليتيمة: وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها.

(٩) في اليتيمة: أو. (١٠) في اليتيمة: قوله.

الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم ومن النثر^(١)، ويُعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويُقترَحُ عليه كلُّ عروض^(٢) فيرتجله في أسرع من الطَّرفِ، على ريق لا يبلَّعه، ونَفْس لا يقطعها، وكلامه كلُّه عفو الساعة، وقبض اليد^(٣)، ومُسارقة القلم، ومجاراة الخاطر^(٤).

وكان مع هذا مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف. عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الودِّ، حُلُو الصداقة، مرَّ العداوة /٤٩/ فارق همدان^(٥) وهو مُقْتَبَلُ الشيبية، غَضَّ الحداثة^(٦)، ووافي^(٧) نيسابور بها فنشر بَزَّهُ، وأظهر طرزها، وأملَى مقاماته وغيرها^(٨)، وضمَّنها ماتشتهي الأنفس^(٩)، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيقي المظَّلَع^(١٠) والمقطوع كسجع الحمام، ثم^(١١) ألقى عصاه بهراة، فعاش بها عيشة راضية، حين بلغ أشده، واربى على أربعين سنة ناداهُ اللهُ فَلَبَّاهُ وفارق دنياه في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة. فقامت نوادب الأدب، وانثلم حدَّ القلم^(١٢)، على أنه مامات من لم يمت ذكره، ولقد خلدَ

(١) في اليتيمة: فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم.

(٢) في اليتيمة: عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله.

(٣) في اليتيمة: وفيض البديهة.

(٤) في اليتيمة: ومسابقة اليد، وجمرات الحدة، وثمرات المدَّة، ومجاراة الخاطر للناظر.

(٥) بعدها في اليتيمة: سنة ثمانين وثلاث مئة.

(٦) بعدها في اليتيمة: وقد درس على أبي الحسين بن فارس، وأخذ عنه جميع ما عنده، واستنفذ علمه، واستنزف بحره، وورد حضرة الصاحب أبي القاسم، فتزوَّد من ثمارها وحسَّن آثارها، ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية، والتعيش في أكنافهم والاقْتِباس من أنوارهم، واختصَّ بأبي سعدٍ محمد بن منصور أيده اللهُ تعالى. ونَفَقَتْ بضائعه لديه، وتوفَّر حظُّه من عاداته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الفضائل.

(٧) في الأصل: وولي. لم يرد في مصادر ترجمته أنه ولي نيسابور، وفي اليتيمة: ولما استقرت عزمته على قُصْد نيسابور أعانته على حركته، وأزاح عِلَّله في سفرته، فوافاه في سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة. ونشر بها بَزَّهُ ... الخ.

(٨) في اليتيمة: وأملَى أربع مئة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها.

(٩) بعدها في اليتيمة: وتلد العين.

(١٠) في الأصل: رشيقي القطع والمقطع.

(١١) قبلها في اليتيمة: كلام كثير تحدث فيه على ما حدث بين الحريري وأبي بكر الخوارزمي. ثم قال: وألقى عصاه بهراة، واتخذها دار قراره، ومجمع اسباب، إلى أن وصل إلى قوله: فعاش عيشة راضية.

(١٢) بعده في اليتيمة: وفقدت عين الفضل قرَّتْها، وجبهة الدهر غرَّتْها، وبكاه الأفاضل مع الفضائل، ورثاه الأكارم مع المكارم.

من بقي على الأيام نظمُهُ ونثره^(١).

وسُئِلَ بعض علماء الأدب عن الحريري والبديع في مقاماتهما، فقال:
لم يبلغ الحريري أن يُسمَى بديع يوم، فيكف يقارب بديع زمان.
ومن نثره قوله^(٢):

وقد نظرتُ في المرأة فوجدتُ الشَّيبَ يتلَهَّبُ ويَنهَبُ، والشباب يتأهَّبُ ويذهب،
وما أسرج هذا الأشهب إلا لسيرٍ، وأسأل الله خاتمة خَيْرٍ.
ومنه قوله^(٣):

أَبْرَزَتْ باطنُهُ، وحرَّكَتْ ساكنه، وأخرجت دفائن صدره، ورفعت أذيال ستره،
فملاً فكَّيه وعيدا، ولحييه تهديداً، وكان جوابنا أن قلنا: بعض الوعيد يذهب في
البيد.[من السريع]

جاء شقيقٌ عارضاً رُمَحَهُ إنَّ بني عمِّك فيهم رِمَاحٌ^(٤)
إنا نقحَمُ الخطبَ، وتوسط الحرب^(٥) [من المتقارب]
فأرضك أرضك إن تأتينا تنمُ نومةً ليس فيها حُلْمُ
ومتى شئت لقيت خصماً ضحماً ينهشك قَضْماً، ويأكلك خضماً، فجعل الشيطان
يثقل بذلك أجفان طرفه، ويقيم به شعرات انفه [من الوافر]
وحتى ظنَّ أنَّ الغشَّ نُصْحِي ووخالفني كأني قلتُ هَجْراً^(٦)
ومنه قوله:

وبينا عذراء زجاجها خدرها، وحبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها كمامة، أو
شمس حَجَبَتْها غمامة، إذا طاف بها الساقى، فورده على غصنها، أو شربها مقهقهة
فحمامه على فَنِّها.

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن يتيمة الدهر.

(٢) من رسالة بعث بها إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الاسفرائيني، وهو أول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين. انظر: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص ١٢.

(٣) الكلمة في رسائله ص ٣٨.

(٤) بعده في الرسائل:

بل أحدث الدهر بنا نكبةً أم هل رَفَّتْ أم شقيقٍ سلاح
وهما لحجل بن نضلة كما في المؤلف والمختلف للآمدي ص ١١٢.

(٥) بعدها في الرسائل: فتردها مقحمين أو نصدرها بلغاء. [من الطويل]

والسننا قبل النزال قصيرة ولكنها بعد النزال طوال

(٦) البيت من قصيدة لبشر بن عوانة العذري في مقامات البديع ص ٢٥٢ ومنتهى الطلب ٢٥٨/٨.

ومنه قوله^(١):

انظر إلى الكلام وقائله، فإن كان وليا فهو الولاء وإن خُشِنَ، وإن كان عدوًّا فهو البلاء وإن حُسِّنَ، / ٥٠ / ألا ترى العرب تقول قاتله الله ولا يريدون الدم، ولا أبا له في الأمر إذا تمَّ^(٢).
ومنه قوله:

وفائدة الاعتقاد أفضل في الانتقاد، والسماح يكسر الرماح، والصفح يفلّ الصفاح، والوجود أنصر من الجنود، فإن كشف الضرّ عن الحرّ أجمل من كشف الصدف عن الدرّ، ومن عُرِفَ بالمنح قُصِدَ بالمدح، وقد ظلم من يُلُومُ غيرَ مَلُومٍ، فالتغاضي يصحب المراضى، واللبيب يُعيد البعيدَ قريباً، والعدوّ حبيباً، وحضرة السلطان مفزع الراجين، ومنزع اللّاجين، إليها يعودون، وبها يعوذون، وهي المقرّ، وإليها المقرّ، وإذا عدلّ الملك أقصر الحائف، وآمن الخائف، وخير الاخوان مَنْ ليس بخوّان، وُدّه ميمون، وغيبه مأمون، فهو يُحالفك ولا يخالفك، ويرافقك ولا يفارقك، ويوافقك ولا ينافقك، ويعاشرك ولا يكاشرك، وإذا حَصُرْتَ حنا عليك، وإذا غِبْتَ حنَّ إليك.

ومنه قوله^(٣) وقد كتب إليه بعض مَنْ عزل عن ولاية حسنة، وذوى يانِعُ غُصْنِهِ، يستمدُّ منه وداداً طالما تركه، ويستميل فؤاداً كان يظنّ أنه قد ملكه، وإذا بحوادث الأيام قد غيّرت ماعهد، وحسنت له بذل ما كان يظن به فلم يفد:

أما بعد: فقد وَرَدَتْ رقعتك^(٤) فلم تَنَدَ على كبدي، ولم تَحْظَ بناظري ويدي، وخطبت من مودّتي ما لم أجِدْكَ له أهلاً^(٥)، وقُلْتُ: هذا الذي^(٦) تاه بحسن قدّه، وزهى بورده خدّه^(٧)، فالآن إذ نسخ الدهر آية حُسنِهِ، وأقام مائل غُصْنِهِ^(٨)، وانتصر لنا منه بشعراتٍ كَسَفَتْ هلاله، وأكسفتُ باله، ومسحتُ جماله، وغيّرتُ حاله، فمهلاً

(١) الرسائل ٢٤٩، وبيمة الدهر ٤/٢٦٣.

(٢) الكلمة في البيمة ٤/٢٦٣ باختلاف في الترتيب ومخالفة في بعض الالفاظ.

(٣) رسائله ص ٨٤.

(٤) بعدها في الرسائل: أطال الله بقاءك، فاعرتها طرف التعزّر، ومددت إليها يد التقرّز، وجمعت عنها ذيل التحرز.

(٥) في الرسائل: كفاء، وبعدها: وطلبت من عشرتي ما لم أرك له رضا.

(٦) بعدها في الرسائل: رفع عنا أجفان طرفه أو شال شعرات أنفه وتاه...

(٧) ولم يسقنا من نوته، ولم نسر بضوته.

(٨) بعدها في الرسائل: وقتاً غرب عجبه، وكف زهو زهره.

مهلاً^(١)، وتناس^(٢) أيامك إذ تكلمنا نزرا وتلحظنا شزرا^(٣). [من الطويل]

ومن لك بالعين التي كنت مرةً إليك بها في سالف الدهر انظر
أيام كنت تتلفت^(٤) والأكباد تَتَفَتَّتْ (وتدبر)^(٥) وتقبل فتنمى (وتخبل)^(٦) فتصد
(وتعرض)^(٧) فتضني (وتعرض)^(٨) [من الطويل]

وتبسمُ عن أَلَمَى كَأَنَّ مَنْوَرًا تَخَلَّلَ حَرَّ الرَّمْلِ غَضٌّ لَهُ نَدِي
فاقصر الآن / ٥١ / فإنه سوق كَسَدٌ، ومتاع فَسَدٌ، ودولة عرضت، وأيام
انقضت^(٩)، ويوم صار أَمَسٌ، وحسرةٌ بَقِيَتْ فِي النَفْسِ، فحتم تدلُّ وإلَامٌ، وكَم
نحتمل وعلام؟ وقد بلغني ماأنت مُتَعَاطِيهِ مِنْ تَمَوِيهِ وَيَجُوزُ بَعْدَ العِشَاءِ فِي الغَسَقِ،
وينفق^(١٠) على السوق وإفناؤك لتلك الشعرات حزا وحصًا وبتفًا وقصا، فأنا برحلك
وجانبك وحبلك مُلْقَى عَلَى غَارِبِكَ، ولو أَحْبَبْتُ أَنْ أُوْجِعَكَ لَقَلْتُ: [من مخلج
البيسط]

مايفعلُ اللهُ باليهودِ ولا ببعادٍ ولا ثمودِ
ولا بفرعونَ إذ عصاه مايفعلُ الشُّعْرُ بِالْحُجُودِ
ومنه قوله^(١١):

كتابي إلى البحر وإن لم أره فقد سمعتُ خبره، والليث وإن لم ألقه فقد تصوّرت
خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، فقد بلغني صيته، ومن رأى من السيف أثره
فقد رأى أكثره، وهذه الحضرة وإن احتاج إليها المأمون، ولم يستغن عنها قارون،

(١) في الرسائل: فمهلاً يابأبا الفضل مهلاً. وبعدها: [من مجزوء الكامل]

أرغبتَ فينا إذ علا
وخرجتَ عن حدِّ الظبا
الآن تطلبُ عشرتي
غد للعداوة يا حَجَل

(٢) في الرسائل: وتناسبت.

(٣) بعدها في الرسائل: وتجالس من حَصَر، ونسرق النظر، ونهتزُّ لكلامك، ونهشُّ لسلامك.

(٤) بعدها في الرسائل: تمايل، والأعضاء تتزائل وتتغافج، والأجساد تتعالج وتتلفت.

(٥) الزيادة عن الرسائل. (٦) الزيادة عن الرسائل.

(٧) الزيادة عن الرسائل. (٨) الزيادة عن الرسائل.

(٩) بعدها في الرسائل: [من المتقارب]

وعهد نفاق مضى
وخطبُ كساد نزل
وخذُ كأن لم يكن
وخطُّ كأن لم يزل

(١٠) كذا في الأصل وفي الرسائل: وتشبيه يفتضح عند ذوي البصر.

(١١) الرسائل ٣٥٨ وبتيمة الدهر ٤ / ٢٧٥.

فإن الأحبَّ إليَّ أن أقصدها قصد موال، والرجوع عنها بجمال أحبَّ إليَّ من الرجوع عنها بمال، قدّمت التعريف وأنا أنتظر التشريف.
ومنه قوله^(١):

عافاك الله، مثلُ الإنسان في الاحسان، كمثل^(٢) الاشجار في الاثمار، سبيله إذا أتى بالحسنة^(٣)، أن يُرفَّه من السنة إلى السنة^(٤)، وأنا كما ذكرت، لا أملك عُضويَّ من جسدي، وهما فؤادي ويدي، أما الفؤاد فيعلّق بالفود، وأما اليد فتولّع بالجوّد، ولكنّ هذا الخُلُق النفيس، ليس^(٥) يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم ليس يحتملُه الغريم، ولا قرابة بين الذهب والأدب^(٦)، ولا يمكن تَرُدُّه^(٧) في قصعة، ولا صرفُه في ثمن سلعة، ولي مع الأدب نادرة، حمدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من (جيمية) الشماخ لونا فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع من (ادب الكاتب) فلم يقبل واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت، فانشدت من شعر الكميت ألفاً ومائتي بيت، فلم يُغن فيما به اعتنيت. ولو وقعت ارجوزة العجاج في توابل السكباغ / ٥٢ / ماعدّ منها عندي لون، ولا استقرّ صون، بل ليست تقع مما أصنع، فإن كنت تحسب اختلافك إليّ أفضل علي فراحتك راحتي، وراحتي أن لا تطرق ساحتي.
ومنه قوله^(٨):

أنا لقرب دار مولاي^(٩): [من الطويل]

كما طرب النشوان مالت به الخمرُ

ومن الارتياح للقاءه: [من الطويل]

كما انتفض العصفور بلّله القطر

ومن الامتزاج بولائه: [من الطويل]

كما التقت الصهباء والبارد العذبُ

ومن الابتهاج بمزاره^(١٠): [من الطويل]

-
- (١) رسائله ص ٢٢١، ومعاهد التنصيص ١٢٤/٣ وبتيمة الدهر ٢٥٨/٤.
(٢) الرسائل: مكل. (٣) في الأصل: سبيله من أتى بالحسنة.
(٤) الرسائل: أن يرفه إلى السنة. (٥) الرسائل: لا.
(٦) بعده في الرسائل: فلما جمعت بينهما. (٧) الأصل: رده.
(٨) رسائله ص ١٢٨ وبتيمة الدهر ٢٥٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/١.
(٩) الرسائل والمعاهد: أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه.
(١٠) في الرسائل: المرأة.

كما اهتزت تحت الباريح الغصن الرطب

ومن شعره، قوله^(١): [من البسيط]

عليّ ألا أريح العيس والقَتبا
وأترك الخود معسولاً مقبلها
وظفلة كقضيبي البان منعطفاً
قالت وقد علقت ذيلي تودعني
كنت الشبيبة أبهى ما دجت درجت
أبى المقام بدار الذل لي كرم
وعزيمة لاتزال الدهر ضاربة
ياسيد الامراء أفخر فما^(٣) ملك
إذا دعنتك المعالي عرف هامتها
أئن الذين أعدوا المال من ملك
مالليث محتطماً والسيل مرتطماً
أمضى شباً منك، أذهى منك صاعقة
وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نظقت
يامن يراه ملوك الأرض فوقهم
/٥٣/ ومنه قوله^(٥): [من الطويل]

أيا ملكاً أدنى مناقبه العلاء
هو البدر إلا أنه البحر زاخراً
محاسن يبيدها العيان كما بدا^(٦)
وأيسر ما فيه السماحة والبذل
سوى أنه الضرغام لكته الوبل
وإن نحن حدثنا بها صدق العقل

(١) القصيدة في ديوانه ٣٢ ومعاهد التنصيص ١٢٨/٣ وبيمة الدهر ٤/٢٩٢ وبيتان منها في الوفيات ١/١٢٨.

(٢) في المعاهد: البيض، وفي البيمة: اليد.

(٣) في البيمة: فلا.

(٤) في الأصل: إلا تمنك مولى والملوك أبا.

(٥) الأبيات في البيمة ٤/٣٠٠ وديوانه: ١٢٠.

(٦) في البيمة: كما ترى.

وجاراك أفراد الملوِك إلى العُلا وحقاً لقد أعجزتهم ولك الخصلُ
سما بك من عمرو ويعقوب محتد كذا الأصل مفخور به وكذا النسلُ
وحكى ابن ظافر^(١)، قال: حكى بديع الزمان الهمداني قال: قال الصاحب يوماً
لجلسائه وأنا فيهم، وقد جرى ذكر أبي فراس بن حمدان: لا يقدر أحد أن يزور علي
أبي فراس شعراً، فقلت: ومن يقدر أن يزور عليه شعره وهو الذي يقول، وقلت
ارتجالاً^(٢): [من الوافر]

رويدك لاتصل يدها بباِعك ولا تغز السباع إلى رباِعك
ولا تُعِن العدوَّ عليّ إني يمينك إن قطعت فمن ذراعك
فقال الصاحب: صدقت، فقلت: أيد الله مولانا، هاقد فعلت وزورت على أبي
فراس، وهذا شعري، فعجب منه.

وحكي: أنه جرى ذكره في مجلس شيخه أبي الحسين بن فارس^(٣)، فقال
مامعناه: إن بديع الزمان قد نسي حقَّ تعليمنا إياه، وعقنا وطمح بأنفه عنا، فالحمد لله
على فساد الزمان، وتغير نوع الانسان، فكتب^(٤) إليه بديع الزمان:

نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام. إنه الحمأ المسنون، وإن ظننت به الظنون
والناس لآدم^(٥)، وإن كان العهد قد تقادم، وارتكبت^(٦) الأضداد، واختلاف^(٧)
الميلاد والشيخ يقول: قد فسَدَ الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية
فقد رأينا آخرها وسمعنا بأولها، أم المدة المروانية وفي أخبارها: [من الرجز]

لا تكسع الشول بأغبارها^(٨)

أم السنين الحربية^(٩): [من مجزوء الكامل]

(١) في بدائع البداة ٣٥٣ وانظر يتيمة الدهر ٨٧/١ ومعجم الأدياء ٢٤٤/١.

(٢) البيتان ليسا في ديوان البديع، وهما في ديوان أبي فراس ١٨٩.

(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، اللغوي، صاحب (الجمل) في اللغة. وكان إماماً في علوم شتى، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمداني. توفي بالري سنة ٣٩٠ هـ.
انظر: معجم الأدياء ٨٠/٤ ووفيات الأعيان ١١٨/١ وإنباه الرواة ٩٢/١ واليتيمة ٤٠٢/٣.

(٤) الرسالة في: يتيمة الدهر ٢٧٠/٤ ومعاهد التنصيص ١٢٤/٣ ورسائله ص ٤١٤.

(٥) في الرسائل: والناس ينسون لآدم.

(٦) في الرسائل: وارتكبت، وفي المعاهد: وتركبت.

(٧) في الرسائل: واختلط.

(٨) شطر بيت و عجزه: إنك لا تدري من الناتج. وهو للحارث بن حلزة (ديوانه ص ٦٥).

(٩) يريد بها أيام معاوية بن أبي سفيان بن حرب وابنه يزيد.

والسيفُ يُعقدُ في الطُّلى والرمحُ يُركزُ في الكُلى
ومبيتُ حَجْرٍ^(١) في الفَلا والحَرَّتَانِ^(٢) وكربلاء^(٣)

أم البيعة الهاشمية [وعليٌّ يقول: ليت العشرة منكم]^(٤) برأس من بني فراس / ٥٤ /
أم الأيام الأموية^(٥)، والنفير إلى الحجاز، والعيون تنظر إلى الأعجاز، أم الإمارة
العدوية^(٦) وصاحبها يقول: هل بعد النزول إلا النزول، أم الخلافة التيمية^(٧) وهو
يقول: طوبى لمن مات في نأنة الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل: اسكتي
يافلانة، فقد ذهبت الأمانة؟ أم في الجاهلية وليد يقول^(٨): [من الكامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَقِيْتُ فِي خَلْفِ كَجَلْدِ الْأَجْرِبِ
أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ^(٩): [من الطويل]

إِذِ النَّاسِ نَاسٌ وَالْبِلَادِ بِلَادٌ

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَآدَمَ فِيمَا قِيلَ يَقُولُ^(١٠): [من الوافر]

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١١)

ما فسَدَ الناس، إنما اطرَد القياس، ولا أظلمت الأيام، إنما امتد الظلام، وهل
يفسد الشيء إلا عن صلاح، ويُفسى المرء إلا عن صباح؟

(١) يريد به حجر بن عدي الكندي، الصحابي الجليل، الذي قتله معاونه صبراً.

(٢) يريد حرّتي المدينة المنورة، حيث قتل أهلها أيام يزيد بن معاوية.

(٣) كربلاء: الموضوع المعروف الذي استشهد به الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، واثبتته عن الرسائل والمعاهد واليتمية.

(٥) يريد بها أيام عثمان بن عفان الأموي.

(٦) يريد بها أيام عمر بن الخطاب العدوي.

(٧) يريد بها أيام أبي بكر بن أبي قحافة التيمي.

(٨) ديوانه ص ١٥٣.

(٩) كذا ورد هذا العجز في الأصل، والبيت كما في الرسائل واليتمية:

بلاد بها كنا وكننا نحبها إذ الناس ناس والزمان زمان

(١٠) من بيت نسب لآدم في تاريخ الطبري ١٤٥/١ ونسبه حمزة الأصفهاني في التنبيه على حدوث التصحيف إلى خلف الأحمر.

(١١) سورة البقرة: ٣٠.

وإني على توبيخ شيخنا لفقير إلى لقاءه، شفيق على بقائه، منتسب إلى ولائه، شاكراً لآلائه، لا أحلّ حريداً عن أمره، ولا أفلّ عن قلبه، وما نسيته ولا أنساه إن له على كلّ نعمةٍ حَوْلَيْنِهَا اللهُ نَاراً^(١)، وعلى كلّ كلمةٍ عَلَمْنِيهَا مَنْاراً، ولو عرفتُ لكتابي موقِعاً من قَلْبِهِ لا عَتَمْتُ خِدْمَتَهُ بِهِ، ولرددت إليه سؤراً^(٢) كأسه، وفضلَ أنفاسه، ولكني خشيتُ أن يقول: ﴿هَلْذِهِ يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾^(٣)، ولهُ أَيْدِ اللهُ العتبي، والمودّة في القُربى، والمرباع، وماناله الباع، وماضمه الجلد^(٤)، وضمّته السمط^(٥)، ليست رضا ولكنها جلّ ما أملك^(٦).

وإثان - أيد الله الشيخ الإمام^(٧) - [قلّما يجتمعان]^(٨) الخراسانية والانسانية، [وإنا]^(٩) وإن لم أكن خراساني الطينة، فإني خراساني المدينة، والمرء من حيث يُوجدُ، لا من حيث يولد^(١٠)، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان^(١١)، ارتفع القلمُ وسَقَطَ التكليف فالجرحُ جُبار، والجاني حمار، ولا جنة ولا نار فليلمني^(١٢) الشيخ على هناتي، أليس صاحبنا^(١٣) يقول: [من الخفيف]

/٥٥/ لا تَلْمَنِي على رِكَائِةِ عَقْلِي إن تيقنت أنني همداني

والسلام.

قوله: والعيون تنظر إلى الأعجاز: إشارة إلى قول أحد الذين قتلوا عثمان لما دخلوا عليه فنظروا إلى نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان وهي تصيح، فقالوا: أن عجزها لكبير. واجتمع بديع الزمان الهمداني والاسْتاذ أبو بكر الخوارزمي^(١٤) في دار السيد

(١) في الأصل: إن له على نعمةٍ خوامتها.

(٢) السؤر: بقية ما في الكأس. (٣) سورة يوسف: ٦٥.

(٤) في اليتيمة: والمرباع وماضمه الجلد وناله الباع.

(٥) في اليتيمة: المشط.

(٦) في اليتيمة: بيت الشعر: [من المتقارب]

ووالله ما هني عندي رضا ولكنّها جُلّ ما أملك

(٧) ليست في اليتيمة. (٨) ليست في الأصل.

(٩) ليست في الأصل.

(١٠) بعدها في اليتيمة: والانسان من حيث يثبت، لا من يحث يثبت.

(١١) العبارة في الأصل: فإذا اضاف إلى خراسان ولا همدان.

(١٢) في اليتيمة والرسائل: فليحتلني.

(١٣) في الأصل: صاحبها.

(١٤) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، شاعر من الكتاب المترسلين، وهو ابن أخت محمد بن جرير =

أبي القاسم المستوفي بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم من سائر الناس، فجرى بينهما من المناظرة ما ذكره إن شاء الله تعالى^(١).

قال الاستاذ أبو الفضل بديع الزمان: سأل السيد أمتع الله ببقائه إخوانه أن أملي جميع ماجرى بيننا وبين [أبي] بكر الخوارزمي - أعزه الله - من مناظرة مرة ومناظرة أخرى، ومواعدة أولاً، ومنازعة ثانياً، أملاءً يجعلُ السماعُ له عياناً، فما تلقيته إلا بالطاعة على حسب الاستطاعة، ولكنَّ للقصة تشبيهاً لا تطيبُ إلاَّ به، ومقدمات لا تحسن إلاَّ معها، وساسوق بعون الله صدر حديثنا إلى العجز، كما يساق الماء إلى الأرض الجُرز، فبدأ فيها باسم الله عز وجل والصلاة على النبي ﷺ [ذهاباً بالقصة عن أن تكون ببراء، وصيانة لها عن أن تدعى جذماء، قال رسول الله ﷺ]^(٢) كل خطبة لا يبدأ فيها باسم الله عز وجل فهي ببراء، وخطب زياد خطبته البتراء^(٣)؛ لأنه لم يبدأ بحمد الله عز وجل، ولم يصلِّ على رسوله ﷺ، وهذا مقام نعوذُ بالله منه، ونسأله التوفيق للصواب نُوردهُ ونُصدِّرهُ.

نعم أطال الله بقاء السيد، وأمتع ببقائه إخوانه، إن قعدنا نعدُّ آثاركم ونؤدي مآثركم نعدُّ الحضرُ قبل نفودها، وفنيت الخواطر قبل أن تفتنى المآثر. وكيف لا وإن ذكر الشرف فأنتم بنو بجدته، أو العلم فأنتم عاقِدو بُردتِه، أو الدين فأنتم ساكنو بلدته، أو الجود فأنتم لابسو جلدتِه، أو التواضع صبرتم لشدته، أو الرأي صلتم بنجدته، وإن بيتاً تولى الله بناءه ولزم الرسولُ /٥٦/ ﷺ فناءه، وأقام الوصي عليه السلام عماده، وخدم جبريل عليه السلام أهله لحقيق أن يُصان عن مدح لسانٍ قصير، ونحن نعوذُ للقصة نسوقها:

فأولها: أنا وطئنا خراسان فما اخترنا إلا نيسابور داراً، وإلا جوار السادة جواراً، لا جرم، أنا حططنا بها الرحل، مددنا عليها الطنب، وقديماً كنا نسמע بحديث هذا الفاضل فنتشوقه، ونخبره عن الغيب فتتعمقه، ونقدرُ أنا إذا وطئنا أرضه ووردنا بلدَه. فخرج لنا في العشرة عن القشرة، فقد كانت لُحمة الأدب جمعتنا، وكلمة

^١ الطبري صاحب التاريخ. كان إماماً في اللغة والأدب والأنساب. أقام بالشام وقصد الصحاح بن عباد بأرجان ثم فارقه وسكن في نيسابور ومات بها سنة ٣٨٣هـ أو ٣٩٣هـ.

انظر: وفيات الأعيان ٤/٤٠٠ والوافي ٣/١٩١. ونشرت مجموعة رسائله في بيروت عام ١٩٧٠.

(١) المناظرة في الرسائل ٢٨ ومعجم الأدباء ١/٢٣٩.

(٢) ما بين معقوفتين سقط من الأصل وأثبتته عن مصادر النص.

(٣) خطبة زياد ابن أبيه البتراء في أمالي القالي ٣/٨٥ وعيون الأخبار.

الغربة نظمتنا، وقد قال شاعر العرب غير مدافع^(١): [من الطويل]

أجارتنا إنا غريبان هُنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ
فأخلفَ ذلكَ الظَّنُّ كُلَّ الإخلافِ، واختلفَ ذلكَ التعذيرُ كُلَّ الاختلافِ. وكان قد
اتفق لنا في الطريق اتفاقاً. لم يُوجِبهُ استحقاق، من بَزَّةٍ بزوها، وفضةً فضوها، وذهب
ذهبوا به. وردنا نيسابور براحةً ألقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزِيٌّ
أوحش من طلعة المعلم بل اطلاعة الرقيب، فما حَلَلْنَا إِلَّا قَصَبَةَ جِوَارِهِ، ولا وطننا
إِلَّا عتبه داره، وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها، فلما أخذتنا عَيْنُهُ^(٢)
سقانا الدُردي^(٣) من أوَّلِ دَنِّهِ، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فَنِّهِ، من طرفِ نَظَرٍ
بشطره، وقيام دفع في صدره، وصديق استهان بقدره، وضيف استخف بأمره، لكن
أقَطَعْنَاهُ جانب أخلاقه، وولَّيْنَاهُ خِطَّةَ رَأْيِهِ، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذبٌ،
وشربناه كلَّ كدرية^(٤). ولبسناه كلَّ خشونته^(٥)، ورددنا الأمر في ذلك الى زي استغثه
ولباس استرته، وكاتبناه نستمدُّ وداده، ونستلين^(٦) قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منأده
بما هذه نسختُه بعد البسمة^(٧):

الاستاذ أبو بكر والله يُطيلُ بقاءه. أزرى بضيفه، أَنْ وَجَدَهُ يَضْرِبُ^(٨) / ٥٧ / آباط
القلَّة في أطمار الغربة، فأعْمَلَ في مرتبته أنواع المصارفة، وفي الاهتزاز له اصناف
المضايقة، من إيماء بنصف الطَّرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن
التمام، ومضع للكلام، وتكلف لردِّ السلام، وقد قَبِلْتُ تربيته صَعراً^(٩)، واحتملته
وزراً، واحتضنته نكراً، وتابَّطته شراً، ولم أله عُذراً، فإن المرء بالمال وثياب
الجمال، ولَسْتُ مع هذه الحال، وفي هذه الأسمال أتَقَرَّرُ صَفَّ النِّعَالِ^(١٠)، فلو
صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلتُ إن نوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح،
وناساً يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف.

(١) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ٣٥٧.

(٢) في الرسائل: فلما أخذنا لحظ عينه.

(٣) الدردية: ردي الخمر.

(٤) في الرسائل: على كُدورتيه.

(٥) في الأصل: كل خشونته.

(٦) في الرسائل: بسم الله الرحمن الرحيم.

(٧) بعدها في الرسائل: إليه.

(٨) الصعر: ميل الوجه، والنظر عن الناس تهاوناً بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

(٩) يتقزز: يتباعد.

وفيهم مقامات حسانٌ وجوهُهُم وأنديةٌ ينتابها القول والفعل^(١) فلو طَوَّحَتْ^(٢) بأبي بكرٍ أيده الله طوارحُ العُربة لوجدَ مثالَ البشر قريباً. ومحط الرحل رحيباً، ووجه المضيف خصيباً، ورأى الاستاذ أبي بكر أيده الله تعالى في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه وَدَّ، والمر الذي يتلوه شهد، موفق إن شاء الله^(٣) فأجاب بما هذه نسخته: ^(٤)

وصلت رقعةُ سيدي ورئيسي^(٥)، أطال الله بقاءه (إلى آخر)^(٦) السكباح، وعرفت بما تضمنته من حُسن خطابيه. ومؤلم عَثْبِهِ^(٧) وعتابه. وحمَلْتُ ذلك منه على الضَّجْر التي لا يخلق منها مَنْ مَسَّهُ عُسْرٌ، ونبا به دهر، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسِهِ، ومظنَّةٍ مشتكى مافي نفسه، أمّا ماشكاه سيدي ورئيسي من مُضايقتي إِيَّاه زعم في القيام (عن التمام)^(٨)، فقد وفَّيته حقَّه أيدهُ الله سلاماً وقياماً، على قدر ما استطعت^(٩) عليه ووصلت إليه، ولم أرفع عليه إلا السيّد أبا البركات العلوي أدام الله عزّه، وماكنت لأرفع أحداً على من أبوه^(١٠) الرسول وأمه البتول. وشاهداهُ التوراةُ والانجيل، وناصرهُ التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل وميكائيل، فأما القوم وما وصف^(١١) سيدي عنهم فكما وصف، حُسْنُ عشرة / ٥٨ / وسدادُ طريقةٍ، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاوَزْتهم فأحمدتُ المراد ونلتُ المراد. [من الطويل]

فإنَّك قد فارقتُ نجداً وأهلهُ فما عهدُ نجدٍ عندنا بذيَمٍ
والله يعلم نيتي للاحرار^(١٢) كافةً ولسيدي (أدام الله عزّه)^(١٣) من بينهم خاصّةً،
فإن أعانني^(١٤) على مافي نفسي، بلَغْتُ له بعض مافي النية^(١٥)، وجاوزت (به)^(١٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى (ديوانه ١١٣).

(٢) الاصل: طرحت: والتصويب عن الرسائل.

(٣) بعده في الرسائل: تعالي. (٤) في الرسائل: بما نسخته:.

(٥) في الرسائل: سيدي ومولاي ورئيسي.

(٦) (إلى آخر) لم ترد في الأصل وأثبتها عن رسائله، والسكباح، طبيخ يعمل من اللحم والخل والمرق، معرّب.

(٧) عتبه، ليست في الرسائل. (٨) لم ترد في الرسائل.

(٩) في الرسائل: قدرْتُ. (١٠) الرسائل: جدّه.

(١١) الرسائل: فأما القوم الذين صدر سيدي.

(١٢) الرسائل: للاخوان.

(١٣) ليست في الرسائل. (١٤) الرسائل: أعانني الدهر.

(١٥) الرسائل: بلغت إليه مافي الفكرة.

(١٦) ليست في الرسائل.

مسافة القدرة، وإن قَطَعَ عليّ طريق عزمي^(١) بالمعارضة وسوء المؤاخذة، صرفت عناني عن طريق الاختيار^(٢). [من الطويل]

فما النفسُ إلا نطفة بقرارة^(٣) إذا لم تُكدرْ كانَ صَفْواً غديرها^(٤)

وبعد فحبذا عتابُ سيدي إذا استوجبتنا عتبا، واقترفنا ذنبا، فأما أن يسلفنا العريضة، فنحنُ نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتمالِهِ^(٥)، ولستُ أسومهُ أن يقول: ﴿أَسْتَفِرُّ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾^(٦) ولكني أسأله أن يقول: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٧) فحين وَرَدَ الجواب وغير العذر رائده تركناه بعرّة، وطوبناه على عرّة، وعمدنا لذكرهِ فسحونا^(٨) عن صحيفتنا ومحونا، وصرنا إلى اسمه فأخذناه وبنذناه، وتنبكنا خطته، وتجنّبنا خلطته فلا طرنا به ولا طرنا إليه^(٩)، ومضى على ذلك الأسبوع^(١٠)، ودَرَجت الليالي، وتطاوَلت المدّة، وتصرّم الشهر، وصرنا لأنغير الأسماع ذكره، ولانودع الصدر حديثه، وجعل هذا الفاضل يستزيد ويستعيد، بألفاظٍ تَقْطِفها الأسماع من لسانِهِ، وتردّها^(١١) إليّ، وكلماتٍ تحفظها الألسنة من فيه وتعيدها عليّ.

فكاتبناه بما هذه نسخته:

أنا^(١٢) أَرِدُ مِنَ الاستاذ سيدي - أطال الله بقاءه - شرعةً ودّه وإن لم تَصْفُ، وألبسُ خِلعةً برّه وإن لم تَصْفُ، وقُصاراي أن أكيله صاعاً عن مدّ، فإنّي وإن كنت في الأدب دعويّ النسب، ضعيف السبب، ضيق المضطرب^(١٣)، سيء المنقلب، أمثُ إلى عشيرة أهله بنيقة، وأنزه إلى خدمة أصحابه بطريقة، ولكن بقي أن يكون / ٥٩ / الخليط مُنْصفاً في الوداد، إذا زرتُ زار، وإن عُدْتُ عاد، وسيدي أيّده الله ناقشني في القبول أولاً، وصادفني في الإقبال ثانياً، فأما حديث الاستقبال. وأمر الإنزال والانزال فنطاق الطمع ضيق عنه، غير متسع لتوقعه منه. وبعد: فكُلْفَةُ الفضل هيّنة، وفروض الودّ مُتعيّنة، وأرض العشرة ليّنة، وطرقها بيّنة، فلمَ اختار قعود التعالي مركباً، وصعود

- | | |
|-------------------------------------|------------------------------------------------|
| (١) الرسائل: عشرتي. | (٨) سحا التراب: جرفه. |
| (٢) بعدها في الرسائل: بيد الاضطرار. | (٩) الرسائل: ولا صرنا به. |
| (٣) الأصل: في قرارة. | (١٠) بعده في الرسائل: ودبت الأيام. |
| (٤) الرسائل: معيها. | (١١) الرسائل: توردها. |
| (٥) الاصل: احتمالها عليه. | (١٢) قبلها في الرسائل: بسم الله الرحمن الرحيم. |
| (٦) سورة يوسف: ٩٧. | (١٣) الاصل: المطرب. |
| (٧) سورة يوسف: ٩٢. | |

التغالي مذهباً؟، وهلا ذَادَ الطيرَ عن شَجَرِ العشرة، وذاق الحلو من ثمرها؟، فقد علم الله أن شوقي إليه قد كَدَّ الفؤادَ برحاً على بَرَح، ونكأهُ قرحاً على قرح، ولكنها مِرَّةٌ مِرَّةٌ ونفسٌ حُرَّة، لم تُعَدَّ إلاَّ بالإعظام ولم تُلَقَّ إلاَّ باجلال، وإذا استعفاني من معاتبي، وأعفى نفسه من كُلفِ الفضلِ يَتَجَسَّمُها، فليس إلاَّ عُصَصُ الشوقِ أتجرعُها، وحُللِ الصبرِ أتدرعُها ولم أُغرِه من نفسي. وأنا لو أَعَرْتُ جناحي طائر لما طرْتُ إلا إليه. ولا وَقَعْتُ إلاَّ عليه. [من الطويل]

أحبُّك يا شمسَ الزمانِ وِبدرةً وإنْ لامني فيكَ السُّها والفراقُ^(١)
وذاك لأنَّ الفضلَ عندك باهرٌ وليسَ لأنَّ العيشَ عندك باردٌ
فلما وَرَدَتْ عليه الرِّقعةُ، حَسَرَ تلامذته وخدمه، وزمَّ عن الجواب قَلَمه، وجسَّم
للإيجاب قَدَمه، وطلع مع الفجر علينا طلوعه، ونظَّمنا حاشيتا دار الأمام ابي الطيب
أدام الله عزَّه، فقلت: الآن حين تشرق الحشمة وتنور في العشرة وتغور، قصدناه
شاكرين لما أتاه، وانتظرنا عادة برّه، وتوقعنا مادة فضله فكان خلباً شمناً وآلاً
وردناه، وصرفنا الأمر في تأخرنا عنه إلى ما قاله عبد الله بن المعتز^(٢): [من الرجز]

إنَّا على البعادِ والتفرِّقِ

لنلتقي بالذكر إنْ لمْ نلتقِ

وأشدناه قول ابن عسرناء: [من الوافر]

٦٠/ أحبُّكَ في البتولِ وفي أبيها ولكني أحبُّكَ منْ بعيدِ
وبقينا نلتقي خيالاً، ونقنع بالذكر وصالاً، حتى جَعَلْتُ عواصفهُ تهبَّ، وعقاربهُ
تَدبُّ، وهو لا يرضى بالتعرض حتى يصرِّح، ولا يقنع بالنفاق حتى يعلن، وشكا إلى
بعض إخواننا أني خاطبته مخاطبة مجحفة، ونزلته منزلة متحيِّفة، فقال: إني أوثر
العريدة، وأسلف الموجدة، ويرميني في ذلك بدائه وينسلُّ، فكتبنا إليه^(٣): [من
المقارب]

جُعِلْتُ فداءك منْ فاضلٍ بلغتُ التراقي منْ جوره
وفي الغيبِ أكثرُ مما رأيتُ وأين البلوغُ إلى غوره
أتثنى الرواة بما قُلْتَهُ بهياتِه وعلى كوره

(١) البيتان للمتنبي، ديوانه طبعة صادر ص ٣٢١.

(٢) في الأصل: المعبد. والبيت في ديوانه ١/ ٥٠٢.

(٣) لم ترد القصيدة في ديوان البديع ولا في رسائله.

اضمّ ضلوعي على سوره
تجاوز منا مدى طوره
فما لئت حورا على كوره
وقصد تفرخ عن نوره
بشطر القيام إلى زوره
وغضّ الجفون على هوره
ألا حبّذا الأزي في شوره
طممت بنجدي على غوره
فقامرني بيدي حوره
حديث الفتى مع سنوره
ولم اسكن البر من فورهِ
أم الفلك الغث في دورهِ
كملت من الدر من ثوره
وواجه دُرّي ببُلوره
يلوح التكلف في مسوره
بما ليس يخجل في زوره
واينا منتحى سوره^(٢)
ودونك زيد المُنَى اوره

وقولك إني طوع الشجار
فقلت حياء لمن قد^(١)..
فيامن بذلت ودادي له
بود تبلج عن نوره
فهش كما ليس يخفى عليك
وبايعتهُ بيمين الرضا
وقلت لحنظلي أخلاقه
ولو كان ذلك من غيره
ولا عبته بكعب الرجوع
وكان حديثي لما رجعت
فلم أدر فيما جفا ضيفه
أللزم من النبي في حكمه
وكتابته استمد الوداد
فقابل صرفي لممزوجه
/٦١/ وجشم اقدم إقدامه
وزار وزرناه عن قصده
هلم إلى منبت المكرمات
وأما الخطاب فأنت ابتدأت

فلما وردت عليه الأبيات، أبرزت باطنه، وحركت ساكنه، وأخرجت دفائن

صدره، ورفع أذيال ستره، وملأ قلبه ولحيته تهديداً، فكتبنا إليه^(٣): [من الهزج]

على نفثة مَضدور
وعن عتبك منشور
على حربك مقهور
مة عن ناحية النُصور
لدة من عالية السُور

أعنى يا أبا بكر
على ودك مطوي
إلى سلمك مُشتاق
ولا تعدل إلى الظل
ولا تهو إلى الوهُـ

(١) بعدها كلمة ساقطة. (٢) كذا في الأصل.

(٣) القصيدة لم ترد في ديوان البديع ولا في رسائله.

ولا تنهج إلى الأضيا
ولا تحفر لهم بئراً
ولا تقبل إلى الفتنة
فما أكثر ما عند
ولا نعرف في الاخوا
فكم أطوي لك السمع
وكم القى على طرف
وإن تمدد إلى ماء ال
تعد عن وجهتي والل
ولا مروان في الكوف
ولا الكلب في الجام
وإن أحببت أن تعل
ولا تبطل فدتك النف
ولا تخلف بأخلاف

٦٢/ فلما وردت عليه الأبيات، قال: لو أن بهذا البلد رجلاً تأخذه اريحية الكريم، وتملكه هزة الهمم يجمع بيني وبين فلان - يعني - : ثم رأى إذا انجلى الغبار أفرسٌ تحتي أم حمار، وعلم أين يبرز خلا به عفا، أو أين يغادر في الكر.

ولو د فلان بوسطاه بل بيمناه، لو دخلنا وقلنا في المناخ له: نم إلى كلمات تحذو هذا الحذو، وتنحو هذا النحو، والفاظ أتتنا من عل وكان جوابنا أن قلنا: بعض الوعيد يذهب في البيد، والصدق يُنبئ عنك لا الوعيد^(١)، وقلنا أن أجرأ الناس على الاسد أكثرهم رؤية له^(٢). وقد قال بعض أصحابنا: قلت لفلان إلا تناظر فلاناً فإنه يغلبك. فقال: يُغلب وعندي دفتر مجلد، ووجدنا عندنا دفاتر مجلدة، وأجزاء مجردة، وأنشدناه قول حجل بن نضلة: [من السريع]

جاء شقيق عارضاً رمحه
ان بني عمك فيهم رماخ
هل أحدث الدهر بنا نكبة
ام هل رقت أم شقيق سلاح
فقلنا: إنا نفتحم الخطب، وتتوسط الحرب، فنردها مقحمين، ونصدر بلغاء:

(١) المثل في مجمع الأمثال ١/٣٩٨.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ١/١٩١.

[من الطويل]

وَألسُننا قَبْلَ النزالِ قَصارَةً ولكنها بَعْدَ النزالِ طَوالٌ
[من المتقارب]

فأرضك أرضك إن تأتينا تنم نومةً ليسَ فيها حلمٌ
[من المتقارب]

فمن ظنَّ ممن يلاقي الحروبَ بأنَّ لا يُصابَ فقد ظنَّ عَجْزاً
فإنك متى شئت لقيت منا خصماً ضخماً. ينهشك قضمًا، ويأكلك خضمًا،
وحثناه على الأخذ بكتاب الله تعالى من قوله: ﴿وَأَصْلِحْ خَيْرٌ﴾^(١) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ
فَاجْتَنِحْ لَهُمْ﴾^(٢) وأنشدناه قول الأول: [من البسيط]

السلمُ نأخذُ منها ما رُضيتَ بهِ والحربُ يكفيكَ من أنفاسِها جُرْعُ
/ ٦٣ / وقلنا له^(٣): [من الوافر]

نصحَّتكَ فالتمسْ ياويكَ غيري طعاماً إن لحمي كان مُرّاً
ألمْ يبلغكَ ما فعلتُ ظباه بكاظمةٍ غداةً لقيتَ عَمراً
وجعل الشيطان ينقل بذلك أجفان طرفه، ويقيم بها شعرات أنفه: [من الوافر]
وحتى ظنَّ أن الغش نُضجِي وخالفني كأنِّي قلتُ هَجْراً
وانفق ان السيد أبا علي - أدام الله عزه - نشط للجمع بيني وبينه فدعاني فأجبتُ
ثم عرض عليَّ حضور ابي بكر فطلبت ذلك وقلت، هذه عدة لم أزل استنجزها وفرصة
لا أزال انتهزها، فتجشَّم السيد أبو الحسين فكاتبه يستدعيه، واعتذر أبو بكر بعذر في
التأخر، فقلت لا ولا كرامة للدهر أن نقعد تحت ضيمه أو نقبل خسف ظلمه، ولا
عزازة للعوائق إن تضيعنا ولا نضيعها، أو تعيننا ولا ندفعها، وكاتبته وأنا أشهد
عزيمته على البدار، وألوي رايه عن الاعتذار، وأعرِّفه ما في من ظنون تشبته، وتهم
تتجه، وتقادير تختلف، واعتقادات تخلف وقدنا إليه مركوباً لتكون قد الزمنا الحج
وأعطينا الراحلة فجاءنا في طبقة وعدد: [من السريع]

كل بغيض قدَّه اصبع وانفه خمسة أشبار
مع أرباب عانات، وأصحاب جربانات، لاتنال العين منهم إلا خسيساً، وسرحنا

(١) سورة النساء: ١٢٨.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

(٣) من قصيدة بشر بن عوانة، (مقامات البديع ٢٥٠).

الطرف منه ومنهم، في أحمى من است النمر^(١)، وأعطس من أنف النغر، فظننا أنه يريد أن يلقي كتيبةً، أو يهزم دوسراً، أو يغل الأنكدين، أو يردّ الوافدين ثم رأبنارجالاً جوفاً، قد خلقوا صوفاً، فأمتا المعرة، ولم نخش المضرة، وقمنا له وإليه، وجلس يحرق أرمه، وتمثل بيت لا يقتضيه الحال، من أنا في الحباله نستبق، فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض مافي راسه، وفرغ جعبة وسواسه، عطفنا عليه، فقلنا: عافاك الله، دعوناك وعرّضنا غير المهارشة، واستزرنناك وقصدنا غير المناوشة فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك يا مار سرجس لا نريد قتالا، وما اجتمعنا إلا لخير، فلتسكن سورتك، ولتلين فورتك، ولا ترقص لغير طرب، ولا تحم لغير سبب، وإنما دعوناك لتملاً المجلس فرائد، وتذكر أبياتاً شوارد، وامثالا فوارد، ونباحتك فנסعد بما عندك، وتسائلنا فُتسّر بما عندنا، ويقف كل منا موقفه من صاحبه، وقديماً كنت أسمع بحديثك، فيعجبني الالتقاء بك، والاجتماع معك، والآن إذ سهّل الله ذلك، فَهَلُمَّ إِلَى الْأَدبِ نُتْفِقُ يَوْمَنَا عَلَيْهِ، وَإِلَى الْجَدَلِ نَتَجَادِبُ طَرَفِيهِ، فَاسْمِعْ خَيْراً وَاسْمِعْنَا مِثْلَهُ، وَنَبْدَأُ بِالْفَرْقِ الَّذِي مَلَكَتْ بِهِ زَمَانِكَ وَفُتَّ فِيهِ أَقْرَانِكَ، وَمَلَكَتْ مِنْهُ عَنَانِكَ، وَأَخَذَتْ مِنْهُ مَكَانِكَ، وَطَارَ بِهِ اسْمُكَ بَعْدَ وَقُوعِهِ، وَارْتَفَعَ لَهُ ذِكْرُكَ عَقِبَ خُضُوعِهِ، وَأَفْحَمْتَ بِهِ الرِّجَالَ، حَتَّى أذَعْنَ الْعَالِمَ وَقَلَّدَ الْجَاهِلَ. وَقَالُوا قَوْلَ الصُّوفِيَةِ: يَادَهْشاً^(٢) كَلَّهُ، فَجَارْنَا بِفِرْسِكَ، وَطَاوَلْنَا^(٣) بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: وَمَاهُو؟ قُلْتَ: الْحَفِظُ إِنْ شِئْتَ وَالنَّظْمُ إِنْ أَرَدْتَ وَالنُّثْرُ إِنْ اخْتَرْتَ، وَالْبَدِيهَةُ إِنْ نَشِطْتَ، فَهَذِهِ أَبْوَابُكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا ابْنُ دَعْوَاكَ تَمَلُّ مِنْهَا فَاكَ، فَأَحْجَمَ عَنِ الْحَفِظِ رَأْساً، وَلَمْ يَجْلُ فِيهِ قَدْحاً، وَقَالَ: أَبَادْهَكَ، فَقُلْتَ: أَنْتَ وَذَاكَ، فَمَالَ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ فَسَأَلَهُ بَيْتاً لِيُجِيزَ، فَقُلْتَ: يَا هَذَا أَنَا أَكْفِيكَ ثُمَّ تَنَاوَلْتَ جِزْءاً فِيهِ أَشْعَارُهُ، وَقُلْتَ لِمَنْ حَضَرَ: هَذَا شَعْرُ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي كَدَّ بِهِ طَبْعُهُ، وَأَسْهَرَ لَهُ جَفْنُهُ، وَأَجَالَ فِيهِ فِكْرُهُ، وَانْفَقَ فِيهِ عَمْرُهُ، وَاسْتَنْزَفَ فِيهِ يَوْمَهُ، وَدَوَّنَهُ صَحِيفَةً مَأْتَرَهُ، وَجَعَلَهُ تَرْجَمَانَ مَحَاسِنِهِ، وَعَبَّرَ بِهِ عَنِ بَاطِنِهِ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ بِهِ وَهُوَ ثَلَاثُونَ بَيْتاً، وَسَاقَرْنَ كُلَّ بَيْتٍ بِوَفْقِهِ، وَأَنْظَمَ كُلَّ مَعْنَى إِلَى لَفْقِهِ، بِحَيْثُ أُصِيبَ أَغْرَاضُهُ، وَلَا أُعِيدَ الْفَاطِظُهُ، وَشَرِيطَتِي أَلَّا أَقْطَعَ النَّفْسَ، فَإِنْ تَهَيَّأَ لَوَاحِدٍ أَوْ أَمْكَنَ لَنَا قَدْرٌ مَمَّنْ قَدْ حَضَرَ، يَرِيدُ النَّظْرَ إِنْ يَمِيزُ قَوْلَهُ مِنْ قَوْلِي، وَيَحْكُمُ عَلَى الْبَيْتِ أَنَّهُ لَهُ أَوْ

(١) المثل في مجمع الأمثال ١/٥٣.

(٢) يا دهشا: أي حيرة، وإنما أضاف هذ القول للصوفية؛ لأن منهم من بقي بدرجة الحيرة ولم يتعدّها (هامش ص ٤١ من رسائله).

(٣) في الرسائل: وجُد لنا.

لي، أو يرجح ما نُصَّجه بنار الروية، على ما أمليته على لسان النفس / ٦٥ / فله يدُ السبق. أو يكون غيرها، فأعفى عن هذه المعارضة، وتتنحى لنا عن أرض المماثلة، ويخلى لنا الطريق لمن يبني المنار به، فقال أبو بكر: ما الذي يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاده الآن؟ فقلت: اقترح لكل بيت قافيةً ولا أسوقه إلا إليها، ولا أقف به إلا عليها، ومثال ذلك، أن تقول: حشر فأقول بيتا آخره حشر، ثم عشر فانظم بيتاً قافيته عشر. ثم هلمّ جرا، إلى حيث يتضح الحق، وينتضح الزرق، وتستقرّ الحجة وتطرّد، وتستقل الشبهة وتطرّد، فيعرف الحالي من العاطل، ويُفرّق بين الحقّ والباطل، فأبى أبو بكر أن يشاركنا هذا العنان، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتاً ليجيز، فتبعنا رأيه فيما رآه، ولم نرض إلا رضاه، ولم نعدل عن هواه ومبتغاه، وأعمل كلّ منا لسانه وقمه. وأخذ دواته وقلمه، وأجزنا البيت الذي قاله: وكلّ ما أجزناه إجازةً جارئ القلم فيها الطبع، وبارى اللسان بها السمع وسارق الخاطر بها الناظر، وسابق الجنان فيها البنان إلى أن قلنا^(١): [من الكامل]

هذا الأديبُ على تعسّف فتكهِ وُروكِهِ عند القريضِ ببركهِ
مُتَسرِّعٌ في كلّ ما يعتادهُ من نظميهِ مُتباطيئٌ عن تركهِ
والشعرُ أبعدُ مذهباً ومصاعداً مِنْ أن يكون مُطيئُهُ في فكهِ^(٢)
والنظمُ بحرٌ والخواطرُ معبرٌ فانظرُ إلى بحر القريضِ وفلكهِ
فمتى توانى في القريضِ مُقَصِّرٌ عرّضتُ أذنَ الامتحانِ لعرّكهِ
هذا الشريفُ على تقدّم بيتِهِ في المكرماتِ ورفعةٍ في سمكهِ
قد رام متى أن أقارنَ مثلهُ وأنا القرينُ السوءُ إن لم أنكهِ^(٣)
وإذا نظرتُ وجدتُ ما قد قلتهُ بردَ اليقينِ على حرارةِ شكهِ^(٤)
عارضتُ بيتاً قلتهُ مُتَعَسِّفاً وخطمتُ جانحةَ القرينِ بدكهِ^(٥)
ودبغتُ منه أديمهُ فتركتهُ نهج الأديمِ بدبغهِ وبدلكهِ

(١) الأبيات في رسائل البديع ٤٣، والثالث والرابع والخامس في الديوان ص ١١٧، ومعجم الأدباء ١ / ٢٣٩.

(٢) الفك: الفتح وفصل الشيء.

(٣) بعده في الرسائل:

(٤) وإذا نظمتُ قصمتُ ظهر مُناظري وخطمتُ جارحةَ القرينِ بدكهِ
(٤) لم يرد هذا البيت في الرسائل.

(٥) لم يرد في الرسائل وإنما ورد البيت الذي ذكرته أنفاً.

أصغوا إلى الشعر الذي نَظَّمْتُهُ كالدَّرِّ رَضِعَ فِي مَجْرَةٍ سِلْكَه
 فمتى عجزتُ عن القرين بديهةً فدمي الحرامُ له إِرَاقَةٌ سَفِكِه
 فقال أبو بكر أبياتاً جهدنا به أن يخرجها عن اللحاف^(١)، ويبرزها من الغلاف^(٢)
 فلم يفعل دون أن طواها، وَجَعَلَ يَفْرُكُهَا وَيَعْرِكُهَا، فقلت: يا هذا إن البيت لقائله
 كالولد لناجله، فما لك تعقُّ ابنك وتُضيمه؟ ابرزها للعيون، وخلصها من الظنون،
 فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهرة أعقلَ منه؛ لأنها تحدث وتغطي، فلم يستجز^(٣)
 أن يظهر، ثم بسط^(٤) جبينه، وبسط يمينه للبديهة نفساً دون أن كتب فقال: انت
 وذاك، واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبى حيث يقول^(٥): [من
 الكامل]

أرَّقَ على أرقٍ ومثلي يَأْرُقُ وجوى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
 وابتدر أبو بكر أيده الله إلى الإجازة. ولم يزل إلى الغايات سباقاً فقال:
 وإذا ابتدهُتُ بديهةً ياسيدي فأراك عندَ بديهتي تتقلَّقُ
 وإذا قرضتُ الشعر في ميدانه لا شكَّ أنك يا أخي تتشققُ
 إني إذا قلتُ البديهةَ قلتها عجلًا وطبعك عندَ طبعي يرفقُ
 ما لي أراك ولست مثلي عندها متموهاً بالترهات تُمخرقُ
 إني أجيئُ على البديهة مثلما تريانها وإذا نطقتُ أصدقُ
 لو كنتَ من صخرٍ أصمَّ لها له (مني)^(٦) البديهةُ واغتدى يتفلق
 أو كنتَ ليثاً في البديهة قادراً لو ثبت يامسكين دوني تبرق^(٧)
 وبديهة قد قلتها متنفساً فقل الذي قد قلتُ ياذا الأخرق
 ثم وقف يعتذر ويقول: إن هذا كما يجيء، لا كما يجب، فقلت: قبل الله عذرك
 لكني أراك بين قوافٍ مكروهة، وقافاتٍ خشنة، كل قاف كحبل قاف، منها، تتقلَّقُ،
 وتشققُ، وتفلقُ، وتمخرقُ، وتبرقُ، وتسرقُ، واحمقُ، وأخرقُ / ٦٧ / إلى أشياء لا
 أكثر بها العدد فخذ الآن جزءاً عن قرضك، واداءً لقرضك، وقلت^(٨): [من الكامل]

(١) الرسائل: الغلاف.

(٢) الرسائل: اللحاف.

(٣) الرسائل: يستجريء.

(٤) الرسائل: مسح.

(٥) ديوانه طبعة صادر ص ٢٨.

(٦) الزيادة عن رسائله ص ٤٥.

(٧) في الرسائل: تفرق.

(٨) الأبيات في الرسائل ص ٤٦ والأول والأخير في ديوانه ومعجم الأدباء.

مهلاً أبا بكرٍ فزندق أضيقُ وأخرسُ فإن أخاك حيٌّ يُرزقُ
دعني أعرك إذا سكت سلاماً فالقولُ يُنجدُ في ذوكِ ويعرقُ
ولفاتك فتكاتٍ سوءٍ فيكمُ فدع الستورَ وراءها لاتخرق
وانظر لأشنع ما أقولُ وأدعي ألهُ إلى أعراضكم متسلق
يا أحمقاً وكفاك ذلك خزيةً جربت نار معرتي هل تحرق؟

فلما أصابه حرّ الكلام، ومسّه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال: يا أحمقاً لا يجوز، فإن أحمق لا ينصرف، فقلنا ياهذا لانقطع، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولو جد الطاعن سبيلاً إليك، وأما أحمق، فلا يزال يصفعك وتصفعه، حتى ينصرف وتنصرف معه، وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف. كما أن له رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من اشعار العرب، فقال: يجوز للعرب ما لا يجوز لك، فلم ندر كيف نجيب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه المناصفة؟ لكننا قلنا له: أخبرنا عن بيتك الأول: أمدحت أم قدحت؟ وزكيت أم جرحت؟ ففيها [شيئان] متفاوتان ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت فخاطبت بياسيدي، والثانية أنك عطفت فقلت تتفلق، وهما لا يركضان في حلبة، ولا يحطان في خطة، ثم قلت له: خذ وزناً من الشعر، حتى أسكت عليك، فتستوفي من القول حظك، واسكت علينا حتى نستوفي حظنا، ثم أني احفظ عليك أنفاسك، ووافقك عليها، واحفظ عليّ انفاسي ووافقني عليها، فإن عجزت عن اعتلاقتها حفظتها لك، فسلني عنها بعد ذلك، وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبّي^(١): [من المنسرح]

أهلاً بدارٍ سباكٍ أغيدُها من بعد ما بانَ عنك خردُها
/٦٨/ فقلت^(٢): [من المنسرح]

يا نعمة لا تزال تجحدُها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخنق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال: [ما] معنى تكندها؟، فقلت: ياهذا، كند النعمة كفرها، فرفع يديه ورأسه، وقال: معاذ الله أن يكون كند، بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير، فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه

(١) ديوان هص ٨.

(٢) البيت لم يرد في ديوانه وهو في الرسائل ص ٤٧.

برماً وفرياً، ويتلون عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (١) فقلت: أليس الشرط أملك؟، والعهد بيننا ان تسكت ونسكت حتى نتم وتتم، ثم نبحت ونفحص؟ فنبذ الأدب وراء ظهره وصار إلى السخف يكيلنا بصاعه ومدّه، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى إلى السفه يغرف علينا غرفاً، ويستقي من جرفه جرفاً، فقلت له: يا هذا. إن الأدب غير سوء الأدب، وللمناظرة حظنا لا للمنافرة، فإن نفضت عن هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك، ولو كان في باب الاستخفاف شيء أبلغ من ترك الإنكار لبلغته منك، فأخذ يمضي على غلوائه، ويمعن في هرائه وهذائه فاستندت إلى المسند، ووضعت اليد على اليد، وقلت: أستغفر الله من مكالمتك ونفضتها قائمةً معه، وسكتت حتى عرف الناس، وأيقن الجلاس اني أملك من نفسي ما لا يملكه، وأسلك من طريق الحكم ما لا يسلكه، ثم عطفت عليه فقلت: يا أبا بكر، إن الحاضرين قد أعجبوا من حلمي بأضعاف ما أعجبوا من علمي، وتعجبوا من عقلي أكثر مما تعجبوا من فضلي، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي، وإن تكلفني للسفه أشد استمراراً من طبعك، وغربي في السخف أمتن عوداً من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السفه مفترعك، فتكلم الآن، فقال: أنا قد كسبت بهذا [العقل] (٢) دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت: أما قولك دية أهل همدان فما أولاني بأن لا أجيب عنه، لكن هذا الذي به تتمدح وتتبحج وتتشرف وتتصلف من انك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت /٦٩/ وكديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم عافاك الله، ولأن يقال للرجل: يفاعل ياصانع، أحب من أن يقال: يا شحاذ، يامكدي، وقد صدقت، أنت في هذه الحلبة أسبق، و[في] (٣) هذه الحرفة أعرق، ولعمرك إنك اشحذ، وأنت في الكدية أنفذ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة، حديث الورد لهذه الشرعة، مرملة اليد في هذه الرقعة، فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه، ويزنك بذهبه، وهو مع ذلك لا يطرقني إلا بعين الرهبة، ولا يمد إليّ إلا يد الرغبة، ولو كان الغنى خطأ كريماً لأخطأه مثل هذا العقل، ولو كان المال غنماً لما أدرك بهذا السعي. ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ونبت من أسنانك، إلا هاربا بدمائك، مضرّجاً بدمائك، مرتهنأ بقولك، بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهشومة، وخدود ملطومة؟ ومتى صفت مشارعك، أو أخصبت مراتعك، إلا في هذه الأيام القذرة. وستعرف

(٢) الزيادة عن الرسائل.

(١) سورة العاديات: ٦.

(٣) الزيادة عن الرسائل.

غدك من بعد، وتنكر أمسك من [غد] وتعلم قدرك في غد، وتعرف نفسك، وما أضيّع وقتاً قطعته بذكرك، ولساناً دنسته باسمك، ومِلْتُ إلى القوال. وهو أبو بكر أحمد بن عبد الله الشاذياخي، فقلت: اسمعنا خيراً فدفع القوال وغنى أبياتاً فيها: [من الوافر]

وشبّهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخدّ الرقيق
فقال أبو بكر: يا قوم، أحسن ما في هذا الأمر أنني أحفظ هذه القصيدة، وهو لا يعرفها، فقلت: يا عافاك، أعرفها وإن انشدتها سائك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال: أنشد، فقلت: أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية. وأنشدت:

وشبّهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق
فأنته السكته، وأضجرتة النكته، وانطفأت تلك الوقده، وانحلت تلك العقده، وأطرق ملياً، وقال: والله لأضربنك وإن ضربت، ولأشمتنك وإن شمت، ﴿وَلَعَلَّنْ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^(١)، ولتعلمن أينا الضارب، وأينا المضروب، ٧٠ / وقلت: يا أبا بكر، مهلاً، فإنك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك، وثلاث أحوال لم تتعدّها^(٢) في أمرك، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك، ومتعدّ في تهديدك؛ لأنك كهلٌ وأنت شاعر، وكنت شاباً وأنت مقامر، وكنت صيباً وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة في الثلاثة الفصول ضيق عن هذا الوعيد، لكننا نصفك الآن، وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم قصف وغداً خسف، وقيل اليوم خمر وغداً أمر.

فقال أبو بكر: والله لو أنك دخلت الجنة، واتخذت السندس والإستبرق جنة لصفعت، فقلت: والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج في برج، لاخذك من النعال، ماقدم وماحدث، وشملك من الصفع ما طاب وخبث، وانشدت قول ابن الرومي^(٣): [من المجتث]

إن كان شيخنا سفيهاً يفوق كل سفيه
فقد أصاب شبيهاً له وفوق الشبيه
ثم لما آبت نفس العقل، وزال سكر الغيث، تمثّلت بقول القائل^(٤): [من الطويل]

وأنزلي طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيتُ أمراً لا أشاكلهُ

(١) سورة ص: ٨٨.

(٢) في الأصل: تتعدها، والتصويب عن الرسائل.

(٣) ديوانه: ٣ / ٢٦٣٤.

(٤) الأبيات بدون نسبة في البيان والتبيين ١ / ٢٤٥، وعيون الأخبار ٣ / ٣٤.

أَحَامِقُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةً وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ
 ودفع القوال، فبدأ بأبيات، وَلَحَنَ بِأَصْوَاتٍ، وجعل النعاس يثني الرؤوس،
 ويمنع الجلوس، فقمنا عن الليل، وهو يجزّ بعاع^(١) الذقن إلى ما وطىء من مضجع،
 ومَهَّدَ من مهجع، ولم يكن النوم مَلاً الجفون، ولا شَعَلَ العيون حتى أَقْبَلَ وفدَّ
 الصباح. وَحَيْعَلَ المؤذن بالفلاح، وندب النهوض إلى المفروض، وأجينا، فلما قضينا
 الفرض، فارقنا الأرض، فأوى إلى أم مثواه، وأويثُ إلى الحجرة، وظني ان هذا
 الفاضل يأكل يده نَدَمًا، ويبكي على ماجرى دمعاً ودمًا، فإنه إذا سمع بحديث همدان
 قال: الهاءُ همّ، والميم موت، والذال ذلّ، والالف أفة، والنون ندامة، وأنه إذا قام
 هالهٌ منا طيف، وإذا انتبه راعهٌ متًا سيف، وأخذَ الناس يترامزون بما جرى،
 ويتغامزون، ورابَ / ٧١ / هذا الفاضل غمزاتهم، مثلما راب المريض تغامز العوادم،
 فجعل يحلف للناس بالعتق وتحرير الرقّ، والمكتوب في الرّق، أنه أخذَ قصب
 السبق، وأنه ينطق عن الحق، والناس أكياس، لا يقنعهم عن المدّعي يمين دون
 شاهدين، وسعوا بيننا بالصلح، يُحَكِّمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السنّ،
 فقصدهناه معتذرين إليه، فأوماً إيماءةً مهیضةً، واهترّ اهتزازةً مغيظةً. وأشار إشارةً
 مريضةً، بكفّ سَحَبَهَا على الهواء، وَيَدٌ بَسَطَهَا في الجوّ بَسَطًا، وعلمنا إن للممّمور ان
 يستخفّ وَيَسْتَهِين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا: ان بعد الكدر صفوا، كما أن
 عقب المطر صَحْوًا، فهل لك في خُلُق في العشرة نستأنفها، وطرق في الخلطة
 نَسَلَكهَا، فإن ثمرة الخلاف ماقد بلوتها. فقال: ظهَرُ الوفاق أوطأ كما ذكرت،
 والجميل أجمل كما علمت، وسنشارك في هذا العنان، وعَرَضَ علينا الإقامة عنده
 سحابةً ذلك اليوم، فاعتلنا بالصوم فلم يقبل العذر، وألحّ، فقلت: أنت وذاك،
 فطعمنا عنده، وأخذنا ديدان مرده^(٢)، وخرجنا والنية على الجميل موفورة، وتبعة الودّ
 معمورة، وصرنا لانتعلل إلا بمدحه ولا ننتقل إلا بذكره، ولا نَعْتَدُ إلا بوّده، لا بل
 ملأنا البلد شكرًا والأسماع نشرًا، وبتنا نحن من الحال في أعذبها شرعة، ومن الثقة
 في أطيبها جرعة، ومن الظنون في أفلجها قرعه، ومن المودّة في أعمرها بقعة،
 وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالتيه، مؤديان لرسالتيه، ذاكران
 بأن أبا بكر يقول: قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار في أنك قَهَرْتَ وأني قُهِرْتُ،

(١) كذا في الأصل، وفي الرسائل: وهو بحره مائل الذقن.

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل: دندان مرده. قال الشارح: المزد: هو البرد، والدندان كاللندن بكسر

ولا أشك أن ذاك التواتر عنك صدرت أوائله، والخبر إذا تواتر به النقل قبله العقل، ولا بد أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء فتتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فإنك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتي، أو تقرّ بعجزك وقصورك عن بلوغ أمدي ومنال يدي، فتعجبت كل العجب / ٧٢ / مما سمعت، وأجبت فقلت: أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قهرت، وأن ذلك عن جهتي صدر، ومن لساني سمع، فبالله ما أتمدح بقهرك، ولا أتبعج بقسرك، وإن لنفسك عندك لشأناً إن ظننتني أقف هذا الموقف، أنا إن شاء الله أبعد من ذلك مرتقى همة ومصعد نفس، أسأل الله سترأ يمتد ووجهاً لا يسود، فأما التواتر من الناس، والتظاهر على أنني قهرتك، فلو قدرت على الناس لخطت أفواههم، ولقبضت شفاههم، فما الحيلة، وهل إلى ذلك سبيل فأتوسل أم ذريعة فأتوصل؟ ثم هذا التواتر ثمرة ذلك التناظر، مع ذلك التساير، فإن كان ساءك، فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولي الفضل، ولأن يترك المر مختلفاً فيه خير لك من أن يتفق عليه، فإن أحببت أن تطير هذا الواقع، وتهيج هذا الساكن، فرأيك موفقاً، فأما هذا الوعيد، فقد عرضته على جوانحي وجوارحي كلها، فلم تنشد إلا قول القائل: [من الوافر]

وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نبة الغنم الذئاب^(١)
فكم يتكوكب تلامذتك ويتعسكرون، ويتفحش أصحابك وتبا جعفر^(٢)،
ولست أراك إلا بين ميمين^(٣)، أحدهما يروح إلى انثى ويغدو إلى طفل، والآخر
يجيب دعوة المضطر إذا دعاه بمسلفات، فإن كان الله قد قضى أن أقتل بأخس
السلاح، فلا مفر من القدر المتاح، رزقنا الله عقلاً به نعيش، ونعوذ بالله من رأي بنا
يطيش، وقلنا من بعد: إن رسالتك هذه وردت مورداً لم نحتسبه، ووصلت موقفاً لم
نرتقبه، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن الخل لوما، فلما ورد الجواب
عليه وسع من الغيظ فوق ملئه، وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال: قد بلغ السيل
الزبي، وعلت الوهاد الربي في أمرك، وسترى يومك، وتعرف قومك، ثم مضت على
ذلك أيام، ونحن منتظرون لفاضل / ٧٣ / ينشط لهذا الفصل، وينظر بيننا بالعدل،
فاتفقت الآراء على أن يُعقد هذا المجلس في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير.

(١) في الرسائل ص ٥٥: تخرج ... ونكره نبة.

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل: ويتجش أصحابك ويتجمعون.

(٣) في الرسائل: ثنتين، ويريد بميمين: المعلم والمتسول كما سيأتي.

واستدعيت، فسرحت الطرف من ذلك السيد في عالم أفرغ في عالم، وملك في درع ملك، ورجل نظم إلى التنبّل تبدلاً، وإلى الترفع تواضعاً، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصغية، واستمع فتمنت الجوارح لو أنها السنة ناطقة، فقلت: الحمد لله الذي عقد هذا المجلس في دار من يفرق بين من يحق وبين من يزرّق، وكنت أول من حضر وانتظر ملياً حضور من ينظر، وقدم من يناظر، وطلع الامام أبو الطيب، واخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمة، ووحده عالم، ثم حضر السيد أبو الحسين أدام الله عزّه، وهو ابن الرسالة والامامة، وعامر أرض الوحي والمحتبى بفناء النبوة، والضارب في الأدب بعرقه، وفي النطق بحذيقه، وفي الانصاف بحسن خلقه، فجشّم إلى المجلس قدم سبقه، وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين، لأمر كان قد موّه عليه، وحديث كان شُبّه لديه، وفطنتُ لذلك، فقلت: أيها السيد أنا [إذا] سار غيري في التشيع برجلين طرثُ بجناحين، وإذا متّ سواء في موالاته أهل البيت بلمحة دالة، توصلت بغرّة لائحة، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملتك على ترك الواجب، ثم ان لي في آل الرسول ﷺ وعليهم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارث في البلاد، ولم تسر بزاد، وطارت في الآفاق، ولم تطر على ساق، ولكّتي لا أتسوق بها لديكم، ولا أتفقّ بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين ادخرتها لا للدنيا، وللمعاد نظمتها لا للمعاش، فقال: انشدني منها، فقلت: [من مجزوء الكامل]

يَا لِمَةَ ضَرَبَ الزَّمَا	نُ عَلَى مُعَرِّسِهَا خِيَامَهُ
لِللَّهِ دُرُّكَ مَن خُزَا	مَى رَوْضَةٍ عَادَتْ تُغَامَهُ
/٧٤/ لِرَزِيَّةٍ قَامَتْ بِهَا	لِلدَّيْنِ أَشْرَاطُ الْقِيَامَهُ
لِمَضْرَجٍ بَدَمِ النَّبِيِّ	تَضَارِبٍ بِيَدِ الْإِمَامَهُ
مَتَقَسَّمِ بِطُّبِي السَّيُو	فِي مَجْرَعٍ مِنْهَا جِمَامَهُ (١)
مَنْعَ الْوَرُودِ وَمَاؤُهُ	مِنْهُ عَلَى طَرَفِ الثَّمَامَهُ
نَصَبَ ابْنُ هَنْدٍ رَأْسَهُ	فَوْقَ الْوَرَى نَصَبَ الْعَلَامَهُ
وَمَقْبَلٍ كَانَ النَّبِيِّ	بِلِثْمِهِ يَشْفِي غَرَامَهُ
قَرَعَ ابْنُ هَنْدٍ بِالْقَضِي	بِ عَذَابِهِ فَرَطَ اسْتِضَامَهُ

(١) في الأصل: مجرح، والتصويب عن الرسائل.

وشدا بنغمته عليه
 والدين أبلغ ساطع
 ياويح من ولي الكتا
 ليضرسن يد النددا
 وليدركن على الغرا
 وجمي أباح بنو أمي
 حتى اشتفوا من يوم بد
 لعنوا أمير المؤمنين
 لم لم تخري يا سما
 لم لم تزولي يا جبا
 يا لعنة صارت على
 إن الإمامة لم تكن
 من سبط هند وابنها
 ياعين جودي للبقية
 جودي بمذخور الدمو
 جودي بمشهد كربلا
 ٧٥ / جودي بمكنون الجما

فلما أنشدت ما أنشدت، وسودت ما سودت، وكشفت له الحال، فيما اعتقدت،
 انحلت تلك العقدة، وصار سلماً يوسعنا حلماً، وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر
 البسطامي، وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم، ثم
 حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر، والادب أذنى فضائله، وإيسر فواضله، والعلل
 شيمة من شيمه، والصدق مقتضى هممه، وحضر بعده الشيخ أبو سعد محمد بن أرمك
 أيده الله، وهو الرجل الذي تحميه لألاؤه أو لودعيته من أن يدال بمن؟ أو ممن
 الرجل؟ وهو الفاضل الذي يحطب في جبل الكتابة ماشاء، ويركض في حلبة العلم
 ماراد، وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب، وله في الأدب عينه وقراره، وفي العلم
 شعلته وناره، وحضر بعده الفقيه أبو الهيثم، ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل
 يخدمه، وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان، والفضل منه بدأ، وإليه يعود،

وحضر بعده [أصحاب] ^(١) الشيخ [أبو] الطيب رحمه الله، وما منهم إلا أغرّ نجيب، وحضر بعدهم أصحاب الشيخ الفاضل ابي الحسن الماسرجسي، وكل إذا عُدَّ ^(٢) الرجال مقدم، وحضر بعدهم أصحاب الاستاذ أبي عمرو البسطامي، وهم في الفضل كاسنان المشط، ومنه باعلى مناط العقد، وحضر بعدهم الشيخ أبو سعد الهمداني، وله في الفضل قدحُه المعلى، وفي الادب حظّه الأعلى، وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة [المرسلة] ^(٣)، والأسوكة المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضاً، فصاروا إلى قلب المجلس وصدرة، حتى ردّ كيدهم في نحرهم، وأقيموا بالنعال إلى صفّ النعال، فقلت لمن حضر: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حَضَرَ، وانتظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علي قوافي أثبتوها، واقترحات كانوا يبتوها: [من الهزج]

فما ظنك بالحلفاء أدنيت لها نارا

من لفظٍ إلى المعنى نسقته، وبيتٍ إلى القافية سقته على ريقٍ لم أبلغه، ونفسٍ لم أقطعها، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجبٍ مما أنشدت، وقال أحدهم بل واحدهم، وهو الامام أبو الطيب، لن تؤمن لك حتى نقتح القوافي ونعيّن المعاني، ونصّ على بحرٍ، فإن قلت حينئذٍ على الروي الذي أسومه وذكرت المعنى الذي ارومه، وأنت حي القلب كما عهدناك، منشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، شهدنا انك قد أحسنت، ولا فتى إلا أنت، فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى ارتفعت الأصوات بالهيللة من جانب، والحوقلة من آخر، وتعجبوا إذ ارتهم الايام ما لم تُرهم الأحلام، وجاد لهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم، ما أخلفهم الوهم، ثم التفتت فوجدت الأعناق تلتفت، وماشعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته، وهب بجملته، بأوداج مايسعها الزران ^(٤) وعينين في رأسه تزران، ومشى إلى فوق رقاب الناس، وجعل يدسُّ نفسه بين الصدور يريد الصدر، وقد أخذ المجلس أهله، فقلت: يا أبا بكر، ترحزح عن الصدر قليلاً إلى مقابلة أخيك، فقال: لست برّب الدار فتأمر على الزوّار، فقلت: يا عافاك الله، حضرت لتناظرني، والمناظرة اشتقت أما من النظر وأما من النظير، فإن كان اشتقاقها

(٢) في الأصل: وكل أعد.

(١) الزيادة عن الرسائل.

(٣) الزيادة عن الرسائل.

(٤) الزران مثني زر بالكسر، وهو ما يوضع في القميص.

من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول، ثم يتناول السابق، ويتقاصر المسبوق، وإن كان من النظر، فأنا نظيرك وأنت نظيري، فلم تتصدر أنت، وأنا أجلس بين يديك، فقضت الجماعة بما قضيت، وغضّ هذا الفاضل من تلك الحكمة، وانحطّ عن تلك العظمة، وقابلني بوجهه، فقلت: اراك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء، سريعاً إلى الهيحاء، ولو زينتك الحرب لم تترمم^(١)، ففي أيّ علم تريد أن تناظر؟ فأوماً إلى النحو، فقلت: يا هذا إن النهار قد مَتَعَ / ٧٧ / والوقت قد ارتفع، والظهر قد أَرَفَ، وإن قَرَعْنَا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فإذا خرج القوم، وعلا هتاف الناس أيهما ردّ الجواب هناك ما يدري المجيب، فإن شئت أنا اناظرك في النحو، فسلم الآن لي ما كنت تدّعيه من سرعة في البديهة، وجودة في الروية، وقدرة على الحفظ، وناذ في الترسل، ثم أنا أجازيك في هذا، فقال: لا اسلم ذلك، ولا أناظر في غير هذا، وارتفعت المضاجحة واستمرت الملاحة، حتى أطلع الاستاذ الفاضل أبو عمر إليه، وقال: أيها الاستاذ أنت أديب خراسان، وشيخ هذه الديار، وبهذه الأبواب التي قد عدّها هذا الشاب كنا نعتقد لك السبق والحدق، وتناقلك عن مجارته فيها مما يتهم ويوهم، واضطره إلى منازلها فيها، أو نزول عنها، ومقارة فيها أو إقرار بها، فقال: قد سلمت الحفظ، فانشدت قول القائل: [من الطويل]

ومستلّم كسفتُ بالرمح ذيلُه أقيمتُ بعضبٍ ذي سفاسق ميلُه
فَجَعْتُ بِهِ فِي مُلْتَقَى الْحَيِّ حَيْلُه تركتُ عِتاقَ الطيرِ يَحْجِلُ حَوْلُه

وقلت: يا أبا بكر، خفّف الله عنك كما خفّفت عنا في الحفظ، فقد كفيتنا مؤنة الامتحان، ولم تضع وقتنا من الزمان، فلو تفضّلت وسمّمت البديهة أيضاً، مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذي أنت فيه أكبر، واللغة التي أنت بها أعرف، والعروض الذي أنت عليه أجراً، والأمثال التي لك فيها السبق والقدم، والاشعار التي أنت فيها مُقَدِّم، فقال: ما كنت لأسلم الترسل ولا سلّمت الحفظ، فقلت: الراجع في شيئه كالراجع في قيئه، لكننا نقيلك عن ذلك سماحاً، فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلي خمسين مرة، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد، تهاب شوكته اليد، فسلمه ثانياً، كما سلّمه بادياً، وصرنا إلى البديهة، فقال أحد الحاضرين: هاتوا على شعر / ٧٨ / أبي الشيص في قوله^(٢): [من الكامل]

(١) ترمم الجماعة: إذا تحركوا للكلام، والزين: الدفع، من زين إذا دفعه.

(٢) ديوان أبي الشيص ص ٧٥.

أبقى الزمانُ به ندوبَ عِضاضٍ وَرَمَى سوادَ قُرُونِهِ ببياضٍ
فأخذ أبو بكر يخضد ويحصد، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب
وسوايه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم، ثم نوافقه عليها فقال^(١): [من الكامل]

ياقاضياً مأمثلهُ مِنْ قَاضِي أَنَا بِالذِّي تَقْضِي عَلَيْنَا رَاضِي
فلقد لبست ضفيةً ملمومةً مِنْ نَسِجِ ذَاكَ الْبَارِقِ الْفَضْفَاضِ
لا تغضبَنَّ إذا نظمتُ تنفساً إن الغضى في مثل ذلك تغاضي
فلقد بُليتَ بشاعرٍ متقادرٍ لا بَلْ بُليتَ بِنابِ ذئبٍ غاضي
ولقد قرضتُ الشعرَ فاسمعُ واستمعُ لنشيدٍ شعري طائعا وقراضي
فلاغلبنَّ بديهةً ببديهتي ولأرْمينَ سوادَهُ ببياضي

فقلت: يا أبا بكر مامعنى قولك: ضفية ملمومة، وماالذي أردت بالبارق
الفضفاض، فأنكر أن يكون قاله قافيةً، فوافقه على ذلك أهل المجلس، فقالوا: قد
قلت. ثم قلت: مامعنى قولك ذئب غاضي، فقال: هو الذي يأكل الغصا، فقلت:
استنوق الجمل^(٢) يا أبا بكر، فانقلبت القوسُ ركوةً، وصار الذئبُ جملاً يأكل
الغصا، فما معنى قولك، إن الغضى في مثل ذلك تغاضي، فإن الغضى لا أعرفه
بمعنى الاغضاء، فقال: لم أقل الغضى، فقلت: ماقلت؟ فأنكر البيت جملةً، فقلت:
ياويحك ماأغناك عن بيتٍ تهرب منه وهو يتبعك، وتبرأ منه وهو يلحق بك، فقل لي:
مامعنى قراض؟ فلم اسمعه مصدراً من قرضت الشعر، ولكن هلا قلت كما قلت
وسُقت الحشو إلى القافية كما سقته؟ فقال: هذه طريقة لم يسلكها العرب فلا
أسلكها، ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحربي والشيخ أبو زكريا
الحيري، وطبقة من الإفاضل مع عِدَّة من الأراذل فيهم أبو رشيد، فقلت: ماأحوج
هذه الجماعة إلى /٧٩/ واحدٍ يصرف عنهم عين الكمال، وأخذ الرئيس مكانه من
الصدر واللدست، وله في الفضل قَدَمٌ وقَدَمٌ، وفي الأدب همٌ وهمٌ، وفي العلم قديمٌ
وحديث، فتمَّ المجلس وظهر الحقُّ بنظره وقال: قد أدعيت عليه أبياتٌ أنكرها،
فدعوني من البديهة على النفس، واكتبوا مايقولون، وقولوا على هذا الروي: [من
الكامل]

بَرَّرَ الرَّبِيعُ [لَنَا]^(٣) بَرُونِقِ مَائِهِ فَاَنْظَرُ لِرَوْعَةِ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

(١) الأبيات في ديوان أبي بكر الخوارزمي ص ٣٦٠، ورسائل البديع ص ٦٨.

(٢) مجمع الأمثال ٩٣/٢. (٣) الزيادة عن الرسائل.

فالتربُّ بينَ مُمَسِّكٍ ومُعَنْبِرٍ مِنْ نوره بل مائه وروائه
فقلت^(١): [من الكامل]

فالماء بين مُصْنَدِلٍ ومكْفَرٍ في حُسْنِ كدرتهِ ولينِ صفائه
والطيرُ مثلُ المحصناتِ صوادحٍ مثل المغنّي شادياً بغنائه
والوردُ ليسَ بممسكٍ رياه بل يُهدي لنا نفحاته من مائه
زَمَنَ الربيعِ جَلَبَتْ أَزْكَى مَتَجَرٍ وَجَلَوَتْ للرائينَ خَيْرَ جلائه
فكأنه هذا الرئيسُ إذا بدا في خَلْقِهِ وصفائه وعطائه
بحمى أغرَّ مُحَجَّبٍ^(٢) وندى أَعَدَّ رَّ مُحَجَّلٍ في خَلْقِهِ ووفائه
يعشوا إليه المُجتلي والمُجتدي والمُجتوي هو هاربٌ بدمائه
مالبحر في تزخاره والغيثُ في أمطاره والجوّ في أنوائه
بأجلَّ منه مَوَاهِباً ورغائباً لازل هذا المجدُّ حَلَفَ فنائه
والسادةُ الباقون سادة عصرهم متمددونٌ بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر: تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكته جمع فيها بين إقواء واكفاء وأخطاء وإبطاء، ورددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً، ونقدنا عليه فيها كذا نقداً، ثم قلتُ لمن حَضَرَ من وزيرٍ ورئيسٍ وفقيةٍ وأديبٍ: أرايتم لو أن رجلاً حَلَفَ بالطلاق الثلاث، لا أنشد شعراً قط، ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟، فقالت الجماعة: لا يقع الطلاق، ثم قلت: انقد عليّ فيما نظمت، / ٨٠ / واحكم عليه كما حكمتُ، فأخذ الأبيات وقال: لا يقال نظرتُ لكذا. وإنما يقال: نظرتُ إليه، فكفتني الجماعة إجابته، ثم قال: لِمَ شَبَّهَ الطيرَ بالمحصنات؟ وأيُّ شبه بينهما؟ فقلت: يا رقيق، إذا جاء الربيع كانت شوادي الأطيّار تحت ورق الأشجار، فيكنّ كالمخدرات تحت الأستار، ثم قال: لم قلتُ: المحصنات مثل المغني؟ فقلت: هنّ في الخدر كالمحصنات، وكالمغني في ترجيع الأصوات، ثم قال: لم قلتُ: زَمَنَ الربيعِ جلبتِ أَزْكَى مَتَجَرٍ؟ وهلا قلتُ: أربح مَتَجَرٍ؟ فقلت: ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة، ثم قال: قال ما معنى قولك: الغيثُ في أمطاره؟ والغيثُ هو المطر نفسه. فكيف يكون له مطر؟ فقلت: لا سقى الغيث أديباً

(١) القصيدة مع البيتين في ديوان البديع ص ٣، والرسائل ص ٧٠، وقد فصل بين البيتين والقصيدة في معجم الأدباء ١/ ٢٤٣.

(٢) في الرسائل: محجّر.

لا يعرف الغيث. وقلت: إن الغيث هو المطر وهو السحاب. كما ان السماء هو المطر وهو السحاب. وقال الجماعة: قد عَلِمْنَا أَيَّ الرجلين أشعر، وأيَّ الخصمين أفدر. وأيَّ البديهتين أسرع، وأيَّ الرويتين أصنع. فقال أبو بكر: فاسقوني على الظفر، فقالوا: كفاك، كفاك ما سقاك، ثم ملنا إلى الترسل، وقلْتُ: اقترح على غاية ما في طوقك. ونهاية ما في وسعك، وآخر ما تبلغه بذرعك، حتى أقترح عليك أربعمئة صنف من الترسل، فإن سرتَ فيها برجلين ولم أطرُ بجناحين بل إن أحسنتَ القيام بواحد من هذه ولم تخلف كلَّ الإخلاف. فلَكَ يَدُ السبق وقصَبه، ومثال ذلك: أن أقولُ لك: اكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه. هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقولُ لك اكتب كتاباً على المعنى الذي اقترح لك. وانظم شعراً في المعنى الذي أفتُرح، وأفرغُ منهما فراغاً واحداً، هل كنتَ تمدُّ لهذا ساعداً؟ أو أقولُ لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي أقوله وانصَّ عليه. وانشد من القصائد ما أريده من غير تشاغل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرىء من آخره إلى أوله. وانتظمت معانيه إذا قرىء من أسفله.

/٨١/ هل كُنْتُ تُفَوِّقُ لهذا الغرض سهماً، أو تُجِيلُ قَدْحاً، أو تصيبُ نجماً. أو قلت لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي اقترح لا يوجد فيه حرفٌ مُنْفَصِلٌ مِن واو يتقدم الكلمة أو دال منفصل عن الكلمة بديهة. ولا تُجَمِّ فيه قلمك. هل كنت تفعل؟ أو قلْتُ لك اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام لا تُصَبُّ معانيه على قلب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه، هل كُنْتُ تقف من ذلك موقفاً ممدوحاً، أو يبعثك ربُّك مقاماً محموداً؟ أو قلْتُ لك: اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل. هل كنت تحظى منه بطائل؟ أو كنت تبُلُّ لهاتك بباطل؟ أو قلْتُ لك: اكتب كتاباً أوائل صدوره كلُّها ميم وآخره جيم على المعنى الذي يُفترِح. هل كنت تغلو في قوسه غلوة، أو تخطو في أرضه خطوة؟ أو قلْتُ لك: اكتب كتاباً، إذا قرىء معرجاً، وسردَ معوجاً كان شعراً. هل كنت تقطع في ذلك شعراً؟ بلى والله تُصيب ولكن من بدنك، وتقطع. ولكن من ذقنك. وأقولُ لك: اكتب كتاباً، إذا فُسِّرَ على وجهٍ كان مدحاً. وإذا فُسِّرَ على وجهٍ آخر كان قدحاً. هل كنت تخرج عن هذه العهدة؟ أو قلْتُ لك: اكتب كتاباً إذا كتبه تكون قد حفظته من دون أن لحظته. هل كنت تثق من نفسك به إلى ما لا أطاولك بعده؟ بل است البائن أعلم فقال أبو بكر: هذه الأبواب شعبة. فقلت: وهذا القول طرمذة^(١) فما الذي تحسن أنت من الكتابة وفنونها حتى أباحثك عن مكنونها،

(١) طرمذ عليه فهو طرماذ صلف مفاخر متكبر.

وأكثرُك بمخزونها. وأشبرَ فيها قلمك، وأسبرَ فيها لسانك وفمك؟ فقال: الكتابة التي يتعاطاها أهل زماننا هذا المتعارفة بين الناس. فقلت: أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، والمتناول بكل يد وفم. ولا تحسن هذه الشعبة؟ فقال: نعم، فقلتُ: هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل. وأناظلك بهذا النبل. ثم تقاس ألفاظي بألفاظك. ويُعارض إنشائي بإنشائك. واقترح كتاب يكتب في / ٨٢ / النقود وفسادها. والتجارات ووقوفها، والبضاعات وانقطاعها، والأسعار وغلائها. فكتب أبو بكر^(١): الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة. بهما يتوصل إلى جنات النعيم، ويُخلد في نار الجحيم. قال الله تعالى: ﴿حُدِّثْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٢) الآية، وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الأكار. وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نواه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد. وتعرفنا في ذلك بما يربح الناس في الزرع والضرع. تقدم من إليه^(٣) أمر النفع والضر إلى كلمات لم تعلق بحفظنا. فقلت: إن الإكبار والإنكار، والعباد والبلاد، وجات النعيم ونار الجحيم، الزرع والضرع أسجاع قد نبتت في المعد ولم تزل في اليد. وقد كتبت وكتبت ولا أطالبك بمثل ما أنشأت. فاقراً ولك اليد، وناولته الرقعة. فبقي وبقيت الجماعة. وبُهِتَ وبُهِتَتِ الكافة، وقالوا لي: اقرأ، فَجَعَلْتُ أقرأه منكوساً. واسرده معكوساً. والعيون تبرق وتحار. وكان نسخة ما أنشأناه: الله شاء إن المحاضر صدور بها، وتملاً المنابر ظهور لها، وتُفرع الدفاتر، وجوه بها وتُمشق المحابر، بطون لها ترشق، آثاراً كانت فيه آمالنا. مقتضى على أيديه - في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع الدين أهل عن الكل هذا يُحط أن فيه إليه نتضرع ونحن واقفة. والتجارات زائفة والنقود صيارفة اجمع الناس صار فقد. كريماً نظراً لينظر شيمه مصاب فانتجعنا، كرمه بارقة وشمنا هممه. على آمالنا أرقاب وعلقنا. أحوالنا وجوه له وكشفنا، آمالنا وفوداً إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا، نعماء تأييده وأدام. بقاء الله أطال. الجليل الأمير رأى أن وصلى الله على محمد وآله الأخيار.

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهراً أحد الخصمين. وقال الناس قد فرغنا الترسل أيضاً، فلمنا إلى اللغة، فقلتُ: يا أبا بكر. هذه اللغة التي هددتنا بها / ٨٣ / وحدتتنا عنها، وهذي كتبها وتلك مؤلفاتها، وهي مؤلفة، فخذ «غريب المصنف» إن شئت،

(١) بعده في الرسائل: بما نسخته. بسم الله الرحمن الرحيم.

(٢) سورة التوبة: ١٠٣.

(٣) كذا في الأصل، وفي الرسائل: ويعود إليه أمر...

و«إصلاح المنطق» إن أردت و«ألفاظ ابن السكيت» إن نشطت و«مجمل اللغة» إن اشتهيت، وهو ألف ورقة، و«أدب الكتاب» إن اخترت. واقترح عليّ أي باب شئت من هذه الكتب، حتى أ جعله لك نقداً، وأسردّه عليك سرداً، فقال: اقرأ من «غريب المصنف» رجل ماسٍ خفيف على مثال مالٍ، وما أمساه، فدفعتُ في الباب حتى قرأته، فلم أتردد فيه. وأتيتُ على الباب الذي يليه. ثم قلتُ: اقترح غيره. فقال: كفى ذلك. فقلت له: اقرأ الآن باب المصادر من «اختيار فصيح الكلام» لا أطالبك بسواه، وأسألك عما عداه، فوقف حماره، وخمدت ناره، وقال الناس: اللغة مسلمة إليك أيضاً، فهاتوا غيره.

فقلت: يا أبا بكر، هات العروض. فهو أحد أبواب الأدب. وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت: هات الآن فاسوده كما سودته، فلما برّد صجر الناس، وقاموا عن المجلس يفتنونني بالآباء والأمهات، ويشبعونه باللحن والسب. وقام أبو بكر. فغشي عليه. وقمت إليه، فقلت^(١): [من الوافر]:

يَعزُّ عليّ ياللسانِ أني قَتَلْتُ مُناسِبي جَلدًا وَقَهراً
ولكن رُمْتُ شيئاً لم يَرْمُهُ سِوَاكَ فلمْ أُطِقْ يا لَيْثُ صَبِراً
وقبَلْتُ عينه وَقَسَمْتُ وَجْهَهُ وقلتُ: اشهدوا إن العَلْبَةَ له، فهلا يا أبا بكر جئتنا عن باب الخلطة، وفي باب العشرة، وتفرّق الناس، وحسبنا للطعام مع أفاضل ذلك المقام. فلما عكفنا على الخوان كرعغُ في الجفان. وأسرعغُ إلى الرغفان. وأمعنغُ في الألوان، وجعلَ هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار، فلا يأكل إلاّ قضمًا. ولا ينال إلاّ شمًا. وهو مع ذلك ينطق عن كبدٍ حرّى. ويغيضُ عن نفسٍ ملامى، فقلت: يا أبا بكر، بقيت لك مئةٌ وفيك مُسكَةٌ: [من البسيط]

/٨٤/ يا قومُ إنني أرى الأموات قد نُشروا والأرض تلفظُ موتاكم إذا قُبروا
فأخبرني يا أبا بكر. لم عَشِي عليك؟ فقال: لحمى الطبع وحمى الفرو^(٢).
فقلت: أين أنت عن السجع؟ هلاّ قلت: حمى الطبع وحمى الصقع. وقال السيد أبو القاسم: أيها الأستاذ مع الحديث فاعزل يعنيه^(٣). فقلت: لا تظلموه، ولا تُظعموه طعاماً يصيرُ في بطنه مَعْصاً وفي عينه رمصاً، وفي جلده برصاً، وفي حلقه غُصصاً،

(١) من قصيدة بشر بن عوانة، كما في المقامات وقد مرّ ذكر أبيات منها.

(٢) أي حصلت له الحرارة من الفرو مع حماوة طبعه.

(٣) في الرسائل: مع الجد والهزل تغليه.

فقال أبو بكر: هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله: يصير في عينك قذى. وفي خلقك أذى، وفي صدرك شجا، فقلت: يا أبا بكر. على الألف تريد. خذ الآن. بفيك البرى وعلى هامتك الثرى. ولا أطعمك الخرا إلا من ورا كما ترى. فقالوا: أيها الأستاذ: السكوت أولى، ومالوا إليّ، وقالوا: ملكت فاسجج فابى أبو بكر أن يُبقي لنفسه حمة لم ينفضها. أو يدخر عنا كلمة لم يعرضها فقال: والله. لأتركك بين الميمات. فقلت: ما معنى الميمات، فقال: ما بين مهزوم، ومهدوم، ومهشوم، ومعموم، ومحموم، ومرجوم، فقلت: وأتركك بين الميمات أيضاً بين الهيام، والصدام، والجذام، والحمام، والزكام، والسام، والبرسام، والهام، والسقام، وبين السينات، فقد علمتنا طريقة، بين منحوس، منحوس، منكوس، معكوس، منعوس، محسوس، مغروس، وبين الخاءات. فقد فتحت علينا باباً، بين مطبوخ، مشدوخ، منسوخ، ممسوخ، مفسوخ، وبين الباءات فقد علمتني الطعن وكنت ناسياً، بين مغلوب، مسلوب، مرعوب، مصلوب، مكروب، منكوب، منهوب، مغصوب، وإن شئت كلناك بهذا الصاع، وطاولناك بهذا الذراع، ثم خرجت واحتجرت^(١). وقد كان اجتمع الناس وغلّت الكروش فلما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقبيلاً، وبالأنفاه تبجيلاً، وانتظروا خروجه إلى أن غابت الشمس. ولم يخرج أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده، وخلع الظلام عليه فروته، فهذا ما علقناه عن المجلس. وأديناه. والسيد أطال الله / ٨٥ / بقاءه يقف عليه إن شاء الله. وله المنة.

وكتب إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الأسفراييني:

ما أظنّ - أطال الله بقاء الشيخ السيّد - آل سامان إلا مُدّعين على الله مقاطعة أرضه، ومُساقاة ثمارها، يا هؤلاء، لا تُكابروا الله في بلائِهِ. ولا تراءؤا الله عن مُرادِهِ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٢)

وما أرى آل سيمجور إلا معتقدين أنهم يأخذون خراسان قهراً؛ لأنها كانت لأهمهم مهراً، فلهم من حولها نحيط^(٣)، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^(٤). وبلغني أنّ صاحبهم أسير، فإن كان ما بلغني صحيحاً، فمرحباً بالأسر ولا لعا للعائر، حتام كُفر الكافر، وغدرُ الغادر، وأبو الحسين بن كثير خذله الله لا يكاد يرى الخير من أين واحد، أفترجوه من أين كثير؟ وهو الترياق المجرّب، لو شمه الملك المقرّب، لقف

(١) احتجرت: أي اتخذ حجرة.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٣) النحيط: الزفير.

(٤) سورة البروج: ٢٠.

من كل جانب دُحوراً، هذا المؤيد من السماء بيمين تدييره، نُكس في بيره، وهذا سنانُ الدولة ببركة ضميره. وَقَعَ في تحسيره^(١)، ولا يزال هذا البائس حتى يسأل الله العافية من بدنيه، وحديث ما حديث حديث هذا الحمال، كان إبليس يقسم كل صبيحة اللحي ألفاً، فصار يقسم ألوفا، سلطانُ آتاه الله واسطة البر، وحاشية البحر. وأمكنه من طاغية الهند وسخر ملوك الأرض يريد حمالاً مراغمة، يالرجال لنازل الحدثنان، إني لأعجب من رأس يودع تلك الفضول فلا ينشئ، ومن عنق يحمل ذلك الرأس فلا يندق، وما أجد لابن محمود مثلاً إلا ابن الريوندي^(٢)، إذ ذهب إلى ابن الأعرابي^(٣) يسأله عن قول الله تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ إِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٤). أتقول العرب: ذقت اللباس؟ فقال: لا بأس، ولا بأس، إذ حبا الله الناس، فلا حيا ذلك الرأس، هبك تتهم محمداً بأن لم يكن نبياً، اتهمه بأن لم يكن فصيحاً عربياً. وجئت تسأل ابن الأعرابي. أليس الأعرابي نفسه جاء بهذا الكلام؟ كذلك ابن محمود ينفض استه ويضرب مذرويه لينال الملك، لا لوافر عُدَّة. ولا لكثرة عُدَّة، إنما يطمع في الملك؛ لأنه ابن محمود، أفليس محمود نفسه بالملك أحق؟ فالحمد لله الذي نصركم وأخزاهم، وثبتكم ونفاهم، واركب آخرهم أولاهم^(٥)، ولا رجم الله قتلاهم. ولا جبر جرحاهم، ولا فك أسراهم، ولا أراكم إلا قفاهم. وإن أقبوا ففَضَّ الله فاهم، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

وله إليه أيضاً في هزيمة السامانية بباب مرو^(٦):

وَرَدَّتْ رَقْعَةَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ أَدَامَ اللَّهِ بِسَطْتَهُ مَنِّي عَلَى صَدْرٍ انْتظَرَهَا. وَقَلْبٍ اسْتَشْعَرَهَا، وَإِنِّي لَا أَغْلَطُ فِي قَوْمِ أَمِيرِهِمْ صَبِيٍّ، وَلَا فِي دَوْلَةِ عَمِيدِهَا خَصِيٍّ، وَسَنَانِهَا حَلْقِيٍّ، وَنَصِيرِهَا شَقِيٍّ، وَعَدُوِّهَا قَوِيٍّ، إِنِّي إِذَا لَغَوِيٍّ. يَا قَوْمَ بِمَاذَا يَنْصُرُونَ؟ أِبْمَالٍ عَلَيْهِ اعْتِمَادُهُمْ، أَمْ بِجَمْعٍ هُوَ مَدَادُهُمْ؟ أَمْ لَعْدَلٍ بِهِ اعْتِضَادُهُمْ؟ أَمْ لِرَأْيٍ هُوَ عِمَادُهُمْ؟ هَلْ هُمْ إِلَّا شَطُورٌ فِي فَطُورٍ؟ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنْ مَلَكُوا لَمْ

(١) في الرسائل: تحييره.

(٢) ابن الريوندي، أبو الحسن. أحمد بن يمين بن اسحاق، من أهل مرو الروذ، سكن بغداد كان معتزلياً، ثم اتهم بالالحد والزندقة. مات سنة ٢٩٨ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٤/٦١.

(٣) ابن الأعرابي، أحمد بن محمد بن زياد، الإمام المحدث، البصري، نزل مكة، توفي سنة ٣٤٠ سير أعلام النبلاء ١٥/٤٠٧.

(٤) سورة النحل: ١١٢. (٥) في الأصل: وأولاهم.

(٦) رسائل البديع ص ١٩ وبعضها في يتيمة الدهر ٤/٢٨٢.

يصلحوا، وأمرتهم أما أن لا يفلحوا، فسمعوا وأطاعوا طائفةً من المدابير وقوعهم بين النار والنير، إن أقاموا فالسيوف الهندوانية. وإن أيمنوا فالأتراك والخانية، وإن أيسروا فجرجان والجرجانية، وإن استأخذوا فالعطش والبرية. هو الموت إن شاء الله أخذاً بالحلاقيم، مُحيطاً بالطاعين منهم والمقيمين. جرجان يا مدابير جرجان^(١)، إن بها شمة^(٢) من التين. وموتاً في الحين، ونظرةً إلى الثمار والأخرى إلى التابوت والحقار. ونجاراً إذا رأى الخراساني نجر التابوت على قده، وأسلف الحقار على لَحده، وعطاراً يُعدّ الحنوط^(٣)، وبها للغريب ثلاث فتحات للكبس: أولها لكراء البيوت، والثانية لابتياح القوت، والثالثة لِثمن التابوت. أغلى [الله]^(٤) بهم أسواق النجارين والحقارين والمكارين. آمين رب العالمين.

وله أيضاً إليه في فتح بهاطية^(٥):

إن الله وهو العليُّ العظيم، المعطي من شاء. مَنْ على الإنسان بهذا اللسان، خَلَقَ ابن آدم وأودَعَ بين فكّيه مضغة لحم يُصْرَفُها في القرون الماضية، ويخبر بها عن الأمم الآتية. يُخْبِرُ بها عما كان بعدما خُلِقَ. وعما / ٨٧ / يكون قبل أن يُخْلَقَ، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب، وجرى من حرب، وكان من يابسٍ ورطب، وينطق بالوحي عما سيكون بعد. وصدق عن الله به الوعد، ثم لم ينطق التاريخ بما كان، ولا الوحي بما يكون، أن الله تعالى خصَّ أحداً من عباده - ليس النبيين - بما خصَّ به الأمير السيد يمين الدولة، وأمين الله، ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية، والمدة المروانية، والسنين الحربية، والبيعة الهاشمية والأيام الأموية. والأمانة العدوية والخلافة التيمية. وعهد الرسالة. وزمان الفترة ولولا الإطالة. لعدنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً، وإلى نوح وآدم قرناً قرناً. ثم لم نجد قائل مقالٍ إلا أن ملكاً وإن علا أمره، وعظّم قدره، وكَبُرَ سلطانه. وهَبَّت رِيحُه، طَرَقَ الهند فأسرَ طاغيتها. بسطة ملك. ثم خلاه. وعَرَضَ الأرض قوة قلب. وصبح سجستان، وهي المدينة العذراء، والخطة

(١) في اليتيمة: جرجان، وما أدراك ما جرجان.

(٢) في الرسائل واليتيمة: أكلّة.

(٣) بعدها في الرسائل واليتيمة: بوسمه.

(٤) الزيادة عن مصادر النص.

(٥) رسائل البديع: ٢١.

وبهاطية، من أعمال الهند، وهي وراء المولتان. مدينة حصينة حولها سور عال، يحيط بها خندق، غزاها يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٩٥هـ. فافتتحها ونشر فيها الإسلام (كامل ابن الأثير ٩/ ١٨٤).

العوراء، والطية العسراء، فأخذ ملكها أخذ عز وعنف، ثم خلاه تخلية فضل ولطف. ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاطية. والسييل والليل جنودها. والشوك والشجر سلاحها، والضخ^(١) والريح طريقها، والبر والبحر حصارها، والجن والإنس أنصارها، فقتل رجالها، وعَمَّ أموالها، وساق أقيالها. وكسَر أصنامها، وهدم أعلامها، كل ذلك في فُسحة شتوة، قبل أن يتطرقها الصيف توسطها السيف. وهو الله ملك الملوك. يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

ثم حكمته علماء الأمة واتفق قول الأئمة أن سيوف الحق أربعة. وسائرهما للنار: سيف رسول الله في المشركين، وسيف أبي بكر في المرتدين، وسيف علي في الباغين، وسيف القصاص بين المسلمين، وسيوف الأمير - أيده الله في موافقه - لا تخرج عن هذه الأقسام، فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد، واتهم بأنه أرتد، وسيفه بظاهر غزنه سد في وجه العقوق، نوعاً من الكفر [والفسوق]^(٢) وسيفه بظاهر مرو فيمن نَقَص بعد تغليظه. ونَبَذَ / ٨٨ / اليمين بعد تأكيده، وسيفه بظاهر سجستان فيمن نبه الحرب بعد رقودها، وخَلَعَ الطاعة بعد قبولها، وسيفه الآن في ديار الهند سيف قُرِنَتْ به الفتوح وأثنت عليه الملائكة والروح، ودَلَّتْ به الأصنام. وعزَّ به الإسلام، والنبى عليه السلام. واختصَّ بفضله الإمام. واشترك في خيرهِ الأنام، وارتخت بذكره الأيام، وأخفيت لشرحهِ الأقسام.

وسنذكر من حديث الهند وبلادها وغلظ أكبادها وشدة أحقادها، وقوة اعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة أجنادها، نبذاً، ليعلم السامع أي غزوة غزاها الأمير السيد أدام الله علوه، إنها بلاد لو لم تُحْيِ السحاب بدرها، لأهلكتها الشمس بحرّها، فهي دولة بين الماء والنار، ونوبة بين الشمس والأمطار، يقدمها صعاب الجبال، ويحجبها رحاب القفار، ويعصمها ملتف الغياض، ويحضنها طواغي الأنهار، حتى إذا حرقت هذه الحُجُب، خلص إلى عدد الرمل والحصى رجلاً، وشبه الجبال أفيالاً، وإيزاغ المخاض جلاداً، وتشهاق الحمار طعاناً، وأركان الجبال ثباتاً، ثم لا يعرفون غدراً ولا بيتاً، ولا يخافون موتاً ولا حياة، ولا يبالون على أي جنة وقع الأمر، وينامون وتحتهم الجمر، وربما عمَد أحدهم لغير ضرورة داعية، ولا حمية باعثة، فاتخذ لرأسه [من الطين]^(٣) إكليلاً، ثم قور قحفه فحشاه فتيلاً، ثم أضرم في الفتيل ناراً، ولم

(١) الضخ: الشمس وضوؤها.

(٢) الزيادة عن الرسائل.

(٣) الزيادة عن الرسائل.

يتأوه، والنار تحطمه عضواً عضواً. وتأكله جزءاً جزءاً، فأما مُحرق نفسه ومُغرقها. وأكل لحمه ومُفصل عظمه، والرامي بها من شاهق، فأكثر من أن يُعدَّ، وأقلهم من يموت حتف أنفه، فإذا مات هذه الميته أحدهم شبَّ بها أعقابُه، وعظَّم عندهم عقابُه، بلاذٌ هذه حالها، وفيلةٌ تلك أهوالها، وجبالٌ في السماء قلالها. وفلاةٌ يلمع ألها وغياض ضيق مجالها، وأنهارٌ كثيرةٌ أوحالها، وطريق طويل [مطالها]^(١)، ثم الهند ورجالها والهندوانية واستعمالها، رَحَمَ الأمير - أدام الله سلطانه - بمنكيه هذه الأهوال محتسباً نفسه معتمداً نصر الله وعونه، فركض إليهم بعون من الله لا يُخذل، ومدد من التوفيق لا يفتر، وقلب عن الأهوال لا يجبن، وجدَّ على المطلوب لا يقصُر، وسيف عن الضريبة لا ينكل، فسَهَّلَ الله له الصعب، وكشَفَ به الخطب، ورجع ثانياً من عنائه بالأسارى تنظمهم الأغلال، والسبايا تنقلهم الجمال، والفيلة كأنها الجبال، والأموال ولا الرمال، فتحَّ اللهُ ذَخْرَهُ عن الملوك السالفة الخالية، الكفرة الطاغية، الجبابرة العاتية. حتى وَسَمَهُ اللهُ بناره، وجعله بعض آثاره. فالحمد لله معزِّ الدين وأهله، ومدلِّ الشرك وحزبه.

وله إليه أيضاً^(٢):

رقتي هذه أطل الله بقاء الشيخ الجليل من بعض الفلوات. ولو جهلت أن الحذق لا يزيد في الرزق، وأن الدَّعة لا تحجب السعة، لعذرت نفسي في الرحل أشدَّه، والحبل أمده، ولكني أعلم هذا وأعمل ضده، وأصلُّ سُرايَ بسيري، ليعلم أنَّ الأمر لغيري، وإلا فمن أخذني بالمطار في هذه الأقطار. والمصار في هذه الأقطار، لولا الشفاء، ألم يأتني العمر بهيجاً، والرزق نهيجاً نضيجاً، حتى آتبه قصداً، وأتكلَّف له زرعاً وحصداً، وأعارضه شيئاً وطبخاً. وأعرض له الشعاب، والجبال الصعاب، وأنزل بمناخ السوء. لكن المرء يساق إلى ما بُراد به لا إلى ما يُريد. أما أن لهذه الأشقاص^(٣) أن يتيسر منها الخلاص؟ بعدما سافرت وسفرت. وناظرت [ونظرت]^(٤) وحفرت، وحرثت وبذرت. وبذرت وزرعت. وعمرت. حمدت الله كثيراً. ورأيتُه مغنماً كبيراً. وإن لم يكن من إتمام القصة بُدَّ فلا غنى عن نظير كريم ومهلة، فيها مجال وتسويغ يصلح به فاسد، وقرض يتألف به شارد: [الطويل]

(٢) الرسائل ص ٢٧.

(٣) الأشقاص: جمع شقص، بكسر الشين، وهو السهم والنصيب والقليل من الكثير.

(٤) الزيادة من الرسائل.

وما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي إليك رسول^(١).
ومنهم:

[٦]

أبو نصر العتبي^(٢)

وهو من أصحاب الغوص البعيد. والمعاني البديعة، واللفظ السهل، والخاطر الوقاد والفكر الجوال. والصوغ اللائق. والورد السائغ، لا يُمائل بإنسان، ولا يُشاكل في خراسان. دون كلمه سحر بابل / ٩٠ / ونشر كابل، لو شاء أوهم الغواني في عقودها، والأغصان في برودها، وكان حفظه مع سعة مخيلته، وصفاء مصورته وممثلته، وحفظه أحوى من بقاع الرمل. وأحلى من اجتماع الشمّل.

وفهمه أدق من مدارج النمل تمثيلاً. وأرق من طبع صافي الماء تخيلاً، كلمات محكمة بقوة الأسباب. محكمة كنشوة الراح للأبواب. فأها له من خير طواه أمسه. ومن بحر حوله رمسه، ومن حرّ أضاء ليوم، فاطلّع حتى غابت شمسُه، وله كتاب «اليميني» في تاريخ السلطان محمود بن سبكتكين، كأنه روضة غناء. وعقد منظوم. وأفق مكوكب، بديع الجملة حسن المسموع.

ومن نثره قوله: [في] قرين نصل أهده^(٣):

خير ما تقرب به الأصغر إلى الأكبر ما وافق شكل الحال، وقام مقام المقال. وقد بعثت بنصل هندي، إن لم يكن له في قيم الأشياء خطر، فله في قمم الأعداء أثر. والنصل والنصر أخوان. والاقبال والقبول قرينان. والشيخ أجل من أن يرى إبطال حلية الأبطال، ويردّ إقبال مستجلب الاقبال.

ومنه قوله من كتاب كتبه عن السلطان محمود:

(١) البيت ليزيد بن الطثرية: ديوانه ص ٩٨.

(٢) محمد بن عبد الجبار، أبو نصر العتبي، نسبة إلى عتبة بن غزوان المازني، الصحابي، الجليل. ولد بالري، وغادرها شاباً إلى خراسان، فنشأ بها وولي نيابتها، ثم استوطن نيسابور. وانتهت إليه رئاسة الإنشاء في خراسان والعراق، وناب عن شمس المعالي قابوس بن وشمكير في خراسان إلى أن توفي سنة ٤١٣هـ/ ١٠٣٦م.

وكان أديباً شاعراً، كاتباً مترسلاً، مؤرخاً. صنف كتباً منها «لطائف الكتاب» في الأدب. و«اليميني» نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين. شرحه المنيني في مجلدين، وطبع باسم تاريخ العتبي. ترجمته في: يتيمة الدهر / ٣٩٧، الوافي بالوفيات / ٢١٥، والإعلام / ٦ / ١٨٥.

(٣) يتيمة الدهر / ٤ / ٣٩٧.

ووصلنا إلى السومونات^(١) فوجدناها تخفي الرياح في مساربها. وتزلّ الأبصار بين ذوائبها، بين غياض تشكو الأرقام فيها ضيق المضطرب، وصعوبة المنسرب. متكاثفة كأعراف الجياد، متداخلة كأشعار الحداد. لا تستجيب فيها الأفاعي للرّقاة. ولا يستنير البدر عندها للشرّاء، في أذيال جبال تُناغي كواكب الجوزاء. وخلال آجام توارى وجه الأرض عن عين السماء، فوافينا وقد أثقلّ العيون كراها، وأتعب النجوم سُراها، في مدّة اتصلت كعوب أيامها، وتناسقت فرائد نظامها، فأحطنا بها إحاطة القلائد بالجيد، والشذرة بالفريد، ثم اشتدّ الوغى، فخيّلت المعركة غمامها مثار القساطل. وبروقها بريق المناصل / ٩١ / وعودها صرير السلاح، ورشاشها صبيب الجراح، واستقبل المعمعة من الجنود رجال، يروّون الملاحم ولائم، والوقائع نقائع، حطّت الرماة أيديها في جعاب كخراطيم الفيول مملؤة بنبال كأياب الغول. وظلّت السهام تتهاوى كما تتهاوى لوامع الشهب، وتترامى ترامي نوازع الشحب. والطنع يهتك ودائع الصدور، ويرد مشاريع الغموم والسرور، ولم تزل الملحمة حتى استقلت الشمس إكليلاً على الجبل، ونفضت ورساً على الأصل، فافترق الجمعان، وضرب الليل بينهما بجِران، إلى ان صافح الليل صباحه، ونثر النجم على الغرب وشاحه، فعادوا إلى أمسيهم، وتداعوا من إثارة القتام إلى رمسيهم، وصارت الأرواح تستقي بأرشية الأرماع. إلى [أن] تولى عسكر البلد هزيماً يقفوه الصباح. وهشيماً تذرّوه الرياح. يتقاسمون الهرب جماماً، ولا يردون الماء إلا لمالماً، وعسكر السلطان في آثارهم، يرميهم بالصواعق من طُبي السيوف البوارق. ويقذفهم بالشهب اللوامع من شبا الرماح الشوارع، حتى صار من سلم منهم إلى الأطراف ضرورة، إذ كانت جيوب الآفاق عليه مزرورة. وما برح السلطان يتطلّب ملكهم حتى حصل في مُعتقله، وحصله في مكنم أجليه، فهدأ من الخوف سرّه وختم بطابع الشقاء عُمره، ثم صعد السلطان المدينة، ودخل بيت البدّ وظفر منه ومنها بأموال طالما حفظتها صدور الخزائن مكتومة. وخنقتها خيوط الأكياس مختومة، مما أوهت في تعدادها أنامل الحسّاب. وأحفت بل أفنت أقلام الكتاب. فمن ذهب وفضّة. ما منها إلا ما يُكاثر بالأحجار. ويستقلّ الأمصار. ومن لآلٍ كأنما صوّرت من الشمس ضياءً، وخُلقت لمضاهاة حبّ الغمام عدّاً وصفاءً. ومن يواقيت كالجمر قبل الخمود، والخمر بعد الجُمود. ومن

(١) السومونات: مدينة ساحلية واسعة. بها علماء الهند وعبادهم والصنم المعروف بها ويسمى (البدّ) كسره محمود بن سبكتكين، وحاز جميع ما فيه من جواهر وأحجار كريمة (وفيات الأعيان ٥/ ١٧١).

زبرجد كأطراف الآس نضارَةً، / ٩٢ / أو وَرَقَ الأَقْحوانِ غُضارَةً، ومن ماسٍ كأنما أعارت بعضه السنانير أحداقها، أو وهبت باقيه حق الشقائق أوراقها، ومن ولدانٍ كالؤلؤ المنثور. ونساءٍ خُلِقْنَ أنموذجاً للْحُور. وأفيالٍ كالأسودِ محطومة بالأساور السود. حكت أطواراً فارغة، وأمواجاً متدافعة، تئنُّ الأرض من وطء أطرافها. وتخفت من ثقل أخفافها تقف كأشخاص القصور، وتتدفق كأمواج البحور، وكأنها بيوت والخراطيم رواشنها المعلقة، وكأنها ليالٍ افترست النهار، فلم يبق إلا ما على أنيابها من جلودِه الممزقة، يراها الراؤون هضاباً ثابتة، وجبالاً نابثة، في ثقل أجسام، وخفة أقدام كأنها صدع الجبال عند طارقة الزلزال، تناجي بصور التهويل والتفخيم، وتفتك بالأيدي والخراطيم، إن استدرى بها في الوغى ضربت بين النفوس والآجال بسور، وإن خفت إلى الحروب، رأيت قلوب الليوث تحت أجنحة النسور، فلندع هذه النعمة التي عقدت بالنجوم ظفائرها، وأفاضت على الشوق بعضها وعلى الغرب سائرها، وإنا لنروجو أمثالها ما دامت العيون حافظة سوادها، والعوائق حاملة نجادها.

ومنه قوله:

المرء من البشر، لا من ورق الشجر، إذا مات فقد فات، وليس مما يعود. كما يورق ما عري العود.

ومنه قوله:

وهم مرايبع الكرم، وينايبع الحكم، ومصاييح الظلم، ومجاديح الأمم، وليوث البهم. وغيوث القحم. سادة الناس، وقادة الملوك يوم الندى ويوم الباس.

ومنه قوله:

وبلغ إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم ينل به قط سورة ولا آية، في فيافٍ تضلّ في أرجائها أسراب اليعافير، وتحار في دهنائها أفواج العصافير، فثار عدوُّ الله يستنهض كل من يحمل حجراً، فضلاً عمّن يُلَقِّمُ القوس وتراً. أو يُحسِنُ / ٩٣ / بالسيف أثراً، فلما قاربه بالمكان، ودخل بالرعب على قلبه العيان. كرّ راجعاً على آثاره، لفت المشير موهناً بناره. لا زال السلطان منصوراً ما طلع يومٌ من حجاب أمس، وظهرت نفسٌ من قرارة نفس.

ومنه قوله:

وأما بنو فلان فكوئتهم الأيام بمياسمها، وداستهم الليالي بمناسمها. فإن في قرع باب الغي تعرّضاً للبلاء، واستئذاناً على سوء القضاء. لولا أن تداركهم فلان بلطف كالأري مُستاراً. ودهاءٍ يسلخ من الليل البهيم نهاراً.

ومنه قوله معزياً:

هذه مصيبة سَفَحَتْ الدموع غروباً. ونثرت فنا الأصلاب إنبواباً فإنبوباً. ونعى بها
فتى الجود ومص بعده الثرى بقية الماء من العود.

ومنه قوله:

ولم تكن إلاّ صدمةً واحدة حتى زلّت الأقدام عن مقارّها، وتهاوت الرقاب عن مزارها،
وجعلت تتساقط أشخاص الألوية والمطار، وترد النفوس عن ضرب السيوف البوارد، وكرت
عنها للسلطان فيول كُرْعن الجبال، أو كُرْكُن السحب الثقال، مغشّاة بتجافيف لم يُغور فيها
غير حديق النواظر، وحدائد الأنياب الفواقر. يهوّل سائسها عليها بمرهفات كالبروق
الخواطف، وصفارات كالرعود القواصف. وقد نُشِرت عليها التماثيل في العيان المشهود.
كأنها الأساودُ السود، تخيل اضطراب الرياح فيها أنها تزحف للألهام، أو تنقضّ لاختطاف
الهام، وتعالّت عليها أطراف العوامل، في مبانٍ كالمعاقل. كأنها آجام السواحل، تؤويها
شياطين الإنس فرساناً، وعفاريث الترك والند مرداً وشباناً، تبصّ عليهم سابغات داود
كصفائح الماء، تجلوها الشمس في وسط السماء، فحثّ العدو الخيل، تحت الليل حثّاً كاد
لا تتنفس الأرض معه بمواطن أقدامها، ولا تشعر النجوم بأشخاص ألويتها / ٩٤ /
وأعلامها، ودنا الفريقان بعضهم من بعض، وظلّت رحي الحرب تعركهم بثقالها وتدور
عليهم بأثقالها، وحمل سيف الدولة بنفسه، فتداعت الزخوف، وتخالطت السيوف وخطبت
على منابر الرقاب السيوف، وثارث عجاجة أخذت العيون عن الأشباح، وأذهلت النفوس
عن الأرواح، ونثرت الأعناق ثم نظمتها في سلوك الرماح، وطفقت الخيل تردى بجثث
النفوس. وتلعت بأكر الرؤوس، وأما البقية فانهم ولّوا ما ألّوا. وقد دبّ الفشل في تضاعيف
أحشائهم، وسرى الوهل في تفاريق أعضائهم، واستطار الخوف في مزاج دمائهم، فجيوب
الأقطار عليهم مزرورة، وذبول الخذلان عليهم مجرورة.

ومنهم:

[٧]

الحسين^(١) بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو اسماعيل مؤيد الدين، فخر الكتاب
الأصبهاني، المنشئ المعروف بالطغرائي

الكاتب، الشاعر، الناظم، النائر، البديع الصنعة، الباهر الأدب، الزاهر

(١) المتوفى سنة ٥١٤ هـ.

ترجمته في: خريدة القصر (قسم العراق) ١٥١/٢ ومعجم الأدباء ١٠٦/٣ ووفيات الأعيان ١٨٥/٢ =

الفضل، الظاهر المحاسن، الدقيق المعاني، الرشيق المباني، المشهور شهرة الشمس، الواضح وضوح البدر، كثر ببدائع النجوم الثواقب، وبتائج قرائحه سُجُوم السحاب، فجاءت عرباً أبكاراً وشهباً لا تلج أفكاراً، ولوع بصنعة الكيمياء. فشب لهباً. وصبّ أدباً لا ذهباً. وأذهب زماناً بها في العناء، وطلب الغنى من غير العناء، فلم يجد بغيته، ولم يزد على أن صقر وجهه ويبيض لحيته، فردّ خائباً، واشتعل رأسه شائباً، وطالما شمر طلب الصنعة دروعه، وصعد أنفاسه وقطر دموعه، وكان من فيض السلطان في غير البشير، وفي حبر من الأكسير، إلا أنه تعلق بعلم أحابر، وعلق حكم الصنعة عن أكابر. وشدّ الأوصال، وامتدّ لأن تسمح له بالوصال. فكان لو شعر به ابن أميل^(١) لمال إليه كلّ الميل. أو شبه به ابن يزيد^(٢) لما كان عليه مزيد.

٩٥ / ومع طول معاناته، وبعده تارة ومداناته. لم يحصل على غير ارتقابها، ولا ظفر من ليلي بحظ نقابها، فكَمَّ ضَبَعُ حاصلها، وكَدَّ ولم يكن واصلاً. وشعره أسير من نثره، وأيسر في حجم قدره؛ لأنه إنما عانى النثر في آخر عمره. وقد قارب أجله الانتهاه وقارب الرحيل. ودنّت شمسُه من الأفول، وهو صاحب لامية العجم التي فضّلت عرى لامية العرب، وحلت لامها، ونكبت من سفار الشنفرى سهامها. فلقد قوّت الشُعوبية، واحتمت لعصابتهم حمية العصبية. وأخذت قسراً شجر البيان، وحكمة السنة العرب وأدمغة اليونان، وكادت تبتز من دولة العرب مدينة السلام. ولا تبقى لهم إلاّ عائدة السلام. وعنوان قوله منها^(٣): [من البسيط]

أريد بسطة كفّ استعينُ بها على قضاءِ حقوقٍ للعلا قبلي
والدهرُ يعكسُ آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل
إنّ العُلا حدثتني وهي صادقةٌ في ما تحدث أنّ العزّ في النُقل
لو أنّ في شرفِ الماوى بلوغٌ مُنى لم تبلغ^(٤) الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ
تقدّمَتني رجالٌ كان شوطُهُم وراءَ وطئِي إذ أمشي على مهل^(٥)

وسير أعلام النبلاء ٤٥٤/١٩ والعبر ٣٢/٤ والوافي بالوفيات ٤٣١/١٢ والنجوم الزاهرة ١٢٠/٥ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥/٥ وشنذرات الذهب ٦٨/٦. ونشر شعره بيغداد الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري.

(١) محمد بن أميل بن عبد الله بن أميل التميمي، نبغ في النصف الثاني من القرن الرابع، وترك مصنفات في الكيمياء، يوجد بعضها مخطوطاً. انظر: تاريخ الأدب العربي بروكلمان ٣١٧/٤.

(٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. أبو هاشم القرشي الأموي، وكان له كلام في صناعة الكيمياء والطب. وكان إلى ذلك أدبياً شاعراً عاقلاً ذا لسان وعارضة توفي في حدود سنة ٩٠ هـ. انظر: الوافي بالوفيات ١٣/٢٧٠ والبداية والنهاية ٨/٢٣٦ والعبر ١/١٠٥ وسير أعلام النبلاء ٩/٤١١.

(٣) ديوانه ص ٣٠٢. (٤) في الديوان: لم تبح.

(٥) رواية البيت في الديوان: تقدمني أناس.. وراء خطوي.

أعدى عدوك أذنى من وثقت به فحاذر الناس وأصحابهم على وجل^(١)
وإن علاني من دوني فلا عجب لي أسوة في انحطاط^(٢) الشمس عن زحل
وقد قال لما ولي ديوان الطغراء، وكان قد كبر وأفين: من فتح دكانه العصر، أي
شيء يتعیش؟

ومن نثره قوله:

وما كان إلا أن تداعوا بالرحيل، وقدمت لهم النياق للتحويل، وإذا بقلبي قد
ودعني وسار. وهز جناحه الخافق وطار، فعدت علم الله لا أستطيع منعه، ولا أعقل.
فاجري لي دمعاً، إلى أن بكرت / ٩٦ / علي العاذلات، وهبت إلي باللوم فائلات: أما
لك أسوة بالمحبين الألى؟ فقلت: لا، فما زلن يرقن جلدي، ويمسكن تجلدي، وأنا
لا أسكن إلى حول، ولا أظمن إلى قول، حتى غلبتني صرعة الكرى، فتخيلت [أني]
أرى خيالاً عاد مخبراً من الحبيب زار مزوراً، فإذا بتمثال الأحباب بين يدي مصوراً،
فقال لي ذلك الطيف الطارق تحت ستور الليل الغاسق، ما لك ولهذه الحالة الشنيعة.
أما كنت ترضى بأن يكون قبلك عندنا وديعة؟ فما خذها إليك، والسلام عليك. فقلت
ناشدتك الله أيها الخيال الزائر، والمثال السائر إلا ما تريت ووقفت فتكثرت، فما زاد
على أن زال، ولا حام حتى حال، ثم ولّى وما ودع وأشبه شبهته في الجفاء وما أبدع.
ومنه قوله:

وقد زار الغيث وزار الليث. وأضاء البدر الزاهر، ودنا الصباح السافر، وقدم العميد،
يهمي متدققاً هو والغمام، ويجري مستبقاً هو والسهام، فأى صدر ما ترحزح لحلوله؟ وأي
قدر تضاءل لوصوله، وأي بدر ما غاب، وأي شمس ما توارى ضياؤها بحجاب. ولولا
وقار العميد، كادت الأرض تميد وبالله العجب، قدم وما نرقت البحار ولا ضاقت البيد!
ومنه قوله:

وكتابي إليك، وعندني عليك لوث عتاب، لأمر لا يحمله كتاب. فإن آب بك
المآب وقوم أود ودك الإعتاب، استرسلت معك في ذكره، وأرسلت إليك رائد سره،
وإلا طويت الدهر على مضض ألمه. وأخليت للصدر لممه وتحاملت على مابي،
وصرفت عنك ودي وعتابي.

ومنه قوله:

سحابة ترسل الأمطار أمواجاً، والأمواج أفواجاً، سحبت على الأرض أذيالها،
وعلمت افتقارها إلى نفسها فجات بها لها: / ٩٧ / والجود بالنفس أقصى غاية

(٢) في الديوان: بانحطاط.

(١) في الديوان: على دخل.

الجود، لاسيما عوارف كرم ملأت الوجود.

ومن شعره قوله^(١): [من الطويل]

وأبيض طاعي المتن^(٢) يُوعدُ حده^(٣)

عليمٌ بأسوارِ المنونِ كأئما

ومنه قوله^(٤): [من الطويل]

أجيراننا بالغور^(٥) كيف خلصتُم

لقد سمعتُ أذناي نجوى فراقكم

أحذركم طوفانٍ دمعي فبدلوا

ففي الحيّ مرهومُ الإزارين بالبكا

ومنه قوله^(٩): [من الطويل]

إذا ما دجا ليلُ العجاجة لم يزلْ

عليها سطورُ الضربِ يعجمها القنا

وقوله في الروض والنهر^(١١): [من السريع]

يشقُّها في وسطها جدولٌ

له سواقٍ طفحتُ والتوتُ

فهي رماحٌ أسرعَتْ نحوها

ومنه قوله^(١٥): [من الكامل]

إنني لأذكركم وقد بلَغَ الظَّما

وأري العدا أنَّ الأساءةَ منكم

مخافة عزمٍ منك أمضى من النضلِ

على مضربيه أنزلت آية القتلِ

نجياً وأخفيتُم حديثكم^(٦) عني

فلا نظرتُ عيني^(٧) ولا سمعتُ أذني

إذا أرفَ السَّير^(٨) الركائبَ بالسُّفنِ

وآخرُ مرقومُ العذارين بالحسنِ

بأيديهم جمرٌ إلى الهند منسوب^(١٠)

صحائفُ يغشاها من النَّقعِ تريبٌ

مباهة العذبة مثلوجة^(١٢)

تلويّ الحيات^(١٣) مشجوجة

تطعنُها سلكى ومخلوجة^(١٤)

منّي فأشرقُ بالزلالِ الباردِ

خطاً وتلك سجيّة من عامدِ

- (١) البيتان من قصيدة في ديوانه ص ٢٧٤. (٢) في الديوان: الحد بدل المتن.
 (٣) في الديوان: (مته)، بدل (حده). (٤) الأبيات: من قصيدة في الديوان ص ٣٩٠.
 (٥) في الديوان: أجيرتنا بالجزع. (٦) في الديوان: (حديثكم) بدل (سيركم).
 (٧) في الديوان: فلا أبصرت عيني. (٨) في الديوان: أرف البين.
 (٩) البيتان من قصيدة في الديوان ص ٩٣. (١٠) في الأصل مشبوب. والتصويب من الديوان.
 (١١) ديوانه ص ١٠٣. (١٢) في الديوان: تلوي الحية.
 (١٣) في الأصل: فهي نتاج أسرع نحوها/ قطعها. والتصويب عن الديوان.
 (١٤) الأبيات في الديوان ص ١٤١.

ويصحُّ لي قولُ الوُشاةِ عليكمُ
 وإذا طويْتُ هَواكِ عني نَمَّ بي
 وأقولُ لَيْتَ أَحَبَّتِي لَأَقِيْتُهُمْ
 وإذا سَأَلْتُ عَنَ السُّلُوِّ أَجَبْتُهُمْ
 / ٩٨/ إنَّ لَمْ يَكُنْ سِحْرًا هَواكِ فَإِنَّهُ
 ما زِلْتُ أَجْهَدُ في مودَّةِ راعِبِ
 ولرَبِّما نالَ المَرادَ مُرَفِّهُ
 هذا هو الداءُ الذي ضاقتُ بهِ
 ولعمري ما أعرفُ ما أصِفُّ بهِ هذا الشعرُ وهو الذي قَلَّ إنَّ يُماتلَّ، وجَلَّ أنَّ
 يُقاسَ بِهِ، وهو السحرُ الطاهرُ، والرحيقُ المشعشعُ، والروضُ الباسمُ، والصبحُ
 المتألقُ، وهكذا فليكن، ومَنْ يَقدرُ على هذا أو يدانيه؟!

وكذلك قوله^(٣): [من البسيط]

بالله يا ريحُ إنَّ مُكَّنْتَ ثانياً
 وياكري ورَدَ عَذْبٍ مِنْ مُقَبَّلِهِ
 وإنَّ قَدَرْتَ على تشويشِ طَرَّتِهِ
 ثمَّ اسلكي بينَ بُرْدِيهِ على عَجَلِ
 ونبَّهيني دُوبِنَ القَومِ وانتفضي
 لعلَّ نَفحةَ طيبِ مِنكِ ثانياً
 وقوله^(٤): [من الطويل]

وحانِ على الشحناءِ عُوْجَ ضُلُوعِهِ
 يَكائِرُ فَضلي بالثَراءِ تَوقُّحاً^(٦)
 أقولُ لَهُ لَمَّا اشْرأبَّ لَغايتي
 وأيقظَ مني ساهراً غيرَ نائمٍ^(٧)
 لَقَدْ فاتَ قَرْنُ الشَّمسِ راحةً لأمسٍ

(١) البيت لم يرد ضمن الهصيدة في الديوان.

(٢) في الأصل: «وقدا من أديم زائدة» ولا معنى لها، والتصويب عن الديوان.

(٣) ديوانه: ص ١٦٨.

(٤) ديوانه ص ٢٠٦.

(٥) في الديوان: صادرات.

(٦) في الديوان: نواقحاً.

(٧) في الديوان: راقد.

لشأوي فطالبا بمثل خصائصي
وغوصي^(١) على ما لم ينل فهم غائص
لدي ولا ظل الوفاء بقالين
ولا أنا عما كاتموني بفاحص
سعوا بين مبهور وآخر^(٢) شاخص
وطئت وقد أغيتهم بالأخامص

وظل الهوى النجدي لا يتقلص
ولا هو في الحالين يصفو ويخلص
وفي القرب عيش بالوشاة منعص
وكان يزيد الأمر فيه وينقص
رمي العيون النجل لا يتخلص

إذا شكوت إليه زادني مرصا
أرسلت طرفي سهما وانثنى غرضا
يسري ويمري جفوني كلما ومضا
هفا بقلبي ولبي كله ومضى^(٦)
بالجار جاراً وما أرضى بهم عوضا
عن الرضاع تقضي والشباب مضى
للقلب والعين ملهى بان وانقرضا
وإن ذكرت فعرق ساكن نبضا
ولست أبلغ من تحكيمه غرضا

فإن حدثتكَ النفس أنك مُدركٌ
وعلمي بما لم يحوِ خاطرٌ عالمٍ
فما عهدُ أحبابي على البعدِ ضائعٌ
/ ٩٩ / ولا أنا عما استودعوني بذاهلٍ
وإن الألى راموا اللحاق بغايتي
وراموا بأطرافِ الأناملِ غايةً
وقوله^(٣): [من الطويل]

صحا عن فؤادي ظلُّ كلِّ علاقةٍ
هوى ليس يُسلي القربُ عنه ولا النوى
ففي البُعدِ قلبٌ بالفراقِ مُعذبٌ
وإنَّ خلاصاً كنتُ أرجوه بُرْهَةً
فقطعتُ رجائي منه^(٤) مُذ قال صاحبي:

وقوله^(٥): [من البسيط]

يا صاحبي أعيناني على سكينٍ
ظبي غريرٍ إذا حاولتُ غرته
ما لي وللبرقِ مُجتازاً على إضمٍ
برقٌ يلوحُ بنجد والجمي وطني
من مبلغ الحي شطت دارهم ورضوا
ما طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم
إنَّ الزمانَ الذي كانت بشاشتهُ
فإن يئست^(٧) فياساً لم يدع طمعاً
حكمت في مهجتي من ليس ينصفني

(١) في الديوان: حثيث.

(٢) في الديوان: عنه.

(٣) في الديوان: يهفو بلسي وقلبي كلما عرضا.

(٤) في الأصل: خوصي.

(٥) الديوان ص ٢٠٩.

(٦) ديوانه ص ٢١٣.

(٧) في الأصل: نسيت. والتصويب عن الديوان.

قضى عليّ^(١) بجور أم عليّ قصى
أخاف أن لا يراني الجدُّ إن نهضاً

وقوله^(٢): [من الكامل]

في الحَيِّ شاعف^(٣) عقدها القرط
والشمسُ ليس يكنُّها مِرْطُ
ورداً يضاعفُ حُسْنَهُ اللَّغْطُ
والعِيشُ فوق جفوننا تخطو^(٤):
فمضى وشئتَ شملنا الوحْطُ
فكأننا لم نسطحِبْ قَطُّ

سيانَ عندي وأمري صارَ في يدهِ
حَتَّامٌ أَنهَضُ جَدِّي وهو يعثر بي

ومليحة الحركات إن رَقَلْتُ
/١٠٠/ نَمَّ المروِطُ بِجِسْمِهَا فبدا
فَتَحَّ الصَّبَا فِي صَحْنِ وَجْنَتِهَا
قَالَتْ وَقَدْ وَلَّتْ حُمُولَهُمْ
كَانَ الشَّبَابُ الْغَضُّ يَجْمَعُنَا
غَدَرَ الْأَحْبَةُ وَالشَّبَابُ مِعَاً

وقوله^(٥): [من الكامل]

والدمعُ قد شَرِقَتْ بِهِ الْأَحَاظُ
شَتَّانَ غَدْرٌ فِي الْهَوَى وَحِفَاظُ
فيها الرسائلُ والقلوبُ غِلَاظُ
تلك المدماعُ فيه والألفاظُ
ما إن سَقَاكَ مِنَ الدَّمِوعِ لِمَاظُ
فبظنننننم رَقَدُوا وَهُمْ أَيْقَاظُ
أيامُ ربُعكَ لِلحِسان «عُكَاظُ»

في القلبِ مِنْ حَرِّ الفِرَاقِ سُوَاظُ
وَلَقَدْ حَفِظْتُ عَهْودَكُمْ وَعَدْرْتُمْ
لِلهِ أَيُّ مَوَاقِفِ رَقَّتْ لَنَا
ومرى العِتَابُ جفوننا فتناسبت
يا دارُ ما للركبِ حينَ وقوفنا^(٦)
تَرَكَ الغرامُ عقولَهُمْ مَشْدُوهُةً^(٧)
عهدي بظلكِ والشبابُ يزينُهُ

فبالله ما أسرى هذه البدائع؟ وما أسرع تدقق هذه البدائنه؟ وبالله هذا الشاعر لقد ركب
هذه القافية الصعبة، فذلَّلها، وسلك هذه الطريقة الوعرة فسَهَّلها. ولقد حير الأفيهام إلى أيُّ
هذه المعاني تسارع. ولأيها تفصل، ومن أيها تعجب؟! هذا مع هذا التركيب الشديد
الأسر، واللفظ الذي اقتاد أبي هذه القافية وسلسل نطف هذه الأبيات الصافية، وجاء
بأبياتها المشيِّدة كأنها العافية. وهذا الذي يتفاوت فيه أقدار القرائح، ويظهر فيه مبلغ
العلم، ويعلن به باسم قائله، وينفق سوق منشده. وأين من يقدر على مثل هذا الكلام.

(١) في الأصل: قضى لغيري، ولا معنى لها. والتصويب عن الديوان.

(٢) ديوانه ص ٢١٧. (٣) في الديوان: شاعَب.

(٤) في الديوان: والعيش فوق جفونها تخطو.

(٥) الديوان ص ٢١٧. (٦) في الديوان: وقفتم.

(٧) في الديوان: مدهوشة.

أويتعاطى مثل هذا المدام. أو يصح معه هذا السحر، وما أظنه إلا الحرام.

ومن لطائف شعره قوله أيضاً^(١): [من الكامل]

١٠١ / يا قلب ما لك والنوى من بعدما
أو ما بدا لك في الإفاقة والألى
مرض النسيم وصحّ والداء الذي
وهذا خفوق البرق والقلب الذي
وقوله^(٣): [من الطويل]

أجمّا البكا يامقلتي فإننا
إذا جمع العشاق موعدهم^(٤) غداً
وجاءه مولود وقد بلغ سبعا وخمسين
هذا الصغير الذي وافى على كبري
سبع وخمسون لو مرّت على حجر
وقوله^(٦): [من الطويل]

على موعد للبين لا شك واقع
فوا خجلتا إن لم تُعني المدامع
سنة فقال^(٥): [من البسيط]

أقرّ عيني ولكن زاد في فكري
لبان تأثيرها في صفحة الحجر
ويزهو^(٧) إذا أعسرت بعضي على بعضي
ويوقر حملاً حين يدنو إلى^(٨) الأرض
وقوله^(٩): [من الطويل]

فقد صادني سحر العيون النوافث
تولّى الصبا فالعدل أول باعث
صفاً ليس يمضي فيه معول باحث
وقد كان بدء الحب مزحة عابث
وقوله^(١٠): [من الطويل]

هي العيس قوداً في الأزمة تنفخ
تمطى بها من حقوه^(١١) الرمل برزخ

(٧) في الديوان: ويزهو.

(٨) في الديوان: من.

(٩) الديوان: ص ١٠٥.

(١٠) ديوانه: ص ١٠٥.

(١١) الديوان: عجمة.

(١) ديوانه ص ٢٦٠.

(٢) في الأصل: وصح الداء الذي يشكو.

(٣) الديوان: ص ٢٥٠.

(٤) في الديوان: موقفهم.

(٥) الديوان: ص ١٦٣.

(٦) الديوان: ص ٢١٦.

بحيث^(١) التقى منها وقوفٌ ونوْحٌ
قَدَى الْفِتْرِ إِذْ أَدْنَى خُطَاهَنَّ قَرَسَخُ
جَنَاحُ خُدَارِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ أَفْتَحُ
وَمِسْكَ شُعُورٍ بِالشَّبَابِ مُضْمَخُ
فمالي إذ أشكو ولالكِ مُصْرِحُ

عيني سواكم ولا استمتعّت بالنظرِ
فإنَّ حبِّكمُ عَطَى عَلَى بَصْرِي

أضننى طرفاً شكاً أم تليداً
فأبئت وهي تشتهي أن تعودا
ألم الوجدِ والمزارِ البعيدا^(٥)
أن أمالت عليّ عطفاً وجيدا^(٦)

بها نحو مُسْتَرِقٍ سَمِعَهُ
على لازوردية الرُّقْعَه

فَلَيْنَ الدَّجِي عَنْ غُرَّةِ الصُّبْحِ فَاغْتَدتْ
عليها قطافُ المَشِي أطولَ خطوها
بُدُورٌ أَكْتَتَهَا خُدُورٌ يَجَنُّهَا
/١٠٢/ فَوْشِي خُدُودٍ بِالْجَمَالِ مُنَمَّمُ
فيا صادحاتِ الورق في الأيكِ اقصري
وقوله^(٢): [من البسيط]

تالله ما استحسنت من بعدِ فُرْقَتِكُمْ
إن كان في الأرض شيءٌ غيرُكم حسن^(٣)
وقوله^(٤): [من الخفيف]

خَبَّرَها أَنِّي مَرِضْتُ فَقَالَتْ:
واشاروا بأن تعودَ وسادي
وأثنني في خفيةٍ وهي تشكو
ورأتني كذا فلم تتمالكِ
وقوله يصف النجم^(٧): [من المتقارب]

وليل ترى الشَّهْبَ مُنْقَضَةً
كما مُدٌّ مِنْ ذَهَبٍ مُدَّةً
ومنهم:

[٨]

أبو علي الحسن^(٨) بن عبد الصمد بن أبي الشخاء العسقلاني

صاحب الخطب المشهورة، والرسائل المحبّرة، لسان لا يكف له غرْب، ولا يكلُّ

(١) في الديوان: بجنب النقا.

(٢) الديوان ص ١٧٢.

(٣) في الأصل: حسناً.

(٤) الديوان: ص ١٤١.

(٥) في الديوان: رقة الحي والمزار البعيد.

(٦) في الأصل: أن مالت عطفاً وجيدا، ولا يستقم الوزن.

(٧) الديوان ص ٢٥١.

(٨) الحسن بن عبد الصمد (وقيل بن محمد بن عبد الصمد) الشيخ المجيد ابن أبي الشخاء، أبو علي العسقلاني، كاتب مترسل من البلغاء الشعراء، توفي مقتولاً في خزانة البنور، وسجن القاهرة سنة ٤٨٢هـ أو ٤٨٦هـ، انظر: وفيات الأعيان ٨٦/٢ الوافي بالوفيات ٦٨/١٢، معجم الأدباء ١٥٢/٩، واناظ الحنفا ٣٢٨/٢ وسير أعلام النبلاء ٥٨٧/١٨ والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٦٢٧/٢/٤ وله مجموعة من الرسائل.

له ضَرْبٌ، بحسِّ ذكِّي كأنه زجاجة فيها نار، وحَدَسٌ زكِّي لا تنطمس له نار، وبينه وبين ابن الحميد مكاتبات ينشر منها الحلل، وينظر منها ماتحوي الكلل وقفت عليها، وصرفتُ النظر فلم أجده ينصرف إلا إليها، وكانت عندي بالخط الفاضلي، وإنما أذْهَبَتْهُ من يدي النُّقل، وأطلقتَه من حاصلِي العُقْل، وكانت بينهما من لطائف الشتام ما كان لسالف النقائص كالتختم، بألفاظٍ عذاب كأنها نُظفُ الغواصي، وطعم السلامة من يدِ الأَعادي، وكان لا يحسن منها إلا عَقيِر مُدَامَة يحسوها، وعاقِد راحةٍ على شعاعِ راجِه يكسوها، وكانا عَجبا، ونيرينَ ظهرا، والشمسُ / ١٠٣ / والقمر قد حُجبا. ومن ثره قوله:

أما ما افتتحت به من ذكر استحكام الثقة، فقد عجبت من تعاطيه وصف ذلك، مع العلم بوضوح دليبه، والمعرفة بكثيره وقليله، وأنى يتجاوز تلك الصفة وهو ينبوع الوفاء ومُنْبِتُهُ، ومُمْكِنُ أَسْهٍ ومُثَبِّتُهُ: [من الرجز]

تسكنُ أحشائي إلى حِفاظِكُمْ سكونَ أجفاني إلى رُقاديها
وإما تخلّفه عن الزيارة للعذر الذي نصّه، فقد رأيت ليلتي بغيبتها، فكأنّها قرنت بيوم الحساب الأطول، أو علّقت نجومها السيّارة بأمراس كتانٍ إلى صمّ جندل^(١).
ومنه قوله:

فارقني مولاي، وخلفني حلف السهاد، مفترشاً شوك القتاد، أتذكر اخلاقه تذكّر الفقير غناه، وابن ذريح لبناه، وامتدّ عليّ رواق الليلة المذكورة، حتى كأن نجومها شدّت بمناكب أبان، وقبرها يسير في فلكه كيوان: [من البسيط]

يئستُ من ضُبْحِها حتى التفتُ إلى وجه الظلام، أعزّيه بفقدانٍ ولم تزل هذه حالي في الوحشة، إلى حين وصول الرقعة الأثيرية، فانها رقت لهلاً من الجدل مخلقاً، وتركت زاوياً من المسرة قصراً موقناً، ووقفت عليها فقلت أجرى الطرس سطورا أم زهراً منثوراً؟ أو نُظمت البراعة الفاظاً أدبية؟ أم سلوكاً ذهبيّة؟ وأنا أجيب عنها ولكن كما يجيبُ قساً باقِل، وتفاخر السُحبِ المثقَلَة جداول، لما علمت أنه قد عتب عليّ من وجه صحيح، لقيتهُ مخفوض الجناح، وقابلتهُ بالاستغفار والاستصفاح، إذ أنا بحمد الله تعالى لئن الكنف تحت ظلال المودّة، شديدٌ في هواجر الشدّة: [من الطويل]

جليدٌ على عَتَتِ الحُطُوبِ إذا التوتُ وليسَ على عَتَبِ الأخلاءِ بالجَلْدِ
وأما الفصل المختص بالحضرة السامية، ووقوع الأمر بحسب ما كان مولاي ذكره،

(١) من قول امرئ القيس: (ديوانه ص ١٩)

كان الثريا علّقت في مصامها بأمراس كتانٍ إلى صمّ جندل

فلم تزل المعينة تمدّه بالرأي الثاقب، وتكشف له مستور العواقب، والله المحمود على ما منح مولاي من صحة النظر الذي يتساوى فيه حاضرٌ / ١٠٤ / من الأمر وغائب، ومستقبل من الخطب وذاهب، وحسن الألمعية التي عناها الأول بقوله: [من الكامل]

ويُضِيبُ مُرتَجِلاً بأوّلِ فكرةٍ أعرَضَ كلُّ مخمّرٍ ومبَيّتٍ
وأما الفلانيان، وما تجدد بينهما في هذا الوقت من الصحبة، وانتسج من المودة، فللمشابهة قضية دائمة الوجود، وللمشاكله حوادث تملك حبات القلوب، وكلُّ نفسٍ بعادتها صبّة، وإلى ما يلائم طباعها منصّبة، النملة تفرح بالبرّة، أكثر من فرحها بالدرة، والضّيون يرى القذارية خيراً من اللطيمة الدارية، ومولاي يخالفهما بصحة ميثاقه، وكرم أخلاقه، ودماثة طبعه، وصلابة نبعه، وطيب أصله وفرعه، فلا غرو أن يجهدا في نقض دعوته ويرغبا عن الاختلاط بحضرته: [من السريع]

لا تنظري صَدِّي ولا مِقَّتِي ما أنتِ مِنْ حَرْبِي ولا سَلْمِي

وأما سؤاله عن قائل البيتين المنظومين وهما: [من مجزوء الكامل]

ويَقودُنِي لوصالِهِ خرسُ الهُدَى قَلِقُ الوشاحِ
ينادُ كالغصنِ النضِيِّ رِ بِمِثْلِهِ عَبَثُ الرِيّاحِ

فقد فتح لي هذا السؤال باباً عرفت أن مولاي قد أعطى فلاناً مقوده. ومدّ إلى مغازلته يده، ولزم مضجعه، وتوقّر على الخلوات معه، فقلت: خيرٌ يحتمل الصدق والمين، وقف حائراً بين هذين، حتى عرفت اشتهاً ذلك، وأن الأخ غَضِبَ منذ أيام قليلة، وبات في القرفة^(١) بأسوأ ليلة، فلم أدِر كيف أعتب مولاي وألوم، ولا كيف أقدّ في التائب له وأقوم، وهو الحياء الذي إذا انثلم فقد انهدم، وإذا تصدّع فقد ذهب أجمع، والمعيشة التي في المروءة حفظ موادها، وصلاح فسادها، ومع ذلك فالبيتان المذكوران لعبد الصمد [بن] المعدّل في كلمة يقول فيها: [من مجزوء الكامل]

هَتَفْتُ بِهِ نُذْرُ المَشِيهِ ب فَعَضُّ من غرب الجَماحِ
/ ١٠٥ / هِيهاتِ مِلْتُ إلى النَهْيِ أَجِبْتُ داعية الفلاحِ

وجعلتُ مِنْ وَرْدِ التَقِي كَأَسِ اغتباقي واصطباحي

وقد كان مولاي باستحسان هذه الأبيات أليق، وهي بصفته أعبق، وكأني به إذا

بلغ هذا الفصل من الرقعة أنشد قول الخطيم بن محمد^(٢): [من الطويل]

(١) القرفة: موضع بالفسطاط من مصر (معجم البلدان - القرفة).

(٢) كذا في الأصل، وهو الخطيم المحرزي العكي، والبيتان له في أشعار اللصوص ١/١٥٩.

وما لامني في حبِّ عَزَّةٍ لائِمٍ مِّنَ النَّاسِ إِلَّا كَانَ عِنْدِي مِّنَ الْعِدَا
وَلَا قَالَ لِي: أَحْسَنْتَ إِلَّا حَمِدْتَهُ بِمَا قَالَ لِي ثُمَّ اتَّخَذْتُ لَهُ يَدًا
وَلَا أَتَعَدَّى هَذَا الْحَدَّ حَرْفًا، أَنْ اجْنِي ذَنْبًا عَظِيمًا، وَأَوْلِمَ قَلْبًا بِشَهَادَةِ اللَّهِ عَلَيَّ كَرِيمًا.
ومنه قوله:

وأما الفصل الأخير، فاعلم والله، أنه صدر عَمَّنِ احتسى معي كأس المساهمة،
وَجَلِيَّتْ لِي بُوْدُهُ وجوه الدهر الساهمة، وأنا أوْمَلُ بفضل الله تعالى أن يقع من غير
إرهاب، ويتواصل لديّ بغير حساب، حفظاً للعادة التي حكم بها كرمه. وتمت معها
عندي الآوَّةُ ونِعْمَةٌ.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

أَلْقَى بِكَفِي جَذْوَةٍ فِي دَرِّهِ وَاللَّيْلُ يَخْطُرُ فِي هَلَاهِلِ أَرْزِهِ
أَخْتِ النُّجُومِ تَشْعُشُعًا وَوِلَادَةَ سَرَقَتْ مَحَاسِنَ وَصْفِهِ فِي سُكْرِهِ
فَضْرَامِهَا مِنْ خَدِّهِ وَحَيَاتُهَا مِنْ ثَغْرِهِ وَنَسِيمُهَا مِنْ نَشْرِهِ
ومما أورد له ابن بسّام^(١) قوله: [من الكامل]

مَا زَالَ يَخْتَارُ الزَّمَانَ مَلُوكُهُ حَتَّى أَصَابَ الْمُضْطَفَى الْمُتَخَيَّرَا
قَلَّ لِلأُلَى سَاسُوا الْوَرَى وَتَقَدَّمُوا قَدَمًا هَلَمَّوْا شَاهِدُوا الْمُتَأَخَّرَا
إِنْ كَانَ رَأْيِي شَاوِرُوهُ أَحْنَفًا أَوْ كَانَ بَأْسٌ نَازَلُوهُ عَنْتَرَا
وَلَقَدْ تَخَوَّفَكَ الْعَدُوَّ بِجَهْدِهِ لَوْ كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَرُدَّ مَقْدَرَا
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَبْعَثْ إِلَيْهِ ضُمَّرًا جُرْدًا بَعَثْتَ إِلَيْهِ كَيْدًا مُضْمَرَا
تَسْرِي وَمَا حَمَلْتُ رَجَالًا أَبْيَضًا فِيهِ وَلَا اذْرَعْتُ كَمَاةً أَسْمَرَا
خَطَرُوا إِلَيْكَ فَخَاطَرُوا بِنَفُوسِهِمْ وَأَمَرْتَ سَيْفَكَ فِيهِمْ أَنْ يَخْطَرَا
عَجَبُوا لِحَلْمِكَ أَنْ تَحْوَلَ سَطْوَةٌ وَزَلَالٌ خُلِقَكَ كَيْفَ عَادَ مُكْدَرَا
لَا تَعَجَبُوا مِنْ رِقَّةٍ وَقَسَاوَةٍ فَالنَّارُ تَقْدَحُ فِي قَضِيبٍ أَخْضَرَا
ومنه قوله:

ولما كان الثناء أحسن ما تدار عليه الكؤوس، وتنقش له الأقلام في الطروس
وجب أن يطلق في هذه الحلبة الأرسان، ويستخدم في اداء فضلها اللسان.
ومنهم:

[٩]

القاضي الفاضل^(١)

[من السريع]

وليس لله بمُستنكر أن يجمع العالم في واحد^(٢)
هو منهم لا بل هم منه، وكلما قيل في محاسن من تقدم، فإنما هو عنه: [من
الطويل]

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني^(٣)
وهو الفاضل محيي الدين، أبو علي، عبد الرحيم، بن الأشرف بن الحسن
علي بن الحسن بن أحمد^(٤) بن أبي الفرج اللخمي العسقلاني المولد، عرف
بالبيساني، كان سلفه من بيسان، وولى أبوه قضاء القضاة والخطابة بعسقلان،
واستخدم شاور^(٥) القاضي الفاضل في ديوان المكاتبات مع الموفق^(٦) بن الخلال،
ومولده يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمس مئة وهو
والله البحر الزاخر، والبر الذي ماسلك طريقه أول ولا آخر، وما مثله هو ومن تقدمه
إلا مثل النجوم طلع عليها الصباح، والكروم، أولها زرجون وآخرها راح، بل
الحدائد قبل تطبيق الصفاح، والموارد قبل تصفيق الرياح، تقدموا قدامه، وغرقوا في
سيله، وحلقوا قبله وجاءوا في ذيله، وكل وصف قلت في غيره، فإنه تجربة خاطر،
هو أكثر من كل قول، وأكبر من مقدار كل طول، لقد صادف هذا الاسم منه
الاستحقاق، لفضائله التي تَبَلَّجَتْ تَبَلَّجَ الصباح في الآفاق، لقد وُطَّت تلك الدولة
بآرائه، جمع السيوف والأقلام تحت لوائه، كان يناضل بجلادة عن حماها، ويرتشف

(١) القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ.

ترجمته في: الخريدة (قسم مصر) ٣٥/١ والتكملة للمنزري ٣٥/١ ومعجم الأدباء ١٦٢/٤ وكتاب
الروضتين ٤/٤٧٢ ووفيات الأعيان ٣/١٥٨ وسير أعلام النبلاء ٢١/٣٣٨ والوافي بالوفيات ١٨/
٣٣٥ والنجوم الزاهرة ٦/١٥٦ وشذرات الذهب ٦/٥٣٠.

(٢) لأبي نواس: ديوانه ١/١٨٥.

(٣) لأبي نواس: ديوانه ١/١٢٩.

(٤) في نهاية الأرب: ابن الحسن بن الحسين بن أحمد.

(٥) شاور بن مجير بن نزار الهوازني. وزير للعاضد الفاطمي. قتله صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ (الوافي
١٦/٩٥).(٦) يوسف بن محمد أبو الحجاج الموفق صاحب ديوان الإنشاء أيام الحافظ الفاطمي توفي سنة ٥٦٦هـ
(وفيات الأعيان ٧/٢١٩).

الزلال من رتق قلمه، وتُلْتَحَفُ / ١٠٧ / الظلال بِسُحْبِ نَعْمِهِ، وله في الإنشاء تفنن منه ما يروع الخيل سهيلاً، ومنه ما يروق عذباً سلسيلاً، يفتُّ العنبر على سطره، ويفوت الجوهر ظلّ منثورِهِ، تعقد رسائله راحاً براح، وجنى جناته بجنى التفاح، وتلتقط في مهارقِهِ بنفسج من أقاح، أظرب من مناجاة الندام، وأطيب من معاطاة المدام، طالما كتب جمناً، وكبت أغصاناً ولان فاجتني عسلاً، وقسى فانبرى عسلاً، يسجع كالحمام، ويصرع كالجمام، وقد سَطَّرت بحسناتِهِ الصحف، وصدرت من حسائِهِ درات القلائد والشنف، وطرق النجد والوادي، ونطق به المداح والهادي، وحاضر به الحاضر والبادي، وسامر به السامر، وترثم الشادي، وغادر له الأرض مذهباً مذهباً، وغادى الغواذي مصوباً ومصوباً، وسار مقرباً مقرباً، وصار للمشرق مشرقاً، وللمغرب مغرباً، فأما ما يؤثر عن أقلامِهِ، فهو النافث للسحر في عقدها، والمنور للأبصار بكحل إثمدها، فضح الزهر بكلمِهِ، وفتح الأقاليم بقلمِهِ. وكتب فيما لا يعقبه ندم، وبارى قلمه السيوف ففعل أكثر منها ولم يتلطح بدم، كم نكس رماح الكفر فقصم أصلابها، وقصم أسبابها وعراها بأسطرهِ فقلَّ جيوشها وثلَّ عروشها، وحط صلبانها وحطم فرسانها، وأعاد بيعها مساجد، وصوامعها معابد، وبدل الكفر بالإيمان، وأسكت الناقوس للأذان، وعزل مكان الانجيل للقرآن، وقسى على القساوسة وأرهب الرهبان، وكاتب الخلافة فكانت سطره حلية شعارها، وسواد مداده سؤدد فخارها، وتأخر السهم وتقدم، وحرس مجاوبُهُ فلما كلمهُ تكلم، وحضر مواقف الحرب، فكان فارسها البطل، ورأيه سيفُهُ الضارب، ومواضع الحصار، وكان منجنيقه الرامي، ويراعه سهمهُ الصائب، وكان هو المحرك للعزائم النورية^(١) على تطهير مصر من دنس أولئك الضلال^(٢)، ودرن تلك الأيام والليال، بل كانت أشد من الليالي، لتراكم ظلام تلك البدع، وتفاقم ضلال ذلك الدين المبتدع.

ولقد كان وهو في ديوان تلك الدولة / ١٠٨ / يتحرق على كشف بدعها، وكف شنعها، وكر جنود الله على شيعها، ووقفت على قصيدة كتبها إلى الشهيد نور الدين بن زنكي يقول فيها^(٣): [من الطويل]

وما بعد مصر للغنى متطلب وما بعد هذا المال مال فيكتسب

(١) إشارة إلى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي ملك دمشق والبلاد الشامية

ثم سير أسد الدين بن شيركوه إلى مصر فملكها نيابة عنه وأخبره كثيرة. انظر: وفيات الأعيان ٥ / ١٨٤.

(٢) يريد بهم الفاطميين.

(٣) ديوان القاضي الفاضل ٤١٧.

ولو أنه في البأسِ يمضي أو الندى لهان ولكن في المغاني وفي الطرب
وكانت الأجوبة النورية تردّ عليها فيرى بها في تلك الظلمات نورا ويرتب على
مقتضاها أمورا، ثم كانت دخول العساكر الأسدية^(١) إلى مصر باستدعاء شاور في
المرتين، وفي الثانية استقرت قدمها، واستمرت والأيام خدمها، وهنالك علا النجم
الفاضلي، وسعد جدّه، وصال والسيوف جنده، وعلى ذكره ذكرت شعراً كنت قلته
جاء فيه ذكره استطراداً وهو: [من السريع]

أتى بها الساقى فيا مرحبا إذ جاء بالمحمول والحامل
ببابلّي اللحظ قد زارنا بقهوة صفراء من بابل
مدامة ما عتقت حقبه إلا من العام إلى قابل
صاغ من الدير لإبراقها قلائداً من ذهب سائل
وطوقت في المرحج تيجانها بلؤلؤ في كأسها جائل
كأنها ممزوجة لونه مغيراً من خيفة العادل
تأخذ منا كلنا ثأرها ومآلها إلا على القاتل
رقت فقلنا: إنّها ريقة في الكأس أو من خضره الناحل
دقيقة المعنى على خاطر أو صنعة للقاضل^(٢)

ولما أثار العادل إقامة اسد الدين شيركوه عنده، وهو إذ ذاك مقدم الجيوش
النورية المجهزة إليه، كتب الفاضل عنه إلى نور الدين كتاباً وقفت عليه بخطه، ومنه
نقلت ومضمونه:

من عبد الله ووليه عبد الله الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى الملك العادل
المعظم الزاهد المجاهد المؤيد المنصور المظفر نور الدين، ركن الاسلام والمسلمين،
عهدة الموحدين قسيم الدولة، مجير الأمة، عضد الملة، حافظ الثغور، غياث
الجمهور، قانع الملحدين، قاهر المشركين، خالصة أمير المؤمنين، رفع الله به منار
الدين، وأعلى بعزائم رايات الموحدين، واحسن توفيقه في خدمة أمير المؤمنين. سلام
عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي / ١٠٩ /
على جدّه محمد ﷺ وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين وسلم تسليمًا.

(١) يريد عساكر الشام التي قادها أسد الدين شيركوه.

(٢) كذا في الأصل، ولعل كلمة سقطت فأخلت بالوزن والمعنى.

أما بعد، فإنه عرضت بحضرة أمير المؤمنين مكاتيبك التي أدت بها واجب حقّه وقمت بمفترضه، وصدرت عن قلب شفاه الدين بهديه من داء الضلال ومرضه، وتؤملت بمقر جلاله، ومحل أمانته التي منح الله بها الدين مزية كماله، فصرف إليها أمير المؤمنين سمع الإصغاء وطرفه، وعرف منها أرحّ الولاء الصادق وعرفه، ووقف عليك من لطيف ملاحظاته ما يديم النعم، وأهدى إليك من شريف دعواته ما إذا حصل لك جمع المسلمين عم، فأما تلقيك أوامره بالامتثال، وأضربت عنه الأمثال وتجريدك العساكر التي شدت متن الموحدين، وشادت مباني الدين، ونكص العدو بخبرها قبل نظرها، وانصرف عن بلاد الاسلام بأخزي خجلة وأظهرها، وتقديمك عليها من ارتضاه أمير المؤمنين لارتضائك. وانتضاه في يد الحق تيمناً بانتضائك، وأمضى عزمه في تقليد ملكه إذ علم أن عزمه مشتق من مضائك فقد شكر الله وأمير المؤمنين لك أيها الملك العادل هذا الأثر، وذخر لك منه حسنة لم تبسم عن مثلها ثغور الصحائف والسير، وميزك على ملوك الشرق والغرب بفضل هذا النظر، ونصرت الدين الحنيف والبيت الشريف، وعند ما ترك الحسنی نشهد بها فتغني عن الإفصاح والتعريف، وهدمت الباطل حين أريت خيامه. وثبت الحق حين هفت أعلامه، واخترت لخدمة أمير المؤمنين من هو مكان الاختيار وفوقه، وحملت العبء الثقيل من يستقل به ويحمل أوقه، وقلّدت الأمر الجليل من لا يعجز قدرته وطوقه، ووردوا إلى الفناء النبويّ بيض الوجوه بنصر واضح، شمّ الأنوف بتفريج غمرة الخطب الكالح، جذليّ القلوب بصفقة العمل الرابع، ظاهرة عليهم آثار آدابك الحسنی، بادية فيهم أنوار / ١١٠ / صوابك الذي ليس فيه مستثنى، ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوٌّ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(١). وقد كانت جنایات من تقدم نظره، عظمت عن الاحتمال، وتجاوزت إلى الدين بعد أن تجاوزت المال، وظهّرت امارات استنصاره بمن استنصر به بالأمس، وتعويله على مانزه الله أمير المؤمنين أن يكون به راضي اللسان والنفس؛ لأن الله استخلفه لاستقامة كلمة جدّه، واكتفى بهديه وهدى آله عن ان يقف برسول من بعده، وحينئذ بدت للمشار إليه سوءاته، وأحاطت به خطيئاته، وقصرت في مجال الحياة خطواته، ولقى عن كثب حتفه، وأصبح نكالا لما بين يديه وما خلفه، فهنالك أجمع أمير المؤمنين والمؤمنون على تقليد السيد الأجل الملك المنصور، ولي الأئمة، محيي الأمة، سلطان الجيوش، أسد الدين، كافل قضاة

المسلمين، وحادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، أمر وزارته، وناط به أمانة سفارته، وأطلق يده بسيف الجهاد وقلم الاجتهاد، وتدبير ما تحويه المملكة الفاطمية من البلاد، وكفله أمر خدمته التي استحقتها بارتياح الرشاد، ورأى أن يكتب عدو الدين باصطفائه، ويكف عادية الشرك باستكفائه. واختار لتقدمة عساكره من اخترته أيها الملك العادل لتقدمه عساكره، واستهدى منك هذه الجوهرة المعدومة من جواهره، واستنزلك عن هذه الذخيرة المصونة من ذخائرك، وأثر أن يؤثر بها دولته التي تعد نصرتها من مآثره، ولثقة أمير المؤمنين أنك تسمح له بكرائم لا يوجد بها إلا مَنْ كان كريماً، وتقسم بينك وبينه النجدة التي دعى بها والدك الشهيد رحمة الله عليه للدولة قسيماً، امضى هذا الرأي لما وضح صوابه، وانتهاز فرصة هذا التوفيق لما فتح باب، ورأه القوي الأمين فاستأجره للاسلام وأهله، ومدّ عليهم ما / ١١١ / كانت أعينهم ممدودة إليه من ظل عدله. ولما تمسك به المسلمون، لم يغفل منهم أيديهم المشدودة عليه، ولما اغتبط به أهل الدين لم يصرفهم عما هداهم الحظ إليه، وأمره أن يعدّ لحرب الفرنج عدته، ويأخذ لغزوهم أهبتة، ويطلبهم براً وبحراً، ويوسع لقتالهم ذرعاً وصدراً، ويديل الاسلام من هدنة يطلبهم منها إلى الله سراً وجهراً، وحرث^(١) وأمير المؤمنين يراها مصابا، يحتسب فيه عند الله جزاء، وعهد إليه أن يعمر الأساطيل التي تقطع عن العدو الإمداد، ويعمر سجون الدولة بالكافرين مقرنين في الأصفاد، وأن يسكن المدن التي جنى عليها التدبير العاجز، ويثقل المعامل التي كانت خالية المراكز، لتكون أيها الملك العادل من وراء هذا العدو الكافر مستأصلاً، ويكون وزير أمير المؤمنين للغارات عليه والغزوات إليه مواصلاً، فيقطع في الشرك سيف الله بحدّيه، ويميس الإسلام في نضرة برديه، ويبطش الحق في أعدائه بكلتا يديه، وغير بعيد من معونة الله أن تحفيق على البيت المقدس رايات الدولة الفاطمية وراياتك التي تعدّ من راياتها، وتوجف عليها خيولها وخيولك التي النصر أحد غررها وشياتها، وتأخذ الملة الحنيفية بطوائلها من طغاة الكفر وبغاتها، ويجري الله الدولة العلوية في النضرة العلوية على ميراثها وعاداتها، فمن الآن قيل للونية ذهبي، ونادى الاسلام يا خيل الله اركبي. ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢)

(١) كذا في الأصل، لعلها زائدة.

(٢) سورة الحج: ٤٠.

﴿وَلِعَلَّمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١)، وأمير المؤمنين يؤثر أن تؤثر دولته بهذا السيد الأجل لتكون أيها الملك قد نصرته نصراً دائماً، وقضيت من طاعته فرضاً لازماً، وسررته غائباً بحاضر، ووكلت بخدمته من ينوب عنك في النصر المتظاهر، وأن تكاتبه بالزمامه مقامه، وتهديه إلى دولته التي اغتبطت باستخدامه، وتهون عليه روعة فراقك، فإنها ملفتة / ١١٢ / وجهه إلى شامه، وتسليه بثواب طاعة أمير المؤمنين التي فرضها الله بصريح كلامه، وتبعته على ارتباط عدة من عسكري المسير معه، يعاضد عساكر الدولة العاضدية، وتزداد بها القوة، وتتضاعف الحمية، ولولا ما مُنيت به البلاد من تعاقب جوائح الجذب، وتناوب قوادح الحرب، وارتفاع الأسعار وعلوها، وعزة الأوقات وغلوها، لاستزدنا قوة إلى هذه القوة من عساكر المؤيدة، ولما رأينا إعادة أحدٍ منهم، بل بذلنا لهم الإقامة المؤبدة، ولكن إقامة من تحمله البلاد، وتتسع له المواد، ويؤدي به ما فرضه الله سبحانه من الجهاد، مما تنتظم به بمشيئة الله الميامن والمناجح، وتقر أعين المسلمين بما يقضيه ويقتضيه من المنافع والمصالح، ويؤدي به ما يجب لله ولرسوله في خلقه من الحقوق والنصائح، ويستكمل به ما ابتدلته من العمل الصالح، والله سبحانه يمدك أيها الملك العادل المعظم الزاهد المجاهد المؤيد، المنصور المظفر نور الدين، ركن الاسلام والمسلمين بمزيد نصره، ويحوطك بمعقبات من أمره، ويجعلك ممن أخلص له في سره وجهره، ويحسن عن أمير المؤمنين مجازاتك، ويديم لدولته ذبك عن حوزتها ومحاماتك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمته وبركاته.

وكتب لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مئة.

والعلامة بين سطريه الأولين بالخط العاضدي (الله ربي) فعاد الجواب النوري على العاضد بامثال ما أمر، وتكفل أسد الدين بحماية غيله واستمر، وكان ابن أخيه صلاح الدين قد قتل شاور، وقال الفاضل: قتل شاور وما شاور، وقلت: وشاور وما شاور؟ وكتب بالخط الفاضلي عهد أسد الدين شيركوه بالوزارة، ولقب الملك المنصور، وكتب عليه العاضد بخطه^(٢).

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير / ١١٣ / المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله تعالى بما أوضحه لك من مرشد سبيله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعترت إلى بنو النبوة،

(٢) الروضتين ٦٤ / ٢ وصبح الأعشى ٤٠٦ / ٩.

(١) سورة الحديد: ٢٥.

واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً ﴿وَلَا نَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْفِيًّا﴾^(١) ثم وأثبت أسد الدين منيته وعاجله أجله، وولي ابن أخيه صلاح الدين، وكتب عهده بالخط الفاضلي، ولقب الملك الناصر.

وكتب عليه العاضد بخطه^(٢):

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، ومحبتة عند الله عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضاً بيمينك، ولمن قضى بجدنا رسول الله ﷺ أحسن أسوة، ولمن بقي بتقبلنا أعظم سلوة، ﴿تَاكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

ثم كان الفاضل رحمه الله هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها، ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحامل لِكُلِّهَا والحاكم في كُلِّهَا، والمجهز لبعوثها، والمبرز عند إقعاء ليوثها، والدائرة به مناطق بنيتها، والسائرة به شمس أيامها، وبدور لبالها، فهذا أدعنت لقلبه الرماح، وطلبت صلح كليمه الصفاح، وانقضت تلك الأيام وما فيها، إلا بكر عشايا أو غرر صباح، ومع هذا كله كان لا يزال مُتَكَدِّماً مُبْتَلَى بظني^(٤) قلبه وجسمه، ومرض همّه وسقمه، يذكر هذا في كتبه وترسلاته، ويشكوه إلى إخوانه وأخواته. ومما كتب في ذلك:

«ولا يسأل سيدنا عن خاطرٍ تزدحم فيه الأخطار، وعن ضلوع تسرح على النار، وقلت: قد عدم الصفاء في دار الأكدار، وجسم قد قارب أن يخلع المعار من الأعمار، ولقد دبّ الفناء في عضو عضواً، وأخذني الزمان، فكل يوم يذهب مني شيء بعد شيء، ويكثر شهبي بالميت فيبعد عن الحي، ونعوذ بالله من نار غضبه، فإن آخر المخالط / ١١٤ / الكي».

قلت: ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفرأ في كل مرة، وإنما كان العماد^(٥) ينوب عنه، فإذا سافر كان هو السائر للسلطان إذا ركب، والمسامر إذا جلس، وكان إذا تأخر عن السلطان في بلد ناب عنه فيه، أو كان رداً لمن ينوب من إخوة السلطان وبنيه، ويكون هو القائم بالملك، القائل بالحياة والهلك. ومما بلغ من سلطانه،

(١) سورة النحل: ٩١.

(٢) الروضتين ٧٤/٢ وصبح الأعشى ٤٠٧/٩.

(٣) سورة القصص: ٨٣.

(٤) في الأصل: وظني.

(٥) هو عماد الدين، أبو حامد محمد بن محمد القرشي الأصفهاني، وستأتي ترجمته.

ماحدثني به أبو المحاسن بن عبد الله الكاتب المصري، قال: سمعت محيي الدين بن عبد الظاهر، يحكي عن ابن قريش^(١): أن الفاضل صحب السلطان مرةً في سفر، فزولوا منزلاً، رَحُو الأرض، كثير الطين، وتوالى به المطر، وتعدّر السلوك بين خيمة السلطان وخيمة الفاضل إلاّ على مَنْ يسلكه بمشقة، فأمر السلطان بنقل خيمته وأن تضرب إلى جنب خيمة الفاضل، ويفتح بينهما باب حتى لا يقطع بينهما الوحل، ولا ينزعج الفاضل عن مستقرّه، وكان إذا غاب عن السلطان تكاتبا، وبينهما مترجم بقلم توافقا على المصطلح عليه، فكانا يتكاتبان به ويتخاطبان على بعد الدار بلسانه، وكان القاضي الفاضل يكتب إلى سلطانه، ويشفع فيما يريد كما يشفع صاحبُ إلى صاحبه، والصديقُ إلى صديقه، وكان يسلم في كتبه التي يكتبها إلى السلطان على مَنْ أراد من أولاد السلطان أو إخوته وقفت له من ذلك على كتب كثيرة، منها ما هو بخط يده، ورأيت في بعضها أجوبة السلطان، وفي بعضها حروف المترجم بخط الفاضل وخط السلطان بإزائه. ورأيتُ كتاباً كتبه إلى السلطان، وسلم فيه على ولده الملك العزيز عثمان، وقال فيه: والملك العزيز أعزّ الله الدين بجهاذه بين يدي المولى مخصوص بتحيةٍ يفرضُ لديه ختامها ويخص وفود الشوق غرامها: [من الكامل]

بتحيّةٍ حيّيتُ فيها أولاً ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
يهدى بذى النورين لا تخطى الضحى تسري ركائبها إلى عثمان

/ ١١٥ / ورسولي إلى السلطان في إبلاغها.

والناس رسلهم إلى السلطان.

وأما ما يدلّ على شيء من حال أوله، فوقفْتُ بخطّه على ما صورته: كانت بين والدي رحمه الله وبين المرتضى الطرابلسي، متولي الديوان بعسقلان هناُ ارتضعا أفاويقها ولزما موثيقها، فصجبا بها الأعمار، وحكّما فيها الأعمار، فكانت حربها سجلاً، وإيامها أحوالاً إلى أن قضى الله سبحانه ان سبقه والدي إلى الحمام، وفَرَغَتْ منه قبله الأيام، فقال لي رحمه الله وقد انقطع الجبل مِنْ يده، وعلم أن يومه لا يدفعه إلى غده: ما أرى فلاناً إلا سيوفيك ما أسلفتها، ويقضيك الوعد الذي أخلفته،

(١) محيي الدين أبو الفضل عبد الله رشيد الدين أبي محمد عبد الظاهر بن نشوان، الجذامي المصري. من الكتاب الشعراء صاحب ديوان الإنشاء للملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل. توفي بالقاهرة سنة ٦٩٢هـ. وله: «تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، نشر بمصر.

فقلت: أرى أن يكاتب بكتاب يثبت فيه بخطك أسطراً، وتحلب فيه من الوعظ أسطراً، وتجعله كالوصية، فإن الذي بينكما من العداوة قد أشبه المودة لطول المدّة، فقال: هيهات، عناء ما وراءه غناء، ورقّة ماتحلّ به ربقة، ولو أفردت الله بقصدك لكفأك، وأنت وذاك، فمثل لي هذه المعاني والأفقال وكان الحال في عدم النفع على ما قال: والرسالة: [من الطويل]

ونم بعد أخذ الثار عني فطالما قَطَعْتَ لي الدنيا وأنت مسهّد
كتب العبدُ هذه الجملة، جعل الله لحضرة سيدنا البقاء الذي لا تحلّ الغيرُ
ساحته، والأمد الذي لا يحصر العدد مساحته، وقد تقدّمها إلى محل المحاكمة،
وجثا قبلها في موقف المخاصمة، ورفع الظلامة إلى من لا يجوز عليه ولا منه الأحكام
الظالمة، وأسمع داعي الرحيل شفاها، ونأت به الدار وشطت نواها، ووضعت
الآمال من يده عصا سراها، واستردّت الأيام مافرقتة في جملة، وأشرفت به على
مورد يطول بوارده النهلة، وحسن الظن بالله تعالى، قد وطأ تحت جنبه مهادا، وأنسه
عند النزول بلحده فرادى، وماسوى ذلك، فمتى أخذ ضيف / ١١٦ / الكريم زادا،
والحمد لله الذي نقل عبده من دار فناء إلى دار بقاء، ومن محلّ حجية إلى محلّ لقاء،
ومن الإقامة مع مسيء يخاف جوانبه، إلى القدوم على محسن تُرجى مواهبه، وقد
كان حكم القضاء سبق، وسهم القدر مرق، بتلك الهنات التي نال فيها ونيل منه،
والأغراض التي حامت عنها وحُميت عنه، والدهر فيها يومان، والحرب بها طعمان،
فيوم يكون له متحمّل يكون ظفّره مشبهاً بالهزيمة، ويوم يكون عليه متحمل فتكون
هزيمته مشبهةً بالغنيمة، هذا وقد كانت هذه الحضرة وطاعتها تعصيتها، تكثر الجراح،
وتناول يدها عنان الجُمّاح، ويبقى لإيلامها فيه آثار الصفاح، فما مات حتى ماتت
حقوقها، واعتلّ من طول الضراب حديدها، وقد بقى بعد أن رأته بعده، وتجاوزت
في الحياة حدّه، أمران هما آخر رتبة اللوم، وأقصى غاية الملام، وهي الشماتة،
وتلك خديعة الطبع العاجز، وطلية الخرق الخانز^(١)، وبديعة لا يركبها من مركبته
الجنائز، وما لجرح بميت إيلام^(٢)، وتلك سبيل لست فيها بأوحد^(٣)، والأخرى تتبع

(١) الخانز: المتن.

(٢) تضمين لقول المتنبي (ديوانه ص ١٦٤): [من الخفيف]

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

(٣) تضمين لقول الوليد بن عبد الملك (التذكرة الحمدونية ٣٧/٥): [من الطويل]

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بواحد

الخَلْفَ بجناية السلف، وأخذ الوارث بجزيرة الموروث، وهذه محافظة في العداوة، ومطاوعة على المساواة، فيها لحكم الله رد ظاهر، وجرأة عليه تعجل عقبى الجائر، وسوء مقدرة لا تبعد أن يغضب لها القادر، واستئاف حرب خاسرها الرابع ومخذولها الظافر، وقد أكثر الناس المدح لحفظ موات الأموات، أو مصافاة أهل العظام والرفات، فأما المكافأة وهم كفاة اللحود، وأما المظاهرة بالعداوة لهم وهم في ضماثر القبور ركود، فما عهد مهده البدعة قائم، ولا على هذه الشرعة هائم، وحوشيت من أن تحشر من بين هذه الأمة أمة وحدها، وتطيع العصبية فتتجاوز سمت المرودة وتتعدى حدها. هذا وقد استفتحت الخطاب ببيت إن لم ألم بما ألم به في معناه، فإنه لا يريد أن يتبعه بما / ١١٧ / يشيد مبناه، وهو أنها رأت في صحائف التجارب وتوايخ الأعاجيب: انه قلّ ما تقاوّلَ فحلان، وتَصاَوَلَ بَطْلان، إلاّ استويا في الدنيا النصيين، وكان إلى منهلٍ مِنْ وردهما قرييين، وكان سابقهما طليعة التالي، وأولهما مقدمة الثاني. وإذا كان الله قد أفردا بمدّ تطلقُ البقاء، وخلفها لنظر كيف تعمل فيما أمتَعَهَا بِهِ مِنَ النعماء، فالاولى ان تحفظ عبدها في أيتامه، وتُخلف عليهم ما غَرِمَهُ في أيامه، وتصون مخلفيه من هتك الاستار، وحطّ الأقدار، وتشفي من لاخلاق له من الأشرار، وتعطيهم بما أطال الله من ذيول أنوائها، وتحتسب بالحسنة فيهم مع ماكثر الله من ذخائر ثوابها، ولا يُزعج مخلفومهم بالشكوى إليه في الدار التي ثوى بها، فإنها بحيث تُرفع الظلامه إلى قريب، من مكان قريب، وإن سَمِعَ الميت لم يُجب، فإن الله يسمع ويجيب: [من الطويل]

تَقَضَّى الذي قد كان بالأمس بيننا واسكتني دهري فهل يسكت الدهرُ وهو يحلّها من كل ما ارتكبت فيه واطاعته من موارد الأوهام إن حفظت وصية الله تعالى السابقة لوصيته في هؤلاء الأيتام، فأما ان اينعت القادحة بالقادحة، واشبهت الليلة بالبارحة، فالحساب يبقى عليها مدّة بقائها بعده، ويفضل عندها ما لا يجد فضلُه عنده، لا نقطاع عمله، واتصال عمَلِها، واغضاء طوله وامتداد طولها، وعند الله تجتمع الخصوم، ويضرب على يد الظلوم، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾﴾ (١).

وأما نثره، فمنه قوله:

وقد كان يقال الذهب الإبريز لا تدخل عليه آفة، وإن يد الدهر البخيلة عنه كافة،

وأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة لاتقاييس الأموال، كما أن سيوفكم آفة تقوس الابطال، فلو ملكتم الدهر لأمطيتم لياليه أداهم، وقلدتهم أيامه صوارم، ووهبتهم شמוש / ١١٨ / وبدوره دنانير ودراهم، وأوقاتكم أعراس، وكان بما تم فيها على الأموال ماتم، والجود خاتم في أيديكم، ونقش حاتم في نقش ذلك الخاتم.
ومنه قوله:

أدام الله أيام الديوان العزيز ممهدة لمن رضيت عنه درجات الجنة، منتشرة على مَنْ سَخِطَتْ عليه كواكب الأستة، مغرقة لمن يغرق في طاعتها بحار الأعنة، منشرة النفس المتطامنة لولائها بانها النفس المطمئنة، وأسبغ نعمه فإن النعم في ضمنها، وملاً الآمال بمنها، وأفاض أنوارها التي قد علم قرن الشمس أنه غير قرنها، وأمضى سيوفها التي تعرب فيغرق ضمير النصر في لحنها. وأعلى آراءها التي تلقى العداة بدرع يقينها، وتلقى الغيوب بسهم ظنها، ولا بَرَحَتْ رايثها سويداوات قلوب العساكر، واضحة الدعاء المحلّق في أفق المنابر.
ومنه قوله:

سِرْنَا وروضة السماء فيها من الزهر زَهْر، ومن المجرة نهر، والليل كالبنفسج تخللّه من النجوم أقاح، أو كالريح شمْلُهُ من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب، لا معرّس لها دون الصباح، وسهيل كالظمان، تدلّى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أَيْفَ من المقام بدار الهوان فتغرب، فكأنه قَبَسُ تتلاعب به الرياح، أو زينة قدّمها بين يدي الصباح، أو ناظر يغمضه الغيط ويفتحه، أو مغنى يغمصه الحسن ثم يشرحه، أو صديق لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيب على المواكب مواظب، أو فارس يحمل على الأعقاب، أو داح به إليه وقد شردت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنسوب، والشجرة المنورة، أو الجبر المصورة، والثريا قد همّ عنقودها ان يتدلّى، وجيش الليل قد همّ أن يتولّى.
ومنه قوله:

وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الاصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض فغطاها، وأغار عليها فاستقعدها وماتخطاها، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواء / ١١٩ / ولا مرغوب مرهوب إلاّ إياه.

ومنه قوله في جواب كتاب بعثه العماد الكاتب في ورقٍ أحمر، فقطعت العرب الطريق على حامله، وأخذوه ثم أعادوه:
ووصل منها كتاب تأخر جوابه؛ لأن العرب قطعوا طريقه، وعقوا عقيقه ثم

أعادوه وما استطاعت أيديهم أن تقبض جمره، ولا ألبابهم أن تسيغ خمرة، ولا سيوفهم أن تكنس يتيمة، ولا عراضهم أن تأخذ لطيمته، فقطف وردّه من شوك أيديهم، وحيا حياه الذي جلّ عن واديهم، وحضر منه حاضر الفضل الذي ماكان الله ليعذبه بالغرية في بواديهم، وتشرف منه بعقيلة الأنس التي ماكان الله ليمنحها بقتل واديهم، وسألته: بأي ذنب قتلت؟، وأي شفاعة فيك قُبلت؟، فقال: عرفت الأعراب بضاعتها من الفصاحة، وتناجدت أهل نجدٍ فكلُّ صاحٍ ياصباحه وقالوا: هذه حقائقتنا السحرية. وهذه حقائبنا الشحرية، وهذه عقائدنا السرية محمولة، وهذه مواريث قيسنا وقسنا المأمولة، فقليل لهم: إن الفصاحة تنتقل عن الأنساب، وإن العلم يناله فرسان فارس ولو كان في السحاب^(١)، فدعوا عنكم ثمراً عُلق في شجراته، واتركوا نهياً صحيح في حجراته^(٢)، وإن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم لَمَّمته على الشعث، وأحللت به بعد الأحرار، فاستباح الطيب وحاشاه من الرفث، ومنه قوله:

والأسرُ ذلٌّ مابعدُه عزة، وأثر السلسلة يمنع معاطف الهزة، والملسوع يفرغ من الحبل، والجريح يعلم أن الجرح باب القتل.
ومنه قوله:

وقد طيب لمالكة الحياة في إنعامه، وهون عليهم الممات لثقة كل منهم باهتمامه بأيتامه فالوارث يرث من أبيه النسب، ومن كرم ملأنا النسب.
ومنه قوله:

وبورت رماح نصلها الطعن، فكأنها غصون قطعت ازهارها، ويغادر غدران الدماء، فكأنها رياض عطفت أنهارها.
وقوله من رسالة يصف آمد^(٣):

وآمد ذكرها من العالم متعالم وطالما / ١٢٠ / صادم جانبها من تقادم، فرجع عنها مقروعاً أنفه، وإن كان فحلاًه وفرّ عنها فريداً بهمه وإن استصحب خيلاً ورجلاً، ورأى حجرها فقدر أنه لايفك له حجر، وسوادها فظن أنه لا يفسخه فجر، وحمية

(١) إشارة لحديث رسول الله ﷺ: لو كان الدين معلقاً بالثريا، لئاله رجال من فارس.

(٢) إشارة لقول الشاعر:

ودع عنك نهياً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

(٣) آمد قصبه ديار بكر وأعظم مدنها (معجم البلدان - آمد) والنص في الروضتين ١٥١/٣.

انف أنفتها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجر، من ملوك كلهم قد طوى صدره على الغليل إلى موردها، ووقف وقفة المحبّ السائل، فلم يفز بما أمّل من سؤال معيها. وله من أخرى يصفها:

وهي العقيلة التي صدّر الصدر الأول محلاً عن وردّها، والخريفة التي حصل منها على راحة يأسه وتعب طردها، والمحجّبة التي كشفت ستورها، ودارت لعصمتها كسوار معصمها سورها، وعَلّت على أنها السوداء على خطابها؛ لأن المهج مهوؤها، ولربّما نأى بجانبها الإعراض، ونبا عن جوهرها الأعراض، وطاشت دون أوصافها سهام الأعراض، ودرجت الملوك على حسرتها فلم تحس لها لثاماً، ولا استطاعت لثغرها ثلماً ولا له الثاماً.

وله من أخرى يصف قلعة نجم^(١) وهي من عيون الرسائل منها:

هي نجم في سحاب، وعُقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة، عاقدة حبوّة صالحها الدهر ان لا يحلّها بفرعة، نادبة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعة، بها عقارب منجنيقات لم تطبع بطبع حمص في العقارب، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة في الأقارب، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جديراً بضربها، ولم تصل إلى السابعة إلا والنّجران مؤذن بنقبيها، فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴿٢﴾.

ومنه قوله:

ومن اعتقل خصماً فقد ملك قياده، وأمن شراره، وصار تحت ختمه، وحبس جسمه في حصنه، وقلبه في جسمه، وإذا كان الله قد أعطانا البلاد، وهي آلة / ١٢١ / المقيم، وأعطاهم المراكب وهي آلة الظاعن الهارب، فقد علمنا لمن عقبى الدار، وقد نقلهم الله نقل قوم نوح من الماء إلى النار، وقد وُريت بمولانا للإسلام زناد، وذاك الزناد هو السيف القاضب [و] المستطير من شره هو دفع الدم الساكب.

ومنه قوله:

(١) قلعة نجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل، وتحتها رياض عامر، وعندها جسر يعرف بجسر منيج (معجم البلدان - قلعة نجم).
(٢) سورة النبأ: ١٩-٢٠.

وعرف المملوك مايكابده مولانا، وكلُّ بعين الله، وماتغلو الجنة بثمان ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ﴿وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١) «الغمرات ثم ينجلينا» (٢)، فإنك نصل والشدائد للنصل، وكلما اشتد الخناق قوي اليقين، إن الله ربك يعظم موضع الفرح [من الكامل]

والحادثات وإن أصابك يؤسها فهو الذي أدراك كيف نعيمها (٣)
لا زعزعتك الخطوب يا جبل، كل ما يمر بمولانا من المغايط، ومن تناقل الأولياء يتحملة ويحملة الله، ويعلم أن الطباع البشرية يستولي عليها الضجر، ويعلم أن الذي يطلبه من الناس أعظم من الذي يدفعه إليهم، فإنه يعطيهم الأموال ويطلب منهم الأرواح، ولا بد من تلطف الترفيه فيمن يستنزل عن نفسه، وأين من وجود بها إلا قليل ماهم: [من الوافر]

وقد كانوا إذا عُذوا قليلا فقد صاروا أقل من القليل
ومنه قوله:

فسبحان من جعل آراءه في الظلمات مصابيح، وفي المشكلات مفاتيح، وبده إذا امتطت الأفلام بارت الغمام، وإذا اتشحت بالأعنة بارت الريح، وباب مولانا ميدان العلا، ومجلسه معرض الحلوى، وترا به غرر وجوه السادة الألى.

ومن أخرى في فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، منها (٤):

وأتينا المدينة من جانب، فإذا هو أودية عميقة، ولجج وعرة عميقة، وسور قد انعطف عطفة السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عُقر الدار، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقاب الحصون، عصيتها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب ولا تفارقها سهامها ولا نصالها، فصافحت السور، فإذا سهامها في ثنانيا شرفاتها سواك، وقد / ١٢٢ / قدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد أخلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السماء، فشجّ مراع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها، ورفع منار عجاجها، وأسفر النقباب عن الخراب النقباب، وأعاد الحجر إلى حلقتة

(١) سورة آل عمران: ١٣١.

(٢) رجز للأغلب العجلي (مجمع الأمثال ٥٨/٢) وتمثل به مالك بن الحارث الأشتر (رض) يوم صفين. انظر: مجموع شعره.

(٣) البيت لأبي تمام (ديوانه ٢٧٣/٣).

(٤) وفيات الأعيان ٧/ ١٨٤ والروضتين ٣/ ٣٥٩ وصبح الأعشى ٦/ ٥٠١ و ٨/ ٢٨٦ وشفاء القلوب

الأولى من التراب، ومضغ سرد حجارته بأنياب مِعْوَلِهِ، واطهر في صناعته الكثيفة ما يدل على لطافة أنمِلِهِ، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه، إلى أن كادت ترقُّ لمقتلِهِ. وله أيضاً من أخرى:

فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماها نبال الوبال، وتملاً أرضها بالنكاية والنكال، وتهدّ بساريات حجارتها راسيات الجبال، وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار، وتوسع مجال الدوائر في الديار، وتخطف بخطافاتهما أعمار الأعمار، وتطير حَمَامِهَا بكتب الحمام، وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام، وكشف النقابون السور المحجوب، فتهدّم بنيانه، وتداعت أركانه، بتظاهر المنجنيقات عليها والنقوب. ومنه قولُهُ:

في ليل كموج البحر، له أنجم كحبيب النهر، قد حشر الهموم وحشدها، وهدى ضوئها للقلوب وأنشدها، فأقول له لما تمطى بصلبه^(١) قطع الله صلْبِكَ. ومتى أرى عمود الصباح قد عجل الله عليه صلْبِكَ. ومنه قولُهُ:

ولنا من الجيران من يجور، ونظن أنه إلى الله لن يحور، ويصدق وعد الشيطان وما يعده الشيطان إلا الغرور، ويصد عنه كلّ عزيمة المورد، ويجهل أن الله عليم بذات الصدور، ويظن أنه يرث الأرض، وينسى ما كتب الله في الزبور، وينشد ضالّة الولاية بجيشه وبيته، وما يقبل بيت مكسور، ولا يضمن النصر جيش مكسور. ومنه قوله:

والمستول أخذ دستوراً لمملوكه في هذه السنة، فقد جفا بيت الله جفوة طويلة، واشتاق إلى زورٍ وتمائمها أن يكون المولى فيها الوسيلة، وقد تحقق أن المولى يُلَبِّيهِ ولا يحرمه، فكاد يُلَبِّي ويحرم، ولولا أن ذكره / ١٢٣ / وذكر والديه كمس المسك، لكان على هذا العزم يتمم ويحزم، وما ينقطع مرافق خدمه، ولا منافع لسانه وقلمه عن الدولة الناصرية، فقد كان حجّ فحشد جيوش الليل، وفوقوا سهام الأسحار، وأعانوا في تلك السنة سلطان الدنيا وجنود النهار، وما يدعي المملوك في الدعاء رتبة المجاب، ولكن في الحشد رتبة السمسار. ومنه قولُهُ:

(١) تضمين لقول امرئ القيس: [من الطويل]

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكل كل

فوضعتُ يداً فيه وقدماً على النجم، ورشفته على حرّ الوجد بارد الظلم،
وصرّفتُ به عن الخاطر كلّ همّ، فما باشره بعده ولا همّ
ومنه قوله:

وأما خلعة الكرى على العشاق^(١)، فهي عوائد سماحه، ومنّ أشرق كإشراقه فما
يكون أبداً في ليله، إنما يكون في صباحه، فما ضرّه أن يهبّ مالا تدعو إليه حاجة،
وأن يخلع دياجة كراه كما يخلع دياجه.
ومنه قوله:

وهمّ بأن يأخذ من كلام سيدنا في كتابه، فيعيد إليه حاله، فإنه ما وجد لفضله
أوصف من وصفه، ولا أكشف لبراعية من كشفه، ثم استحيا من ريبة يسود لها وجوه
الأقلام، وأشفق أن يأكل أموال الناس بالباطل ويُدلي بها إلى الحكام^(٢).
ووصف أيضاً المنجنيق من رسالة فقال:

فسلّمت كأنها بنان، ونضّضت كأنها لسان، واضاءت كأنها مارج من نار،
واهترت كأنها جان، وتقومت كأنها سنان، وانعطفت كأنها عنان، وأقدمت كأنها
شجاع، وأحجمت كأنها جان، ورمت روؤسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الروؤس
المخلّقة، فأعادتهم إلى الخلق الأولى مخلّقة وغير مخلّقة.
ومنه قوله:

وكأن الثريا لجام مفضّض في أدهم الليل، أو غشاء حمله داهم السيل، أو جيب
جود زرة اللباس، أو كف تفصل الأفق على الليل بقياس.
ومنه قوله:

أطال الله بقاء المجلس إلى أن يقضي للكفر أعماراً، ويملك منهم رقاباً ودياراً،
ولا يذر على الأرض منهم دياراً، ولا يصلوا أن يصلوا العباد، ولا يبلغوا أن يلدوا
فاجراً كفّاراً، وإلى أن يغرقهم من دمائمهم / ١٢٤ / في طوفان، وإلى أن يعرضهم على
الجدوع فيكونوا عنده صلبان كالصلبان.
ومنه قوله:

خدمة المملوك واصلة من يد الشريف فلان، وهذا الشريف قد زكى نسبه بأعمال

(١) تضمين لقول الشريف الرضي: [من الخفيف]

وخذ النوم من جفونني فإني قد خلعت الكرى على العشاق

(٢) تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

صالحه، وعمله بسيرة ناصحة، وله عائلة هي وإن كانت غلاً، فقد فسّحتْ حُطاه في الانتجاع، وبه فاقة هو وإن كان في ضائقها فقد بعثه في الأرض على الاتساع، ولما قلب طرفه في سماء القصد، هدى إلى قبلة مولانا التي يرضاها كل متوجه، وإلى هدف المدائح الذي تسدّر إليه سهام كل ألكن ومفوه، فإن رأى مولانا أن يشفع فيه جدّه شافع البشر، ويلين حظّه فإن حظّه كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجر. ومنه قوله^(١):

وَرَدَ كتاب المجلس، ومرحباً بمقدمه وأهلاً بمنجمه، والسوق تختلف نقود صروفه، وتتوّع صنوف ضيوفه، فلا بُدَّ أن تبعض اذا انبضعت المسافات، ولو أنه إلا بمقدار مايدنو اللقاء على الرسول السائر بالكتاب الصادر والخيال الزائر بالحبيب الغادر، والنسيم الخاطر من رسائل الخواطر، ويقرّ به طرف الناظر من الصديق الحاضر، وقفت على هذا الكتاب المشار إليه، وما وقفتُ عنه لساناً شاكرأ، ولا صرفت عنه طرفاً ناظرأ، وبلغت من ذلك جهدي، وإن كان قاصراً، واستفرغت له خاطري وما أعدّه حاضراً، ومما أسرّ به أن يكون في الخدمة السلطانية، أعلاها الله ورفعها ووصلها ولا قطعها، وألّف عليها القلوب وجمعها، واستجاب فيها الادعية وسمعها من يكثر^(٢) قليلي، ويشفي في تقبيل الأرض غليلي، فإن تقبيل سيدنا كتقبيلي فلو شرب صديق وأنا عطشان لأرواني، ولو استضاء بلمعة في الشرق وأنا في الغرب لأراني، كما أن الصديق إذا مسّته نعمة وجبّ عنها شكري، وإذا وصلت إليه يدٌ مُنعمٍ وصلّتي، وتعلّعت إليّ ولو كنت في قبري. ومنها^(٣):

وأعود إلى جواب الكتاب: الأخبار / ١٢٥ / لا تزال غامضة إلى أن نشرحها، ومقفلة إلى أن نفتحها، بخلاف حال خادمها مع الناس، فإن القلوب لا تزال سالمة إلى أن تجرحها، والهموم خفيفة إلى أن ترجحها، وفي الخواطر في هذا الوقت أمورٌ موجودة نجعلها في العدم، ونخرجها من الألم إلى اللمم، ويعادي بين الأسماع والألسنة، وبين العيون والقلم، والقلوب بيد الله سبحانه، وعليه بالاستجارة والاستخارة، فتلك تجارة رابحة؛ وكل تجارة لاتخلو من خسارة، والله تعالى يجمع كلمة المسلمين على يد سلطاننا ولا يخلينا منه ومن بنيه حلي زماننا، وسيوف أيماننا

(١) نهاية الأرب ٢/٨ وفي أنه كتبها إلى أمير حلب.

(٢) في الأصل: تكثير. (٣) نهاية الأرب ٣/٨.

ويُسعدنا من أكابرهم بتيجان رؤوسنا، ومن أصاغرهم بخواتم أيماننا، ولقد تفرّغت العزمة الفلانية لهذا الكتاب^(١)، ولو ذكرتُ السلطان بالعدو فيرجم كلبه، ويكفّ غربه، ويذيقه وبال أمره. ويظفي شرار شره، ويعجل له عاقبة خسره، فقد غاظ المسلمين وغيظهم، وقتل جموعهم وفضّهم، ولو جعل السلطان عزّ نصره غزو هذا الطاغية مغزاه، وبلاده مستقرّ عسكره ومثواه، لأخذ الله الكافر بطغواه، كما أخذ ثمود بطغواه، ولأبقى ذكرا.
وقوله^(٢):

وللمودّة عينٌ لا يحلها إذا رَمَدَتْ إلا إثم مداد الصديق، وما في الصبر سعة لصحة أيام العقوق بعد صحة أيام العقيق، وقد بلغني أن ولد المذكور خدم في المجلس السلطاني، وسررت بأن يجتمع في خدمته الأعتاب والذراري، وتطلع في أفقه الأعمار والدراري، والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمة جميعاً، ولا يعدُّنا من يده سحاباً، ومن جناه ربيعاً، وللمودات مقرُّ ما هو إلا اللسنة، والقلوب قضاة لا تحتاج إلى بيّنة.
ومنه قوله يذكر كتابا جاءه في ورق أخضر:

ولما تناولته في الحِلّة، مخضرا بسريرة السراء، قلت الله أكبر، من كان خاطره غيئاً روض، وفاض فأعشب فذهب ففضض، وما شككت أني دخلتُ الجنة لما فاض من أنهارها، وأفيض من سندسها، أو طلعت إلى سماء الدنيا /١٢٦/ لما ملاً سمعي وعيني من شهبها وحرسها، ولا أنني قد جاءتني رسالة الروض الأرج. لما فغمني من نفيس نفسها، فقلت لصحيفة: ماهذه اللبسة الغربية، والحلية الحبيبة، والورقة التي هزّت عظفي في ورق الشبيبة بعد رداء المشيب، والريحانة التي لا يدعيها عذار حبيب؟
فقلت: [من المتقارب]

شَقُّنَا مَرَائِرَ قَوْمٍ [به] فنحنُ نسمّيه شقَّ المرارة^(٣)
ومنه قوله:

وكيفما حلّ أهلُ هذا البيت، فهم في كل بيت صدوره، وفي كل مطلع نجومه وبدوره، لا تذلل أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تُبتذل أقدارهم في مصونات المجامع، كأن الأرض بهم سماء فأنهم طوالعها، وكأن الدنيا بهم رياض، فإن أوجههم دهرها وأيديهم مشارعها.

(١) في نهاية الأرب: لهذا الكلب.

(٢) نهاية الأرب ٤/٨.

(٣) البيت للصنوبري في ديوانه ٧٨.

ومنه قوله:

وقد أثمر هذا القلم أكرم الثمر وهو يابس، وأبرَّ جوداً على أخضر المغارس،
وأتى أكله كلَّ حين وكلَّ وقت، وطال وإن كان القصير، فقصر عنه كل نعت. ووَصَلَ
كتابه فأكرم به من ساقٍ وحبیب، وَخَلَوْتُ به وليس علينا ولا بيننا من الأنام رقيب،
وقَبَلْتُ منه خدّاً بل يداً، وأجلُّه عن أن يكون نسيباً للنسيب، وهزَّزْتُ منه قضيب بان
من بياض طرسه في كتيب، بل هزرت منه قضيب بان للعلا يجتنيها بفتكة القضيب.

ومنه قوله:

والفترة مسطرة أن ينفخ الروح في صريعها، ويرش نور الشمس على وجه
صديعها، وإلا فإنه مغشى عليه، مغشى بليل تحته فقد قرَّبت نبات نعش إليه.

ومنه قوله:

ومن مستهلّ ذي الحجة ما استهلّ من يده كتاب، ولا استقلّ من تلقاء جهته
سحاب، ولعلّ قلمه في الميقات قد أحرم، فلم يمسّ الطيب من أنفاسه، ومسح
المداد عنه لتمام الإحرام بكشف رأسه، والآن فقد انقضت الأيام المعلومة، فهلاً
قضى عنا الأيام التي تمادت فيها شقوة العيون المحرومة.

ومنه:

وعليه السلام الطيب الذي لو مرّ بالبهيم لأشرق، أو بالهشيم لأورق، وكتبها
الكريمة إن تأخرت / ١٢٧ / فأمولة، وإن وصلت فمقبولة، وإن أنبأت بسارٍ
فمشهورة، وإن أنبأت بسير فمشورة.

ومنه قوله:

وأما ما ذكره من القرض فلم يزل القرض للذرية الأيوبية - أعازها الله من
الإنقراض - ميسم كرمها، وعنوان علوّ هممها، فبيوت أموالهم في بيوت رجالهم،
وعقد أيامهم في قلوب خدّامهم، والكنوز التي جعلها الماضون سبائك في التراب
جعلها ملوكنا قلائد في الرقاب، فهم يتحملون بالقرض ويفتخرون، وإذا ادخرت
الملوك في أيدي أنفسهم مالا، فهؤلاء في أيدينا يدّخرون.

ومنه قوله:

وصل كتاب الحضرة، وصلّ الله أيامها بحميد العواقب وبلوغ المآرب، وصحبت
الدهر على خير ما صاحبه صاحب، وأنهضنا بواجب طاعته فإنه بالحقيقة الواجب،
وكل واجب غيره ليس بواجب من يد فلان، ورجوت أن يكون طليعة إلى الاقتراب،

ومبشراً بالإياب، ومخبراً بعودها الذي هو كعود الشباب لو كان يعود الشباب، وعرفت الأحوال جملةً من كتابها، وكلها تشهد بتوفيق سلطانها وبأيامها التي تعود بمشيئته باصلاح شأنه وشانها، والذي مدّه ظلاً يمدّه فضلاً، فالفضل الذي في يديه في يد خلق الله، الذي أحالهم بالرزق عليه، فكيفما دعونا له [دعونا]^(١) لانفسنا، وكيفما كانت استّة رماحه فهي نجوم حرسنا، فلا عُدِمَت أيامه التي هي أيام أعيادنا، ولا لياليه التي هي ليالي عرسنا.

ومنه قوله:

وهذا أفق لا مطار فيه إلا للعقاب وابنه، وبحر لا مسبح فيه إلا لمن يخرج الدرّ من فيه ويدخل البحر في رده، وما عنيت بالبحر ههنا إلا يده الكريمة، وأما البحر فلم أعنيه، وأغرقتني في البحار وأنجبتني منها، وعرفنتي وزن خواطر البلغاء، ولولا عروض خاطره لم أزنها، زاد الله في هذه الأنفاس، وفديت هذه العقائل التي أيامي بها أعياد وليالي أعراس.

ومنه قوله:

وما يأتيني في المجلس من ذكر /١٢٨/ محدث يسرّ به المحدث، وخبر يتأثّل به الأنس ويتأثت، إلا استمعت. ولسمعي على قلبى المنة، وفتحته كأنما فتحت لي أبواب الجنة، وتناولته كأنما تناولت كتابي بيمينى، ورفعته فكأنما رفع التاج فوق جبينى، وقابلته بالحمد، فكأنه عرض كاتبه، وقرنته باللمم فكأنى ظفرت بيد صاحبه.

ومنه قوله:

وأصدرت هذا الكتاب مقصوراً على أجوبة كتبه التي كتبت لي عهدة الشكر، وأباحت في شهر الصيام كؤوسها السكر.

ومنه قوله:

وكتبته وشعبان قد وصل إلى أعقابه، وقمره الممحق قد بعثه رمضان بكتابه، فجمع الله لسيدنا منهما كل خير يستحق جمعه، وأعلى يده التي [ان] سألها الكرم، لم ترّ منعه.

ومن أجوبته^(٢):

وردّ على الخادم زاد الله أيام المجلس وأصفاها من الأكدار، وأبقى بها من

(٢) نهاية الأرب ٧/٨.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

تأثيراته أحسن الآثار، وأسمع منه وعنه أطيب الأخبار، وجعل التوفيق مقيماً حيث أقام، وسائراً أينما سار، كتأبه الكريم الصادر عن القلب السليم، والطبع الكريم، والباطن الذي هو كالظاهر كلاهما المستقيم، ولا تزال الأخبار عندنا محجمة والأحاديث مستعجمة، والظنون مترجحة، والأقوال مسقمة ومصححة، إلى أن يرد كتابه فيحقِّ الحقَّ ويُبطل الباطل، ويتضح الحالي، ويفتضح العاطل، ويعرف الفرق ما بين تحرير قائل وتحوير فائل، فتدعو له الألسنة والقلوب، ويستغفر بحسناته الايام من الذنوب، والشجاعة شجاعتان شجاعة في القلب، وشجاعة في اللسان، وكلاهما لديه مجموع، ومنه وعنه مروى ومسموع، وذخائر الملوك هم الرجال، وآراء الحزماء هي النصال، ومودات قلوبهم هي الأموال، ومجالس آرائهم هي المعركة الأولى التي ربما أغنت عن معارك القتال، والله تعالى يجدد للمسلمين به حالاً يجمعهم على جهاد الكفار، ويلهمهم أن يبذلوا في سبيله النفس والسيف والدرهم والدينار، ويزيل مافي طريق المصالح من الموانع، ويفطم السيوف عن الدماء الاسلامية / ١٢٩ / ويحرم عليها المراضع، ويجعل للمجلس في ذلك اليد العليا والطريقة المثلى، ويجمع له بين خير الأخرى والأولى، والأحوال ههنا بمصر مع بعد سلطانها، وتمادي غيبته عن سائر شأنها، على ما لم يشهد مثله في أوقات السكون، فكيف في أوقات القلق، وعلى ما يحفظ الله به من في البلاد من الجموع، ومن في الطرقات من الرفق.

ومنه قوله:

ومن اللطف في كون الحضرة كتبها عجلة وروجتها مرتجلة، واصدرتها في حالة المتبدل، ولم تعرها ناظر المتأمل، وإلا فلو[تأنيت] لأرسلت البوارق والصواعق، وما أصنع؟ وما كل من جاشت بحاره، وقذف درّه بحاره أغرق الاخوان في لججه، وأخرس اللهجان بحججه.

ومنه قوله:

وصل كتاب الحضرة، لا زالت رياض ثنائها متفاحه، وخطرات الردى دونها متسارحه، والليالي بأنوار سعوها متألثة، والأيام الجافية عن بقية الفضل منها متجافية، باركه للمجد منها فيه، يتخير إليها المكرمات إذا لم يكن لها فيه، فأنشده ضالة هدى كان لنشدانها مرصداً، ورفع له ناراً موسويةً، سمع عندها الخطاب، وأيس الخبر، ووجد الهدى، وكانت نار الغليل بخلاف نار الخليل، فانها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون برداً وسلاماً، ولا يزيدها نداها إلا كانت أضرى ماكان ضراماً، وتعود إلى ذكر الكتاب الكريم، وسجد لمحرابه وسلم، وحسب سظوره

مباسم تبسم، ووقف عليه وقوف المحبّ على الربع يكلمه ولا يتكلم، ويبطل جفنه وكأن جمادى بدمعه وكأن على خده المحرّم، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة، وبقية من العمر مديدة، فأنها الآن نوح أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها، ولا غرو أن يبلغ عمره كعمرها، على أنها طالما أقامت الحدّ الدنيا حتى بلغت في حدّها الثمانين، وأدبت الأيام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من قلمها تأديب المجانين، وما حَمَلْتُ العصا بعد السيف إلا وقد وضعت الحرب أوزارها، ولا استقلت / ١٣٠ / بأنه موسى إلاّ بتفجر الخواطر وتضرب أحجارها، وماهي إلا رمح، وكفى بيدها لها سناناً. وماهي إلاّ جواد يحث السنين خلفها، فتكون أناملها لها عنانا.

ومنه قوله^(١):

ورد كتاب الحضرة السامية، أحسنَ الله لها المعونة، ويسرّ لها العواقب المأمونة، وأنجدها على حرب الفئة الكافرة الملعونة، يخبر بخروج الخارج من قلعة كذا، وما صرّح به من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحاثات في مسير العسكر المنصور، وكل قضية وردت على القلوب. فَفَزِعَتْ فيها إلى ربّها، فَرَجَتْ فُرْجَةً، وأذكى لها اليقين سُرْجَةً، ولم يُشْرِك معه غيره مُسْتَعَاناً، ولم تدع معه من خلقه إنساناً، فما الضيقة^(٢) وإن كانت منذرة إلاّ مبشرة، والخطة وإن كانت وعرة إلاّ ميسرة، لا جرم أن هذا الكتاب أعقبه وصول خبر نهضة فلان، نصر الله نهضاته. وأدى عنه مفترضاته واستنهض العساكر وقويل العدو الكافر. فَتَنَّقَسَ ذلك الخناق، وتماسكت الآماق. وما أحسب أن الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا كرب على الاسلام بعد اليوم، يتوافى بمشيئة الله ولاة الأطراف ويؤزل من نفس العدو وسمعه ما استشعره من المسلمين من الخلاف، ويجتمعون إن شاء الله على عدوهم، ويذهب الله بأهل دينه ما كان من فساد أعدائه في أرضه وعلوهم، وقد شِمِمْنَا رائحة طلب الهدنة^(٣) بطلب الرسول، ويخبر هلاك ملك اللمان الذي هو بسيف الله مقتول، والموت سيف الله على الرقاب مسلول.

ومنها^(٤):

فأما ما أشار إليه من القلاع التي شحناها، والحصون التي حصّناها، والأسلحة

(١) نهاية الأرب ٨/٨.

(٢) في الأصل قضية، والتصويب عن نهاية الادب، والضيقة بكسر الضاد: مثل الضيق.

(٣) في نهاية الأرب: رائحة الهدنة. (٤) نهاية الأرب ٩/٨.

التي نقلها إليها، والأقوات التي ملأ بها عيون مقاتليها ويديها، فإن الله يَمَنَّ عليه بأن يَسِّرَ لهذه الطاعة، ورزقه لها الاستطاعة، فكم رَزَقَ الله عبداً رزقاً حَرَمَهُ منه، وفتح عليه باباً من الخير وصرفه عنه^(١)، الآن، والله مُلْكُ الملك العادل ماله الذي أَنْفَقَهُ، وأودَعَهُ لخير مستودع من الذي رزقه، وشتان / ١٣١ / بين الهمم، هَمَّةُ ملكٍ ذخر ماله في رؤوس القلاع لتحصين الأموال، وهَمَّةُ ملكٍ أودَعَ ماله في أيدي المقاتلة لتحصين القلاع: [من الكامل]

يبني الرجالَ وغيره يبني القرى شتّان بين مزارعٍ ورجالٍ
والحمد لله الذي جعل ماله^(٢) مَسْرَةً، يوم يرى الذين يكتزون الذهب والفضة المال عليهم حَسْرَةً. ما أَحَسِبَ أحداً من هذه الأمة إن كان عند الله من أهل الشهادات بين يديه، وإن كان كريم الوفادة لديه، إلا تلقاهُ شاكراً لهذا السلطان شاهداً بما يُؤلي هذه الأمة من الإحسان، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفُسُونَ﴾^(٣) سيحصد الزارعون مازرعوا، والله يزيده توفيقاً إلى توفيقه، ويُلهم كلَّ مسلم القيام بمفترض برّه، ويُعيذه من محذور عقوبه، وأنا أعلم أن الحضرة تُفرد لي شطراً من زمانها المهمّ، بكتاب الله تكتبه إليّ^(٤)، وخبر سارّ توردهُ عليّ، وأنا أفرد شطراً من زمانني لِشكرها، وأسرُّ والله لها بتوفيق الله في جميع أمرها، فإن الذاكر لها بالخير كثير، فزاد الله طيب ذكرها.
ومنه قوله:

والمشكو في هذا الوقت وَجَعُ المفاصل وآلامها وأورامها، فيدي منها في جامعة ورجلي منها في واقعة، وأعضائي كلّها رابنتي بعد صحّة، وصارت لما تمّ عليها من أيدي الراقين والذاكرين كأنها خرزات مسبحة، ولقد سئمتُ تكاليف الحياة وسهلت عليّ تخاويل الوفاة، وحملتُ الأيام على ظهري حمل الخطب، فما يسوى أن تشتعل فيها نار أجلٍ تكون من الأنفاس المزعجة ذات لَهَبٍ، وما أعزبت عليّ الأيام في تهجمها، ولا جاءتني آيات الكبر في غير موسمها، ومنّ استضاء بسراج المشيب، مَسَّتُهُ الليالي في ظلمها، فقد صرعتني الأمراض، وصدّعت عظمي المنهاض، اللهم لا أشكو إلا إليك، ولا أسأل إلا أنت، ولا أبتُّ عبادك مابي من بلائك إلا لاستلزم

(١) بعده في نهاية الأرب: لاجرم أنه وفّى قوماً أجرهم بغير حساب، ووقف قوماً بموقف مناقشة الحساب، الذي المصرف عنه إلى مابعد من العذاب.

(٢) في الأصل: أماله. (٣) سورة المطففين: ٢٦.

(٤) في نهاية الأرب: لكتاب تلقيه إليّ.

إليك الشفعاء، واستدعي منهم الدعاء، فإن دعوتك من حقها ان ينظف رافعها لها الوعاء، فأما طاحونة / ١٣٢ / مدينة الجسد، وهي الاسنان، فبعض السن ظعن مع السنّ وبعضه بقي منه جَذْمٌ غير مُرْجَحِنّ. وماكنت أدري مامعنى قيد الحياة إلى أن قيدتني المفاصل بوجعها، وعلّة النقرس بتسقلها وبرفعها، وأنا الآن بالحقيقة في ضدّ الحياة إحساساً، ولابس جسم قد كرهته النفس لباساً.

ومنه قوله^(١):

ورد كتاب المجلس السامي، نصر الله عزائمه، وأمضى في رؤوس الأعداء صوارمه، وشدّ به بنيان الإسلام ودعائمه، وأسترّد به حقوق الاسلام من الكفر ومظالمه، وخلف نفقاته في سبيل الله ومغارمه، وجعلها مغايمه، وكان العهد به قد تناول، والقلب في المطالبة ماتساهل، ولمحتُ اشتغاله بالطاعة التي هو فيها، وما كلّ من تشاعَلَ تشاغَلَ، فهناه الله بما رزقه، وتقبّل في سبيل الله ما أنفقَه، وعافى الجسم الذي أنضاه في جهاد عدوّه وأخلقه، وقد وُقِّق من أتعب نفساً في طاعة من خلّقها، وجسماً في طاعة من خلّقه، فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾^(٢) وأما^(٣) فلان وما يسره الله له، وهونه عليه، من بذل نفسه وماله، وصبره على المشقّات وأحتماله، وإقدامه في مواقف الحقائق قبل رجاله، فتلك نعم الله وتوفيقه الذي ما كلُّ من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في تلك المواقف بياض ماسودته الذنوب من الصحائف ﴿بَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٤) فما أسعد تلك الوقفات، وما أعود بالطمأنينة تلك المرجفات^(٥)، وقد علم الله سبحانه متى ما علم من غيري من المسلمين من الدعاء الصالح في الليل إذا يغشى، / ١٣٣ / ومن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلّى، والله تعالى يؤيد لكم إيمانكم وينصركم وينصر سلطانكم، ويصلحكم، ويصلح بكم زمانكم، ويشكر هجرتكم التي لم تُؤثروا عليها أهليكم ولا أموالكم ولا أوطانكم، ويعيدكم إلينا^(٦) سالمين ساليين، غانمين غالبيين، إنه على كل شيء قدير.

(٢) سورة سبأ: ٣٩.

(٤) سورة النساء: ٧٣.

(١) نهاية الارب ٨ / ١٠.

(٣) في الأصل: وما.

(٥) المرجفات: من الإرجاف، وهو الزلزال.

(٦) في نهاية الارب: إليها.

ومنه قوله:

ولا حول ولا قوّة إلا بالله، قول من قعد وراء الاحباب، يودع كل يوم حبيباً،
ويعيش في الدنيا بعدهم غريباً، كأنه النجم طلع عليه الصباح فغابوا، وبقي منتظراً
للمغيب، وصبّحه ماقد علاه من المشيب.

ومنه قوله:

هذا وما تم بحمد الله متجدد، إلّا ما تقدم ذكرى له من أمراض الكبر، وأعراض
الغير، وتداعي هذه البنية لرحيل ساكنها، وانزعاج هذه النفس إلى ما يختاره لطف الله
من موطنها، فإن السبعين قد جزت عينها وقطعت عقبها، وأسأل الله الخيرة في القدوم
عليه، واللطف عند الوقوف بين يديه.

ومنه قوله:

وأشكو بعد قلبي جسمي، فقد ضعفت قوته، وقوي ضعفه، ونسجت عليه
همومي ثوباً دون الثياب، وشعاراً دون الشعار، من الحرب الذي عادى بيني وبينني
وانتقم بيني من جسمي، واستخدمها بحرث أرضه، فإن لم يكن لأرضه عجاج فلي
عجيج، وإن لم يكن فيه بذار فلي من الحبّ ثمار، وإن لم يكن لي سنبله فلي أنملة،
وإن لم يكن في كل سنبله مائة حبة آكلها، ففي كل أنملة مائة حبة تأكلني، وقد كنت
مسالماً لأعضائي إلا سنّاً أقرعها، فما يخلو زمنٌ من خدماتي أو أصعباً أعضها، فما
أكثر ما على الظالم الذي يعضّ يديه، فإننا أفرع أعضائي كلّها ثنيات، واعضّ على
جوارحي كلّها أنامل، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾^(١)، والحرب
همٌّ للأجسام والهم حربٌ للقلوب، والفكر للقلب حك، والحك للحلم فكر. وبالله
يدفع ما لا نطيق يا واهب العمر خلّصه من الكدر.

ومنه قوله^(٢):

وصل كتاب الحضرة^(٣) مبشراً بالحركة الميمونة السلطانية / ١٣٤ / إلى العدو
خذله الله، ومسير المسلمين نصرهم الله - تحت أعلامه أعلاها الله، ومباشرة العدو،
واستبشار المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءة عليه، ومن إضمار العود إليه، وهذه
مقدمة لها ما بعدها، وهي وإن كانت نصرةً من الله، فما نقنع بها وحدها، فالحمة

(١) سورة الأنعام: ١٧.

(٢) نهاية الأرب ٨ / ١١.

(٣) في نهاية الأرب: الحضرة السامية - أيد الله عزمها، وسدّد سهمها، وجعل في الله همها، ووفر في
الخيرات قسمها -

العالية السلطانية للحرب التي تسلب الاجسام رؤوسها، والسيوف حدّها. فإنّ الجنة غالية الثمن، والخطابُ بالجهد متوجّهٌ إلى الملك العادل دون ملوك الأرض، وإلاّ فمن؟ فهذه تشتري بالمشقّات، كما أن الأخرى - أعاذنا الله منها - رخيصة الثمن، وتشتري بالشّهوات.

ومنه قوله:

وقف الخادم على ما شرف به طبعه، وشنف به سمعه، وضيق بسعته ذرعهُ، من الخطاب بالعتاب، الذي خفض له الجناح، واستعذب به الجراح، وأسرّ قلبه في قيد أسى مستطار لا يراد منه السراح، وقذف به في لهوات ليلٍ لم يودّ ان يبسم فيه ثغر الصباح، وقد علم الله أنه برىء من كل ما يوجب المذام، ويطلق السنة الذام، وانه لمستيقظ في حقوق الخدمة، إلا أن حظه من أهل الكهف بطول المنام.

ومنه قوله:

وأما البرد وقلبه، والهواء وقلبه، فما كتبتها إلاّ واليد ترتعد، والخواطر لا تتعد، والغلام يذهب شبح الفحم بما يلهب، والشوار يبقى منطفئه في خدود الثياب خيلانا، ويمعني كما يمنعها أن تطرد في قول القلم من الطريق خيلانا.

ومنه قوله:

وأنا الآن إذا دعوت الله سبحانه، بأن يمتعني بسمعي وبصري عينته، وإذا قلتُ واجعلهما الوارث مني فهو الذي اخترته لذلك وارتضيته، وبالجملة اني مستحسن قول جميل وأنقله إلى أهل الجميل: [من الطويل]

وما أحدثَ الرأيَ المفرّقَ بيننا سُلوا ولا طولَ اجتماعٍ لِقاليا
كذلك صحبة المجلس قد تطاولت، وكلّما ألحّ عليها الصقال لاح جوهرها، وكلّما تكررت عليه الفصول، فصلت آياتها، وسيّرت سورها.

ومن كتاب كتب به^(١) إلى القاضي محيي الدين بن الزكي^(٢):

/١٣٥/ بعد أن أصدرتُ هذه الخدمة إلى المجلس - لاُعِدتم عواطفه وعوارفه، ولطائفه ومعارفه، وأمتّع الله الأمة عموماً بفضائله وفواضله. نفعهم بحاضره كما نفعهم بسلفه الصالح وأوائله، وعادى الله عدوه، ودلّ سهامه على مقاتله - ورَدَ كتاب منه وما

(١) نهاية الارب: ١٢/٨.

(٢) محيي الدين محمد بن علي بن بختيار بن يحيى أبو النعالي القرشي شهد فتح بيت المقدس مع صلاح الدين وخطب أول جمعة فيه. توفي سنة ٥٩٨هـ. (وفيات الأعيان ٢٢٩/٤ والوافي ١٦٩/٤).

بقيتُ أذكر الإغباب فإن سيدنا يقابله بمثله، ولا العتاب فإن سيدنا يُساجله بما فيض من سجّله، ولا ألقى عليه من قولي قولاً ثقيلاً، ولا أقابل به من قوله قولاً جليلاً جليلاً، فقد شبَّ عمرو عن الطوّق^(١)، وشرف البراق عن السّوق، وذلك لعمرى ما برح محتنكاً غير أجنبي، والطوق للصبي، وذلك البراق حمى لا يقدم إلا للنبي، ومع هذا فلا يُقلص عني هذه الوظيفة، وأعتقدها من قرب الصحيفة، فإنك تسكن بها قلباً أنت ساكنه، وتسرّ بها وجهاً أنت على النوى معاينه.

ومنه قوله:

ياسيدنا العماد، صبحك الله بأيمن من فعلك، ولا أعرف فعلا منه أئمن واحسن من وجهك، ولا أعرف وجهاً منه أحسن: وأحسن وجه في الورى وجه منعم، كيف أنت في هذه الرحمة التي تركتنا رحمة؟ وكيف الخركاه^(٢) وكيف الخيمة؟ أما نحن ففي خيمة من عنصرنا وهو الطين، وفي خركاه كانا من ضائقها في عقد التسعين، قد حاصرنا الأمطار، وقلّ احتفالها بالخنادق المحفّرة، وفعلت بنا ونحن المسلمون ما فعلنا بمن حاصرناه من الكفرة، فليت لنا ولو كمفحص القطاة في السعة والحفوف، وليت لنا جبلاً يعصمنا من أنواع السيول إذا جاءت مهزوزة السيوف، وقد حال الجريض دون القريض، وشغل توقع اللئيم عن توقيع القلم.

ومنه قوله:

وقد كانت ليلة الخميس بدمشق ليلة مباركة. ما غسل ظلامها إلا السيول لولا الصباح، ولا ابتسم صباحها إلا وقد كادت تبتسم عن نبتها الجبال والبطاح.

ومنه قوله:

وقد جار كرم يده على أموالها، وعلم الخلائق الاشتطاط في آمالها، فما يأخذ أحدهم البدر إلا بكسر الخاتم منها، ولا يقبل الخلعة إلا وقد عصبت المنشور بعصبتها، ولا تركت /١٣٦/ الجواد إلا وهو بالبر مثقل، وما بالحلي في وجهه ورجليه أغر محجل، ولا يقنع بالاقطاع إلا وباطنه قلعة، وظاهره رستاق، ولا بالمنشور إلا وحاصلهُ ثمرات واسمه أوراق. فقد فرّ الناس من الصنائع إلا إلى اصطناعه، ومن المعایش إلا إلى انتجاعه، وهان عليهم أن يكتبوا في قرطاس ويجاوبوا بأكياس، ووقفوا على التراب، فلحقوا بالسحاب وعمّر الجود كل دينار،

(١) مثل جذيمة بن الأبرش في عمرو بن عدي، (جمهرة الأمثال ١/٥٤٧).

(٢) الخركاه: كلمة تركية بمعنى الخيمة.

حتى توارى دينار الشمس بالحجاب.

ومنه قوله إلى العماد الاصفهاني^(١):

كانت كتب المجلس - لا غير الله ما به من نعمه، ولا قطع منه مواداً فضله
وكرمه، ولا عدمت الدنيا خَطَّ قَلَمِهِ وخطو قَدَمِهِ، وأعادنا الله بِنِعْمِهِ وجوده من شقوة
عدمه - تأخرت وشقَّ عليَّ تأخرها، وتغيَّرت عليَّ عوائدها. والله يعيدها^(٢) مما
يغيِّرها، ثم جاءت كما جاء بيت ابن حجاج^(٣): [من مجزوء الرمل]

غَابَ سَاعَاتٍ وَوَأَفَا نِي عَلَى مَا كُنْتُ أَعْهَدُ^(٤)
وأجبت بيت الرضي^(٥): [من المديد]

ومتى يدنو النوى بهم يجدوا قلبي كما عهدوا
كتابة لا ينبغي ملكها إلا لخاطره السليماني، وفيضاً لا يصدر^(٦) إلا عن نوح
قلمه الطوفاني، أوجبت على كل بليغ أن يتلو: ﴿وَمَنْهُمْ أَمِينٌ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا
أَمَانِي﴾^(٧) وبالجملة فالواجب على كل عاقل أن لا يتعاطى ما لم يُعْطَه، وأن يدخل
باب مجلس سيدنا ويقول حِطَّة، فأما ما فاض فيه من سكون الأحوال بتلك البلاغة،
فقد كدت أسكر بها بما استخرجته من المحاسن، التي لو أن الزمان الأصم يسمع
لأسمعتَه، ولو أن الحظَّ الأشم يخضع لأخضعتَه، وبالجملة فإنه لا يسب^(٨) زمن أبقى
من سيدنا نعمه البقية التي مهما وُجدت، فالخير كله موجود، والمجد بحفيظته
مشهود، وكما تيسرت راحة جسمه فينبغي أن يقتدي به قلبه في راحته من همّه.
وأعراض الدنيا متاع المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهذه الدنيا هدة إليها مصاب
المصائب، والحال التي هو الآن عليها عاكف من علم / ١٣٧ / يدرسه، وأدب
يقبسه، وحريم عقائل يدبُّ عنه ويحرسه. هي خير الأحوال، فالواجب الشكر
لواهبها، والمسرة بالإفضاء إلى عواقبها، وما ينقص بشيء من المقسوم، وإن زاد عند

(١) نهاية الأرب ١٣/٨. (٢) في الأصل: يعيد.

(٣) ابن حجاج: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج، الشاعر العباسي، وأكثر شعره في اللهو
والسخف والمجون (انظر: يتيمة الدهر ٣/٣٠).

(٤) في نهاية الأرب:

غَابَ مَا غَابَ وَوَأَفَا نِي عَلَى مَا كُنْتُ أَعْهَدُ
(٥) ديوان الشريف الرضي ٣٨٨/١.

(٦) في نهاية الأرب: لا يسند بدل (يصدر).

(٧) سورة البقرة: ٧٨. (٨) في نهاية الأرب: يُشأن.

المجلس فليس من حظّه، ولكن من حظّ السائل والمحروم، ولا يسمح المجلس بكتاب من كتبه على يد من الأيدي التي لا تؤدّي، فلا يؤمن أن تكون أناملها حروف التعدي.

ومنه قوله :

وقَدْ تَأَمَّلْتُ مَا تَفَنَّنَتْ فِي وَصْفِهِ حِينَ دُعِيَتْ إِلَى قَتْلِ الْأَسِيرِ، وَإِنَّ الْقُدْرَةَ الْمُحِيطَةَ بِعُنُقِهِ، وَالْأَسْرَ السَّادَّ لِسَبْلِ الْقَتْلِ وَطَرِقِهِ، أَبَى لَهَا أَنْ تَشْغَلَ بِهِ بِأَلْهَا، وَنَصَ لَهَا أَنْ لَا يَنْبَجِسُ بِدَمِهِ نَصَالُهَا، فَإِنَّ قَتْلَ الْأَسِيرِ وَيَدَاهُ مَغْلُولَةٌ، وَحِبَالُ أَذْرَعِهِ مَجْبُولَةٌ، قُدْرَةٌ مَا زَالَتْ النُّفُوسَ عَلَى اسْتِقْبَاحِهَا مَجْبُولَةٌ، وَمَا كَانَ يُؤْمِنُهَا أَنْ تُشَخِّصَ الْأَبْصَارُ نَحْوَهَا، وَكَمَا نَظَرَ فِي الطُّرُوسِ كَانَهَا يَنْتَظِرُ فِي الطُّرُوسِ مَحْوَهَا، فَيَكُونُ غِيْظُ الْحَسَامِ مِنْ قَلَمِهَا حَامِلًا لَهُ عَلَى أَنْ لَا يَحْدُ مِضَاءٌ، وَلَا يَمْضَى حَدًّا، وَبَاعِثًا لَهُ عَلَى أَنْ يَنْشِي عَنْ عُنُقِ الْكَافِرِ مَرْتَدًّا، فَيُورِثُنَا مَعْشَرَ الْكِتَابِ عَارًا يُعْدِي عَرَّهُ، وَيُنْهِى الْعِلْمَ مَا يَسُوؤُهُ وَالسِّيفَ مَا يَسِيرُهُ، وَيَنْفَتِحُ بَابُ الْقَيْلِ وَالْقَالِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الْعِذْرِ الصَّدِيِّ فِي نُبُوَّةِ السِّيفِ الصَّقِيلِ.

ومنه قوله :

وَكَانَ يَنْتَحِي لِقَافِيَةَ الثَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ الَّتِي خَضَعَتْ لِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَتْ لِفِكْرِهِ، وَخَفَضَتْ جَنَاحَهَا، وَتَرَكْتَ جِمَاحَهَا، وَرَقَّتْ رَقَّةَ الرَّاءِ، وَأَعْطَتْهُ الْقِيَادَ الَّذِي مَنَعَتْ مِنَ الْكِتَابِ وَالشَّعْرَاءِ، وَهَذَا مَلِكُ الْبَلَاغَةِ السَّلِيمَانِيِّ، وَهَذَا الْقَلَمُ سَيِّدُ النُّصْرِ الْيَمَانِيِّ، وَهَذَا الْمَعْجِزُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ السِّحْرُ الْبَيَانِيُّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ السِّحْرُ الْمَبِينُ، وَمَا تَصَوَّرْتَ أَنَّ الثَّاءَ تَهَوَّنَ هَذَا الْهَوَانُ، وَلَا يَنْقَادُ فِي الْكَلِمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَلَمُهُ الْعِنَانُ، فَقَدْ صَارَتْ عَرُوسًا وَنَقَطَهَا نَقُوطُ الْعَرَائِسِ، وَوَجِبَتْ جَنُوبُهَا، فَلَا جَرَمَ أَنَّهُ أَمِثَلُ قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا، وَأَطِيعُوا أَلْبَاسِ﴾^(١)، وَقَدْ صَرْنَا نَبْدَلَ السِّينِ بِغَيْرِ لُثْغَةٍ، وَنَقْدَرُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا بِلَاغَةٍ، وَمَا كُنَّا نَقْدَرُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا إِلَّا بِلُغَةٍ.

ومنه قوله :

وَذَكَرَ اللَّهُ / ١٣٨ / ذَلِكَ الْعَهْدَ بِخَيْرٍ مَا ذُكِرْتُ بِهِ الْعَهْدُ، وَلَعَنَ اللَّهُ الْفَرَنْجَ الْمُخْتَدِقِينَ، وَقَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ، فَقَدْ قَطَعُوا طَرِيقَاتِ الْمَسَارِ، وَأَطَالُوا عَمْرَ الْبِيكَارِ^(٢). وَسَبَكَتْ نَارَ مَقَاسَاتِهِمُ الدِّينَارَ، فَعَجَّلَ اللَّهُ أَعْلَامَ الْكَافِرِ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارَ.

(١) سورة الحج: ٢٨.

(٢) البيكار: الحرب، المعركة، أو الحمله، وهي فارسية، (معجم دوزي ١/٥٠٦).

ومنه قوله^(١)، وكتب ابن الزكي:

كان كتابي^(٢) تقدم إلى المجلس السامي أدام الله نفاذ أمره وعلو قدره. وراحة سره، ونعمة يسره، وأجراه على أفضل ما عوده، وأسعد جدّه وأصعدّه، وأحضره أمثال العام المسقبل، وأشهده، ولا زال يلبس الأيام ويخلعها، ويستقبل الأهلّة ويودّعها، وهو محروسٌ في دنياه ودينه، مستلثمٌ من نوب الدهر بدرع يقينه^(٣)، وأعماله مقبولة، ودعوته على ظهر الغمام محمولة، والدنيا ترعاه وهو يأبى رعيها^(٤)، والآخرة تُدخّر له وهو يسعى لها سعيها، من أيدي عدّة من المسافرين، ولثقتي بهم ما قيّدت أسماءهم، ويضيق صدري بتأخير كتب المجلس ما حفظت ما جاء منه^(٥)، وما كانا إلا دعونا الله سبحانه دعوة الأولين ان يياعد بين أسفارنا، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارنا، فأجيبت الدعوة. ولا أقول لسابق الشقوة، ولكن للاحق الحظوة، فإنّ مكابدة الأشواق إلى الأبرار، تسوّق إلى الجنة ولا تسوق إلى النار، وأقسم أنني بالاجتماع به في تلك الدار، أبهج مني بالاجتماع به لو أتيح في هذه الدار، فعليه وعليّ من العمل ما يجمع هنالك سلك الشمل، ويصلّ جديد الحبل، فثمّ لا يلقي العصا إلا من ألقى ههنا^(٦) العصيان، وهنالك لا يقرّ العين إلا لمن سهرت منه ههنا العينان، ولا وجه يجمع اسمي مع اسمه في هذه الوصيّة، مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مصيري، ولكن ليزيد سيّدنا في وظائفه وعوارفه فكلُّ فعله تفضّل، من فضله ما يخلصني بقربه^(٧)، فإني استحق شافعته لشفّعة جوار قلبي لقلبه^(٨)، والخواطر في هذا الوقت منقبضة، والشواغل لها معترضة، وأيام العمر في غير ما يفرض من الدنيا للآخرة منقرضة، ومتجدّد نوبة بيروت قد غمّت كل /١٣٩/ قلب، وهاجت للمسلمين أشواقاً إلى الملك الناصر، وذكراً إنما ينفعه الله به من كلّ ذاك، وأخذ الناس في الترحم على أوّل هذا البيت والدعاء للحاضر والآخر. وليس إن شاء الله بآخر^(٩).

(١) نهاية الارب ١٤/٨. (٢) كان كتابي: ليس في نهاية الارب.

(٣) بعدها في نهاية الارب: كاشفٌ لليل الخطب بنور جبينه، وليوم الجذب بفيض يمينه.

(٤) في نهاية الارب: وهي تأتي برغيها. (٥) في نهاية الارب: ما حفظتها.

(٦) في نهاية الأرب: هنا. (٧) في نهاية الأرب: اخلاصه.

(٨) بعده في نهاية الارب: وهذا معنى ما بعث على شغل الكتاب به مع علمي باستقرار نفسه النفيسة، إلا أنه - إبقاء الله - قد أبعد عهدي من كتبه بما يقع التفاوض فيه، والمراجعة عنه.

(٩) بعده في نهاية الأرب: فما ادخر المولى لهذه الحرب مجهودا، ولا قلّلت عسكرياً مجرورا ولا مالا

ممدودا: [من الطويل]

ومنه :

وسيدنا يتوصى بالدار بدمشق، فقد حَلَّتْ، وإنما الناسُ نفوسُ الديار^(١)، وسيدنا يُحسن في كل قضية من بَعْد، كما أحسن من قَبْل، فهو الذي جَعَلَ بيني وبين الشام نَسَباً وانشأني فيه إلى أن أدخرت عقاراً ونشأ، فعليه أن يرعى ما أقناه، وينفي الشوك عن طريق اليد إلى جناه، والجار إلى هذا التاريخ ما اندفع جورُه، ولا أدرك غورُه، يَعدُّ لسانه ما تُخلف يَدُه، ويدَّعي يومه بما يكذبه فيه غَدُه، وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظُ مني، والفاظاً مجهولةً ما كنت اشتهي بأن أعرفها، وكشف مستور من أسباب الحرج ما يسرني أن اكشفها ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾^(٢)، وأسوأ خلقاً من السيء الخلق مَنْ أحوَجَه إلى سوء الخلق، وماذكرت هذا ليذكر، ولا طويْتُ عليه الكتاب لينشر، والسرُّ عند سيدنا ميّت، وهو يقضي حقّه بأن يقبر.

ومنه قوله :

ولما تأملتُ الكتاب الأزرق، طاعنت به الخواطر التي كنت صريع طعانها، وعقير أقرانها، وممادّلي على الصحة نشاط خاطر العمادي لقافية العين التي اطردت له متونها، وتفتحت لقلمه عيونها، واقتضى الدعاء بأن يقرّ الله العين في يده، كما أجراها على لسانه، فتجتمع له البلاغة والغنى، ويتوفر الأولى عليه، وتكون الثانية قسمة ما بيننا.

ومنه قوله :

والكتب من جهتها مرتقبة لذاتها، لا لما فيها منا طارئات الأحوال ومتجدداتها، ويكفي خبر صحته من الأخبار، فلينعم الماء بإطفاء النار.

ومنه قوله :

ووافى في الأسطول الميمون في خمسين غراباً^(٣)، طائراً من القلوع، بأجنحته، كاسراً بمخالب اسلحتِهِ، فما وافى شمالاً إلا دعاه إلى الحين، وحقق ما يُعزى إلى الغراب من البين.

فإن كان ذنبي أن احسنَ مطلبي أساءةً ففي سوء القضاء لي العذر
(١) بعده في نهاية الأرب: وأنا أعلم أن سيدنا في هذا الوقت مشدود الخاطر من الوصايا، ومشغول اللسان بتنفيذ ما ينفذه مما هو منتصب له من القضايا، فما في وقته فضلةٌ ولكن فضل.
(٢) سورة النساء: ١٤٨.
(٣) الغراب: نوع من السفن الحربية.

وقوله:

وكتبت هذه الخدمة ليلاً / ١٤٠ / والخاطر كالناظر، كلاهما مشتمل بالظلام شعاراً ودثاراً، والخطرات كالأنجم في ليلة الأسي، إن رامت الطريق فحيارى، أو رامت السير فأسارى.

ومنه قوله:

إلى أن طوى الليل ملاءته، ومدّ عليهم الليل كلاءته، فإنه دعى مأمته، وبينهم من مناسبة صحائفهم لسواده؛ ولأن الليل يُدعى كافراً فقد خبأهم في فواده، وخاف العدو تصريف العنان، فكأنما في يده منه صلّ لادغ، ورأى السيف وماء الموت يتفرق منه، فروى دلاءً من إناءٍ فارغ.

ومنه قوله:

فأما هذه الدنيا، فأنها دار الأكدار، ومثار العثار، لا تسمّح بمودة صاحب إلا لتعرف قدر فراقه، ولا تفسح في حبل لقاء خليل، إلا لتجعله عدّة لخناقه.

ومنه قوله:

فَقُلْتُ لصَاحِبِي نجواي: خُذَا في عرض محاسنِهِ عليّ، لعلِّي آخذ منها فقلا: وما الفائدة إذا عجزت في الصلة عن ان تعيد عيلة الفاظه العائدة؟ فقلت: ليعلم أن كل خير عندي مِنْ عِنْدِهِ، وأسأله الصفح عن تقصير بلاغتي عن بلوغ حَدِّهِ. وأسرّه بتقصيري عن مده، وإن كان هذا عهدي بوَدِّهِ، فقلا: أرسل نفسك على سجيّتها، وتعرض لنفحات صديقك، فما يبخل عليك بيلنجوجيتها، فقلت: نعم على تفيهقكما في النسبة، إلى اليلنجوج^(١) وعلى كون حروف هجاها أطول من عوج^(٢).

ومنه قوله^(٣):

الخادم يخدم وينهي وصول كتاب كريم، تفجّرت فيه ينابيع البلاغة، وتبرّعت بالحكم أيدي البراعة، وجاد منه بسماء مزينة بزينة الكواكب، وهطل منه لأوليائه كل صوب، ولأعدائه كل شهاب واصب، وتجلّى فما الغيد الكواكب، وما العقود في الترائب، وتفرق عنه جيش الهمّ، فانظر ماتفعل الكتب في الكتائب، وما وَرَدَ إلا والقلب إلى مورده شديد الظمأ، وما كحلّ به إلا ناظره الذي عشى عن الهدى، وقرب

(١) اليلنجوج: عود البخار.

(٢) عوج بن عنق: شخصية أسطورية يضرب بطولها المثل.

(٣) نهاية الأرب ١٧/٨.

من العمى، وما نار إبراهيم بأعظم من نورِهِ، ولا سروره صلى الله عليه حين نجا بأعظم في يوم وصوله من سروره، فحيّا الله هذه اليد الكريمة التي تنهلُّ بالأنواء، وتحرك سواغب النعماء، وتعطي أفضل / ١٤١ / عطاءً، يسرّها في القيمة، وتحوزه به أفضل أنواع الكرامة، فأما شوقه لعبده، فالمولى ابقاهُ الله قد أوتى فصاحة لسان، وسَحَبَ ذيل العبي على سحبان، ولو أن للخادم لسان مؤات، وقلب^(١) يقال له هيهات، لقال ما عنده، وادّكر عهده وودّه، وباحَ بأشواقِهِ، وأذاع الرمز عند اعتناقه. وأما تفضّله بكدا، فالخادم لا يقوم بشكره، ولا يبطله حقّ قدره، وقد أحال مكافأة المجلس على مليء قادر، ومسرّة خاطره عليه يوم تبلى السرائر، والله تعالى يصله برزق سني يملأ إناه، ويوضّح له هُداه، ولا يُخلي المجلس من جميل عوائده، ويمنحه أفضل وأجزل فوائده، إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله^(٢):

وفي الحال أطافت المقاتلة من جميع أقطاره، ولبواً تلبية الحجيج، وكلٌّ من جمرة سهمه كرامي جِماره، وعبرت الأجال المسماة سهاماً على قناطر القسيّ المحنية، وقدَحَتْ زودها البيض شرار جَمْر المنيّة، فصارت الأبرجة بسلاحها، أو كأنها بكثرة ريش السهام طائرة بجناحها، أو كأنها صدور أظهرت حسك الضغائن، أو كأنها لاذحام السهام بها كنان، إلى أن سرى داءُ النقب إلى المقاتل، ودبّ سكرها بين المفاصل ورتب الجدران قائمة، والبلاء سائر في أعقابها، متجلدة والنار تحت بنائها غرارة بالحاظها، والقبح حشو نقابها، فلما كان وقت الظهر ﴿وَطَهَّرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾^(٣)، ووقعت القلعة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤)، وتحصّنوا من نار القُضب بنيران الحطب، وقطعوا بين المسلمين وبينهم بطوفان نار، كانت القلعة سفينة إلا أنها لا سفينة نجاة، بل سفينة عَطَب، ومن الفرنج الملاعين من ردها عاجلاً، ﴿وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٥)، وأقحم نفسه فيها، فأحاطت بعنقه مقاودها، وبات الناس مطيفين بالحصن، والنيران به مطيفة وعليه مشتملة وعذبات أسنّها على وجهه منسدلة، ومن خَلَفِهِ مسبلة، ولفحاتها جهنمية ﴿وَوُدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٦)، والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها: إِيَّاكَ / ١٤٢ / أعني واسمعي أنت

(١) كذا في الأصل، والصواب: قلباً.

(٢) الروضتين ٣/ ٤٢ وفيه أن القاضي كتبه بعد فتح حصن بيت الاحزان بفلسطين.

(٣) سورة التوبة: ٤٨. (٤) سورة الأعراف: الآية ١١٨.

(٥) سورة مريم: الآية ٧١. (٦) سورة البقرة: الآية ٢٤.

يا جارة، فَوَلَجَتْ النار موالج تضيق عنها الفكر، وتعجز عنها الأبر، وقال الكفر: إنها لاحدى الكبر، وخولف المثل في أن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى ضوء نهاره أن يسأل معه هذا وذا ما الخبر؟ إلى أن بدا الصباح، وكأنه امتار منها الأنوار، وانشق الشرق، وكأنه من عصفرها صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فأقلع بيده الأحجار من أسها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وأدار فيها كأس المنون دهاقا، وحلّ الرؤوس ضربا، وشدّ الأعناق وثاقاً.
ومنه قوله:

هو شيء مجلس سيدنا، ولا زال من كل مكروه محاشي، ودامت الصحة تنشر له علماً وتطوي فراشاً، وجعل الله ليل الدنيا بأمنه لباساً، ونهارها معاشاً، من مريض يمسه، ومن ألم يحسه، ومن أن يتكدر من العافية أنسه، وحرس الله نفسه على الاسلام فإنه نفسه.
ومنه قوله:

فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسارى يساقون بها مقرنين، لحمدت ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١)، ولقد شابت بخضاب العجاج ما أرسلته رايات الأبرجة من ذوائب مفرقتها، وأسلمت وجهها لله، وقطعت ذمار خندقها
ومن مكاتباته: يتشوق إلى اخوانه وأودائه ومحبيه وأوليائه، ومنه قوله:
فانجدوا المسلمين يا حاملة سلاح الصلاح، وابعثوا سرايا دعواتكم، فإننا ننتظر غب سراها الصباح، فانتم في وكر قبلتنا، فلتهن أدعيتكم خفة الجناح.
ومنه قوله:

فلولا سدّ سدّته الكريمة لانفتح على الاسلام ما انفتح من سدّ مأرب، ولولا سيفه لما وجد بعد العصا الكليمية سيف مثلها فيه مأرب، وانتهاز فرصة انتهزها في بابه، فما ازدادت الأحوال إلا ضائقة، ولا الغدر إلا اتساعاً، والله المستعان.
ومنه قوله:

وقد علم الله خدمتي للبيتين الشريفين، بيت الله بما يعود عليه بالعمارة وبيت النبوة صلوات الله على أهله بما يبقى في عقبه كلمة الامارة.

/١٤٣/ يمني نفسه ما دونه حزّ النواصي، بل حن الغلاصم، يروم أن يرتضع

اخلاف الخلاف، والله له عن آل الفواطم فاطم، فنهض لآل رسول الله كل بعيدٍ وقريب، ونصر لواء حمده حتى الصليب، وقوبلَ عدوّه بعدو وحسم داء ومستغيثٍ عجيب، وحينئذ اندفع شيركوه ميمماً صعيداً طيباً، وكيف لا يتيمم من عدم الماء قاصداً للقبلة، ولن يدار إليها إلا من فارق الدماء.

ومنه قوله:

ووقف المملوك على الأبيات النونية التي فتنته فتونا، وزخرت بحراً فصارت منه قافية النون نوناً، وأشرقت عليه أبياتها أقماراً، صار القمر لحسدها عرجونا.

ومنه قوله:

وحين وقف عليها، وَقَفَ لها، وحين فتحها أرتج أبواب الهموم وأقفلها وتأمّلها، ونظر من غرائب الحسنات ما تمّ بها وما تمّ لها، فإذا فصلٌ كنعيم أهل الجنة، كلما نفذ جُدّد، وكنفس أهل الحياة تلد كلما ردّد، وسيدنا كان لسانه يده في جماح السماح، وكان لسانه في إيراد قرائح الاقتراح كلّ عذبٍ قراح.

كتب إلى بعضهم^(١): [من الطويل]

أأحبّابنا هل تسمعون على النوى تحيةً عانٍ أو شكيةً عاتبٍ
ولو حَمَلت رِيحَ الشَّمالِ إليكم كلاماً طلبنا مثله في الجنائبِ
أصدر العبدُ هذه الخدمة، وعنده شوق يغورُ به ويُنجد [ويستغيث]^(٢) من ناره
بماء الدمع فيجيب ويُنجد، ويتعلّل بالنسيم فيغري ناره بالإحراق، ويرفع النواظر إلى
السُّلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق؛ أسفاً على زمنٍ تصرّم، ولم يُبقِ إلاّ وجداً
تصرّم وقلباً من يد البين المُشيتّ تظلم: [من الوافر]

ليالي نحنُ في غَفَلات عَيْشٍ كأنّ الدهرَ عَنّا في وثاقٍ
وما^(٣) تنفّس خادِمُهُ نَفْساً إلاّ وَصَلَهُ بذكره، ولا أجرى كلاماً إلاّ قيدهُ بشكره،
ولا سار بقفّرٍ إلاّ شَبَّهَهُ برحيب صدره، ولا أظَلَّ على جَبَلٍ إلاّ احتقره بعليّ قَدْرِهِ، ولا
مرَّ بروضةٍ إلاّ خالها تفتّحت أزهارها عن كريم خُلُقِهِ ونسيم عطْرِهِ.

ولا أوقد المصطلون ناراً إلاّ ظنّهم اقتبسوها من حجره، ولا نزل على نهرٍ إلا
كاثر دمعهُ ببجره^(٤): [من الطويل]

(١) نهاية الأرب ١٨/٨ وديوان القاضي ٤٨٢.

(٢) يستغيث) ليست في الأصل، وهي في النهاية.

(٣) في النهاية: فلا. (٤) الأبيات في ديوان القاضي ٤٨٨.

١٤٤/ / سقى الله تلك الدارَ عودةً أهلها
 لئن جَمَعَ الدهر المَشْتَّتْ شَمْلَهُ
 فكيف ترى أشواقَهُ بعد عامِهِ
 بعيدٌ قريبٌ منكمُ بضميرِهِ
 ترَحَّلَ عنكم جِسْمُهُ دون قلبِهِ
 إذا ماخَلتْ منكم مجالس ودِّهِ
 فياليل لاتجلب عليهم^(١) بظلمةٍ
 ونسأل الله تعالى أن يمنَّ بقربه ورحاب الآمال فسائح، وركابُ الهموم طلائح،
 والزمن المناظر بالقرب مسامح، هذا لك تُطَلِّقُ أعِنَّةَ الآمال الحواسب، ويهتَزُّ مُخَضَّرًا
 من السعود عودٌ يابس^(٢) : [من الطويل]

وما أنا من أن يجمع الله شملنا
 وقد كان الواجب تقديم عتبه، على تأخير كتبه ولكنه خاف أن يجني ذنباً عظيماً،
 ويؤلم قلباً عليه : [من الطويل]

ولست براضي من خليل بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليل
 وحاشا جلاله من الإخلال بعهود الوفاء، ومن انحلال عقود الصفاء، وما عهدتُ
 عزمه القوي في حلبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشية حُلُقِهِ إلا أرقَّ من مدامع غرماء
 الجفءاء : [من الكامل]

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْبَيْنُ يَصْدَعُ قَلْبَهُ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَقْلُقُ الْأَحْشَاءِ
 ومنه قوله^(٣) : في مثل ذلك :

كتب مملوكُ المولى^(٤) عن شوق قدَحَ الدمع من الجفون شراراً، وأجرى من
 سيل الماء ناراً، واستطال واستطار فما توارى أوارا، ووجد على تذكُّر الأيام التي^(٥)
 عذبت^(٦) قصارا، والليالي التي طالَتْ فكأنما خلقت^(٧) اسحارا^(٨) : [من الطويل]
 وبي غمرةٌ للشوقِ مِنْ بَعْدِ عَمْرَةٍ أخوضُ بِهَا مَاءَ الْجُفُونِ غِمَارًا

(١) في الأصل : عليه. (٢) ديوان القاضي ٤٩٠.
 (٣) نهاية الأرب ٢٠ / ٨. (٤) بعده في نهاية الأرب : الأجل.
 (٥) في الأصل : الذي.
 (٦) في الأصل : ذهبت، والتصويب عن نهاية الأرب.
 (٧) في نهاية الأرب : خلقت جميعها. (٨) الأبيات في ديوان القاضي ص ١١٢.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَكْرَةٌ بَعْدَ سَكْرَةٍ إِذَا هِيَ زَالَتْ لَا تَزُولُ حُمَارًا
 رَحَلْتُمْ وَصَبْرِي وَالشَّبَابُ وَمَوْطِنِي لَقَدْ رَحَلْتُ أَحْبَابُنَا تَتَبَارَى
 وَمَنْ لَمْ تُصَافِحْ عَيْنُهُ نُورَ شَمْسِهِ فَلَيْسَ يَرَى حَتَّى يُرَاهُ نَهَارًا
 سَقَى اللَّهُ أَرْضَ الْعَوْطَتَيْنِ مَدَامَعِي وَحَسْبُكَ سُحْبًا قَدْ بَعَثْتُ عَزَارًا
 وَمَا خَدَعْتَنِي مِصْرُ عَنْ طَيْبِ دَارِهَا وَلَا عَوَّضْتَنِي بَعْدَ جَارِي جَارًا
 أَدَارَ الصُّبَا لَا مِثْلَ رِبْعِكَ مَرْبَعٌ أَرَى غَيْرَكَ الرَّبِيعَ الْأَنْيَسَ قِفَارًا
 فَمَا اعْتَضْتُ أَهْلًا بَعْدَ أَهْلِكَ جِيرَةً وَلَا خِلْتُ دَارَ الْمُلْكِ بَعْدَكَ دَارًا

وما ضَرَّ اليَدَ الكريمة التي أياديها بيضاء في ظلمات الأيام، وأفعالها لا تقوم بمدحها إلا السنة الأستة والأقلام، لو قامت للمودة بشرطها ومحت^(١) خط الأسي بخطها، وكتبت ولو شطر سطر فقرعت قلباً من الهم مشحوناً، وأطلقت طرفاً في فضاء الاقتضاء مسجوناً^(٢)، ونزهت ناظر الملوك في رياض منثورة الحلى، وجلت غمومته^(٣) بمكارم مأثورة العُلا: [من الطويل]

وَمَا كُنْتُ أَرْضَى مِنْ عِلَاكَ بِذَا الْجَفَا وَلَكِنَّهُ مَنْ غَابَ غَابَ نَصِيْبُهُ
 وَلَوْ غَيْرُكُمْ يَرْمِي الْفَوَادَ بِسَهْمِهِ لَمَا كَانَ مِمَّنْ قَدْ أَصَابَ يُصِيبُهُ^(٤)
 وَالْمَمْلُوكُ مَذَّ حَطَّتْ بِمِصْرَ أَثْقَالُهُ، وَجَهَّزَ الشَّامُ رِحَالَهُ، وَالْقَتُّ النَّوَى عِصَاهَا،
 وَحَلَّتْ الْأَوْبَةُ عِزَّهَا، يَكْتُبُ فَلَا يُجَابُ، وَيَسْتَكْشِفُ الْهَمَّ بِالْجَوَابِ فَلَا يَنْجَابُ^(٥). [من
 الكامل]

يَا غَائِبًا بِلِقَائِهِ وَكِتَابِهِ هَلْ يُرْتَجَى مِنْ غَيْبَتِكَ إِيَابُ
 وَمَا^(٦) يَصْفِي اللَّهُ وَرَدَ الْحَيَاةَ مِنَ التَّكْدِيرِ، وَيَتَحَقَّقُ بِلِقَائِهِ أَحْسَنُ التَّقْدِيرِ ﴿وَهُوَ عَلَيَّ
 جَمْعُهُمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(٧). [من الخفيف]
 وَزَمَانٌ مَضَى فَمَا عُرِفَ الْأَوْ
 وَلُ إِلَّا بِمَا جَنَاهُ الْأَخِيرُ^(٨).

(١) في الأصل: وأمضت، وهو تحريف.

(٢) في نهاية الأرب: صبراً في يد الكمد مسجوناً.

(٣) في النهاية: عهوده.

(٤) بعده في نهاية الأرب وهي له في ديوانه ص ٤٨٢:

وَمَالِي فِيمَنْ فَرَّقَ الدَّهْرَ أَسْوَةً كَأَنَّ مَحَبَّاً مَانَةً حَيْبُهُ

(٥) ديوان القاضي ص ٤٨٢. (٦) في نهاية الأرب: وقتي.

(٧) سورة الشورى: ٢٩. (٨) ديوان القاضي ص ٤٨٩.

أين أيامنا بظلك والشَّمْ - لُ جميعُ والعيشُ غَضُّ نَضِيرُ
وحوشي المولى أن يكون عوناً على قلبه، وأن يرحل إثره الذي مُذ سارَ سَرُّ
به^(١) وأن ينسيه بإغباب الكتب ساعات قربه، وأن يُحوجه إلى إطلاق لسانه بما يصون
السمع الكريم عنه من عثبه. الأخ فلان مخصوصٌ بسلام كما تفتحت عن الورد
كئامه، وكما توضححت عن الفكر غمائه. [من الطويل]

إذا سار في تُرْبٍ تعرّف ترُبها برياه والتفت عليه لطائمه^(٢)
وقد تبع الخلق الكريم في الاغباب والجفوة، وأعدت عزائمه قلباً فاستويا في
الغلظة والقسوة. [من مجزوء الكامل]

إن كنت أنت مفارقي من أين لي في الناس أسوه
وهب أن المولى اشتغل - لا زال شغله بمساره، وزمنه مقصور على أوطاره - فما
الذي شغله عن خيله، وأغفله عن تدارك غليله؟ هذا وعلائقه تقطعت، وعوائقه قد
ارتفعت. وروضة هواه قد صارت بعد الغضارة هشيما، وعهوده قد عادت بعد
الغضاضة رميما: [من الخفيف]

إن عهداً لو تعلمان ذميما إن تناما عن مقلتي أو تُنيما
وما أولى المولى أن يواصل بكتبه عبده، ويجعل ذكره عقده، ولا يقصيه^(٣)
ويألف بعهده. ويستبدل غيره بعهده.

ومنه قوله^(٤) في ذلك أيضاً: [من مجزوء الخفيف]

أكذا كل غائب غاب عمّن يحبّه
غاب عنه بشخصه وسلا عنه قلبه
لو أن لي يداً تكتب، أو لساناً يُسهب، أو خاطراً يستمل، أو فؤاداً يستدل لو
صفت إليه شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عقدها، أو نزل بالجوانح أسعر وقدها، أو
تنفس مشتاقاً أعان على نفسه، وظنه استعارة من قبسه. أو ذكر (محب)^(٥) حبيباً خطر
في خلده، وتفادى من أن يخطر به ذكر جلده^(٦): [من البسيط]

حتى كأن حبيباً قبل فرقتيه لا عن احبته ينأى ولا بلده

(١) في نهاية الأرب: وإن يرحل إثره أي على سريره.

(٢) اللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك.

(٣) في نهاية الأرب: ولا ينساه.

(٤) نهاية الأرب: ٢٢/٨، والبيتان في ديوان القاضي ص ٤٨٢.

(٥) ديوان القاضي ٤٨٦.

(٦) عن نهاية الأرب.

بالله لا ترحموا قلبي وإن بَلَغْتُ بهِ الهمومُ فهذا ما جنى بيدهِ
ولولا جاؤوه أن أوقات الفراق سحابةٌ صيفٍ تقشعها الرياح، وزيادة طيف / ١٤٧/
يخلعها الصباح، لا ستطار فؤاده كمداً، ولم يجد ليوم موعده^(١) غداً، ولكنه يتعلل بميعاد
لقياه، ويدافع ما أعله بلعله وعساه^(٢): [من الطويل]

غنى في يدِ الأحلام لا استفيدهُ ودَيْنٌ على الأيام لا أتقاضاهُ
ومن غرائب هذه الفرقة، وعوارض هذه الشقة أن مولانا^(٣) قد بَخِلَ بكتابه. وهو
الذي يداوي به أخوه غليل اكتبابه، ويستعدي به على طارق الهم إذ لَجَّ في انتيابه^(٤):
[من المنسرح]

كمثل يعقوبَ ضلَّ يوسفُ فاعتاصَ عنه بشم أثوابه
وهب أن فلاناً عاقه عن الكتب عائق، واختدعَ ناظره كمن هو في ناضر عيش
رائق، فما الذي عرض لمولاي حتى صار جوهر ودّه عرضاً، وجعل قلبي لسهام
إعراضه عرضاً. [من البسيط]

بي منه ما لو بدا بالشمس ما طلعت من الكآبة أو بالبرق ما ومّصاً^(٥)
وما عهدته - أدام الله سعاده - إلا وقد استراحت عواذله، وعُرِّيَ به أفراس الصبا
ورواجله. إلا أن يكون قد عاد إلى ذلك اللجج، ومرض قلبه وما على المريض من
حرج، وأي^(٦) ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها، ونفسي
أسيرة غلّة لا أطيقها بل أطيعها: [من الطويل]

وأني لمشتاقٌ إليك وعاتبٌ عليك ولكن عتبه لا أذيعها
الأخ النظام - أدام الله انتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجد بلقائه -
مخصوصٌ بالتحية الأريحية^(٧)، ووالهفاً على تلك السجية السخية، وردت منها البابلي
معتقاً^(٨): [من الطويل]

خلائقُ إمّا ماء مُزِنٍ بشهدهِ أغادي بها أو ماء كرم مُصَفَّقا
ومنه قوله:

- (١) في نهاية الأرب (مسرته أمدًا). (٢) ديوان القاضي ٥١٦.
(٣) في نهاية الأرب: مولاي. (٤) ديوان القاضي ص ٤٨٣.
(٥) البيت لابي العلاء المعري: سقط الزند / ٦٥٤.
(٦) في الأصل: والخاء وهو تحريف. (٧) في نهاية الأرب: بالتحية إثر التحية.
(٨) بعدها في نهاية الأرب: وظلت من أسر الهموم بلقائها معتقاً.

لو كَاتَبْتُ سِيدِنَا بِمَقْدَارِ شَوْقِي لِأَضْجَرْتُهُ، وَلَوْ أَعْبَيْتُهُ بِمَقْدَارِ ثِقَتِي بِهِ لَهَجَرْتَهُ.
ومنه قوله:

وَوَصَفَ فِي كِتَابِ شَوْقًا أَعَانَهُ عَلَى وَصْفِهِ مِنْهُ مَا أَخَذَ لِي مَنِي، وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ
وَأِنَّمَا أَخْبَرَنِي عَنِي.
ومنه قوله:

كَتَبُ الْحَضْرَةَ لَوْ تَتَابَعْتُ / ١٤٨ / وطالت عندي بمنزلة المقتنص البهجة، المبتكر
اللذة، فكيف وهي لا تصل إلا وتُرا، ولا تزور إلا غبا، ولا ترخص للهائم إلا في
النهلة، ولا تنفس حناق المشتاق إلا بعد المهلة، وهي في أوسع العذر لأشغالها،
وفي أضيقة لأشواقِي، وقد نالت بأول كتبها كل المودّة، فهي لا تتعب نفسها في طلب
الباقي، وأين ذلك الباقي وما أشبه هذه القصة بقول جميل^(١): [من الطويل]
إِذَا نَظَرْتُ قَالَتْ ظَفِرْتُ بِوَدِّهِ وَمَا ضَرَّنِي بُخْلِي فَكَيْفَ أَجُودُ
وما المراد ما يُحمل فيه على خاطر، فقط عُرفت محاسنه العُمر، ولا أن يتأني
بقدر الرقي إلى الدراري، والغوص على الدرر، وعلى ذكر جيل، فأحسن قوله^(٢):
[من الطويل]

وَأَنِي لِرَاضٍ مِنْكَ يَابِثُنُ بِالَّذِي لَوْ اسْتَيْقَنَ الْوَأَشِي لَفَرَّتْ بِلَابِلِهِ
ومنه قوله في ذلك أيضاً^(٣):

إِنْ أَخَذَ الْعَبْدُ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِ الْمَجْلِسِ وَثَبَّتْ رَفَعَتُهُ^(٤) - فِي وَصْفِ أَشْوَاقِهِ إِلَى
الْأَيَّامِ الَّتِي كَانَتْ قِصَارًا، وَأَعَادَتِ الْأَيَّامَ بَعْدَهَا طَوَالًا، وَاللَّيَالِي الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ
أَنْوَارٍ وَجْهَهُ شَمُوسًا، وَمِنْ رَغْدِ الْعَيْشِ فِي دَارِهِ ظَلَالًا^(٥): [من الطويل]
وَجَدْتُ اصْطِبَارِي بَعْدَهُنَّ سَفَاهَةً وَأَبْصَرْتُ رَشْدِي بَعْدَهُنَّ ضَلَالًا^(٦)
وإن أخذني ذكر ما ينطق به لسانه من ولاء صريح، ويعتقل جنانه من ثناء
فصيح^(٧): [من الطويل]

تَعَاطَى مَنَالًا لَا يُنَالُ بِعِزْمَةٍ وَكُلُّ اعْتِزَامٍ عَن مَدَاهِ طَلِيحٍ
ولكنه يعدل عن هذين إلى الدعاء، بأن يقيه الله للإسلام - صدرًا، وفي سماء

(٢) ديوانه ص ١٦٩.

(١) ديوان جميل ص ٦٣.

(٣) نهاية الأرب: ٢٤/٨.

(٤) بعده في نهاية الأرب: وبسط بسطته، ومكن قدرته، وكبت حسدته.

(٦) في الأصل: ضلال.

(٥) ديوان القاضي ٤٩٦.

(٧) البيت في ديوانه ص ٥٠٤.

الملةً بدرأً، وفي ظلمات الحوادث فجراً، وأن يجمع الشمل بمجلسه، وعراضُ
الآمال مطلولة، وسهام القرب على نحور العبد مدلولة، وعقود النوى بيد اللقاء
محلولة، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾^(١). [من الطويل]

فقد يجمعُ الله الشئيتينِ بَعْدَمَا يظنَّانِ كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا^(٢)
وما رمث به النوى مراميها، ولا سلكت به الغربة مهاويها^(٣)، ولا استجد شوقه
من الجفون مافيها^(٤). [من مجزوء الكامل]

أغلت^(٥) على السلوانِ شوقكم فما باعت كما أمر الغرام من اشترى^(٦)
١٤٩ / ومُدُّ فارقت تلك الغرة البدرية، والطلعة العزيزة (العزيزة)^(٧) ما ظفرت
شخصه نوما ولا بكتابه يوما: [من الطويل]

فيا عجباً حتى ولا الطيف طارق

[من الطويل]

وأعجب له في الحرب نثر كتائبٍ بكفت أبت في السلم نظم كتاب^(٨)
يحاسبني في لفظية بعد لفظية ومعروفه يأتي بغير حساب
ولو رضيت - وكلا - بأن أحمل من هذا الجفاء كلاً لما رضي به خلقه الرضي،
ولأخذ بقول الرضي^(٩): [من الطويل]

هبوني ارضاني الاياس بهجركم أيرضى لمن ترجوه مادون وصله
ومنه قوله يتشوق^(١٠): [من الطويل]

فيا رب إن البين أضحت^(١١) صروفه عليّ ومالي من معين فكن معي
على قرب عدالي وبعد أحبتي وأمواه أجفاني ونيران أضلعي
هذه تحية القلب المعذب، وسريرة الصبر المذبذب، وظلامه عزم السكون^(١٢)

(١) سورة فاطر: ٢٠. (٢) البيت للمجنون: ديوانه ص ٢٩٣.

(٣) في نهاية الأرب: مواميها. (٤) في نهاية الأرب: هاميا.

(٥) هذا البيت كما في نهاية الأرب من أبيات في رسالة أخرى عن صلاح الدين إلى تقي الدين بن عبد الملك.

(٦) في الأصل: استرى، والتصويب عن نهاية الأرب.

(٧) عن نهاية الأرب. (٨) ديوانه ٥٠٤.

(٩) الأبيات ليست في ديوان الرضي.

(١٠) نهاية الأرب: ٣٠ / ٨، وصبح الأعشى ٢٧٤ / ١، والبيتان في ديوانه ٤٩١.

(١١) في نهاية الأرب: انحنت، وهي أفصح.

(١٢) في مصادر النص: السلو.

المكذب. أصدرتها إلى المجلس، وقد وقد في الحشا نارها، والزفير أوراها،
والدموع شرارها، والشوق آثارها. [من الكامل]

لو زارني منكم خيالاً هاجراً لهدته في ظلماته أنوارها^(١)
وإلى الله^(٢) يرغب أن يجعله بالسلامة مكنونا، وصرف الحديثان عن ساحته
مكفوفاً^(٣) ووفود الرجاء على أرجائه عكوفاً، وأن يمتع الوجود^(٤) بوصفه الذي هو
أشرف من كل وحيد^(٥) موصوفاً. [من الكامل]

من كان يُشرك في علاك فإنني وجّهت وجهي نحوهنّ حنيفاً^(٦)
وقد كان ينتظر كتابا يشرفه ويشنّفه، ويستخدمه على الوامر ويصرفه، ويجتني به
ثمر السرور غص الكأس ويقتطفه، فتأخر ولم يحدث له التأخير ظناً ولا صرفه أن
يعتقد أن مولاه لا تحدث له الأيام بخلاً بفضله ولا ظناً [من الطويل]

ولو تُصرف السحب الغزار عن الثرى لما انصرفت عن طبعك السيم الحسنى
/ ١٥٠ / وهو ينتظر من الأمر والنهي ما يكون عمله بحسبه، وما يثبت^(٧) له عهد
الخدام بنسبه.

ومنه قوله في ذلك^(٨): [من الطويل]

ومن عجب أني امن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
كتبت والعبرات تمحو السطور، ويوقد ماؤها نار الصدور، وتهتك وجداً كان
تحت الستور، وترسل من بين أضلعي نفس الموتور [من الخفيف]

قد ذكرنا عهدكم بعدما طأ لت ليال من بعدها وشهور
عجباً للقلوب كيف أطاقت بغيركم ما القلوب إلا صخور
وما وزدت الماء إلا وجدت له على كبدي وقد لا برداً، ولا تعرضت لنفحات

(١) ما بعده في نهاية الأرب ٣٥/٨ من رسالة أخرى.

(٢) بعده في نهاية الأرب: سبحانه وتعالى.

(٣) بعده في النهاية: وعنان الصروف عن فنائه مصروفاً.

(٤) في نهاية الأرب: الوجه. (٥) في نهاية الأرب: وجه.

(٦) ديوان ٥٠٩.

(٧) في نهاية الأرب: ويثبت.

(٨) نهاية الأرب ٣٦/٨، إلا أنه جعل الأبيات ضمن الرسالة السابقة، وبعدها: وكتب أيضاً، وهو خلط

النسيم إلا أهدي إليّ جهُداً، ولا زارني طيفُ الخيالِ إلا وَجَدَني قد قطعْتُ طريقَهُ
 سُهْداً، ولا خطفَ البارِقُ الشاميُّ فأراه قلبي^(١) حُفُوقاً وَوَقْداً: [من المتقارب]
 وأيسرُ مانالِ مني الغلي - بل أن لأحسُّ من الماءِ برّداً
 فسقى الله داره ماشريت من الغمام، وأيامنا بها، وبدور ليالي تلك الأيام تمام:
 [من الكامل]

ذمُّ المنازلِ بعدَ منزلةِ اللّوى والعيشَ بعد أولئك الأقسام^(٢)
 وكان قد وصلَ منه كتاب كالطيف أو أقصر زوراً، وكالحبّ أو أظهر جوراً، أو
 الربيع أو أبهرُ نورا، أو النجم أو أعلى طوراً، أو الماء الزلال أو أبعدُ غوراً، فثرت
 عليه قلبي، وجعلتُ [سطوره قلبي]^(٣) بل قلبي، ووردتُ منه مورداً: [من البسيط]
 أهلاً به وعلى الاظماء^(٤) أنشدُهُ لوبلّ من غللي أبللتُ من عللي
 إلا أنه أبقاه الله ما عززه بثان ولا آنس غربته، واني وإياه غريبان [من الطويل]
 وكم ظلّ أو كم باتَ عندي كتابه سمير ضميري أو جنان جناني
 وأرغب إليه - لا زالت الرغباتُ إليه - وأسأله لا جثم^(٥) السؤال إلا لديه أن
 يلاطف بكتابه قلبي^(٦) ويمثل لي بمثاله أيام قربي: [من مجزوء الكامل]

والله لولا أنني أرجو اللقاء لقضيتُ نحبي
 / ١٥١ / هذا ومافارفتُكم لكنني فارقتُ قلبي
 ومنه قوله جواب كتابٍ ورد عليه^(٧): [من الطويل]

شكرتُ لدهري جمعه الدار مرةً وتلك يدٌ عندي له لا أضيعُها^(٨)
 ورد على الخادم كتاب المجلس - أعلى الله سلطانه وثبته وأرغم أنف عدوه،

(١) في نهاية الأرب: إلا باراه قلبي.

(٢) البيت لجرير بن عطية، ديوانه ٩٩٠/٢.

(٣) سطوره قلبي، ساقطة من الأصل، وهي في نهاية الأرب، وقلبي بكسر القاف: تجاهي، والتي بعدها القاف مكسورة أيضاً جمع قبله بضم القاف.

(٤) رواية البيت في الأصل:

أهلابه وعن الظلماء أنشدُهُ لوبلّ من غللي او ابللتُ غللي
 والتصويب عن الديوان ص ٤٩٧ ونهاية الارب ٣٧/٨.

(٥) في نهاية الأرب: لاخيم. (٦) في الأصل: قلبي.

(٧) نهاية الأرب: ٣٨/٨.

(٨) بعده في نهاية الأرب:

وكتبته وأصماه بسهام انتقامه وأصمته، ولا أخلى الدنيا من وجوده، كما لم يُخل أهلها من وجوده، ولا عطلّ سماء المجد من صعوده، كما لم يُعطل أرضها من صعوده، فقام له قائماً على قدمه، وسجد في الطرس مماثلاً^(١) سجود قلمه، واسترعى الله العهد على أنه تعالى قد رعى ما أودعه في ذمة كرمه، وصارت له نجران علاقة خيرٍ صرف إليه وجهه فكانها قبلة، ودعا بني الآمال إلى اعتقاد فضل مالکها، فكانما يدعوهم إلى ملّة، والله يوزعه شكر هذا الافتقاد على البعاد، ولا يُخلّيه من هذا الرأي الجميل الذي هو عقد الاعتقاد^(٢).

ومنه قوله^(٣):

وَرَدَّ كِتَابٌ، ووقفَتْ منه على ما لا يجد الشكرُ عنه محيداً، وأنستْ به القلب الذي كان وحيداً، وعددتُ يوم وصوله السعيد عيداً، ووردتُ منه بئراً معطلة، وعللتُ قصرأ مشيداً، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وتلك الغاية ليست في وسعي. ولا تعلم نفسٌ إلا ما طرقت سمعها، وتلك المحاسن ما طرقت مثلها سمعي، وهذه الأوابد الأبعاد ما طالها ذراعي، ولا استقلّ بها ذرعي.

ومنه قوله^(٤):

المملوك يقبلُ التراب الذي يوماً يستفرّ بحوافر سَيْلِهِ، ويوماً يستقر بحوافر خَيْلِهِ، فلا زال في يوم السلم^(٥) جوده سحاباً صائبا، وفي يوم الحرب شهاباً ثاقباً، ويُنهى أنه وَرَدَتْ عليه المكاتبة التي استيقظتُ بها أماله من وَسْنِهَا، وأفادته معنى من الجنة، فإنها^(٦) أذهبتُ ما بالنفس من حَزْنِهَا، وتلقَى المملوك قُبْلَتَهَا بالسجود والتقبيل، وتحلّى بعقود سطورها، فهيهات بعد هذا شكوى / ١٥٢ / التعطيل، واكتحل من داء السهد بإثمدها، وأدار على الأيام كأس مرقدتها، وسمعته نَعَمَ النعم التي هي أعجب إلى النفس من نعمات معبدها^(٧)، وأطالت الوقوف عليها بركاب طرفه فما وقوف

وطلعة مولانا يطالع عبدهُ وكلّ ربوع كان فيها ربوعها
فراؤد سقاه لا يعودُ عليهُ وعينُ رأته لا تفيض دموعها

(١) في نهاية الأرب: ممثلاً.

(٢) في نهاية الأرب: ملجأ الاستناد، وعقد الاعتقاد.

(٣) من جواب في نهاية الأرب: ٣٩/٨. (٤) نهاية الأرب ٤٠/٨.

(٥) في الأصل: السيل: والتصويب عن نهاية الأرب.

(٦) في الأصل: أنه.

(٧) يريد به معبد بن وهب إمام أهل المدينة في الغناء. مات بدمشق عند الوليد بن يزيد الأموي (الأغاني ٣٦/١).

ركاب طرفة ببرقةٍ ثمهدا^(١). وضرع إلى مَنْ يشفع وسائل المتضرعين، ويملاً مواقع آمال المتوقعين، أن يَغُلَّ عنه كلَّ يدٍ للخطوب بسيطة، ويفك به كل رقبَةٍ للأيام بأعناقٍ منها محيطة^(٢).

ومنه قوله:

وصل كتاب الحضرة السامية، لا زالت رياض نباتها متفاوحة، وخطرات الردى دونها متنازحة، والبركات إلى جنابها متوالية، والليالي بإبراز سعادتها متلالية، والأيام الجافية عن بقية الفصل منها متجافية، تنحر إليها المكرمات إذا لم تكن لها فته فأنشده ضالة هوى كانت سدى، ورفع له ناراً موسوية سمع عندها الخطاب، وأنس الخير، ووجد الهدى، وكانت نار العليل في فؤاده بخلاف نار الخليل، فإنها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون برداً وسلاماً، ولا يُرى إلاّ أضرى ما يكون ضراماً، وشهد الله لقد كان العبد حصر القول نشوزاً، منذ فارقتها على تلك الصفة، فلا هو قضى من حقّها فرائض لَزِمَتْ والله وتعيّنت، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه الشهادة أذِنَتْ، ولا الأيام بالبعد ما أساءت فإنها بالقرْبِ ما أحسنت: [من الطويل]

وان امرأً يبقى على ذا فؤادُهُ ويخبر عنه إنّه لصبورٌ

ونعود إلى ذكر الكتاب الكريم، فإنه سجد لمحرابه وسلم، وحسنت سطوره فحسبها مباسم تتبسّم، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل، وكلمه ولا يتكلم، وهَطَلَ جفنه، وقد كان جمادى، وتصفّحه وقد كان على تصفّحه المحرّم، وجدّد له صبايةً لا يَصْحَبُها أمل، وخاف أن لا يدرك الهيجا حَمَل^(٣). وقال الكتاب: [من البسيط]

إنّا مُحْيِوكَ فاسلّم أيها الطَّلَل^(٤)

وأنشد نيابة عنها^(٥): [من الطويل]

(١) إشارة إلى قول طرفة بن العيد:

لخولة اطلالٌ بْبُرْقَةٍ ثمهدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(٢) في نهاية الأرب: ويفك به كل رقبَةٍ للأيام بأعناقٍ بينها محيطة.

(٣) من قول الراجز:

لَبَثَ قليلاً يلحقُ الهيجا حَمَلٌ ما أحسنَ الموتَ إذا حانَ الأجلُ

(٤) شطر بيت للقمامي وعجزه (ديوانه ص ٢٣):

وإنّ بليتَ وإنّ طالت بك الطويل

(٥) ديوان القاضي: ٥٢٠.

وإن بلاداً ما أحتلت بي لعاطلٌ وإن زماناً ما وفى لي لخوان
 /١٥٣/ والله المسؤول لها في عاقبة حميدة، وبقية من العمر مديدة، فإنها الآن
 نوح أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها، ولا غرو أن بلغ عمره مدة
 عمرها، على أنه يتحقق خلودها في الجنة بعملها، وفي الدنيا بذكرها، وأن الدارين
 تتغايران على عقائل فخرها، ولا يتأخران عن اجرائها على عاداتها في دفع قدرها،
 وعلى أنها طالما أقامت على الدنيا السكرى، حين أقامت في حدها من العمر
 الثمانين، وأدبت الأيام بسلاح الحرب من سيفها، وسلاح السلم من قلمها تأديب
 الخائنين وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقَتْ إليها السلم، فوضعت الحرب
 أوزارها، وما استقلت بآية موسى إلا لتعجز بها انهار الخواطر، وتضرب بحارها،
 وما هي إلا رمح وكفى بيدها سنانا، وما هي إلا جواد تجنب السنين خلفها فتكون
 أناملها لها عنانا.

وقوله:

ولعله الآن قد عوفي من الأمرين، وقرت بوجهه العين، وجدد عهده بنظره،
 وقرب عليه لسانه اسناد خبره، وبلت منه غلة الحاتم، ورأت منه هلال الصائم،
 وطالعتها وجه الزمان المغضب بصفحة الباسم، ووفى مواعيد الأنس من الضامن
 الغارم، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد، ويستمد الوفاء من غرس ذلك
 العهد، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم، موضع الطوق من الحمام، يتقلده فلا
 يخلع ويعجبه فلا يكاد يسجع، ويحكيه طوقاً على الأسي، إلا أنه بدر الدمع يرصع
 وإذا أنعم به فليكن مع ثقة، ويخشى أن يكون هذا الشرط له قاطعا، بل مع من اتفق
 فإنه كالمسك، لا يدعه العرف الضائع أن يكون ضائعاً^(١) [من الكامل]

اكتبته تكتب لي أماناً ماضياً وابعثه تبعث لي زماناً راجعاً^(٢)
 إن اشتريه بمهجتي فقليلة فاسمح به فمتى عرفتك مانعاً
 ومنه قوله:

وقف الخادم على ما شرف به طبعه، وشنف به سمعه، وضيق سعة ذرعه، من
 العتاب الذي حفض له الجناح، واستعذب به الجراح، وأسر منه بقيد أسي مستطاب،
 لا يراد منه السراح، وقذف به /١٥٤/ في لهوات ليل لم يودّ يتسم فيه الصباح، وقد

(١) البيتان في ديوانه ص ٤٩٢.

(٢) ديوان القاضي: ٥٠٠.

علم الله أنه بريء من كل ما يوجب المذام ويطلق ألسنة الملام، وملىء من الخدمة بما لا يغضى فيه عن حق سبقه لأحد من الخدام، وأنه لجواد يبذل جهده، وما عليه أن تجلب الأيام، وأنه لمستيقظ من حقوق الخدمة، إلا أن حظّه من أهل الكهف لطول المنام، وما كان تأخره عن المكاتبات التي يخدم بها مجلسها، ويقترح بها من الإجابة قبسها، إلا الرغبة أن يكون مقترناً بحصول أمرٍ، فما اسعفته الأقدار بمراوده، ولا نجاح رائد اجتهاده، وكتب هذه الخدمة حين احصر على ما استيسر من الهدى، قد ركب من قديم الاخلال حد النهي، متبرئاً من التقصير الذي ما هو منه ولا إليه، ومعولاً في العذر الذي ما كان مخلوقاً قبل خلق يديه، ووصل الأميران فعظم الأنس بمقدمهما الكريم، وقدما إلى بلاد صارت كظل رامة لا يريم، ولا يؤدي يومه الجديد ما كان يؤديه أمسه القديم، وكيفما حلّ أهل هذا البيت، فهم في كل بيت صدوره، وفي كل مطلع نجومه وبدوره، لا تزال أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تتبدل أقدارهم في مصونات المجامع: [من البسيط]

يحميه لألاؤه ولودعيته عن أن يُذال بمن أو ممن الرجل
 كأن الأرض بهم سماء، فإنهم طوالعها، وكأنّ الدنيا بهم رياض، فإن أوجههم
 زهرها، وأيديهم مشارعها، وما يدع العبد غايةً من الخدمة لهما إلا بلغها، واعتذر،
 واجتهد، ورأى أنه قد قصر. لا زالت الأيام ناظمة لعقد المجد ببقاء الواسطة ولا
 برحت الجتة العليا مصرفة بأيديهم الباسطة.
 ومنه قوله:

سطر هذه الخدمة ثبت الله قواعد مجده وأرساها، ولا ابتز أفنيته حلاها من
 السعود وكساها، وقرن بالسكون والأنوار مصبحها وممساها، في ساعة رحيل قد غرد
 حاديه، وسال شطّ واديه، وكان يؤمل اجتماعاً يغنيه عن تحمل منن الأقلام
 وصنائعها، ويدنيه من مشافهة الأنوار التي إلى اليوم ما تناست العيون فضل ودائعها،
 فاحصرته الأنوار دون منسكه، / ١٥٥ / وعثرته الأيام بذيل العجز في مسلكه، وعزت
 جناحه بما لم يستقل مجاذبته من شركه، فسارت الراية الناصرية نصرها الله: [من
 الكامل]

واقمت بعدد وللزمان عجائب منها ترحل مهجتي ومقامي
 ويعزّ عليه أن لا يتطوف بربعه، ولا يرى الديار إلا بسمعه، ورضى بما يرضي
 الرضي ساكن سلعه.
 ومنه قوله:

وصل إلى خادم المجلس - لا زال جفن الدهر عنه كليلاً، ولا برح مجده فوق مفرقة إكليلاً، ورأيه في غياهب الأمور فجرأ ساطعاً، وفي مفاصل الخطوب سيفاً قاطعاً، وشعاع صوابه في ظلام المشكلات شائعاً -، كتابٌ منه فكٌ منه قفل النفس من أسرها، وحاز لها الاماني بأسرها، وتغلغل لطفاً في القلوب إلى حيث مستقر المستودع من سرها، وحدد له لهفا لولا التماسك لهفا قلبه بأدنى انفاسه، وتدرج من سهام الدهر به ولا غرو أن يدخر لباسه لبأسه، وأما الكتب المنعم بها على يد فلان، فلم يصل شيءٌ منها، والطرف بها معقود، والقلب إلى حيث ورودها مورود، ولا شبهة في أن الطرق كالخواطر، وما يعني إلا خواطر نفسه مربوطة لا تنفذ مسالكها، وكم طالع فكرة مظلمة لا تنجلي حوالكها، وهو من كتب المجلس - أدام الله نعمته - بين روضةٍ قد تلاحقت غرر محاسنها، وتناسقت دُرر معادنها، فمن نورةٍ في كمام، وزهرةٍ في نظام، وثمرهٍ في تمام، ونضرةٍ في ضحى وعبقةٍ في ظلام، فهو من واصلة ومتواصلة، وواقعةٍ ومتواقعة، وطالعةٍ ومتطلعةٍ ويانعةٍ ومتنوعةٍ، لا خلّت من صوب سحاب خاطره الروي بروضها ويروضها ويرفع مياسم الجدوب ويقضّها ويفوضها، وما يحسبُ الخادم أن هذا الكتاب إلا مساوقاً لوصول الركاب الناصري إلى الشام، فهيناً له أن زاره السحاب الطبق، والربيع الطلق، وأن أضاء بمحضره فج، وأظلمت بمغيبه فجاج، وأن خمدت للمخافة نار، واتقدّ /١٥٦/ للأمنة سراج وهّاج، ومصر وإن كانت داراً، ماخرج منها إلى الشام إلاّ دهليزها، فإنه عزيز عليها والله وعلى أهلها فراق عزيزها، وأما حالّ الخادم بعد فرقة الركاب المشكور، فوالله لقد عرد قلبه من أمره، ووعد بما لم يف به، إلا من سلوه بل من صبره، وسار بعد ذلك القلب فما وجد منه عزيمة فيطالبه بموعد نصره، وما خالف عادة تسرّعه، وأخلف عدة تبرّعه، إلا أنه كان في غير سفرة ما كان نفض غبارها، وفي اعلال فرقةٍ ما كانت كفأت اسارها، ولا سيما بعد أن أطلعت الأربعون شرفها ونصبت الخمسون هدفها، فانكر تلك التي كان عرفها، وفارق عصر شببته وما وجد في المشيب خلفها، ولحق أمله بيدنها وكلاهما قد أنهج وقربته الخمسون مع معترك الستين، وكلاهما قد أزعج، والله المسؤول في يقظة قلبٍ وعين، وصحبة تبيين قبل صيحة بين، والله المشكور إذا أغشى عن المجلس عيون الأيام ولواظها، وأفهمه إشارات الدنيا ومواعظها، فقد أبطل بعصاه سحرها، وفصح بقلمه سرها، وانتضاها فقطع بها ولم تقطعه، ولبسها فخلّعها ولم تخلّعها، وانتظم أيامها في سلك أعوامه، وعصب أهلها حتى أنوارها، والقى الجنى على قوامها لا على قوامه، فلا زالت في عمر وريق الأفنان، وثيق

الأركان تتزوّد كلّ يوم فيما تتزوّد، ويشتدُّ ركنها، ويتأيد ولا يتأود.
ومنه قوله رحمه الله:

أدام الله أيام المنجس وأيدته في كل مقام ومقال، ووسّع له كلّ مجال ومنال،
وأفقد له كلّ رسم ومثال، وحرّس عهود سعوده من الانتقال والملال، ولا زال مفيد
الفوائد، معروف العوارف. منصور الانصار ظليل الظلال، ورفع علمه، وثبت قدمه،
ونصر سيفه وقلمه، وكرم شيمه وهممه، وعزز موارد جوده وديمه، وأعدى بها كلّ
ولي على الدهر إذا ظلمه. ورّد كتاب مولانا الذي هو مولى الكتب وسيدها وأوحدها.
ومورده /١٥٧/ على القلوب منهلها العذب وموردها، وفيه من الأنعام ما لا سبيل
إلى شكره، بل إلى شكره بلسان ذكره، وما لا يقوم الخادم بواجب حق نشره إلى يوم
نشره، وكان وصول الكتاب الكريم والخادم على قلق لتأخر الكتب وإبطائها، وشذوذ
الترسل وتوالي خواطر استدعائها، وقد قابل تأخر الكتب المظفرية تأخر الكتب
الناصرية، وتعاونت الشواغل على الخواطر، وتواحي طيف خيال السكون من
جانبيهما، لجفوة ناظر المشفق الساهر، ولا جرم أن وصولهما صبحت به بكرة يوم لا
يومين، فكأنما كانا على ميعاد، وطرقت الليلة بتوأمين بكتابيهما، فسقياً ليلية هذا
الميلاد، ووقف المملوك على مافي الكتاب المظفري، ولائح الأمر أن المولى قد قلاً
مصر وجفاها وأنه خلّى الديار تستوحش ممن بناها: [من الوافر]

فإن ترك العراق وساكنيه فقد تُمنى المليحة بالطلاق

والمولى إذا حلّ في مكان نهضت عواثر جدوده، وطلعت طوابع سعوده، وكان
بنفسه عسكرياً، وبذكره عديداً مستكثراً، وجدّد من عزّمه حديثاً مذكراً، ولم يحتج معه
إلى جيوش في ديوان، ولا إلى سيوف في أجفان، وقام بنفسه النفيسة مقام الفئه،
وأقلق العدو في موطنه، وحرّم عليه موطنه، والخادم خادم أغراض الخلق في هذه
الدلالة، ولسانه نائب عن ألسنتهم في هذه المقالة: [من الطويل]

ولو سَكُّتوا أثنت عليك الحقائق^(١)

ومنه قوله رحمه الله:

ورّد على المملوك - أدام الله ورود السعود على الجناب الملكي المظفري ولا
زالت السعود تصحبه، والنوب تخدمه، والشفاه تلم ترابه، والسعادة تستمطر سحابه،

(١) عجز بيت لنصيب بن رباح، وشطره (ديوانه ص ٥٩):

فَعَاجِبُوا فَأَتْنَا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ

والوفود تلتزم أبوابه، والأيام تهيب حجابيه، وتيجان الملوك تحف ركابه، والأقذار تُقرب آرابه، والنصر يغلب أحزابه - مواهب مولانا المسماة كتباً، وآثار سحبه التي أنبتت من الأسطر عشباً، ولحظت حظه الحجري /١٥٨/ فأعجب وأعشب، إن السعادة لتلحظ الحجر فيدعى رباً، ولا برحت نعمة مولانا فوق شكر الشاكرين، وكتبه واحة قلوب المنتظرين، وعقله عيون الناظرين، ووصل ما سير من الحمل إلى الخزانة على يد جامع ورفقته، في وقت الحاجة الداعية، والخلة البادية، والضرورة المتبادية، وانفق في الحاشية والتعدية، وفرق في أرباب المطالب، والمطامع القريبة والمتعدية، وتضاعف الشكر لمن جمع هذا المال ووقره، ويسره وسيّره، واستخدم فيه ناظره ونظره، وما يعدُّ المملوك ما وصل إلا موهبةً صرفها إليه، ونعمةً أسبغها عليه، ومنةً تقلدها وقلدها بها المنز، وصنيعةً استرقته، وإن كان قد سلف استرقاقه بأول ثمن، فإنه وقى بدمّة لسانه، وبيض وجه ضمائه، وكل من وصل إليه شيء من هذا البر شكر المولى فأكثر، وفرح بأن غرس الرجاء قد أثمر، ورأى من وجوه رسليه أهلةً، وظنّ الإحسان عيد صيام الانتظار، فقال: الله أكبر، وشيع سيبهم عند فيض سني عطائه، فتوالى فعفر، وبالمعروف، فلولاه لكان قد درست أعلامه، بل لولاه [لم] يعرفه ولكان قد سلبت ألقه ولامه، وإن غيثاً يصبح من مصر بحمص لقد أبعده مرماه، وكرم منتماه، وسما مسماه، وسرى طيف الخيال ولكن إلى من لم ينم، وجرى مجرى النسيم إلا أنه ينفخ الأرواح في النسيم، وللمولى سبح طويل في الحمد ولا بد أن يذخر منه ما يستأنفه عند تكملة الأنعام، على أن يشرع في الشكر عند كل مسألة، ثقة بما وراءه من الاهتمام، فأما العافية الشاملة لأهل الإقليم، فكيف لا تشملهم، وسيف المولى الطيب، ومهابته دون محبوب الأعداء منهم والرقيب، وكيف لا يأمن الغاب وهن مسبح؟ وكيف لا يتوقى السيل وهو مشرع؟ لا عديموا هذا الظل فإنه كثيف، وهذا الطبع فإنه شريف، وتلك الحماية فأنها الأمان، وتلك الولاية فإنها زمان، لا يرجى مثله من الزمان.

ومنه قوله من كتاب إلى الملك المظفر تقي الدين^(١):

/١٥٩/ أصدر المملوك هذه الخدمة من ظاهر حماة، وهو ينظر إليها نظر

(١) الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، ابن أخي صلاح الدين، كان شجاعاً مقداماً، جواداً، تملك حماة بإذن عمه صلاح الدين، وتوفي شاباً وهو يحاصر منازكرد سنة ٥٨٧هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/٤٥٦ وشفاء القلوب ٢٣٤.

المحبِّ إلى الحبيب، ويتذكر منها أيام الخدمة التي هي وطنه ولو نأى عنها وهي في فطنه لكان كالغريب، ولولا حياء المملوك من مصر لكان بشرّها وأهلها من قربه منهما بفرجهما القريب، ولكن لا بُدَّ من عصية لمصر. فلا نفجؤوها بمشيئة الله من ذكر يوم فراقه باليوم العصيب، وآثار المولى على قلعة بلدها بمكان التيجان من الرؤوس، وذكره من أهلها من ناسك وخليع يفتح المصاحف، ويدير الكؤوس، وكان ورد الركاب العالي الناصري نصره الله إليها في يوم كذا أحسن الله تقضيه، والمرض قد أحسن الله في تقضيه، والشفاء قد أنعم الله به على سلطاننا وعلى مَنْ يليه، فيا لها من نعمة لا عذر فيها للشكر إذا اعتذر، ويا لها موهبة متّة من الله بها، آمن الذي آمن بها، وبهت الذي كفر، ويا له صفو لا كدر فيه، وكلُّ صافية لم تخلُ من كدر. ومنه قوله:

﴿لَا يُجَيِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١)، فسبحانه جلّت قدرته جلاها، وقد بلغت القلوب الحناجر، وفرجها وقد بلغت الدموع المحاجر، ومنّ بالسلطان على الخلق وأقامه، ليعمّ به إن شاء الله دين الحق. فالمملوك يبشر مولانا أدام الله البشري بالعافية الناصرية، وقد سار المبشر عني بكتبه كما يقول المقلل والمكثّر، وقد سير المملوك كتابه الكريم لما فيه من زيادات، ولما تضمّنته من متجددات، وعند مولانا له كتب كثيرة، قد قضى منها الوطر، وقد نزه فيها النظر، وقد وجب أن يُردّ طيرها إلى وكرها، وعرائسها إلى خدرها، وأصدر المملوك هذه الخدمة ساعة سير السائر، كما أن المكاتبة بما قبلها مُدّ كانت أم الكبائر. وغير ذلك، فهو ينهي وصول كتاب مولانا، ومطالعة مولانا الناصرية بخطه، التي أنعم بتيسيرها مفتوحة، وأفاد المملوك كل فائدة بالوقوف عليها، وقد سيرها، فكان وصولها من حسن الاتفاق، وكتابتها من سعادة كاتبها، تأتي عند / ١٦٠ / العشي بالاشراق؛ لأنّ مولانا هنا بها عن العافية الأولى المكتوب بها، لينقطع الإرجاف، فصارت الآن هناءً بعافية لا خلاف في أنها ما فيها خلاف.

ومنه قوله:

أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت كتائب أعلامه تكتب أقلامه مرفهةً، وأحلام وفاقه مرشدة، وأحلام أهل خلافه مسفّهةً، وسيوف عزائمهم تستوعب كلّ حديث حسن، فلا تبقى إلا أحاديث عن السيوف مموّهة، والقول بتوحيد فضل خلافته

لازماً، فلا يقبل شُبّه المعظلة، ولا تعطيل المشبهة، وأفعالها التي يتغني بها وجه الله باسمه الشريف في الملكوت الأعلى منوّهة، ولا زال قوله بلغاً، وأمره بالغاً، وفضله سائغاً، وفضل الله به سابغاً، فالحالي بعده للعاطل فاضحاً، والحقُّ للباطل دامغاً، وإخلاص فطرة لا يدع للكفر شيئاً غابطاً، ولا للنفاق شأنًا نابغاً، الخادم يذكر أنه ورده بل أوردَهُ من منتدى الديوان، بل من أفق الإحسان، كتاب مرقوم، بل سحابٌ مركوم، أثبتت في الاسماع، بل أثبتت في الطباع، العقد التقي، وأهدى للبصائر الصادقة، بل أبدى للأبصار الرامقة، سابقَةً أنس، بل أيّ شارقة شمس، فأضاء الفضاء بنوره، وضرب بينه وبين الظلماء بسوره، فاستقلت ملوك المعاني على سريره، ودخل الفهم حينه، ورقلت الليالي في حريه، ونقلته عينه في الحال إلى ضميره، فأنست معانيه بما هناك من عقائد اختصاص وموارد إخلاص، مستقرّة في حيث لا تجزى كل الاسرار، ولا تسري كل الأنوار، ولا تُستودع إلا عقود التكليف، وخواطر التعريف، فألقت عصاها، ولقيت من أطاعها وما عصاها، وحلت حيث حلت، وجليت حيث جلت، وانتدبت العزمات لمراجعتها، فهي المرأة إلا أن الصداً مصدود على صفحتها، وهي العينان إلا أن الليل والنهار سواء في وصف صحتها، وهي الفلق إلا أن العيون /١٦١/ دائمة الاستمتاع بلمحتها، وهي الروض إلا أن أنفاس النسيم منافسة في العبارة عن عبير نفحتها، وهي المذكرات الأنفس بالله، إلا أن أسطرها سلوكها، وحروفها درر سفحتها، ولا زال الخادم إلى مثل هذه الفقر فقيراً، وبها على نفسه بصيراً، وإذا النعم بتيسيرها إليه عدها نعيماً مقيماً، وإذا ملكها رأها ملكاً كبيراً، وما تردّ واردة من الدار العزيزة، وذلك أن المواصلة ما فزعوا إلى دار الخلافة إلى أن فزعوا، وإلا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديماً دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما انتجعوا، ولا يربى الصغير إلا بما ربي عليه الكبير، ولا سبب على جناية الأوّل إلا بما جناه الأخير، وقد كانت دولة العجم بالعراق استعلت ثم استقلت، وهبت ثم وهنت، فتعبت رجال الليالي والأيام، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام بدار الخلافة، إلى أن صرفوا العدا من موردها، وأبعدوا الأذى عن معيها، واستقلت الخلافة وحدها، ولزمت الأمور حدها، وإذا كانت المواصلة قد تقطعت بهم الاسباب، وأوصلهم حساب الحرب إلى العقاب، وتبراً الذين أتبعوا من الذين أتبعوا، وتفرّق الذين اجتمعوا بعدما جمعوا، وفريق فرّ نازحاً، وفريق قرّ مصالحاً، وفريق على البعد راسل مستصلحاً ومتطرحاً، وفريق فتح بلده الذي كان التقليد له فاتحاً، فلم يبق للمواصلة إلا أن يأووا إلى جبل يعصم من الماء، ويتعللوا بسراب

بقية لا مُتعلّل فيه للضماء، ومعلوم أنهم إذا احتلبوا تلك الجهة عادوا عود طائر نقاق إلى عشه، واسترجعوا خاتم ملك فريما رجع الأمر جارياً على نفسه، وما أولى ولاية المناصب، وكُفأة المراتب، وحملة الأمانات، وخدم سدة السادات، إلى أن يفيقوا لهذه الغمرة حق الإفاقة، ويلحظوا طليعة هذه العواقب، ولا يهملوها إلى أن تجيء في الساقه، فهذا في مصالح الدولة الجزئية.

/١٦٢/ فأما المصالح الكلية، فإن عواقبها منهم عظيمة، وبوائقها بأيديهم وأيدي قديمهم قديمة، فشد ما أخذوه بالأمس برأ بلئيم، وبرأ بسقيم، وهرب من لا حيلة فيه فاستبيحت منه حرمة وحريم، فكم عين ازعجوا عنها إنسانها، وكم يد بانوا منها بنانها، ومنهم أولاد ابن زين الدين علي كوجك^(١)، التابع للخادم الآن، فإنهم كشفوا منهم وجوهاً مصونة، وهتكوا منهم عورات أمينة، وحكموا فيهم نظرات ظنينة، وطافوا بهم البلاد نهاراً، ولم يخافوا الله غضاباً، ولم يرجوا له وقاراً، وكذلك وجدوا آباءهم على أمة، فاقتدوا بآثارهم، وعلى إيقاد نار حقدٍ يستجمعون بهم في نارهم.

فأما الجبايات التي يأخذونها من الرعايا ظلماً، وتضمنين الشريعة لمن لا يُمضي الله له على لسانه ولا يده حكماً، واستباحة ملك الأوقاف والأيتام، والفرقة في الحكم بين الخاص والعام، فكل ذلك مما لا يسع خليفة الله اقرارهم على حيفه، ولا يعذره الله سبحانه على ترك مجاهدتهم بكتابه إلى عبده الذي جاهدهم بسيفه، ولا خفاء أنهم غابوا عن الجهاد للكفار، وحالوا بين الفرض وبين أولي القوة عليه والاقترار، فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوهم الكافر، فقد تولوا الشيطان تليداً وطريفاً، ووطنوا الاسلام وأهله وطناً عنيفاً، فإذا جاء وَعُدُ الآخرة جاء الله بهم في زمرة الشياطين لفيماً، فإن لم يرجع إلى الخادم فليرجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(٢) والقوم فما أبقوا للصالح موضعاً، ولا تركوا في رجعه مطمعاً، ولا تخلفوا عن سوء أبلغوه ناظراً ومسمعاً، فالمسلم القريب استزلوا يمينه والمسلم البعيد استخفوا سكينه، والكافر استنصروا سيفه، والحشيبي^(٣)

(١) زين الدين علي كوجك، صاحب اربل، وهو تركماني، وكجك فارسية معناها الصغير. ملك اربل وبعض النواحي، توفي سنة ٥٦٣ هـ (وفيات الأعيان ٤/١١٤).

(٢) سورة النساء: ٧٦.

(٣) الحشيشيون، أو الحشاشون، لقب اطلق على فرقة من الاسماعيلية، عرفوا باغتيال خصومهم بالسكاكين، وأخبارهم كثيرة في كتب التاريخ.

استصرخوا سكينه، والأموال التي في بلاد تقيده أكلوها وأضاعوها، وأمانات الله ابتغوا بها ثمناً قليلاً /١٦٣/ فباعوها، والذخيرة التي كانت بقلعة حلب لو أن لها لساناً يتكلم تظلم، ولو أن لذهبها الذي تصرم فؤاد تصرم، وحملت إلى الكفار فضربت بها أسنة تطاعن بها صدور المسلمين، أو بقيت في أيديهم فضيقت لتنتهك بما فيها حرمة الدين، ومتى استشف النظر العالي حال الخادم معهم لمح أنه من مبدأ وصوله إلى الشام الذي نوى به في الكافر إقامة الجهاد، وفي الاسماعيلية إمارة الإلحاد، وفي المسلمين إزالة الفساد، شغلوه ثلاث سنين عن هذه الفرائض، وجاءته قوارض لا تحترق وقوارض، وقد استولوا على حلب بلا حجة، وأخذوا ما فيها من الأموال بلا شبهة، وخرجوا عن اليمين المعقودة بلا معذرة، واستفزوا من وافقهم من امراء المسلمين بلا جريمة، والخادم على أن أجاب رسلهم بأني قد رضيت الديوان العزيز حكماً، واخترت من اختاره الله للمسلمين قيماً، فكان هذا الجواب أن يفروا إلى الفرنج، فحالفوا كفرتهم عليه، وإلى الاسماعيلية، فأنهضوا مجرمهم إليه، ونازلوا طرف بلاده، وهو متوسط بلاد الكفار، فهدموا قلعة من قلاعها، كانت زينة سلم ومفزع حذار، وراسلهم واستنزلهم، وقال لهم قولاً ليناً، ظن أنه يحملهم به عنه، فحملهم، ثم ما برح كلما طوى بلادهم، وجاز مدنهم وسوادهم يمحضهم المناصحة، ويدعوهم إلى المصالحة، وممن عرضها عليهم على يده فامتنعوا، وشافهم على لسانه فما سمعوا، شيخ الشيوخ، وإن سئل عن الشهادة أذاها، وإلى مسطوره في الديوان أبداها، وبعد مصدر فلان عنه حشد عليه ملوك الأقطار، وخرجوا من دمنة القرية المحصنة والجدار، وتحرك إليهم فتحركوا لكن قدامه لا إليه، وراح إليهم فراحوا عنه، وكان ينتظر رواحهم عليه، وقتلهم السيف وهو في غمده، وكفى ما كان متوقفاً من قبل جدهم وقبل جدّه، وقد أخرجوه إلى أن أقطع البلاد الحلبية والجزيرية الموصلية لمن يخدم عليها، وسبقوه بين يديه إليها، والله سبحانه، فقد أخذهم بما علم وعلموا /١٦٤/ وتمكن منهم بما ظلموا، وما استبقاهم إلا لتكرر عليهم الرقة، فقد رقت لتقتل الشفار ولا لألين القول فقد سمي ليذبح الجزار، فأين كان التعلق بالدرة العزيزة وهم يحاصرون دار السلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشابهم، ويصافون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ولو تحرك اليوم متحرك كانوا له كنانة، ولكانت دارهم له خزانة، ويعلم أن الخادم ما ذهب عنه، ويرجو الخادم بالموصل أن يكون الموصل إلى القدس وسواجله، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحل، وبلاد الكرج، فلوا أن لهم من الاسلام جار لاستباح

الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن فلو أن لها ماء سيف لأطفا ما فيها من النار، إلى أن تعلقوا كلمة الله العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصليب المرفوع خطباً طريحاً في المواقد، والناقوس الصَّهْل أحرص اللهجة في المشاهد، هذا كله يجري بمشيئة الله في السيرة الناصرية، فتحلى بها السير ويجلي بها الغير، ولا يكلف الخادم منها مالاً ولا مدداً، ولا يتخلف عن نصرته وليّ الله، إذ كاد أعداء الله يكونون عليه لبداء، ولا يقول إنه ينقص ما في الديوان، بل يزيده ولا يستفيده بل يُقيده، وإن استعظم هذا المأمول، واستقصر دون هذا المبدول، فالذي وقع أعظم من الذي يتوقع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع، والذي رأى أمس أكثر من الذي يسمع، وقد علم الله سبحانه أنه لا يريد دنيا، بل يريد دنيا تزيدها ولكن يقوى بها على تقوى يتزوّد بها، فإن أُعِين على النية، وإلا فقد حصل أجرها، وإن نجح جهد الإرادة في الدنيا، وإلا فقد سرّ في الآخرة سرها.

ومنه قوله:

كلّ ما يرد على عبد المجلس، - لا زالت المسار على جانبه واردة، والأيام بامتداد عمره واعدة - من أنفاسه العطرة وكتبه البهجة النظرة، ولآرائه التي تُمطر من صدرت إليه صوب الصواب، تحول لمن صدرت عنه ثوب الثواب، وتشهد له بالفضل /١٦٥/ الذي ليس له جاحد، وتذكرت بيت أبي عباد^(١): [من الطويل]

ولم أرَ أمثالَ الرِّجالِ تَفَاوَتْوا إلى الفضلِ حتّى عُدَّ ألفٌ بواحدٍ
ثم سلك عبده غير هذا الجَدِّ، ولا يقف عند هذا العدد، وينشد قول الآخر:

[من الطويل]

وَمَا النَّاسُ إِلَّا قَدْحَةٌ أَنْتَ زَنْدُهَا وَقَطْرَةٌ غَيْثٌ أَنْتَ مُنْشِي سَحَابِهَا
فلا عدمت دول الاسلام، وصدور الايام منه البقية الصالحة، والحسنة الراجحة، والسيف الذي يبلى الأيام فهي غمده، وينظم الساعات محاسن فهي عقده، وإن تأخرت خدم عبده عن مجلسه، وأمسك عن ان يقابل بدجاء نور قبسه، فقد عَلِمَ أدام الله نعمته أن الطريق ليس بقاصد، والعدو ليس بواحد، وأن الكتب لها أقوام سوء في الطرقات، يقصدونها ويرصدونها، وأن فلجات الشام قد حال دونها، إلا أن الامور بمشيئة الله، قد سَفَرَ وَجْهٌ صلاحها، والليلة قد دَنَّتْ من صباحها، والله تعالى يتم ما تُعدُّ به المخايل المتوسّمة، ويحرر الاسلام وأهله عواقب هذه المخايل المنجمة.

ومنها :

وقضايا كلها تُوجب أن يعكف المجلس على فرض يؤديه، ونُصح يهديه، ودعاء لمولى النعمة يُحفيه، والله مظهر أثره ومخفيه، مع أنه لا يدفع عن منزلته العليا ودرجته الكبرى من القلب الأصم، والروع الأروع، والعزمات التي هي كألطف الله التي منها الواقع ومنها المتوقع، فما حصر قط في مأزق إلاّ سفر عن نصر تبين فيه الأرواح من ثيابها، أو عن سلم يأتي فيها البيوت من أبوابها، وأما القرية المسؤولة له فهي من البغاث الذي لا يصيده ذلك الجارح، وإن هذا ميدانٌ يضيق عن شأو ذلك القارح. ومنه قوله:

وَصَلِّ، - وَصَلَ اللهُ المَجْلِسَ السَّامِيَّ بِأَفْضَلِ وَصَائِلِ نِعْمِهِ، وَلَا أَخْلَى الدِّينَ مِنَ الْفَخْرِ /١٦٦/ بِأَمْسِ سَيْفِهِ وَيَوْمِ قَلْبِهِ، وَحَمَلَ مَوَاقِفَ الْجِهَادِ بِثُبُوتِ قَدَمِهِ وَخَفُوقِ عِلْمِهِ، وَأَدَامَ تَذَكَارَ خَوَاطِرِ الْإِسْلَامِ لِأَيَّامِ ذِي سَلْمِهِ، وَأَمْتَعَ الْمَجْدَ بِأَيَّامِ حَيَاتِهِ الَّتِي هِيَ تَوَارِيخُ فَخْرِهِ وَأَيَّامِ حُكْمِهِ - كِتَابٌ مِنْهُ كَرِيمٌ، وَكُلٌّ مَا يَصِلُ مِنْهُ مَا يُعَدُّ إِلَّا كَرِيمًا، وَكَلَامٌ شَرِيفٌ شَفَّ يَدًا كَلِيمِيَّةً، وَشَفَى فَوَادَا كَلِيمًا، وَخَطَابٌ عَذْبٌ فَاضٌ عَلَى الْأَعْيُنِ رَوْضًا وَجَرَى عَلَى الْأَكْبَادِ نَسِيمًا، وَأَبَانَ مِنْهُ عَلَى الْحِفَاطِ الْمَحْفُوظِ فِي شَيْمَتِهِ، وَلَا نَحْسِبُهَا يَنْسَاهُ يَوْمٌ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا، أَكْرَمَ كِتَابًا نَفَعَ الْعَلَّةَ فَطْرًا وَطْرًا، وَفَرَّجَ الْعَلَّةَ، فَجَرَى مَخْرًا، وَأَوْضَحَ مَحَجَّةَ النُّورِ لِسَالِكِهَا، فَبَدَا بَدْرًا، وَسَقَى مَاءَ الْفَضْلِ فَزَهَا زَهْرًا، وَسَبَّحَ اللهُ قَارِئَهُ وَأَجْرَى أَجْرًا، وَمَنْ النَّاسُ بِسَخَطِ يَكُونُ لِلدُّنْيَا زِينًا وَلِلْآخِرَةِ ذَخْرًا، وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّ الْعَبْدَ لِيَمْتَاخَ مِنْ بَحْرِهَا، وَيَرْتَاخَ إِلَى ذِكْرِهَا، وَيَسْتَقْصِرُ سَعِيَهُ، وَإِنْ كَانَ يَسْتَوْعِبُ الْأَشْوَاطَ وَلَا يَرَى عَمَلَهُ كَفَاءً نِيَّتِهِ فِي الْخِدْمَةِ، وَإِنْ كَانَ مَسْتَوْفِي الْأَشْرَاطِ فَإِنَّهُ حَسَنَةٌ فِي الدَّهْرِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَكُلِّهِمْ حَسَنَاتٍ، وَغَرَسَةٌ فِي الدَّهْرِ كَأَنَّمَا كَانَ أَبَاؤُهُمْ رَحِمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَنَاتِ الْجَنَاتِ، وَلَقَدْ أَعْجَبُوا وَأَنْجَبُوا، فَهَمَّ الْمَعْنِيُّونَ بِقَوْلِهِ: الْكَمُّ الْبَنُونَ وَلَهُمُ الْبَنَاتُ.

ومنه قوله :

وَصَلِّ - أَدَامَ اللهُ أَيَّامَ الْمَجْلِسِ، وَلَا زَالَ سَيِّئُهُ مَسْؤُولًا وَسَيْفُهُ فِي الْحَقِّ مَسْلُولا، وَأَمْرُهُ مَقْتَبَلًا، وَمَقْبُولًا، وَعَدُوُّهُ بِالْإِحْسَانِ أَوْ بِإِسَاءَتِهِ إِلَى نَفْسِهِ مَقْتُولًا، وَوَلِيُّهُ عَلَى النِّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ مَدْلُولًا، وَبِشْرُ وَجْهِهِ بِجُودِ يَدِهِ رَسُولًا، وَإِنْعَامٌ لَا يَطْمَعُ بَانَ يَكُونُ لَتَلْكَ الْيَدِ فِي مَضْمَارِ الْكَرَمِ رَسِيلًا - كِتَابٌ كَرِيمٌ يَحْمَلُ عَلَى يَدِ فُلَانٍ، وَثَانٌ^(١) عَلَى يَدِ

(١) في الأصل: ثانيا.

القاضي الواصل إلى مصر، ولم تزل أيادي المجلس تتصل إلى أوليائه قربوا أو بعدوا، وقصروا في الخدمة أو اجتهدوا، ووقف على الكتابين الكريمين اللذين قبلهما على أنهما يدان، واهتدى بهما على أنهما فرقدان، وإن لم يكونا يدين يُقبلَ ظهرهما /١٦٧/ فإنهما يدا نِعَمٍ يجب شكرها، وإن لم يكونا فرقداً ليل أنارا في سواد، فأنهما فرقداً نهار أنارا في مداد، وما يخرج عن تلك اليد، ولا يصدر عن ذلك الصدر إلا كل ما تكشف به الأنوار، وتروح به الأسرار، وتُجلب به المسار، وتجدد به المبار، ويقتى به شرف لا يخلق جديده جديد الليل والنهار^(١)، وأوردَ نجم الدين من الأحوال هناك والضرورات إلى الكبير والقليل، وحسن السيرة المشتملة على الجميل، وأنه بمصر أدام الله ظله على مشقات العفاف، ويسلك لنفسه القصد، ويعطى منها الاشراف، وأن كرمه لا مادة له ولا حاصل، ورواتب نفقاته لا أصل لها ولا واصل، وكُلّفُ خرج له لا محمول له ولا حامل، وذكر ذلك في كل مشهد حضره، وفي كل موقف وقفه، وبين يدي كل كبير عرفه، ورقاه إلى العلم الناصري فأثبته فيه ومكّنه وكشّفه، وتبع هذا الفقيه نجم الدين رأي أبيه رحمه الله في خدمة هذا البيت الذي كان يتعبّد به، ولولا الغلو، لقلْتُ وكان يعبد، ومضى شهيداً في جنّة رحمة مستشهده، ووجب أن يُلحظهُ المجلس بعين صاحب سابق، ومحَبّ صادق، وذو سريرة لا يخجل بها الواثق، وذو كفاية ينفذ في الأمور نفاذ السهم المارق، فما كل صاحب له وجهة في كل مكان، وإن كانت له وجهة فقد لا يكون له جنان، وإن كان له جنان، فقد لا يكون له لسان، وإن كان له لسان فقد لا يكون له بيان، وهذا يجمع هذه الشرائط، ويحضر في عقود المجالس فيكون فيها مكان الوسائط، ويقي لسانه وقلبه بادراك الفوائد واستدراك الفوارط، فهو أحقّ عبد تضم على رقه، وأولى ولي يجازى بتصديقه، وسبقه، على أن الآمال العظيمة، والمطالب الكريمة تبلغ به الهمة الفخرية بأيسر العزمات، وأدنى الحرمات، ولم يذكر في هذه الاجابة ما ذكر من أمره إلا أن كثيراً من الرسل الواردين والأصحاب /١٦٨/ الوافدين، يسعى في قصد مرسله ومقصده، وهذا سعى لمرسله بمفرده، وما جعلَ حظ نفسه وغاية قصده إلا الخدمة، وبلوغ غرضها، وشكر النعمة والقيام بمفترضها، وإذا وردت الكتب الفخرية جدّت نور ودها فخرا. وفرضت على لساني مع شكره الذاتي شكرا، وعلى القلب موالاته إلى موالاته الأخرى، ورَدّت على المملوك مكاتبه كريمة، رَفَعَهَا حيث تُرَفَعُ العمائم، ومدّ

(١) بعدها في الأصل: «وانه بمصر أدام الله ظله» وشطب عليها.

إليها كما يُمدُّ إلى الغمائم، وفضَّها بعد أن قضى باللثم فَرَضَها، واستمطرت نفسه سماها، فأرضت أَرْضَها، وكاد المملوك يَتَأَمَّلُها، لولا أن دَمَعَ الناظر إلى العين سبقه على أنه دمع قد تلوَّن الألوان في فراقه، فلو فاض لعصفر الكتاب وخلقه، فلا أَعْدَمَهُ الله المولى حاضراً وغائباً، ومشافهاً ومكاتباً، وأحلَّهُ في جانب السعادة، ويعزُّ على المملوك أن يحلَّ من مولانا جانباً.
ومنه قوله^(١):

وَرَدَ كتابه، ووقفتُ على ما أودعه من فضل خط وفصل خطاب، وعقائل عقول ما كنا لها من الأكفاء، وإن كانت من الحُطَّاب، وآثار أقلام تناضل عن الملة نضال النضال، وكأنها فضل سيقٍ لما يحوزُه من حق السبق، وحُصِّل^(٢) الخصال فأعيد الإسلام من عدمه. ولا عدم بسط قلمه وثبوت قَدَمِهِ، فإنه الآن عين الآثار وأثر الأعيان، وخاطر الحفظ، إلا أن الخطوب تصحب فيه خواطر النسيان، ولئن انتصر الدهر سطوا^(٣) واختَصِرَ خطوا، فإنه سيف يمان، إن قَدَمَ عهداً، فقد حَسَنَ فرنداً^(٤) وحَسُنَ حدأً، وأجري نهراً، وأوري شرراً، وأحضرَّ خميلة وقطع للأيام جميلة، وضارب^(٥) ولبسها حتى أَنهَجَتْ بوالي، ثم اختار منها أياماً وأبى أن يلبسها ليالي.

ومنه قوله^(٦):

وَصَلَ كتاب الحضرة، فجعل مستقرُّه مستقرَّ النعمة^(٧) في الصدور، وأخرجتني ظلمات خطِّه إلى نور السرور، ووقفتُ وكأني واقف على طلل من الأحبة، قد بكى عليه السحاب بطلِّه، وابتسم له / ١٦٩ / الروض عن أخبار أهله^(٨)، فلم أزل أرشف مسك سطورِه ولماها، وأنزَّه العين والقلب بين جنيتها^(٩) وجناها، وأطلق عنان شوقي

(١) نهاية الأرب ٨ / ٤١.

(٢) الخصل: الخطر الذي يتراهن عليه في الرمي، والخصال: مصدر خاصله، إذا راهنه في الرمي.

(٣) في نهاية الأرب: ولئن اهتصر الدهر سطوا.

(٤) فرند السيف: جوهره.

(٥) بعده في نهاية الأرب: وضارب الأيام فأجفلت عن ضرائبه ضرائبها، وشردت عن عزمه غرائبها، ولبسها....

(٦) نهاية الأرب: ٨ / ٤٣.

(٧) في نهاية الأرب: فجعل مستقرَّه النعمة في الصدور.

(٨) بعده في نهاية الأرب: وآثار منهلِّه.

(٩) في نهاية الأرب: حسنيه.

جَعَلْتُ الاقلام له أَنْجُمًا^(١)، وَحَسَبْتُ النفس ليلاً والكتاب طيفاً، والوقوف عليه حلماً، إلى أن قضت النفوس وَطَرا، وَحَمَلْتُ الخواطر خَطَرا، وقرنته بما ظنّه سحاباً ما ظنّه مطراً، هذا على أنه قريب العهد بيد النعماء، فإن هَرَبَ فمن ماء إلى ماء..
ومنه قوله^(٢):

وقف على الكتاب، [و] جدّد العهد بِلَثْمِهِ، لما لم يصل إلى اليد التي بعثته،
وشفى القلب بضمّه عوضاً عن الجوانح التي نَفَثَتْهُ^(٣): [من المتقارب]
وَأَيْنَ المَطامِعُ مَنْ وَصَلِهِ وَلَكِنْ أُعَلِّلُ قلباً عليلاً
ومنه قوله رحمه الله^(٤):

وصل كتابه فكان من لقاءه طيفاً إلا أنه أنس^(٥) بالضحي، وأثار حرب الشوق،
وكان قطب الرحي [من الطويل]
تخَطَّى إليّ الهولَ والقفرُ دونَهُ واخطاره لا أصغر الله ممشاهُ
ومنه قوله يصف بلاغة كتاب^(٦):

كتاب إلى نحري ضمته، وذكرْتُ به الزمن الذي ما ذمته، وأكبرت قدره،
فحين تسلّمته أستلمته، والتقطت زهره فحين لمحته استملحته، وامتزج بأجزاء نفسي
فحين لفظته حفظته، وجمعتُ بينه وبين مستقره من صدري، واستطلت به مع قصره
على حادثة دهري، وجعلت سِحره بين سَحْري ونَحْري، واستضأت به ورشفتُهُ، فهو
نهارِي، وهو نهري، فإن أردتُ العطر بلا أثرٍ أمسكتُ مسكهُ بيدي، وإن أردتُ السكر
بلا إثم^(٧) أدرتُ كأسه في خلدي، فلله أنامل رَقَمَتُهُ ما أشرف آثارها، وخواطر أمَلَّتُهُ ما
أشرق أنوارها، ولم أزل متنقلاً منه بين روضةٍ فيها غدير، وليلة فيها سمير، وإمارةٍ لها
سرير، ومسرّةٍ أنا لها طليق أسير، ونعمةٍ أنا لها عبدٌ بل بها أمير، حتى أدبِرتُ عني
جيوش الأسي مفلولة، وقصُرتُ عني يدُ الهَمّ مغلولة، ومُلِئْتُ منِّي مسامع الكلام
حمداً، وخواطر الصنائع ودأ، وحط الأمل / ١٧٠ / بربعي رَحْلَهُ، وأنبَتَ الربيع بفنائِي
بَقْلَهُ، ولبستُ من الإقبال أشرف خلعة، ووردتُ من القبول أغزَرَ شِرْعَهُ، انتجعتُ من
رياض الرجاء أرجى نُجْعة.

- | | |
|------------------------------|--------------------------------------|
| (١) في نهاية الأرب: نُجْمًا. | (٥) في الأصل: إلا أنس. |
| (٢) نهاية الأرب: ٤٣/٨. | (٦) نهاية الأرب: ٤٤/٨. |
| (٣) ديوان القاضي: ٤٩٧. | (٧) في الأصل: لثم، والتصويب عن نهاية |
| (٤) نهاية الأرب ٤٣/٨. | الارب. |

ومنه قوله^(١):

هذا مع عفو الخاطر^(٢) فكيف إذا استدعى المجلس خطية خطية فجاءت تعسل، وحشد حشود بلاغته، فأنت من كلّ حَدْبٍ تَنْبِيل^(٣).

ومنه قوله^(٤):

وَرَتَعَ في رياض بلاغته التي لم يقتطفهنّ من قبيله غارس ولا جان. واجتلى الحور المقصورات في الطروس التي لم يطمئنّ أنس قبله ولا جان، وغني بتلك المحاسن غنى خيراً من المال، واعتقد فيها كنوزاً^(٥) إذا شاء أنفق منها الجمال، وإذا شاء أمسك منها الجمال.

ومنه قوله أيضاً^(٦):

كتابا اشتمل على بديع المعاني وياهرها، وَزَحَرَتْ بحارُ الفضل، إلا انني ما تعبت في استخراج جواهرها، بل سَبَحْتُ حتى تناولتها، وَجَنَحْتُ إليّ فما حاولتها، وأقتبست من محاسن أوصافه وبدائع أصنافه، نكتاً استقلت أجسامها^(٧) بالأرواح، وَزَهَتْ جيادها بما فيها من العُمر والأوضاع، فيا لله من بدائع وروائع ولطائف وطرائف، فيها ماتشهي الأنفس وتلذذ الأعين، وما يقرط الأسماع وتقرط الألسن، كأنه طرف طرف، صوبه مدرار، وَعَلِمَ عِلْمَ منصوب في رأسه نار، صحح السحر وإن كان ظناً، وفضح الدرّ إذ^(٨) كان أبرع معنى، وأسنى حسناً، وأدنى مجنى، وأغنى مغنى، فما ضرّت تأخير زمانه، مع تقديم بيانه، ولا مَنْ سَبَقَهُ في عصره، مع أنه سبق في مصره^(٩).

ومنه قوله^(١٠):

ولله هو من كتاب، لَمَا وَقَفْتُ عليه الغلّة شفاها، وحدثها الودّ شفاها. ورأت وردها كلّ ماءٍ غيره شفاها^(١١)، ووظأ مضاجع أنسها بعد أن كان الشوق يقلب الجنوب على شفاها^(١٢)، فلا عُدْم ودّها الذي به عن كل مودة سلوة، ولا برحت

(١) نهاية الأرب ٤٤/٨.

(٢) تنسل: تسرع.

(٣) في الأصل: كؤوساً وهو تحريف، والتصويب عن نهاية الأرب.

(٤) نهاية الأرب ٤٥/٨.

(٥) في الأصل: وإن.

(٦) نهاية الأرب ٤٦/٨.

(٧) في نهاية الأرب: أي جهلاً.

(٨) في الأصل: شفاها وهو تحريف، والسفاه: الشوك.

(٩) في نهاية الأرب: أي جهلاً.

(١٠) في الأصل: شفاها وهو تحريف، والسفاه: الشوك.

كفاية الله تحلّها في الذرى، وتعلي قدرها في الذروة، ولا فقد ممن يُنعم به أيّ نعمة وما يُنشيء أيّ نشوة.

/ ١٧١ / ومنه قوله^(١):

كتاب كريم تبسّم إليّ ضاحكاً، وظنّ مداده أنه قد خط^(٢) سطره عليّ حالكاً، فما هو إلا سواد الحدقة منه انبعثت الأنوار، وما هو إلا سويداء ليلة الوصل اشتملت^(٣) على دجى تحته نهار، فلله هو من كتاب استغفر الدهر ذنب همز المشيب^(٤) بسواده، واستدرك الزمان غلظه بسداده.

ومنه قوله^(٥):

كتاب تقارعت الجوارح عليه فما كادت^(٦) تتساهم، فقالت اليد: أنا أولى به، شددت على مولاه ومولاي عقد خنصري، ورفعت اسمه فوق منبري، وقبضت عليه قبضتي، وبسطت في بسط راحته وقت الدعاء راحتي، وقالت العين: أنا أولى به، أنا وعاء شخصه، وإليّ يرجع القلب في تمثيله ونصّه، وأنا سهرت بعد رحيله، وعندي وحشة^(٧) وأنا إذا ذكر^(٨) هجير القلب عليه رشّة بعد رشّة، فقال القلب: طمعتما في حقّي؛ لأنني غائب، وهل أنت لي يا يد إلا خادم؟، وهل أنت لي يا عين إلا حاجب؟ أنا مستقرّه ومستودعه، ومرتعهُ ومشرعهُ، وأنا أذكرهُ، وبه أذكرُكم وأحضرهُ، بخدمته أحضرُكم، فاليد استخدمتها مرة في الكتاب إليه، ومرة في شدّ الخنصر عليه. ومرة في الإشارة إلى فضله، ومرة في الدعاء بكلّ صالح هو من أهله، والعين استخدمتها في ملاحه وجهه غائباً، وفي توقع لقائه^(٩) آيباً، وفي السهد شوقاً إلى قربهِ المطالعة لما يخرج أمرى بكتبه من كتبه، فهناك سلّمنا واستخرنا واكتفينا^(١٠) واستأخرنا، وكدت أرشف نَفْسَهُ^(١١) إلى أن أنقله إلى سويداه، لولا أن سواد العين قال: أنا أحوج إلى الاستهداء من هده^(١٢).

ومنه قوله:

- | | |
|-----------------------------------------------|-----------------------------------------------|
| (١) نهاية الأرب ٤٦/٨. | (٢) في نهاية الأرب: جلا. |
| (٣) في الأصل: اشتمل. | (٤) في نهاية الأرب: ذنب المشيب. |
| (٥) نهاية الأرب: ٤٦/٨. | (٦) نهاية الأرب: عليه كادت. |
| (٧) في نهاية الأرب: بعد رحيله وحشة. | (٨) في الأصل: وأنا اذكر ذكر. |
| (٩) في نهاية الأرب: وألقنا. | (١٠) في النهاية: واستجرنا، وألقنا، واستأخرنا. |
| (١١) النفس، بالكسر: المداد. | |
| (١٢) في الأصل: بهده، والتصويب عن نهاية الأرب. | |

وَرَدَ كتاباه الكريمان فسراً وبراً، وتصرفا في القدر فنصبا، وفي الطرف فرفعا، وفي الأنس فجرا، وما وقف على صدر منهما إلا شهد القلب بأنه أولى الصدور بأن يكون صدرا، ولا أهديا إليه يداً كبرى إلا افضيا به إلى بحرٍ، وما دار في خَلْدِهِ أن البحر يكون كلّه درأً، وتحقق ما له منه من مناب / ١٧٢ / يصرفه كلما ناب، ويؤنسه في كلّ ما راب، ويلبّيه إذا دعا، ويزيده بصيرةً إذا أجاب، ويصله إذا غبّ ويحضره إذا غاب، ويبعثُ عزمه إذا ألبّ؛ ويورد أمله إذا لاب، فعلى هذا، المقدمات تنتج، ومتى عرضت عوارض من الشكّ تزدحم، سَنَحَتْ سوانح من الثقة تفرج، وقد علم ما رامت عليه هذه الأحوال التي يظنّ انها في أعقابها وهي في مبادئها، وما أسفرت عنه هذه الليالي التي يحسبُ انها في بلجة غررها وهي في دهمة دأديها، وليس للمعضل من الداء إلا كية، وليس للغازي إلا الشهاب الذي يدخر به استراقه ويحسم به غيّه، وقد طالع الديوان العزيز بما يرغب في الوقوف عليه، والمشورة بما وقعت الإشارة إليه، فلم يكلف المجلس ذلك إلا لأنّ الملتمس من التقليد لصالح الجملة وصلاح الدولة، باد قبله، ولمحلّ الخلافة شرفها الله رافع قبل أن يرفع محله، وما شام من ذلك أمراً يصعب مثله، ولا ذخراً يتعذّر بذله، ولا جيشاً يخلو فناء الخلافة بأن ينقص عنها جعله، ولا عزل والٍ يجلُّ على الإسلام عزله. ولا تجريد سيف من يد الخلافة العالية يتوقى أن لا يمضي نصله، ولم يسم إلا إلى ما أفاده إليه ولاؤه، واعتقاده، ووفقه عبده نظره واعتقاده من أن يكون نظره شرعياً، وتصرفه بعين الخلافة مرعياً، وتقلّده سنياً، وجمعه اجماعياً، فتكون الأمور أمراً واحداً، والمناهج المختلفة القصد نهجاً قاصداً، والرايات القاعدة عن الكفار رايةً مستقلة، يؤنسه الانفراد، وينهضها الجهاد، ويبيض عواقبها السواد، لا تختلف تحتها الآراء، ولا تتشتت عندها الأهواء، ولا يعوزها النصر في الأرض إلا أن ينزل من السماء، ولا يحوجها التأييد، إلا أن تصحر إلى الفضاء، هذا إلى ما ينضاف إلى يد الخلافة وكلمتها من بلاد بها تخص ومنابر ومناير تعلق سماؤها عليها وتنص، فالسعادات سمحة إن تسمحوا، والدنيا مستفتحة إن تستفتحوا، والممتنعات ما دونها حجاب / ١٧٣ / والدين لا يصلب دون فطرته صخر، ولا يبعد دون تناوله سحاب، والمجلس السامي يتأمل المراد بعين الولاء، ولخادمه بعين المحبة، ويعلم أن مثل الحروف المثبتة في هذا التقليد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(١)، وما أحراه في ذلك

بتحريه، وما أولاه في هذا المهمّ بما يوليه، فإنه إذا أنجز ما وعد به حسن الظنّ، وأهدى إليه وإلى الأسلام ما يكسبه القوّة، وإلى آلامه ما يحميها الوهن، فليذهب أدام الله نعمته من ذلك بواحدة ما ذَهَبَ بمثلها من الدنيا واجد، وليقرر المجد بعظمتِهِ ما جَدَّ في مثلها ما جد، وليكن أدام الله دولته مع الحقّ، فإن الذي يُدعى إليه هو الحق، والرجل الذي يُعرف ما بين الرجال من الفرق.

ومنه قولُهُ:

وما بَرِحَ قَلَمُهُ يقوم خطيباً في محافلها، ونائباً عن مناصلها، ومعظماً لشعائرها بشعارها، ومعلناً لمآثرها بآثارها، ومناضلاً لأعدائها بكلّ قِطَاعَةِ العرى، طلاعة الذرى، إلى غير ذلك من توشيحته مدارس التدريس، بالدعاء بخلود أيامها، ونفوذ أحكامها، والرواية عن سلف الأئمة الصالح من آباء أمير المؤمنين وأجداده، والتنبيه على مناقب الدولة التي يجدها بها أنوف أعدائه وأضدادِهِ، هذا إلى أنه ربي في ظلال الدولة العزيزة الممدودة، وتصرف في خدمتها المحمودة، وأدرك الصدور من خدامها، وأدى أمانتي اللسان واليد في استخدامها، وهذّبت تلك الآداب إلى أن أمن العثار. واعتدّ الخادم به من إنعام الدولة التي حصلت له قبل الحاجة الاقدار، وقد أضاف إلى تلك الحقوق التالدة حقاً طارفاً، واستأنف إلى تلك الأسباب القديمة سبباً أنفياً، وهو صحبة الخادم، وكتابه عن يده، وترجمته عن معتقده، وثقته بمغيبه ومشهده، ومجادلة أعداء الدولة بلسانه ويراعه، وإبهاته أبصار أوليائها، بالقول المحكوم على كل ذي لبّ باتباعه / ١٧٤ / وله مما أقناه الأنعام الشريف، ملك بواسط في شركة أقاربه ما برحت العناية متوفرة بعقوده حاميةً لحقوقه وحدوده ثمرة لمستغله، مزجية لدخله، مانعة الأيدي من أن تتطرق إليه أو تتسلط عليه، وقد تجدد الآن من مفضعي المجاورين لملكه دخول في الحدود، وخروج عن العهود، ودعوى معوزة البراهين والشهود، والمسؤول فيه خروج الأمر بما يزيل صادق الشكوى، ويبطل كاذب الدعوى، ويردّ الحق ويحمي الحدود، ويبيد توقيعات إمامية أجرته على ما يلتمس الآن الإجراء عليه، ولو لم يكن هذا الحدّ بيده لما استكثر الانعام أن يصفح له عنه، ويعاد إليه، فكيف والحجج الشرعية والتواقيع الإمامية مثبتة لحقّه، شاهدة بقدم ملكه وسبقه، والمتوقّع إجابة سؤاله، فقد جرّده، وإن تأخرت الإجابة بالإيجاب جدّه.

ومنه قولُهُ:

أعاذ الله المجلس، ولا برحت الأيام شاكراً لأيامه والصورام معدودة من حساد

أقلامه، الهمة العالية مذحورة عند المهمات، مستضاء بأنوارها في ليالي القصد المدلهمات، والآراء المجدبة مُسْتَمَدَّة بحمد الله من المكرمات، تسل بها ولا سيما إلى أهلها، ويأتيها على عِلْمٍ إذا أتى على الناس من جهلها، ويبتكرها بخاطرٍ خطار، ويبتدرها بضمير فضل لا يُجَارَى في مضمار، وإذا عرضت اللبانة أنزلت بكرمه الفسيح اللبان، وحدثت ركابها إلى أفناءٍ إحسانه الذي ينتهي إليه غاية سرى الركبان، وقد قصد هذه الخدمة على حال تفصيل فلان في ملك له بواسط، قد استولى عليه من حادده وجاده من القطعين، وأضرَّ به مَنْ حاز عليه من المجاورين، ومعه من التوقيعات الامامية ما يوضح الإشكال، ويرشد من الضلال، ولو لم يكن الحد له مستحقاً، والملك بيده مسترقاً لوسعه من الانعام ما يسع مَنْ ليس له من الخدمة المرعية، والأذمة المرئية، كما لهذا المذكور، فله [من] ولاء الدولة الشريفة السبب الوثيق / ١٧٥ / والعرق العريق، والسابقة التي لاتماری، واللاحقة التي لاتجاری، والنشأة في ظلال الدار العزيزة، والتربية في اكنافها الحريزة، واستداد العلم من بحرهما، واستمطار الأدب من قطرها، واستلماح الأنوار من فجرها، والتقلب في آلائها، والثبوت على ولائها، والمناضلة بلسانه وقلبه الذين يلحدون في أسمائها، إلى غير ذلك من المكاتبات التي يجاهد فيها عن الدولة الناصرية حق الجهاد، ويرهف بها الأولياء ويفل الأضداد، ويستعطف بها القلوب النافرة، ويجمع بها الأهواء المتنافرة، ويجادل فيها بالتي هي أحسن، وبالتي هي أحسن، ويوضح حقها بالتي تثبت من أخلص، وتستخلص من أذهن، والمجلس السامي عارف بقديمه وحديثه، ومكتسبه وموروثه، معرفة توجب الذمام، وتنجح المرام، وتدخر الأيام، وتتوقع ظهور ثمرتها في اوقات القدرة. لا عطل المجلس من حليتها، ولا خلا من اقتطاف ما حلا مِنْ جَنِيَّتِهَا، فإنه جانب من الدولة العالية، لا ينفصل عنها ولا يخرج منها ولا يُعَدُّ إلا من أقطارها ولا ينتظم القائم به إلا في أنصارها، وقد شرع في الشكر ثقة بالنجح، وألقيت عصا السرى علماً انها مسبوقة الحمل بطلوع الصبح، وتركت محاربه خواطر الشك علماً أن المطالب به مُدْعَنَةٌ إلى الصلح، والمجلس السامي سريعة ورده، وفلك القصد والهمة المجدية طليقة سعدة، ومن وَرَدَ عنايته فقد استكره الموارد، ومن جعله قبلة القصد فقد استنجح المقاصد، والمتوقع وصول كتاب أخيه الشاكر لأنعامه، الداعي لأيامه، بأن هذا الحد رفعت عنه اليد، ولئن تكاثفت الأشغال عليها، وتزاحمت المهمات لديها، فما هي لخواطرها إلا بمثابة الصقال للسيوف المرهفة، ومرور النسيم بالرياض المفوَّقة، فالصقل للأولى يفيدها قطعاً ولمعاً، والنسيم للأخرى

يفيدها نَفْحاً ونَفْعاً، ولا شبهة في أنها مدفوعة إلى بحر أشغال / ١٧٦ / متدافع، ومقذوف بها في بحر هولٍ يرجع عنه كلُّ طمع متراجع، وهي بحمد الله سابقة للطبع فاتقة، فالعقبة الكؤود لا تؤود، وعزمها فيما ترقُّ له الصخور لا يجور، والله تعالى يحسن إليها كما أحسن بها، ويجعل لها راحة عنده في تعبها، وخواطر المحبين لخواطر الشعراء في كل واد تهيم، وكلما أمل القرب يومٌ مسفر قد دفعه الدهر بليلٍ بهيم، وكتابها الكريم، فينعم به مضمناً ما يسبح من خبرها، ويعز من وطرها، والله لا يعدمني خبرها إلاً بوجهها، وكتابها إلاً بنظرها.

ومنه قوله:

ما أصدرت هذه الخدمة إلى مجلس الحضرة العالية، لا زالت الأيام خداماً لخواطرها، والأسماع نطاقاً لجواهرها، والطروس ساحلاً لزواجرها، والمسارُ ساريةً إلى سرائرها، والأيام قاضية بكل قاضية عليهم، بخفضٍ من محلهم، وترفع من محلها، ويعقد لها عُقْدَةٌ عَزَّ تعجز أيديهم عن حلها، من ثغر الاسكندرية حماه الله عند الوصول إليه لخدمة الصريخ المعظمي الذي حلَّ فيه ملك الكرماء، ولزيارة القبر الحافظي الذي حلَّ فيه ملك العلماء، والله تعالى، يؤجر الكافة في الفجيعة بالعلم والكرم، على أن الحضرة العمادية أولي الكرم والعلم، فلا تشتكي العدم، ولا بدَّ أن أخرج إلى مراد هذه الخدمة وثباً كخروج البحري إلى مدائحه، وان أهرَّ عزمها لامرٍ مهم تثاب في تسبب مناجحه، ولا أُطيل بذكره، فإنه في الخدمة الناصرية الصادرة عني في معنى الفقيه ابن سلامة^(١)، وهي تفعل ما يقوم الله عز وجل بأجره وأقوم أنا بشكره، وما بعده مما يبيض الصحيفة على أنها نظيفة، ومما يتوصل إلى المراد الجليل منه بفكرتها الدقيقة اللطيفة، وقد ضاق وقتي عن مكاتبة أعزَّيه بمقتضاها، فأسألها إن كان الركاب العزِّي أدام الله أيامه، ونصَّرَ أعلامه، بالعسكر المنصور فتعرض عليه الفضل من المطالعة، / ١٧٧ / ولا أقول: ويهزَّ عزمه، فإنه سيف قاطع لذاته، يستحيل أن يرى إلاً قاطعاً. ومولِّي يرى الثواب من لذاته فلا يمكن أن يرى إلى داعيه إلاً مُسارعاً، ومَنْ عَوَّل على خطابه في الأسفار التي تملأ الغرائر، ولا تستقل بها إلاً الأباعر، فإني أقول في خطابها على اللفظة المعرضة، ومَنْ استدعت عزائم

(١) هبة الله سلامة بن المسلم، أبو الفضائل اللخمي المصري الشافعي. ولد بينة ٥٣١ هـ تقديراً ووصل إلى العراق وسمع بالشام وبمصر وبالإسكندرية، وروى عنه، مات سنة ٦٠٧ هـ.
انظر: التكملة لوفيات النقلة ١١٢/٢ والوافي بالوفيات ١٧/٢٧٥.

بالمماشاة والمصافحة فإنني استدعي عزمها باللحظة الممرضة. لا زالت مساعيها مقرونة بالمساعد، وهمها موفية لما كلفته عنها الظنون الحسنة المواعد.

ومن شعره قوله^(١): [من الكامل]

وإذ الفتى فقد الشَّبابَ نَسَا له
وإحْصَى بوسمِ تحيتي مَنْ لَمْ أُبْخِ
مَمَّنْ أَوْدُ لَهُ الردى لا عَن قَلِي
والحلي دون جميعها للخنْصِرِ
حُبُّ البنينِ ولا كحِبِّ الأصغرِ
لَكَ بِاسْمِهِ ولعلَّهُ لَمْ يُذْكَرِ
وتودُّ لَوْ أَبْقَى بقاء الأدهرِ

ومنه قوله^(٢): [من الوافر]

ذَكَرْتُ وجوهكم والبدرُ يسري
سقاني الله قربك عن قريبٍ
كِلا البدرينِ مسكنُهُ السحابُ
دعاء كان واختصرَ الخطابُ

ومنه قوله^(٣): [من البسيط]

تفدي الليالي التي بالسعدِ تُسْخِطُنِي
كانت بِكُمْ فَرَعَاها اللهُ تُضْحِكُنِي
يا بَعْدَهَا غايَةً للشُّوقِ غائِلَةٌ
أودعتم مسمعي مكنون دركُم
تلك الليالي التي بالقربِ تُرضيني
فأصْبَحْتَ لا رعاها اللهُ تُبْكِينِي
من غورِ مصرَ إلى علياءِ جيرونِ
فهاكُم دُرٌّ دمعي غيرَ مكنونِ

ومنه قوله^(٤): [من البسيط]

مَنْ أَيْنَ أَنْتِ وَمَنْ يارِيحُ أَيْنَ أنا
ما جئتِ مبعوثه بل جئتِ باعثةً
لبثتُ في الحبِّ عمراً لا أحصلُهُ
وما دَرُوا أَنَّهُم عن حتفهم بَحَثُوا
مَنْ أَيْنَ أَنْتِ وَمَنْ يارِيحُ أَيْنَ أنا
ما جئتِ مبعوثه بل جئتِ باعثةً
لبثتُ في الحبِّ عمراً لا أحصلُهُ
وما دَرُوا أَنَّهُم عن حتفهم بَحَثُوا

ومنه قوله^(٥): [من الكامل]

زار الصباحُ فكيفَ حظك يا دُجى
رأتِ الغصونُ قوامَهُ فتأوَدَّتْ
يا زائري مِنْ بعدِ يأسِ رَبِّما
أُتْرِى الهلالِ ركبَتَ مِنْهُ زورقاً
قَمِ فاستدِمَّ بفُروعِهِ أو فالتَّجَا
[و] الروضُ أنشَرَ نَشْرَهُ فتأرَّجَا
تُمنى المُنَى مِنْ بعدِ إرجاءِ الرَّجَا
أولاً فكيفَ قطعتَ بحرأً مِنْ دُجى

(٢) ديوانه: ١٦٣.

(٤) ديوانه: ٢١.

(١) ديوان القاضي ٤٤٢.

(٣) ديوانه: ١٢٣.

(٥) ديوانه: ١٣٥.

أم زرتني ومنَ النجوم ركائبٌ
لعبتْ جُفونك بالقلوبِ وحبُّها
منها:

لا أرتجي إلا الكرامةَ وحدها
تتلو الليالي سورةً من فضلكم
منها:

نارانِ نارُ قرىٍ ونارُ وقائعِ
باشرتِ بَشْرِكَ لا بمِنَّةِ شافعٍ
ومنه قوله^(١): [من البسيط]

قاتل بغير سلاحِ الهجرِ إن له
كتمتْ ما بي في وجهي دلائلهُ
وقوله^(٢): [من الوافر]

وميدانِ خدهِ بخيولِ لثمي
تَلِفْتُ بشعرهِ وسمعتُ غيري
بَكَيْتُ عليكِ ملءَ العينِ حتَّى
وقوله^(٤): [من مجزوء الرجز]

ممسحةِ نهارها
كأنها مُذْ خُلِقَتْ
ومنه أخذ شافع^(٥) قوله: [من الوافر]

وممسحةِ تناهى الحُسنُ فيها
ولا تُنكر على القلمِ الموافي

(١) ديوانه: ١٠٧. (٢) ديوانه: ٢٢٧.

(٣) في الديوان:

ولا استمطرتُ سَحَبَ العينِ إلا
بكيثِ عليكِ يا مولائي حتَّى

(٤) ديوانه: ٤٤٤.

(٥) شافع بن علي بن عباس الكتاني العسقلاني، كان يباشر الانشاء بمصر، توفي سنة ٧٣٠هـ (الوافي ٧٧/١٦).

والاصل قول ذي الرئاستين^(١): [من المنسرح]

ممسحة تكتم الظلامَ فما تبديه إلا سوافرُ الظلم
تُودع فيها الاقلامُ فَضْلَةً مَا تنفقه في مصالحِ الأممِ

عدنا إلى الفاضل، ومنه قوله^(٢): [من الكامل]

منعت دموعَ العينِ مِنْ أطلالي منعت دموعَ المساءِ ما يكون مسرَّةً
ولأرى صنيعَ الدهرِ بالأطلالِ ما الدمع ان حجب المكاره عالي

ومنه قوله^(٣): [من الطويل]

أيا بدرُ قد أسهرت عينيَ فارقُدِ إذا لم تعاین في الصباحِ مسرَّةً
وشاهدتَ ما جاهدتُ يا نجمُ فاجهدِ فلا تحسبنَ الليلَ ليس بِسَرْمَدِ
ويا عاذلي رفقاُ كفاني صدوؤهُ فإن شئتَ فانقص من ملامك أو زد
تمازج في خديهِ ماءٌ وجَمرةٌ تمازج دمعِي في الهوى وتوقّدي

وقوله: [من الطويل]

وقوا غيرَ أنَّ السمهري وأنه لهم في الوعى أغصانُ سمرِكانما
يَحارُ بأيديهم شكا للمهند تحف إذا أجرى الدماء بمورد

وقوله: [من الطويل]

جمعتَ الذي فيهمُ وزدتَ عليهمُ وما فوقَ ما قد نلتَهُ منْ زيادةٍ
فأنتَ كمعنى ناظمٍ متولّدِ بل اللهُ أُولى بالزيادةِ فازدِدِ

وقوله^(٤): [من السريع]

لاخ وفي خديهِ ديباجةٌ بابُ سُلوِي دونهُ مُغْلَقُ
طرزها الشعر بلبلابِ وصدغهُ الزرفين للباب^(٥) / ١٨٠ /
يا مانعي حتى مواعيدهُ مَنْ لي بوعدٍ منك كذابِ

وقوله من مرثية في أخيه^(٦): [من الطويل]

خليلي قد أبصرتُ عيشي بعدهُ كأنني قد أبصرتُ عيشي من بعدي

(١) ذو الرئاستين، الفضل بن سهل، وزير المأمون العباسي، توفي سنة ٢٠٢ (وفيات الأعيان ٤١/٤).

(٢) البيتان لم يردا في ديوانه. (٣) ديوانه: ١٩٤.

(٤) ديوانه: ١٨. (٥) الزرفين: حلقة الباب.

(٦) ديوانه: ٣٩٢.

فكيف أكون اليوم في اليأس والبعد
فمن لي وطوبى لو رجعت إلى الصّد
فنفسك لا المحبوب أفجع بالفقد

وقد كنت اشكو البعد والقرب يُرتجى
وكان أجل الخطب عندي صدّه
إذا ما فقدت الأنس ممن تُحبّه
وقوله منها: [من الطويل]

فأصبحت في دارٍ وأصبحت في لحدٍ
وإن كنت من تحت الثرى بالي البرد

قتلت أسى لما بقيت مكارماً
ليهنك من بعد الردى باقي الثنا
وقوله^(١): [من البسيط]

عينٌ تُترجم عن نيران أحشائي
فكان من أدمعي يمشي على الماء

أشكو إليك جُفوناً عينها أبداً
كأن إنسانها وافى بمعجزة
وقوله من قصيدة^(٢): [من الكامل]

غلبت عليه وهي من أسمائه^(٣)
تنتابهُ من أرضه وسمائه

إن الشجاعة وهي من أوصافه
يقرّي الطيور طعانه فضيوفه
وقوله من قصيدة^(٤): [من الخفيف]

ذاك رجّع عن الأماني بعيد

لا تُحدّث سواك نفسي بفضلي
وقوله منها:

وكان الأهرام فيها نُهود

وانجلت مصر إذ تجلّى عروساً
وقوله: [من الخفيف]

فهو إن قام فالرؤوس حصيد
ذاك مني ما كنت منه تجيد
فعلية منه رقيب عتيد

أنا من قائم الحسام نذير
هو كأس وسكرة الموت قالت
ومتى يلفظ العدو بقول
/ ١٨١ / وقوله: [من الخفيف]

فمعاني العلاء مما أصيد

وإذا رشّت بالأيدي جناحي
وقوله من أبيات^(٥): [من الطويل]

يقوم لها ذنبي بأحسن عُذره

سأشكر عن شكري نداء لعله

(١) ديوانه ص ٢. (٢) ديوانه ص ١٣٤.

(٣) كذا في الأصل والديوان، والعجز مكسور الوزن.

(٤) ديوانه: ١٩٥. (٥) ديوانه ص ٢٣٥.

إذا أنا بعد الجُهدِ قصرتُ شاكرًا فقد صارَ للتقصيرِ ذنبي كشكره
وقوله^(١): [من الطويل]

إذا أنتَ أعطيتَ اللّهي بذريعةٍ فلا تشكرنَ إلا لتلكَ الذرائعِ
وقوله من مرثية في أخيه^(٢): [من مجزوء الكامل]

أأخيَّ هونتَ الحِما مَ فكان يضعفُ عنه عزمي
لَم لا أهوؤنهُ وقد قدّمتُ رُوحِي قَبْلَ جِسْمِي
وقوله^(٣): [من الكامل]

وإذا اجتليتَ عقودَ أسطوره ظفرَ الهوى بمراشفِ لُغسِ
وقوله^(٤): [من البسيط]

ما حلّ هذا الهوى إلا لأرتحلا ولا سرى الدمعُ إلا عن هوى نَزلا
ولا بعثتُ خيولَ الدمعِ خلفكمُ إلا لتلحقَ قلباً فيكمُ رحلا
يا ربّع ما أنتَ إذ رُمّتَ رحالهمُ للبينِ أولَ صبِّ ألبسوه بلى
وقد تمثّلتَ في تركِ الجوابِ بهم فما تُجيبُ كما كانوا لمن سألَا
وقفتُ فيه فقالَ الناسُ من سَقمي أما ترى طللاً يستخيرُ الطللاً
وقوله^(٥): [من الكامل]

أسديُّ أفكارٍ إذا ليلُ الأسي أرخى دُجَاهُ فرأيه السرحانُ
هذا وكم لك في الوغى من عزمةٍ بگرنَ من ثِقَةٍ بها العقبانُ
تغدو خِماصاً [مثل]^(٦) ما قد مثلوا في حربهِ وتروح وهي بَطانُ
وعلمتُ أنَ حديثَ كسرى بعده زورٌ فلم يتشامخِ الإيوانُ
لو عاشَ شاهنشاهُ أيقنَ أنه ملكُ الدسوتِ وأنه الفرزانُ
تلكَ التواقيعُ التي هي جنّةُ أقلامُهُ في دَوْحِها اغصانُ
أمنصّلَ الرمحِ الطويلِ بگوكبِ من ذا يُطاعنُ والسّمَاكُ سِنانُ
وقولُهُ:

والشمعُ فوقَ البحرِ تحسبُ أنه من لجهِ قد أُطِيعَ المَرجانُ
والماءُ درعٌ والشموعُ أسنّةُ ولها إذا خَفَقَ النسيمُ طعانُ

(١) ديوانه: ص ٢٥٣. (٢) ديوانه: ص ٥٦. (٣) ديوانه: ص ٣١٥.
(٤) ديوانه: ص ٩٣. (٥) الزيادة عن الديوان. (٦) ديوانه: ص ٤٠٥.

وقوله:

لكنني ما قصدي الطيرانُ

يا مالكي أُنبتَ ريشي بالنَّدى

وقوله:

لكن رَحْبَنَ منازلٍ وجفانُ
ودتُ تكونُ جفانها الأجفانُ

ضاقَت معاذرهم إلى ضيفانهم
يغدون عندهم بأعلى أعينٍ

وقوله من أبيات^(١): [من الطويل]

نؤم سحاباً من سماءٍ سَمَاحِهِ
فانا على وعدِ السُّرى من صَبَاحِهِ
تغطيتُ من دهرِي بظلِّ جَنَاحِهِ

ركبنا رياحاً من كرائمِ خيلِهِ
فقلُّ لليالي الخطبِ طُولِي أو اقصري
ولما نَصَّا الاستارَ عن نورِ وجهِهِ

وقوله من قصيدة^(٢): [من البسيط]

إليه لو ضلَّتِ الأقمارُ تحتكمُ
فالليلُ مشتركٌ بيني وبينهمُ

استودعُ الله في أضعانِهِم قَمَراً
عندي سهادٌ وعندَ الهاجرينَ كَرى

وقوله منها يرثي بني رزيك:

حيّاً ويا أسفاً ان قلتُ بعدهمُ
إذا بكى الناسُ من زلَّتْ به القَدَمُ
تُسدَى الهمومُ بها أو تندبُ الهممُ
إلا وفيضُ دمي في رُدنها عَلمُ
فإن بيتَ رثائي ليسَ ينهدمُ
وفي الرثاءِ لمن لا يُرتجى كَرمُ
ان يُنصرَ السيفُ لا أن يُنصرَ القَلَمُ

بأيّ وجهٍ يراني الناسُ بعدهم
أبكي الذي زالَ عندَ التاحِ دولتهُ
أعزّزُ عليّ بأن ظلَّتْ ديارُهُمُ
وما لبستُ دموعَ العينِ عاطلةً
/ ١٨٣ / ان ينهدم بكم للدهر بيتُ علاً
معنى من الكرمِ المهجورِ فُرْتُ به
وكانَ حقُّكم لو كانَ لي قبلُ

وقوله^(٣): [من الطويل]

فلا رايةً سودا ولا أمةً سودا
فَمِنْ طائعِ أذى ومن خالِعِ أودى

نفينا سوادَ الليلِ عن دولةِ الهُدَى
وبينَ مجازاةٍ ضربنا وجزيةً

وقوله من قصيدة^(٤): [من الكامل]

لَمْ تَلقْ إلا ظِلَّها وجَناها

تلكَ الرياضُ إذا تهجَّرَ حادثُ

(١) ديوانه: ص ١٨٤. (٢) ديوانه: ص ٤٠٥. (٣) ديوانه: ص ١٩٦. (٤) ديوانه: ص ٣٢٤.

لمع النظارُ بها فقلنا شمسُها
وقوله منها:

نظروا الخيولَ فأثبتتَ نظرَاتهم
وَلرُبَّ هاتفةٍ دعتهنَّ للوَعَى
هي كالمواردِ في العيونِ وطالَمَا
هي في بحارِ يديه أمواجٌ تُرى
لا بل زنادُ جهنمٍ في كفةٍ
لَوْ أَنَّ أرضاً مرةً فَدَتِ السما
وَمَنِ المحدثُ نفسه بلحاقِها؟
وقوله من أبيات^(١): [من الطويل]

حمائمٌ قد حثتَ زجاجاتِ ادمعي
وَمَا درجُ الكَثبانِ مرَّ نسيْمُها
ولما مررنا بالرسومِ تنفذتُ
بكيننا فغَطَى الدمعُ أنوارَ أعينِ
وقوله من أبيات^(٢): [من الكامل]

١٨٤ / يامن إذا ما المالُ جاز بأرضِهِ
يُلقي إليه فلا يليقُ بكفهِ
وقوله^(٣): [من الطويل]

برأيكمُ أمسى الزمانُ مدارا
وربَّ طليقٍ قد أسرْتُم بكفُّكمُ
وقوله منها:

سأنصفُ أصنافَ القوافي بمدحِهِ
فإن أبصروا في الطرسِ إثرَ مدادِهِ
يفيضُ لنا كفاً وللهِ مُقلَّةٌ
وتقدحُ نارُ الحربِ من أزندِ اللظى

وجرى النسيمُ فخلتُهُ أمواها
غُرراً عليها قد وَسَمَنَ جِباها
جَعَلُوا صَليلاً المُرَهفاتِ صَداها
نَقَعُوا بهاماتِ الكُماةِ صَداها
ونفوسٌ مَنْ قتلتهُ مِنْ عَرَفَاها
منها فكلُّ مَكذِبٍ يَصْلاها
كانتَ عِداها في الخطوبِ فِداها
فدعِ الحديثَ عَنِ الذي ساواها

فما خلَّتْ إلا أَنهِنَّ حَوَائِمُ
بلى درجُ الكَثبانِ ما أنا لائِمُ
بها للهوى في العاشقينَ المَوايِمُ
وَمِنْ عَجَبٍ انِ الدموعُ كَوايِمُ

يصفرُّ جوفُ فراقِهِ انِ يَنْهبا
فكأنما يُلقى عليه ليحسبا

وكان مَخوفاً قبلكم وِمداري
كذا طلقاءِ المُكرَماتِ أساري

فإن القوافي في علاهُ غياري
فذلك سَبَقُ قد أثارَ غبارا
فتجتمعُ الأنوارُ منه غزارا
فتُرسِلُ مِنْ فيضِ الدماءِ شَرا

(١) ديوانه: ص ١٠٧.

(٢) ديوانه: ص ٤١٧.

(٣) ديوانه: ص ٢٣٥.

وقوله من أبيات^(١): [من البسيط]

للجدِّ والجودِ مِنْ نارٍ وجنَّاتٍ
فالناسُ ما بينَ رعيٍّ أو مُراعاةٍ
والوصلُ ينقُصُ مِنْ بعضِ الصِّبَابِ
فما يظنُّ العدا هُدًى النهاياتِ
وحرِبُ مَنْ لا يظنُّ الحربَ تاراتِ
مِنْ القواضِبِ في عُضْلِ الثنِيَّاتِ
والطعنُ بينهمُ مثلُ التَّحِيَّاتِ
كالشَّرْبِ حينَ تهادى بالزجاجاتِ
والسيفُ ماءٌ لنيرانِ الحَزازاتِ

ليهنيءِ المَلِكُ ما أظهرتَ مِنْ هِمَمِ
تَحْمِيٍّ وتَهْمِيٍّ بعينٍ أو بجودِ يدِ
مواصلِ المجدِ لا تنفِكُ مِنْ شَغْفِ
هذي البداياتِ قَدْ نِلتَ السماءَ [بها]
عطاءً مَنْ لا يظنُّ الجودَ يُفقرُهُ
اللهُ جَارِكُ والآجالُ كاشِرةٌ
وقد تداعتُ بِها الأبطالُ واعترفتُ
وقد تهادتُ سيوفُ الهندِ إذْ خُضِبَتْ
فكمُ بردتَ بماءِ السيفِ غُلَّتْها
وقوله من أبيات^(٢): [من الطويل]

وإن كانَ مِنْ جَوْرِ الفِراقِ مَجِيلاً
علمتُ بأنَّ القلبَ راحَ قتيلاً

أُمُستصحباً قلبي وكانَ محلَّهُ
إذا ما جرى جَفْنِي دَمًا بمدامعي
/ ١٨٥ / وقوله^(٣): [من الطويل]

فقدَ نِلْتُمُ ما نلتُمُ بمساعي
يزيدكمُ مُدَّاحُكُمْ بِسَمَاعِ
وما كانتِ الدنيا لنا بمتاعِ
وهلْ هوَ إلاَّ الصدقُ وهو طباعي

لئن نالتِ الأملاكُ مُلكاً بحظِّها
وهذا عيانِ المجدِ فيكمُ فما الذي
دَفَعَتِ الأذى عَنَّا ومُتَّعَتِ بالمُنَى
وواللهُ ما كُلفتِ في المدحِ كلفةً

وقوله من أبيات في الشيب^(٤): [من الوافر]

لبعضِ أنْ ذاكَ لشرُّ سِرِّ
فقدَ أعطى تَبَسُّمُهُ لِشُعْري

أرى شيبِي مُعاري فيه بعضي
فلا تُنكر له تعبيسَ وجْهي

وقوله من أبيات^(٥): [من مجزوء الكامل]

أما لهجركَ مِنْ مُحاقِ
لِ وبتُّ في نارِ احتراقِي

باللهِ يا قمرَ التمامِ
أُمُسيَّتْ في نورِ الكما

وقوله من أبيات في ذكر الرماح^(٦): [من الكامل]

(٥) ديوانه: ص ٧٤.

(٣) ديوانه: ص ٢٥٣.

(١) ديوانه: ص ١٧٢.

(٦) ديوانه: ص ٢٧٥.

(٤) ديوانه: ص ٤٤٨.

(٢) ديوانه: ص ٩٣.

فترى الذوابل نصلت بذبال
يستلثم الغازي ثباب صلال
فيكون محتطباً وطوراً صالي

فلا تلبسي من أدعي غير معلم
نموم ودمع بالدماء منمنم

أغنى الديار عن الحيا المتهلل
فعلي عين تنجلي [عن] منهل

ما لا تقوم بكتمه الظلماء
وجميع ما يهوى له أعداء
يجري عليه من دموعي الماء
وتبوات منه بحيث يشاء

وقلبي من قلبي عليه مقطّع
وكل بلاء عنهما يتفرّع

رجحانه والحق لا يشتبه
والحجر الأبيض إذ صنّت به

يمينك البحر أم في وجهك القمر
فللثراب عليه ذلك الأثر
دنا به الجود حتى قيل ذا بشر
وكل ليل لنا من ذكره سمر

تمشي بها سرجاً ويومك مظلم
-مثل الصلال تحوف نفث طعانها
ويجرها طوراً ويصلى حرها
وقوله من أبيات: [من الطويل]

فإن تكتسي يا دار ثوباً من الصبا
متى تكتم الأشواق ما بين نائم
وقوله من أبيات^(١): [من الكامل]

وإذا أفاض الصب صب دموعه
ما دام وجهه ينجلي عن روضه
وقوله^(٢): [من الكامل]

من ثغره وحليه ونسيمه
/١٨٦/ ومتى يفوز بما تمنى عاشق
لك من نسبي فيك روض يانع
رتعت جفوني من سناك بجنة
وقوله^(٣): [من الطويل]

بروحى من روحى إليه مسوقة
وأضل الهوى في القلب عيني وعينه
وقوله في عمارة سور عكا^(٤): [من السريع]

ميزان أعمالك لا شك في
بالحجر الأسود إذ صنّته
وقوله من قصيدة^(٥): [من البسيط]

أأنت في الأرض أم فوق السماء ففي
يقبل البدر تريباً أنت واطئه
نأى به الملك حتى قيل: ذا ملك
في كل يوم لنا من مجده عجب

(٥) ديوانه: ص ٢٢٣.

(٣) ديوانه: ص ٦٣.

(١) ديوانه: ص ٩٤.

(٤) ديوانه: ص ٣٢٦.

(٢) ديوانه: ص ٣.

نظرتُ في نجمِهِ فالسعدُ طالِعُهُ
 أبا الفوارسِ والآباءُ مشفقَةٌ
 تلقى عروسَ المنايا وهي حاسرةٌ
 والضربُ بالبيضِ من آثارِهِ عَكَنُ
 وربّ ليلةٍ خَطَبٍ قد سرَّيتَ بها
 سُمَّتِ العويصُ بعزمِ ما له ضَجْرُ
 وأنتَ في جيشِ رأيٍ لا غبارَ لَهُ
 هي الحروبُ التي لا السيفُ مثلُ
 سرنا وسارَ شجاعٌ وهو يُقدِّمنا
 /١٨٧/ وكان زجرُ اسمه فيه الحياة لنا
 كان الحسامُ يمانِي الهوى مَعنا
 وبتَ والموتُ طيفٌ قد ألمَّ بنا
 سَقَى بك اللهُ دنيانا فأخصبها
 لما استقلتُ سُتورَ المُلكِ لاح لنا
 في كعبةٍ للتدي لو حلَّها ملكٌ
 وسائلٍ لي ما العلياً؟ فقلتُ له:
 ما أنصفتُ مجده نظامَ سيرته
 نال السماءَ بأطرافِ القنا فَبَدَتْ
 لا يُحدثُ النصرُ في أعطافهم مَرَحاً
 أجزوا دمَاءَ العدا بينَ الرماحِ فما
 ترى غرائبَ من أفعالِ مجدهمُ
 خلأَتْ في سماواتِ العُلا زُهْرُ
 الناسُ أضيافُكمُ والأرضُ دارُكمُ
 ما أنصفتُ الشكرَ لولا أن يُسامحنا
 وقوله من أبيات^(١): [من الكامل]

وَمَنْ الْمُحَالُ بَأَنْ يُجِيبَ مُحِيلُ
لِكَ بِالْبُكَاءِ وبِالْأَسَى مَبذُولُ
حَیْطُ الْعَرَامِ لَوْشِيهَا مَحْلُولُ
فَالْيَوْمَ عَادَ إِلَيْهِ وَهُوَ رَسُولُ
ثَقَلَ الْأَسَى فَكَأَنِّي مَحْمُولُ
فِيحَقُّ حِينَئِذٍ لِي التَّفْضِيلُ
عَضْبٌ أَحَاطَ بِجَانِبِيهِ فُلُولُ
فَمِنَ الْكَلَامِ أَسِنَّةٌ وَنُصُولُ
أَنْكَرْتَهُ فَكَفَاكَ مِنْهُ كَفِيلُ

أُمِدَّ بِسَعِي النَّاصِرِ الْمُتَنَاصِرِ
وَلَا عَجَبٌ لِلْبَحْرِ صَوْنُ الْجَوَاهِرِ
كَرْبَعِ الْهُوَى مَا بَيْنَ سَافٍ وَمَاطِرِ
فَهَمُ مِنْهُمَا بَيْنَ الرَّدَى وَالْمَقَابِرِ
فَمَا الْبَحْرُ إِلَّا بَيْنَ كَفٍّ وَخَاطِرِ
جَعَلْنَا حُلَى تَخْتِمُنَا لِلْخَنَاصِرِ
دِمَاءَ الْأَعَادِي أَوْ دِمَاءَ الْمُحَابِرِ
بِمَخْتَلَفَاتٍ مِنْ قَنَاكَ الشَّوَاغِرِ
كَأَنَّكَ قَدْ نَضَلْتَهَا بِنَوَاطِرِ
فَتَرْجِعُ مِنْ مَاءِ الْكُلَى بِأَسَاوِرِ

وَتَفْهَمُ مِنْهَا الْعَيْنُ مَعْنَى الْبَشَائِرِ
فَهِنَّئِثَهَا عِذْرَاءٌ ذَاتُ ضَفَائِرِ
وَسَائِرُ مَا يُوْتَى بِهِ غَيْرُ سَائِرِ

سَالَ اللَّوَى وَسَوَّالُهُ تَعْلِيلُ
يَا دَارُ جَهْدُ جَفُونِنَا وَضَلُوعِنَا
زَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الرِّيَاضِ مَلَابِسُ
رَقِّ الْعَذُولِ لِمَا رَأَى مِنْ حَالَتِي
أَوْ مَا تَرَانِي حَامِلًا مِنْ بَعْدِهِ
مَنْ لِي بِحِظِّ بِالْفَضَائِلِ عَارِفِ
اِغْمَدْ لِسَانَكَ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّهُ
/١٨٨/ وَاَمْنَعُهُ مِنْ نَفْثَاتِهِ وَكَفَى بِهَا
كَقَلِّ زَمَانِكَ إِنْ يَغْيِرَ كُلَّ مَا
وقوله^(١): [من الطويل]

أَمِنَّا عَلَى الْمُلْكِ اللَّيَالِي بَعْدَمَا
إِمَامٌ أَقْرَوَا جَوْهَرَ الْمَلِكِ عِنْدَهُ
دِيَارُ الْعَدَا مِنْ نَقْعِهِ وَدِمَائِهِمْ
يَلِاقِيهِمْ بِالسِّيفِ وَالطَّيْرِ طَاعِمَا
يَقُولُ لَنَا دُرًّا وَيَنْدَى سَمَاحَةً
وَلَمَّا انْتَهَتْ مَتَا عَلَيْهِ خَنَاصِرُ
لَأَفْنَتْ طُبَاكُمُ فِي الْوَعْيِ وَصَفَاتِهَا
فِيَا عَجَبًا لِلْمُلْكِ قَرَّ قَرَارُهُ
طَوَاعِنَ أَسْرَارِ الْقُلُوبِ نَوَاطِرِ
تَمَدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهَا مَعَاصِمًا
وقوله منها في الخيل:

لَهَا غُرٌّ يَسْتَضْحِكُ النَّصْرَ وَجْهَهَا
وقوله منها في ذكر القصيدة:

إِذَا مَا أَتَتْ تَخْتَالُ بَيْنَ سَطُورِهَا
هِيَ السَّائِرَاتُ الْخَالِدَاتُ بِمَجْدِهِ

وقوله من قصيدة^(١): [من الطويل]

ورثت المعالي عن أبيك شريعةً
إذا ما كسوت الوفد للجود ملبساً
لو أن زياداً كان أدرك عصره
يقطع عمر الليل عمر سُجوده
١٨٩/ وفي فقر عافيه إليه وسيلة

وقوله^(٣): [من الطويل]

يقول ولو أن الليالي خصومه
محاربه تُثني على صلواته
ومنها^(٤):

جنائب في بحر العجاج سفائن
وقد خفقت رايأته فكأنها
وقوله: [من الكامل]

لو كنت حاميت الحمام نائحاً
سل طائراً صدع الفؤاد بسحرة
يا ضعفت من أمسى الفريسة في الهوى
وقوله^(٥): [من البسيط]

يا ليلة بات فيها البدر معتنقي
بتنا نفض عقوداً للحبيب فإن
قل في الزلال إذا وافى على عطش
وقوله من أبيات^(٦): [من الوافر]

وبالأشعار نعرف قائلها

(١) ديوانه: ص ١٦٣.

(٢) إشارة لقول النابغة الذبياني، واسمه زياد: [من الطويل]

ولست بمُستبِقٍ أخأ لا تلمه على شعبي، أي الرجال المهذب

(٣) ديوانه: ص ١٦٤.

(٤) ديوانه: ص ٢٧.

(٥) ديوانه: ص ٩٢.

(٦) ديوانه: ص ٣٤٢.

سَبَقْتُ بِهَا فَقَدْ صَارَتْ لِقَوْمٍ
 وَقَوْلُهُ (١): [من مجزوء الرمل]
 سَقَّنِي يَا بَدْرُ شَمْسًا
 وَاجْعَلِ الظُّلْمَاءَ شَمْسًا
 إِنَّمَا الكَاسَاتُ تِيَجَا
 وَهِيَ نَارٌ جَعَلُوهَا
 قَدْ طَوَيْنَا إِذْ أُدِيرَتْ
 كَانَطَوَاءِ الخَوْفِ عَنَّا
 /١٩٠/ وَقَوْلُهُ من قصيدة (٢): [من الخفيف]

يَا غَزَالًا لَهُ السِّيَوفُ حِجَابٌ
 مَا عَهَدْنَا وَالنَّائِبَاتُ كَثِيرٌ
 أَغْلِيلاً وَالمَاءُ فَوْقَ الثَّنَايَا
 أَيَّنَ تِلْكَ الرِّسُومُ أَيَّنَ تَرَاهَا
 أَتُرَى يَا زَمَانَ أَنْتَ مُعَنَّى
 زَفَرْتَ بِالصَّبَا صَدُورُ اللَّيَالِي
 وَقَوْلُهُ من قصيدة (٣): [من الكامل]

لَوْلَمْ يَعْظَلْ خَاطِرِي مِنْ سَلْوَةٍ
 أَوْ دَعَتْهُ قَلْبِي فَخَانَ وَدِيَعْتِي
 فَعَلَ السَّقَامُ بِمَهْجَتِي وَجَوَارِحِي
 لَوْلَمْ يَبْقَ فِي أَيَّامِهِ مِنْ فِتْنَةٍ
 تُسَمَّى الرِّمَاحُ قَنًا فَأَمَّا بَعْدَمَا
 وَقَوْلُهُ (٥): [من الطويل]

أَسَاكِنَ أَكْنَافِ المُقْطَمِ دَعْوَةٍ
 تَقُولُونَ دِرْيَاقُ الهَوَى الدَّمْعُ إِنْ جَرَى
 أَبِي الحِزْنُ لِي مِنْ أَنْ أُمَاكِسَ فِي الهَوَى
 تَدَاعَتْ بِهَا الأَلْفَاظُ وَهِيَ دَمُوعٌ
 فَذَا الدَّمْعُ يَجْرِي وَالمُسَيِّعُ لَسِيْعٌ
 فَحِزْنُكَ يَشْرِي وَالدَّمُوعُ تَبِيْعٌ

(١) ديوانه: ٣٣٢.

(٢) ديوانه: ص ٢٧٤.

(٣) ديوانه: ص ٣٩٨.

(٤) ديوانه: ص ١٩.

(٥) في الديوان: لم يبق في أيامه.

وقوله^(١): [من مجزوء الكامل]

دَعَّ عَيْنَهُ لِعِنَائِهَا فَشِيفَاؤُهُ فِي دَائِهَا
العَيْنُ مِنْ أَعْدَائِهِ والقلبُ مِنْ أَعْدَائِهَا
هَذَا وَنِيرَانُ الْهَوَى مَشْبُوبَةٌ مِنْ مَائِهَا
قُمْرِيَةٌ قُمْرِيَةٌ فِي حُسْنِهَا وَغِنَائِهَا
القلبُ كَارُهُ نَائِهَا والسمعُ عاشقُ نَائِهَا
/ ١٩١ / ولقد رَضِيتُ بِقَتْلِي^(٢)

وقوله من قصيدة^(٣): [من مجزوء الكامل]

يَا مَالِكَ الْحُسَيْنِ وَالـ حَنَيْنٍ مِنْ خَلْقِي وَخُلُقِي
لَوْلَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ مَد حِي فِيكَ إِلَّا فَضْلُ صَدْقِي
مَا ضَرَّ جَهْلَ الْجَاهِلِي نَ وَلَا انْتَفَعْتُ أَنَا بِحَدْقِي
وَزِيَادَتِي فِي الْحَدْقِ فَهـ فِي زِيَادَةٍ فِي نَقْصِ رِزْقِي

وقوله من مرثية^(٤): [من البسيط]

تَبْكِي عَلَيْكَ عِيونُ أَنْتَ قَرَّتْهَا وَمَا قَضَى الْحَقُّ بَاكِي الْبَحْرِ بِالْحُلْجِ
فِي كُلِّ شِدَّةٍ بَحْرٍ لَمْ تَزَلْ فَرَجًا [ف] عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَ النَّاسِ بِالْفَرْجِ
وقوله^(٥): [من البسيط]

قَالُوا جَرَى قَلَمِي فِي مَدْحِ غَيْرِكُمْ لَا وَالَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ
وَمَا خَلَوْتُ بِذِكْرَاكُمْ وَكَانَ مَعِي ثَانٍ يُثَلِّثُ ذِكْرَاكُمْ سِوَى الْكَرَمِ
وقوله من أبيات^(٦): [من الطويل]

إِذَا هَزَّ فِيهَا صَارِمَ الْبَرْقِ خِلْتَهُ يُرْوَعُ مِنْ تَلَكِ الْجَدَاوِلِ أَرْقَشَا
يَمْدُ عَلَيْهَا الْمَدَّ سَوْرًا مَنْتَضَى وَيُرْجَعُهُ طَوْرًا سِوَارًا مَنقَشَا
وَتَرْجَعُهُ سَهْمًا إِلَى مَقْتَلِ الثَّرَى فَيَسْرِي بِأَوْرَاقِ الْغُصُونِ مُرَيْشَا
هُوَى كَسْمَاحِ الصَّالِحِ الْمَلِكِ الَّذِي نُكَّتْمُهُ وَالشَّمْسُ لَيْسَ لَهَا غَشَا

(١) ديوانه: ص ١٢٧.

(٢) في الأصل: بقتلي، والتصويب عن الديوان.

(٣) ديوانه: ص ٢٥٩. (٤) ديوانه: ص ٣٩١.

(٥) ديوانه: ص ٣٠٤. (٦) ديوانه: ص ٢٤٤.

بحياتِ سُمْرٍ بِالْأَسِنَّةِ نُهَّشَا
وأطرافُها أُولَى مِنَ الْعَيْنِ بِالْهُدَى
فَأَذْهَلَ وَصَفُ اللَّيْثِ مَنْ وَصَفَ الرَّشَا

حسبتُ بعضَ الذي ما زالَ يُعطيني
ما يُشكرُ السُّحْبُ الا بالبساتينِ

تبدَّى على الخدِّ منه الشَّفَقُ
فكانَ الحَبَابُ عليه العَرَقُ

وكأنني بسحابِهِ قَدْ أَغْدَقَا
لا يُدْرِكُنْ رَمِي النِّفَارِ مِنَ النَّقَا
حتى تلا شيبِي وأن نتفرقا

بعَدَما قَدْ باحَ لي شانُ
لكَ والأفواهُ أَجْفانُ
فهوَ دعوى وهي بُرْهانُ
فوقَ غُضَنِ البانِ بستانُ
مِنْ ثمارِ الصِّدْرِ رُمانُ
حُرْماتُ الحُبِّ أَضْغانُ

حارسٌ للخَلْقِ يَقْظانُ
ما رأوه وهو إيمانُ
[حيناً] ^(٥) يلقى الشَّرْكَ أوْثانُ
ولهذا السِّيفِ آذانُ

يقتلُ حَيَّاتِ الحَقودِ مِنَ العِدا
فأوسطُها أُولَى مِنَ العَيْنِ بِالْهُدَى
عَنِينَا عَنِ التَّشْبِيبِ قُدَّامَ مَدجِهِ
وقوله ^(١): [من البسيط]

وكيفَ أحسبُ ما يُعطي العُفاةَ وما
١٩٢/ الكتبُ تشكرُهُ عَنَّا ولا عَجَبُ
وقوله ^(٢): [من المتقارب]

وأغيدَ لما دجا عَثْبُنَا
صفا فوقَ خديهِ جمرُ الصُّبا
وقوله ^(٣): [من الكامل]

أما المشيبُ فأنهُ قَدْ أبرقا
فأبرزُ إليه أبيضاً في أبيضِ
كان الهوى خِلَّ الصُّبا وصديقَهُ
وقوله ^(٤): [من المديد]

أيَّ شانٍ لا يُباحِ بِهِ
وكلامُ الصُّبِّ أذْمَعُهُ
أذْمَعِي والحُبُّ إن حَكْمُوا
مازها مِنْ قَبْلِ معطِفِهِ
جلَّ نارُ الوجنتينِ لَهُ
كيفَ أرجوهُمُ وعندَهُمُ
منها:

ولهُ سيفٌ كناظرِهِ
عادَ كَفَرُ الكافِرِينَ إذا
يتداعى إذ دعوتِ بِهِ
للظُّبا الأَجْفانُ نعرْفُها

(٢) ديوانه: ٧٥.

(٤) ديوانه: ص ٣١٧.

(١) ديوانه: ص ٣١٧.

(٣) ديوانه: ٤٤٨.

(٥) الزيادة عن الديوان.

وهو مِرَاةٌ يَبِينُ بِهَا مِنْ ضَمِيرِ الضَّدِّ اضْغَانٌ
ومنها:

قَمَ لَتَمَلَا مِنْ نَفُوسِهِمْ وَرِمَاخُ السَّخْظِ أَشْطَانٌ
وَحُدُودُ الْأَرْضِ مُشْرِقَةٌ مِنْ دَمٍ وَالْحَيْلُ خَيْلَانٌ
/١٩٣/ ومنهم:

[١٠]

محمد^(١) بن محمد، عماد الدين، أبو حامد القرشي، الأصبهاني، الكاتب

ركن الدول، وعمادها، ومزن الممالك وعهادها، عَلَّمْ يَهْتَدِي بِهِ السَّارِي، وكرم
ينتدي بسببه الجاري، رسا كالطود المرجحن، وسرى كالجود فأوى إليه المستكن،
وتحلّت به ترائب الأيام، وحلت بحجبه رباب الخيام، فعلا مقداراً، وأبى ان يتخذ
دائرة القمر داراً، فقصّت دونه أجنحة النعامي، وطرقت أفنية المعالي الابكار
والأيامى، وعزّ في تلك الدول فغالت في قيمته، وغالبت في نشر لطيمته، وكان ذا
أيدٍ تنهض بكل عظيمة، وتأبى كل هزيمة، بعزم يزاحم أبان، وتقدم إذا نكل كلُّ
جبان، باقتدار لسان، وابتدار بديهه الاحسان، وكانت قصبات السبق لا تحرز إلا
لأدهمه، ولا تحرز دارات البدور إلا لدرهمه. نشأ في حجر عمّه المستوفي^(٢)،
وتأدّب بأدبه، وعرف في ديوان الخلافة باسمه، وخدم بالأبواب الإمامية، فقدم على
الأولياء، وتمسك بالأسباب العلمية وموارث الأنبياء، وكتب للدول النورية،
فازدادت به نورا وازدانت منه بفرائد بحور على نحور، واتصل بالمقام الصلاحي
فأصلح الفاسد، وأربح الكاسد، وكان بالخدمة الناصرية كاتب الإنشاء بها حقيقة،

(١) أبو عبد الله أو أبو حامد محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله، الاصفهاني، الكاتب، ولد في أصفهان
سنة ٥١٩هـ، ونشأ في بيت رئاسة وكتابة، وخدم في دواوين السلاجقة، ثم انتقل إلى بغداد ودرس في
النظامية، ثم عاد إلى أصفهان وعاد إلى بغداد ومنها إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ وخدم الملك الصالح
اسماعيل بن نور الدين زنكي ورافقه إلى حلب ومنها إلى الموصل، واتصل بصلاح الدين الأيوبي
بحمص فعينه كاتباً في ديوان الانشاء، توفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ، ترك مصنفات مهمة.
ترجمته في: الروضتين ٤/٤٨٥ والتكملة للمنزري ١/٣٩٢ وتلخيص مجمع الآداب ٤/٢/٨٤٤
ووفيات الاعيان ٥/١٤٧ وسير أعلام النبلاء ٢١/٢٤٥ والوفيات ١/١٣٣ وشذرات الذهب
٥٤١/٦.

(٢) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد الاصفهاني المستوفي المتوفى سنة ٥٢٦هـ (توضيح المشتبه ١/
٢٦٢).

وساحب ذيل كل حديفة، وأما الفاضل فكان قد رفع عنها وكبرها، ثم كان أكبر منها، وكان العماد بحراً يتلاطم موجاً، وأفقاً يتلألاً أوجاً، وكان ملازماً للسلطان سفيراً وحضراً، وورداً وصدرأ، ومحصلاً بصحبته الآفاً وبدراً، وكان فقيهاً، جدلياً، عالماً، فاضلاً، أديباً، أريباً، كاتباً، شاعراً، ناظماً، ناثراً، ذا تصرف في البيان وتفنن في الكلام، لو ازدحم عليه ألف بريد لجهزه أو نظم كل فريد لما أعجزه، وله الجيد النادر، والغض الناظر، والبعيد المرام عمل الوقت الحاضر، وله التأليفات الكثيرة والمصنفات المفيدة، والرسائل البديعة، والقصائد الصنيعة، إلا انه كان متطبعاً، متصنعاً، يظهر عليه أثر الكلفة وثقل التصنع / ١٩٤ / مغرئ بالتجنيس مع ما فيه من الكل على المسامح، لقرب مخارج الحروف مما تنفر منه الطباع، ويبعد منه الانطباع، وسئل الفاضل عنه فقال: سيدنا العماد مثل الزناد، ظاهره بارد، وباطنه واقد، وكان محل الثقة من الفاضل، آمناً من توثبه عليه، وتغلبه على ما جعله السلطان إليه، وبهذا كان يطمئن إذا غاب مع ما ينويه من قلب السلطان، وكان العماد شديد الحرص على تحصيل الدنيا، وكان الفاضل يلومه ويعتبه، ويعذله ويؤنّب، فبعث مرة يشكو إليه ضرورة، فكتب إليه الفاضل: يا سيد أخيه، لا تُسمع الدهر هذه الشكوى، فيستعذبها فتستمر على العدوى، ولو اشتغلنا بالله لكان يغنيننا، ولو قعدنا عن الرزق لأتانا لا يعنيننا، وفي الحديث: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا ندري كيف يكون المنقلب، فبالله إلا ما سمعت وأخذت هذا الأدب.

وله في هذا حكايات منها: أن رجلاً من أهل حمص جاءه بطبق كيزان، وتفصيلاً كتان، وقيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً، وسأل حاجته، فأخذ قصته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر، فلم يُجبه، فأعاد العماد عرض القصة، وقرأتها مرات في مجالس عده، والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهى، ففطن العماد، وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان، فأعاد عرض القصة، فلما لم يجبه عنها قال: يا مولانا، طبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باقٍ إلى الآن لم أتصرف فيه، فإن كان ما ينقضي شغله أعدت عليه طبقه، فضحك السلطان، وعجب من دناءة نفسه، وأمر بقضاء شغل الرجل.

وحكي أنه كان شديد التهافت على أخذ الختوم الذهب الذي يجيء على كتب الفرنج، فوصل منهم كتاب بغير حضوره، ففتح السلطان بيده، وأخذ بعض الحاشية الختم، فلما جاء العماد، قيل له: اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: يكتب جوابه من أخذ الختم، فعزّ قوله على السلطان، وقال له: قم أخرج الوقت، ما هو محتاج

إليك، فأتى / ١٩٥ / العمادُ الفاضل، وعرفه بما كان، فقال له: رُح إلى الخانقاه، واقعد بها مع الفقراء، والبس زيَّهم، فإذا طلبك السلطان، قل: أنا قد دخلتُ في أمر لا أخرج منه، ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مرضياً، ثم لم يلبث الفاضل حتى أتته رُسُل السلطان في طلبه، فلما أتاه شكاً إليه العماد، وقال له: اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: والله ما أعرف ما أكتب؛ لأن العماد كان يصدر هذه الكتب ولا يعرفه سواه، ولم يزل يلفظ الأمر حتى قال: اطلبه، فبعث في طلبه فلم يحضر، واعتذر، فعظَّم الفاضل الأمر، وكرَّر الرّسل في طلبه، وهو لا يحضر، فقال الفاضل: أنا أروح خَلْفَه، وأتَلَطَّف به، فوالله هذا باب ما يسدّه سواه، ثم ذهب إليه، فأطال المكث، ثم عاد إلى السلطان، وقال: لقد حرصت به فلم يُجب، ورأيتَه مقبلاً على ما دخل فيه إقبالاً ما أظنه بقي يخرج عنه، وما ضرَّ السلطان لو زار الفقراء وترضى عبده، ولم يزل به حتى أتاه وترضاه.

ومن نثره:

قوله جواباً عن السلطان في تفضيل دمشق^(١):

عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها، ونحن نسلم إليها المسألة في طيبها وتوفير نصيبها ورقة نسيمها، ورائق نسيبها، لكن، هلاً رأيت ان الشام أفضل، وان أجر ساكنه أجزل، وان القلوب الى قبله أميل، وان الزلال البارد أعلّ وأنهل، وان الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وان الزهر به أشبّ، والنبت به أكهل، وان الجمال فيه أكمل، وان القلب به أروح، والروح به أقبل. ودمشق عقليته الممشوطة وعقلته المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحدقته الناظرة، وهي عين انسانه بل إنسان عينه، وصيرفي نقوده، وعين نضاره ولجينه، فمستامها مستهام، وما على محبها ملام، وما في رويتها ريبة، وفي كل جيرة منها حبيبة، ولكل شائب من نورها شبيبة، ومع كل ورقة ورفاء، وعلى كل معانقة من قدود البانات عنقاء، وشادي بانها على الأعواد يطري ويطرب، وساجعاتها بالأوراق تعجم وتعرب، وكم فيها من جوارٍ ساقيات / ١٩٦ / وسواقٍ جاريات، وأثمادٍ بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورمان، وخيرات حسان، وقد تمسكنا بالآية والسنة والاجماع، وغينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع، أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٢) والقسم من الله بها دليل على فضلها المصون، وأما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشام خيرة الله من أرضه

(١) كتاب الروضتين: ٢١٥/٣.

(٢) سورة التين: ١.

يسوق إليها خيرة الله من عباده، وهذا أوضح برهان قاطع على انه خير بلاده. أما الصحابة رضوان الله عليهم [فقد] أجمَعوا على اختيار السكنى بالشام، أما فتح دمشق بكر الاسلام! وما ينكر ان الله ذكر مصر وسمّاها أرضاً، فما الذكر والتسمية في فضيلة القَسَم^(١) من الشام، بنقل يوسف الصديق إليها عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقرب على الرباط، وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السيارة من سائر الجهات، واين قطوب المقطم^(٢) من سنى سنير^(٣)؟ واين ذرى منف^(٤) من ذروة الشرف المنيف المنير؟ واين الهرم الهرم من الحرم المحترم؟ وبينهما الفرق ما بين القدم والفرق، وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيلِه واستطالة سيله برد بردى في نقع الغليل؟ وما لذاك الكثير طلاؤه هذا القليل، وسيل هذا السلسيل؛ وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسرة^(٥)، ظهر عند ذلك قصر القصر، على ان باب الفراديس^(٦) بالحقيقة باب النصر، وما رأس الطابية كباب الجابية^(٧)، ولو كان لناسها بأناس لم يحتاجوا الى قياس المقياس، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحبّ الوطن من الإيمان، ومع هذه فلا ننكر ان مصر إقليم عظيم الشأن، وأن مغلّها كثير، وماؤها غزير، وأن عدها نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، وأن الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل، ولكن بالقناطير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الفاضلي، أسماء الله، إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر ولا شك أن أحسن ما في البلاد البستان، وهل دمشق إلا مثل الجنان؟ وزين الدين^(٨)، وفقه الله، تعرض للشام / ١٩٧ / فلم يرض أن تكون المساوي حتى شرع وعدّ المساوي، ولعلّه يرجع إلى الحق ويُعيد سعد إسعاد وفاقه إلى الأحقّ.

ومنه:

ولو واصل خدمه بمقتضى مخالصته، لما وفى في جميع عمره ببعض ما يجب

- (١) بعدها في الروضتين: ولا الأخبار عنها دليلاً على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام.
- (٢) المقطم: جبل مشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة (معجم البلدان - مقطم).
- (٣) سنير: جبل بين حمص وبعليك (معجم البلدان - سنير).
- (٤) منف اسم مدينة فرعون بمصر (معجم البلدان - منف).
- (٥) الجامع هو الجامع الأموي بدمشق، وقبة النسرة هي القبة التي تعلو الجامع.
- (٦) باب الفراديس: من ابواب دمشق القديمة.
- (٧) باب الجابية: من ابواب دمشق القديمة.
- (٨) زين الدين الواعظ، علي بن نجار من أهل دمشق وسكن مصر، كتب إلى صلاح الدين يشوقه إلى مصر، فأجابه العماد بهذه الرسالة عن السلطان (الروضتين ٣/ ٢١٤).

عليه من حق المجلس وشكره، ولكنه يهاب الفضل العزيز فيتجنب، ويستصغر قدره عند قدره المعظم فيتأدب، ومنّ يقدم على مقابلة الشمس بسراجيه؟ والعذب بأجاجيه؟ والدرّ بزجاجيه؟ وأي قدر للقطرة عند البحر الخضمّ، وأي فخرٍ للشها عند إنارة البدر التّم؟ وكلّما شرع في خدمة فنصب يده المهابة وبسطتها الصبابة، وجلاّ له جلاّ له وجه الهيبة، فرجع مما رجاه من سماحة خاطره بالظنة والخبية، وقال لقريحته: دعي الاقتراح ولا تستدعي الافتضاح، وليس إلاّ الاعتراف بالقصور لا الافتراق للمحظور. ومنه قوله:

على انه لم يبلغ مبلغ استفراغ جهد البلاغة في الدعاء، والثناء أمد المقصرين، وإن بذّ القرين، وزاحم الأسود، وولجّ العرين، فالعجز عن الإدراك إدراك، والعجب في التوحيد بادعاء الحول والقوة إشراك.

ومما كتبه في فتح القدس^(١):

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٢)

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف^(٣)، وله الحمد الذي حقّق بفتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس، وجعل عزّ يومه ما حياً ذلّ أمس، وأسكنه العالم والفقير بعد بطرك وقسّ، وعباد الصليب والشمس^(٤)، وأخرج أهل الجمعة منه أهل الأحد، وقمع من كان يقول بالثلاث اهل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥)، وقد فتح الخادم^(٦) بحمد الله من الداروم الى طرابلس، وجمع ما حوت مملكة الفرنج إلى

(١) معجم الأدباء ١٩ / ٢٠، وفيه كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد، مبشراً بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسائة. وفي مرآة الزمان ٨ / ٣٩٨ وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٧٨.

(٢) سورة النور، الآية ٥٥.

(٣) بعده في المعجم وشفاء القلوب، وخصّ سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ولكنّ دينه المرتضى وبدل الأمان بالمخافة إلى كلام كثير.

(٤) في المعجم: واسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجال والضلال من بطرك وقس، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس. وبعده: وقد اظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين ... إلى كلام كثير غيره.

(٥) في المعجم: وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل يوم الأحد، وقمع من كان يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثٌ تَلْتَلِثُ﴾ بمن يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وبعده: وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النص الممنوح ... الخ.

(٦) في مرآة الزمان وشفاء القلوب: (المملوك بأمر الله).

نابلس، ورجع الاسلام الغريب منه الى داره، وفرّ سيل السير في قراره، وطلع قمر
/١٩٨/ الهدى، وملاً بالسنة عزها ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(١) قريب المدى، وعاد
الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تقديسه
تأسيسه.

ومنه قوله:

جوده جود، وطوله طود، وكرمه كرم، يعتمر صفو سلافه، ونعمه نعم تنحر
وتنهر لأضيافه، ولا يحب الدينار إلاّ مبذولاً لعافيه، ولا يدخر كنزاً إلاّ لجنى راجيه.

ومنه قوله:

ما ظفر مدلج الإظلام بالسنى، ومُخَوِّج الإعدام بالغنى، كظفر الخادم وفوزه
بشرفه وعزه، وسعادة جدّه، وجدّة سعده، وحياء روحه وروح حياته، وحسن حاله
وحلية حسناته، وسنى سنائه المشرق عند إسفار اصباح أمله، وسفور وجه جذله،
بورود المثال الممثل المقبل المفضل المُفضّل، عن المجلس العالي الفاضلي
لا فتىء حكم الشرع في شرع حكم فتياه فتيا، وروض الولي بولي رضاه وجوده
مجوداً مولياً، ولا برح كاشحهُ يطوي على الشحّ برح هوى، جوّه بالغيم مغيم،
ومناصحه يحوى المنى صحة عقيدته، وعقد صحته مبرم قويم.

ومنه قوله:

وكتبها المملوك في منزلة عُيُونها سخينة، ونطافها ثخينه، وفوارها فوار،
وانجادها أغوار، وساكنها غير ساكن، وقاطنها غير آمن، وجدا جداولها علاقم،
وجنى جنادلها أراقم، وحياتها موحيات، تسعى مُتَلَوِيات، وتلتوي ساعيات، كأنما
صاغت الجن من سنابكها الخلاخل، أو أراغت لنا من لواذعها الغوائل، ثقال
الرؤوس كأنها نصب الفؤوس، فهي حطب العطب، وخشب الأشب، فمن طوال
كحراب الزنج، وقصار كبنادق الشطرنج، وأوساط كأسواط العذاب، سراع كأنامل
الحساب، وقصار كبارقات السحاب، ومارقات النشاب، ومنها ما هو كدباسق
الأتراك، أو كألوية الأملاك، ومنها بتر كأيدي السارقين، وخفاف كدين المارقين،
ومنها ما هو كمزمار الزط، أو كزنار القبط، ومنها ما هو كأنه أصهب الفهود /١٩٩/
أو تكك ذوات النهود، أو أنياب النمر، أو كمخالب الصقور، أو أعصاب الخيول،

أو أنياب الفيول، أو طوامير الكتّاب، أو مسامير الأبواب، ومنها كل برقاء اذا انسلخت من جلدها، ألقت كم درع، وبقيت حديد ذرع، وسوداء كصحيفة المجرم، وصفراء كصفحة المتألم، قصيرة مقتصرة الاعمار، دقيقة جليلة الأخطار، الحيات أمها، والممات سمّها، عنبرة لا يحملها حامل، ولا يشمّها.

وبهذه الرسالة ذكرت شعراً كنت وصفت فيه منزلة كثيرة الأفاعي. ومنه: [من

الطويل]

وأرضٍ ترى الحيات فيها سوارياً
أساودُ رقطُ كالنمالِ دبيبُها
وتختلفُ الألوانُ منها كأنها
إذا نُشرتْ كانت حزاماً وإنها
ومطرقةٍ فوقَ الكثيبِ كأنها
وآخرَ من دونِ الطريقِ محمليّ
ينضنضُ في فيه لسانٌ مخصّرُ
يشمّ دخانَ الموتِ من ليسَ دانياً
يذوبُ به قلبُ الحديدِ مخافةً
تقنّعَ شَبها بالكميِّ وإنه
بمرهفةٍ ذليّ يقصّرُ دونها
يُساورُ أوهامَ اللبيبِ اذكارهُ
إذا ما ترقى الطودُ خلتَ بأنّه
وذو حنقٍ ما البرقُ إلاّ شرارةُ
ويحدثُ ما لا كان في شهبِ الدجى
وأقسم لو ألقى على الصخرِ سمّهُ

/٢٠٠/ ثم نعود إلى تنمة كلام الأصفهاني، فمنه قوله:

صدرتْ هذه البشرى ودماء الفرنج على الأرض وقيل لها ابُلعي، وعجاجها في السماء وقيل اقلعي، وفاض ماء النصال، وغاض ماء الضلال، وهي بشارة اشترك فيها أولياء النعمة، ونبئهم ان الماء بينهم قسمة.

ومنه قوله:

ووجدناها قلعة أرضها في السماء، وتلعةً في حوزها حواز الجوزاء، وعلى

كلابها عواء العواء، ما تمرّ السحب إلا على سفوحها، ولا ترق شياطين الكفر إلا من سطوحها، إنا جعلنا نجوم النصال لها رجوما، وأدمننا لوبل الوبال عليها سجوماً.
ومنه قوله:

وأسلم البلد، وقطع زنار خندقه، وأبيح حمى حماته، واستولى الفرق على فرقه، وتطارت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بسفه أبحارها المتداركة، وطهرت الصخرة بمياه العيون التي ببُعدها قذيت، وصقلت بالشفاه، وطالما كانت بأيدي المشركين قد صدت.

ومن شعره قوله من قصيدة أولها^(١): [من الطويل]

وأسأل عنكم عافياتٍ دوارساً غدت بلسان الحالِ ناطقةً خرساً
ومنها:

مضى أمس مني في انتظارٍ غدٍ لكم وكُلُّ غَدٍ لا شكَّ منقلبٌ أمسا
وقيل لنا في الأرض سبعةً أبحرٍ ولسنا نرى إلا أناملك الخمسا
ومنه قوله: [من البسيط]

ما طبْتُ نفساً ولا استحسنت بعدكم شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نفساً
وكيف يُصبحُ أو يُمسي محببكم وشوقكم يتولاهُ صباحُ مسا
نادمتهُ وأخوهُ النجمُ يحسدني فإنني كنت أراعاهُ إذاً خنسا^(٢)
ومنها قوله يصف مقتولاً:

ما زال يعطس مزكوماً بغدرتِه والقتلُ تسميتُ من بالصدرِ قد عَطسا
ومنه قوله^(٣): [من المديد]

حيرتني طالتي بذي حورٍ طال في النجوى مجاوره
حل ما شدت مناطقه ٢٠١/ وحل ما شدت مناطقه
ومنه قوله^(٤): [من الطويل]

ثوى همّه لما ثوى الصبر^(٥) عنده مقيماً وشطّ الصبرُ في جيرة شظوا

(١) البيت من قصيدة الرضتين ١٨/٢ وعنه في الديوان ٢،٧ واولها:

استوحش القلب من غبتم فما أنسا وأظلم اليوم من بنتم فما شما

(٢) لم يرد البيت في الديوان. (٣) البيتان لم يردا في الديوان.

(٤) الابيات من قصيدة طويلة في الديوان ص٢٧٦، وقد وردت كاملة في الخريدة: قسم مصر ٥/١،

وبعضها في الروضتين ٦٣٢/١ وسنا البرق الشامي ٨٦/١.

(٥) في الديوان: الوجد.

وأَرْقَهُ طَيْفُ فَرَى^(١) نَحْرَهُ الدُّجَى
 تشَاغَلْتُمْ عَنْهُ وَثَوْقاً بُوْدِهِ
 مَلَكْتُمْ فَأَنْكَرْتُمْ قَدِيمَ مَوَدَّتِي
 وَمَنْهُ قَوْلُهُ وَقَدْ اعْتَقَلَ بِبَغْدَادِ^(٣): [من الكامل]

وَقَدْ كَادَ جَيْبُ اللَّيْلِ بِالصَّبْحِ يَنْعَطُ
 كَأَنَّ رِضَاكُمُ عَنْ مَحَبَّتِكُمْ سُخْطُ
 كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ^(٢) مَعْرِفَةٌ قَطُّ
 قُلْ لِلْإِمَامِ عِلَامٌ حَبَسُ وَلِيَّكُمْ
 أَوْلَيْسَ إِذْ حَبَسَ الْغَمَامُ وَلِيَّهِ^(٤)
 وَمَنْهُ قَوْلُهُ^(٥): [من الكامل]

فِي بُرْدِكَ الْأَسَدُ الْهَصُورُ مُحْرَشاً
 تَهَبُّ الْأَلُوفَ وَلَا تَهَابُ الْوَفْهَمُ
 وَمَنْهُ قَوْلُهُ، وَقَدْ جَاءَ قَفْلٌ مِنْ أَصْفَهَانَ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَعَرَفَهُمْ كُلَّهُمْ
 بِآبَائِهِمْ^(٧): [من مجزوء الخفيف]

أَيْنَ أَيْنَ الْمُضَيِّفِ؟
 أَنْكَرْتَنِي مَعَارِفِي
 وَمَنْهُ قَوْلُهُ^(٩): [من الطويل]

نُسَطَّرُ^(١٠) فِيهَا ثُمَّ نُمْحَى وَنُمَحَقُ
 لَمْ أَرَ فِي عَمْرِي^(١١) كَدَائِرَةَ الْمُنَى
 تُوَسَّعُهَا الْأَمَالُ وَالْعَمْرُ ضَيِّقُ

(١) في الديوان: طوى.

(٢) في الديوان: البين.

(٣) البيتان في وفيات الاعيان ١٥١/٥، وهما من قصيدة طويلة في الديوان ص ٦٦.

(٤) الولي، هو المطر الذي يأتي بعد الواسمي، وفي البيت إشارة الى استسقاء الخليفة عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب.

(٥) من قصيدة في الديوان ص ١٦٣.

(٦) لم يرد هذا البيت في القصيدة المذكورة.

(٧) البيتان في الوفيات ١٥٢/٥ والوافي ١٣٩/١، وفيهما انه قالها انه مَرَضَ فكان اذا دخل عليه أحد يعوده انشده البيتين. وانظر الديوان ص ٢٩٨.

(٨) كذا في الاصل، وفي الديوان: أنا ضيف بربعكم.

(٩) البيتان في معجم الادباء ٢٨/١٩، والوافي ١٣٩/١، وطبقات السبكي ٦/ ٨٨٣ وانظر الديوان ص ٣١٣.

(١٠) في المعجم: يُورَخُ، وفي الوافي: نُورَخُ.

(١١) في الوافي: دهري.

ومنه قوله^(١): [من الخفيف]

هي كتبي فليس تصلح من بع
هي إما مزاوذ للعقاقير
ومنه قوله^(٢): [من الرمل]

وهضم الكشح في حبي له
٢٠٢/ ٢٠٢/ كرم^(٣) العاشق فيه مثلما
بقوام علم الهز القنا
خده يجرحه لحظ الوزي
ومنه قوله^(٤): [من الطويل]

هلموا إلينا^(٥) نحو مشمش جلق
كأن مناب الشهد فيه مجسد
حكي جمرات بالغضا قد تعلقت
كأن نجوم الأرض فوق غصونه
قلت:

وقد ذكر الفاضل صلاح الدين ابو الصفا خليل الصفدي^(٧): ان العماد كان قالها
كرات نضار في اللجين مطرق، فلما أنشدت السلطان صلاح الدين قال: تشبيه الورق
باللجين غير موافق فغيرها العماد، كما ذكرنا.

وقوله^(٨): [من الكامل]

قد كان يسمح بالوصال خيالها
وَدَنْتُ تودع للفراق وإنما
لو لم ترض العين بالإغفاء
اقصاء سهم القوس في الإذناء

(١) البيتان في: الوافي ١٣٦/١ والغيث المسجم ١٥/١ وعنهما في الديوان ٣٠٠.

(٢) الايات في الوافي ١٣٥/١ وهي من قصيدة في الديوان ص ٣٧١.

(٣) في الاصل: ما كرم العاشقين.

(٤) الايات: في الوافي ١٣٦/١ والروضتين ٢/٢١٠ وعنهما في الديوان ص ٣١٦.

(٥) الديوان: تسابق.

(٦) في الوافي: في لجين مطرق. ورواية الديوان: من نجمة المتألق.

(٧) انظر: الوافي بالوفيات ١٣٧/١.

(٨) البيتان مما أخل به الديوان.

وقوله^(١): [من الكامل]

بدرٌ فؤادي في محبّة وجهه
رمق المحبّ فلم يدع رمقاً له

وقوله^(٢): [من الكامل]

ماء الصّبا في وجنتيه وناره
وكأنّ وجنته وخطّ عذاره

وقوله^(٣): [من الرمل]

هات يا بدر الدجى شمس الضحى
واملاً الكأس إذا فرغتها

/٢٠٣/ واقترح زند سروري طرباً
لا تلم يا صاح أفديك على

وقوله^(٤): [من الكامل]

وعلى السوالف منه فود مرسل
متقلدٌ بدمي وظنّي أنه

ما عاينت عيناى صدغاً فاحماً
أيخاف عارضه عقارب صدغه

وقوله^(٥): [من الطويل]

مشعشةً لاحت كأن مزاجها
يطوف بها ساقٍ من السكر خلته

إلى ريقه المعسولٍ يظما محبّه
وما فتر العينين إلا ليقثلا

وقوله^(٦): [من المنسرح]

يروؤني في المها مهفهفها
يا ضعف قلبي من أعين نجل

(٢) ليسا في ديوان شعره.

(٤) الايات مما أخل بها الديوان.

(٦) ديوانه: ص ٣٠٦.

(١) الديوان: ص ٦٧.

(٣) لم ترد في الديوان.

(٥) ليست في الديوان.

(٧) في الديوان: أقتلها.

علاقة ما يكاد يعرفها
وخلّ حالي فلست أكشفها

ونهنّهُتُ دمعِي في العَرامِ فما رَقَا
إذا لم ترقوا لي فما ينفع الرُقَى

ما ناعِي والدمعُ ليسَ بقابلٍ
ملّوا وليسَ يملّ غيرُ الواصِلِ

وعلى دمي لم دَلّه قَدْلُه^(٤)
عن قوسٍ حاجِبِه يفوقُ نبْلُه^(٥)
واحسدُ على عسلٍ بفيه تملّه
في خلّتي والمرءُ يُنجدُ خلّه
أهلٌ وخفّ عن فؤادي ثقله
طرّف المُرِيبِ وحيي عني أهله

وما تُجري المدامعُ من شؤوني
سوى بلوى هَواها من خَدينِ
بَلْحُظٍّ، أو بقدٍّ، أو جَبِينِ
وأزهرَ وَرْدُها عن^(٧) ياسمينِ

فقد زاده الشوقُ الأسي فوقَ ضعفه

يا منكرًا من هوى بُليتْ به
دع سرّ وجدي فما أبوحُ به
وقوله^(١): [من الطويل]

نهيتُ فؤادي عن هواكُم فما انتهى
ومن فرطٍ وجدي خلّتمُ بي جنةً
وقوله^(٢): [من الكامل]

هَبْ أنّ قلبي للنصيحة قابلٌ
مالوا إلى وِصلي فحين وصلتهمُ
/٢٠٤/ وقوله^(٣): [من الكامل]

سَل سيفَ ناظرِه لِمَاذا سلّه
وأحذرَ سهامَ اللحظِ منه فإنما
واقبل وإن حسدوك عذَرَ عذارِه
يا منجداً ناديتَه مُستنجداً
سرّ حاملاً سرّي فأنت لحمِلِه
فإذا وصلتَ فغضّ عن وادي الغضا
وقوله^(٦): [من الوافر]

ألا يا عاذلي دعني وشأني
بكل خدينةٍ للحسنِ مالي
كريمٍ أو كغضنٍ أو كبدرٍ
تبَسّمَ دُرّها عن أرجوانٍ
وقوله^(٨): [من الطويل]

قفوا وسلوا عن حال قلبي وضعفه

(١) لم يردا في الديوان.

(٢) البيتان من قصيدة في مدح الخليفة المقتفي في الديوان ٣٤٥، والخريدة، قسم العراق ٤١/١.

(٣) ديوانه ص ٣٦٣. (٤) في الاصل: قد دله.

(٥) ديوانه: ص ٤٢٢. (٦) لم يرد هذا البيت في الديوان.

(٧) لم يردا في الديوان. (٨) الديوان: في.

أرقتُ فجفني ما يريق سوى دمي كأنَّ الهوى أوصى جفوني بنزفه
ومنهم:

[١١]

نصر الله بن محمد بن محمد، ضياء الدين، ابو الفتح ابن الأثير
الجزري^(١)، الكاتب

متكبر نَفَحَ في غير ضَرَمٍ، وبذخ بالسمن وشحمه ورم، ولم يلتفت الدهر إليه
بعطفه، ولا أقبل عليه ببعض عَطْفِهِ، حتى شمخَ شمما، ونطق خرساً، وأصغى صمماً،
وكانت له مخيلة ظهرت بارقتها، وبهرت سارقُتها، شرب بودقها الهيام، وضرب
بيرقها الغمام الخيام، وقد كان بالموصل، ونشأ به مسودّ اللحم، محتدّ اللحم، في
درسٍ يباكره ويغاديه، ويسقيه ماطره بروائحهِ وغواديه، فملاً الحفظ خاطرهُ حتى
اندفق، وكلاً الحظّ سائرهِ حتى توقّد الشفق، فغالب الاسود، وقارب ان يسود، لولا
عجب ردّاه، وردّ / ٢٠٥ / وجههُ عن الطريق فما أدّاه، فوقع إذ سفت، وتكدّر إذ شفت،
واتصل بالخدمة الأفضلية فغمط به فضلها، وقبض بسببهِ ظلّها فلم يحمد أحدٌ له ولا
لسلطانه فعلاً، ولا عدّ له ولا للأفضل فضلاً، وجلس للناس وقد لبس رداء الكبرياء،
وسلبَ بحمقهِ، وقاد الكبراء، فأخرج الصدور عليه وعلى ملكه، وأحوج المقدور بما
لديه إلى مهلكه، فتميّزت الخواطر عليه غيظاً، وأبرزت الضمائر له برد القلوب قيظاً،
فأودع النفوس ودائع الحنق، وأنزع له الدهر العبوس. مشارع الرنق، وخرج من دمشق
في صناديق المطبخ مختبئاً حين أخرج الأفضل منها، وكان ينتقص الفاضل والعماد
وسائر الكتاب، ويحظّ قدر الأفاضل، ويسخر بالناس، ويتوقف في قضاء الحوائج،
ويحمل ملكه على جفاء أهله، وقطع ذرى رحمه، ويبعد بينه وبين أقاربه، فلهذا مُقت،
وغضّ طرفه، وبهت، وفيه يقول الشهاب فتیان^(٢): [من مجزوء الرجز]

متى أرى وزيركُم وماله من ورر
يقالعه الله فذا أو أن قلع السجزي

وفيه يقول ابن عنين: [من الوافر]

(١) انظر ترجمته في: التكملة: ٥٣٥/٣ وذيل مرآة الزمان ١/٦٥ ووفيات الاعيان ٥/٣٨٩ وسير أعلام

النبلأ ٢٣/٧٢ والوافي بالوفيات ٧/٣٤ والعبر ٥/١٥٦ وشذرات الذهب ٧/٣٢٨.

(٢) فتیان الشاغوري والبيتان في ديوانه ص ٢٠٣.

كَأَنَّ قَفَا الْوَزِيرِ عَرُوضٌ سَوْءٌ يَقْطَعُ بِالْبَسِيطِ وَبِالْمَدِيدِ
قَذَالٌ لَا يَزَالُ النَّعْلُ فِيهِ كَمَنْزِلِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَدِيدِ
وكان كاتباً مطلقاً، متروياً بالعلوم، مضطرباً، إلا أنه كان متكلفاً، متطبعاً،
ومتعجباً، متصنعاً، وكان يتعاطى أكثر مما يستحق، وله تصانيف منها:

«المثل السائر»، و«الوشى المرقوم»، و«المعاني المبتدعة»، وأمثلها، «المثل
السائر». وقد عمل عليه موفق الدين^(١) (ابن) أبي الحديد كتاباً سماه: الفلك الدائر
على المثل السائر، وعمل آخر كتاباً على كتاب (ابن) أبي الحديد سماه: القطع الدابر
على الفلك الدائر. وكلام هذا الرجل أعني الضياء، وإن كان محكم الصنعة ناظراً إلى
دقائق المعاني فإنه في غاية التكلف لاعتماده على معاني الناس / ٢٠٦ / وأكثره من
الحل والاقْتَباس، وقد بنى كتابه المسمى بالوشى المرقوم على هذا، وعليه كانت
طريقته في كلامه ومنحاه في قوله، ولا يكاد يسمع له من النظم إلا ما قل.

مولده يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسة بالجزيرة.

ومن ثره:

قوله في وصف كريم:

فَلَانَ يَغَارُ مِنْ جُودِ غَيْرِهِ إِذَا جَادَ، وَيَرَى الْأَفْضَلِيَّةَ فِي الْمَكَارِمِ إِلَّا فِي وَحْدَةِ
الْأَنْفِرَادِ، فَصَدِيقُكَ الَّذِي يَحِبُّ مَحَبَّةَ اللَّهِ فِي وَدِّهِ، وَلَا يَتَعَدَّى الْخَجَلَ إِلَى الثِّقَةِ
بِعَهْدِهِ، وَلَوْ أُعْطِينَا الرُّشْدَ لَمَا كُنَّا نَأْسَى عَلَى مَا يَخْتَلِفُ عَلَى تَغْيِيرِهِ الْمَسَاءَ وَالصَّبَاحَ
وَكَانَ ﴿كَمَا أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ﴾^(٢).

ومنه قوله في وصف البلاغة:

إِذَا نَزَلَ مِنْ سَمَاءِ فِكْرِي مَاءٌ، سَالَتْ أَوْدِيَّةٌ بِقَدْرِهَا، وَاهْتَزَّتْ رِيَاضُ بَزْهَرِهَا،
وَلَيْسَتْ الْأَوْدِيَّةُ إِلَّا خَوَاطِرُ الْأَفْهَامِ، وَلَا الرِّيَاضُ إِلَّا وَشَائِعُ الْأَقْلَامِ.

ومنه قوله:

وَفِي الْأَبَاءِ عَوْضٌ عَنِ الْأَبْنَاءِ، وَفِي الْأَمْسِ حَلْفٌ لَمَّا يَسْتَهْدِمُ مِنْ شُرَفَاتِ الْبِنَاءِ،
وَقد قِيلَ إِنْ فِي سَلَامَةِ الْجَلَّةِ هَدْرٌ لِلنَّبِيبِ، وَإِذَا سَلِمَتْ طَلْعَةُ الْبَدْرِ فَأَهْوَنُ بِالْأَنْجَمِ إِذَا
انْكَدَّرَتْ لِلْمَغِيبِ، وَمَا دَامَ ذَلِكَ الْمَعْدَنُ بَاقٍ، فَالْقُضْبُ كَثِيرَةٌ، وَإِنْ أَوْدَى مِنْهَا قُضِيبٌ.

(١) كذا في الأصل، وإنما هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله، أما موفق الدين فهو اخوه.

(٢) سورة الكهف: ٤٥.

قلت: لو قال: الدوح، أو الأصل، أو ما شبه ذلك، كان أنسب من قوله المعدن، وأكثر ملاءمة مع قوله قضيب.
ومنه قوله:

وفلان قد خَبَرَ الدهر في حلب أفأويقِهِ، ونقض موثيقِهِ، فهو لا يَرِدُ الماء إلا بماء، ولا يهتدي في مسرى أرض إلا بنجوم سماء، ومن شأنه ان يرد الأمور برأيه ولا يبعث فيها رائدا، وإذا قيل ان فلاناً ذو كيد، قال: من الكيد ان لا يدعي كائداً.
ومنه قوله:

لقونا، وقد أشرعوا الأستة التي شاركتهم في الأسماء، وإذا أوردت أروثهم من غليل الحقد، كما يتروى من شرب الدماء، لكن زادها عن الورد / ٢٠٧ / ما هو أصلب منها عوداً، في يد مَنْ هو أمضى منهم جداً وأسعد جدوداً، وإذا لاقت الريح إعصاراً زالت عن طريقه وضاق ذرعها بمضيقِهِ.
ومنه قوله:

رأيتُ أجمَةً ولا ليث يحمي تلك الأجمَةَ، بل رأيت بيض عقاب تحضنه رخمة، وليس المشار إليه إلا نائماً في صورة يقظان، وهو كزيد وعمرو إذ تجري عليهم الأفعال وهما لا يشعران.
ومنه قوله:

وفلان قد جعل الرأي دبر أذنه، ووضع جفير^(١) السيف تلقاء جفنه، ولم يعرج على لهو فيقول له: اليوم خمر وغداً أمر، ولا يصغى الى مسير فيأخذ بقول زيد ولا عمرو، فهو مطل على مغيبات الأمور، غير غافل تمام الأعقاب إذا تمت له الصدور
ومنه قوله:

الغنى يخف بكثير من الأوزان، والنظر في هذا إلى الأثر لا إلى العيان، ولا عجب ان يوزن الواحد بجميع الوري، ولهذا قيل: كل الصيد (في) جوف الفرا.
ومنه قوله:

كم في الأرض من شمس تخجل لها شمس السماء، ويتضاءل إليها تضاؤل الاماء، ويعلم ان ليس لها من محاسنها إلا المشاركة في الأسماء، فلربما طلعت في الليل فقال الناس: هل يستوي بياض النهار وسواد الظلماء، ولا عجب للعيون إذا

(١) الجفير: جعبة من جلد.

رأتها أن تظن ذلك في احلام النوم، او يخيل إليها أن يوشع في القوم.
ومنه قوله:

ولقد رأيتته فرأيت العالم في واحد، وعلمت أن الدهر للناس ناقد، ما أقول إلا أن الله ردّ به الأفاضل إلى معاد، ثم وضعه موضعه^(١)، فذلك من جملة الأعداد في الاعتداد، لكن [ان] كان ذنبي خطأ، فقد جاءت معذرتي عمداً، ولا عقوبة مع الاعتذار، ولو كان الذنب شيئاً إذاً، والمقدرة لا تسيع لكريم ان يُمضي غيظاً أو يطيع حقداً.
ومنه قوله:

الأحوال شبيهة بالأبدان في عوارض سقمها، وكل داءٍ من أدوائها له علاج إلا ما كان من سأمها وهرمها / ٢٠٨ / وقد قيل ان الطبّ هو معالجة الأضداد بالأضداد، ولهذا لا يطب مرض الآمال، إلا بجود الأجواد، وفي شهود الجناية من الأشراف ظلم للسادات لا تعدّه النفوس من ظلمها، ولربما كلم السوار يداً، فذهب فخر زينتها بألم كلّمها، ولهذا هانت جناية بني عبد المدان، وضرب بهذا المثل في شرف المكان، والناس في المنازل أطوار، فمنهم أنجاد ومنهم أغوار.
ومنه قوله:

بازي أشهب، تفخر السوابق بأنها له سمية، وترتمي الطير في جوّ السماء وهي له رمية، كأنما يجلو القذى عن عقيقتين، ويظلّ من توحّشه وإيناسه من خليقتين، ومن أدنى صفاته أن يقال: هذا خلق من الرياح، في صورة ذي منسر وجناح، وقد لقب بالبازي لكثرة وثوبه، وما غدا لمطلب صيد ففاته شيء من مطلوبه، ولقد تكاثرت قلوب الطير لديه في كل حال، حتى شبه رطبها ويابسها بالعناب والحشف البالي^(٢).
ومنه قوله في المطر:

وانحلّ بها خيط السماء، حتى استوى ريّ بطونها للظماء، ولكنه للريح التي حبتّه بما حبا، ولم يكن مسك طله معتصراً إلا من كافور الصبا.
ومنه قوله:

ولقد سنّوا دروع الحديد على مثلها، ولولا اتقاء البغي لرأوا حمل العار في حملها، فإذا صافحتّها أسنة الخرصان رأيت أشخاص الكواكب في غدران.

(١) في الأصل: موضع.

(٢) إشارة لقول امرئ القيس:

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكبرها العناب والحشف البالي

ومنه قوله في لثام:

أصلح الأفساد، ورد البلاد، وقد استذابت نقادها، واستجلبت وهادها، ووردت
وعولها بحيث ترد آسأداها.

ومنه قوله:

فعلم ذلك جهل لا يرع منه عنف الملامة، وداء لا يكفي في تقليل دمه الفصد
للحجامة، بل اليد لمن وضع السيف فيه موضع العصا، ومَنْ عمى الضلالة ما لا
يبصر إلا بسفك الدم، ومنه ما يبصر بتسييح الحصى.

ومنه قوله:

وكم لطيف الخيال مِنْ يد يبذلها وصاحبة يمنعها، ولطالما سمح برؤية عين لا
يراها، ونجوى حديث لا يسمعها، فيا لَهُ مَنْ باطل أشبه في مراره حقا / ٢٠٩/
وأوهم القلب انه داواه وما داوى، والغليل انه أشفاه ووما أشفى.

ومنه قوله:

قليل الاحتفال بالخطوب المختلفة، وإذا انتقلت أحوال الزمان، وكانت حالة غير
متقلة، فعلمه يطل على أفكاره، ويرى الأمر الخفي من خلف أستاره، ولا تبلغ الانجاد
والأغوار مدى انجاده وأغواره، فهو اليقظ الذي هجع النجم وهو لا يهجع، والماضي
الذي يجزع السيف وهو لا يجزع، والمعافى المضروب له المثل بأنه لا يخدع.

ومنه قوله:

ريعان العمر تشترك فيه نهضة الأجسام والهمم، ولهذا كان شباب العلا في
الشباب، وهرمها في الهرم، وما تشابها في اللفظ إلا لتشابههما في المعنى، وكلاهما
ذو رونق في حُسْنِهِ، إذا اجتمعا زادا حسناً، وما أقول إلا أن بين سواد الشعر والسودد
غراساً، كما ان بينهما في التسمية جناساً.

ومنه قوله:

من كل بطل يزحم غوارب الأهوال بغاربه، ويلقى وجوهها الكريهة بجانبه،
ولطالما كافحها في الحرب حتى تقصّت وقائعها غباراً على ذوائبه، فهو يقدم فيها
إقدام مَنْ ليس له أجل، ولا يرى للخذ الأسيل حسناً لا يخدُّ من الأسل.

ومنه قوله:

تماثلت فرائد عقودها وثغرها، فلا يدري أنظمت حلية نحرها في تبسمها، أم
حلية مبسمها في نحرها، فلو انتثر تلك الفرائد في الليل البهيم، لالتقطت حبات

العقد النثير في ضوء العقد النظيم.

ومنه قوله:

إذا نظر الخادم الى حبيبه المقتنى من خدمة الديوان العزيز لم يحتج الى أولية
مجدٍ قديم، ولا الى فضيلة سعي كريم، فالخطوط مقتسمة في تلك الأبواب بلثم
التراب، ولو عقلت النجوم كما يزعم قوم لنزلت إليها خاضعة الرقاب، وقالت لها:
أنت أولى بمكان السماء الذي منه مطلع الأنوار، ونشوء السحاب.

ومنه قوله في رؤوسٍ علقت على قلعة:

ولم يكن /٢١٠/ بناؤها إلا بعد أن هدمت نفس الأعناق، وكأنها أصيبت بجنون
فعلقت عليها القتلى مكان التمام، أو شينت بعطل فعلقت مكان الأطواق.

ومنه قوله:

لم تكسه المعركة نسج غبارها، حتى كسته الجنة نسج شعارها، فبدل ثوب
أحمره بأخضره، وكأس حمامه بكأس كوثره.

ومنه قوله في وصف الحياء:

الحياء لباسٌ يُتقى وجهُ الكرم بوقائه، وهو كاللحاء الذي يبقى العود ببقائه.

ومنه قوله:

لو أردت دوام الدهر على حالٍ واحدة ما دام، والبأساء والضراء خيالات
أحلام، فما ينبغي لك ان توليه حمداً ولا ذمّاً، فإنك تتقلد منه يدا ولا يدا، ولا تشكو
منه ظلماً ولا ظلماً.

ومنه قوله:

ولئن صبرت فلأن الجزع لا يفيد ردّ الفاتت، ولقد علمت أن للمصائب أجراً،
ولكنه لا يفي بشماتة الشامت.

ومنه قوله:

مررنا عليهم مرور الأمحال، وأمناهم وهم رجال بلا أرض، وتركناهم وهم
أرض بلا رجال، ولقد مَشَتْ المنايا في دمائهم حتى ظلت حسرى، وشبع السيف
منهم حتى تفرّز بطنه، وشرب الرمح حتى تأوّد سكرًا، ولم يبق للاسلام في عقده غلٌّ
إلا شفاه، ولا عنده دينٌ إلا استوفاه.

ومنه قوله:

في الحرب إذا أيتم^(١) السيوف من الأغمداد، فقد أيتم الاولاد من الآباء، وأثكل

(١) في الأصل: ايتمر.

الآباء بالأولاد، فلا يرى أذهم نفع إلا وهو ببياضها أبلق، ولا أحمر دم إلا بحدّها مُهْرَق، فهو مصارع النفوس، ومطالع السعود والنحوس، والنار التي عُبدت من قبل المجوس.

ومنه قوله:

لا يكون الكريم، كريماً حتى يكون لنفسه غريماً، فإن العطايا حقوق واجبة على أقوام، وإذا لم يجد الغمام بمائه، فأبي فائدة في كثرة ماء الغمام؟

ومنه قوله:

توانى عنه رسل النجاح، ووكلت به عزمة أوقفته على رجل، وأنهضته على رجل وأنهضته بجناح، ويمنعه من الإتيان على عجل، أن القضاء على مهل.

ومنه قوله:

/٢١١/ هونت نفسي حتى صرت أصرفها كما اشتهي، وأنهاها وأمرها فتأتمر وتنتهي، ومن صفاتها أنها لا تمني من غيرها بزاجر، وقد استوت حالتها في باطن من الأمر وظاهر.

ومنه قوله:

جمع المال فقر لا غنى، وهو كشجرة لا ظل لها ولا جنى، وصاجبه لا يستفيد به إلا ذماً، ولا يستزيد بالسعي له إلا همماً، واليسار على هذه الحال هو عين الاتلاف^(١)، والذهب والحجر سواء إذا لم تُصرف فيه يد الانفاق، وفضيلة المال داء الأعراض، كما أن فضيلة الزاد داء الأجساد، وعلاجهما شيء واحد في الوقوف على درجة الاقتصاد.

ومنه قوله:

وصنائع المعروف تورث من الثناء خلوداً، وتكون لغير ذوي الجدود جدوداً، تبنتي العلياء بما يفنى ولا يبقى، وترقى بصاحبها الى منال النجم وهو لا يرقى، والسعيد من جعل ماله نهياً للمعالي لا لليالي، وعرضة للمآثر لا للذخائر، ومن نال الدنيا فاشترى آخرته ببعضها، وأقرض الله من مواهبه التي دعاه إلى قرضها، فذلك الذي فاز بالدارين، وحظي فيها برفع المنارين.

ومنه قوله:

(١) كذا في الأصل ولعله اراد: الاملاق.

سارية تمشي لثقلها مَشِي الرداح، ويكاد يلمسها مَنْ قام بالراح، وما نتجت نتاجاً إلا أسرت في ضمنه حمل أقاح، ولا اظلمت إلا أضواء البرق في جوانبها فتمثلت ليلاً في صباح، فهي مسودةٌ مبيضة الأياد، مقيمة وهي من الفؤاد، نائمة على طول سهرها بالوهاد، فكم في قطرها من ديباجة لم تصنع أفوافها، ولؤلؤة لم تُشَقَّ عنها أصدافها، ومسكة لم تُخالِط سرر الغزلان أعرافها، فما مرّت بأرض الا أحييتها بعد مماتها، ووسمتها بأحسن سماتها، وغادرت غدرانها فائضة من جهاتها، ومثلها والنبت مطيّف بها بالأقمار المتعلقة بأردية ظلماتها.

ومنه قوله:

فلانَ قد كشف عن مقاتلِهِ، وعرض بجهةِ الأدلّةِ على قاتلِهِ.

ومنه قوله:

وقلمُهُ هو يراعُ نفثَ الفصاحةِ في روحِهِ، وكمنتُ الشجاعةُ بين ضلوعِهِ فإذا قال أراك / ٢١٢ / نسقَ الفرند في الأجياد، وإذا صال أراك كيف اختلاف الرماح بين الآساد، طوراً ترى نحلةً تجني عسلاً، أو شفةً تملي قبلاً، وطوراً ترى إماماً يلقي دروساً، وأونةً تنقلب ماشطةً تجلو عروساً، ومرّةً ترى ورقاء تصدح في الأوراق، وأخرى ترى جواداً مخلّقاً بخلوق السباق، وربما تكون أفعواناً مطرقاً، والعجب أنه لا يزهى إلا عند الإطراق، ولطالما نفثَ سحراً، أو جلبَ عطراً، وأدار في القرطاس خمراً، وتصرّف في وجوه الغناء، فكان في الفتح عمر وفي الهدي عمارا وفي الكيد عمراً^(١)، فلا تحظى به دولةٌ إلا بحدث على الدول، وقالت: أعلى الممالك ما يني على الأقلام لا على الأسل، والقلم مزمار المعاني، كما ان أخاه في النسب مزمار الأغاني، وكلاهما شيء واحد في الإطراب، غير ان أحدهما يلعب بالأسماع، والآخر يلعب بالألباب،

ومنه قوله:

وقلمُهُ هو الذي إذا قَدَفَ بشهب بنانه رأيت نجوماً، وإذا صَرَبَ شبا حدّه رأيت كلوماً، وإذا صوّر المعاني في ألفاظها رأيت أرواحاً وجسوماً، ولطالما قال فاستخفت موقراً، وكسا وقارا، وأطال فوجدت إطلاته بحلاوته إقصاراً، فهو دق المعاني المخترعة، يستخرجها من قلبها، ويبرزها في ثوبها القشيب، وليس خلق الأثواب كقشيبها، يجتني معانيه من ثمراتٍ مختلفة طعمها، وينسج ألفاظه من ديابيع مؤتلفة رقمها.

ومنه قوله في ذم كاتب:

لا يمشي قلمه في قرطاس له إلا ضل عن النهج، ولا تصوغ لفظاً إلا قيل: ربّ

(١) يريد بهم عمرو بن العاص في الكيد وعمر بن الخطاب في الفتح، وعمار بن ياسر في الهدي.

حدث من الفم كحدث من الفرج، ولكن ما كل من تناوَل قلماً كتب، ولا كل من رقى منبراً خطب، الدعاوى في هذا المقام كثيرة، ولكن ليس القنا كغيرها من القُصْب. ومنه قوله^(١):

وكان بين يديّ شمعة تعمّ مجلسي بالإيناس، وتغنييني وحدتها عن كثرة الجلّاس، وينطق لسان حالها أنها أحمَدُ عاقبة من مجالسة الناس، فلا الأسرار عندها بملفوظة، ولا السقطات / ٢١٣ / لديها بمحفوظة، وكانت الريح تتلعب بلهبها، وتختلف على شعبه بشعبها، وطوراً يُقيمُه فتصير أنملة، وطوراً تُميلُه فيصير سلسلة، وتارة تجوّفه فيصير مدهنة، وتارة تجعله ذا ورقاتٍ فيتمثل سوسنة، ومرةً تنشره فينبسط منديلا، ومرةً تلفّه على رأسها فيصير إكليلاً، ولقد تأملتها فوجدتُ نسبتها إلى العنصر العسلي، وقدّها قدّ العسّال، وبها يضرب المثل للحليم، غير أن لسانها لسان الجهال، ومذهبها مذهب الهنود في إحراق نفسها بالنار، وهي شبيهة بالعاشق في انهماك الدمع واستمرار السهر، وشدة الاصفرار. ومنه قوله:

ولقد عدا السحاب طوره إذا هَظَل في بلدة هو بها مُقيم، لكن عذره أنه أتى متعلماً، وقد جرت العادة بإفادة التعليم، وما أقول انه يقابل ذاك الوجه الندي، إلا بوجهٍ قلّ ماؤُهُ، ولو استحيا منه حقّ الحياء لما هَظَلتْ سماؤُهُ، وأنى يُقاس فيض كرم السحاب بفيض كرمه، أو ديمه الدائمة بإقلاع ديمه. ومنه قوله:

إذا رفعت الخطوب أعناقها، لقيها من رأيه بسعد الذابح، وان بقى ليلها، غشيه من عزمه بالسماك الرامح، فهو يسفك دماءها، ويجلو ظلماءها، ولهذا ترى وقد أجفلت عن طريقه، فرجعت عن حرب عدوّه الى سلم صديقه. ومنه قوله في اليأس والطمع:

ان نظر الى اليأس والطمع وجدا سواء في جدوى الاعطاء، ولا فرق بينهما إلا في روح التعجيل وكرب الإبطاء، ومن ههنا عجل البأس غنى والطمع فقرا، وأوسع صاحب هذا ذمّاً وصاحب هذا شكراً. ومنه قوله:

(١) الوافي بالوفيات ٣٨/٢٧ ورسائل الاثير ٩٦.

إذا فاز المرء من اليقين بحظه، ولحظ الدنيا بقلبه لا يَلْحِظُهُ، علم ان عطاياها عارية مردودة، وانها وإن طالّت مدّة وجودها فأنها مفقودة، وما ينبغي له حينئذ ان يُسرّ بالشيء المعار، وينقل له من دار المتاع الى / ٢١٤ / دار القرار. ومنه قوله:

وكانت الدنيا به مسرورة، فطوى عنها لباس السرور، وكانت الزلفى له بحياته، فانتقلت الزلفى إلى أهل القبور. وما أقول انه كان للأرض إلا بمنزلة الأرواح من الأجساد، ولا شك ان السماء حسدتها على الاختصاص به مما اعتادت من حسد الحساد، بماذا يمدحه المادح وقد أسلمه العيان الى الخبر؟ وان قيل لولا النبي لم تُخلق شمسٌ ولا قمر، قلت: ولولا موته لم تخسف شمس ولا قمر. ومنه قوله:

وكيف يظلم ذاك للحد وبه من أعمال ساكنه أنوار؟ أم كيف يجذب وبه من كف فيضه سبحانه مدرار؟ أم كيف يوحش والملائكة داخلةً عليه ببشرى عاقبة الدار؟ أم كيف يخفيه طول العهد على زوّاره وطيبُ ترابه هادٍ للزوّار؟ وا أسفني كيف أطأ على الأرض وهو في بطنها ملحود؟ أم كيف تراعى نجوم السماء وما هو بينها موجود؟ أم كيف أعدت أسماء البحار وليس في جملتها معدود؟ أم كيف أحمد من بعده عيشاً ولم يكن العيش إلا به محموداً.

ومنه قوله:

العفو عن المذنب عقوبة لعرضه، وإن نجا بسلامة نفسه، وخيانتته هي التي تلبسه من غضاضتها ما لم يبلغه العقاب بلبسه، وقد قيل إن الرفق بالجاني عتاب، والإحسان إليه متاب، ولا شك أن بسطة القدرة تذهب بالحفيظة، وتزيل وجد الصدور المغيظة، وشيم الولي تحب ان يكون رضاها شفيعاً الى غضبها، وان نبصت منه بادرة سهم ردتها شيمة التغمد على عقبها، فلا شافع إليها إلا وسيلة كرمها، ولا ذمة عندها إلا الاستذمام بحرمةها.

ومنه قوله:

إذا ادعت له الأوصاف رتبة فضل، شهد شاهد من أهلها وكفته وراثتها عن آباءه ان يشارك البعداء في فضلها، وأحق الناس بالمعالي من كان فيها عريقاً، ولا يكون المرء خليقاً بها إلا اذا كان أبوه بها خليقاً، واذا زكّت / ٢١٥ / أصول الشجر زكت فروعه، ولا يعذب مذاق الماء إلا إذا طاب ينبوعه.

ومنه قوله:

وأكْرِمَ بيديه التي تسمح بديّة القليل، ويرى الكثير من عطائها بعين القليل، وما كلّ مَنْ شاء استمرّت يده بالسماح، وقد تحجم عنه من تقدم على مكروه الصفاح، على أنه قد قيل: إنَّ بين التسميتين إحاء، فالسخاء يكون نجدة، والنجدة تكون سخاء، ومصداق هذه القول اجتماعهما لليد الكريمة، التي أَلْفَتْ إنجاح الوعد وإنجاح الوعيد، وضمّنت أرزاق الناس وأرزاق الحديد، وقالت في الندى: هل من صاِدٍ، وفي الوغى: هل من مزيد؟ فالساري الى أبوابها لا يصل إليه في نهج السرى وهو مهتد منها على قبس القارع، أو قبس القرى.

ومنه قوله في وصف هملاج^(١) له:

في العريية حسب أصلها، وفي العجمية نسيب جهلها، فهو مِنْ بينهما مستنتج، لا ينسب الى الضبيب^(٢)، ولا الى أعوج^(٣) شديد الحملّة، شديد الجملة، لا يُشَان بالغلو، ولا يُتعب راكمه بفرط العلوّ، أثبتّ من الصافنات صبراً، وأوطأ ظهراً، وأطوع للتصريف، وأسلم في الهيكل والوظيف، رحب اللبان، عريض البطان، سلس العنان، طوع الكرة والصولجان، قد استوت حالتها بإدناً ومضطمرأً، فإذا أقبل خلته مرتفعاً، وإذا أدبرَ خَلْتُهُ منحدرأً، كأنه دمية محراب، أو درة هضاب، فهو مخلّق بخلوق المضمار، وبدم الشرب والصوار، بناصية سائلة، وغرة سائلة، كنوّارة في شقيق، ولؤلؤة في عقيق، يشئ عليه بأفعاله، لا بعمّه وخالِه، وإذا كان الكريم في كل جنس، فهو كريم جنسِه، وإذا كانت العراب بأنسابها أبناء أمهاتها، فهو ابن يومه لا ابن أمسِه. كأنما ألقى لجامه على سالفة عقاب، أو شدّ حزامه على بارقة سحاب.

ومنه قوله في الخيل والسير:

ولما دَهَمَ نزلنا للاستراحة، والهجير في الاستعار، وقذف بالدرك الأسفل من النار، والحرباء قد لجأ الى ظلّ المقيّل، وسمح بمفارقة /٢١٦/ عين الشمس، وهو بها عين البخيل، فلم يكن إلاّ مقدار وضع الرّجل من الركاب، ومصافحة الجنب لصفحة التراب، حتى قيل: قد فجأتكم عصابةً من أهل العبث، تشدّ في ضرائها، وتجنب نفعها من ورائها، وقد فرطت أجيادها بأعنتها، وطاولت هواديها بأستنها،

(١) الهملاج: من البراذين، والهملجة: حسن سير الدابة في سرعة (القاموس).

(٢) الضبيب: فرس مشهورة كانت لحسان بن حنظلة الطائي، حمل عليه كسرى ابرويز يوم النهروان فنجا (أنساب الخيل ٩٥).

(٣) أعوج: من الخيل المشهورة كان لاحد ملوك كنده (أنساب الخيل ٢١).

فغدت حينئذٍ نجزةً من الخيل تدرك ما كانت به طالبة، وتفوت ما كانت منه هاربة، لا تَمَلُّ من موالاة الدروب، وهي عند النزول كمثلها عند الركوب. فما استويت على ظهرها، عقدت مع الرحي عقد الرهان، وعَرَضَتْ عليها حكم الشقراء والميدان، ثم قلتُ: ان استشعرت مسابقتي فقد جئت شيئاً فرياً، وتلت قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(١) وما كان إلا هنيهة حتى حال الركب للرواح عند الإظهار، واستسلمت المدى بالتقريب قبل الإحضار، وجئت القران فلقيته منها بصدرٍ يطارد الامواج مطاردة الفجاج، وعين لا يروعها هبوات الماء كما لا يروعها هبوات العجاج، فتلك فرسي التي أعدها لكلّ مخوفة، وهي حوت كلّ معبرٍ، وظليم في كلّ تنوفة.

ومنه قوله في الناقة والفرس:

سِرْتُ وتحتي بنتُ قفرة، لا يذهب السوى بجماحها، ولا تستزيد الحادي من مراحها، فهي طموح بإثناء الزمام، وإذا سارت بين الآكام قيل: أكمة من الآكام، ولم تسم جَسْرَةً إلا أنها تقطع عرض الفلا كما يقطع الجسر عرض الماء، ولا سميت حرفاً إلا أنها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الأفعال والأسماء، وخلفها جنيبٌ من الخيل، يقبل بجذع ويدبر بصخرة، وينظر من عين جحظة، ويسمع بأذن جسرة، ويجري مع الريح الزرع فيذرها وقد ظهر فيها أثر الفترة، وما قيد خلفها إلا وهو يهتدي بها في المسالك المضلّة، ويطأ على آثارها فيرقم وجوه البدور بأشكال الأهلّة، هذا والليل قد ألقى جرانه فلم يبرح، والكواكب قد ركّدت فيه فلم تسبح، وإنما أودّ لوزاد طولها، فلم تظهر غرّة أدهمه ولا حجوله، فقد قيل: انه أدنى المبعد، وأكمّ الأنوار / ٢١٧ / ودلّ عليه القول النبويّ «بأن الأرض تطوى فيه ما لا تطوى في النهار»، وما زلتُ أسير مرتدياً بثوبه حتى يكاد أن ينضو لون السواد، وظهر ذنب السرحان، فأغار على سرح السماء، كما يغير السرحان على النقاد، فعند ذلك نهلت العينُ من الكرى نَهْلَةَ الطائر، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة، وإنما كان على ظهر السائر.

ومنه قوله في الخاطر:

الخاطرُ كالضرع، إن حلبته طفّ، وإن تركته جفّ.

ومنه قوله:

لا ريب في أن لحاظ النواظر كمتون البواتر، وإنما اشتركت جفونهما في

الأسماء لا اشتراكهما في سفك الدماء.

ومنه قوله في الحكمة:

عقل المؤمن حول ماله، وماله من حول صبره، فإذا افتقرت يده ذهب بعقله،
وإذا صبرت نفسه ذهب بفقره.

ومنه قوله:

فرّوا وقد علموا أنّ العارّ مقرون بالفرار، لكنهم رأوا كلمة الأعراض أهون من
كلمة الأعمار، وتلك نفس خدعت بالحياة الذليلة التي الموتُ الذّمنها طعماً، وليس
الموت إلاّ في ان تلاقي النفس ذلاًّ، او تفارق جسماً، ولربما يسلا المهزوم ويقول
القائل ان الأسد يغلبها الأسود. وان الحرب ليست بمضاء العزائم، وإنما هي بمضاء
الجدود، وهذا القول مسلاة كاذبة لهم مكذوبة، ولولا العزم لم تُر حصون مفتوحة، ولا
جموع محروبة، وبالجد يدرك الجد، ولولا القُدح لم ينفث الزند، ولما جيء بأسرى
القوم منّا عليهم بإطلاق السراح، وقاتلت عنهم شيمة الصفح إذ لم تقاتل عنهم شيمة
الصفاح، وحمية الآباء لا تقتل من لم يحوه مكرّ الطراد، ولا حمية صهوات الجياد،
وأيّ فرق بين الأسير في عدم الدفاع، وبين أشباهه من ذوات القناع؟

ومنه قوله:

وما زال يزعج ديار الكفر بغزواته، حتى لم تهن حاملته بإتمامها، ولا مُتعت
عينها بلذة منامها، فاسم القرور من نسائهم منسوخ بغارة المقربات الجياد، ولذيذ
النوم بأرضهم مسلوب بايقاظ جفون البيض الحداد.

ومنه قوله في بليغ:

إذا ارتجل / ٢١٨ / أتته المعاني غير مكرهة ولا محرجة، وأبرزها كوامل الصور
غير مخدجة، وإن تروى تهافتت على توقد خاطره تهافت الفراش، وجاءته سوانح
وبوارح حتى تقول: تكاثرت الأطباء على خراش^(١).

ومنه قوله في تكذيب أهل النجوم:

ولقد أوهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم، والحكم على أفعال العليم الحكيم،
فأخبروا عن النجوم في سعوها ونحوسها، بما لما تخبره من نفوسها، وقضوا في
ترتيب أبراجها، واختلاف مزاجها، وحكموا على حوادث العمر من حال وجوده الى

(١) صدر بيت وتمامه: فما يدري خراش ما يصيد.

عدمه، في سعادته وشقاؤه، وصحته وسقمه، وأشباه ذلك من الزخارف التي نصبوها حبالاً للاكتساب على غير ذوي الألباب، وكلها أضغاث أحلام، وأوضاع لا تخرج عن خط الأقلام.

ومنه قوله:

ولم أبك إلاّ عصر الشباب الذي هو في الأعمار بمنزلة الربيع من الأعوام، وما كنت أعرف كنه أمره، حتى مضى فرحلت معه الحياة بسلام، فالأيام فيه غوافل، والسنون لقرب عهدها مراحل، ولم أقضِ وطراً إلاّ خلّفت أُنْدَى منه مرتعاً، وأحسّن مرّةً ومسمعاً، أيام لا أعاقِر خمرةً إلاّ لَمِي، ولا وردةً إلاّ خدّاً، ولا نقلاً إلاّ فماً، ولكأنّي ما كنت قمراً حلف إلاّ بالقدود وهَيِّفها، والجفون ووظفها، وليالي الذوائب وشرفها، ووجوه الأعمار التي لا تُشاب بكلفها، ولا يرى في غرر الشهور ولا في منتصفها، فأصبحت قد بدلت غريب الأحوال بأليفيها، وعوّضت من نضرة الأوراق ببس خريفها، فولى الصبا الآن بسلام، ولوعة ينبيء بها الدمع السجام.

ومنه قوله فيمن قصر:

ولتقر تفاح الخدود، فلست من تقبيله غراً، ولا من عضه، اللهم غفراً، وقد ينطق المرء بما يكون فيه لسانه أتماً وفعاله براً، ولولا حكم الفصاحة لما ذكرت بانه ولا علم، ولا وقف المتغزل بأقوله موقف التهم.

ومنه قوله:

لما عود الطير من جزر أعدائه تتبعه أسراباً، واستسقى سحابها ما تحته من /٢١٩/ سحاب خيله، فاستسقى سحاب سحاباً، ولقد مرّت عليه الشمس فضعفت ان تحرق جناحا، أو تحمي بحرهما سلاحاً، فلم يلتق بين الريش فرجةً يثر فيها دراهمها، ولربما خالّسها النظر إذا هزّت قوادمها.

ومنه قوله في الاستعطاف:

المولى إذا لين له غلب على أمره، وأزيلت مغيظة صدره، وهذه خليقتان من البعيد الذي يمسه بلحمة، ولا يمتُّ إليه بحرمة، فما للظنّ بالقرب الذي فاز بمزية الشركة في عرقه، وفضل الجوار لاحق أو جب من حقه، فكيف نسي المولى عادة كرمه، ووضع وجوه قومه تحت قدمه، وجعلهم حصائد سيفه وقلمه، وحاشاه أن يقطع رحماً أو صاه الله بوصلها، ويعضد^(١) شجرة أصله الكريم من أصلها، ويزعم بأنهم أخرجوه من معهود خلائقه، وبدّلوا أنواع غيوثه بمخيلة صواعقه، ولكنهم شفّعوا

(١) كذا في الأصل: ولعلّ الصواب: يخضد.

للذنب بالاعتذار، وعلموا ان خيط أرشيتهم لا يؤثر في كدر البحار، وقد قَدَّر المولى، والمقدرة تصغر الذنوب، وتذهب ترات القلوب، فإن نَقَمَ منهم أنهم جمعوا قلة الآداب الى إدلال ذوي الانتساب، فتلك سُنَّةٌ سَنَّا حُكْمُهُ، وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهَا حِلْمُهُ، وما يتحدث الناس ان الكريم عاد عن غباوة إغضائه، ورجع في حكم قضائه، وأوَّل راضٍ مسيرةً من يسيرها^(١)، فليُسبِلِ المولى عليهم ستر فضله، وينجز إساءة فعلهم بإحسان فعله، وليأخذ بأدب الله وأدب رُسُلِهِ في الاعراض عن الجاهل وجهله، ويعلم ان قوم المرء كنانته التي بها يناضل، وذروته التي بها يطاول، وإذا لم يحمل ما يريب من أدانيه رمته أقاصيه، ولا بُدُّ للانسان من طاعة ومعصية، ومن أجل طاعته تُغْفَرُ معاصيه، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾^(٢)، وبعد، فإذا أشار المولى ان يقتل حرًا فليعف عن زَلَلِهِ، فإن إصابة عِرْضِهِ أَشَدُّ من إصابة مَقْتَلِهِ.

ومنه قوله:

سليب المدائح أبهج حسناً من الغصون المكسوة بأوراقها، والحمام المتحلية بأطوقها، فهو عارٍ من اللباس / ٢٢٠ / مكسو من المحامد التي صاحبها هو الكاسي.

ومنه قوله في ذم الود المتكلف:

خير الود ما عطف عليك اختياراً، إلا ما أعدته بالعتاب اقتساراً، فإن شيمة التبرع كحسن التأدب غير مجلوب، والإنجاح في الطلب إتعاب لوجه المطلوب، إلا ان خير الود وُدٌّ تطوّعت به النفس، لا وُدٌّ أتى وهو متعب.

ومنه قوله:

والشيب يُعيد جدّة الشباب وهي أخلاق، وهي على كراهة لقائه مكروه الفراق، فواهاً لنزوله، واهاً لرحيله، وسحقاً له بديلاً من الشباب، وسحقاً لبديله.

ومنه قوله في الهجو:

لم أر له في حظوظ المساعي من قسم، كأنه فيها واو عمرو أو ألف بسم، فهو لا يزال منكراً غير معروف، فأما زائد لا حاجة إليه، وأما محذوف.

ومنه قوله:

السرُّ أمانة لا تُباع، ووديعة لا تُضاع، فالعين تُكاتم القلب فيها ما تبصره،

(١) من قول خالد بن زهير: [من الطويل]

فلا تجز عن سيرة أنت سرتها فأول راضٍ سيرة مَنْ يسيرها

(٢) سورة هود: ١١٤.

والقلب يكاتم اللسان ما يُضْمِرُهُ، وإذا حُوِّظَ على السرِّ هذه المحافظة، فقد ألقى في سهولةٍ لا يُرامُ اطلاعها، ونيط بصخرةٍ أعْيى الرجال على كثرةِ المحاولة انصداعها. ومنه قوله في قتال قوم كانوا بجبل ثم نزلوا فهزموا:

وبعد، فإن العساكر رَكِبَتْ لارتياح موقف الحرب، واختيار المصعد السهل في الجبل الصعب، لتكون على بصيرةٍ من أمورها، ولتأتي البيوت من أبوابها لا من ظهورها، فانبسطت كتابها في كل منخفض ومنحدر، ومزلزلٍ ومستقر، فحينئذٍ نفخ الشيطان في أنفه وساقه الى حتفه، فبرز بمن قبله من الجنود، ونزل عن قلال الأوعال الى مصطخر الأسود، وكان حزن الخطب في أحزانه، وتباعد مناله في تباعد مكانه، فلما أسهل النصر في طلبه، وأمكن يده من سلبه، لا جرم انهم رُدُّوا على الأعقاب، ونُسِفوا نَسْفَ الرياح السحاب، فلم يكن لهم سلاح أوقى من الفرار، ولا عاصم إلاّ الجبل الذي عصم من طوفان السيف وما / ٢٢١ / عصم من طوفان العار. ومنه قوله^(١):

ونار بين أيدينا سرب ظباء مدرّب على القنص ومقانصه، عارف بغوائله ومخالصه، وقد طرق مكانه حتى لم يهن بمرتعته ومشرعه، ولا أمنَ مصرعه وكبس منه ما تمتع برؤية أشباهه من الفرقدين، ولم ينس الفجيجة بإلفه الذي خرّ لغمه واليدين، فلما أحسّ بنا طار خيفة حتفه، وكاد ان يخلف ظلّه من خلفه، فأرسلنا عليه^(٢) سلسل الضريبة، ميمون النقية، منتسباً الى نجيب من الفهود ونجبية، كأنما ينظر من جمرة، ويسمع من صخرة، ويطأ من كل برثنٍ على شفرة، وله إهاب قد حيك من ضدّين بياض وسواد، وصوّر على أشكال العيون، فتطلّعت إلى انتزاع الأرواح من الأجساد، وهو يبلغ المدى الاقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة فلا يقنصها إلاّ عند التفاتِهِ، وقد علمت الظباء ان حبالها في حبل ذراعِهِ، وان نفوسها مخبوءةٌ بين أضلاعِهِ، فلم يكن إلاّ نبضة عرق أو ومضة برق، حتى أدرك عقيلةً من تلك العقائل، فأناخ عليها بكلّكلِهِ، ووقف بإزائها ينتظر وصول مرسله.

ومنه قوله:

والتاريخ معاد معنوي، يُعيد الأعصار وقد سَلَفَتْ، وينشر أهلها وقد ذهبَتْ آثارهم وَعَعَفَتْ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غِرّاً، ويلقى آدمٍ ومَنْ بعده من الأمم وهَلُمَّ جَرّاً، فهم لديه أحياء وقد تضمّنتهم بطون القبور، وعنه غُيِبَ وقد جعلتهم

(١) بعضها في نهاية الارب: ٢٤٩/٩. (٢) بعدها في نهاية الارب: فهذا.

الأخبار في عدة الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب، ولم يعلم الانسان ان أصله من تراب، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها، وعمي من الأواخر حال قدمائها، ولم تحط علماً بما تداولته في الأرض من حوادث سمائها، ولمكان العناية إليه لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة، فمنها ما أتى بأخباره المجملة، ومنها ما أتى بأخباره المفصلة، وقد ورد في التوراة في سفر من أسفارها، وتضمن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومدد أعمارها / ٢٢٢ / وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه، والكتاب وضبطه، تصرف الى التواريخ جُلّ دواعيها، وتجعل له أوفر حظ من مساعيها، فتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم مسطورها، كل ذلك عناية منهم بأخبار أوائلها، وإبانة فضائلها، وهل الانسان إلا ما أسسه ذكره وبناءه؟ وهل البقاء إلا بصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه؟.

ومنه قوله:

الخادم يعود المولى من شكاة جسمه، والناس يعودون الخادم من شكاة همّه، وإذا مرض المولى المنعم سرى مرضه الى عبيده وخدمه، فهم مشاركوه في اسم مرضه، وإن خالفوه في صورة ألمه، وقد تمرض أرواح المرض أجساد، ويشتركان في كل شيء حتى في عيادة العواد.

ومنه قوله في السير:

ولقد سيرت سير الأخبار، وأخذت بمطالع الليل والنهار، حتى عديت رفقة ورقفا، وصيرت للغرب غرباً وللشرق شرقاً.

ومنه قوله:

إذا وقفت بالدار تُسائل أحجارها، وتبكي آثارها، فإنك لا تبكي التراب، بل الأتراب، ولا تندب الآثار الحائلة بل الأحباب الزائلة، ولا فائدة في سلامك على الطلل الذي لا يعي خطاباً ولا يردّ جواباً، فإننا نخاطب أصداء لا تملك إعادة ولا إبداء، وإذا شعلت نفسك بسؤال التراب والجنادل، فلا فرق بي سؤال من لا يجيب، وجواب من لا يسأل،

ومنه قوله قريب منه:

ولقد قصد منه كريماً لم تزل معاهد أكنافه معهوده، ومن شيمة مواهبه ان تكون قاصدة قبل أن تكون مقصودة، من يسأله غير درجات المعالي فقد قدح في مواهبه، وحظ من مراتبه، أمسك المال وجعل حادث هلاكه في ضمن إمساكه، فلو حلف سائله أن يصفح السحاب لبر في يمينه بمصافحة يمينه، وليس هذا من المجاز الذي

يتوسع في مقالِهِ، بل هو من حقيقة القياس الذي يحمل على اشباهه وامثاله.
/٢٢٣/ ومنه قولُهُ:

وبأيديهم كلّ لدنٍ شدّته في لينه، ولكن النصر منوط بتمكينه، فما منهم إلاّ من اعتقل ما يماثله قدّاً، أو يناسبه جدّاً، فإذا مثلت شكولها وشكولهم قيل: صعاد، في أيدي صعاد، وإذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل: أساود في أيدي آساد، ومن صفاتها انها لا تشد [إلا] إذا كانت قصائد، ولا تجور إذا كانت قواصد، قد أدّبها الثفاف من عهد فطامها، وكانت منابت التراب من شرابها، فأصبحت منابت الترائب من طعامها، فهذه هي الرماح التي تعلقها أيدي الأبطال وتأوى منها إلى معاقل بذلك الاعتقال.
ومنه قولُهُ:

مَنَّنَا عليهم من الأسلاب بالبيض القواطع، ليجعلوا حليها أساور في أيدي البيض، ذوات البراقع وحلية السيف لا تحسن الا بكف يكون به ضارباً لا له حاملاً، وإذا عطل في مواقف الجهاد فالاولى ان تجعل له عاطلاً، فحفنا أن ينشدهم قول أبي العتاهية^(١): [من الهزج]

فصُغَ ما كنتَ حَلَيْتَ به سيقَكَ خلخالاً
ما تصنعُ بالسيفِ إذا لم تَكُ قَتَّالاً
ومنه قولُهُ:

ولقد تعقبت للأيام نقصها بإتمامها، ونقضها بإبرامها، ونسي نعي ميتها ببشرى حيّها، ونشرت المكارم التي كانت طويت فوفى أنس نشرها بوحشة طيّها، وأصبح عزاء الناس مستدركاً بالهناء، وعوضوا عن كنز الغنى بكنز الغناء، حتى استرجعت العبرات ما جادت به من سحاب مزنها، واستبدلت ببرد مسرّتها من حرارة حزنها.
ومنه قوله في الحلم:

إذا حكمت قدرته في الذنوب كان العفو لها عائقاً، وإذا أحبّ الشفعاء أن يشفعوا إليه كان كرمه لهم سابقاً، فلا بارقة في بوارقهِ إلاّ وهي مغشية بغمامة حلمه، ولا بادرة من بوادره إلاّ وهي محبوسة في قبضة كظمه، وعلى هذا فإن الجاني غير مقتصر لديه الى إقامة الأعذار، ولا إلى التوبة التي تستر عورة الإصرار، فيوشك انه تخلق بخلق /٢٢٤/ الله سبحانه في عموم المغفرة، ورأى أن لا أثر يبقى في صدر المغيظ إذا تولّت إذهابه يد المقدره.

ومنه قوله في الخمر:

سقيت مغارسها بالسرور بدلاً من الماء، وجمع لها بين وصفين من تذكير الافعال وتأنيث الأسماء، وما سجننت في دثها إلا لما عندها من النفار، وكانت حمراء اللون فألبسها طول السجن ثوب الاصفرار، وقد شبهت بالنار الموسوية في تألق ضرامها، وبالنار الخليلية في بردها وسلامها، وإذا نظر إليها والى زجاجها اشكل الأمر بينها وبين الزجاج، وقيل هذا سراج في كأس أم كأس في سراج؟
ومنه قوله:

النفوس تؤثر الخير تكلفاً والشرّ طبعاً، وهي مجبولة على حبّ الشهوات قلباً ولساناً وبصراً وسمعاً، ولكن للتدرّيج أثر في تقويم الاعوجاج واصطناع الياقوت من أحجار الزجاج، ولهذا استخراج من اوراق الشجر وشايح الديقاج.
ومنه قوله في المدح:

إذا أفضت في الثناء عليه تنافس النظم والنثر في الاستقلال بأوصافه، وما منها إلا من فض ختام طيبه ونشر مطاوي أفوافه، فما ترى في مديحي لمولانا من حسن فليس لها مخلوقاً، بل من أوصاف سيدنا مسروقاً. [من البسيط]
إذا القصائدُ كانت من مدائحهم يوماً فأنت لعمري من مدائحها
ومنه قوله:

المال يكون في خزائن أربابه صامتاً، وإذا خرج في العطايا صار ناطقاً، فيا قُبْحَهُ في أيديهم حببياً، ويا حسنه عنهم أبقاً، ولم يسمع قبله بأبق أفاد صاحبه حمداً، وبنى له مجداً.

ومنه قوله في قريب منه:

جود مولانا قد هون على الناس مشقة الاغتراب، وأراهم من نعيم الأنعام ما حبّب إليهم فراق الأحباب، فما منهم إلا من يحمد خطوب الأيام التي أخرجته من دياره، ونقلته عما لم يؤثر الانتقال منه إلى ما لقيه من إيثاره، فمثال بابه الكريم بقتلى الايام، كمثل الجنة بقتلى الحمام، فلو علم داخل الجنة انها تكون له مصيراً، لاستعذب كأس الحمام وإن كان مريراً، وذلك كما / ٢٢٥ / قال ابن الخياط^(١): [من البسيط]

لأشكرن زماناً كان حادثه وصرفه بي الى معروفكم سببا

(١) ديوان ابن الخياط: ٧٠.

ومنه قوله :

إذا حَكَّمت سيوفنا في أموال العدا، حَكَّمت فيها وسائل الندى، فهي طالبة ومطلوبة، وسالبةٌ ومسلوبةٌ، إلا أنها تأخذ ما تأخذه اقتسارا، وتعطي ما تعطيه اختيارا، فلها بسطة الغالب ومنة الواهب.

ومنه قوله في شكر منعم :

إذا تقابلت مدائحي وسجاياه، رأيتُ مرآةً صقيلة، تقابل صورةً جميلة، فلولا هذه ورونق صقالها لما تمثَّلت تلك على هيئة جمالها، وأنا أوّل من طبع مرآة من الكلام، وصوّر الأخلاق فيها بصورة الأجسام.

ومنه قوله :

وردتُ إشارة سيدنا أن أنظم في فلان قصيداً يكون في نظمه فريداً، وقد علم أن أحرار الكلام وردت ان لها عزة الاحرار، وهي كالنفوس الأبيّة في الاستعلاء والاستكبار، فإذا كلفت مدح لئيم صدّت مجانبةً وذهبت مغاضبةً، ولهذا أبى كلامي وهو الحرّ في نسبه، الكريم في حسبه ان يمدح مَنْ عرضه حراق قادح، وفريسة جارح، وطعمة هاج لا مادح، ولطيمة الطيب لا تلتئم بالكنيف وصورة الشوهاء لا يزين منها التسوير والتشنيف.

ومنه قوله في قلم :

أخرس وهو فصيح الإيراد، وأصم وهو يسمع مناجاة الفؤاد، لا ينطق إلا اذا قطع لسانه، ولا يضحك إلا إذا بكّت أجفانه.

ومنه قوله في تفضيل الإحسان على الشاء :

الشكر أخفّ من الإحسان وزناً، وصاحبه يستبدل الذي هو خير بالذي أدنى، ولقد ربحت صفقته إذا باع أقوالاً وحاز أموالاً، وأعطى كلمات خفافاً، وأخذ عروضاً ثقلاً، ومَنْ زعم ان شكر الشاكر أفضل من موهبة الواهب فقد أغلى القول فيما ليس بغال، وأتى ويده السفلى من مكان عال، وأي فضل لمن غايته ان يكون مجازيا لا موازيا، ومعاملاً لا معادلاً؟ وإذا أنصف / ٢٢٦ / علم أنه جاء أخيراً، ولا فرق بينه وبين من أعطى أجره فصار أجيراً، وما ارى الشكر إلا حديثاً يذهب في الرياح لو لم تقيده مكارم السماح، فلا حاجة مع لسانها الى الشاكر، وإذا نطقت الحقائق فقط أغنّت بنطقها عن مديح الشاعر^(١).

(١) تضمين لقول نصيب: [من الطويل]

فعاوجوا وأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثننت عليك الحقائق

ومنه قوله :

الخادم لا يشكو الأقسام، ولكن يشكو الايام، فان المعدى على قَدَرِ العدوِ
والمشكُوِّ إليه على قدر الشكوى، ومما يشكوهُ منها انها تبادهه، ولا تواجهه،
وتسارره ولا تجاهرهُ، ولو كان لها شخص، للقيه بعزم مولانا فقارعه، أو أرهبه
باسمه الكريم فوادعه، وهي عبيدة تجني وهو المطلوب بجنايتها، وإذا رأت بأحدٍ
عنايةً من جاهِهِ قرنتها بعنايتها، والمملوك يطالب مولانا بأرش جراحها ويسأله عناية
تكفّ من غربِ جماحها.

ومنه قوله في سرى النياق :

كم للركاب من يدٍ لو علمتها لجعلت تراب اخفافها للعيون إثمَدًا، وخطط
منازلها للجباه مسجداً، فهي الحاملة أعباء الهمم، والممكنة من نواحي النعم.

ومنه قوله :

جوده بعيد على الأمل، غير مفتقر الى العذل، وإذا احتفل فهو نهر طالوت الذي
حلّل للغرفة لا للنهل.

ومنه قوله في كريم :

لا يضربُ بين ماله حجاباً وبين السائلين، وإذا عدل على الجود أجاب بقوله
تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).

ومنه قوله في الاقتصاد في طلب الرزق :

الانسان في كفالة الله يرزقه غير واثق، وهو في كلّ طريق إليه مالك، ولكلّ باب
فيه طارق، وكثيرا من يأتيه الرزق وهو عن طلبه نائم، ويقعد عن ابتغائه وهو إليه
قائم، ولا يُصَرِّفُ الأقدار إلا القادر على خلقها، وكم من دابةٍ مرزوقة وهي ضعيفة
عن حمل رزقها.

قلت : ذكرت بهذه الكلمة دعاء كتاب كتبه ابن عبد الظاهر^(٢) عن الملك الظاهر^(٣)

الى وزيره بأن يربع دواب الحرس، وكان قد أمرَ باخصائها لإزعاجها له بالنهيق، ثم
رأها فرحمها، فأمر بذلك الدعاء : ولا زال يشكره غرب البلاد / ٢٢٧ / وشرقها،
وحمامها وورقها، وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله وعلى حسن تدبيره رزقها.

(١) سورة الأعراف : ١٩٩.

(٢) محيي الدين أبو الفضل عبد الله عبد الظاهر بن نشوان، المتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٢هـ. مضى ذكره.

(٣) الملك الظاهر بيبرس، الذي ملك الشام ومصر، توفي سنة ٦٧٦هـ، وأخباره كثيرة جداً (الوافي
بالوفيات ٣٢٩/١٠).

عدنا الى ابن الأثير، ومنه قوله في ذكر الخدمة:

لو ساغ لوليٍّ من أولياء الديوان العزيز ان يمتَّ بولائه، أو يُدِلُّ بما أبلاه في الخدمة من حسن بلائه، لكان لسان الخادم في هذا المقام أكرم صدقاً أو مكانه منه أشرف حقاً، لكن ليس لقائم بخدمتها ان يمتن بقيامه كما ليس لمسلم ان يمتن بإسلامه، والخادم وإن أمسك عن ذكر خدمه، فقد نطقت بها شهرةً سماتها، وأصبحت موافقها في الموقف أبكاراً، ونطق البكر في صماتها، ولم تزل معروضةً بالديوان العزيز، وكل وقت أبان وقتها، وهي كالأيات لا تأتي منها آيةٌ إلا كانت أكبر من أختها.

ومنه قوله:

ولطالما أورى الاغتراب عزّاً، وأثار من السعادة كنزاً، حتى ان الله جعله سنة في أنبيائه ورسله، ونهج لهم سبيل العزّ بسلوك سبله، كسنة الغربة اليثرية في الهجرة النبوية، وما أوجسه من القوّة بعد الفرار، والكثرة بعد ثاني اثنين إذ هما في الغار، والتقليل سبب للسكون، والشهادة داعية لهدوء العيون، ولو لزم السيف غمده لم بين أثر مضاربه ولا خدمه لسان في نظم شاعره ولا نثر خاطبه، وبالاغتراب عذب ماء البحر لما فارق السحاب.

ومنه قوله:

له القلم الذي يصرع الخطب الجليل بضعفه، ويسبق الحرف الأمون بحرفه، وإذا نكس رأسه رأيت أبهة الخيلاء في عطفه، فهو يجلب بأساً ويدق جسماً، ويمجج من لسانه شهداً وسماً، فإذا ارتقى أنامله قيل: خطيب رقى منبراً، وإذا اهترّ في يده كأنه جان ولي الخطب مدبراً.

ومنه قوله:

لو ذهب الحزن بالدمع وانهماليه، لكان الصبر بصاحبه أحرى، ولو لم يتلّ به أجرا، فكيف وصلوات الله ورحمته من ثوابه، وما اعتاض المرء صبراً عن المصاب، إلا كان فيه عوض عن مصابه.

ومنه / ٢٢٨ / قوله:

المكر ضراب من تحت الثياب، وسيفه لا يقطع إلا وهو في القراب، وصاحبه يلقي بوجه الأحباب، وهو كالجبل الذي تحسبه جامداً وهو يمرُّ مرّ السحاب، يفرق الجموع وقد كادت تكون عليه لبدا، ويجعل قولها أضعف ناصرًا وكثرتها أقلّ عدداً، ويستغني بليّن كيدِه عن شدة أيديهِ، وكثيراً ما يطعن أقرانه قبل الطعان، ويفاجئهم

بالذعر وهم من الأمن في صوان.

ومنه قوله في التضرع الى قريب مضايق:

أنا أسأله بالرحم التي أمر الله باتقائه واتقائها، وتكفل بالإسقاء يوم القيامة لمن تكفل بإسقائها، واشتق لها لكرامتها عليه اسماً من اسمه وقسم لواصلها ببسط العمر والرزق للذين هما من أفضل قسمه، فلا تتركني أتأوه بقلب المتألم، وأجهر بلسان المتظلم، وان اصله بسهام الدعاء القاصدة، وأحاكمه الى صراعة البغي التي ليست عن الباغي براقدة، واتمثل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَشَعُونَ نِجْمَةً وَلِي نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١) ويعز علي أن ألقاه بهذا القول الذي أنا فيه غير مختار، ولئن كان من المحظور النهي عنها فالمحظور يباح لمرتكبه عند الاضطرار.

ومنه قوله في تذكير بعض الطغاة:

تذكير الطاغية من سنة الله التي خلّت في عبادِهِ، وان عسر نقله عما جُبلت عليه فطرة ميلاده، وقد أمر موسى بتذكير فرعون مع انه لم يستفد ذكرى، بل زاد الى طغيانه طغياناً والى كفره كفراً.

ومنه قوله:

ونُصبت المجانيق، فألقت عصيّها وحبالها، وصبّ على أقطار البلد نكالها، فسجدت له الأسوار سجود السخرة لفعل العصا، وبادرت للايمان بها مبادرة من أطاع وما عصى، ولم يكن في أيمانها إلا بعد اذن الاحجار التي ما أذنت لمشيد إلا أخذ في البوار، وخرّ من الأقطار، وأصبح كشجرة اجتثت فوق الارض مالها من قرار.

ومنه قوله في كتاب:

ورد كتابه، فطلع طلوع الصباح السافر، على المدلج الحائر، لا بل أقبل / ٢٢٩ /
إقبال الحياة على الاجساد، والحيا على السنة الجماد، فعظم موقعه ان يُدال باليد أو ينال بالنظر، أو يوصف بأنه ثاني المطر، أو ثالث الشمس والقمر.

ومنه قوله ، رسالة في البندق^(٢):

من المآرب ما يفعل طابئِهِ، ويرتاح ناصبه، ويشترك فيه الناس، وكل منهم صاحبه، كالقنص الذي هو للخاصة نهزة مراح، والعامه صفقة أرباح، وهو جامع برياضة أجسام ومسرّة أرواح، وسأذكر موقفاً وقفته، وموسماً عرفته تخلسه الدهر إذا

(١) سورة ص: ٢٣.

(٢) ما جاء فيها في وصف القسي في نهاية الارب ١٠ / ٣٢٧.

عرفته، وذلك أني في زمن الربيع والأرض ديباجة، والسماء زجاجة، والجو قد أصبح بأنفاس الرياض معطرا، والشمس قد ضربت في أرجائها عموداً، فأخضر أخضراراً مُعْضَفراً، ولقد أصاب من مثل العام شخصاً، وجعل الربيع بمنزلة ثغره النسيم، أو عمراً وجعله بمنزلة شبابه الوسيم، وقد زاد عندي حسناً اني اصبحْتُ في هذا اليوم أصحب أخاه الذي شابههُ في اعتدال زمانه، لا في تلون ألوانه، وناسبه في طيب شيمه، لكنه أسخى منه في فيض كرمه، وهو مولانا الملك الذي سعيه مشتق من لقبه، وسبقه الى المعالي كسبق الممتني إليه من نسبه، والمسمون بالملك كثير، غير أن هذا الاسم لا يختص إلا به: [من الكامل]

مَلِكٌ زَهَتْ بِمَكَانِهِ أَيامُهُ حتى افتخرنَ بهِ على الأيام^(١)

وكان المنتظم بخدمته في هذا اليوم غلمان كأنهم لؤلؤ منظوم، وهو أشرف خادم لأشرف مخدوم، ومقامهم في الحسن سواء فلا يقال فيهم: وما منا الاله مقام معلوم، وكلهم قد تأهب للطرد تأهبه للطراد، وهم متقلدون قسيّ البندق مكان النجاد، فإذا^(٢) تناولوها في أيديهم قيل: أهلة طالعة من اكف أقمار، وإذا مُثِّلَ غناؤها وغناؤهم قيل: منايا مسومة بأيدي أقطار، وتلك قسيّ وُضِعَتْ للعب لا للنضال، ولردى الأطيوار لا لردى الرجال، وإذا نعتها ناعت قال: انها جمعت بين وضفي اللين والصلابة، وصيغت / ٢٣٠ / من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة، فهي مركبة من حيوان^(٣) ونبات، ومؤلفة منهما على بُعد الشتات، فهذا من سكان البحر وسواجله، وهذا من سكان البرّ ومجاهله، ومن صفاتها انها لا تتمكن من البطش إلا حين تُشدّ، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تعطف وتردّ، ولها بنات أحكم تصويرها، وضحّ تدويرها، فهي في لونها صندليّة الإهاب، وكأنما صنعت لقوتها من حجر لا من تراب، فإذا قذفها الأطيوار^(٤) قيل: وَيَضَعُدُّ من الأرض من جبالٍ فيها ومن برّد، ولا ترى حينئذ إلا قتيلا، ولكن بالمثل الذي لا يجِبُ في مثله قود، فهي كافلة من تلك الأطيوار بقبض نفوسها منزلة لها من جو السماء على أم رؤوسها، فما كان إلا إن ابتدر أولئك الغلمان طلقاً من الرمي يأتي على اختيار المخترار المنايا ذات أسماع وأبصار، وإذا عرض له السرب لم يخش فوت خطأ ولا فوت قرار، فمن بين دراجة أدرجت في

(٢) ما يليها في نهاية الارب ١٠ / ٣٢٧.

(١) ديوانه ص ٤٢٦.

(٣) في الاصل: حياة.

(٤) كذا في الأصل، وفي نهاية الارب: فاذا قذفها نحو الاطيوار.

ثوب دماثها، وحمامة حم عليها نزع دماثها، ومن كروان فجع بينهم فراخه، وأوزة ودّت لو جاءت الى الصائد ومكيد ففاخه، فلم يضرنا مع ذلك فقد المنتخب من الجوارح، وكان اليوم كيوم المحصّب من كثرة الذبائح، وشهدت في خلال هذا المتنزّه من لطائف اللذات ما يغلو على مستامه، ولا يجيله خاطر المنى في أوهامه، وإذا تذكرته النفس اعاد آخر طعمه أوّله، وقالت: نرى الدهر نام عنه أو أغفله، على أنه لا يستغرب موآاة مثله لمثل هذا السلطان الذي الأيام له عبيد، ولا تُمضي إلا ما يُريد، ومن اكرم نعم الله عليّ ان أصبحت من خدمه معدوداً، وعلى خدمته محسوداً، فلهذه النعمة ان أمسكها إمساك الشكور، ولأصاحبها مصاحبة الغيور، وقد كنت بالأمس أنذر لها ندوراً، وأنا الآن وافٍ بتلك الندور والسلام

ومنه قوله من كتاب كتبه في معنى كتاب فاضلي كتبه الى الظاهر يعزيه بوالده، وكان جرى حديث هذا الكتاب / ٢٣١ / في بعض المجالس، فاستحسن، وطلب الجماعة الحاضرون أن يعارض بمثله، فأملى هذا الكتاب عليهم، وكان المتوفى قد مات وقت الصباح:

كتب المملوك كتابه هذا في ساعة أفلت الشمس فيها عند الصباح، وذهبت بروح الدنيا التي ذهبت بذهابها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلّت بها الأبواب حائرة، وتمثلت فيها الأرض مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخصّت الأرض من جَبَلِها الذي كان يمنعها ان تميد، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس الا وقد أصمّ سمعه الخبر وأصيب في سواد القلب والبصر، وقال وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر، ولما غلبت على الدفاع عنه ألقيت بيدي، إلقاء مكسور الجناح، واستنجدت الدموع، والدموع من شرّ السلاح، ونظرت الى العساكر حوله ولا غناء لها عن كثرة السيوف والرماح، وقد ودّعته وداع من لا مطمع له في أيامه، وحال الترب بيني وبينه، فصار بعيداً منّي على اقترابه، وبرغمي ان يمشي لي قلم بعزائه، وأن أكتب به أعزّ أعزائه، ليس عندي صبر حتى أحت على مثله، ولو كنت من رجاله لغلبنى الأسى بخيله ورجله، والذي يستنطقه المولى من رأي فإن هذه الرزية أخرسته عن الكلام، وتوفته مع مخدوميه الذاهب فاستويا جميعاً في الحمام، ولكن في وصية عبد الملك لا ولادو ما يغني عن الآراء واستنطاقها، وقد ضرب لهم مثلاً في الاجتماع والافتراق باجتماع القдах وافتراقها، والسلام.

ومنه قوله مما كتبه الى الأفضل عليّ^(١) عند عودته الى الديار المصرية المحروسة:

(١) الملك الافضل: علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه، ثم =

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١)، يقبل الأرض بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الافضلي النوري، جعل الله الليالي / ٢٣٢ / والأيام من جنده، وأظهر آيته في اعتلاء أمره وتجديد جده، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وعَقَدَ له لواء نصرٍ لا شركة للناس في عقده، ويهنيء مولانا بأثر نعم الله المؤذنة باجتبائه، حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه، ولو انصف لهناً الأرض بوابلها، والأمة بكافلها، خصوصاً أرض مصر؛ لأنها قد حظيت بسكنائه، وعَدَّت في بحرين من فيض البحر وفيض يمناه، فأصبحت تشمخ بأنفها، وتسطو بطرفها، وتُجِيرُ من الأيام وصرفها، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، أو سيقت له الجنة بنضارتها وسرورها: [من الكامل]

ما زلت تدنو وهي تعلو عِزَّةً حتى تواري في ثراها الفرقد^(٢)

وقد كان منتهى أمل الأدباء أن تعود الضالة إلى ربها، وتفك الطريدة المغصوبة من يد غاصبها، فأتى فضل الله بما لم يؤمله أمل الآمل، وعوض عن القطرة الواحدة بسحابٍ هاطل، وهذه نعمة يضيق عنها مجال القول المعاد، ويسرع بياضها في سواد الحساد، فلو عَدَّت الجباهُ ساجدة، والقلوب حامدة، والأيدي ترفع الدعاء باديةً وعائدة، لما وفي في ذلك بحقها، ولا أخرج الأعناق من عهدة رقبها، وأحسن ما فيها انها زارت على غير ميعاد، وحثت ركابها من غير سائق ولا حاد، وتخطت وقد ضُرب دونها بسور من صدور الطبي ورؤوس الصعاد، فلم يكن لأحدٍ فيها منة سوى الله الذي قرب بعيد اسبابها، وفتح مستغلق أبوابها، وأبرزها على حين غفلةٍ من حجابها، فيجب على مولانا ان يخترنها بالانفاق، وان يقيدها بالاطلاق، وان يقص اجنحتها لتظل طائرةً في الآفاق، والمملوك في هذه الوصية كصيق نصل له من جوهره صقال، وعاصر سحابٍ له من نفسه انهمال.

ومنه قوله في المجانيق:

ونصب المجانيق فأنشأت سحابا يخشى محلها، ولا يرجى ويلها، فما سيقت الى بلدٍ حيٍّ إلا أماتته، ولم تأتِه إلا أتاه أمر الله إذا أتته، فلم تزل تقذف السور بصوبها المدرار / ٢٣٣ / وتنزل عليه جبلاً من بردٍ غير أنها من أحجار.

^١ اخذت منه وأعطي صرخد، مات بسمسياط سنة ٦٢٠هـ. وكان أديباً عالمياً يقول الشعر (وفيات الاعيان ٤١٩ / ٣).

(٢) البيت للممتني (ديوانه ص ٤٩).

(١) سورة الانبياء: ١٠٥.

ومنه قوله في التوكل :

وألطف الله لا يعرفها إلا من عرف الله فوقاه حقّه، ولم يكن ممن ضرب له مثلاً ونسى خلقه.

ومنه قوله :

وأفتى قوم بوقار المشيب بغير علم وأضلّوا، وما أراه إلا محراثاً للعمر، ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلّوا.

ومنه قوله في الحث على الصدقة :

إنما الصدقة لمن قَمَصَهُ الفقر لباساً، فستر ذلك اللباس، وكان لا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس، والنار تتقى بشق تمرّة، وما سدّ رمقاً لا يطلق عليه اسم قلّة، وإن لم يكن موصوفاً بكثرة.

ومنه قوله في عيادة مريض :

ولما بَلَغَ المملوك خبر شكاته، هيض منه ما ليس بمهيض، وأصبح وهو الصحيح أشدّ شكوى من المولى وهو المريض، وقد ودّ لو وقاه، وتلك أقصى درجات الوداد، ولم يبق إلا نفسه بنفسه، وقد تجتمع النفسان في جسدٍ من الأجساد، ولقد ناجى المملوك نفسه ان هذه الشكاة لا تلبث إلا تلبّث الزائر عند المزور، وانها لم تأت إلا لتظهر ما عند الناس من مودّات الصدور، فكم من أيّد بالدعاء ممدودة، ونذور عند الله ليست بمعدودة، ولقد أخذ المملوك بالخبر النبوي فجعل الصدقة طيبياً، وتقالّ بأحاديث منام لم يحدث بها إلا لبيياً أو حيبياً.

ومنه قوله :

وهم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل نفس مضروبهها وضاربهها، فما عليها جاهدت صابرةً محتسبة، ما كان من موارد هلكها، ولا ألم عندها للكولوم إذا جلت يوم القيامة، ولونها لون دمها وريحها ريح مسكها.

ومنه قوله في عدم قبول توبة باغ :

التوبة وإن جبّت ما قبلها، فانها معتبرة ممن ندم على ما فات، وأخلص فيما هو آت، وأما مَنْ يظهر أمراً ويبطن خلافه فإنه لا يَلِجُ بابها ولا يرجو ثوابها.

/ ٢٣٤ / ومنه قوله :

الفراسة تقرب عيونها، وتصدق ظنونها، والانسان شرّ مكنون، يظهره الاختبار، ويخفيه الاختبار، وقد عَوَّلْنَا في ولاية فلانة على فلان، وما أهْلنَاهُ لها حتى توسمنا

منه ما يتوسم من الصاحب، وعضدنا رأينا فيه برأي من عندنا من الناصحين.
ومن قوله:

فلان يومه في الصحبة كَعَدِهِ، ولسانه في العفاف كِيدِهِ، لا يحفر لأخيه قليلاً، ولا
يكون على عوارته رقيباً.
ومنه قوله:

مواقيت الحمد مقسومة على مواقيت النعم، ولكل منهما قسمة منه وإن تفاوتت
في أقدار القسم، ولا نعمة أعظم من سعادة المثل بالديوان العزيز الذي يرغب إليه
ويرهب، ويقراً فضله في السماء ويكتب، يحجب لمهابته عن الأبصار، ويدها عنها لا
تحجب، والعبد يحمد الله على هذه النعمة حمداً لا يزال جديداً، وليس فوقها غاية
في الزيادة، حتى يسأل مزيداً، ولو امن انكار أمير المؤمنين لخرّ بهذا المقام ساجداً،
وهو يسجد طائعاً، كما يسجد لله عابداً: [من المتقارب]

طلبنا رضاً بترك الذي رضينا له فتركنا السُّجُوداً
ولو بصر مخدوم العبد بمكانه لحسده على مواضع رجله، ورأى العلياء وهي
شراك نعله، وقال: يا ليتني فزت بمثل هذا الحظ الذي ليس شيء كمثلته، وكيف لا
يحسد وقد وَقَفَ بموقف يقرب من الجنة ويباعد من النار، ويُقَمِّص الواقف به رداء
فخر لا يخلق على تطاول الأعمار، ويعطيه أماناً من زمنه حتى يصبح وله على الزمن
الخيار، ولا جناح عليه ان ملكته مخيلة الأعجاب وان رأى السماء فوقه وهي منال يد
في الاقتراب، ولولا انه بصدد أداء الرسالة التي تحملها لبط من عنانه، وانتهى الى
غاية ميدانه، الآن ينهي خدمة مخدومه الذي له في الأولياء نَسَبٌ كريم، وعِرْقٌ قديم،
يقول الاستحقاق: وأنا به زعيم، ومن أحسن أوصافه انه لا يمت بما عنده من عقيدة
في الطاعة ناصعة من الأكدار، / ٢٣٥ / راقية كل يوم الى درجة تحتاج في التي قبلها
الى الاستغفار. ولئن حصل بذلك على مرضي أمير المؤمنين، فإنه لا يتي فتوراً، ولكته
يأخذ بالقول النبوي فيقول: «الا أكون عبداً شكوراً».

وله شعر ذكره ابن العطار^(١)، منه قوله: [من الطويل]

رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقدتُ إليك النفسَ قودَ المسلمِ
ومثلك من كان الفؤادُ شفيعةً يكلمني عنه ولم يتكلم

(١) ابن العطار: أحمد بن محمود الشيباني. سترجمه المؤلف فيما بعد.

وقوله: [من المنسرح]

لا طَرَقَ الداءُ مَنْ بِصَحْبَتِهِ يصحُّ منا الرجاءُ والأملُ
لا عجباً أن نقيكم حذراً نحنُ جفونٌ وأنتم مقلُّ

وقوله: [من الطويل]

وسائلتموه بعدكم كيف حاله [و] ذلك أمرٌ بينَ ليس يُشكِلُ
فَعَنَ قلبه لا تسألوا فهوَ عندكم وأما عنِ الجسمِ المخلفِ فاسألوا

وقوله^(١): [من مجزوء الرجز]

ثلاثةٌ تجلُّو الفرخَ كأسٌ وكسوبٌ وقَدَحُ
ما ذُبِحَ الزقُّ بها إلا وللهمَّ ذَبْحُ

وقوله: [من الطويل]

وأهيفَ تحكيه الغزاةُ مُقلَّةً وجيداً ويحكيها لنا في شماسه
أعارَ قضيبَ البانِ لينَ انعطافه فأهدى إليه حُلَّةً من لباسه

وقوله: [من البسيط]

لولا الكرامُ وما سنَّوه من كرم لم يدرِ قائلٌ شِعْرٍ كيف يمتدح
وهذا البيت عكس قول أبي تمام^(٢): [من الطويل]

ولولا خِلالَ سنَّها الشعْرُ ما دَرَّتْ بغاةُ الندى من أين توتى المكارمُ
/ ٢٣٦ / ومنهم:

[١٢]

قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن

زيادة الشيباني^(٣)

باني عللاً لا تُفرع ذروتها، ورامي صفاً لا تُفرعُ مروتها، أظَلَّ على السماء

(١) وفيات الأعيان ٣٩٦/٥، الوافي بالوفيات ٣٦/٢٧.

(٢) ديوان أبي تمام ١٨٣/٣.

(٣) قوام الدين يحيى بن سعيد المعروف بابن زيادة، الواسطي ثم البغدادي. أصله من واسط، وولد ببغداد سنة ٥٢٢هـ. أخذ عن ابن الجواليقي، وحدث عن علي بن الصباغ والقاضي الارجاني، وهو من الكتاب المترسلين الشعراء له مشاركة في علوم الدين، وغلبت على رسائله العناية بالمعاني، تولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة، ورتب حاجباً بباب النوبي، وتولى ديوان الانشاء، ومات ببغداد سنة ٥٩٤هـ.

والسماك، وأقلّ الانهمال في سحب المسرّة والانهماك، وانشأ البدائع، وأنشأ
الوشائع، وقُلِّد من صنائع الخلفاء أشرف الصنائع، وولى أجلّ الوظائف بحضرة
الخلافة، وكان بالديوان العزيز كاتب الإنشاء واستاذ الدار وحاجب الباب، ويديه
كثير من هذه الأسباب، ثم نقم عليه لأمرٍ ما جناه بيديه، فعزّل وبقي معزولاً، ثم تولى
ومات سميناً وكان مهزولاً.

ومن نثره قوله:

لا تُنال مناقب الفتوح، إلا بمقانبِ الحتوف، وخليق بالأمر انه ينجد ويُمير،
والديوان العزيز منتظر لإنجاده، وتعليق سيف المضاء بنجاده.
ومنه قوله:

وكم لك من تدبير غدت به سماء الخطوب مصحية، وشموسها بيمن سعيك
مضحية، يتشعب الخلل إذا تفاقم وطراً، وتفرع أنف الحوادث إذا طمّ أو طغى، ولا
مضيق إلا وبك انفراجهُ، ولا طريق للثناء إلا وعليك انعراجهُ، فقد تكلفت بمصالح
الدولة حتى صرت لها أباً، وكفيت من المهم ما سلم لك الحاسد الفضيلة فيه شاء أم
أبى، فلذلك نادى منك أمير المؤمنين يَقْظاً أجاب، ورفع بينك وبينه الحجاب، فانهض
بما ناطه بك نهوض من لا يتعاضمه أمر وان ثقل عبؤُهُ ومحملُهُ، واكفهِ المهم فيما
تستقبله وتقبله، وسارع الى كل ما يرسمه لك، وتمثله، واسحب على ثرى التفويض
إليك أذيال الحلّ والعقد، وأقدر قدر هذه النعمة التي أحلتك ذرى فلك المجد.

ومن شعره قوله: [من السريع]

[فهو] من البغضاء في طبعه لم يكفِ الاحسانُ عدوانهُ
فالماء يطفئ النارَ طبعاً وإن أطالَ حرُّ الناسِ اسخانهُ
ومنه قوله: [من الكامل]

مشمولةً جاء النديمُ بها كالنارِ يقدحُها من القَدَحِ
/٢٣٧/ نحيا من همّ المُميتِ بها فثمينا من شِدّةِ الفَرَحِ
ومنه قوله^(١): [من الخفيف]

= انظر: وفيات الاعيان ٦/٢٤٤، ومعجم الادباء ١٦/٢٠، والشذرات ٤/٣١٨، ومرآة الجنان ٣/
٤٧٧، والعبر ٤/٢٨٤، والبداية والنهاية ١٣/١٧ وهدية العارفين ٢/٥٢٢ وذيل الروضتين ١٤،
والتكملة للمنزدي ١/٣١٥ وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٣٦.

(١) البيتان في: وفيات الاعيان ٦/٢٤٥ والشذرات ٤/٣١٨ ومعجم الادباء ٢٠/١٨.

باضطرابِ الزمانِ ترتفعُ الان
وكذا الماء ساكناً فإذا حُر
ومنه قوله^(١): [من البسيط]

إني لأعظمُ ما تلقونني جلدأ
كذلك الشمس لا تزدادُ قوتها
ومنه قوله^(٢): [من البسيط]

لا تغبطنَ وزيراً للملوكِ وإن
واعلمُ بأنَّ له يوماً تموراً به ال
هارونُ وهو أخو موسى الشقيقُ له
ومنه قوله مما كتب الى المستنجد^(٣): [من البسيط]

يا ماجداً جلَّ قدرأ أن نهنيهُ
الدهرُ أنت فيومُ العيدِ منك وما
ومنهم:

[١٣]

شهاب الدين النسائي^(٤)، أبو المؤيد محمد بن أحمد بن

علي بن عثمان بن المؤيد الخرندي

كتب الانشاء للدولة الخوارزمية، وكتب الأعداء بالصولة العجمية، وكان ذا فصاحة بلغته شغاف الأرب، وسَوَّغَتْهُ نطاف الأدب كالضرب، وفرَّغته لاقتطاف بدائع العرب، وصنَّفَ سيرةً سنِّيَّةً^(٥)، تسمع وقائع سيوفها المشرفية في الرقاب، وتنصر صنائع معروفةها وقد مَضَّتْ عليها الأحقاب، وفاءً بعهدة لتلك الدولة التي والها وخدمها وأولاهها ما شرف بغيره خدمها، فلم يدع مما يبهج حرفاً، ولا يدع للسان

(١) البيتان في: وفيات الأعيان ٢٤٥/٦. (٢) الأبيات في: الشذرات ٣/٣١٨ والوفيات ٦/٢٤٥.

(٣) البيتان في الوفيات ٦/٢٣٥.

(٤) شهاب الدين النسائي، كاتب انشاء جلال الدين بن خوارزم شاه ومؤلف سيرته، اتصل بعد قتله بالمظفر غازي صاحب ميافارقين، ثم ببركة خان كبير الخوارزمية، وتوجه رسولاً إلى التتر مرات، توفي بحلب سنة ٦٤٧هـ.

تاريخ ابن الوردي ٢/١٨٢ وتلخيص مجمع الاداب ٤/٢/١١٨٥ وصبح الاعشى ٤/٣٠٧.

(٥) هي سيرة جلال الدين منكوبرتي طبع في موسكو ١٩٩٦م بتحقيق د. ضياء الدين موسى بونبادوف.

الطيب عرفاً، بعبارة صاغها بلطافة أعجب من الفريد، وأعجل في القلوب تأثيراً من لواظ الغيد.

ومن نثره قوله:

/٢٣٨/ من كتاب كتبه الى الديوان العزيز مع رأس طغرل^(١): وصل بغداد في الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وخمسمائة، افتتحه بقوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾^(٢) قال فيه:

وردت المراسم الشريفة بردع ذلك المارق الخائن، والمنافق الحائن، الذي استمرأ مرعى بغيه، واستعذب آجن غيّه، وأذلج في ليل ضلالته وخبط في عشواء جهالته، شاربا من آسن الطغيان نهلاً وعلاً، غير مراقب لله ذمة ولا إلأ، مستسهلاً للخطر الحسيم، مغترأ بحلم الحليم، غير مبال بانسلاخه من الدين، وخروجه عن زمرة المسلمين، نبذ أمر الله وراء ظهره، ولم يخش أليم عذابه، ولا راقب وبيل عقابه، فراسله الخادم داعياً له الى الطريق اللاحب، ومشيراً عليه باعتماد الواجب، مهيباً به الى طاعة الامام وعارضاً عليه تجديد الاسلام، او الاستعداد للمصاف، والرجوع على حكم الأسياف، فخيّره بين هذين الأمرين، وحكمه في أحد القسمين، وكلاهما عنده خطة خسف ومورد حتف، فلما أبى إلأ إصراراً على خطيئته وامراراً لحبل منيته، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٣)، دلّف إليه الخادم في كتيبة شهباء من جنود الامام، مقنعة بالزرد المحبوك، محتفة بالملائكة، محفوفة بالملوك، يتألق حديدها، وتتذامر أسودها وتثن كالجبل العظيم، والليل البهيم، ضاربة رواقات العجاج، ممتدة الأطناب في الفجاج، وكأن ظللها ليل، ولهازم الرماح نجوم، ودخان الأسنة نار، والصوارم جحيم، وكأن رماحها آجال إلأ أن المنايا في أوائلها، وحديدها نار إلأ ان المنايا تجول في مناصلها، ولم تزل تزحف وفوقها جيش من النسور والعقبان، وتداب وبين أيديها جيش من السباع والذؤبان، وارثها شخص المنون وهو عريان، إلى ان وافى ذلك المخذول، وقد جمع للقاء، واستعدّ في جيش جمّ تضيق بهم قذف البيداء قد استلأموا للقتال /٢٣٩/ واستلموا كعبة الضلال، إلأ ان الله صبّ عليهم الخذلان لما تراءى الجمعان، وبرز الكفر الى الإيمان، فتلا

(١) طغرل شاه بن ارسلان بن طغرل، آخر ملوك السلاجقة في الشرق، خرج على الخليفة الناصر العباسي فقاتله خوارزم شاه في الري وقتله وارسل رأسه إلى الناصر سنة ٥٩٠هـ (الوافي بالوفيات ١/٤٥٦).

(٢) سورة الرعد: ٣٣.

(٣) سورة النحل: ٤٠.

الخادم عليهم: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ دَسِيفَ صُدُورِ قَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿١﴾ ولم يكن إلا كغلبة خائف أو لمعة خاطف حتى انجلت جند الله عنهم وهم كأعجاز نخل خاوية، وأصولٍ ذاوية، لا يُعرف لهم قتيل من دبير، ولا يفرق بين مأمور وأمير، وأنفذ الله حكمه في الطاغية، وعجل بروجهِ الى الهاوية، وملك الخادم بلادهم، وحاز طريفهم وتلادهم، ونساءهم وأولادهم، وبادر بانفاد رسول مبشراً، وأنفذ معه رأسه وطبله وعلمه، ليعلم ان قد كُسر وظلَّ دمه، والخادم يُنهي ان وراءه بلاداً شاسعة، ومُدناً واسعة، وهو بعيد الايام، ولا يمكنه طول المقام.

قلت: وسلك هذا النسائي مع سلطانه مهمهاً يعزف الجن في بيده، وتضيق الريح في أرجائه، في يوم تتلملم أفاعيه في رمضائه، ويُسجن وحشه في فضائه، يذوب به حصى الآكام، ويلفح الوجوه اشواظ الضرام، وقد مرَّ الجندب وصكَّ وجه الغدير الطحلب، وصحَّ ان الصدى قد قام يبلغ، والحرباء تخطب، ولا ورد إلا راكد الشراب، أو مورد كأنه حجر الأحباب، كأنما صبَّ على وجهه الزيت الذائب، أو ذرَّ الكبريت للشارب، لا يهنا برده، ولا يسوغ وردّه، فقال له سلطانه: صف ما نحن فيه، فقال على البديهة: [من الرجز]

قَذَفْتُ بِالْعَيْسِ بِوَجْهِ الْمَهْمِهِ رَمَيْتُ مِنْهُ مَشْبَهُاً بِمَشْبِهِ
وَالشَّمْسِ قَدْ أَذَكْتَ ضِرَامَ نَارِهَا لَكِنَّهُ فِي مَوْقِدٍ مِنْ أَوْجِهِ
وَالْقَفْرِ خَافٍ لَا يَبِينُ طَرْفُهُ وَاضْحُهَا لِلْعَيْسِ كَالْمَشْتَبِهِ
وَجَنْدُبُ الْأَرْضِ بِهَا مَبْلَغُ وَخَاطِبُ الْحِرْبَاءِ كَالْمَبْتَدِهِ
وَالوَرْدُ لَوْ يَشْرَبُ عَصْفُورٌ بِهِ عَلَى فْسِيحِ غُدْرِهِ لَمْ يَرَوْهُ
مُقْتَرٌّ مَقْدَرٌ مَكْدَرٌ يَقْصُرُ عَنْهُ صَفَةُ الْمَشْبِهِ

فاستحسن أبياته وأجازه عليها بلداً بعمله، وسأيره وقد لمع برق فأتلق / ٢٤٠ /
كأنه غرة في أذهم أو أبلق، أو سلاسل من ذهب وما لها حلق، لا يني غمامه ينهمر
انهمارا، يلد اثر القطار قطارا، وهو يجلو الظلماء بضوء جبينه المشرق، ويمتد من
أرجائه ذهب ثم يتحد من حافته ورق، فأمره ان يقول فيه فقال: [من الرجز]

أَنْعَتُ بَرَقاً فِي الدَّجَى يَأْتَلِقُ

كَأَنَّهُ فِي جِلْدَتَيْهِ بَلَقُ
يَجْلُو الدجى له صباحُ شَرِقُ
يَرْفُضُ مِنْهُ وَاِبِلُ مُغْدُوقُ
كَأَنَّهُ جُودُ الْمَلِيكِ الْمُغْدَقُ
أَوْ أَنَّهُ مِنْ كَفِّهِ مَنْدَفِقُ
طَوْرًا بَدَا حُمَّى وَطَوْرًا عَلِقُ

ومن شعره قوله: [من المتقارب]

واني لفي قيد [هذا] الزمان لكالدر إذ بات حشو الصَّدْفِ
واني على الرغم من حُسْدي لأسلافي الصيدِ نِعَمَ الخَلْفِ
فإذ كان انكرَ قدرِ الزمان فإذا هزّةٌ صدرتْ عنْ خَرْفِ
فَعَنَ أُمَّمَ تَنجَلِي غُمَّتِي كبدِ الدجى بعدما قد خَسَفِ
وتأتي المقاديرُ منقادةً تقولُ: عفا الله عما سَلَفِ
ومنهم:

[١٤]

ابن ابي الحديد، موفق الدين^(١)، أبو القاسم^(٢) بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، أبو حامد

كتب في ديوان الخلافة، وكبت من برع في المقال خلافه، وكان ذا لسنٍ وبراعة، ورسن ممتدّ في البراعة، وكان من غلاة الشيعة^(٣)، وولاة مقالات الرفض الشنيعة، رأس في الاعتزال، كيس جدل، يتفقا سمنها بالهزال، على انه كان يظهر التمدّهب للشافعي، وكان أصولياً لا يحبس لسانه بالعي، مع انه كان بالبيان يسحر، وبالجمان يسخر، وهو الذي عاب على ابن الأثير الجزري في المثل السائر، ووضع عليه الفلك الدائر، كما قدّمناه في ترجمة المذكور، وما قصّر في المناقشة، ولا عذر في المعالجة له والمباطشة.

(١) ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد المدائني، أبو حامد صاحب شرح نهج البلاغة والمتوفى سنة ٦٥٦هـ.

ترجمته في: وفيات الاعيان ٣٩٢/٥ وفيات الوفيات ٢/٢٥٩ والوفائي بالوفيات ١٨/٧٦ وعقد الحمان ١/١٦٤ وانظر مقدمة العُدَيْقِ النضيد في مصادر ابن ابي حديد لاحمد الربيعي.

(٢) كذا في الأصل، وإنما هو القاسم اسم موفق الدين أخي المترجم، وستأتي ترجمته.

(٣) لم يكن ابن أبي حديد شيعياً، وإنما كان شافعيّاً معتزلي التفكير.

ومن نثره قوله :

وبعد، فقد عرض بالديوان العزيز / ٢٤١ / كتابك أيها الزعيم، وخطابك وأمير المؤمنين عليم، وشرحت ولاءك وذلك حبلك الوثيق، وكذلك إخلاصك القديم، وانماؤك الى الباب الأشرف، وهذه عقيدة أخذتها عن سلفك، ﴿وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)، نعم ولا يلقنها الا ذو فعل كريم من ذي سلف كريم. وبرز الأمر الأشرف عن الديوان العزيز بتلقي وارك بالكرامة التي عدت بها رتبة كل نظير، وأصبحت وعلى رأسك شربوش وتاج، وأنت صاحب تخت وسرير، وستجاب من ديوان الوزارة المشرفة مفصلا عن فصول كتابك، وحسبك حسبك شرفاً تشرف به من الديوان العزيز، إذ كان هذا من خطابك.

ومنه قوله :

وأنهاى امر الجزري إلى أنه قلع قلع الجزر، وأغناه ما تكهن أو حزر، وهذا معجل كل مائق، وله مؤجل يأتيه يوم تقوم الخلائق.

ومن نثره قوله في تقليد قاض :

وأرفع المناصب وأعلاها، منصب الحكم العزيز، الذي يجتبي الشرع في ندبه ويجتني السمع ثمرات كل شيء من جنبه، ويعرف بها الحلال والحرام، ويتصرف في أمر ذي الجلال والاکرام، وان أحق من ألقى زمام أحكامه إليه من تفرد بما لديه وفاز بسهم معلى من العلوم، وأخذ من فنونها بنصيب معلوم، دأب نفسه في تحصيل نفائسها، واجتلاء غرائسها، فكمن من أحاديث نبوية يعرف السقيم فيها من الصحيح، والعدل من رجالها من الجريح، وعلم الرواية على تشعبها والأسانيد وطرقها في حالتها تسهلها وتصعبها، وكم تفاسير كشف حقائقها، ومشكلات تأويل أظهر بحسن إيضاحه طرائقها، وكم فروع مسائل أصلها، وأصول فقه حواها وحصلها.

وكنت أيها القاضي فلان لك فخر بعلم علمها لا يباهى، وورع لا ثمائل فيه ولا تضاهى، وافادة ينصب الطلبة لاستفادتها، وتشره الأسماع لحسن إيرادها واستعادتها، لذلك أعهد عليك في القضاء بمدينة كذا، وألق من علومك ما يلقى من أجله ذوو الطلبة للاستفادة / ٢٤٢ / واعلم انك حصلت على السعادة الدنيوية، فاعمل على الأخروية، فإنها أعلى السعادة، وأجر على عادتك [في] التحرز في الأحكام، وأمض على سنتك في الاحتياط في كل نقض وإبرام، وارع يراعك كل ما يفتقران يرعى،

وكلما يجب ان يُمَعَن فيه النظر عقلاً وشرعاً، ثم والعدول فلتعتبر أحوالهم، والزمهم بكل ما هو أجمع وأحرى بهم، فيهم تؤخذ الحقوق، وتقام الحدود، وهم أمناء الله في أرضه، حيث هم على خلقه شهود، ومن وصايا العلم في تحقيق مسائل الخلاف لك عناية، فهي عادة لا تقطع، وعدة لا تستدفع، وهي للمكمل الادوات، المبرز بجميل الصفات، تذكرة تبدوك نصائحها، وتتضح لديك مصالحتها، فخذها نصب عينيك وتجاه أمرك، وأدم إحضارها في قضاياك، ومرورها على فكري.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

بالله ضَعُ قدميكَ فوقَ محاجري فلقد قنعتُ من الوصالِ بذاكا
وأطلُ معاتبتِي فإنَّ مسامعي تهوى حديثكَ مثلَ ما أهواكا
لا عانقتُك من البريةِ كلِّها إلاَّ يدي اليمنى وبنْدُ قباكا
كلا ولا رشفتُ رُضابك بعدما قد ذقتُهُ إلاَّ التي تهواكا
ومنه في مליح جعل عارض الجيش وخلع عليه خلعة خضراء^(١): [من مخلع

البيسط]

وأهيف كالقضيبِ قدًّا في خُضِرِ أثوابه يَمِيدُ^(٢)
قَبْلَتُهُ باعتراض^(٣) معنَى لأتته عارضٌ جديدُ
واتفق له سرى ليلةً برقها قد سرى، موهناً كوجيب الفؤاد، وموهماً بأن طرفه لم يكتحل برقاد، كأنه فرس معار أشقر، أو نار شبَّ صرَمه وما خفي منه أكثر، والرباب دون السحاب، كخليع من الفتیان يَسْحَبُ مئزرا، وأم رؤوم على الأرض تدهن لمم الثرى. فقال: [من الكامل]

أسري وومضُ البرق يخفقُ قلبُهُ يذكي له في الليلِ قِدْحُ زنادِ
/٢٤٣/ وتوهُّمي أن ليس يكحل عينه رقادٌ بلى قد كُحَلتْ برقادِ
ودون الغوادي للربابِ جلاجِلُ تروُدٌ وهاداً من عليّ نجادِ
تزور بمبتلِّ الحيا هامد الثرى ويرشِفُ ثغَرَ النورِ ريقُ غوادِ
ثم لما أبهم عليه الأمر وأشكل، لم يُنخ راحلته ليعقلها ويتوكل، وقد سرى في

(١) البيتان في الوافي بالوفيات ٢٢٦/٨ برواية مختلفة منسوبان لاختيه موفق الدين.

(٢) في الوافي:

لما بدا رائق التثني وهو بأثوابه يَمِيدُ

(٣) في الوافي: باعتبار.

ليل يخفي ظلامه قَصْدَ السبيل، ويملاً هوله صدر الدليل، ويفترس غوله خلب الغرير،
فكيف الدليل، تململ وتضجّر، وقال ولم يتبصر: [من السريع]

مالي ولليل وظلمائه ومهمه فيه يحار الدليل
كأنني في لجة غارق يا قوم قولوا لي كيف السبيل
ومن شعره أيضاً مما انشدنيه شيخنا ابو الثناء^(١) الحلبي قوله: [من البسيط]

أفدي الذي زارني والخوف يلقفه يمشي ويكمن في العطفات والطرق
قبلت أطراف كفيه على ثقة بالأمن منه وخديه على فرق
فكان في أخريات السكر مضطرباً إذا أراد انتظام اللفظ لم يطق
الله ما أحسن الصهباء منعمة علي إذ علمته طيبة الخلق
أهدت إليه سروراً نلت معظمه كالفعل ينصب مفعولين في نسق
وقوله: [من الكامل]

أعدى البياض الى مجاوره ما ذاك إلا أنه مرض
هلا تيسر للسواد كذا وكلاهما في حكينا عرض
وقوله: [من الكامل]

يا من تدلس بالخضاب مشيبه إن المدلس لا يزال مريباً
هب ياسمين الشعر عاد بنفسجاً أيعود عرجون القوام قضيباً
وقوله على إلحاده في تفضيل السيف على القلم: [من الطويل]

وما تُدرُّك الأقلام شأو مهندٍ يضيء إذا ما قام بين الكواكب
وأتى لها وهي التي في طروسها تخرُّ على الأذقان سود الذوائب
/٢٤٤/ وكم بين من يبكي إذا ما انتدبته لأمرٍ وبين الضاحك المتلاعب
وقوله على عكسه على طريقة ابن الرومي في المغايرة: [من الطويل]

وما تطرق الأقلام في الطرس ذلة ولكنها حيات رمل قوائل
ومن أين يلقي السيف بعض فعالها وآثارها من غير جرح عوامل
إذا كان بين المرء والسيف حائل فليس عن الأقلام والمرء حائل
وقوله مما كتب به إلى بعض أصحابه وقد فُصد: [من البسيط]

(١) هو شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، وستأتي ترجمته.

يَدُّ تَسِيلُ الْمَعَانِي بَيْنَ أُسْطُرِهَا
تَجْرِي دِمَاءُ الْأَعَادِي وَهِيَ سَالِمَةٌ
سَهَلَتْ يَا وَارثَ الْعَلِيَا الْمَقَامَ لَهُ
كَأَنَّمَا شَقَّ مِنْهَا رَأْسُ مَبْضَعِهِ
وَإِذْ ذَكَرْنَاهُ فَكُنَيْتَهُ عَلَيَ ذِكْرِ أَخِيهِ .
ومنهـم :

[١٥]

[موفق الدين المدائني]

القاسم (أبو) المعالي عز الدين، ابي حامد، عبد الحميد^(١)

وكان نابغةً في الاعتزال، ومعقلاً للاختزال، ذو بديهة تصفرّ منها الأنامل،
وتزور مقلّ السيوف والعوامل، وفقت من نثره على قوله:

ولي بيان في وصف مجده لا يكل، ولسان في ذكر مناقبه لا يذلّ، وسهمي لا يخطيء
غرضه، وفعلى لا يردى إلاّ معترضه، إلاّ انني لو واصلت الامداد، وزاحمت الأطواد،
وأرسلت السحب، وراسلت الشهب، لما وفيت حقه المتعين، ولا قلت إلا الحقّ البين.

ومن شعره قوله^(٢): [من البسيط]

يُصَحِّني حُبُّهُ [طوراً]^(٣) وينكسني
وقوله^(٤): [من الكامل]

ياهاجري لَمَّا رَأى شَغَفِي بِهِ
انّ الذي خلق الغرام هو الذي
وقوله^(٥): [من البسيط]

أبدت^(٦) من الشعر في تشبيهه وجنتها

(١) كذا في الاصل، وإنما الصواب: موفق الدين، القاسم (في بعض مصادر ترجمته: أحمد) بن هبة الله
أبو المعالي المتوفى سنة ٦٥٦هـ.

ترجمته في: عقود الحجان ٦٠١/٥، ووفيات الاعيان ٣٩٢/٥، وسير أعلام النبلاء ٢٣/٢٧٤،
وفوات الوفيات ١/١٥٤، والوافي بالوفيات ٨/٢٢٥، وشذرات الذهب ٧/٤٨٥، والحوادث
الجامعة (تحقيق مهدي النجم) ص ٢٤١.

(٢) عقود الحجان ٦٠٥/٥ وذيل مرآة الزمان ١/١٠٩.

(٣) الزيادة عن مصدري النص. (٤) عقود الحجان ٦٠٨/٥ وذيل مرآة الزمان ١/١١٠.

(٥) الوافي بالوفيات ٨/٢٢٦ وذيل مرآة الزمان ١/١٠٨ والفوات ١/١٥٤.

(٦) في جميع مصادر النص: بيت.

٢٤٥/ كالظلّ في النورِ أو كالشمسِ عارضها

خطّ من الغيمِ أو كالمحوِ في القمرِ

وقوله فيما أنشدنيه شيخنا أبو الحسن الكندي^(١): [من الخفيف]

قَدْ بَدَا مَا تَسْرَفِي مَا تَقُولُ إِنَّمَا أَنْتَ عَاشِقٌ لَا عَذُولُ^(٢)
 رَابِنِي مِنْكَ فِي مَلَامِكَ تَكْثِيرُ رُ لَصْبِرِي بِبَعْضِهِ تَقْلِيلُ
 وَحَدِيثٌ مُلْجَلَجٌ فِيهِ لِلْقُدُ بِ عَلَى السَّرَّايَةِ وَدَلِيلُ
 قُسْمِ الْبَدْرِ بَيْنَنَا فَلَهُ النُّورُ وَعِنْدِي مُحَاقُهُ وَالذَّبُولُ
 إِنَّمَا أَنْتَ مَهْجَتِي وَاتِّخَاذِي بَدَلًا عَنْ حُشَاشَتِي مُسْتَحِيلُ
 ومنها:

ثُرُوتِي فَوْقَ هِمَّتِي^(٣) وَمَرَامِي فَوْقَ طَوْقِي وَسَاعِدِي مَغْلُولُ
 وَقَدْ رَوَاهَا شَيْخُنَا أَبُو الثَّنَاءِ الْحَلْبِيُّ لِأَخِيهِ الْمَوْفِقِ، وَكِلَاهُمَا ثَبَتَ، وَلَعَلَّ الْكَنْدِي
 أَذْرَى بِطَرَقِ الرَّوَايَةِ.

ومنهم:

[١٦]

ابن بصاقة، فخر القضاة، أبو الفتح، نصر الله بن^(٤) هبة الله بن عبد الباقي بن

الحسين بن يحيى الغفاري، الكتاني

كتب للناصر داود^(٥) بن عيسى، ووزر، وجلس معه في صدر الإيوان والطرده،
 ونشأ، وتأدّب بالشام، وأومضت له بارقة كانت تُشام، ثم صرّف عن وزارة الناصر
 عنانه، ونفّض منها بنائه، لأمر نَقَمها، وشُرور خاف نَقَمها، وكان يحذر سوء خلائق

(١) علاء الدين، أبو الحسن علي بن مظفر بن إبراهيم، الكندي الوداعي، من الأدباء الشعراء، توفي سنة ٧١٠هـ (الدليل الشافي ١/٤٨٥).

(٢) الأبيات لأخيه عز الدين في عقود الجمان ٣/٢٥٢.

(٣) كذا في الاصل، وفي العقود: ثروتي دون همتي.

(٤) انظر ترجمته في: الشذرات ٧/٤٣٥، وعقود الجمان ٩/٩٧، والوافي بالوفيات ٢٧/٤١، وفوات الوفيات ٤/١٨٧، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٢٩٩، وعيون التواريخ ٢٠/٧٠، والبداية والنهاية ١٣/١٨٤. ويسميه ابن صاغة وهو تحريف.

(٥) الملك الناصر صلاح الدين، داود بن عيسى بن محمد بن أيوب، ولي سلطة دمشق فأخذها منه عمه الكامل، فسار إلى الكرك، وكان عالماً فاضلاً مناظراً توفي سنة ٦٥٦هـ (الوافي بالوفيات ١٣/٤٨٠، وشفاء القلوب ٣٤٦).

مالِكِهِ، وتوعّر طرائق مسالكِهِ، فطالما أظلمَ جوهُ واغتم دَوهُ، فتسلَّلَ منه بمخيلة دبَّت في السراء، ودلَّت على الضراء، فخاف مساورة ذلك الأرقم، وترك مساقاة الشهد به خوفاً من العلقم، وكان طود حجاً وحجاج، وطوق جِيدَ وحجاج زينةً الى فصاحة شَبَّ على إرضاعها، وسماحةً تولَّى حفظ مضاعها، وبلاغةً كانت حليةً لنظامِهِ، وحلة لإحلاله في الصدور وإعظامِهِ، ووزر جدي رحمه الله بعده، ثم عاف تلك الدولة، ففارقها في ليلة قمراء مسوِّدة، لأمرٍ ما هذا /٢٤٦/ ميقات شرحها، ولا مرقاة صرحها، فأما ما لابن بصاقة، فمن نثره قوله:

وأما الابيات الجيمية الجمة المعاني، المحكمة المباني، المعوذة بالسبع المثاني، فإنها والله حسنَةُ النظام، بعيدة المرام، مقدمة على شعر من تقدّمها في الجاهلية، وعاصرها في الاسلام، قد أخذت بمجامع القلوب في الإبداع، واستولت على المحاسن فهي نزهة الابصار والأسماع، ولعبت بالعقول لعب الشمول، إلا ان تلك خرقاء وهذه صناع، فإذا اعتبرت ألفاظها كانت درأ منظوماً، وإذا اختبرت معانيها كانت رحيقاً مختوماً، جلّت بعلوّها عن المغاني الطروقة، والمعاني المسروقة، ودلّت بعلوّها على أنها من نظم الملوك لا السوقة، فلو وجَدَها ابن المعتز لا جرى زورقة الفضّة في نهرها، وألقى حمولته العنبر في بحرها^(١)، وألقى تشبيهاته بأسرها، ولو لقيها ابن حمدان لاغتم فرمى قوس الغمام، وانبرى زي السهام، وتغطّى من أذيال الغلائل المصبّغة بذيل الظلام، ولو سمعها امرؤ القيس لعلم أن فكرته ناصرة، وكرّته خاسرة، وأيقن أن وحوشه غير مكسورة، وعقبانه غير كاسرة، فأين الجزع الذي لم يثقب، من الدرّ الذي قد ينظم ويهدّب، وأين ذلك الحشف البالي من هذا الشرف العالي؟ فالله يكفي خاطر الذي سمح بها عين الكمال الشحيحة، وتشفى القلوب العلية، بأدوية هذه الانفاس الصحيحة، وأما الابيات فهي هذه^(٢): [من الكامل]

يا ليلةً قطعتُ عُمرَ ظلاميها بمُدامةٍ صفراءِ ذاتِ تاجج
بالساحلِ الباقي روائحُ نشرِهِ عن روضِهِ المتضوّع المتأرج
واليمُّ زاهٍ قد هدا تيارُهُ من بعدِ طولٍ تقلقلٍ وتموّج
طوراً يدغدغهُ الشمال وتارةً يكرى فتوقظُهُ بناثُ الخزرج

(١) اشارة لقول ابن المعتز: [من الطويل]

انظر اليه كزورقٍ من فضةٍ قد اثقلته حمولةً من عنبرٍ

(٢) الابيات في مرآة الزمان ١/١٥٩، والوافي بالوفيات ١٣/٣٨٨.

والبدرُ قد ألقى سنى أنواره في لَجِّهِ المتجعَّدِ المتدبِّجِ
فكأنه إذ قدَّ صفحةً مثنيه بشعاعِهِ المتوقِّدِ المتوهِّجِ
/ ٢٤٧ / نهرٌ تكوّن من نُصارٍ مائعٍ^(١) يجري على أرض من الفيروزج
قالها الملك الناصر داود وبعث بها إليه يعرضها عليه وهي أبيات يحقُّ لها أن
توصف بجودتها شرف قائلها، وإن لم تحلّ الذروة ولا أوْشكت.
ثم نعود الى تمة ما نذكره، فمن قوله:

يقبَل الأرض، وينهى انه فارق مالك رقه مراراً، وما وجدَ لفراقه من الألم ما
وَجَدَهُ هذه المرّة، وبعد عن جالب رزقه، فانصرّ ولا مثل هذه المصرة حتى توهم أنها
فرقة الأبد، وداخله من الأسف ما لم يبق معه صبر ولا جلد، وكلما شرع في الصبر،
أبى الذكر أن يحدث له صبرا، وكلما سهل عليه الأمر، لم يزدّه تسهيله إلاّ عسرا،
والله تعالى يسهل من اللقاء كلَّ صعبٍ عسير، ويجمع شمل المملوك بمالكة، ﴿وَهُوَ
عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(٢).
ومنه قوله:

المملوك يشافه أرض مالِكِهِ بقبول خضوعِهِ، ويبلّ ترابها بوابل دموعِهِ، ويستقل
فيضها ولو أنه من سيل نجيعه، لما نالهُ من الحادث المؤلم الملمّ، والخطب المظلم
المدلهمّ، بانتقال الولد الملك العزيز، فلقد ورَدَ المملوك من الكتاب الوارد بنعيهِ
مشرعاً كدير الموارد، عسير المصدر^(٣)، وحضر منه مجمعاً كثير البوادي والحواضر،
فيا له ناعياً أصمّ الأسماع وأصماها، وأقذى العيون بل أعماها، وجرح القلوب
فأدماها، وما أهمل سحب الجفون لكن أهملها وأهماها، وتبّاً له من نغيص نغص
الدنيا على أربابها، وإن كانت معشوقةً محبوبة، وكرّة الحياة عند أصحابها مع انها
شهيّة مطلوبة، وكان الأولى بالمملوك أن يصرف عن ذكر هذه الحادثة صفحاً، ولا
ينكأ بتجديده بالقرح قرحاً، ولا يقصد لباب الجزع بعد انغلاقه فتحاً، ولا يطلع
التعزية ليلاً، وقد طلعت التسلية صباحاً.
ومنه قوله:

وينهى ورود المثال الكريم، فوقف منه على اللفظ البليغ، والمعنى البديع، وعلم
عند تدبّره انه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) في عيون التواريخ: يانع.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٩.

(٣) كذا في الاصل، ولعل الصواب: المصادر.

(٤) سورة يوسف: ٧٦.

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ / ٢٤٨ / وتصور أن كاتبه قد جاوز البحر فَأَتْحَفَهُ بجواهره، بل جاور الملك فَأَسْعَفَهُ بعساكره وصدق تصوره كون ألفاظه جواهر، وكتابه كتائب، وعجبت لخروج الدر من العذب حتى تذكّرت ان عادة البحر العجائب، وأما ما أمر به مِنَ النِيَابَةِ عنه في خدمة مولانا الوزير، فقد ناب عنها لكن مَنَابَ تراب التيمّم عن الماء الطهور، وأنهى مشافهاته وأدّى من جملها في الساعة الواحدة ما لا يفصل في عدّة من الشهور، وأما أحوال المملوك، فإنه من صدقات الديوان ما يعدم سوى النظر الى طلعة مولانا التي هي عديمة النظير، ولا تشتهي غير الفوز بخدمته، وذلك هو الفوز الكبير، وكل هذا برفع محلّ مولانا لمحليّ، ولأجله لا لأجلي: [من الطويل]

أَضْمُ قَضِيْبَ الْبَانِ مِنْ أَجْلِ قَدِّهَا وَأَلْثَمُ ثَغَرَ الْكَأْسِ أَحْسَبُهُ فَاها

إلا ان المملوك قد أطال الإقامة في دار المقامة، ونال الكرامة حتى يكاد يسأم الكرامة وله أسوة بالقائل وقد طالت حياته: «سئمت تكاليف الحياة»^(٢) وإذا أَعْرَقَتْ المياه وإن كانت عذبة، شكيت المياه.

ومنه قوله:

وينهى ورود المثال الكريم بالنبا العظيم، الذي أصمى القلوب، وأصمّ المسامع وأوقف الخواطر، وأجرى المدامع، وضيّق على النفوس مجرى الصبر الواسع، وفزعت الآمال فيه الى الكذب، فما أجدى جزع الجازع من نعي الامام الطاهر، التقى العلم الزاهر الزكي، خليفة الله المستنصر بالله بوّاه الله جنان عَدْنِهِ، وأسكنه غرفات أمْنِهِ، وانتقاله عن الغمّة الضيقة الى الرحمة الواسعة، ومصيره من الدار المفارقة الى الدار الجامعة، فأظلم بها الافق لكسوف شمس الضياء، ودجى ليل الجوع لخسوف قمر العلياء، وضحيت وجوه المكارم لتقلّص تلك الأفياء، وكادت تنفطر لفقدته السماء ذات البروج بقضاء نَحْبِهَا، وبكته دموع قطرها من جفون سحبها، حتى خدّت حدود المروج، وشقّت الأرض جيوب تربها فألْبَسَهَا حدادا من بياض الثلوج، فإيا له خطباً عمّ الوجود بأسرِهِ، / ٢٤٩ / وحصّ جناح الإيمان بحصّه بل بكسرِهِ، وعرف كل عارف بفضاعة نكره، وقضى لكلّ قلب تجمّع همّه وتقسم فكره، وأعاد الاسلام غريباً كما بدأ أوّل عمره، لكن أقرن به الخبر الذي سرّ السرائر، وجلى

(١) سورة الحديد: ٢٩.

(٢) تضمين لقول زهير بن أبي سلمى: [من الطويل]

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

الدياجر، وثبتت القلوب بعد ان بَلَغَتْ الحناجر بولاية مولانا الامام المحتوم الطاعة خليفة الله في أرضه، والقائم بسنة الإيمان وفرضه، أمير المؤمنين المستعصم بالله ابن خليفته ووليّه، وابن عم رسوله ونبيه، فأجَلت بوائق الحادث الجلل، وقَصَّت بانقباض الوجل وانسباط الأجل، وحصل العطف والتوكيد بهذ النعت وهذا البدل، فالحمد لله الذي تدارك بالجبر كسر الإسلام، وحسم بالبر مواد الآلام، وأزال باليقين عوارض الأوهام، وعاجَلَ بالرتق فتق الأيام، فيالها دعوة أجاب داعيها كل مبصر وسامع، وأمن عليها كل ساجدٍ وراكَع، وتُليّت آياتها في كل مصرٍ جامع، وتلقى العبد هذه النعمة بالشكر الذي استغرق غاية جهده ونهاية وسعِهِ، وأكثر الحمد لله على ما أولى من جزيل منه وجميل صنعِهِ، وسارع الى تلقي المثل الكريم باتباعِهِ وامثالِهِ، وأخذ البيعة على نفسه وشيعته ورعيته، وأعلن بالدعاء لإمامه على منابر بلاده التي هي من إنعامِهِ، ولولا أنه في مقابلة عدو الدين لما قنع في تأدية فرض العين بسنة النيابة، وكان يسعى الى الباب الكريم بعزيمة وارية غير وانية، ويشفع هجرته الاولى إلى الحرم الشريف بهجرة ثانية.

ومنه قوله في توقيع لقاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى^(١) بن الزكي العثماني:

ونحا سيرة أجداده فما عدل عنها ولا حاد، وفُضِل بالفضائل فما عدّ غيره في أنجم الغفير إلا كان معدوداً في الأفراد والآحاد، فإذا تولّى أمراً بلغ فيه أقصى الأمل والإرادة، وإذا باشر مهماً استقصى العرض فلم يبق موضعاً للزيادة، فرأينا أن ننوّله من رتب السعادة ما رأيناه له أهلاً وأن نؤتيه منا فضلاً، وان ننصبه بين أهل بلده / ٢٥٠ / حاكماً، وننضيه لحسم مواد المخاصمات صارماً، ونُحمّله من أعباء المناصب ما يكون بحقوقه قائماً، ويرتضى منه لتدبير عوالي المراتب طباً خبيراً، وإماماً عالماً

ومنه قوله في خطبة صداق المراجعة:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(٢).

الحمد لله جامع الشمّل بعد الشتات، وواصل الحبل بعد البتات، ومُحيي الارض بعد الممات، ومنزل الماء الشجاج من المعصرات لإخراج الحبّ والنبات،

(١) أبو الفضل محيي الدين بن محمد بن علي بن محمد، يرجع نسبه إلى عثمان بن عفان، ناب في القضاء بدمشق ودرس وحدث بها وبمصر، وتوفي سنة ٦٦٨ هـ. (البداية والنهاية ١٣/٢٥٧).

(٢) سورة الفرقان: ٧٤.

والعالم بما كان وما يكون، وما مضى وما هو آت، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تضاعف الحسنات، وتمحو السيئات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالآيات البينات، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وأزواجه الطاهرات صلاةً باقيةً بعد نفاذ الأزمنة وفناء الأوقات، وبعد، فالنكاح من السنن التي أمر الله بها وندب إليها ورغب رسوله صلى الله عليه وسلم فيها، وحضَّ عليها فقال تعالى في كتابه العزيز المنزل على أفضل أنبيائه ورسله الذي لو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيُّمَ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المخصوص بالشفاعة والكرامة: تناكحوا، تناسلا أباهي بكم الأمم يوم القيامة، وقد جعل الله تعالى للزوجين أن يتوصلا وأن يتقاطعا، وأن يتباينا، وأن يتخالعا، ورخص لهما في المراجعة بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾^(٢) وكان من قضاء الله السابق علمه، وقدره المارق سهمه، ما ذكر في الكتاب المقرون بالبركة رقمه، المعجون بالسعادة ختمه كذا وكذا.

ومنه قوله، وهو حلّ بيت المتنبّي، وهو: [من الكامل]

ان القَتِيلَ مُضْرَجًا بدموعِهِ مِثْلُ القَتِيلِ مُضْرَجًا بدمائِهِ^(٣)
/ ٢٥١ / قَتِيلٌ فِي سَبِيلِ حَبِّهِ، كَقَتِيلِ السُّيُوفِ البَوَاتِرِ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ، إِلَّا
أَنْ هَذَا يَغْسَلُ بدموعِهِ، وَهَذَا يَزْمَلُ بِنَجِيعِهِ، وَهَذَا فِي حَالِ حَيَاتِهِ مَيِّتٌ يَرْمَقُ، وَهَذَا فِي
حَالِ مَمَاتِهِ حَيٌّ يَرِزِقُ.

ومنه قوله في حلّ أبيات ابن الرومي: [من الكامل]

وَحَدِيثُهَا السُّحْرُ الحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتَلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ^(٥)
إِنْ طَالَ لَمْ يَمَلْ وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ وَدَّ المُحَدِّثُ أَنَهَا لَمْ تُوجِزِ
شَرِكُ العُقُولِ وَفَتَنَةٌ مَا مِثْلُهَا لِلْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ
لا جناح على من شغف بفاترة الجنون، فاتكة العيون، عليل لحظها صحيح
لفظها تعد السقام الشفاء من قربهما، وتوقع الأنام من شرك من هديها، وإن أثبتت
طعنت من ناضر غصنٍ رطيب بعاملٍ ذابل، وإن رمقت رَشَقَتْ عن قوس حاجب بنبل

(٢) سورة البقرة: ٢٣.

(٤) قلائد الجمان: ١٠٧/٩.

(١) سورة النور: ٣٢.

(٣) ديوان المتنبّي: ص ٣٥.

(٥) ديوان ابن الرومي: ١١٦٤/٣.

نابل، وإن نطقت فاستمع لما انزل على الملكين ببابل، فهو السحر الحلال، مع قتله النفوس عمداً، والعذب الزلال إلا انه يزيد المرتشف له وقداً، والعاقل للعقول، فلا تجد من وقوعها في عقاله بدأً، يؤمن على طويلة الملك وكلّ طويلٍ سواه مملوك، ويودّ سامع قليلة لو أنه بالكثرة متصف، وبالزيادة مشمول، يلهي المشتغل عن قضاء أشغاله، ويعوق عن مضي استعجاله، ينزه النواظر في رياض حسنها الناظرة، وتغرق الخواطر في بحار ذهنها الزاخرة، تقيّد الألباب ولو أساءت، وعهدنا الانسان بالاحسان يتقيّد، وتصيد القلوب طوعاً وكرهاً، فاعجبوا من غزالية تصيّد.

ومن شعره قوله^(١): [من مخلع البسيط]

يقولُ لي مادحوهُ لما
ما لك فينا بغير عين^(٣)
فإن تعجبتم لكوني
ولم أنل من نداه أربي
/ ٢٥٢ / ومنه قوله^(٤): [من السريع]

غبت عن القدس فأوحشته
وكيف لا تلحُّهُ وحشة
ومنه قوله في الصوم: [من الطويل]

وما خاتم طول النهار لباسه
وأعجب شيء ان يُسمّوه خاتماً

ومنه قوله في قصب السكر: [من الوافر]

جعلت فداك هل لك في حبيب
نقي الثغر معسول الثنايا
له قدّ القضيبي إذا تشنى
يقام عليه حدّ القطع ظلماً
مجيب في الوصال بلا محال
له ريق ألد من الزلال
وهزت عطفه ريح الشمال
ولم يسرق ولم يتهم بمال

(١) الايات في الوافي: ٤٦/٢٧، والطالع السعيد: ٦٨٠، وفيهما انه كتبها للمستنصر.

(٢) في الوافي: والطالع.

فقال لي مادحوهُ لما فازوا وما فزت بالرغائب

(٣) الوافي: لم انت فينا. (٤) فلائد الجمال: ١٠٦/٩.

وَيُعْصِرُ كَعْبُهُ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي السِّيفِ^(١): [من الطويل]
 وَأَبْيَضَ وَضَاحِ الْجَبِينِ صَحْبَتُهُ
 شَدَّدَتْ يَدِي مِنْهُ عَلَى قَائِمٍ بِمَا
 إِذَا نَابَنِي خَطْبٌ شَدِيدٌ نَدَبْتُهُ
 صَبُورٌ*^(٢) عَلَى الشُّكُورِ فُلُو دُسْتُ خَدَّهُ
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي الرَّمْحِ^(٤): [من الطويل]
 عَصِيٌّ ثَقِيلٌ إِنْ أُطِيلَ بِنَانُهُ^(٥)
 تَرَى مِنْهُ أَمِيًّا عَلَى الْخَطِّ يَنْتَمِي
 عَجِبْتُ لَهُ مِنْ صَامِتٍ وَهُوَ أَجُوفٌ
 وَمِنْ طَاعِنٍ فِي السِّنِّ لَيْسَ بِمُنْحَنٍ
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْإِبْرَةِ: [من الطويل]
 /٢٥٣/ وَمَسْمُومَةٌ بِالضَّدِّ مِنْ أَخْوَاتِهَا
 إِذَا لَدَغَتْ لَمْ يَدْخُلِ الْقَلْبَ ابْرَةٌ
 تَرَى خَلْفَهَا مَهْمَا تَمَشَّتْ ذُؤَابَةٌ
 تَحَلَّتْ بِضَيْقِ الْعَيْنِ وَهِيَ سَخِيَّةٌ
 وَإِنَّ أَجَلَ النَّاسِ قَدْرًا وَقُدْرَةٌ
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي صَاغِرَةِ الْارَاقَةِ: [من المنسرح]
 يَا سَيِّدًا لَمْ تَزَلْ أَوْامِرُهُ
 هَلْ لَكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ فِي أُمَّةٍ
 إِنْ تُدْنَهَا تَأْتِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ
 تَنْكُحُهَا كُلَّمَا أَرَدَتْ وَلَا
 تَحْبَلُ فِي لَيْلِهَا فَإِنْ تُرِكَتْ
 وَهِيَ إِذَا فَتَشَتْ فَلَا دُبْرٌ

فِيْبِدِي الشُّكْرَ مِنْ كَرَمِ الْخِلَالِ
 فَأَحْسَنَ حَتَّى مَا أَقَوْمٌ بِشُكْرِهِ
 أَكْلَفُهُ يَلْقَى الْأَعَادِي بِصَدْرِهِ
 فِيهِتَزُّ مِنْهُ مُسْتَقِلٌّ بِأَمْرِهِ
 عَلَى حِدَّةٍ^(٣) فِيهِ وَثِقَتْ بِصَبْرِهِ
 مَطِيْعٌ خَفِيْفُ الْكَلِّ حِينَ يُقْصَرُ
 وَمَغْرَى بِغَزْوِ الرُّومِ وَهُوَ مُزَنَّرٌ
 وَمِنْ مُسْتَطِيلِ الشُّكْلِ وَهُوَ مَدَوَّرٌ
 وَمِنْ أَرْعَنِ مَذْعَاشٍ وَهُوَ مَوْقَرٌ
 إِذَا زَالَ عَنْهَا سَمُّهَا لَيْسَ تَنْفَعُ
 لَخَوْفٍ وَإِنْ كَانَتْ تَمْضُ وَتُوجِعُ
 تَجَرُّ وَإِنَّ الرَّأْسَ مِنْهَا لِأَقْرَعُ
 لَهَا خَلْعٌ بَيْنَ الْأَنَامِ تُورَعُ
 لِيَلْبَسَ مَا تَنْضُوهُ عَنْهَا وَتَخْلَعُ

فِرْضَاعُ عَلَى الْعَبْدِ فَهُوَ مِمْتَلٌ
 بِيَضَاءِ حَمْرَاءٍ مَا بِهَا خَجَلٌ
 أَوْ تُقْصِيهَا لَا يُغِيْضُهَا الْمَلَلُ
 يُضْجِرُهَا مِنْكَ ذَلِكَ الْعَمَلُ
 إِلَى عَدِيدٍ زَالَ ذَلِكَ الْحَبَلُ
 يُوَلِّجُ فِيهِ لَهَا وَلَا قُبْلُ

(١) الوافي بالوفيات ٤٢/٢٧. (٢) في الاصل: بصور.
 (٣) في الوافي: رقة.
 (٤) الوافي ٤٣/٢٧، وفوات الوفيات ٤/١٨٨.
 (٥) الوافي: عنانه.

ومنه قوله^(١): [من المتقارب]

وعَلِقِ تَعَلَّقْتُهُ بَعْدَمَا غدا وهو مِنْ سَقَطَاتِ المَتَاعِ^(٢)
فغَرَّقَنِي مِنْهُ نَوْءُ البُّطَيْنِ ورواه مَنَّى نَوْءُ النُّذْرَاعِ

ومنه قوله في المحفة^(٣): [من الطويل]

وحاملية محمولة غير أنها إذا حَمَلْتُ أَلْقَتُ سَرِيعاً جَنِينَهَا
منعمة لم ترضَ خدمةَ نفسها فغلمانها مِنْ حولها يخدمونها
لها جَسَدٌ ما بينَ رُوحينِ يغتدي ولولاهما كانَ الترهَّبُ دِينَهَا
فقد شُبِّهَتْ بالعرشِ في أن تحتها ثمانيةً من فوقها يحملونها

ومنه قوله في الإبرة^(٤): [من الطويل]

وعارية لا تشتكي البردَ في الشتا على أنها منهوكةُ الجسمِ بالبردِ
إذا زالَ عنها سَمُّها زالَ نَفْعُها وكانَ دواءُ السَّمِّ في ذاكَ بالضدِّ

/ ٢٥٤ / ومنه قوله في الميل: [من الطويل]

ومعتدلٍ في شكلِهِ وَقَوَامِهِ وليسَ لَهُ مِثْلٌ وَإِنْ كانَ كَالغُضَنِ
يُسَنُّ وَإِنْ لَمْ يَرهْفِ السَّنُّ حَدَّهُ على أَنَّهُ كَالسيفِ حَدٌّ مِنَ الجَفَنِ

ومنه قوله في المشط^(٥): [من الطويل]

يعضُّ بأسنانٍ وليسَ لَهُ فَمٌ ويشغُرُ أحياناً وليسَ بذي ثغِرِ
رأى الزهدَ رأياً فاغتدى متجللاً على جِسْمِهِ العاريِ بمسحِ من الشَعِرِ

ومنهم: ولده^(٦):

(١) الوافي ٤٦/٢٧، والفوات ٤/١٩٠، والطالع السعيد ٦٨٠، والتجوم الزاهرة لابن سعيد ٢٩٩.

(٢) البيت في الوافي:

(٣) الوافي: ٤٢/٢٧، والفوات ٤/١٨٧. (٤) قلائد الجمان: ١٠١/٩.

(٥) قلائد الجمان: ١٠٢/٩.

(٦) يريد انه ابن ضياء الدين نصر الله بن الاثير الذي مضت ترجمته.

وهو شرف الدين محمد بن نصر الدين بن محمد، فاضل، صنّف كتاباً سيذكرها المؤلف، ولد في الموصل سنة ٥٨٥هـ وتوفي سنة ٦٢٢هـ.

ترجمته في: وفيات الاعيان ٥/٣٩٧ في نهاية ترجمة ابيه، ومطلع البدور للغزولي ١/١٢٧، وقلائد

الجمان ٦/٥٤١.

[١٧]

محمد بن نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم

الشياني، أبو عبد الله

فطرة ذكاءٍ غذي بلبانها، وغدا في ورق الشباب يهتز اهتزاز قضبان بانها، طلب العلياء والشبيبة ممدودة الطراف، والحبيبة غضة الأطراف، وكان دأبه في أدبٍ يؤشيه لطرب ينشيه بفكر ينديه، ل بكر يهديه، فاهداها خفرات، وأبداها مسفرات، من غرر وسام، ودُرر لا تُسام، نثرها نثر الجمان، ونظّمها قلائد في جيد الزمان، فقدحت الأنوار، وفتحت بين نرجسِ المجرّة أعين النوار، فطالت بها الأيام بكر وأصائل، وطالت بسحبها الأيام غدر وخمائل وكان مخالفاً لمذهب أبيه في التيه الذي مُقت لأجله، ووقت ميقات الحب لنجله. ذكره ابو العباس ابن العطار وقال: ولد بالموصل في رمضان سنة خمسٍ وثمانين وخمسائة، وتوفي يوم الاثنين جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وله كتاب «غرة الصباح في أوصاف الاصطباح» وكتاب «الانوار في نعت الفواكه والثمار»^(١) وله نثر رائق ونظم فائق.

ومن نثره قوله:

بين المشوق وبين الحمام مناسبة في شجو تعبيره لا في شجو ضميره، فهو يعلن نحيبه تألماً، وهي تعلن بعاتبها ترثماً، وفرق بين الأشجان الملهبة الأضالع والألحان المطربة للمسامع. وقد زعم قوم أنها تذكر عهداً وتجدد وجداً، وهذا شأن من كانت عهوده منسية الايام، ومن لم يكن له من وجدِه / ٢٥٥ / حمامة لم يهتج لتغريد الحمام، ولست براضٍ أن أرى للاخوان عهداً يفتقر الى تذكاري، وأضمن لهم وجداً يحتاج الى تجديد آثار، وأشواقي إليهم على النوى بين الاشواق التي تذهب بجلد الجلد، وتوري زناد الصبابة تحت الحشى الصلد، وإذا صافحت برد الموارد وجدّت حرّ الغليل في ذلك البرد، وإن زاد غيرها بحديث سعد، وكذلك هي في إرتياحها إليه والتياحها عليه.

ومنه قوله يصف سحابة:

خفقت بها بنود الرعود، واظردت فيها خيول السيول، فالسحاب بها بين سائر ونازل، وواضعٍ وحامل.

(١) ذكره الغزولي باسم «نزهة الابصار في نعت الفواكه والثمار».

ومنه قوله:

ولقد وافيتها في زمن المشمش الذي له المثل السائر والذكر الدائر، فرأيت منظر
إبهاءٍ ومخبر اشتهاه ذا لونٍ ذهبي، وشكلٍ كوكبي، وعرف مندلي، وطعم عسلي فهو
يتمزق للطفافة جلده، ويزهى بلذة طعمه، وعظم قده.

ومنه قوله:

وصل الورد على يد مشبهه عرفاً، ومخجله وصفاً، وما أقول إلاّ أني جرث في
التشبيه، فعدت على خاطري بالتنبية، وقلت: اين الورد الذي تناله الأيدي بتناولها،
وتبدله بتناولها، من وردٍ لا يجنى إلا بالعيون، ولا يُنال إلاّ بالظنون؟

ومنه قوله:

كأنما خلقت أغصانها منابرٍ لخطباء الغرام، وصورت أوراقها محاجر لدموع
الغمام، وخرطت أزهارها مجامر للمندل الرطب، وقدر أقحوانها فما لمؤشر الثغر
العذب، والطير ما بين متطلع من وكنه وقائم على غضنيه، من كل مفوّ الطيلسان ذا
طوق يزهى به على طوق العقبان، يترنم خلال أوراق الغصون، فيلتقي شأن المتيم بين
الشؤون: [من الطويل]

يَصْنَلْنَ بنوحي نوحهنّ وإنما بكيت بشجوي لا بشجو الحمائم

ومنه قوله في البنفسج والورد:

أنا حبيب للنفوس، وتاج للرؤوس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي
يشبه عذار المحبوب، ولئن ذممت بأن لباسي لباس السواد، فإن هذا من /٢٥٦/
شيم أهل الوداد، فأقبل الورد في عسكره، وجنوده خافقة السنة عذباته وبنوده، محمّر
الوجنات من الغضب، منكرراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان
المفاخرة وصال وهتف بالبنفسج وقال: [من الكامل]

أَعَلَيَّ يفتخرُ البنفسجُ جاهلاً واليُّ يُعزى كلُّ فضلٍ يبهرُ
وأنا المحبَّبُ في القلوبِ زمانه وبمقدمي أهلُ المسرّة تفخرُ

كيف أطعت هوى نفسك الأمانة حتى افتخرت بحضرة الإمارة؟ ألسنت صاحب
الاسم المعجم و الرداء الذي ليس يعلم؟ بينا ترى ناضراً وترى الطرف عنك نافراً،
هل لك من الفخر إلا ان تشبه بالعدار إذا بقل والكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من
هذين الوصفين إلا بالصيت المذموم؛ لأن هذا إحراق النار وهذا تسويد الخدّ
الملثوم، على أن بعض البلغاء قد انكر تشبيهك بالعدار، ونزّع عنك خلعة هذا الثوب

المعار، فقال: [من الكامل]

وْمُهْفَهْفٍ لِمَا بَدَا فِي خَدِّهِ شِبْهَ الْبِنْفَسِجِ وَأَنْطَفَا تَوْرِيدُهُ
غَمَّ الْبِنْفَسِجِ حِينَ شَوَّهَ خَلْقَهُ وَغَدَا عَلَى مُبْيَضِّهِ تَسْوِيدُهُ
لَكِنَ أَنَا مَرْتَقِبُ الْأَيَّامِ، وَمَنْتَظِرُ الْأَعْوَامِ، وَأَيَّامِي أَيَّامُ الْأَفْرَاحِ، وَمَرَاوِحِ
الْأُرُوحِ، لَا يَشْرَفُ الرَّبِيعُ إِلَّا بِوَرُودِي، وَلَا تَشْبَهُ خُدُودَ الْغَيْدِ إِلَّا بِخُدُودِي.
ومنه قوله:

وبينما الغمامة تطلق لسانها، وتذكر إحسانها، إذ عارضتها الشمس فخرجت من
أثوابها، وقالت: هذه منة على الأرض، أنا أولى بها، وأنا معجزة الجبار، وعروس
الفلك الدوار، ومربية الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسد تابع الأمطار، على أن
للمطر يدا لا تنسى، وطباً به جراح البرق يوسى، فإنه مخرج الأرض من موتها إلى
نشورها وموقد فيها مصابيح نورها، يذف إلى عرائس الرياض وافي مهورها، ويظهر
ما في بطون الأرض من الكنوز إلى ظهورها، قام بنسج أبرادها، ورد أرواحها إلى
أجسادها فهي لمقدمه تهيج، وتهتز وتنبت من كل زوج بهيج.

وأما /٢٥٧/ نظمه، فلم أف من على قصيدة مطوّلة، فأذكرها متمماً ولا
مختاراً، إلا بآية مختصرة ستأتي، ومن مقطعاته قوله: [من الرمل]

لَمَعَ الْبَرْقُ فَهَاجَتْ لَوْعَةٌ لِفَوَادٍ بِالتَّجْتِي مُثْعَبٍ
فَتَخَالَ الْجَوَّ مِنْ لَمَعَتِهِ حَبَشِيًّا فِي رِذَاءٍ مُذْهَبٍ
وهذا معنى مطروق يشبه الليل بالحشي، ولكن حسنته هذه السمة التي جاء بها،
ولا شيء أحسن من رده المذهب هنا، وإن نظر إلى قول المعري: حسب الليل
زنجيا جريحا.

وله: [من الكامل]

فِي رَوْضَةٍ سَلَّتْ بِهَا أَنْهَارُهَا مِنْ كُلِّ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ مُهْتَدٍ
قَدْ صَيَّغَ فِيهَا فِضَّةَ بَيْدِ الضَّحَى وَأَتَى الْأَصِيلَ فِصَاغَهُ مِنْ عَسْجِدِ

وله: [من الطويل]

[و] لَمْ يَطْلُعِ الْبَدْرُ السَّمَاءَ لِأَنَّهُ رَأَى بَيْنَنَا بَدْرًا لَهُ يُخْجَلُ الْبَدْرُ
تَغْنَى وَأَسْبَابُ السَّرُورِ تَمُدُّهُ وَفِي لَفْظِهِ دَرٌّْ وَأَلْحَاطُهُ سَحْرُ

وله: [من مجزوء الرجز]

أَمَا تَرَى الْيَلِيمُونَ يَبْدُو فَي خَالَالِ السُّورِقِ

بظَاهِرٍ مِنْ دَهَبٍ وِبِاطِنٍ مِنْ وَرِقٍ
تَحْوِطُهُ غَلَائِلٌ مِنْ اخْضِرِّ اسْتَبْرِقٍ
إِذَا دَنَا اللَّيْلُ لَنَا جَلَا ظَلَامَ الْغَسَقِ
وله في المشمش: [من الكامل]

والمشمشُ الغَضُّ الجَنِيُّ بَدَا بَيْنَ الغُصُونِ كَأَنجَمِ السَّحْرِ
أَنْ رُمْتُ أَنْ أَجْنِيهِ يَشْغُلُنِي طَيِّبُ المِشَمِّ وَرَوْنَقُ النِّظَرِ
سَبْحَانَ خَالِقِهِ وَجَاعِلِهِ نُزَّةَ العُيُونِ وَعَسْجَدَ الثَّمَرِ
وهذه الكلمة حسنة لولا كاف التشبيه في انجم، فإنها قذى في عين هذه العروس
ودعامة ملحقة في هذا البيت، وأما قوله وعسجد الثمر، وكذلك / ٢٥٨ / كلمة العماد
ثراً وهي قوله: كأنما خرط من الصندل، أو خلط بالمندل.

عدنا الى ابن الضياء الجزري، وله: [من الوافر]

وكمثرى حبوْتُ بِهِ النِّدَامِي تُزِيلُ تَقْطُطَ الوجهِ العَبُوسِ
كَأَكْوَابِ صِغَارٍ مِنْ زَجَاجٍ وَقَدْ مُلِئَتْ بِصُفْرَةِ حَنْدَرِيسِ
وله: [من السريع]

قَدْ أَسْفَرَ الصَّبْحُ لَنَا عَنْ نِقَابِ وَرَقَّتِ الكَأْسُ وَرَاقَ الشَّرَابِ
فَقَمِ بِنَا نَشْرَبُ مِنْ قَهْوَةٍ يَلْمَعُ لِلشَّرْبِ كَلِمَعِ السَّرَابِ^(١)
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَطَ شَمْسُ الضُّحَى مِنْ أَعْيُنِ النَّرْجِسِ وَرَدِّ السَّحَابِ
أَمَا تَرَى الخَمَرَ وَإِمَاضَهَا كَالسِّيفِ وَالكَأْسُ لَهَا كَالقِرَابِ
فَهَزَّهَا فِي كَأْسِهَا هَزَّةً تَجْنِ بِهَا أَثْمَارَ شَرخِ الشَّبَابِ
وله: [من مخرج البسيط]

وَرُوضَةٍ طَلِيقَةٍ حَبَاءِ غِنَاءَةٍ مَخْضِرَّةٍ جَنَابِ^(٢)
يَنْجَابُ عَنْ نَوْرِهَا كَمَا تَمَّ يَنْحَطُّ عَنْ وَجْهِهِ نِقَابِ
بَاتَ بِهَا مَبْسَمِ الأَقَاحِي يَرشِفُ مِنْ ظَلِّهَا رُضَابِ
وله: [من السريع]

السَّحْبُ تَبْكِي وَالثَّرَى ضَاحِكٌ بَكَاءِ صَبِّ مَلٍّ مِنْ جَفْوَتِهِ

(١) في الاصل: فقمرينا يشرب.

(٢) في الاصل: وروضة طليقة...عناء.

والزهْرُ قَدْ فَتَّحَ أَزْرَارَهُ

وله: [من الكامل]

هَبَّ النِّسِيمُ عَلَى الْغُصُونِ فَخَلَّتْهَا
وَبَكَيْتُ مِنْ وَجْدِي وَقَرِطُ صَبَابَتِي

وله: [من مجزوء الرجز]

وَالشَّمْسُ خَلَّفَ الْغَيْمَ كَالِ
تَبْكِي إِذَا مَا احْتَجَبَتْ
/٢٥٩/ لَهَا النِّعَامِي نَفْسُ
تُسْفِرُ أَحْيَاناً لَكِي
كَأَنَّمَا تَنْثُرُ فِي الْـ
أَوْ ذَهَبٌ مِنْتَثُرُ

وله: [من الكامل]

نَثَرَ النِّسِيمُ الطَّلَّ مِنْ أَغْصَانِهِ
فَتَخَالَهُ فَوْقَ الْغَدِيرِ وَقَدْ طَفَا

وله: [من الكامل]

وَالرَّوْضُ سَاءَ بِاسْمٍ مُسْتَعْبِرُ
وَالْفَصْلُ مَعْتَدٌ فَيَا عَجْباً لَهُ

وله: [من السريع]

فِي رَوْضَةٍ يُطْرَبُ أَغْصَانُهَا
قَدْ فَتَحَ النَّرْجِسُ أَحْدَاقَهُ
وَتَحَسَّبُ الْأَنْهَارَ فِي جَرِيهَا
وَدَغْدَغَ الْغَيْثِ بِطَوْنِ الثَّرَى
وَكَلَّمَا غَنَّتْ هَزَارَاتُهَا

وله: [من الرجز]

إِنِّي رَأَيْتُ بِالْأَرَاكِ هُتِّفَاً
تَبْكِي بِلَا دَمْعٍ وَأَبْكِي بَدْمٍ

وله: [من الوافر]

كَأَنَّهُ اسْتَيْقَظَ مِنْ رَقْدَتِهِ

مِثْلَ الْأَحْبَةِ سَاعَةَ التَّوْدِيْعِ
حَتَّى سَقِيَتْ أَصُولُهَا بِدَمْعِي

حَسَنَاءٍ خَلَفَ الْمَعْجِرَ
مِنْ شِدَّةِ التَّحَسُّرِ
وَالدَّمْعُ مَاءُ الْمَطَرِ
تَحْظَى بِبَعْضِ النَّظَرِ
أَرْضِ نَجْمِ السَّحَرِ
عَلَى بَسَاطِ الْأَخْضَرِ

وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُدْهَبٍ وَمَفْضُضٍ
حَبَباً يَدُورُ عَلَى شَرَابٍ أَبْيَضِ

خَضِلٌ بَطَلٌ سَمَائِهِ مَطْلُورُ
كَيْفَ النِّسِيمِ يَمْرٌ وَهُوَ عَلِيلُ

سَجْعُ طَيُورٍ فِي ذُرَاهَا فِصَاحُ
[و] قَبْلَ الطَّلِّ ثُغُورُ الْأَقَاحِ
قَدْ حَمَتِ الزَّهْرَ بَبِيضِ الصِّفَاحِ
فَابْتَسَمَتْ فِيهِ ثُغُورُ الْأَقَاحِ
شَقَّتْ جَيُوبَ النُّورِ هُوجُ الرِّيحِ

تَزَعُمُ أَنَّ عِنْدَهَا مَا عِنْدِي
شَتَانَ بَيْنَ وَجْدِهَا وَوَجْدِي

تَنَنْتُ أَعْطَافَهُ رِيحُ الشَّمَالِ
أَمِيلُ مِنَ الِيَمِينِ إِلَى الشَّمَالِ

يزهو على شمس النهار
فلذاك سمى بالبهار

وهو لنا في ليلنا حارسا
فظل يخشى ان يرى ناعسا
تراه من فطنته ناكسا

قد جرد البيض وهو يحميها
تراقص الزهر في نواحيها

نمّت إلينا به الجنوب
فملّت المضجع الجنوب
طاب لكم وقتكم فطيبوا
يخجل من لينه القضيب
لكاد من لحظه يذوب
ألا لتشقى به القلوب
صبا إلى شربها اللبيب
في قعر كاساتها وئوب
هانت على قلبه الخطوب
هيهات عن شربها أتوب
قل لي: لمن تغفر الذنوب

تَغْنِي يَا حَمَامَةَ فَوْقَ غُضْنِ
فإِنَّكَ كَلِمَا غَرَدْتَ صَوْتًا
وله: [من مجزوء الكامل]

زَهْرُ الْبَهَارِ بِلَوْنِهِ
بَهَرَ الْعَيُونَ بِحَسَنِهِ
/٢٦٠/ وله: [من السريع]

أما ترى نرجسنا قائماً
قد فتح الأحداق مستيقظاً
حتى إذا قبلت من أشتهي
وله: [من المنسرح]

والماء بين الرياض تحسبه
وكلما غنت الطيور بها
وله^(١): [من مخلع البسيط]

للروض عند الصباح طيب
واستمتع الطرف من كراه
والطير فوق الغصون يدعو
والكأس في كف ذي قوام
لولا لباس يقيه ظرفي
ما سعد الوالدان فيه
راخ إذا الراح ابرزتها
لها إذا الماء جال فيها
إذا سرت في عروق شخص
وقائل تب فقلت: كلاً
إذا استقام الانام طراً
وله: [من الخفيف]

فهي شمسٌ لكنْ بغيرِ مغيبٍ ولهيْبٌ لكنْ بغيرِ انطفاءٍ
ومنهم:

[١٨]

ابن قرناص^(١)، محيي الدين

وهو من أهل حماة، ووقفت له على بديع رقم بغرائب النواة، بيانا كالجواهر
المعدود، وإحساناً كل سمع به / ٢٦١ / معقود، كأنه شخص الحبيب بدا لعين محبِّه،
أو طيف الخيال وأدنى في قربه، وسمعت كلما كلما قرأتها استجدتها، وفقرراً لِقْرِى
المسامع مهما قُدِّمت لك استزدتها،
فمن ثرته قوله:

وسار في فرسان كالأسود، إلا أن برائنها سلاح، وجنود كالطيور إلا أنها تسبق
الرياح، حتى أتى فلانة، ورَّتَب عليها نوب اليزك^(٢)، للمخايلة لا للمخاتلة، وانتظر
ان يخرج إليه صاحبها متضرعاً، أو يقصد إليه متخضعاً؛ لأنه إنما قصده غضباً لله،
لما انتهكه من محارمِهِ، وأقامه لما رأى العدل الذي شرع في هدم معالمه، وشفقةً
على خلق الله الذين بسط عليهم منذ وليهم أيدي مظالمه، فلما أبى إلا الطغيان
والتمادي في مهالك العصيان، واغتر بأصحابه الذين هم معه بأجسامهم وعليه
بقلوبهم، ووثق برعاياه الذين كانوا أو وقعوا معه بذنوبهم، فلصق الجيش المنصور
بالسور المقهور، فدنا وتدلَّى، ورأى الخصم عين القصم، فعبس وتولَّى، فكشفت
الستور، وهتكت حجابهِ، وتبرَّج كلَّ برج فحسر الزرَّاقون لثامه، وأماط النقابون نقابه،
وظلَّعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة، كل راية صفراء فاقع لونها تسرَّ
الناظرين، وأيدَّ الله الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين.
ومنه قوله:

فَلَمْ تَرَ إِلَّا شَجْرَةً قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا، وَكروماً خاوية العروش، وسقيط البلح
المبثوث، وجبالاً كالعهن المنفوش.

(١) ابراهيم بن محمد بن هبة الله بن قُرْناص، الخزاعي، الحموي، محيي الدين، الاديب، الشاعر،
المتوفى سنة ٦٧١هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٦/ ١٣٣، المنهل الصافي ٦/ ١٢٢، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٨، هدية
العارفين ١/ ١٢، الاعلام ١/ ٦٣.

(٢) اليزك: طلائع الجيش.

ومن شعره قوله: [من الرجز]
 خُذْهُ إِلَيْكَ أَذْهَمًا مُحَجَّلًا
 مِنْ يَعْزَلُ يَوْمًا مِثْنَهُ فَقَدْ نَجَا
 يُرِيكَ مِنْ تَحْجِيلِهِ وَلَوْنِهِ
 (طَرَّةٌ صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدَّجِيِّ)
 ومنه قوله: [من الخفيف]
 مَنْ لِقَلْبِي مِنْ جَوْرِ ظَبِيِّ هَوَاهُ
 خَصْرُهُ تَحْتَ أَحْمَرِ البِنْدِ يَحْكِي
 لِي شَاغِلٌ عَنْ حَاجِرٍ وَالْعَقِيقِ
 خَنْصِرًا فِيهِ خَاتَمٌ مِنْ عَقِيقِ
 ٢٦٢ / ومنه قوله: [من الكامل]
 جَرَحَ الفُؤَادَ غَدَاةً جَاءَ مَجْرَحًا
 أَيْلَامٌ عَاشِقِهِ لِفَرْطِ بَكَائِهِ
 ظَبِيٌّ مِنَ الأتْرَاكِ مَعْسُولُ اللَّمَى
 وَعَلِيهِ أَعْيُنُ دَمْعِهِ تَبْكِي دَمًا
 ومنه قوله: [من الكامل]
 وَكَأَنَّ مَسْطُولًا عَزِيزًا قَدْ غَدَا
 وَسِنَانٌ أَقْصَدُهُ النِّعَاسُ فَرْتَقَتْ
 يَرَعَى الحَشِيشَةَ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمِ
 فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ
 ومنه قوله: [من الطويل]
 أَلَى اللَّهِ أَشْكَو دَا حَسَاً قَدْ أَضْرَبِي
 وَإِنِّي لَفِي حَرْبٍ إِذَا بَاتَ ضَارِيَا
 بُوخَزٍ حَكِيٍّ وَخَزَ الرَّمَاحِ المِدَاعِيسِ
 عَلَيَّ وَمَنْ يَقْوَى عَلَى حَرْبٍ دَا حِسِ
 ومنهم:

[١٩]

ابن العجمي، كمال الدين أحمد بن عبد العزيز الحلبي، أبو العباس^(١)
 كتب الدرج في أيام الناصر^(٢) بن العزيز، فرقم ديوانها بالتطريز، وفضل فزادها
 وأزواجها بالتبريز، وكان صدر رئاسة، وبدر عرفان وسياسة، لاقت العلياء بمعاطفه،
 وراقت الفضائل في كؤوس معارفه، من قوم وهبتهم الثريا سيادتها، وحبّتهم حارة
 الشمس سعادتها، فثنت الجوزاء إليه عنانها، وانقدته النجوم أعيانها، فجعلته الدول
 حلية للبتها، وشيةً لأيامها، وقد نَفَضَتْ عليها الليالي صبغ لمتها، وقدم دمشق في

(١) المتوفى في صور سنة ٦٦٦هـ.

انظر ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٣٨٨/٢، والوافي بالوفيات ٦٨/٧.

(٢) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، ملك بعض بلاد الجزيرة الفراتية، ثم دمشق والشام، ودخل التتار الشام فخرج منها وقتل باذريجان سنة ٦٥٨هـ. (وفيات الاعيان ١٠/٤).

أوائل دولة الظاهر بيبرس، وكتب بها، ثم طلب الى مصر واستكتب، واستعتب لحظه الناقص، فاعتب، وله الآن يقني بقية العبق في المشام، والشهب في آخر الظلام. ومن نثره قوله:

ولم يكن إلا كلمح البارق الخاطف، أو شرب الطائر الخائف، حتى علونا جدارها وتسورنا أسوارها، وهذه قيسارية^(١) كان ريد إفرنس^(٢) قد أحكم عمرانها، فألحق بالسماء أرضها، وأبرم أسباب تحصينها إراما منعه نقضها، وجعلناها امام ما نقصده من الثغور الساحلية، لتعلم الفرنج / ٢٦٣ / ان قصدنا لحصونهم امام ما نقصده من الثغور الساحلية شامل، وعزمتنا إليهم في كل جهةٍ واصل، واننا لا بد أن نُعْرِق ببحر عساكرنا ما بأيديهم من الساحل، لتتفرق عزائمهم فلا ينصب الى جملة واحدة، وتذهل خواطرها، فتتوهم كل فرقة من الجيوش إليها قاصدة. ومنه قوله:

وكنا لما شَمَخَتْ بأنفها إباءً، ورفعت رأسها منعةً واستعصاءً، وكَلْنَا باستلانة جانبها، ورياضة مصاعبها، كل طويل الباع رحب الذراع، مضطلع بأمر الحصر أي اصطلاح، فقفدها بشهب نجومه، وواصلها بتوالي رجومه، حتى عرف منها موقعه، واستبان من أبراحها موضعه، وألان من شامخها جامحةً وممتنعه، فلم يزل يقبل ثغرها حتى أُنْغَرَ، ويصادم ركبها حتى خرّ، وجاء ما لاصقه على الأكثر، وفي ضمن محاذاتها بالمجانيق، تخلصنا حولها الأرض طرقاتاً وأسراباً، وصيرناها الى الخنادق أنفاقاً وأبواباً، وصبر جنود الله حتى وصلوا بالحجارة الى جدارها، فجاذبوا أذيال بنائها الشامخ، وحلّوا عقد أساسها الراسخ، فتعلّقوا بأبراجهم تعلق قرار لا لانتصار، ولاذوا بمعاقلهم ليأذ رُعب لا توهم اقتدار، وأذعنوا بلسان الاستعطاف، فأجبناهم على ان يبقوا تحت أيدينا أسارى، وأغمدنا عنهم السيوف إلا من سبق في قتله السيف العذل، وأتاه الموت قبل تحقيق الأمان على عجل، وقد فتح الله على المسلمين حصناً كان عليهم وبالاً، وحلّ عنهم من معقله عقلاً، وخفّف عن أعناق محاذيه من سوء جيرته أعباءً ثقالاً، ثم أمرنا بهدمها حتى عاد ما كان يُرى منها شاهقاً للعيان لا يكاد يُدرك باللمس، وأصبحت خاويةً على عروشها كأن لم تُعَنَّ بالأمس. ومنه قوله:

(١) قيسارية: مدينة على ساحل بحر الشام، من اعمال فلسطين (معجم البلدان - قيسارية)

(٢) ريد إفرنس، ويسمى: الفرنسيس؛ ملك فرنسة (صبح الاعشى ٤١٢/٥).

فنصبنا عليها من المجانيق كل صائب سهمه، ثاقب نجمه، محرق لشياطين الكفر رَجْمُهُ، يهدّ ويهدم، ويردي ويردم، ويوهي ويوهن، ويُسرّ باردائه ويعلن / ٢٦٤ / لم تُنصب عوامله على سور متصل إلاّ هدمته، ولا مُدَّت أسبأه على مبنى رُفِع واستغلق بابه إلاّ كَسَرْتُهُ، ولم يزل يرمي غاديتها بالقارعة، ويصمي اسماعها بأحجاره الطائرة الواقعة، وأقبلنا بالمجاهدين إليها، فأحاطوا بها إحاطة الخاتم بخنصره، والسور بمعصمه، وأمطرنا عليها بسحب القسيّ وبلاً غرقتهم بدافق أسهمه، فتجلّد أعداء الله، وجلدوا، وتعاقدوا على الموت وتعاهدوا، وأرسلوا من جروفهم سهاماً، لا يردها رادّ عن الأجسام، ولا يكسر عينها ما تصم الأعضاء من تظاهر الآلام، وإذا شوهدت راعت الناظر فلم يدر أعمدّ هي أم سهام، وشفعوها بضمّ أحجار صمت، لها أسمع الدرق، وكسرت بها رؤوس البيض، وفقسّت أعين الحلق. وصبر أولياء الله، ولم يزالوا حتى ألحقوا النقابين بجدارها، وبوأوا المقاعد تحت أسوارها، ولم يكن بأسرع من ان شقت النقابون نقاب اسوارها، وأضرموا ناراً طاف بأهل السعير سعيرها، ونطقت عمّا أكّته ضميرها فانحلّ من عقود بنائها ما كان متّسق النظام، ونبذ من شمل بروجها ما كان حسن الألتيام، وكانت لا تلوي جيدها صِعراً، فألصق خدّها وهي راغمة بالرغام.

ومنهم:

[٢٠]

تاج الدين، أبو جعفر، أحمد بن سعيد^(١).

رأس المعالي وتاجها، ولقاح المعاني ونتاجها، كان معدن الجلالة، وموطن الرقة والجزالة، ولم يزل بدر الفضائل وكمالها، وصدر المحافل وجمالها، ونفس المآثر وعنصرها، وخاتم المفاخر وخنصرها، صحب الأيام مسالماً، وقاسم الليالي على النجوم الزهر مساهماً، واكتنف البلاغة فقلّدته تقليد العموم، وقدمته تقديم الإمام على المأموم، وخدم الدول فأولته انعاماً، وخولته مواهب طالما أخذتمته الزمان عاماً، وكان نداءه موارد ملكها، ونُهاه عطارد فلکها، فأرّته وجوها وساماً، وأرضته مصرّاً وشاماً، فأهدى من فرائده ما^(٢) ابن العزيز فاستخدم في ديوان / ٢٦٥ / الانشاء،

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٦/٣٩٢، والنجوم الزاهرة ٨/٧٤، والمنهل الصافي ١/٣٠٠،

وبيت ابن الاثير الحلبيين غير بيت ابن الاثير الموصليين.

(٢) كذا في الاصل، ولعل كلمة سقطت فابهت المعنى.

واستكتب واستعتب له الحظ لو يعتب، ثم نقل الى الباب الظاهري، فكان هناك أحد المتخذين الأعيان، والمتحدثين بسحر البيان، وولي في الايام الاشرافية كتابة السرّ بالحضرة السلطانية، فلم يتم الشهر حتى مات، ودفن بغزة^(١)، فأغمدت منه المنايا عُضناً، ووهبت منه الى جانب الملح بحراً عذباً، وكان هلالاً للشهر، وروضاً يُلقط من أفنائه الزهر.

قال شيخنا أبو الثناء: كان ييطيء ولا يخطيء، وقال: كان عنده اعتناؤه بالألفاظ أكبر من المعاني.

قلت: ويدلّ على هذا ما يرى، وقد وقفنا على كثيرٍ منه، واكثره متزن، لو تجسّد لاخترن، كأنه في تساويه مسجع الحمامة، أو وَقَع الغمامة.

وحكي^(٢) انه لما أناخ هولوكو على شاطيء الفرات، وفرش خوفه الخدود لمواطيء العبرات، وقطعت من تلك الدولة الأواصر، وأصبحت وما لها قوة ولا ناصر، وكان الناصر بن العزيز قد جهّز ولده الى أردو هولوكو بطرف بعثها، وكتاب حلّ في سطوره عقد السحر ونقّتها، كتبه له هذا الكاتب المذكور، واستشهد فيه بالبيت المشهور: [من البسيط]

يجودُ بالنفس ان ظنّ البخيلُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ^(٣)
فلما عرضه على الملك الناصر، قال له: هذا كتاب لا يلام دونه القاصر، وكان الأنسب في هذا المكان ان لو استشهدت فيه بقول ابن حمدان^(٤): [من الطويل]
فدى نفسه بأبنٍ عليه كنفسيه وفي الشدة الصمّاء تُفنى^(٥) الذخائر
وقد يُقطعُ العضو النفيسُ لغيره وتُدخّر^(٦) للأمر الكبير الكبائر
فأقرّ له بالصواب، وعلى نفسه بالخطأ، وبدل الاستشهاد بما قال، ثم ما أنقذ ذلك الكتاب من عثرة ولا أقال:

ومن نثره قوله:

كتابنا هذا والمرقب^(٧) في قبضة ملكنا، وربوعه قد عادت أطلالاً، والأسياف

(١) توفي بغزة سنة ٦٩١هـ.

(٢) الخبر في الوافي بالوفيات: ٣٩٥/٦.

(٣) البيت لصريع الغواني مسلم بن الوليد، ديوانه ص ١٦٤.

(٤) ابو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، والبيتان في ديوانه ص ١١٥. ط دار صادر.

(٥) في الديوان: تُفنى. (٦) في الديوان: وتُدفع بالأمر الكبير.

(٧) المرقب: حصن على ساحل بحر الشام مقابل جبلة (معجم البلدان - المرقب).

التي كانت في أيدي أهلها قد جَعَلْنَاها في أعناقهم أغلألاً، وقد علم /٢٦٦/
المجلس ما كانوا يحدثون به نفوسهم، ويشعبون به رؤوسهم، واستفزهم من يحسن
لهم في الطمع أموراً، وَيَعُدُّهم الأباطيل، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وكان
المانع أولاً ما كان من اضطراب الأمور، والتقاء الجيوش واختلاف الآراء، وتغير
النيات، إلى أن أمكن الله عزوجل من كلِّ مناوئء منافر، وظفرنا من الأعداء بكل
كافر، ولكل مَنْ هو للنعمة كافر، ونحن مع ذلك نحيط بما يمكرونه علماً، ونُملي لهم
ليزدادوا إثماً، فلما تَلَمَّحْنَا مخايل النصر، سرنا إليها سرى الخيال الطارق، وأسرعنا
نحوهم كما تسرع لمحَّة البارق، ولم نزل نوقد لهم البواتر، ونُدِير عليهم الدوائر،
ونشَتُّ لآرائهم شملاً، ونقطع من مكائدهم حبلاً، ونفضُّ لعزائمهم جمعاً، وتكون
جنودنا واقفةً بإزائهم، فيخيل إليهم من خوفهم أنها تسعى، إلى ان أدر كنا فيهم الثأر،
وأطفينا بهم النار، وضرَبنا عليهم الذلَّة، وجمعناهم جَمْع القلَّة، وأصبح ما كان
يحميهم يتحاماهاهم، وقلنا: يا سيوف دونك وإياهم، وكانت هذه القلعة مكانها في
جوار النجم، وفناء اليمِّ، تقدمها الجبال، ويَعَصِمها البحر، وتحجبها الأودية،
ويحضنها الوعر، وتحفَّ بها سيوف لا تكلِّ، وآمال لا تملِّ، وآجال يحفظونهم ولا
يضيعونهم، وقوم يعصون الله ويطيعونهم، وسطرناها، وبلادهم مهدومة، وجموعهم
مهزومة، ويد الله فوق أيديهم، والخذلان من كل ناحية يناديهم.

ومنه قوله:

وبعد فإن الرتب شرفها بمتوليها ومتوقِّلها يزيد، والعقد ما امتاز على السلوك إلا
بواسطة حسبها نظام كلِّ فريد، والمملكة جمالها وزيرها، وقوامها مشيرها، وأمورها
تكون ضياعاً، وحزمها يكن مضاعفاً، ما لم يُؤازرها ذو أزرٍ شديد، ورأيٍ سعيد، وقلم
يقلم ظفر الملمِّ ويقوم بعبء المهم، ويجري بالأرزاق، ويدخرها، ويقتني الأموال
العظيمة لمن يستصغرها، ولولاه لما افتخرت الدول، ولكانت مضطربةً لولا ابتناؤها
على الأقلام والأسل /٢٦٧/ وكان أولى من عوّل على تدبيره، واهتدى في الأمور
بنوره، أهل العلم، فإنهم المذكورون لمن مَلَك، والمستفتون في الأرواح والأموال
ليحيا من حيٍّ عن بينةٍ ويهلك من هلك، ويسترشد بهم إذا ضلَّت الآراء، وأظلت
الأهواء، وطلَّت الأنواء، وتحكمت الأدوية، وتقسَّمت الأضواء، وكان فلان هو
المعنى بهذا المدح، والجدير بأن تجلى عليه هذه الملح، وتجمّل بإلقاء دروسه صدر
كلِّ إيوان، وبتصريفه مكان كلِّ ديوان، وتحاسدت الوزارة والأحكام عليه، إلى أن
نالت الوزارة منه نحتها، منشدة: [من الطويل]

هو الجِدُّ حتى تفضلَ العينَ اختها

ومنه قوله :

يقبل اليد لا زالت أقلامها محسنة في سفارتها، وكتبها لا تسلك إلا بخفارتها، والخدمة إذا لم يكن معها ذمام لا يؤمن عليها شَنُّ غارتها، وينهي ورود مشرفته التي أبهجت بما أسمعته، وأدّت الأمانة فيما استودعته، وحملت إليه الرياض زواهر، وأُعنته بما أهدى إليه البحر من الجواهر، وقبل الرسالة والرسول، وقبّل الحامل والمحمول، وأعاد الجواب وهو من خوف التقييد على وَجَل، وكتبه والقلم من حياء المماثلة، لا يكاد يرفع رأسه من الحَجَل، فيعرضه مولانا على فكره النقاد، ويتصفح بنظره الذي زمام الفضل به منقاد، ويُسبِلُ عليه سِتْرَ معروفه الندي^(١)، ويعيره نفحة أنفاسه التي يكاد يفوح المسك من عرفها الشذي، والله يشكر له الاحسان الذي لا يبلغ الوصف مدها، ويحرس عليه من الفضل ما ملكت يدها، ويفديه بكل مقصر عن شأوه، فلا أحدٌ إذاً إلا فداه.

ومنه قوله^(٢) :

يقبل اليد الشريفة المحيوية المجنوبة^(٣) الى كل قُبلة، المحتوية على الكرم الذي هو للكرماء قبلة، لا زالت مخصوصة بفضائل الإعجاز، والبلاغة التي كل حقيقة عندها مجاز، والاحسان^(٤) الذي يظنّ الاطناب في وصفه من الايجاز^(٥).

وينهي ورود مشرفته التي أخذت / ٢٦٨ / البلاغة فيها زخرفها، وأشبهت الرياض^(٦) منها أحرفها، وأبانت عن معجزات البراعة، ومثلت له السحر كيف ينفث في عقد تلك اليراعة^(٧)، وأبانت مجاري فضله على مثل الجمر، وأفردته بالرتبة التي لا يدّعيها^(٨) زيد ولا عمرو، وعلمته كيف يكون الانشاء، وأعلمته ان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء^(٩)، فوقف المملوك عليها وقوف مَنْ أفحمه الحصر، وتناول لمباراته

(١) في الاصل : الذي.

(٢) الوافي بالوفيات ٦/ ٣٩٢ ، وفيه انه اجابة لكتاب الفاضلي محيي الدين بن عبد الظاهر.

(٣) في الاصل : المحيويه، والتصويب عن الوافي.

(٤) في الوافي : والاحسان لا احسان الذي يظن.

(٥) في الوافي : الذي يظن الإطناب والإسهاب في شكره وذكره من الايجاز.

(٦) في الوافي : الروضة الأنف.

(٧) في الوافي : ومثلت كيف ينفث السحر في تلك اليراعة.

(٨) في الوافي : التي لا يصل إليها.

(٩) في الاصل : ما يشاء، والتصويب عن الوافي.

فيها، ولم يطل^(١) من في باعِه قصر، واستقدم القلم في جوابها فأحجم، واستنطق لسانه ليعرب عن وصفها فأعجم، وقال لحسنها الذي استرقّ القلوب: قد مَلَكْتَ فأسجح، وبلغ الغاية في نفسه^(٢) التي قصرت عن شأوها، ومُبْلَغُ نفسِ عُدْرَها مثل مَنْجِح، ومن أين لأحدٍ تلك^(٣) البديهة المتسعة والروية التي هي عن كل من ينتحي وينتحل^(٤) متورّعة، والمعاني التي قطفَ نوارها أبكارا^(٥)، والغرائب التي بحرها لا يهدي الدرّ إلا كبارا^(٦)، والخاطر الذي تُستجدي الفضلة^(٧) من سماحته، واللسان الذي يخرس البلغاء عند فصاحته، والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم، والطريق الذي مَنْ دُلَّ فيه ضلّ ولو أنّه عبد الحميد أو عبد الرحيم^(٨)، والكتابة^(٩) التي تشرق بأنوار المعاني، فكأنها الليلة المقمرة، واليد التي إن لم تكن الأقلام فيها مورقة فانها مشرمة، ومولانا^(١٠) أوتى ملك البيان، واجتمع له طاعة القلم واللسان، وخطبت الأقلام بحمده على منابر الانامل^(١١)، وأخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل، ولو كان الفاضل، وأصبح محلّه الأسنى، وأسماءه فيها الحسنى، وجاء من المحاسن بكل ما تُزهى به الدّول، وأصبحت طريقتة في هذا الفن كأنها ملة الاسلام في الملل^(١٢)، وعرف بالإشارة الى حلب وما صنعت بها الأيام^(١٣)، وما أشجى من ربيعها الذي لم يبق بشاشته تُستام^(١٤)، ووقوف مولانا على أطلالها، وملاحظته الآثار التي أعرضت السعادة عنها بعد إقبالها، وتفجّعه في دَمِنِها، وتوجّعه لتلك المحاسن التي أخذتها الأيام من مأمنها^(١٥)، وأنه وجدها وقد خَلَّتْ / ٢٦٩ / عِراصها، وزمت للنوى قِلاصها، وغربانها في رسومها ناعبة، وأيدي البلا^(١٦) بها لاعبة. [من الطويل]

-
- (١) في الاصل: يطول. (٢) في الوافي: في عذر نفسه.
(٣) في الوافي: مثل تلك. (٤) في الوافي: عن كل ما يتجنّب متورّعة.
(٥) في الوافي: والمعاني التي تولد منها أبكار.
(٦) في الوافي: أو الغرائب التي لا يقبل الدر من جرها إلا كبار.
(٧) في الاصل: والخاطر التي يستجدي الفضلاء من سماحته، والتصويب عن الوافي.
(٨) في الوافي: ولو أنّه عبد الحميد او ابن العميد أو عبد الرحيم.
(٩) في الوافي: والألفاظ. (١٠) بعدها في الوافي: حرس الله مجده.
(١١) في الوافي: فخطب الاقلام، بحمده على منابر الاعلام.
(١٢) في الوافي: وأصبحت طريقتة في الفنون كلمة الاسلام في الملل.
(١٣) في الوافي: وعرف بالإشارة في حلب ما صنعت فيه الايام.
(١٤) في الوافي: وما اشجاه من ربيعها.
(١٥) في الوافي: وتوجّعه لتلك المحاسن التي اخذت من مأمنها.
(١٦) في الوافي: الرزايا.

فلم يذُرْ رَسْمُ الدارِ كَيْفَ يُجِيبُنَا ولا نَحْنُ مِنْ فَرِطِ الأَسَى كَيْفَ نَسْأَلُ^(١)
 نشكر الله موقفه^(٢) في تلك الدمن، ورقته التي قابل بها جفوة الزمن، ورأى هذا
 العهد الذي تمسكت منه الآن بحسب، ورعى له حق الدمع الذي جرى، فقضى في
 الربع ما وَجَبَ، ومن للملوك بوقفة في رسومها، واسترواحه بنسيمها، وسقيهاها
 بدمعه، وتجديد العهد بمغناها الذي كان يراه بقلبه، فأصبح وهو يراه بسمعه، ولقد
 علم الله أن الاحلام ما مثلتها لعينه إلا تأرقت، ولا ذكرتها النفس إلا تمزقت، ولا
 تخيلتها فكرة فاستقرت على حال من القلق، ولا جردتها الأمانى لخياله إلا وراحت
 مطايا الدمع في السبق: [من الطويل]

ولا قَلْتُ إِيهِ بَعْدَهَا لِمُسَامِرٍ مِنْ النَّاسِ إِلا قَالَ قَلْبِي آهًا^(٣)
 على انه قد أصبح في ظلّ مولانا في وطن، وأنساه أنسه من خفّ ومن قطن،
 وشرف بخدمته التي تعلي لمن خدمها منارا، واستفاد من الايام التي أخذت منه
 درهماً، فأخذ عوضه ديناراً^(٤)، وأصبح لي عن كل شغل بها شغل^(٥) [من المجتث]
 فَسَلْ فَوَإِذْكَ عَنِّي يَخْبِرُكَ مَا كَانَ مِنِّي^(٦)
 وما ذكرتُ حبيباً إلا كنت الذي أعني
 [من الطويل]

وان نظرتُ عيني سواك تلثمت حياءً باردانِ الدماءِ معَ الدمعِ
 ولو أني استطعت، حفظتُ طرفي، ولو وصفت ما عسى ان أصفه من الشوق
 لكان الأمر فوق وصفي. [من الطويل]

وأني في داري وأهلي كأنني لبُعْدِكَ لا دارٌ لديّ ولا أهلُ
 وعرف المملوك الاشارة الى هذه السفارة ومتاعبها، والطرق ومصاعبها، والثلوج
 التي^(٧) شابت منها مفارق الجبال، والمفاوز التي يتهبّ السرى فيها طيف الخيال،

(١) البيت للبحثري ديوانه ١٧٨٨/٣. (٢) في الوافي: فنشكر الله بوقفة.

(٣) رواية البيت في الوافي:

ما قَلْتُ إِيهِ بَعْدَهُ لِمُسَامِرٍ مِنْ النَّاسِ إِلا قَالَ دَمْعِي آهًا
 ونسبه في شذرات الذهب ٧٧٣/٧ لياقوت المستعصي.

(٤) في الوافي: اخذت منه درهماً، وأعاضته ديناراً.

(٥) في الوافي: عن كل سُغْل، به شغل، وبعدها: واما الأشواق.

(٦) سقط عجز البيت من الاصل، وورد الشطر فيه: فاسأل فؤادي عني، والتصويب عن الوافي.

(٧) في الاصل: الذي.

والمرجو من الله تعالى ان تكون العقبي مأمونة، والسلامة فيها مضمونة، وكأنّ مولانا بالديار وقد دَنَتْ، والراحة وقد أذنت^(١) / ٢٧٠ / والتهاني وقد أشرفت^(٢) بوفودها تلك الرحاب، والرياض وَقَدْ أَبَدت من ملحها^(٣) ما يكفر به ذنب السحاب، والأنس وقد أمسى وهو مجتمع القوى، والرحلة وقد أَلقت عصاها واستقرت بها النوى.

ومنه قوله في كتاب كتبه عن الملك المنصور^(٤) الى ابنه الملك الأشرف^(٥) بفتح

المرقب:

أعزّ الله نصره الجناب العالي الولدي الملكي الأشرفي الصلاحي، عضد أمير المؤمنين، ولا زالت جيوشه تفتح من الممالك حصونها، وتبتذل مصونها، وتستنشد من السعادة غصونها، وتطوى لهم الأرض، ولا يبعد عليهم مرمى يعملون إليه العزائم وينصونها، ويقصّون أجنحتها بالشكر ويقصّونها، تهدي إليه كل ساعة خبر جنوده وما مَلَكْتَ، وخيوله وما سلكت، وسيوفه وما فتكت، ومهابته وما أخذت، ومواهبه وما تركت، وتبدي لعلمه الكريم ان الهمم بها تنال الممالك، وترتقي المسالك، وقلّما ظفر بالمراد وادع، وكلّ أنفٍ لا يأنف المسادة فهو أحق الأعضاء بالمجادع، ولم نزل نمثل في افكارنا الصورة التي أقدم عليها أهل حصن المرقب في مبدأ الأمر، عند اضطراب النيات، وضعف البيئات، وغرور الأيمان الكاذبة، واستمالات الخيالات الجاذبة، ويأخذ في أمرهم الظاهر بالرخصة دون العزيمة، ويعمل على ما لو تمثل لهم صورةً لجرّوا منه ذيل الهزيمة، ونستر ما تسدّه الى نحورهم من سهم، ونريهم أنا ندفع في صدور الحقيقة بالوهم، ونعرض عن مناقشتهم في الحساب، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَاوِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾^(٦)، ومتى لم يُؤَاخِذْ المسيءُ بفعليه، ويوف مقدار جهله، استدام طمعه، واستقام طلعه، وحركته دواعي الشره والشرّة، وتخيل السلامة في كلّ مرة، فلم نزل نتربّص بهم ريب المنون، ونترك منهم ما كان في جنب ما يكون، إلى أن آن إمكان الفرصة، وجمعنا لهم بين الشرقة والغصّة، فانفذنا إليهم المرمى، وأعددنا مسعانا في طاعة الله غنما، إذ كانت مساعي الملوك غرما، ووصلنا / ٢٧١ / السير بالسرى، وطرقتناهم كما يطرق الكرى، وأوطأناهم حوافر الخيل،

(١) في الوافي: أنت.

(٢) الوافي: شرفت.

(٣) الوافي: من سنة حسناتها.

(٤) الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه، ملك حمص بعد ابيه، وتوفي سنة ٦٤٤هـ (وفيات الاعيان ٢/٤٨١).

(٥) الملك الأشرف موسى بن ابراهيم، ملك بعد ابيه، ومات سنة ٦٦٢هـ (وفيات الاعيان ٦/٤٨١).

(٦) سورة النمل: ٨٨.

وجئناهم مجيء السيل، وظللنا عليهم ظلل الغم، وغشيهم منا ما غشى فرعون وجنوده من اليم، مع كون مكانهم قد جمع لهم منعة البر والبحر، وحلّ منهم بين السحر والنحر، تصدّ الرياح الهوج عنه مخافةً، ويرجع عنه الطرف حسيراً لبعده المسافة، فلم يكن بأسرع من أن فاجأناه، وحللنا بعرضته، وهاجمناه، وأحاطت به رجال الحرب، وشافهته بخطاب الخطب، وعسكرنا بحمد الله قد ملأ الفجاج، واستعذب الأجاج، وقاسمهم الرماح، فأعطاهم الأستة وأبقى الزجاج، يتعرض أبطاله المنايا وإن كانت عرضاً، ويقول كلُّ منهم ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(١)، فلم يزل القتال ينوبهم، وسهام المنون تصيبهم، وسحابها يصوبهم، والمجانيق تذلل سورتهم، وتسكن فورتهم، وترميهم بنجومها، وتضمهم برجومها، وتقذفهم من كل جانب دحورا، وتعيد كلاً منهم مذموماً مدحورا، وتشير إليهم أصابعها بالتسليم لا بالسلم، وفتنتنا بهم ﴿مَا نَدُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾^(٢) إلى أن فتحناها والله الحمد عنوةً، وحللنا مكائدهم فيها عقدةً عقدةً، ونقضناها عروةً عروةً، وسطرنا هذه البشرية، وأعلام النصر قد خفقت عليها بنودها، ودلت لها علوج الكفرة وكنودها، والسيف من دمائهم يقطر، والصليب خزيان ينظر، والأذان مكان الناقوس، والقرآء موضع القسوس، والكنيسة قد عادت محرابا، والجنة قد فتحت للمجاهدين فكانت أبوابا، وكنا نودّ ان يكون الولد معنا في هذه المشاهد، وان ينظرها بعين المشاهد، وانا نرجو ان لا يكون ممن يستلين المرقد، وإن لم تحضره هذه الغزوة فيتأهب للأخرى، فكان قد.

ومنه قوله من كتاب كتبه الى صاحب اليمن بفتح طرابلس:

هذه الخدمة بما تسنى من فتوح طرابلس الشام، وانتقالها بعد الكفر الى الإسلام، هو فتح طال عهد الإسلام / ٢٧٢ / بمثله، وقدحّ فتّ في عضد الشرك وأهله، لم يجعل أمره في خلدٍ ولا فكر، ولا رقت إليه همّة عوان من النوائب ولا بكر، مرت عليها الأيام والليالي، وعجز عنها من كان في العُصْر الخوالي، ولم تزل الملوك تتحاماها، وإذا خطرتها الظنون في بالٍ تخشى ان تحلّ حماها، ولما أفضى الله إلينا أمر الملك، وأنجى بنا من الهلك، عاهدنا على ان نغزو أعداء برّاً وبحراً، ونوسع من كفر به قتلاً وأسراً، ونورد المشركين موارد الحرب المفضية بهم الى الهرب، ونجليهم عن البلاد جلاء طوائف المشركين عن جزيرة العرب، فجئناهم

(٢) سورة الذاريات: ٤٢.

(١) سورة طه: ٨٤.

وزلزلنا أقدامهم، وأزلنا إقدامهم وبرزنا لشقائهم بشقاقهم، وسددنا عليهم أنفاق نفاقهم، وقصدناهم في وقتٍ تجمعت فيه أشتات الشتاء، وطرق خفية المدارج أبية المعارج، صيفها شتاء، وصباحها مساء، شائبة المفارق بالثلوج، منهلة المدامع من عيون الجبال على خدود المروج، مزررة الجيوب على أكمام الغيوم التي ما للباسها من فروج، ولم تزل أقران الزحف في غدران الزعف ترميهم بالقوارص، وتأتيهم من البأس بما ترعد منه الفرائص، وتقلب لهم ظهر المجنّ، وتطرق أفئدتهم من الحرب بكل فنّ، وتقرب الأسواء من الأسوار، وتمزج لهم الأدواء في الأدوار، إلى ان وهى سلكها، ودنا هلكها، وسفك منها ما علا ورخص ما غلا، وفتحناها وأبحناها، وخليناها وقد أخليناها، فأمست كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ، وأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وهذه المدينة لها سمعة في البلاد ومنعة ضربت دون العزم بالاسداد، فتحت في صدر الاسلام في ولاية معاوية بن ابي سفيان، وتقلت في أيدي الملوك، وعظمت في زمن بني عمار وبنوا بها دار العلم المشهورة في التواريخ، فلما كان في آخر المائة الخامسة، وقدر ما قدر من ظهور طوائف الفرنج بالشام إذ استولوا على البلاد، امتنعت هذه المدينة عليهم مدّة، ثم ملكوها في سنة ثلاث وخمسمائة واستمرت / ٢٧٣ / الى الآن، وكان الملوك في ذلك الوقت، ما منهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجالس أنسه، يصطحب في لهوه ويغتنق، ويجري في مضمار لعه ويستبق، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل إلا عن طريق الهزيمة، أموال تُنهب، وممالك تذهب، ونفوس قد تجاوزت حدّ إسرافها، وبلاد تأتيها الأعداء فتنقصها من أطرافها، إلى أن أوجده الله من أوجده لنصرة دينه، وإذلال الشرك وشياطينه، فأحيا فريضة الجهاد بعد موتها، وردّ ضالة الملك بعد قوتها، ونرجو بقدره الله أن نُجلي ديارهم من ناسهم، ونظهر الأرض من أذناسهم، ونجدد للأمة قوّة سلطانها، ونعيد كلمة الإيمان إلى أوطانها، والله تعالى يثبت في صحائفه أجر السرور بهذه المتجددات، التي يعظم بها أجر الحامد الشاكر، ويجعل له أوفى نصيب من يوم الغزوات التي أنجد فيها بهممه، والإنجاد بالهمم مثل الإنجاد بالعساكر.

ومن شعره يداعب ابن البصري الكاتب، وكان رديء الخط: [من البسيط]

للمجد خطّ حكى في القبح صورته ناهيك من خطّ باءٍ ومن خطّ حطّل
لم يلقه أحدٌ إلا وينشده «رميت يا دهر كفت المجد بالشلل»

وقوله: [من المجتث]

أنبئت أن كتابا بعثته مع رسولي

مَلَأْتَهُ مِنْكَ طَيْبًا فَضَاعَ قَبْلَ الْوَصُولِ
ومنهـم :

[٢١]

شهاب الدين، أبو محمد^(١) بن كمال الدين أبي العباس، أحمد بن عبد العزيز بن العجمي

المتقدم ذكر أبيه.

قائل كلم حسان، وقائد كرم وإحسان، سليل صدور كرام، ورسيل سحب مغدقة، وبدور تمام، من بيت في حلب الشهباء، رُفِعَ على صهواتها، ولزّت به الخضراء وسائر أخواتها، أعاد الصبح العشاء، وكتب الانشاء، وصرف أوامر الوزارة، وقاسم الوزير حسناته لا أوزاره، وكلامه عذب المساغ، للقلوب به شغل وفراغ، كأنما نُشِرَ به / ٢٧٤ / جلا أو صاغ، وكان بريئاً من ظلمة التعقيد، كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد.

ومن ثره قوله في توقيع كتبه لقاض اسمه يوسف^(٢):

لأنه المستوجب بهجرته إلينا تحقيق ما نواه، وأنه يوسف الفضل الذي لما قدم لمصر قيل لشيمننا الشريفة أكرمي مثواه، وأرته أحلامه من الأمانى ما جعلناه^(٣) صدقا، وأنجز الله تعالى له منها ما قال معه ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُبِّيَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٤) فليعتصم من طاعة الله بأقوى جبل، ويقف عند مرضيه ليجتبيه ويتم نعمته عليه، كما أتمها على أبويه من قبل، وليتمسك من أسباب التقوى بما يكون له جنة، ويحرص على أن يكون الرجل الذي عرف الحق ففضى به، وكان المخصوص من القضاة الثلاثة بالجنة، ويجعل داء الهوى عنه محسوماً، ولحظةً ولفظةً بين الخصوم مقسوماً، ولا يأل فيما يجب من الاجتهاد إذا اشتبه عليه الأمر، أن يعلم انه إن اجتهد

(١) وفي مصادر ترجمته: محمد بن أحمد (كمال الدين) بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحيم، عز الدين (وليس شهاب الدين) ابن العجمي، كاتب خرسل، من اهل حلب، ولي كتابة الانشاء بعد وفاة أبيه، وكان عالماً بالفقه الشافعي، مشاركاً في بعض العلوم ودرّس بعدة مدارس بالقاهرة، وصنّف ونظم شعراً كثيراً، قال الصفدي انه منخط. توفي سنة ٦٧٣ هـ.

انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٠٣/٢، وابن الفرات ٣٨/٧، الاعلام ٣٢٢/٥.

(٢) التوقيع في فوات الوفيات ٦٩/٧ منسوباً لآبيه كمال الدين ابن العجمي.

(٣) في الوافي: ما حولناه. (٤) سورة يوسف، ١٠٠.

وأخطأ فَلَهُ أَجْرٌ، وان أصابَ فله أجران، وصوب الصواب واضح لمن استشف بنور الله برهانه، وليتوكل على الله في قصده ويثق، فإن الله سيهدي قلبه ويثبت لسانه، وليجعل الاعتصام بحبل الله تعالى في كل ما تراود عليه النفوس من دواعي الهوى معاذاً، ويتبصر من برهان ربه ما يتلو عليه عند كل داعية ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾^(١).
ومنه قوله^(٢):

وينهى أنه وردت عليه مشرفة شريفة، وتحفة بمنتها على الأعناق ثقيلة، وبمواقعها من القلوب خفيفة، فقبلها المملوك ولثمها، ونثر عليها قبلة ونظمها، نقل معناها إلى قلبه فشف، ونقد ذهبها الخالص وأعادته من الصرف، وانتهى إلى ما تضمنته من صدقات مولى ملك رقه، وآتاه من الفضل فوق ما استحقه، وأنزل له الكواكب فتناولها بلا مشقة، وأوى إلى حمى حرمة، وتغطى عن عين الخطب^(٣) / ٢٧٥/ بستور نعمه، ورأى فيه الأزاهر وشم شذاها، والجواهر وضم إلى العقود حلاها، وشكر هذه المنن ومن والها، وسبح لما وهب من يحبه^(٤) هذه البدائع وآتاها، وعمل بما أمره به مولاه في أمر تلك الورقة، وسدد سهمها إلى الفرض وفوقه، وتحجب لها فأخلى الطريق وطرقه، وعرضها في مجلس الوزارة الشريفة ونشر إستبرقه، وبرز المرسوم^(٥) بالكشف، ويرجو أن يتكمل بالتوقيع، ويكمل^(٦) بالتأصيل والتفريع، ثم يجهزه المملوك إلى خدمته^(٧) الكريمة كما أمر، وما أخرج الجواب هذه المدة، إلا ليجهزه معه فتعذر وما قدر^(٨).
ومنه قوله:

أولى من عاودته عوائد فضلنا بمحابها، وتلقته صدور عوارفنا برحابها، ونقلت مكارمنا أطماعه من لامع سرايبها إلى نافع بشرابها، من هاجر ولاءه إلى حرم دولتنا القاهرة، وكان من أنصارها، ويادر في هيجاء اعدائها فأغرقهم وأحرقهم بتيارها وبنارها، وتشوقت المسامع إلى ما تشتهييه فكان ذكره الجميل من أعظم اسباب مسارها، والفارح ذروة هذه القارع مروة هذه الصفاة، المجلس الفلاني؛ لأنه جامع

(١) سورة يوسف: ٢٩.

(٢) في الوافي بالوفيات ٦٩/٧ انها لأبيه كمال الدين، احمد بن عبد العزيز بن العجمي.

(٣) في الوافي: وتغطى عن الخطب. (٤) في الوافي: قريحته.

(٥) بعده في الوافي: الشريف. (٦) في الوافي: يتوصل.

(٧) في الوافي: الخدمة.

(٨) في الوافي: الا يجهزه معه فيعذر «وما أراد الله ذلك وما قدر» وما بعده لم يرد في الوافي.

محاسنها بمفرده، والحامي لسرحها ببطش يده، ورامي غرضها بصفة مقصده، حمى الأطراف وحاطها، ورفع بهمة فعلق بالثريا مناطها، وكان واحد أولياء الدولة بأساً لا يكلّ شباه، وعزما لا يوقر كاهل الريح يقتاد جنائبه، ويركب صباه، وفضلاً جاملاً جامعاً فاق فيه كلّ شبيهه إلا أباه.

ومنه قوله:

ولا زال بابہ الكريم للأمال ملاذا، وجنائبه المحروس من حوادث الايام معاذاً، وثوابه وعقابه لوليه وعدوه. هذا لهذا وهذا لهذا، وينهي أن مولانا والله الحمد قد جبّله الله على فعل الخير، وجعله من أهله، وحبب إليه الإحسان ومكنه من فعله، خصوصاً من ينتمي الى خدمته الشريفة، ويلجأ الى ظلّه، ومملوكه فلان /٢٧٦/ ممن يعدّ نفسه من الأرقاء، ويرتمي الى موالاته التي هي درجات السعادة والارتقاء، وما تهجم المملوك بهذا الخدمة إلا لما كان عند نفسه المثابة، ولا ثقل على خاطره الشريف إلا لوقوع ذلك من مكارم مولانا بموقع الاصابة، وقد جعل المملوك السؤال مفتتح عبوديته لمولانا ومولاته، بحسنة قد أهداها الى صحائف حسناته.

ومنهم:

[٢٢]

أحمد بن أبي الفتح بن محمود الشيباني^(١)، كمال الدين،

أبو العباس

بحرٌ يقذف الدر، وأفق يطلع النجوم الغر، وكان للدينا جمالاً، ولالدين كمالاً، جعل للبيان سحراً، وللطيب سحراً، وقدمته الدولة على الرؤساء، وعظّمته على الخلطاء والجلساء، فكانت الملوك تنزله منزلة لسانها ويمينها، وتُحلّه محلّة ترجمانها وأمينها، وظلّت تصرّف به البأس والندى، وتتصرّف في الأولياء والعدا، وأونة تُحزّز بقضيه الغلاصم، وتُجرّ بكتبه الأيدي والمعاصم، وطالما فتحت به المعازل الأشبية، وساقّت سرجها السوام في رياض النجوم المعشبة، ثم قُفلت الممالك بأقاليدّه،

(١) كذا في الاصل، وهو احمد بن أبي الفتح محمود، كمال الدين، أبو العباس الشيباني، الدمشقي، المعروف بابن العطار، من الشعراء الكتاب المترسلين العلماء، حدث بصحيح البخاري بالكر، ولد سنة ٦٢٦هـ، ومات سنة ٧٠٢هـ.

انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٦٧/٨، وأعيان العصر ٣٨٥/١، والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٨، وعقد الحجان ٢٩٠/٤.

وقفلت المسالك بتقاليدِهِ، واصطفتهُ الرئاسة لقربها، واصطفت له السياسةُ موارد شربها، وكتب كتب السير أكثر عمره، وصرف ديوان الإنشاء مدةً بأمره، وكان بدمشق عيناً لأعيانها، وزيناً وجليّةً لبيانها، راقياً للإيوان، ورائساً للديوان، وكان عمي ثم أبي لا يعتمد كل منهما إلا على أمانته، ولا يرنح فكره إلا ببيضاجه وإبانته، وخطّه أبهج من الروض الأريض، وأزين من النقش المخضّر على معاصم الغواني البيض، وله من كثرة الاطلاع ما حقّق به المآرب، وصدق انه الشمس ضوءها يغشى المشارق والمغارب، ولم يكن أكثر منه اتضاعاً في ارتفاع، وتنازلاً وهو في اليفاع، لا يجد في نفسه حرجاً لأحد، ولا مضضاً ممّن انكر حقه وجحد، لا يضره أي مكان حلّه، ولا يضره لبس عباءة ام حلّه، وكان يتعرف الى الله عساه ولعله، ويتعرّض / ٢٧٧ / لقضاء حوائج الناس لله لا لعلّة، هذا بلا تلكف يشق عليه في عرضه مطلوب، أو يشق به لرضه أودية أو جيوب، مع ملازمته تلاوة يؤنس بها جانب الجامع المعمور، ومرآة يشرق بها وجه النهار ويغمر قلب الديجور، وعمل زالك صحب به الأحياء، وجاور سكان القبور.

ومن نثره قوله :

طالما حلّ الرتب العالية بجليل مقداره، وحلّى المناصب العالية بحلى أنواره، وما شبّ على معاطف مناقبه ذوائب فخاره، وهامت الأفكار في أودية محامده وما بلّغت وصف محلّه ومقداره، وافتخر قلم الفتيا براحيته، فتباعد السيف عن قربه خوفاً من مهايته، وسدد الى الحق سهام أحكامه، فأصابت الأغراض، وعالج الأفهام بأفهام كلامه، فشفي صحيحه الأمراض، وكان فلان ثمرة هذه الدوحة النضرة، ونشر الروضة الخضرة، فرسم بالأمر العالي ان يفوض إليه تدريس المدرسة الأمينية^(١) بدمشق، فليكتب بها دروس فضله التي لا تُدرس الأيام آثارها، ويغرس في قلوب طلبتها حبّ فوائده، ليجتني ساعة غرسها ثمارها، لتصبح هذه المدرسة كنيفاً مليء علماً، وقلبياً حُشي فهماً، وفلكاً تبدي شمساً وتخفي نجماً، وكنانة يخرج من طلبتها في كل حين سهماً.

قلت: هذا من توقيع كتبه في الأيام الكاملة حين خرج سنقر الأشقر على الملك المنصور لقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، وقد أخذت الأمينية له من نجم الدين بن سني الدولة^(٢).

(١) المدرسة الأمينية: أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق (الدارس ١/ ١٧٧).

(٢) نجم الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن يحيى، قاضي القضاة، الملقب بسني الدولة، ولي قضاء القضاة بعد هزيمة التتار في عين جالوت، ثم عزل وولي قضاء دمشق، وتدرّس الامينية، توفي سنة ٦٨٠هـ (الدارس ١/ ١٩٠).

عدنا إلى ابن العطار.

ومن إنشائه رسالته التي سمّاها «رصف الفريد في وصف البريد»:

أما بعد حمد الله البرّ، المسيرّ في البحر والبرّ، والصلاة على من علا البراق،
واخترق السبع الطبايق، وعلى آله وصحبه الذين سبقونا بالايمان وعلى التابعين لهم
بإحسان، فإنه لما كانت النفوس مولعةً / ٢٧٨ / بحبّ العاجل متطلعةً الى الاطلاع
على المستقبل من الأمور والآجل، لم تزل أنفس الخلفاء والملوك، وأنفس الأكابر
من الأمراء والعظماء به كلفةً صبةً، والى استعلام أحوال ممالكها وعساكرها ورعاياها
مُنصّبةً، وعلم مثل ذلك من خلق الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين،
فبردهم في الآفاق ضاربة، وطلائعهم تارةً بالمشارك طالعة، وآونة في المغارب
غاربة، كرةً في بحار السراب تعوم، وأخرى بالآفاق كأنها نجوم: [من الطويل]

تروح فتغدو في الصباح طريدةً وتغدو فتبدو في الظلام خيالاً
تستطلع لهم خبراً، وتطوي وتنشر بساط الأرض ورداً وصدراً، وتعوض
أسماعهم بما تنقله إليهم أثراً، عما فات أعينهم مشاهدةً ونظراً: [من الكامل]
فلهم وإن غدت البلادُ بعيدةً طرُفُ بأطرافِ البلادِ مُوَكَّلٌ^(١)
من كل فتى قد هجر الكرى، وأشبهه البدر فلا يملُ من طول السرى: [من

البيط]

وخلفَ الريحَ حسرى وهي جاهدةٌ ومرّ يختطفُ الأبصارَ والنظرا
قد أعدّ للسفر في ليله ونهاره من الخيل كلّ أشقر صباح، وأشهب مساء، وأصفر
أصيل، وادهم ليل: [من مخلع البيط]

وألجمَ الصبحَ بالثُريا واسرجَ البرقَ بالهلال
وسابق الظلال فهي تَزوَرُّ عنه ذات اليمين وذات الشمال، فلا تزال من ورائه
مشرقاً قبل الزوال، ومغرباً بعد الزوال، موكل بفضاء الأرض يذرعه متوقع ان كل بلد
يقطعه: [من الكامل]

وكأنما اتخذَ البروقَ أعنةً وكأنما اتخذَ الرياحَ جناحاً
فما أنبأ الكتاب العزيز من تطلّع المرسلين والأنبياء الى سرعة الاطلاع من
الأمور والانباء ما ورد في قصة سليمان عليه السلام من طلبه سرعة إتيان عرش بلقيس

(١) البيت للبحري (ديوانه ٣/ ١٧٥٢).

ووصوله قبل ارتداد طرفه إليه، وقد نُقل عن نوح عليه السلام استبطاؤه الغراب وإردافه / ٢٧٩ / له بالحمام، وهذا وقد ضرب المثل ببيكور الغراب وخروجه في الظلام، ولولا اعتقاد موسى الكليم عليه السلام انه للباري جل جلاله أرضى لما قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (١) وفي سيره بأهله ومسراه، ناداه ربّه بالوادي المقدس: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ (٢) وما انعقد على رهن السباق، الاجماع إلا لما فيه من فضيلة الإسراع، ولم يكن الشيطان الرجيم بمطروود لو جرى على سجيته في العجلة، وبادر في السجود، لا سيما وقد خلق الإنسان من عجل، وما يعلو المدرك المسرع من أنوار الجدل، وما يغشى المبطىء من فتور الخجل، ومن كمال فضيلتي الحج والعمرة ما هو واجب أو مُستحب من الرمل، وشتان ما بين المبطة والسريعة، ويا بُعد ما بين الساقطة والطليعة: [من البسيط]

وربما فات قومٌ جُلَّ أمرهم من التآني وكان الحزم لو عجلوا
وكثيرا ما قيل في القوم وعداك ذم وتخطاك لؤم وتحرك تعش، وسر في البلاد
تنتعش. وقال الله سبحانه وتعالى لخلقه: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا﴾ (٣) هذا
وأشرف الدراري الكواكب السواري، وما الجواري في البحر كالسواري، وهل أجن
إلا الماء الواقف؟ وهل طاب إلا الماء الجاري؟: [من الوافر]

وإن لزوم عقد البيت موت وان السير في الأرض النشور
والقعود مع العيال قبيح، ومن يئمن النجاح سرعة التسريح: [من مجزوء الكامل]

والمهد اسكن للصبى بحيث جاء به ومرًا

وبفضيلة السير في البلاد والانتقال بلغ البدر درجة الكمال، وأمنت الشمس

المنيرة من الملل: [من الكامل]

والصقر ليس بصائد في وكنه والسيف ليس بضارب في جفنه
ولولا ضرب إخوة يوسف في الأرض، لما نجا أبوهم من حزنه، وقد جعل الله
رجلتي الشتاء والصيف للإيلاف، وركني الحج والعمرة للسعي والطواف، وفي
استخلاف من لا يستطيع / ٢٨٠ / التحيز للضرورة خلاف. [من البسيط]

والمرء ما لم يُفد نفعاً إقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر
وسعة الخطوة دليل الإقبال، وسبيل الى بلوغ الآمال، ولا ريب ان العز في الثقل

(٣) سورة الملك: ١٥.

(١) سورة طه: ٨٤.

(٢) سورة القصص: ٣٠.

وفي بلادٍ من اختها بدل. [من البسيط]

لو كانَ في شرفِ المثلوى بلوغُ منى لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ
والحركة ولُود، والسكون عاقر، وقد ورد أن الله رحيم بالمسافر، وأنه للخضر
عليه السلام خليفة، وناهيك شرفاً بهذه الرتبة المنيفة، ولا إنافة على رتبة الخلافة،
والسيف إن قرَّ في الغمد صدي، والليث لولا الوثوب ردي، ولو يستوي بالقيام
القيعود لما ذكر الله فضل الجهاد، ولولا انتقال الدرر عن البحور لما عوضت من
الحور بالنحور، وكثيراً ما ورد في الكتاب العزيز النهي عن التباطؤ والحث على
الإسراع: [من الوافر]

وليسَتْ فرحةُ الإيابِ إلا لموقوفٍ على ترحِ الوداع
[من الخفيف]

إنَّ فيه اعتناقاً لوداعٍ وانتظاراً اعتناقاً لقدم
وهذا وكم بين رتبة الاتباع ورتبة الاختراع والابتداع وبين جود الروية وتوقد
الابتداء، وكلاية الرقاد وحدة الانتباه، وشتان ما بين عقلة المشيب ونشطة الشباب،
وحسبك بأنك ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ﴾^(١)، وقد علمت فائدة
الإسراع بمن لا علم عنده ومن عنده علم من الكتاب، وبحركة النبض يستدل على
حال القلب، ولولا إدامة الترويح عليه لغم من الكرب، ولا يقاس موقف المأموم
بمقام الإمام، وإذا كانت الشجاعة في الإقدام كذلك السلامة في الإنهزام، وقد جعل
الله سبحانه وتعالى الملائكة دائمة الحركات، وأرسل الرياح منشرات وللسحاب
مسيرات، وبأرزاق العباد جاريات، وأقسم سبحانه وتعالى بالعاديات المرسلات،
وللإسراع سخر لمحَب الخير / ٢٨١ / عليه السلام الريح والطير، هذه غدوها شهر
ورواحها شهر، وهذه تستطلع له انباء الملوك فتستنزلهم على حلك الذل والقهر،
ولذلك درجت الملوك الحمام ورتبت البريد فبلغت بهما في الوقت القريب ما زيد من
غاية المرام البعيد، وقربت لهم مستبعدات المطالب وأطلعتهم بسرعة الاعلام على
نهايات العواقب، فبلغت هذه بسرعة إيصال البطائق ما لم يكن أحد من البشر بطائق،
وارتفعت محلقة في الهواء، وحلقت مسخرة في جو السماء، وما حَفَقَتْ بأجنحتها إلا
وقد وافت بالبشرى مخلقة، وما اخفقت وما خضبت كفها وتطوقت إلا للسرور
وصفقت، وما حفظت العهود من الأسرار وما ردها الحنين الى الاديكار، ما قطعت

مسافة أيام في ساعة من نهار، وما وما وما، ولا عرجت طائرة نحو السماء إلا وقد ذكرت عهوداً بالحمى، إلا أن بطائقها ربما نقلت من جناح الى جناح، وحصل بنقلها أعظم خطر وأوفر جناح، وكشف خدرها، وأذيع سرّها، فغدت مذاة السرائر وكانت محجوبة عن مقلة كل ناظر، وذاك حافظ لما استودع من الأمانة المؤداة، أمين على ما حمل من النفقات والمشافهات، الى الأجنب وأهل المودات، حريص على إيصال كتبها، صائن لها في حربها صيانة الصوارم في قربها، والعيون بهديها، يوصلها بطيها مختومة بخاتم ربّها، فهو السهم الخارج عن كبد القوس، لا يزيغ عن الغرض، وتلك ربما جرحها الجوارح، وعرض لها بالبنادق من اعترض، وصدّها عن بلوغ المرام غموم الغمام، وعموم الظلام وقطع طريقها، وحتم تعويقها، وقضى وحكم عليها بالتأخير؛ لأنها فيها لا تطير، وذلك في الليل والنهار، والصحو والغيم يسري ويسير، ولذلك لا تسرح الحمام في المهام إلا ويرسل تحتها البريد مورخ بتاريخها، فهو لها وعليها سائق وشهيد / ٢٨٢ / وهي وإن شهد لها المترنم المنتدم بالفضل والتقدم والفضل للمتقدم، فربما تقدّمها البريد وسبق، وكثيراً ما توافيا فكأنما كانا على ميعاد، فجاء معاً في طلق، كفرسي رهان، وشريكي عنان، وافتن فيه الناظرون، وهو يحضر، فاصبح يومئ اليه بها وعين تنظر، هذا وكم شابت لقعقة لجامه النواصي، وزينت لمقدمه البلاد والصياصي، وسرى وجفن البرق خوفاً وطمعاً يغامر ويختلج، فذلك تارة ربما ترد بما النفوس به تبتهج، وتارة بما الصدور به تنحرج، وتشاهد بما ينزل من السماء وما في الأرض يلج، وسرى وعيون القطر دامعة، وسيوف البرق لامعة، وسيول العيون للطرف قاطعة، ونبال الوابل في أكباد الأرض صادعة، ووافى المنازل والخيول بها طالعة، وبعد أن أصبحت طائرة أمست تحتها واقعة، وكم حال دون مرايه من أوجال أوحال، وعلق لثق، ووهق زلق، يمنعه في سوقه من استرسال، بأوثق شبحة وشكال، وعام في أملاق الى الذقن لا إلى الوسط، وتقطر فوافى ويده مغلولة الى عنقه، وكانت مبسوطة كل البسط، أو بات بعد أن كان راكباً نازلاً، وبعد أن كان محمولاً لسرجه وجرابه على كتفه حاملاً، وسرى وطره بالسماء موكل، ونزل بمنزل ليس له بمنزل، وليس به ما يشرب وليس به ما يؤكل: [من الرجز]

بمهمه فيه السراب يُلمح
وليله بجوه مُظرح
يدأب فيه القوم حتى يظلحوا
ثم يظلون كما لم يبرحوا

كأنما أمسوا بحيث أصبحوا

[من الكامل]

يمشي ذمياً للظلام وتارة رذفاً على كفل الصباح الأشهب
ويعدو كالجبال تمشي إلى ورا، يغدو فلا يسأل عن السليك ولا عن الشنفرى،
أو جاءت به عنس من الشام تلقه، بعد ان كان يطوي الأرض بسوقه، ويخترق، وقد
فلا الفلا وقيل له: هكذا هكذا وإلا فلا. [من البسيط]

/٢٨٣/ يوماً بحزوى ويوما بالعقيق ويوماً بالعذيب ويوماً قصر تيماء
وتارة ينتحي نجداً وأونةً شُعبَ الغوير وأخرى بالخليصاء
فكم قطع أرضاً وركب ظهراً، ووجد رفقاً لم يكن كالمنبت لا أرضاً قطع ولا
ظهراً أبقى، وقلما جهز إلا في مصلحة من مصالح المسلمين العامة الشاملة للأمة
المحمدية من الخاصة والعامة، ما أب من سفرٍ إلا إلى سفر، وما سفر في مهم إلى
بلدٍ فقيل انه سفر ولكنه ظفر: [الكامل]

كأن به ضعفاً على كل جانبٍ من الأرض أو شوقاً إلى كل جانبٍ
ورَدَ مبشراً، وللمسار في الوجود مسيراً، فأزال العنا، وأنال المنى، وأفاد
الغنى، وانثالت عليه الجوائز والتشريف من ههنا وههنا: [من البسيط]

ما ذرت الشمس إلا جاء يقدّمها وفي المغارب منه قبلها أثر
وكاد لشدّة إحضاره يسبق أدنى جواده في مضماره، فتراه لسرعة سيره لا يرتدُّ
طرفه عن أمدٍ حتى يتعداه إلى غيره، فهو أبداً يسبق طرفه إلى ما يرمق، وما يستوي
طرفه على أمدٍ إلا يتجاوزه ويسبق، فيكاد يأخذ مغرباً من مشرق، فيبلغ غاية الأقطار،
ويخترق من الآفاق حجب الأستار، حتى يقال: انه ما سار ولكنه طار، وفي الأرض
طار: [من السريع]

قال له البرقُ وقالت له الريحُ جميعاً وهما ما هما
أنت تجري معنا قال: إن نشطت أضحكْتُكما منكما
انا ارتدادُ الطرفِ قدفْتُهُ إلى المدى سَبِقاً فمن أنتما

ولم يزل البريد مرتباً فيما تقدّم وسلف من الأيام، ومعاوية أوّل من أحدثه في
الاسلام وأحكم أمره الذي ملك البلاد شرقاً وغرباً، ونظر إلى السحابة فقال: امطري
أنتي شئت فخرارك إليّ يجبي، وعلم انه من اعظم مهمات (الملوك) العظام، فقال:

ربما فسد بحبسه ساعة تدبير عام [من الطويل]

فدانت له الدنيا فاصبح جالساً وأيامه فيما يريد قياماً / ٢٨٤ / ولاسيما في هذا العصر، وعدو الدين قد أمر أمره، واستشرى شره، وامتدت أطماعه في البلاد، وسرى فيها منه الفساد، مسرى السم في الأجساد وهو أولى الامور التي لا يستأذن عليه، وقد وافى مسرعاً، والذي يقال له: لعا إذا قيل لسواه لا لعا. [من البسيط]

وجاء منه بقرطاسٍ يخبُّ به فأوحش القلب من قرطاسه فزعا محمود الطرائق، مقبول الخلائق عند الخلائق، خفيف الحركات، مسارع الى الحركات، قصيف يَرَجح به طله، خفيف على ظهر المطيئة حملة، وإذا كان الناس أرواحاً وأجساماً، فهو روح كلّه، عارف بالآداب والسلوك للمثول بين يدي الأمراء والسلاطين والملوك، عذب العبارة، خفي الاشارة، منجح السفارة، كتوم الأسرار موفق الايراد والاصدار، صادق اللهجة، ثابت العدالة، مليّ باداء السلام وإبلاغ الرسالة، ليست معرفته على آداب السفر مقصورة، جامع بين ادب النفس وأدب الدرر، حسن الاسم، وضيء الرسم، سوي الوسم، سريع الى الداعي، مبادر الى امثال الأوامر والدواعي، ما يفوه بالجواب إلاّ ورجله في الركاب، فهم، متى رسم لهم بالسفر يسارعون، وإلى الاجابة يهرعون، وعلى الخدمة أنفسهم يعرضون، ﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نُسْبٍ يُوفُونَ﴾^(١)، ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمَقْرُونَ ﴿١١﴾﴾^(٢) [من البسيط]

لا يستقرّ بهم ربعٌ ولا سكنٌ كأنهم فوق متن الريح نزال ما ندب منهم ندب لهم إلاّ وبادر مطيعاً، ما غاب إلاّ ثاب سريعاً، فما مائله في السير ذكوان، ولا ضاهاه حذيفة بن بدر وقد ساق هجان النعمان: [من الكامل]

ألف النوى حتى كأن رحيله للبين رحلته الى الأوطان / ٢٨٥ / والله سبحانه وتعالى يطوي البعيد لمن يشاء من خلقه، ويسهل العسير وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، إلاّ ان حضور النيات التي بها انعقاد الامور الدينية لا يحصل الا بالثبات والأناة، والطمأنينة في الركوع والسجود كمال الفرض، ﴿فَأَمَّا الرِّيدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) وكما ورد في التنزيل النهي عن التباطؤ ورد النهي عن التسرع وسببه، فقال عزّ من قائل: ﴿لَا

(٣) سورة الرعد: ١٧.

(١) سورة المعارج: ٤٣.

(٢) سورة الواقعة: ١٠ - ١١.

تَحْرَكُ بِهِ لِسَانَكَ لِيَجْعَلَ بِهِ ﴿١١﴾ ﴿١﴾، ونهى عن العجلة تارةً في الخير، وتارةً في الشر قولاً جزمياً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿٣﴾ ولا ريب ان الثبات من الله تعالى والعجلة من الشيطان الرجيم، وان الله عزوجل امتنّ بالثبوت على النبي الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٥﴾ ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٦﴾ وإن ورد عن سليمان عليه السلام طلب الاسراع في الكتاب المبين فكذلك ورد عنه التثبيت في قوله تعالى: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٧﴾ وبماذا يصف الواصف أو يعنت الناعت فرق ما بين العجلة والتأني، ويكون المرء من أمره على بصيرة ويشاهد في مرآة فكره صورة الخيرة، ويأمن من تردد الحيرة، وقد قيل: أصاب متأنّ أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد، وحصل على أنكاد وأي أنكاد، ولولا التأني قبل ارسال السهم لم تحصل به النكاية، ولولا التثبّت في إطلاقه ما وصل إلى الغرض ولا بلغ الغاية، فالعجلة والندامة فرسا رهان وشريكا عنان، وإن حمد المجلي يوم الرهان، وما زالت ثمرة العجلة الندامة، وربما كانت الهلكة في العجلة وفي التؤدة /٢٨٦/ السلامة، وفي الثبات والاناة ما لا يحصر من أمر العواقب في سائر الحالات، وأسرع السحب في الجهم، وما الاقدام في كل أمرٍ من الشجاعة، ولا الثبات من الإحجام: [من البسيط]

والحربُ تُرهَبُ لكن الأناة لها عند التأيد اضعاف من الرهب
لا يأمن الدهر بأس الجمر لا مسه وقد يروح سليماً لا مس الذهب
والتسرّع خرق، والأناة حلم ووقار، والتثبّت دليل القدرة من الله عز وجل مثبت القلوب والأبصار، وفرق سبحانه وتعالى بين الشجرة الثابتة والشجرة التي ما لها من قرار، وما كان الثبات في شيء إلا زانه، ولا التسرع في أمرٍ إلا شانته، ومع العجل الزلل، ومع الزلل الخجل ومع الخجل الوجل، ومع الوجل الخلل الجلل، وللثبات وثبات وأي وثبات، وقليلاً ما حصل النصر والظفر إلا بالكمين والبيات، وقد حكم الصادر والوارد والمداني والشارد، وأقرّ المعترف والجاحد، واعترف الصديق والعدو

(٥) سورة الاسراء: ٧٤.

(٦) سورة الفرقان: ٣٢.

(٧) سورة النمل: ٢٧.

(١) سورة القيامة: ١٦.

(٢) سورة مريم: ٨٤.

(٣) سورة طه: ١١٤.

(٤) سورة النساء: ١٢٢.

والحاسد، وسار في الأقطار والآفاق، وبلغ مصر والشام والروم والعراق. [من الطويل]

وسار به من لا يسير مُشَمَّرًا و غنّى به من لا يُغَنّي مُعَرِّدًا^(١) ما حصل للإسلام والمسلمين من الانتفاع، ولعدو الدنيا والدين من الوهن والضعف والاندفاع، بثبات المقر العالي الجمالي، كافل الممالك الشريفة الشامية أعز الله انصاره ومقامه على المرج مع قوّة الهرج وكثرة المرج، وانه قام بذلك للدين نصيراً وللملك ظهيراً، وأخذ هو ومن أقام بخدمته من العساكر الشامية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢) [من الوافر]

سديد الرأي لا فوت التأيي يُلِمُّ بِهِ وَلَا زَلُّ الْعَجُولِ
يُعِيبُ مِضَاءَهُ وَقَفَاتُ جِلْمِ كَعِيبِ الْمَشْرِفِيَّةِ بِالْفُلُولِ
وقد كان العدوّ المخذول يظن انه يركن الى الإحجام، ويتربص الدوائر والعرصات من سهام الأيام، فاخلف الله ظنّه، وعجّل هلاكه وضعفه ووهنه، وتحقّق أنّه / ٢٨٧ / الطود الذي لا يلتقى، والسور الذي أحاط بالشام فما ان يُتَسَوَّر ولا يرتقى، فأجفل إجمال الظليم، وطلب النجاة لنفسه ولم يلو على مالٍ ولا حريم، وحفظ الله تعالى بثباته الاسلام، ورقه خواطر أهل الديار المصرية، وصان أهل الشام، وعادت العساكر المصرية الى بلادها، عود الصوارم الى أعمادها، والأجفان الى رقادها، والجنوب الى مهادها، وافتدى بالسلطان الشهيد قدس الله روحه كما مضى وسبق، وجاءت النصره بحمد الله تعالى كما أراد لا كما اتفق، وأصبح وأمسى يثني عليه عدوّه فيقول حاسده صدق، وبدّل الله المسلمين بالأمن بعد الأوجال، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٣)، وكان من خبر كذا وكذا.
قلت: ولشهاب الدين محمود^(٤) في معنى ذلك:

أما بعد حمد الله ميسر أسباب النجاح، وجاعل قوائم العاديات في مصالح الإسلام كقوادم ذات الجناح، فهذه تطوى لها الأرض كما تطوى لذي الصلاح،

(١) البيت للمتنبي من قصيدته المشهورة:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
(ديوانه ص ٣٧٠).

(٢) سورة الانفال: ٤٥. (٣) سورة الاحزاب: ٢٥.

(٤) ابو الثناء شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد، مضى ذكره وستأتي ترجمته.

وتلك يتسع لها مجال الفضاء كما يتسع لمرسلات الرياح، وربما تساويا في سرعة القدوم، وامتازت الخيل في سرى الليل بمشابهة الفلك ومشاركة النجوم، إلا أن الخيل يعينها قوة راكبها وثباته، ويغريها بالسبق حدة عزم راکضها وثباته، ويطوى لها شقة الأرض حسن صبره على مواصلة السرى، ويقرب لها النازح طول هجره لطيف الكرى، حتى ان بعض راكبي بريدها يكاد يعثر طوق ليله بذيل صاحبه، ويلتبس على ناظره ومنتظره، غدوه في المهمات برواحه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان الرعب يتقدمه مسيرة شهر الى العدا، والوحي يأتيه بخبر من راح لحربه أو اغتدى، فإنه البريد جناح الممالك وراية المهمات الاسلامية فيما قرب أو نأى من المسالك، وبه تنفذ المهمات في أوقاتها، وتتوافق الحركات /٢٨٨/ فيما يتعين من ميقاتها، وتعرف أحوال الثغور على اتساع أطرافها واختلاف جهاتها؛ كان المبرز في ذلك من عرف منه سبق والف، وسلم له التقدّم في السرعة من نظرائه فما ارتيب في ترجيحه ولا اختلف، فكأنه شهاب يتوقد في سمائه أو برق تألق في أذيال الغمام لسرعة وميضه وانطوائه، ولما كان فلان ممن جلى في هذه الحلبة، وبرز في ارتقاء هذه الرتبة، فبلغ إليها غاية لا يشقّ غبارها المثار، ونشر منها راية لا يتعلق منها الرياح الخوافق بسوى مشاهدة الآثار، فسار على البريد في قوة الهواجر المثبطة وشدتها، وقصر الليالي المعينة على السوق وتقارب مدتها، من دمشق المحروسة الى الديار المصرية في يومين ونصف، فكان له بذلك مزية على أقرانه، ودرجة لا يرتقي إليها إلا من جراه الى مثلها في ميدانه، وسأل من علم ذلك ان يكتب له خطه بما علمه وان يشهد له بما تحقّقه من هذه الحركة التي رفعت بين الأكفاء علمه.

عدنا الى ابن العطار، ومنه رسالته في البندق أولها :

أما بعد حمد الله على ما أسبغ من نعمائه، ووالى من آلائه، وأباح الإنسان من شرائه، وفسح له فيما يتدرب به يوم هيجائه، ويعدّه من قوّة لدفع الصائل عليه من أعدائه، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه وخلفائه وحلفائه، ما مدّ الكف الخصيب وتر البرق لقوس الغمام، وحلّق طائر الفجر نحو الغرب من وكر الظلام، فإن الصيد مما اتفقت الشرائع المختلفة على تحليله، ولهجت النفوس الأبية بتقديمه على سائر الملاذ الرياضية وتفضيله، مع انه الراحة التي لا تنال الا بتجشم التعب، والمسرة التي لا تدرك الا بعد النَّصَب واللَّغَب، وألذّه من القلوب موقعا، وأمكنه من النفوس موضعاً، ما أدركه المرء بنفسه واكتسابه، لا بمشاركة بزاته وفهوده وكلابه، ولذلك أجهد نفوسهم فيه كثير من الملوك والخلفاء، ولم يرضوا

بالصيد، / ٢٨٩ / من وجه الأرض فعمدوا الى الصيد من كبد السماء، ولم يجدوا ذلك إلا في صرع الطائر الجليل، الذي لا يشترك فيه صغير مع كبير، ولا حقير مع جليل، ولو لم يكن فيه مع حصول المراد، إلا السلامة من التقطر عن الجياد، الكارة أولاها بالاختيار، وأحقها عند الاختبار، وانفوا من كسائر كأشلاء الذئاب، وفضلات ما أكلته الفهود وولعت به الصقور وولعت في الكلاب، فعمد كل منهم الى الانفراد في رمائه، وصرع كل طائر يتخبط في ذمائه، مخلق بدمائه، مراصد بارتقائه لعيون الأوتار مع التفافه وتحليقه، جذر في حالتي اجتماعه وتفريقه، وتغريبه وتشريقه، وإذا فكر اللبيب فيما أودعه الباري جلّ جلاله من القوى فيها، ظهر له أسرار ما أخفاه من بدائع صنعه بين قوادمها وخوافيها، فمنها التّم^(١) الذي هو اتمها صورة وأعظمها سورة، قد علا على الغيوم لرمي بنادق النجوم، وخاص بحر الظلام وعبّ فيه وأخذ منه قطعة بساقيه، وقطعة بفيه، حتى ورتد على جبال من برد، فاكتسب منها رياشه، واكتسب من بياضها أرياشه.

ثم الكيّ الذي هو في طيرانه واعتناقه في مضماره واستنانه كالفراس في ميدانه، كأنه النجم في حالة الرجم، لو عارضه السمك لاقتلعه، أو الحوت لابتلعه.
ثم الأوز الذي يمشي متبختراً، وينقر متحذراً، كأنما يدوس على مثل حدّ السيف، ويمتاز على أبناء جنسه برحلتى الشتاء والصيف، يبيت على فرد رجلٍ واحدة، ويرمق موهماً ان عينه راقدة، وليست براقدة.

ثم اللغلق^(٢) الذي من بلاد الخزر، ولا يتقي من البندق سهام القدر، ولا يخشى ان يصيبه عين من الوتر، لا يحارب إلا بسحر الجفون من خزر العيون، ولا يستجن إلا من تدبيج الصدر بزرد موزون.

ثم الأنيسة تهادى تهادي الطاووس، وتختال اختيال العروس، حتى تلتقط حبات القلوب، وتصيد سوافر النفوس، كم قطعوا / ٢٩٠ / في طلبها من أنهار نهار، وسمحوا باتفاق اكياس النجوم خزائن الليل وما فيها من درهم ودينار، فما فازوا بوصولها، ولا ظفروا إلا من على وجه الماء بطيف خيالها.

ثم الحبرج^(٣)، الذي تهادى في مشيته غير مروع، وكأنما على كتفيه بقايا من صدأ الدروع، لم يتدرع بمقاصة الأنهار، ولا أوى إلى ظل الأشجار، بل برز كأنه

(١) التّم: طائر يكبر الأوز، في منقاره طول، وعنقه أطول من عنق الأوز (حياة الحيوان ١/ ٢٣١).

(٢) هو اللقلق كما في حياة الحيوان ٢/ ٣٠٨. (٣) هو ذكر الجبارى (حياة الحيوان ١/ ٣٢٢).

مُنَاجِزٍ يَشِيرُ أَلَا هَلْ مِنْ مَبَارِزِ؟

ثم النسْر الذي علا عليها شأنًا، وغدا لها سلطانًا، وسار فيها بالعفاف عن دمائها أجمل السير، وتحصن في فنة الجبل بقبة السماء فأصبح صاحب القبة والطير، حتى لقد ضجَّ الأبد من عمر لبد، لما طالت صحبته له على رغمه، واستعان به النمروذ في الصعود الى السماء على زعمه، فما ظنك بفتية تقصد صرع من هذه قواه، ومن جملة أنجم السماء أخواه، لو صارعه عقاب الجوّ لصرعه، أو عارضه أحد النسرين لما قدر ان يطير معه.

ثم العقاب التي اشتهر منها الشهامة والضراوة، حتى اشتهر ما بينها وبين الحية من العداوة، فإنها توسد فرخها لحوم الأرناب، وما عنقاء مغرب عندها إلا كبعض الجنادب، وطالما حلق وراء كل جنس عصائب منها تهتدي بعصائب^(١)، من كل لقوة ذي دكنة وقوة، تخال الغواني ضمختها بالغوالي، أو درعتها الغواذي مدرعة الليالي. [من الطويل]

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكرها العنابُ والحشفُ البالي^(٢)
وأما التي تحمل بأساقها، ولا تجهل بأعناقها فنقول:

ثم الكركي الذي فاق العقاب في قوة طيرانه، والنسر وأم مصر من الدربندات، ولم يبعد على عاشق مصر، نجعة من أقصى البلاد وآفاقها خوارج في طلب أقواتها وأرزاقها.
ثم الغرائيق، التي لا تبرز إلا محمرة الحدق لقوة الغيظ وشدة الحنق، حذرة من قوس الرامي وبندقه، مدرع كل طائر منها محبوك الزرد من مفرزه الى مفرقه.

ثم الضوع^(٣) الذي / ٢٩١ / زاد على الطيور طولاً وعرضاً، وأعد للذئب من مغرزه ما هو انكى من السيف والسنان وامضى، وطالما رام الرامي إلحاقه بإرسال البنادق وراءه فأتعب جياذ القسي وانضى، كأنه قطعة من الغيم تصرفها الرياح، او بقية الغلس من الليل على وجه الصباح، وكأنما ورد مرة نهر المجرة، ورعى نرجس نجومه كرة، وخاف ان يكون لها كرة.

ثم المرزم^(٤) الذي يبارز بجوشن مورّد، وجوجؤ مزرد، كأنه صرح ممرّد، كأنما خرج من الهيجاء في طلب النجاء، وبه رشاش من الدماء، فتبصر فإذا الطير مستخرات في جو السماء.

(١) اشارة إلى قول النابغة:

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

(٢) البيت لامرئ القيس، ديوانه ٣٨. (٣) قيل هو ذكر البوم (حياة الحيوان ٢/٣١٤).

(٤) المرزم: من طيور الماء (حياة الحيوان ٢/٢١٤).

ثم السبيطر: الذي يبارز مبارزة الشجاع، ويلتقم الأفعى والشجاع، قد تبدأ الرماة بصدريه وبنحره، وليس جوشنه من جناحيه إلا قدّامه ووراء ظهره.

ثم العناد: الذي اشتد بأسنا، واختار شعار الخلفاء لباسا، وما سمح باظهار ذوائبه واشرافها إلا ليعلم أنها من عظماء الطير وأشرفها، قد تحلّى من الحدق المراض، بالضدّين من السواد والبياض، وما منها إلا ما يزاحم النجوم بالمناكب، كأنه يحاويلُ ثأراً عند الكواكب، لا يبرز إليها رام إلا راجلاً، وهو مشتمر للذيل، غارق الى وسطه في وحلٍ وسيل، يصرع فارساً من السماء على أشهب الصبح وأشقر البرق وأدّم الليل.
ومنه قوله:

واعلى في الخافقين خوافق أعلامه، وبسط على البسيطة قوادم عدله وخوافي إنعامه، حتى لا تشرق شمسٌ إلا على ما ملكت يمينه، ولا تلقاه ملك إلا خضع له بالسجود جبينه، المملوك يقبل الأرض، ويجمع بين الطهورين، صعيدها الطيب وسحابها الصيّب، وينهي ورود المثال الشريف، فتناول منه كتاب أمانه باليمين، وأعطى بمبايعته اليمين، ولثمه وهو موضع رغبات اللاثمين، وورده فرأى العجب أنه البحر العذب ولا يقذف الآ الدر الثمين.
ومنه قوله:

/٢٩٢/ وكانت المملكة الحليّة من ممالكنا بمنزلة السور على البلد، والروح من الجسد، وقد علم تعلّق الروح بالجسد، واتفق لها الانتقال إلينا، ولنا بها الى ربه الانتقال، وأصبحت من يميننا في اليمين، وكانت وهي في الشمال من الشمال، ولم تر لها الآ من غذي بلبانها، وعنى بشانها، عدّ فارس حلبتها يوم رهانها، فطالما طمحت إليه بنظرها، واحتمت به من غير الايام وغررها، فكفاهها الأمور الجسام، وحمى حماها، وكيف لا تحمى وهي ذات جوشن بالحسام، ولم يزل طامح نظره حولها يدندن، ووليجة أمله بها تلجلج، وعنّها لا لاترن^(١) رأينا إنالته هذا المطلوب، وقضينا له منها حاجة كانت في نفس يعقوب، وحكمناه في ذلك فيما طلب، ومثله من حَلَب الدهر أشطره، ونال الزبدة من حلب، وكان الجناب الحسامي هو الجناب المخضب لرائده، العالي عن مسامته مستاميه ويده، فخرج أمرنا العالي ان يفوض اليه نيابة السلطنة المعظمة بالمملكة الحليّة، وقلدناه أمورها، ومن أحقّ من الحسام

(١) كذا في الاصل، ولم أجد لها وجهاً.

بالتقليد، وجردها للانتصار به، ويظهر أثر الحسام عند التجريد، وليتفقد الجيوش ولا يفسح لهم في الركون الى الاعذار والميل، وليتل عليهم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾^(١) ولا يستخدم إلا كل شهم شهد الوقعة، وإذا قفل الجيش كان ساقية، وإذا توجه كان طليعة، والبريد والحمام هما رسل المهام، وأعلام الإعلام، وأرسلهما في كل مهم معا، وليجمع بين تجهزهما وإن لم يجتمعا، وليرتب أمورهما على أجمل الأوضاع، ليتوافيا على انفراد واجتماع، فكثيرا ما سبق البريد السائر، وجاء قبل الطير الطائر، فبلغ المرام وعاق الحمام الحمام.

ومنه قوله:

أعزَّ الله أنصار المقام، ولا زالت مكارمه كالبحر تقذف لمن جاز به بدره، والروض يسابق من مرَّ به بنشره، والمسك يبادر من دنا بعطره والغيث / ٢٩٣ / الذي لا يقتصر على سائله بفيض قطره، يقبل الأرض التي من حلَّ بها نال الغنى، ومن خيم بدارها نال المنى، وما اجتاز بها إلا من وافاه إسعافه وإسعاده، وما سار أحد في الآفاق إلا ومن أنعامها راحلته وزاده، وينهي ورود كتاب فلان، يصف احسان مولانا إليه وإنعامه، وما تعجل في مقامه الأمين من دار الكرامة، واقامته به وبعسكره في حالتي توجهه وعوده، وشكر صحابه العميم وجود جوده، وشكر المملوك عند صدقات ملل لا يخلو لنازل من اكرامه، ولا راحل من انعامه ولا يزال في الإقامة والظعن، أما يؤويهم الى كنفه أو يرسل عليهم ظلَّة غمامه، وتلك سجيَّة مولانا التي جُبلت على الإحسان الى كل إنسان، واصطناع المعروف الى المعروف وغير المعروف، والله تعالى يُوزع الدهر شكر مولانا الذي شمل بره الانام، وسطرته أنامل الحمد في صحائف الايام.

ومنه قوله:

ووصلنا معه طرابلس فنزل بساحتها، وجعلها للعساكر المنصورة موطن راحتها، وموطن إباحتها، وقد تكفل البحر لها بالامتناع، وضمن لها ما يزيد على حصانة القلاع، وأمدّها من بلاد الفرنج كل يوم بمدد، وواصلها بالمراكب الكثيرة العدد، بما يزيد على أمواجه في العدد، فوصل رسل أهلها وتوسلوا بالذرائع، وبذل الأموال والقطائع، وعمارة المأذنة والجمع، فلم يقنع منهم بغير الاسلام او تسليم البلد بجملته، وإعادة القبلة من شرق بيعته الى قبلته، فاعتصموا بالأسوار، وركنوا للقتال

من وراء الجدار، وأطلقوا نحو كلّ سهم من المنجنيق يشير عليهم بنانه بالإيمان، ويميل تارة إليهم وتارة إلينا ويميد كالنشوان، فنصبنا مجانيقنا قبالة مجانيقهم التي نصبوها من وراء أسوارها، ولم نزل ترميهم حتى عاد السور رميماً والحجر الذي كان بأعلى البرج في أسفل الخندق هشياً، وكثيراً ما كانت / ٢٩٤ / تتبر مجانيقهم، فتقضي عليهم ببوارهم، وتبشرهم من أول أمرهم بإدبارهم، وتصيبهم قارعة بما صنعوا، أو تحلّ قريباً من دارهم، فرجعت عليها العساكر المنصورة، وفي عاجل الوقت ملكوا الباشورة، فعلموا انه لم يبق سوى الاسار أو القتل أو الفرار، فالتبست على كل منهم مذاهبة: [من الطويل]

فراحوا فريقاً في الإسارِ وبعضهم قتيلٌ، وبعضٌ لاذّ بالبحر هاربهُ
فهجمت العساكر المنصورة عليهم هجوم الليوث الضواري، وعاجلت اكثرهم
عن الالتجاء الى المركب والاعتصام بالصواري، وتصرفت فيمن بقى منهم يدُ القهر،
وتنوعت فيهم من القتل والنهب والسبي والأسر.

ومنه قوله^(١) مما كتبه إلى أبي الفضل عبد الظاهر^(٢): [من السريع]

سقى وحيّا الله طيفاً أتى فقمْتُ إجلالاً وقبْلْتُه
لشدّة الشوق الذي بيننا قد زارني حقاً وقد زرُّهُ
وافى من الجناب العالي المحيوي، أنس الله المملوك بقربه، وحفظ عليه منزلته
من قلبه وهداهُ الى الطريق الذي^(٣) كان قد ظفر فيها بمطلب البلاغة من كتبه، ولا
شَعَلَهُ بسواه، حتى لا يسمع غير كلامه، ولا يرى غير شخصه، ولا ينطق إلاّ بذكره
لغلبة حبّه، ولا رآه في المنام، ولا زاره^(٤) في خفية واكتتام، ولا شاهده بدعوى
الأحلام، بلى^(٥) فإن المنى أحلام المستيقظ، وهو به طول المدى حالم والناس نيام،
ولا يُنكر الاخلال بالمكاتبة على نائم، والقلم مرفوع عن النائم، غير ان المملوك
الظاهري^(٦) أماته الشوق فانتبه، بعدما رآه^(٧) بعينه، وهو لا يتأوّل ولا سيما في أمر ما
اشتبه، وما كانت زيارته له إلا منافسة له بظنّه ان المملوك علقت به سنة الكرى،
ومناقشة لطلبه زور الخيال حقيقة لما سرى، لينفي الوسن عن نظره، ثم ينصرف على

(١) الوافي بالوفيات ١٦٧/٨.

(٢) في الوافي: محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، سبق ذكره وسيذكره المؤلف فيما بعد باسم ابن عبد الظاهر.

(٣) في الوافي: التي. (٤) في الأصل: «رآه» وفي الوافي: أتاه.

(٥) في الوافي: بل. (٦) الظاهري: لم ترد في الوافي.

(٧) في الاصل: زاره.

أثره، ولما سجدت له الاجفان ظنّ بها سنّةً فزارها منبهاً، وما كان إلا ساهياً بمزاره عن خدمته فلا ينكر على جفنه السجود لمّا سها، ولكم غلّة^(١) للشوق^(٢) أطفأ / ٢٩٥ / حرّها بمزاره، وأعلق به أشراك الأجفان، خيفةً من نفاره، وعقلهً بحبائل جفنيه خشية إن تنزع يد اليقظة حنينه^(٣) من بين جنبيه، وضمّها على خياله، ضمّ المحب للعناق يمينه على شماله، ولكن ما فاز بالعناق إلا يدٌ أو يدان، وعناق المملوك للطيف من فرط الوجد بأربعة أيدي من الاجفان، وإن لم تؤخذ هذه الدعوى منه بالتسليم، وقيل: ما زاره بل استزاره فكرّ له في كل وادٍ يهيم، فبلى وحقّه، لقد قصّد^(٤) مزاراً: [من البسيط]

إن الكريّم إذا لم يُستزر زارا

وتالله لقد وافاه ويسراه^(٥) على حشاه، ويمناه متشبّتهً بأذيال دجاء، وفجأه فوجده على أبرح [ما يكون]^(٦) من الوجد الذي عهد، إلا ضيف الطيف ما اهتدى إلا بنار أشواقه، وما سرى بل سار في ضياءٍ من بارق دمعهِ، وما يوري قدحاً من سنابك بُراقه، وتسوّر أسوار الجفون، وخاض السيول من العيون^(٧)، كيف لا وهو يتحقق ان لقاءه المراد، وإذا هو نام زاره طيف كرى في الرقاد. فأجابه^(٨) ابن عبد الظاهر: [من السريع]

في النوم واليقظة لي راتبٌ عليك في الحالين قررتهُ
تفضّل المولى إذا زاره طيف^(٩) خيالي منه إن زرتهُ
ورد على المملوك - ادام الله نعمة الجناب العالي الكمالي ولا أسهر جفنه إلا في سبيل المكارم، ولا سهدّها إلا في تأويل رؤيا مغارم الفضل التي يراها من جملة المغانم، وجعله يتغمر بحلمه هفوة الطيف، وكيف لا يحلم الحالم - كتاب شريف حبّب إليه التشبيه بنصب حبائل الهدب الجفون، والاستغشاء بالنعاس، لعلّ خيالاً في المنام يكون، وليغتم اجتماعه ولو في الكرى، وتصبح عينه مدينة وإن مضى عليها زمنٌ وهي من القرى، وينعم طرفه من التلاقي بأحسن الطرف، ويقول: هذا من تلك السجايا أظرف الهدايا، ومن تلك المزايا أطف التحف / ٢٩٦ / ويرفع محل الطيف

(١) في الوافي: علة.

(٢) في الوافي: حبيبه.

(٣) في الاصل: ووسده.

(٤) الى هنا ينتهي نقل الوافي.

(٥) في الاصل: طيفي.

(٦) في الاصل: الشوق.

(٧) في الاصل: صدق مراراً، والتصويب عن الوافي.

(٨) ليست في الاصل، والتصويب عن الوافي.

(٩) الوافي بالوفيات: ١٦٩/٨.

فيرقيهِ من الهدب في سلالم، بل^(١) يمطيه طرف طرفه ويجعلها له شكائم، لا بل يرخيها لصورته أستارا، ولا يصفها بأنها دخان إذ كان يجلل موطن الطيف الكريم أن يؤجج ناراً، ويعظمه عن انه إذا أرسل خياله رائداً، أن تتبعه المناظر^(٢) وأن يكلفه مشقةً بسلك مدارج الدموع، إذ هي محاجر، ثم يخشى أنه يحصل نفور من التغالي في وصف الدموع بأنها سيول، فيهول من أمرها ما يهول، ويقول: هل الدمع إلا ماء يرش به بين يدي الطيف، وهل الهدب على تقدير انها دخان إلا ما لعله يرتفع لما يقري به الضيف؟ وعن إيراد الأجفان^(٣) بهذا وإسخان العيون بهذه هل هما لا يلاف الخيال إلا ما يقصده من رحلة الشتاء ورحلة الصيف؟ ثم يحتقر المملوك إنسان عينه عن انه يلزمه هذا الأمر تكليفاً، ويتدبر قوله تعالى: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤) ويقول له لا تطبيق القيام بما لهذه الزورة للزوم من الوظيفة^(٥)، لأن النوم سلطان وخليفة، وأني بذلك مع خليفة الحبيب ويدُ الخلافة لا تطاولها يد، والعيون في الصبا زورتها حقيقة، ويمكن أن لا توصف إلا بأنها ضعيفة، فيقول: كم مثلي انسان تطاول لاستنزارة الطيف حتى طرق؟ وكم خيال أتى على أعين الناس فجاء محمولاً على الحدق؟ وكم محبّ درأ عن النوم بشبهة تغميض الأجفان عن غير غمض^(٦) حدّ القطع على السرقة، ثم يأخذ في طريقة غير هذه الطريقة، ويرى الاكتفاء بالمجاز عن الحقيقة، وإذا أقامت^(٧) العين الحجة في تصويب استنزارة الخيال يقول: ما هذه من الحجج التي تسمى وثيقة، ويرى ان تمثل الشخص الشريف في خاطر قد أغناه عن ان يتقلد منه الكرى وكفاه انه ينشد: [من الكامل]

سُرَّ الْخِيَالُ بِطَيْفِهِ لِمَا سَرَى

ولم يحوجه حاشاه إلى انه يزور له محضراً ولا انه ينشد: [من الكامل]

٢٩٧ / أَتَرَى دَرَى ذَاكَ الرَّقِيبُ بِمَا جَرَى

اللهم إلا ان يورد مورد العين أنفع ما يُدَّخر، والعين الصافية ما برح عندها من الخيال الخبر، وإذا كان القلب متولي الحرب مع الأشواق فكيف يشامخ الخيال على انه متولي النظر؟ فحينئذٍ يشتاق الى الوسن، ويمدّ له من الهدب الرسن، ويزوره ويستزير، ويقصد ويتلو (ويعفو عن كثير)^(٨) ويذهب لأجل ذلك مذهب من يرى أنه

(١) في الوافي: لا بل.

(٢) في الوافي: ان يتبعه الناظر.

(٣) في الوافي: وعن إيراد الجفون.

(٤) سورة النساء: ٢٨.

(٥) في الوافي: لهذه الزورة الشريفة من الوظيفة.

(٦) في الوافي: عمد.

(٧) في الوافي: أو مأت العين للحجة.

(٨) سورة المائدة: ١٥.

يقدم الايام على الليالي، ويعظمها لأنه مظنة هجمة الخيال، ويجعل جفونه أرض تلك النجمة التي يُغلب عليها، وما برحت تغلب لها أرض الجبال، وأما النيل فكم احتقره المملوك بالنسبة الى كرم مولانا ونواله، وتكره مذاقه بالاضافة الى زلاله، ويحقق ان مقياس راحته هو الذي يَسْتَسْعِد به الأمم، وان الأصابع من الاصابع الكريمة، والعمود القلم، وان طالب ورد ذاك تعب، وطالبُ جود سيدنا مستريح، ويكفي واصف نواله له وهو غاية المديح.

واما ما لابن العطار من شعر فكتب أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر إليه^(١):

[من البسيط]

لا تُنكرنَّ على الأقلام إن قَصُرَتْ لها مَساعٍ إذا أَبصرتَها وَحُطِي
فعارضُ الطرسِ في حدِّ الطروسِ بدا من أبيضِ الرسلِ شيبٌ فيه قد وَحَطَا
فقال ابن العطار يجيبه^(٢): [من البسيط]

أقلامُ فضلكَ ما شابتَ ولا قَصُرَتْ لها^(٣) مَساعٍ إذا انصفتَها وَحُطِي
بلْ عارضُ الطرسِ لما شابَ غيرَهُ بِعُشْبَةٍ قَبْلَ شيبٍ فيه قد وَحَطَا
ومنه قوله^(٤) في رثاء الظاهر بيبرس^(٥) [من الكامل]

بكت القسيُّ لفقدهِ حتى انثنتْ ولها عليه مِنَ الرنينِ تحسّرُ
ولحزنها بيضُ الصفاحِ قد انحنَتْ وتبيت في أغمادها تتسّترُ
أرختْ ذوابلُهُ ذوائبها أسي وَلرَنكِهِ وَجَهُ عليها أَضْفَرُ
كانَ الشعارُ لفقدهِ يستشعرُ وكانَ الشعارُ لفقدهِ يستشعرُ
وملائكُ وممالكُ لا تُحصَرُ وملائكُ وممالكُ لا تُحصَرُ
ولكم بكتُهُ حُصْنُهُ وحُصُونُهُ ونزِيلُهُ ونزالُهُ والعسكرُ
مَنْ للممالكِ بَعْدَهُ مِنْ كافِلٍ مَنْ حاطها بالرأيِ منه مسوّرُ

(١) البيتان في الوافي: ١٧١/٨. (٢) البيتان في الوافي: ١٧١/٨.

(٣) في الاصل: له. (٤) الوافي: ١٧١/٨.

(٥) بيبرس، الملك ظاهر، ولد في القبجاق، وأسر في سيواس ونقل الى حلب ثم القاهرة، فاشتره علاء الدين أيدكن، ثم اخذه نجم الدين أيوب، فأعتقه وتقدم عنده حتى صار أتاكب العساكر المصرية، ايام قطز وشارك في معركة عين جالوت ضد التتار، ثم اغتال قطز وتولى سلطنة مصر، وكان شجاعا جباراً. أخباره كثيرة. مات بدمشق سنة ٦٧٦ هـ واقيمت حول مرقده المكتبة الظاهرية.

ترجمته في: فوات الوفيات: ٨٥/١، والنجوم الزاهرة: ٩٤/٧.

قد حرّك الثقلين هوً مُصَابِهِ فالظاهرُ المودي أو الاسكندرُ
ومنهم :

[٢٣]

محمد بن عبد الله، شرف الدين، أبو محمد، بن فتح الدين أبي الفضل بن
القيسراني القرشي المخزومي^(١)

صدر إيمانٍ وعلا، وبدر زمانٍ أضاء الظلم وجلا، مجيل قِداح من الأقلام،
ومجيد اقتداح يشقق عن البرق جيوب الظلام، حلف زهيدٍ وورع، وجدُّ طال به الأنام
وفَرَع، وكان قريع علم لم يدعه إذ رأس، وفقه طالما ارتبط عليه ودَرَس، من بيت
يتمسح بأركانه، ويُتَسَمَّح من امكانه، ولم يزل أهله أهلة كتاب واهل سنّة وكتاب،
وخدموا الدول وختموا بالأمانة الأيام الأوّل، وكانوا كتاب إنشاء وحساب،
وأصحاب إرثٍ واكتساب، وأرباب فخار بنفوس وانتساب، ومنهم جماعة حلّوا
الممالك فوشوا خبراتها، وشعوا بذائب النضار أصلها وبكراتها، وكانوا أهل مدائح
غلقت كالسحاب، وعقّت البحر، وتعلّقت بالسحاب، مع نسبٍ في آل المغيرة^(٢) لأ
تطمع في مسرح كواكبه مواكب الصباح المغيرة، وكان يتروى ويأتي بشر يفوق كثيرا،
ويضحى على ورقه سقيط الطلّ منشورا، مع قضاء باء بيمين نقيبتها، ويجيء بدارين في
حقيقتها، مع مروّة ما غبّنه فيها شريك، ولا فتنه عنها سطا سلطانٍ ولا ملك، وكان
يجلس بين يدي كافل الممالك لقراءة قصص المظالم، وهو يقرأ القرآن الكريم، فإذا
مرّ بأية سجدة استقبل القبلة وسجد، وربّما استدبر كافل الممالك لاجل اتباع القبلة
فَوَجَدَ عليه لهذا، وقال لعمري في الاستفال به، فكان يذّرأ عنه حدّه، ويوصيه فلا تُفيد
الوصايا عنده /٢٩٩/ بل يقرأ، فإذا مرّت به آية سجود سَجَدَ، وما عليه ان لا يَجِدُ
في نفسه عليه أو وَجَدَ، مع ما كان هذا الرجل في إنابة الأدينين من كبراء شَمَخَتْ بهم
المناصب، وشَدَخَتْ هامة المناصب.

ومن نثره قوله :

(١) ابن القيسراني، ولد بحلب سنة ٦٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٠٧هـ.

انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/٣٧٠، الدرر الكامنة ٣/٣٨١، وأهيان العصر: ٤/٥٢٩، وعقد
الحجان: ٤/٤٧٤.

(٢) هو المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، والعددُ والشرف والبيتُ في ولده، انظر نسب قريش ص
٢٩٩ وما بعدها والاشتقاق ٢٨٢.

وبعد فإن أولى ما عَظُم في النفوس، وازدانت به المحافل والطروس، الشرع الشريف، وبه زَجُر أهل الاجتراء والاجتراح، وتحقن الدماء وتُسْتَبَاح، ولهذا تعين ان لا يحل ذروته السنّية ورتبته العلية إلا مَنْ انعقد الاجماع على انه للولاية متعين، وان موجب استخلاصه واختصاصه للمباشرة بين، ولما كان فلان هو العلم الذي ليس لفضله جاحد والفقير الواحد، الذي هو أشدّ على الشيطان من الف عابد، والذي عادل دم الشهداء مداؤه، ومائل البحر الزاخر مدده في الفضائل واستمداده، وباشر قضاء القضاة، وقضاء العساكر المنصورة بالشام المحروس مدّة متطاولة، وشكرت مباشرته المنصبين، وحكم بأهليته لما قامت البيّنة من خبره وخبره بشاهدين، وبرأت من عيون الأعيان أحكام الاحكام، ولا أثره بعد عين، وأبدع في تقريبه المسائل وتقريره وتحويره، وتحيل حتى قيل هو في العلو والعلوم شريك القاضي شريك^(١)، وبأنباء الشريعة المطهرة هو الخبير الذي ينيك، وبلغنا انه في هذه المدّة حصل له في اثناء البحث ما أزعجه وأخرجه، وعن خُلُقِهِ الرضيّ أخرجهُ، وامتنع من الحكم أياماً، ولم يجر له في الأمور الشرعية لساناً ولا أقلاماً، فاقضى اعتناؤنا بالشريعة المطهرة اشخاصه إلى بين يدينا واستعلام سبب ذلك يقيناً، وان نصرّح له بتجديد تولّيه تولّية مناصبه وتأكيده رفة يكف بها مناصبه.

ومنه قوله:

وينهي ان المشرف العالي ورد إليه فتنسّم أرواح قريه، وأوجد مسرّات قلبه، واعدم مضرّات كربيه، وأبهجّه الكتاب بعبير رياه، وألهجّه الخطاب بتعبير رقيه، فرأى /٣٠٠/ خطه وشياً مرقوماً، ولفظه رحيقاً مختوماً، ووجدّه مختوماً على دُررٍ كلامية، وبشر منامية، وحديث نفسٍ عصامية، نرجو من الله ان نشاهد ذلك ايظاً ويكون لأنبائه حفاظاً.

ومنه قوله يصف زيادة النيل:

وأقبل يعبّ عبابه، ويكاثر البحر المحيط أنسكابه، ويطاوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾^(٢)، وأمر زيادته يعظم عن الشرح ويكبر، ومشاهده لقدرة الله فيه يتلو: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^(٣) وقد تلقتّه البلاد تلقّي المحبّ

(١) شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، الكوفي، ابو عبد الله، من الفقهاء المحدثين الاذكياء استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ ثم عزله فأعاده المهدي وعزله الهادي، ولد في بخارى سنة ٩٥ هـ ومات بالكوفة سنة ١٧٧ هـ.

انظر: وفيات الاعيان ٤٦٤/٢ وتاريخ بغداد ٢٧٩/٩ والمعارف: ٥٠٨.

(٢) سورة لقمان: ٢٧.

(٣) سورة فاطر: ١٢.

لحبيبه، والعليل المرتقب لطيبه، وهو كلما حَلَّ بُعَّةً صد صدا، وأجدى جدا، وكلما حباها بأصبع شكرت له يداً، وكان قد وصل في اثناء ذلك المفرد من الاعمال القوصية مخبراً بوفائه، واقتضى مذهبنا الشريف الحكم بخبر المفرد، والعمل ما عنه يروى وإليه يُسند، ومع ذلك وصل التثبُت الى أن نقل هذا الأمر من الخبر الى العيان، واستحق خليج مصر ان يُفكَّ عنه الحجر، ويجري مطلق العنان، ومن غرائب هذا البحر وإن كثرت فيه الغرائب، ومن الغرائب انه كلما تتكدر تتبسّم له الثغور وتفتّر، وانه نيل أزرق وبصبغة تروق البلاد وتخصّر، وطرناها والخواطر الشريفة واثقة بسقيا امتت من فوتها، والعيون ناظرة الى أثر رحمة الله كيف تحيي الأرض بعد موتها، والديار المصرية قد عدت للري في أكمل زي، وأبدت تموج الحلل وتبرج الحللي، وزهت حُسناً بالزيادة في الحُسن وتلا على ساكنها لسان الرحمة. ﴿وَيَبْدِلُهُمْ رَبُّ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(١) فالمجلس بحمد الله لما أعاده على الوجود من إشراقه وأنسه، ويستديم النعمة بالشكر: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(٢)، والله تعالى يجعل هذه الرحمة الى جهاته حسنة التفريح، مناظره بها ناظرة الرياض في التدبيح، مُظهرة فيها معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَابَىٰ إِلَيْهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾^(٣) ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾^(٤).

/ ٣٠١ / ومنه قوله:

وينهي ورود المشرف العالي، فاطلع من جواهر الالفاظ ما لو شاهده البدر لما أسفر أو سمع به عبد الحميد لأحبّ ان لا يُذكر، فتزّه في رياض كتابته التي اينعت أغصانها، وأبهجت بفنونها أفنانها، فلولا حلّها وحرمة السحر لقلنا سحرا، ولولا انه شغل الأعناق بمنّته لقلدناها إذ هي الدرّ نحرا.

ومنه قوله يذكر النيل:

وأمتت التراع منه ترع، وأصبح الجذبُ مع ما كان فيه من القوّة وقد أخذ في النزاع، وحققت به عروس مصر أن يزيد كقطرة في بحرها إذ يزيد^(٥)، وأن باناس لا ترفع به خلجانها من راس، وان ثورا لو حفت به شرب لما كمل دورا، وان كل رابية منها تربي على الربوة والنيرب^(٦)، وكلّ برق ما عدا سحبها الهاملة حُلب، وانها

(١) سورة النور: ٥٥. (٢) سورة لقمان: ١٢.

(٣) سورة فصلت: ٣٩. (٤) سورة الحج: ٥.

(٥) يزيد وباناس وثورا: من فروع بردى. (٦) الربوة والنيرب: مناطق نزهة غربي دمشق.

تخلب القلوب بالملق، وتسلب الأبواب بالحدائق لا الحدق، وان البسطة في البسطة^(١)، والنزهة في ربيعها إذا نسج بسطة، وأنها عمّا قليل تتجلى في حللها النضرة، وتبين انها لا عداها الدنيا، إذ هي الخضرة.

ومنهم:

[٢٤]

محمود^(٢) بن سليمان بن فهد الحلبي، الكاتب

شيخنا العلامة، حجة الكتاب، فرد الزمان، شهاب الدين، أبو الثناء، جيل أدب لا مطمع في ارتقائه، وبحر علم لا مطمح إلا إلى ما يؤخذ من تلقائه، رقى السماء، وتلقى من ربّه كلمات، علم بها الكتاب الاسماء، ناضلت الدول بأقلامه، وكلمت ملوك العدا بكلامه، فحظي ببرّها وخطب لحفظ سرّها، وتقدم باستحقاقه، واستبعد الكلام الحرّ باسترقاقه، وأقام بالشام ثم بمصر، فطاب به الواديان كلاهما، وأغدق نوؤهما وكلاهما، وكان كاتباً لا يعرف له نظير، ولا يعرف مثله في الزمن الأخير، تعين بدمشق فكان للكتاب والداً، وتفرد بمصر فبقى سهما في الكتابة واحداً، وكان بابل سحر وعنبر شحر، وعانة مدام، وغاية اقدم، وغاية أسد ذي ظفر دام، لم يزل /٣٠٢/ نجى ملك همام، ورسيل بحرٍ وغمام، يكتب طالما أينعت روضة زهر، وافق سماء نرجسه الثريا مجرّته النهر، وكان لا يرضى بدارات الأقمار لزهريه كمامة، ولا بالهلال لظهر قلمه قلامه، بأدبٍ دقّ على الأدباء، ورق فنسب الجفاء الى الصهباء، فأشفق الشفق أن يكون لكؤوس كلمه مُدامة، ودخان الندّ ان يكون على عنبر سطورهِ غمامة، وكان في الديوانين يتصدى لمهمات الانشاء، فكم أطل لوجوه الأيام عُراً، وقلد أعناق الممالك دررا، من مقاليد لو شيدت العماد لما ماد، أوحيا بفضلها

(١) البسطة: كورة بمصر (معجم البلدان ١/٤٢٢).

(٢) شهاب الدين، محمود، من أكابر الكتاب، أديب، شاعر، ولد بحلب سنة ٦٤٤ هـ وولى الانشاء في

دمشق ومصر نحو خمسين سنة، توفي بدمشق سنة ٧٢٥ هـ، له مصنفات كثيرة:

طبع منها: «اهنى المنائح في اسنى المدائح» و«حسن التوسل الى صناعة الترسل» ومما لم يزل مخطوطاً «ذيل على الكامل لابن الاثير» و«منازل الاحباب ومنازه الالباب» وشعره كثير جداً وكذلك نثره.

انظر: الدور الكامنة: ٩٢/٥، وفوات الوفيات: ٢٨٦/٢، والبداية والنهاية: ٢٢٠/١٤، وشذرات

الذهب ٦٩/٦، والوافي بالوفيات: ٣٠١/٢٥، وأعيان العصر: ٣٧٢/٥، والاعلام ١٧٢/٦.

ورسائله متفرقة في نهاية الارب، وصبح الاعشى وانوار الربيع.

الفاضل لانطق الجماد، أو أثرت ابن الأثير لاستغنى مما يثير، أو بنى على أبقارها ابن بنان لما ضُمَّ له على قَلَمِ بنان، أو خَلَّتْ شيئا لابن الخلال، لتاه بكرم الخلال أو خَصَّتْ ابن ابي الخصال بخصلةٍ لطال بها وصال، وكسر على النصال النصال، الى نظم وطيء بأخمصه الطائيين، وأفنى بخلود الدهر مدة الخالديين، بما أهدى إليه وترك الكندي مضللاً، وخلقى العزيز في قومه ابن ابي سلمى مذلاً، حتى لو وسم عبيد بولائه في القريض لما قال: حال الجريض^(١)، فأما في توليد المعاني ففات ابني هاني^(٢)، ونهض جدّه وسقط صريع الغواني، فمن نسيب نسي به القديم، وغزل ذكر به كل غزالٍ ورثم كل ريم، ورتاء أسكت النائحتين الديلمي وذا النسب الصميم^(٣)، وتشبيهه ثلث الملكين ابن المعتز وتميم^(٤)، الى بيان^(٥) أذهب العسكري في الصناعتين، وفلك جرض الراغب والجاحظ في البراعتين، وكان في كل منهما إماماً، وسخّ في كل منهما غماماً، بسجع كم غازل على أيكِهِ حماماً، وأعطى الغواني على حلي ذماما، وشقّ على لَبّةِ النهر أطواقا، وأرخى على أنامل الغصون أكماما، ثم ولي بدمشق صحابة ديوان الإنشاء، وأطلع في الصباح نجوم العشاء. وهو شيخي في الادب، وإن لم يكن لي أبا مثل أبي، لزمته مذ قدم دمشق حتى مات، أقرأ عليه، وأقريء مما لديه / ٣٠٣ / ومن حواصله أنفقت وجمعت، وفرقت وسدّدت الى الغرض، وفوّقت، وأقول ولا أخشى، فمهما وصفته به من المحاسن صدقت؛ لأنّ الرجل أشهر من الشمس، وذكره أسير من قفا نيك، قد أنجَدَ ذكره وأتهم، وأعرق وأشام، وغنّى به الملاح والحادي، وغني به سكان الجبل والوادي، هذا الى ما له من المشاركة في علم الحديث، وحفظ المتون والرجال، والاطلاع على آراء الناس ومذاهب الأمم في الملل والنحل، وفرق الخلاف ومواضع الاختلاف، وضبط التاريخ واستحضر الوقائع، وذكر نوب الدهر، وتصاريف الزمان، وأيام العرب والعجم، ومعرفة النسب ودول الخلفاء والملوك، وأحوال الوزراء والكتاب والشعراء ومشاهير الأمة والأعيان من أهل كل علم، والمقدّمين في كل فن، والمبرزين في كل صنعة، واسماء الكتب المصنّفة والمجاميع المؤلّفة، وإجادة النظر في معرفة الخطوط، والإمام بكتابة المكاتيب الحكمية والشروط، الى معرفة الامثال الجاهلي منها

(١) حال الجريض دون القريض، مثل قاله عبيد بن الابرص يوم مقتله.

(٢) هما أبو نواس، وابن هانيء الاندلسي. (٣) هما مهيار الديلمي والشريف الرضي.

(٤) تميم بن المعز الفاطمي. (٥) في الاصل: تباين.

والمولّد، والملوكي والسوقي، وأمثال الخواص والعوام، والعربي منها والعجمي، والأصل في ضرب كل مثل، مع اتقان قوانين الديوان مما لم يجمعه سواه، ولو تفرّد بواحد منه لكفاه، وبه انتفع كتاب زمانه، وتخرجوا عليه، وتدرّبوا بين يديه، أخذ الفقه عن ابن المنجا، والنحو عن ابن مالك، والأدب عن ابن الظهير، وتنقل في الوظائف وطلبه عمّي الى الديار المصرية بعد محيي الدين بن عبد الظاهر على معلومه، وكتب بين يدي الوزير ابن السعلوس، وقلّ ان كُتِبَ مدّة مقامه بالحضرة مهم جليل إلاّ من إنشائه، وعيّن لقضاء الحنابلة بمصر، فامتنع حتى بعث الى دمشق صاحباً لديوان الانشاء، وأقام بها حتى مات، ومن تصنيفه كتاب «حسن التوسل الى صناعة الترسل»^(١) و«منازل الاحباب»^(٢) و«أهني المنائح في أسنى الممادح»^(٣)، من نظمه في المديح الشريف النبوي زاده الله شرفاً، ولم يكن مثله في إعطاء كل مقام حقه موقى من غير زيادة ولا نقص، / ٣٠٤ / وذكر ملاحم الحروب على افراط التهويل في دقة الغزل للطف تخيّل ورقة تخيله واستعاراته وغرائب تشبيهاته.

ومن ثره قوله في توقيع لابن جماعة بتدريس المدرسة المجاورة للشافعي:

وهو يعلم أن ذكر هذه البقعة سار في الآفاق، جارٍ على السنة الرفاق، عال على قدر شامية الشام ونظامية العراق، وانها جمعت من العلماء أعلاماً، ومن الامة أئمة لولا شرف البقعة لتفرقوا في الأرض هداة وحكاماً، فلا يقف في العلم عند غاية، ويجد في طلب النهاية، وإن لم يكن للعلم نهاية، وليمثل نفسه ماثلاً بين يدي من نُسبت إليه، ويقيم روحه مقام من جَلَسَ للقراءة عليه، وليبث ما استودعه من اسرار مذهبه ليسبر عنه من معدنه، وينقل الفضل الى الأوطان من مظنته وموطنه، وليلق بها عصا السرى، فانها منزلة لا ينوي من بلّغها سيراً، وليحمد الله على ما وهبه من بضاعته، فإنه من يرد الله يرد به خيراً.

ومنه قوله في تقليد وزير:

وليبدأ بالعدل، فإن الله قدمه على الإحسان، وحلّى به أيامنا، ويجانب الظلم وأهله، فإن الله أرفه بمحوه من الوجود سيوفنا وأقلامنا، ويقرنه بالاحسان فإن الله رفع بهذا منار ملكنا، وأعلى بذنا أعلامنا، ويمدّ خزائن الاموال بكنون تدبيره، ويعد

(١) نشر ببغداد بتحقيق اكرم عمان يوسف، ١٩٨٠.

(٢) مخطوط في ليدن وبرلين والمتحف البريطاني، ومختصر في غوطا.

(٣) نشر في جريدة الشورى.

لمهمات الدولة القاهرة ذخائر تصرفه الجميل، وحسن تأثيره، وليزن ذلك بالرفق المثبت فإنه مع الخبرة أجدى من العنف وأجدر، وإذا رام المنبت بلوغ الغاية، فإن المثبت أقوى منه على ذلك وأقدر، فإن النماء مع العدل كفرسي رهان، وليس الخبير من حصّل الأموال بالظلم، بل من حصلها والحقّ عزيز والباطل مهان، وليتحرّ الحق المحض فيما أمرَ بأخذه رفقاً، ويناقد على حقوق بيت المال فإنهما سواء من أخذ لغيره باطلاً أو ترك له حقاً، وليجتهد في عمارة البلاد، فانها على الحقيقة معادن الأرزاق وكنوز الأموال التي لا ينفدها الانفاق.

ومنه قوله :

وقلّدت مهابتنا سيفاً يلمع مخايل / ٣٠٥ / النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل الى قبض النفوس، عرف الاجل قدره فوقف عند حده، ومتى جرّده على ملك من ملوك العدا وهنت عزائمهم، وعجز جناح جيشه ان تنهض به قوادمه، وعلم ان سيفنا على عاتق الملك الأغر نجاهه، وفي يد جبار السماوات قائمه.

ومن قوله :

وسرنا بالجيش الذي لا يدرك الطرف حده ولا الوهم عدّه، وكأن ذوائب السحاب عذب بنوده، وكأن شوامخ الآكام مناكب أبطاله مواكب جنوده، وما قصد عدوا إلا ونازلهم قبل خيلهم خياله، وقضى عليهم وعدّه ووعدّه، قبل ان ترهف استته أو ترعف نصاله، وإذا لمع حديدّه وخفقت عذبه وبنوده، قيل هذا غمامٌ تلهّبت بوارقه، ودمدمت صواعقه، أو بحرٌ تلاطمت أمواجه، أو سيل غصت به فجاجه، وعكس اشعة الشمس اضطرابه وارتجاجه، وما علا جبلا إلا وألحق صعوده إليه جريه بالصعيد، وما منع الريح مواجهته إلا لتسمع صهيل خيله بأقصى الروم من أقصى الصعيد.

ومنه قوله :

وما رهج العدو المخذول بالحركة، ورمى الصيت، فإنّ عدّة العاجز الصياح، وقوة الجبان في القول، والقول يذهب في الرياح، وقد علموا أنهم ما قدموا إلينا إلا وكان أحدّ سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النجاح وكان لهم في غير الحياة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والعاجز لا يهولُه كثرةُ الغنم، ويستكثرون من السواد ووجود من لا ينفع أشبه شيء بالعدم، فقوتهم ضعيفة، ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حل العقال، وصبرهم أسرع من الظل في الانتقال، وخيولهم لا تطيع أمر أعنتها إلا في الفرار، ورماحهم لا تحمل كلّ أسنتها إلا للخور والانكسار، وسهامهم لا عهد لها بالمقاتل، وصفاحهم كلّ شيء من القصب غيرها يمكن وصفه بأنه قاتل، فإن

دلّاهم الشيطان بغروره فسيبراً منهم سريعاً، وان اطعمهم في اللقاء /٣٠٦/ فستردهم
كلام سيوفنا كأقسام الكلام الثلاثة هزيماً أو أسيراً أو صريعاً.
ومنه قوله برسالة طردية^(١):

لا زال يُمَنُّه يستنزل العصم من معاقلها، ويُسمع السهام الضمَّ ما تُحدِّثُ به
حركات الطير عن مقاتلها، ويُلجئُ صوادي^(٢) الوحش الى سُيوف أوليائه لترقرق^(٣)
ماء الفِرْنِدِ فيها بمناهلها، وينهي^(٤) انه سار الى ما واجه وجه إقباله^(٥) متيمناً بسعدِهِ
الذي ما بَرِحَ يعتلِقُ بحباله ومعهُ من الجوارح كلُّ بازي شديد الأسر، صحيح على ما
اتصَفَ به من الكسْرِ، ينظر من بهار، ويخطر في ليل رقم به أديم نهار، ذي رأس
مُدَبِّجٍ ورأس مُتَوَجِّجٍ، ومُخَلَّبٍ خطوف ومُنَسَّرٍ كصدغ^(٦) معطوف، أسرع من هوج
الرياح، وأقتل^(٧) من عوج الصفاح، ينحطُّ على الطير من عل، ويسبق الى مقاتل
الوحش كل رام من بني ثعل، ومن الضواري كلُّ حام أسبق من السهم وأخفى في^(٨)
الوثبة من الوهم، ذي صدر^(٩) مجدول وساعِدٍ مفتول، وأنياب عصل^(١٠)، وظفر أقطع
من النصل، ومن الفهود كلُّ أهرتِ الشدق، ظاهر الحدق^(١١)، بادي العبوس، مدير
الملبوس، شثن البرائن، بأنياب^(١٢) كالمدي، ومخالب كالمحاجن، قد أخذَ من
الفلق والغسق^(١٣) إهابا وتقمص من السماح والبخل^(١٤) جلبابا، يُضرب المثل في
سرعة وثوب الأجل به ويُشبهُهُ، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزاة، لا تطلع على
وجهه، يسبق الى الصيد مرامي طرفه، ويفوت لحظ مرسله إليه، فلا يستعمل^(١٥) النظر
إلا وهو في كفه، وتقدّمه الضواري الى الوحش، فإذا وثب له تعثرت من خلفه،
ومعنا غلَمَةٌ نَحْنُ بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابة شواكل المُراد من كلِّ ما ذُكر
أحدق^(١٦)، إذا أخذ كل منهم حنيتَهُ أَرانا القمر في القوس، وإن نظم رميته قيل: هذا
حبيب وإن لم يكن ابن أوس، فما لاح طائر إلا ولهُ من السهام أجل، ووراء من

(١) حسن التوسل: ص ٣٤٧. (٢) في حسن التوسل: هوادي.

(٣) في حسن التوسل: تشبيهاً لترقرق. (٤) في حسن التوسل، ونهْي.

(٥) في حسن التوسل: انه سار الى الصيد ميمماً وجه إقباله.

(٦) في حسن التوسل: لصدغ. (٧) في حسن التوسل: وأقل.

(٨) في حسن التوسل: عند. (٩) في حسن التوسل: خصر.

(١٠) في حسن التوسل: قتل، وهو تحريف. (١١) في حسن التوسل: الحدق.

(١٢) في حسن التوسل: ذي أنياب. (١٣) في حسن التوسل: القلق والضيق.

(١٤) في حسن التوسل: وتقمص من نُجل الحدق.

(١٥) في حسن التوسل: يستكمل. (١٦) في حسن التوسل: يحذق.

رجل الجوارح زجل، إن اخطأ هذا اصاب هناك، وربما كان لهما استهام في تحصيله واشتراك، وإن سنح وحش، / ٣٠٧ / فالسهام أدنى الى وريده من قِلادة جيده، فإن فات فالكلب أعرف باختلاسه منه بكناسه، وأسرع الى احتباسه من رجوع أنفاسيه، وإلا فالفهد أسرع الى لحاقه من أجليه، وألزم لعنقه لو كان يعقل من عمله، وظللنا بين قدير معجل وقديد مؤجل [من الطويل]

نَمْشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ كِفَوفِنَا^(١)

ونقري من صواف الطير وأصناف الوحش ضيوفنا، وكنا بين صيدٍ تحصّل وآخر يترقب، وغدونا [من الطويل]

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأُزْحَلْنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يَثْقُبِ
وقد أرسلنا إليه من ذلك ما يتحقق به ان يمتنه أمارنا وأورى نارنا، ويستدل به على حسن ظفرنا في سفرنا وأنارة توفيقنا في طريقنا، والله تعالى لا يخلي منه مكان تأيد، ويبلغه من السعادة فوق ما يريد.
ومنه قوله:

وإن المخدولين أقبلوا كالرمال واصطفوا كالجبال، وتدفقوا كالبحار الزواخر، وتولوا كالأموج التي لا تعرف لها الأول من الآخر، فصدتهم جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم، وعلمت الطير أكلهم، وحصرتهم في الفضاء، وطالبت أرواحهم الكافرة بدين دينها، فأسرفت في القضاء، وحصدت سيوفنا المنصورة ما يخرج عن وصف الواصف وكانوا: ﴿كِرْمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٢)، وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم ينج منهم إلا من لا يؤبه لهم من فريقهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيدة من الفلوات الى الفرات بين القتل والاسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غير غريقهم، واعقتهم تلك الكسرة ان هلك طاغيتهم أسفاً وحسرة، وحزنا على من قتل من تلك المقاتلة وأسر من تلك الآسرة، وأماته الرعب من جيوشنا المنصورة فجأة، واستولى عليه الوجل، فجاءه من أمر الله ما جاءه.

ومنه قوله مما كتب بمآل مهلك سيس:

وتبادر إلى الطاعة قبل أن نبذلها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل ان يرتفع

(١) من قول امرئ القيس:

نَمْشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ اكْفُنَا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءِ مَضْهَدٍ

(٢) سورة إبراهيم: ١٨.

دونه فلا تُسَبَّل / ٣٠٨ / وتعجّل بحمل أموال القطيعة، وإلا كان أهله وأولاده في جملة مَنْ يحمل الينا، ويسلم ما عدا عليه من فتوحنا، وإلا فهو يعلم انها وجميع ما تأخر من بلادِهِ بين أيدينا.

ومنه قوله: (١)

هذه المكاتبة الى فلان لا زال مأمونَ الغرة، مأمول الكربة، مجتنباً حُلُوَ الظفر من كِمام تلك المرة المرة، راجياً من عواقب الصبر ما يسفر له مساءً تلك المساءة عن صبح المسرة (٢)، واثقاً من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة، أصدرها وقد اتصل به نبأ ذلك المقام، الذي أوضحت فيه السيوف عُذرها، وأبدت به الكمأة صبرها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها، وبذلت في الأبطال من الجلاذ جهدها ولكن لم يكن الظفر إليها، وكان عليهم الأقدام على غمرات الحرب الزبون والاصطلاء بجمرات المنون، ولم يكن عليهم إتمام ما قدر أنه لا يكون، فكابرت رقاب الأعداء في ذلك الموقف السيوف وكاثرت أعدادهم الحتوف، وتدققت بحارهم على جداول من معه، ولولا حكم القدر لانتصفت تلك الأحاد من تلك الالوف، فضاقت بازدهام الصفوف على رحاله (٣) المجال، وزاد العدد على الجلد فلم يُفد الاقدام على الأوجال مع قدوم الآجال، وأملي للكافرين بما قدر لهم من الإنظار، وحصل لهم من الاستظهار، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام على (٤) [ما] ألفوه من الفرار ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٥) وقد ورد أنهم ينصرون كما ننصر، وإذا كانت الحروب سجالاً، فلا يُنسب إلى مَنْ كانت عليه إذا اجتهد ولم يساعده القدر، انه قصر، مع انه قد أشهر بما فعله في مجاله من الذب عن رجاله، وما أبداه في قتاله من الضرب الذي ما تروى فيه خصمه إلا بדרه بارتحاله، وأن الرماح التي امتدت إليه أحرست سيفه ألسنة أستتها، والجياد التي أقدمت عليه جعل طعنه أكفالهها مكان أعنتها. [من الطويل]

فأثبت في مستنقع الموت رجله (٦)

(١) حسن التوسل ص ٣٨٥.

(٢) في حسن التوسل: أن يسفر له تلك المساءة عن صبح المسرة.

(٣) كذلك في حسن التوسل: ولعلها رحابه. (٤) في حسن التوسل: عما.

(٥) سورة البقرة: ٢٥١.

(٦) تضمين لقول أبي تمام: [من الطويل]

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت اخمصك الحشر

ووقف وما في الموت شك لواقف^(١) / ٣٠٩ / ليحمي خيله ورجله حتى تحيّر أصحابه الى فئة مأمينهم، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدّر من سرعان القوم، أو ظهر من مكمنهم، وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر إذ فاته النصر^(٢) والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد، فقد فيه من أعدائه مع ظهورهم الوف لا يدركهم الحصر، وكذا فليكن قلب الجيش، كالقلب يقوى بقوته الجسد، واذا حقق^(٣) اللقاء فلا يفرّ عن كناسه إلا الطيبي ولا يحمي عرينه إلا الأسد، وما بقي إلا أن تعفو الكلوم وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح وتبرأ من فلول^(٤) المضارب صدور الصفايح، وتنهض لاقتضاء ذين الدين من غرمايه المعتدين، وتبادر الى استنجاز وعد الله، فإن الله يمحص المؤمنين ويمحق الكافرين، والليث إذا جرح كان أشدّ لثباته وأمدّ لوثباته، والموتور لا يُصطلى بناره، والثائر لا يهرب الاقدام على المنون في طلب ثاره، والدهر ذو دُول، والزمان مُتَلَوْن، إن دَجَّتْ عليكم منه بالقهر ليلة واحدة، فقد أَشْرَقَتْ لكم فيه بالنصر ليالٍ أول، فالمولى لا يلتفت الى ما فات، ويقبل^(٥) بفكره على تدبير ما هو آت، ويُعدُّ للحرب عدته، ويُعجل أمد الاستظهار ومُدته، ولا يؤخر فُرصة الإمكان، ولا يعد ذكر ما مضى فإنه دَخَلَ في خبر كان، ولا يُظهِر بما جرى عجزاً، فإن العاجز من ظن انه يصيب ولا يُصاب، ولا يتخذ غير ظهر^(٦) حصانه حصناً فلا حرز أمتع من سهوة الجواد، ولا سلم أسلم من الرّكاب، وليعلم ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٧)، ويدرع جنة الصبر ليكون من النصر على ثقة ومن الظفر على يقين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٨)، ومن كان الله معه كانت يده الطولى، وإذا لاقى عدوّ الله وعدوّه فليصبر بحملته فإن الصبر عند الصدمة الأولى، والله تعالى يكلؤه بعينه ويمدّه بعونه، ويجعل الظفر على عدوّه موقوفاً على مُطالبته له بدينه.

ومنه قوله في مثله على الطريق المعتاد في ذم المهزوم: ^(٩)

- (١) حل لبيت المتنبي (ديوانه: ص ٣٨٧): [من الطويل]
وقفت وما في الموت شك لواقف
كانك في جفن الردى وهو نائم
- (٢) إشارة لقول أبي تمام: [من الطويل]
فتى مات بين الضرب والطعن موة
تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
- (٣) كذا في الاصل، ولعلها حق كما في حسن المحاضرة، وهي أفصح.
- (٤) في الاصل: قلوب، وهو تصحيف، واثبت في ما في حسن التوسل.
- (٥) في حسن التوسل: ويقل.
- (٦) في حسن التوسل: ولا تتخذ ظهر حصانه.
- (٧) هود: ٤٩.
- (٨) البقرة: ١١٥.
- (٩) حسن التوسل: ص ٣٨٧.

/٣١٠/ هذه المكاتبة الى فلانٍ أقالهُ اللهُ عشرة زلّته، وأقامهُ من حفرة ذلّهِ، وتجاوزَ لَهُ عن كبيرة^(١) فرارِهِ من جمع عدوّهِ على قَلَّتِهِ. بَلَّغْنَا أمرَ الواقعة التي لقي فيها العدوَّ بجمع قليلٍ غناؤُهُ، ضعيفٍ بناؤُهُ، كثيفٍ في رأي العين جَمْعُهُ، خفيفٍ في المعنى وقَعُهُ ونَفَعُهُ، أسرعَ في مفارقة المجال من الظلِّ في الانتقال، وأشبهه في مُماتلة الوجود بالعدم من طَيْفِ الخيال، يحقّقون منه بقلب واجب، ويهتدون من تجريبه وتهذيبه برأي بينه وبين الصواب حاجب^(٢)، ويأتّمونّ منه بمقدم يرى الواحد من عدوّهِ كألف، ويتسرّعونّ منه وراء مقدّم^(٣) يمشي الى الزحف ولكن إلى خلف، جناح جيشه مهيضٌ، وطرف سنايه غضيضٌ، وساقه عسكره ضالعة^(٤)، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة، تأسف السيوف بيمينه على ضارب، وتأسى الجنائب حوله إذ تُعدّ لمحارب فتغدو لهارب، وإنّه حين وقَعَتِ العين على العين، وأيقنَ عدوّهُ لما رآه من عدوّهِ وعُدّدِهِ بمعالجة الحين، أعجلَ نُصُولَ العدا عن وُصولِها، وترك غنيمة الظفر لِعِداهُ بعد أن أشرف على حُصولِها، تُناديه ألسنة الأسنّة: الكرّة الكرّة، ولا يلتفت الى نِدايها، وتَشْكُو له سيوفه الظمأ وقد رأَت موارد الوريد فيعيدها الى الغمود بدائها، فَمَنَحَ عدوّهُ مقاتِلَ رجالِهِ، وأباحهم كرائم مال جنده ومالِهِ، وخلاّ لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم، فأضَبَحَت معدّة لقتالِهِ، فنجا منجى الحارث بن هشام^(٥)، وآب بسلامة أعذب منها لو عقَلَ شُرب كأس الحمام، واتّسَم بين أوليائِهِ وأعدائِهِ بسمية الفرار، وكان يقال: النار ولا العار، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار وعاد بجمع موفورٍ من الجراح، موقر^(٦) من الاثم والاجتراح^(٧)، لا عِلْمَ بما جرى عند أسيافهم، ولا شاهدٍ بمُشاهدتهم الوغى غير مواقع الطيبي في أكتافهم، فبأيّ جنانٍ يَظْمَعُ في مُعاوِدَةِ عدوّهِ، وهذا قلبه، وهؤلاء حِزْبُهُ؟ وذلك القتال قتاله^(٨)، /٣١١/ وتلك^(٩) الحرب حربهِ، وبعد، فإنّ كانت^(١٠) له حمية تظهر^(١١) آثارها، أو أريحية

(١) في الاصل: كبير، وأثبت ما في حسن التوسل.

(٢) في حسن التوسل: ألف حاجب. (٣) في حسن التوسل: مقدم.

(٤) في حسن التوسل: ظالته.

(٥) الحارث بن هشام المخزومي، كان شريفاً مذكوراً، شهد بداراً مع المشركين، فكان فيمن انهزم مغيره

حسان بن ثابت فقال: [من الكامل]

إن كنتِ كاذبةً الذي حدّثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام

انظر: نسب قريش ص ٣٠١.

(٦) في حسن المحاضرة: موقور.

(٨) في حسن التوسل: قباله.

(٩) في الاصل: وذلك، وأثبت ما في حسن التوسل.

(١٠) في حسن التوسل: فستظهر.

(١١) في الاصل: كان.

فتشبت^(١) نارها، أو أنفة^(٢) فستحمله على غسل هذه الدنية وتبعته على طلب غايتين، إما شهادة مريحة أو هنية^(٣) والله تعالى يوقظ عزمه من سنته، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته.

ومنه قوله:

فكم ملّ ضوء الصبح مما يغيره، وظلام النقع مما يثيره، وحديد الهند مما يلاطمه، والأجل مما يسابقه الى قبض الأرواح ويؤاجمه.

ومنه قوله:

وكفى السيوف فخراً أنها للجنة ظلال، وإلى النصر مآل، وإذا كان من بيان الحديث سحر، فإن بيان حديثها عمّن كلمته هو السحر الحلال.

ومنه قوله في قريب من معناه:

حسبُ ألسنة الأسته شرفاً، أن كشف خبايا القلوب يذمُّ إلا منها، وأن بثَّ أسرار الضمائر تكره روايته إلا عنها، فمكرر حديثها في ذلك لا يفضي الى الحلال، وإن لم يكن حسن حديثها الذي يسحر الألباب مما يحلّ فليس في الحديث سحرٌ حلال.

ومنه قوله في قريب من معناه إلا انه جعله في البلاغة:

البلاغة تُسحرُ الألباب، حتى تحيل العرض جوهراً، أو تحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعدوبته في الذوق نهراً، لكنه سحر لم يجن قتلَ المسلم المتحرّز^(٣) فتأوّل في حلّه، وإذا كان من الحديث ما هو عقلة المستوفز، فهذا أنشودة نشاطه البليغ، وحل عقال عقله.

ومنه قوله:

خطفهُ شرك للعقول، وفتنة تُشغل المطمئن بملاحة المرأى المكتوب عن فصاحة المسموع المقول، ولو لم يكن البيان سحرأ، لما تجسّدت منه في طرسها هذه الدرر، ولو لم يكن بعض السحر حلالاً، لما انجلى ظلام النفس عما يهدي به من هذه الأوضاح والغرر.

(١) في حسن التوسل: فستشبت.

(٢) في حسن التوسل: أو حياة هنية.

(٣) تضمين لقول ابن الرومي: [من الكامل]

لم يجر قتلَ المسلم المتحرّز
للمطمئن وعقلة المستوفز

وحديثها السحر الحلال لو أنه
شرك العقول ونزهة ما مثلها

ومنه قوله مما كتب به الى أمير سرية^(١):

ولا زال أخف في مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى في مطالبه من زورة طيف /
 ٣١٢/ وأسرع في تنقله من سحابة صيف، وأروع للعدا في تطلعه من سلّة سيف،
 حتى تعجّب عدوّ الدين في الاطلاع على عوراته، من اين دُهي وكيف؟ ويعلم ان أول
 قسمة^(٢) اللقاء حصل عليه في مقاصده الحين، أصدرناها إليه تحته على الركوب
 بطائفة أعجل من السيل، وأهول من الليل، وأيمن من نواصي الخيل^(٣)، وأقدم من
 النمر، وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر، وأزوع في مُحاطلة العدا من الذئب
 الحذر، على خيل تجري ما وَجَدَت فلاة، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة أو
 أناة، تتسّم الجبال الصمّ كالوعل، وإذا جارتها البروق غَدَت وراءها تمشي الهوينى
 كما يمشي الوجي الوحل^(٤)، وليكن كالنجم في سراهُ وبعْدِ ذُراه، إن جرى فَكَالهُمّ،
 وإن خَطَرَ فَكَالوهُمّ، وإن طلب فكالليل الذي هو مُدرك^(٥)، وإن طَلِبَ فَكَالجَنّة التي لا
 يَجِد ريحها مُشرك، حتى يأتي على عدوّ الدين من كلِّ شَرَف، ويرى جمعه من كل
 طَرَف، ولا يسرف في الإقامة عليه، إلا إذا علم ان الخير في السرف، وليحرز
 جمعهم، ويسبق الى التحرز منهم بصرهم وسمعهم، وينظرهم بعين منَعها الحزم ان
 ترى العدد^(٦) الكثير قليلاً، وصدّها العزم ان ترى العدد الحقيق جليلاً. بل ترى الأمر
 على قصّه، وتروي الخبر على نصّه، وإن وجد مغروراً^(٧) فليأخذ خبره، وإن على قدر
 الإتيان بعينه، وإلا فليذهب أثره، ولا يهيج فيما لديه نَار حربٍ إلا بعد الثقة بأطفالها،
 ولا يوقظ عليه عين عدوّ، مهما ظهر له ان المصلحة في إغنائها، وليكشف عن
 أمورهم ما يُبدي عند الملتقى عورتهم، ويُخمد في حالة الزحف فورتهم، وليجعل قلبه
 في ذلك ربيّة طرفه، وطليعة طرفه وسرية كشفه، والله تعالى يمده بلطفه، ويحفظه
 بمعقباتٍ من بين يديه ومن خلفه.

(١) حسن التوسل ص ٣٣١ ونهاية الارب ١٩٠/٧ .

(٢) في حسن التوسل: ويعلم أنّ مَنْ أَوَّل قِسْمَتِهِ.

(٣) اشارة للحديث النبوي الشريف: الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة.

(٤) من قول الاعشى: [من البسيط]

غراء فراء مصقول عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجل

(٥) حل لبيت النابغة (ديوانه ٧١): [من الطويل]

فلنك كالليل الذي هو مُدركي وأن خلئت ان المنتأى عنك واسع

(٦) في حسن التوسل: العدو. (٧) في حسن التوسل: مغرراً.

ومما كتب الى نواب بعض الثغور^(١):

أصدرناها ومناذي النفير^(٢) قد أعلن بيا خيل الله اركبي^(٣)، ويا ملائكة الرحمن / ٣١٣ / اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب^(٤) الى العدا، والهيمم قد نهضت إلى عدو الاسلام، فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أُنْفَت من العُمود فكادت تَنْفُر من قُرْبها، والأسنة قد ظممت إلى موارد القلوب فتشوّقت إلى الارتواء من قُلبها، والكمة قد زأرت كالليوث إذا دنت فرائسها، والجياد وقد مَرَحَت لِمَا عَوَدَتْهَا من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها، والجيوش، وقد كاثرت^(٥) النجوم أَعْدَادها، وسايرتها للهجوم على أعداء الله من ملائكتيه الكرام أمدادها، والنفوس قد أَضْرَمَت الحمية للدين نار غَضَبها، وعداها حرُّ الاشفاق على ثغور المسلمين عن بَرِد الثغور وطيب سَنَبها، والنصر قد أَشْرَقَتْ في الوجود دلائله، والتأييد قد ظهرت على الوجوه مخائله، وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله، والألسن باستنزال نصر الله لهجة، والارجاء بأرواح القبول أَرْجَة، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبهجة، والحمأة وما منهم إلا مَنْ استظهر بإمكان قوته وقوة امكانه، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه، بل عن مكانه، والنيات على طلب عدو الله حيث كان مُجتمعه، والخوطة مُطْمِئنة بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع الله كان الله معه، وما بقي إلا طيُّ المراحل، والنزول على أطراف الثغور نزول^(٦) الغيث على البلد الماحل، والإحاطة بعدو الله من كل جانب، وإنزال نفوسهم على حكم الأمرين الأمرين من عذاب واصب^(٧) وهم ناصب، وإحالة وجودهم الى العدم، وإحالة السيوف التي ان أنكرتها أعناقهم، فما^(٨) بالعهد من قدم، واصطلامهم على أيدي العصاة المؤيدة بنصر الله في حربها، وابتلاؤهم من حملاتها بريح عاد^(٩) التي

(١) حسن التوسل: ٣٣٣، ونهاية الارب ١٩١/٧، وصبح الاعشى ٢٤٨/٨.

(٢) صبح الاعشى: النصر.

(٣) «يا خيل الله اركبي» حديث نبوي شريف سنن ابي داوود ٣٩/٣.

(٤) صبح الاعشى: الركض. (٥) في حسن التوسل: والجيوش كاثرت.

(٦) في حسن التوسل: ونزول.

(٧) في الأصل: واصل، ولعلها تحريف، وفي حسن التوسل: واجذب، والصحيح ما أثبتناه.

(٨) فما: ليست في حسن التوسل.

(٩) اشارة لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة/٦].

تدمر كل شيء بأمر ربها، فليكن مترقباً^(١) لطلوع طلائعها عليه، متيقناً من كرم الله تعالى / ٣١٤ / استئصال عدوه الذي إن فرّ أدركته من ورائه، وإن ثبت أخذته من بين يديه، وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وضمها، وجمع سوام الرعايا من الأماكن المخوفة ولمها، وإصلاح ما يحتاج الى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورّمها، فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الاسلامية وأهمها، فكأنه بالعدو، وقد زال طمعه وزاد ظلعه، وذم^(٢) عقبى مسيره، وتحقق سوء منقلبه وضميره^(٣)، وتبرأ منه الشيطان الذي دلّاه بغروره، وأصبح لحمه موزعاً بين ذئاب الفلاة وضباعها، وبين عقبان الجوّ ونسوره، ثقة من وعد الله الذي تمسكنا منه باليقين، وتحققنا^(٤) أن الله ينصر من نصره، وأن العاقبة للمتقين.

ومنه قوله:

هذه المكاتبة إلى فلان أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدق الصفاح وألسنة الرماح سره، وأراه من عواقب صنعه الجميل ما يتحقق به ان كسوف الشمس لا تنال طلعتها، وأن سرار القمر لا يضره، توضّح لعلمه انه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها اللقاء، وصدمننا العدو صدمة من لا يحبّ البقاء، وأريناه حرباً لو أعانها التأيد فلت جموعه، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه، وحين شرعت رياح النصر تهبّ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوّب وتصبّ، وكرعت الصفاح في موارد نحورهم، وكشفت الرماح خبايا صدورهم، ولم يبق إلا ان تستكمل سيوفنا الريّ من دمائهم، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم، وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه. وتكف بالقبض يد من البسته الجراح حلّة عندهم، أظهروا الجزع في عزائمهم، وحكّموا الطمع في غنائمهم، فحصل لجنودنا إعجاب أعجل سيوفنا ان تتم هدم بنائهم، وطمع منع فوارسنا ان تكف عن النهب الى أن / ٣١٥ / تصير من ورائهم، فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان: العجب والطمع، وانتهاز فرصة الكرة التي أعانها عليها المطعمعان: إبداء الهلع وتخلية ما جمع، فانتشر من جمعنا بعض ذلك العقد المنتظم، وانتقض من حزبنا ركن ذلك

(١) في حسن التوسل: مترقباً. (٢) في حسن التوسل: ذمّ.

(٣) كذا ولعلها تحريف. وفي حسن التوسل: مصيره وهي أفصح.

(٤) في حسن التوسل: تمكناً.

الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم، وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم، وأرباب البصائر في دينهم، فكسرنا جفون السيوف، وحططنا صدور الرماح في صدور الصفوف، وأرينا تلك الألوف كيف تعدُّ الآحاد بالألوف، وحلُّنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطماعهم، ويردّ سراعهم، ويعمي ويصمّ عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم، إلى ان نفْسنا للمنهزم عن خناقه، وأياسنا طالبه من لحاقه، ورددناه عنه خائباً، بعد ان كانت يده متعلقة بأطواقه، وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا، ورأى مِنّا جدّاً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا، وعادوا وكنا في قلوبهم رعباً بيّتهم وهم الغالبون، ويدركهم وهم الطالبون، ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون، وقد لَمَّ الخادم شعث رجاله، وضَمَّ فرقهم بذخائر ماله، وأمدهم بنفقات جلت أحوالهم، وأطلَقَتْ في طلب عدوهم أقوالهم، وسلاح جدّد استطاعتهم، وأعان شجاعتهم، وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم، وتحضّمهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهم في أجر رواحهم وغدوهم، وقد نضوا رداء الاعجاب عن اكتافهم، واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلدتهم ولا بحدة أسيافهم، وسيعجلون العدو إن شاء الله عن إندمال جراحه، ويتعجلون إليه بجيوش تسوؤه طلاعتها في مسائه، وتصبّحه كتائبها في صباحه، والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا، ولا ينزع أعنته نصره من يدنا.

ومنه قوله^(١) مما كتبه^(٢) على لسان مولود إلى أبيه، ولم يكتب به:

يقبَل الأرض ابتداءً بالخدمة من حين ظهر إلى الوجود، وتشوقاً / ٣١٦ / إلى امْتِطَاءِ سهواتِ الجياد بين يدي سيده قبل المُهُود، وتمنياً^(٣) أن يكون أول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلقو بنظره الجدود، وتتميم برؤيته كواكب السُعود، ويُنهى أنّه يعجّل الشوق على صِغَرِهِ، وكأن كمال المسرة به أن يَقَعْ نظرُ مولانا الشريف عليه قبل البشري بِخَبْرِهِ، لتلقى عليه أشعة سعادة مولانا في ساعة ظُهورِهِ، ويكسى قبل أن تُلقى عليه الملابس من إشراق مُحيّاهُ حُلَلِ نورِهِ، ويكون أول ما يَلِجُ مَسامِعَهُ صَوْتُ مولانا يحمّد ربّه، على الزيادة في خُدْمِهِ، وتكثير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه، ويقف في السُّلمِ أمامَهُ على قديمِهِ، فإنَّ مَنْ يكون نُجَلِّ مولانا تَنطِقُ بالتَّجابهة مخايِلُهُ، وتدلُّ على الشجاعة سِماتُهُ، قبل أن تدلَّ عليها شمائلُهُ، والهلالُ سيصير في أُنْفِهِ بدرأ منيراً، والشبل

(٢) لعلّه اراد: مما قاله.

(١) حسن التوسل: ص ٣٩١.

(٣) في حسن التوسل: وتيمناً.

سيعود كآبيه أسداً هَـصُوراً، والله تعالى يَهَبُ العبدَ عمراً يبلُغُ به من طاعة مولانا ما يَجِبُ عليه، ويرزقه عملاً صالحاً يتقرب به الى ربه وإليه.

ومنه قوله^(١): رسالة كتبها في البندق:

الرياضة - أطل الله بقاء الجناب الفلاني، وجعل حُبّه كقلب عدوّه واجباً، وسَعَدَهُ كوصفِ عَبدِهِ للمسارِ جالباً، وللمضارِ حاجباً - تَبَعْتُ النفسَ على مجانبة الدَّعةِ والسُّكونِ، وتصوئُها عن مشابهة الحمائم في الركون الى الوكون، وتحضُّها على أخذِ حَظِّها من كُلِّ فَنٍّ حَسَنٍ، وتحضُّها على إِصَافَةِ الأدواتِ الكَامِلَةِ، الى فصاحة اللّسين، وتأخذُ بها طوراً في الجِدِّ وطوراً في اللَّعِبِ. وتُصَرِّفُها في مَلاذِّ السُّمُوِّ في المشاقِّ التي يَسْتَرُوْحُ اليها التَّعبُ، فتارةً تَحْمِلُ الأَكابرَ والعِظماءَ^(٢) في طلب الصيد على مواصلة السرى، ومقاطعة الكرى، ومهاجرة الأوطار، ومهاجمة الأخطار، ومكابدة الهواجر، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يَدُمُّ المعرض عنها، وإذا كان المقصودُ من مِثْلِهِم جَدُّ الحربِ، / ٣١٧ / فهذه صورة لَعِبٍ يُخَرِّجُ اليه منها، وتارةً تدعوهم الى البروزِ الى المَلَقِ، وتحدوهم في سلوكِ طريقهم^(٣) مع من هو دونهم على مُلازمة الصِّدقِ، ومُجانبَةِ المَلَقِ، فيعتسفون اليها الدجى إذا سَجَا، ويقتحمون^(٤) جرف النهار إذا انهار، ويَتَنَعَّمون بوعثاءِ السَّفَرِ في بلوغِ الظَّفَرِ، ويستصغرون رُكوبِ الخطرِ في إدراكِ الوطرِ، ويؤثرون السَّهَرَ على النومِ، والليلةَ على اليومِ، والبُنْدُقَ على السَّهَامِ، والوحدةَ على الالتيامِ، ولَمَّا عُدْنَا من الصِّيدِ الذي اتصل بعلمِهِ حديثُهُ، وشرحَ له قديم أمرِهِ وحديثِهِ، ثُقْنَا الى ان نَشْفَعُ صيد السوانح برمي الصَّوادحِ، وأن تُفعلَ في الطيرِ الجوانحِ بإهْلَةِ القسيِّ ما تُفعلُ الجوارحِ، تفضيلاً لملازمة الإرتحال على الإقامة في الرحال، وأخذاً بقولهم: [من البسيط]

لا يُصلِحُ النفسَ إذْ كانتْ مُدْبِرَةً إلا التَّنَقُّلَ مِنْ حَالٍ الى حَالٍ
فبرزنا وشمس الأصيل تجودُ بنفسها، وتُشيرُ من الأفقِ الغربيِّ الى جانبِ رُمسِها، وتُغازلُ عيُونَ النُّورِ بِمُقَلَّةِ أَرَمَدِ، وتنظُرُ الى صفحاتِ الوردِ نَظَرَ المَريضِ الى وجوهِ العُودِ^(٥)، فكأنها كَثِيبٌ أَضْحَى من الفراقِ على فَرَقِ، أو عليل يقضي بين

(١) حسن التوسل: ص ٣٥٣، وصبح الاعشى ٢٨٨/١٤.

(٢) في حسن التوسل: العظمة. (٣) في حسن التوسل: طريقهم.

(٤) بعدها في حسن التوسل: في بلوغها.

(٥) تضمين لقول النابغة الذبياني: [من الكامل]

نظرتُ إليك بحاجةٍ لم تقضِها نظرتُ المَريضِ الى وُجوهِ العُودِ

أصحابه^(١) بقايا مدة الرقي، وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهَمَّ الروضُ بخلع
حلتَه المموهة بذهب شعاعها: [من البسيط]

والطلُّ في أعينِ النوارِ تحسبُهُ دمعاً تحيرَ لم يرقاً ولم يكفِ
كلؤلؤٍ ظلَّ عطفُ العُصنِ مُتَشحاً بعقدِهِ وتبدى منه في شنفِ
يضمُّ من سُندسِ الأوراقِ في صُرِّ خُضِرِ ويُجني من الأزهارِ في صدَفِ
والشمسِ في طفَلِ الإماءِ [تنظر من]^(٢) طرفِ غدا وهو من خوفِ الفراقِ خفي
كعاشقٍ سارَ عن أحبابهِ وهفاً به الهوى فتراءهم على شرفِ
إلى أن نضا المغربُ عن الأفقِ ذهبَ قلائدها، وعوضه عنها من النجومِ بِخَدَمِها
وولائدها، فلبثنا بعد أداءِ الفرضِ لبثَ الأهلَّةِ، ومنَعنا جفوننا أن تردَّ النومَ / ٣١٨/
إلا تحلَّةً، ونهضنا وبردُ الليلِ مُوشَّعٌ، وعقدُهُ مرصَّعٌ، وأكليهُ مجوهرٌ، وأديمُهُ مُعَبَّرٌ،
وبدرُهُ في خدرِ سرارهِ مُستَكِنٌ، وفجرُهُ في حشا مطالعِهِ مُستَجِنٌ، كان امتزاج لونه
بشققِ الكواكبِ خليطاً مسكٍ وصندلٍ فكأن ثرياه لامتدادِهِ معلقةٌ بأمراسِ كتانٍ على
صمِّ جندل^(٣): [من الطويل]

ولاحت نجومُ الليلِ زهراً كأنها عُقودٌ على خودٍ من الزنجِ تُنظَّمُ
محلقةً في الجوِّ تحسبُ أنها طيورٌ على نهرِ المَجْرَةِ حومٌ
إذا لاحَ بازي الصُّبحِ ولتْ يؤمُّها إلى العَرَبِ خَوْفاً^(٤) منه نَسْرٌ ومرزُمٌ
إلى حدائقِ مُلتقَّةٍ، وجداولِ مُحتفَّةٍ، إذا جَمَشَ النسيمُ غصونها اعتنقت عناقِ
الأحبابِ، وإذا فزك من المياه متونها انسابت في الجداولِ انسيابِ الحُبابِ، ورَقَصَتْ
في المناهلِ رقصِ الحُبابِ، وإن لثم ثغورِ نورها حيته بأنفاسِ المعشوقِ، وإن أيقظ
نواعسِ ورَقها غنَّتهُ بألحانِ المشوقِ، فنسيمها وان، وشميمها لعرفِ الجنانِ عنوانِ،
ووردها من سهرِ نرجسها غيرانِ، وطلُّها في خُدودِ الوردِ مُنبِعثٌ وفي طررِ الرياحِ
حيرانِ وطائرها عَرْدٌ، وماؤها مُطرِدٌ، وغصنُها تارةً يعطفه النسيمُ إليه فينعطفُ، وتارةً
يعتدل تحت ورقائه فتحسبُ انها همزةٌ على ألفِ، مع ما في تلكِ الرياضِ من توافقِ

(١) في حسن التوسل وصبح الأعيى: صحبه.

(٢) ما بين معكوفين ليس بالأصل: وهي من حسن التوسل.

(٣) تضمين لبيت امرئ القيس: [من الطويل]

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتانٍ إلى صمِّ جندل
(ديوانه ١٥٢).

(٤) في حسن التوسل: خرفاً.

المحاسن، وتباين الترتيب، إذ كُلِّمَ اعتلَّ النسيم صَحَّ نشر الروض^(١) وكلَّمَا خرَّ الماء شَمخَ القضيب: [من الكامل]

وكانما تلك الغصونُ إذا انثنتُ أعطافها رُسُلُ الصِّبَا أحبابُ
فلها إذا افتَرقتُ من أستعطافِها صُلحٌ ومن سَجعِ الحمامِ عتابُ
وكانَّها حولَ العيونِ مَوائِساَ شَرِبُ وهاتيكِ المِياهُ شَرابُ
فَعَدِيرُها كاسٌ وعذبٌ نطافِها راحٌ وأضواءِ النجومِ حَبابُ

تحيط بِمَلقٍ^(٢) نطافُها صافٍ، وظلال ذُوحها ضافٍ، وحصاها لصفاء مائها في نفس الأمر راكدة وفي رأي العين طافٍ، إذا دغدغها النسيم حَسِبَتْ ماءها بتمايل / ٣١٩/
الظلال فيه يتبرَّجُ ويميلُ، وإذا اطردتُ عليه أنفاسُ الصِّبَا ظننتُ أفياء تلك الغُصون فيه تارةً تَموجُ، وتارةً تسيلُ، فكأنَّه مُجِبُّ هامَ بالغصون هوى، فمثلها في قلبه، وكان النسيم كَلِفَتْ^(٣) غار من دتوها إليه فمثلها عن قربه: [من مجزوء الكامل]

والسرو ومثل عرائس لُفَّت عليهنَّ المُلأى
شَمَّرنَ فضل الأزرِ عن سُوقِ خَلاخِلُهُنَّ ماءً
والنهرُ كالمرآة تبصر وجهها فيه السماء

وكان صواف الطير المبيضة بتلك الملق خيام أو ظباءً بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق فضة^(٤) رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمَّرة أوائل ما انسكب من المُدام، وكان رقابها رماحُ اسنتها من ذهب، أو شموع، أو سودُ رؤوسها ما انطفأ وأحمره ما ألتَهَبَ، وكنا كالطير الجليل عدّه، وكطراز العمر الأول جدّه: [من الكامل]

من كلِّ أبلج كالنسيم لطافة عَفَّ الضميرِ مُهذَّبِ الأخلاقِ
مثل البدورِ مَلاحَةٌ وكعُميرِها عدداً ومثلِ الشمسِ في الإشراقِ
ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافيتها وتلوينها، وبطنونها مدبجه^(٥)، ومتونها مدرجة، كأنها السَّوْلَةُ في انعطافها، أو أرواق الطِّبَاءِ في التفافها، لأوتارها عند القوادم أوتار، ولبنادقها في الحواصل أوكارٌ، إذا انتصبتُ لطيَرِ ذَهَبَ من الحياة نصيبه، وإن ينصب^(٦) لرمي بدت لها أنه أحقَّ بها من نصيبه، ولعلَّ ذاك الصوت زجر لبندقها، وإن يبطيء في سيره، أو

(٤) في حسن التوسل: أباريق من فضة.

(٥) في حسن التوسل: مدلجة.

(٦) في حسن التوسل: أنصبت.

(١) في حسن التوسل: صح الأرج.

(٢) الملق: ما استوى من الأرض (القاموس).

(٣) في حسن التوسل: كلف بها.

يتخطى الغرض إلى غيره أو وَخْشَةً لمفارقة أفلاذ كَبِدْهَا، أو أَسْفٌ^(١) لخروج بنيتها عن يدها على أنها طالما نبذت بنيتها بالعراء، وَشَفَعْتُ لِحَصْمِهَا التحذير بالأغراء: [من البسيط]

مثل العقاربِ أذنباً معقّدةً لَمَنْ تَأَمَّلَهَا أو حَقَّقَ النظرَا
 إن مَدَّهَا قَمَرَ مِنْهُمْ وَعَايَفُهُ مُسَافِرُ الطيرِ فِيهَا وانبرى سفرا
 / ٣٢٠ / فهو المسيءُ اختياراً إذ نوى سفراً وقد رأى طالعاً في العَقْرَبِ القَمَرَا
 ومن البنادق كُرَاتٌ متفقة السرد، متّحدة العكسِ والطَّرْدِ، كأنها خلطت^(٢) من
 المندل الرطب أو عُجِنَتْ من العَنْبَرِ الوردِ، تسري^(٣) كالشهب في الظلام، وتسبق إلى
 مقاتل الطير مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ: [من البسيط]

مثل النجوم إذا ما سِرْنَ في أفقٍ عن الأهلّة لكن نُونها راء^(٤)
 ما فاتها من نجوم الليل إذ^(٥) رَمَقَتْ إلا ثباتٌ يُرى فيها وأضواءٌ
 تسري فلا يشعرُ الليلُ البهيمُ بها كأنها في جفونِ الليلِ إغفاء^(٦)
 وتَسْمَعُ الطيرُ إذ تَهْفُوا قوادِمُهُ حَوَافِقاً في الدياتي وهي صَمَاءٌ
 تصونها جراوةٌ كأنها درج دُرَّر أو درج غرر، أو كمامة ثمر، أو كنانة نبلٍ، أو
 غمامة وبل، حالكة الأديم، كأنما رُقِمَتْ بالشَّفَقِ حَلّةٌ ليلها البهيم. [من السريع]

كأنها في وصفها مشرقٌ تَنَبَّتْ مِنْهُ فِي الدُّجَى الأنجمُ
 أو ديمّةٌ قد أطلعت قوسها مُلَوَّنَا وانبعثت تسجيم
 فاتخذ كلُّ لها مركزاً، وتقاضى من الإصابة وعداً مُتجزأ، وضمين له السعدُ أن
 يُصبح لمراده مُحْرِزاً: [من السريع]

كأنهم في يُمنِ أفعالهم في نظير المنصف والجاحدِ
 قد وُلِدُوا فِي طَالِعٍ وَاحِدٍ وَأَشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ
 فسرت لها من الليل علينا من الطير عصابة، أظلتنا من اجنحتها سحابة، من كل
 طائر أقلع يرتاد مرتعاً، فوجد ولكن مصرعاً، وأسف يبغي ماء جماماً، فورد ولكن

(٤) في الأصل: نورها.
 (٥) في حسن التوسل: إن.
 (٦) في حسن التوسل: إلقاء.

(١) في الأصل: أسفاً.
 (٢) في حسن التوسل: طُرِطُ.
 (٣) في حسن التوسل: ترى.

سَمَا^(١) منقعا، وحلّق في السماء يبغي مَلْعَبًا، فبات هو واشياعُهُ سَجْدًا للقسي وركعًا، فتباركنا بذلك الوجه الجميل، وتداركنا أوائل ذلك القبيل، فاستقبل أولنا تمًا^(٢) ثم بدره، وعظّم في نوعه وقدره^(٣)، كأنه برق كَرَع في غَسَقٍ، أو صبح عَطَفَ على بقية الدجى عطف النَّسَق، تحسبه في ائتلاف^(٤) المنى غرة نجح، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة الصبح، عليه من البياض حلة / ٣٢١ / وقارٍ، وله كُرة من عنبر فوق منقارٍ من قار، له عنق ظليم والثفاته ريم، وسرى غيم يَصْرِفُهُ نسيم: [من المتقارب]

كلون المَشيبِ وعُضْر الشَّبابِ ووقتِ الوصالِ ويمُّ الظَّفَرِ
كأنَّ الدُّجى غارَ مِنْ لَوْنِهِ فأَمَسَكَ منقارُهُ ثَمَّ فَرَّ
فأرسل^(٥) عن الهلال نجماً، فسقط منه ما كَبُرَ بما صَغُرَ حجماً، فاستبشر بنجاحه، وكَبُرَ^(٦) عند صياحه وحصله^(٧) من وسط الماء بجناحه، وتلاه كي نقيّ اللباس، مُشْتَعَلُ شيب الرأس، كأنه في عرائن شبيه لا وبله كبير أناس، إذا أسفّ في طيرانه فغمام، وإن خَفَقَ بجناحه فُقْلِعَ له بيد النسيم زمام، ذو غببة كالجراب، ومناقير كالحراب، ولون يغرّ في الدجى كالنجم، ويخدع في الضحى كالسراب، ظاهر الهرم، كأنما يخبر عن عادٍ أو يحدث عن إرم. [من الكامل]

إنَّ عامَ في زرقِ الغديرِ حَسِبْتَهُ مَبْيُضَّ غَيْمٍ في أديمِ سماءِ
أو طارَ في أفقِ السماءِ ظننْتَهُ في الجوّ شيخاً عائماً في ماءِ
متناقض الأوصافِ فيه خِفَّةُ الـ جُهَّالٍ تحتَ رزانةِ العلماءِ

فثنى إليه الثاني عنان بندقه، وتوآخاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخرّ كمارِدٍ انقضّ عليه نجم من أفقه، فتلقاه الكبير بالتكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير، وقارنته أوزة حلتها دكنا، وحلّيتها حسناء، لها في الفضاء مجال، وعلى طيرانها خفة ذوات التبرج، وخفر ربّات الحجال، كأنما غبت في ذهب، أو خاضت في لهب، تختال في مشيتها كالكاعب، وتنأى في خطوها كاللاعب، وتغطو يجيدها كالظبي الغرير، وتتدافع في سيرها مشي القطاة إلى الغدير: [من الطويل]

إذا أقبلتْ تمشي كخطرةِ كاعِبٍ رَداحٍ وإنَّ صاحتِ فصولاً خادِمِ

- (١) في حسن التوسل: السّم.
(٢) التّم: طائر نحو الاوز (حياة الحيوان ١/ ٢٣١).
(٣) في الأصل: قدره.
(٤) في حسن التوسل: أسداف.
(٥) في حسن التوسل: فارس إلىه.
(٦) في حسن التوسل: وكمد.
(٧) في حسن التوسل: وحمله.

وإن أقلعتْ قالتْ لها الرِّيحُ لَيْتَ لي خفا ذي الخوافي أو قوى ذي القوادِمِ
فانِعِمَ بما في البُعدِ زادَ مُسافرٍ وأحسِنُ بها في القُرْبِ تُحفَةَ قادمِ
/٣٢٢/ فلوى الثالثُ جِده إليها، وعَظَفَ بوجهِ قوسِه عليها، فَلَجَّتْ في ترفُعِها
ممعنةً، ثم نزلت على حكمه مدعنة، فأعجلها عن استكمال الهُبوبِ، واستولى عليها
بعد استمرار القُنوطِ، وحاذتها لغلغة^(١) تحكي لون وشيها، وتصف حُسنَ مَشِيها،
وتُربي عليها بَعْرَتِها، وتُنافِسُها في المحاسنِ كضرتِها، كأنها مدامةٌ قُطِبَتْ بمائِها، أو
عَمامةٌ شَفَّتْ عن بَعْضِ نجومِ سمائِها: [من السريع]

بغِرةً بيضاءَ ميمونةً تُشْرِقُ في الليلِ كبدِ التَّمَامِ
وإن تَبَدَّتْ في الضُّحى خَلَّتْها في الحُلَّةِ الدكناءِ بَرَقَ الغمامِ
فنهض الرابعُ لاستقبالِها، ورماها عن فَلَكَ سَعْدِه بنجمِ وبالِها، فجدَّتْ في العلوِ
مُغذَّةً، وتطاردتْ أمامَ بُنْدُقِه، ولولا اطرادَ الصيدِ لم تكن لذةً، وانقضَّ عليها من يدهِ
شهابِ حَتْفِها، وأدركها الأَجَلُ بخفةِ طيرانِها من خَلْفِها، فوَقَعَتْ من الافقِ في كَفِّها،
ونفر من في بقايا صفِّها عن صفِّه، وأتت في إثرها أنيسة^(٢)، كأنها الغدراءُ العائِسةُ،
أو الأدماءُ^(٣) الكائِسةُ، عليها خَفَرُ الأَبكارِ، وخفةُ ذواتِ الأوكارِ، وحلاوةُ المعانيِ،
التي تجلي على الافكارِ، ولها أنسُ الريبِ، وإذلالُ الحبيبِ وتلَقُّتْ الزائرِ المريبِ من
خوفِ الرقيبِ، ذاتِ عُنُقِ كالإبريقِ أو الغُصنِ الوريقِ، قد جَمَعَ صُفرةَ البَهارِ إلى حُمرةِ
الشقيقِ، وصدرِ بهيِّ الملبوسِ، شهيِّ إلى النفوسِ. كأنما رُقِمَ فيه النهارُ بالليلِ، أو
نُقِشَ فيه العاجُ بالأبنوسِ، وجناحُ يُنجِها من العطبِ، يحكى لونه المندلُ الرُطْبِ،
لولا أَنَّهُ حَطَبٌ: [من المتقارب]

مُدبَّجَةُ الصِدْرِ تَفْوِيْفُهُ أَضَافَ إلى اللَّيْلِ صَوءَ النَّهارِ
لِها عُنُقٌ خالَهُ مَنْ رآهُ شقائقٌ قد سَيَّجَتْ بالبحارِ
فوثبَ الخامسُ منها إلى الغنيمةِ، ونظم في سلكِ رَمِيهِ تلكَ الدرَّةَ اليَتيمةَ، وحصل
بتحصيلِها بين الرماةِ على الرتبةِ الجسيمةِ، وأتى على صوتِها، حُجْرَجٌ^(٤)، يسبقُ همتَه
جناحُه، ويغلبُ حَفَقَ قوادِمِه صياحُه، مَدبِجُ المطا، كأنما /٣٢٣/ خَلَعَ حُلَّةَ منكبِيه
على القِطا، ينظر من لَهَبِ، ويخطو على رجلين من ذَهَبِ: [من المتقارب]

(١) اللغغ: طائر معروف «قال ابن دريد: لا أحسبه عربياً» (لسان العرب: مادة اللغغ).

(٢) الأنيس أو الأنيسة: طائر حاد البصر صوته صوت الجمل، وماواه قرب الانهار (حياة الحيوان ١/ ٦٤).

(٣) في حسن التوسل: الاماء.

(٤) الحجرج: ذكر الحباري، لسان العرب مادة (حجرج).

يزورُ الرياضَ ويجفو الحياضَ ويُشبهه في اللونِ كُدْرَ القِطَا
 ويهوى الزُّروعَ ويلهؤُوبها ولا يَرِدُ الماءَ إلاَّ خَطِي
 فَبَدَرَه السادس قبل ارتفاعه، وأعان^(١) قوسه بامتداد باعِهِ، فخرَّ على الألاءة^(٢)
 كبسطام بن قيس^(٣) وانقضَّ عليه راميه فحصله بحذق وحمله بكَيْس، وتعذَّر على
 السابع مرأهُ، وَبَابَه عن بلوغ الأرب مقامهُ، فصَعِدَ هُوَ وترَبُّ له إلى جبل، وثبت في
 موقِفِهِ مَنْ لم يكن له في مرافقتهمَا قِبَل، فعنَّ له نِسْرٌ ذو قوائم^(٤) شِدَاد، ومناقير
 جِدَاد، كأنَّه من نسور لقمان بن عاد، تحسبه في السماء ثالث أخويه، وتظنُّه^(٥) في
 الفضاء قبته المنسوبة إليه، قد حَلَق كالفقراء رأسه، وجعل ممَّا قَصُر من الدلوق
 الدُكْن^(٦) لباسه، واشتمل^(٧) من الرياش العسليِّ إزارا، واختار العُزلة فلا تَجِدُ له إلاَّ
 في فَنَنِ الجبال الشواهِق مزارا، قد شابت نواصي الليالي، وهو لم يَشِب، ومضت
 الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب^(٨). [من الطويل]
 مليك^(٩) طيورِ الأرضِ شرقاً ومغرباً وفي الأفقِ الأعلى له أخوان
 لَهُ حَالٌ فتاكٍ وحليَّة ناسِكٍ وإسراعٌ مِقْدَامٍ وفَثْرَةٌ واني
 فدنا من مطاره، وتوخَّى ببنْدُقَةٍ عنقه، فوقع في منقاره، فكأنما هدَّ منه صحرا،
 أو هدم به بناءً مسمخراً، ونظر إلى رفيقه مبشراً له بما امتاز به عن فريقه، وإذا به قد
 أَظْلَتُهُ عُقَابٌ كاسر، فكأنما أَظْلَت صيداً أَفْلَت من المناسر، إنَّ حَطَّت فسحاب
 انكشفت، وإن أقامت فكأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف^(١٠)
 بعيدة ما بين المناكب، إذا أَفْلَعَتْ لَجَّت في علقِ كأنما يحاولُ ثأراً عند بعض
 الكواكب^(١١): [من المتقارب]

(١) في حسن التوسل: وأعار.

(٢) الألاءة: شجرة.

(٣) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، قتله بنو ضبة، قال شاعرهم: [من الوافر]

فخرَّ على الألاءة لم يُوسدُ وقد كان الدماء فيه خمارا

انظر: المؤلف والمختلف للأمدي ٧٣ و ٢٠٨.

(٤) في حسن التوسل: قوادم. (٥) في حسن التوسل: وتخاله.

(٦) في الاصل: الركن. (٧) في حسن التوسل: اشتمل.

(٨) في حسن التوسل: أشد. (٩) في حسن التوسل: عليك.

(١٠) تضمين لبيت امرئ القيس: [من الطويل]

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

(١١) تضمين لبيت ابي تمام: (ديوانه: ٢٨٣/١): [من الطويل]

مكارم لجت في علو كأنما تحاولُ ثأراً عند بعض الكواكب

ترى الطيرَ والوحشَ في كَفِّها ومنقارها ذا عظامٍ مُذالَّة
فلو أمكنَ الشَّمْسُ مِن خوفِها إذا طَلَعَتْ ماتَسَّمَّتْ غَزالُهُ

/٣٢٤/ فوثب إليها^(١) وثبَّه ليث قد وثق من حركاته بنجاحها، ورماها بأول بُندقية
فما اخطأ قادمة جناحها، فأهوت كعودٍ صرع، أو طودٍ صُدع، قد ذهب بأسها وتذهب
بدميها لباسها، وكذلك القدر يخادع الجوّ عن عقابه، ويستنزّل الأعصم من عقابه،
فحملها بجناحها المهيض، ورَفَعها عن الترفُّع في أوجِ جوّها من الحضيض، نزلا إلى
الرَّفَقَةِ جَدَلين بريح الصَّفَقَةِ، فوجد التاسع قد مرَّ به كركي^(٢) طويل السِّفَار، سريع
النِّفَار شهِيءُ العُراق، كثير الاغتراب، يشتبو بمصر ويصيف بالعراق، لقواديمه في الجو
هفيف، وأديمه^(٣) لون السماء طراً عليه غيم خفيف، تحنُّ إلى صوته الجوارح،
وتُعجَبُ من قُوَّته الرياح والبوارح، له أثرٌ حُمْرة في رأسه كوميض جَمْرٍ تحت رماد،
أو بقية جرح تحت ضماد، أو فصّ عقيق شقت عنه بقايا ثماد، ذو منقارٍ كسنان،
وعنق كعنان، كأنما ينوس على عمودين^(٤) من آبنوس [من السريع]

إذا بدا في أفقٍ مُثْلِعاً والجوُّ كالماءِ تفاويفُهُ
حَسِبْتُهُ في لُجَّةٍ مَرَكَباً رجلاه في الأفقِ مجاذيفُهُ
فصبر له حتى جازه مُجَلِّياً، وعظف عليه مصلياً، فخرَّ مضرّجاً بدميه، وسقط
مشرفاً على عديمه، وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بحبة
من حمأ مسنون، فكثرت التكبير من أجله، وحَمَلَهُ راميه على وجه الأرض برجله،
وحاذاه غرنوق^(٥) حكاه في زيّه وقدره، وامتاز عنه بسواد صدره، له ريشتانٍ ممدودتان
من رأسه إلى خلفه، معقودتان من أذنه مكان شفه^(٦): [من السريع]

لَهُ مِنَ الكركيِّ أوصافُهُ سوى سوادِ الصدرِ والراسِ
إن شالَ رجلاً وأنبرى قائماً الفيستهُ هياةً برجاسِ
فاصغى العاشر له منصتاً، ورماء مُلتفتاً، فخرَّ كأنه صريع الألمان، أو نزيف بنت
المان، فأهوى إلى رجله بيده وأيديه، وانقضَّ عليه انقضاض /٣٢٥/ الكاسر على

(١) بعدها في حسن التوسل: الثامن.

(٢) الكركي: طائر، جمعه، كراكي (لسان العرب مادة: كرك).

(٣) في حسن التوسل: الأديم.

(٤) في حسن التوسل: عُود.

(٥) الغرنوق: طائر أبيض، وقيل أسود، من طير الماء، طويل العنق (لسان العرب مادة غرنق).

(٦) في حسن التوسل: شنيوه، والشنف: القرط.

صيده، وتبعه في المطار صوغ^(١) كأنه من النضار مصوغ، تحسبه عاشقاً قد مدّ صفحته، أو بارقاً قد بثّ لفحته. [من السريع]

طويلةٌ رجلاه مُسْوَدَّةٌ كأنما منقارُهُ خنجِرٌ
مثل عجوزٍ رأسها أشمَطٌ جاءت وفي رقبتهَا مِعْجَرٌ
فاستقبله الحادي عشر، ووثب، ورماه حين حاذاه من كثب، فسقط كفارس تقطر
عن جواده، أو وامقٍ أصيبت حَبَّةُ فؤادِهِ، فحمله بساقِهِ، وعدل به إلى رفاقِهِ، واقرن به
مَرَزَمٌ^(٢) له في السماء، سمي معروف، ذو منقار كصدغ معطوف، كأن ريشه فلق
اتصل به شفق، أو ماء صافٍ علق باطرافه علقٌ: [من الهزج]

لَهُ جِسْمٌ مِنَ الثَّلْجِ عَلَى رَجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ
إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قَلْبٌ تَبْرُقُ فِي الدَّجَى سَارِي
فانتحاه الثاني عشر مُتَمَمًا، ورماه مصمماً، فأصابه في زوره، وحصله^(٣) من
فورِهِ وحصل له من السرور ما خرج به عن طوره، والتحق به شبيط^(٤) كأنه مدية
مُبيطِر، ينحط كالسيل، ويكرّ على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونه بين ضدين يُقبل
منهما بالنهار ويدبر بالليل، يتلوى في منقاره الأيْمُ تلويّ التنين في الغيم^(٥) [من
البيط]

تراه في الجوّ ممتداً وفي فمه من الأفاعي شجاعٌ أرقمٌ ذكّر
كأنه قوسٌ رامٌ عنقه يدها ورأسه رأسها والحيّة الوتر
فصوب الثالث عشر إليه بُندقَةٌ فقطع لحيه وعُنقه، ووقع كالصرح الممرّد، أو
الطراف الممدّد واتبعه عتاز^(٦)، أصبح في اللون ضده وفي الشكل نده، كأنه ليل ضمّ
الصبح إلى صدره، أو انطوى على هالة بدره: [من البيط]

تراه في الجوّ عند الصبح حين بدا مُسوداً أجنحةً مُبيضٍ حيزوم
كأسودٍ حبشيٍّ عامٍ في نهرٍ قد ضمّ في صدره طفلاً من الروم

- (١) في المستطرف ١/ ١١٥: هو طير من صغار العصافير، أحمر الرأس.
- (٢) المرزم: من طير الماء، طويل الرجلين والعنق، اعوج المنقار، في اطراف جناحيه سواد، أكثر اكله السحك. (حيان الحيوان ٢/ ٣١٤).
- (٣) في حسن التوسل: حملة.
- (٤) الشبيط، أو السميطر: طائر طويل العنق جداً، يرى أبدأ في الماء الضحاح. (حياة الحيوان ١/ ٥٧٤).
- (٥) في حسن التوسل: الغنم.
- (٦) العتاز: طائر من طير الماء (لسان العرب: مادة (عنز)، وفي القاموس: العقاب الانثى.

فنهض تمام القوم إلى التتمة، وأسفرت عن نجاح الجماعة تلك الليلة /٣٢٦/
 المدلهمة، وغدا ذلك الطير الواجب واجباً، وكمل به العدد قبل أن تطلع الشمس عيناً
 او تبرز حاجباً، فيالها ليلة حصرنا بها الصوادح في الفضاء المتسع، ولقيت فيها الطير
 ما طارت به من قبل على كل شمل مجتمع، وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض
 كفرائد خانها النظام، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يُخلَق لهنَّ عظام، وأصبحنا
 مثنين على مقامنا، مثنين بالظفر إلى مُستقرنا ومقامنا، وأعين المولى جهدنا ومدعين له
 قَبَلنا وأوردنا، حاملين ماصرنا إلى بين يديه، عاملين على التشرف بخدمته والانتماء
 إليه. [من الطويل]

فأنت الذي لم يُلفَ مَنْ لا يودُّه ويدعوله في السرّ أو ندعي له
 فإن كان رمي أنت توضح طرقة وإن كان جيش أنت تحمي رعيته
 والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل،
 ومنه قوله، مما كتبه جواباً عن قيل من ادعى إليه في البندق:

ولا زالت قدمة فضله مذهبة الفواتح بالفتوح، منبضة بالنجوم عن قوس عزم، مذ
 تشبه به هلال الأفق لم يجسر نسر السماء الطائر أن يلوح، منبئة عن فتكات اهتمام،
 لاذو الجناح أمامه بناج، ولا يسلم منه مثار الوحش الجموح، مطرزة حلل الظلام
 برداء شفق، نشره في الأفق من صوب صابية دم الطير المسفوح، صدرت هذه
 المكاتبه، تتلقى بالقبول وجه قصده الجميل، وتقابل سعد طائره الميمون بواجب الود
 الجليل، ويشني على عزمه الذي ما برح يسري في برده اليمن إلى رواتبه كل فخار،
 وتثنى أعتة الثناء إلى هممه التي استخارت التوفيق في الأدعاء إلى قديم مجدنا الذي
 تتشرف به الأقدار، فجاد وشكر سداد مقصده الذي لا يخفى مواقع اصابته الليل،
 واشتداد ساعده الذي أسبل الجناح على رجل حامله في الأفق إسبال الذيل، معلمة
 إن مكاتبته الكريمة وردت منبئة عن طروقه مظان الاسترواح، وسراه إلى مواطن النجح
 التي تحمد /٣٢٧/ فيها عند الصباح، في رفقة من أولياء دولتنا، ما فيهم إلا مَنْ حَسَبُهُ
 في الولاء صميم وحديث مجده في إصابة مواقع الصواب في الخدمة قديم، مرهفاً
 عزمة ما رأى نجوم أهلتها النسر الطائر إلا أصبح كأخيه واقعا، ولا نهضت إلى باسط
 جناح تهنيه في أفق السماء إلا خرّ بين يديه متواضعا، وإن السعد هياً له مقاماً يستنزل
 فيه عظيم الطير من عواصم الأفق، وتسلك فيه رسل قوسه إلى أرواح ذوات الجناح
 المحلقة في الفضاء أقرب الطرق، وأنه حين مرّ به من اللغالب صفت قد أوثق بعضه
 القدر، وأوثق أوله بدره عزمه، والبدر لمن بدر، أرسل أعزه الله عن كبد القوس ابنها

فَأَنْتَ، وخطب إلى نفس تلك العصبة من الطير نفسها فما ضنّت، وصرع لغلغلةً مَلِيحَةً مُلِيحَةً، فأصابها في أقوى قوادِمها إصابةً صحيحة صريحة، فأهوت الى بين يديه من مكانين مكانها، وحملها القديم الذي أشار إليه رافعا بالقسم بعلي لسانها، فتمنى كلّ تم لو حَصَلَ كما حَصَلْتُ ، [و]وَدَّ كل صوغ لو صيغت عيونه في جملة حليّها التي فصّلت، وانه ادعى لنا بهذه النسبة التي تثنت بالقبول أحكامها، وتقضي بانتساج الأواصر حكامها، وقد علم بذلك جميعه، وأفضنا في شكره، وأفضينا إلى غاية الثناء الجميل عند ذكّره، وسررنا ببلوغ الوطر، وحصول الظفر، وتفاءلنا أنه كذلك ينزل على حكم سيوفنا كلّ مَنْ كَفَّر، وقابلنا ذلك بوجه القبول المبتهج، وأمضينا حكم هذا الانتماء الملتحم والأنتساب الممتزج، ومن أولى منه بهذا الفخر الذي انتظمت عقوده، وتقابلت في أفق مجدهِ سعوده، فليأخذ حظه من بشرى هذا القبول وبشره، جِبْرَةٌ خبره الذي يتضوع الوجود بنشره، والله تعالى يجعل مطالبه مقرونة بالنجاح، قادمةً إليه بأنباء السعود على أوثق قوادم واثبت جناح.

ومنه قوله في النيل:

وأجرى الخلق على عوائد كرمه / ٣٢٨ / وأجرى لهم قدرته من حجب الغيب موادّ نَعْمِهِ، وأعلا لديهم موارد نيلهم، حتى ماكان يشرب بعروق ساقه من نيلهم بتناول الماء بفمِهِ، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد، وأذن له في الرفع عن محلّه، فسجد على التراب شكراً وتيمم الصعيد، وإن لم يبق به الآن على وجه الأرض صعيد، وأقبل بعد تقصير عامه الماضي بوجهٍ عليه حمرة الخجل، وعزم سبق سيفه إلى المحل العذّل بالأجل، وحزم أدرك الجدب موجّه قبل أن يقول سأوي إلى جبل، واستظهاراً على كلّ ما علا من الأرض حتى أن الهرمين باتا منه على وجّل، ومهد الأرض التي كانت ترقيه فهولها المنظر على الحقيقة، ووطيء بطن الثرى فنتج الخصبُ بينهما، وذبح المحل في العقيقة، وتجعد على الآكام فخيّل للعيون أنها تسيل، وشبّت مفارق الثرى بياض زبده وعادة بياض الشيب أن يخضب بورق النيل، يستقبل نعم الله التي سيسم الأرض وسمها، ويولى النعم وليّها، ويأتي بالركاب أثبّها، حتى تغصّ بالنعم تلك الرحاب، ويظن لعموم ذي البلاد الشامية أن نيل مصر ركّب إليها على السحاب.

ومنه قوله في مثله:

صدرت، ونعم الله قد عمّت، وآلاؤه مع تحقق المزيد قد تمت، والسيّل قد بلغ في تتبع بقايا القحط الرُّبِي، والنيل قد عمّ بنيله حتى كلل مفارق الآكام وعمّم رؤوس الربى، وحمى الأرض من تطرق المحول إليها فاصبحت منه في حرم، وظهرت به

عجائب القدرة، ومنها ابن ست عشرة بلغ إلى الهرم، وبثَّ وجوده في الوجود، فلو صور نفسه لم يزد عليها على ما فيه من كرم، وتَلَقَّتْ منه النفوس أبهج محبوب طرد ممقوتاً، ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إذ لم يَدْرِ أياقوتاً تشاهد أم قوتاً، وجرى في الوفاء على أكمل ما ألف من عادته، وظهر بإشراقه وعموم نفعه ظهور الشمس، فألقى على الأرض اشعة سعادته، وبلغ الله به المنافع، فزعزع الجبال الشَّمّ ولم / ٣٢٩ / يتجاسر على الجسور، واقطع الأرض الخصب الأرض كلها فله في كلِّ بقعةٍ مثال مرثيٍّ ومنشور منسور، وبعث إلى كل عمل من سرايا جنوده عارضاً مغضباً على المخلِّ، مايخطرُ إلاّ وسيفه مشهور، وجرى الأمر في التحليق على عوائد السرور، وعلقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة الاستار، بل للإشاعة والظهور، واستقر حلم المسرّة على السنن المعهود، وعاذ الناس به عند مرورهم إذ ذلك برحمة الله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(١)، وهاهو الآن يرفع إلى كلِّ تلةٍ على جناح النجاح، ويخيف السبل وما عليه حرج، ويقطع الطرق وليس عليه جناح.

ومنه قوله: يبشر بركوب السلطان بعد تقطر كان حصل له عن جواده:

ولا زال مبشرا من النصر بما يقرّ به عين الهدى، ويكمد قلوب العدا، وينذر أهل الكفر من ركوبنا اليوم بطلائع ركابنا عليهم غدا، ويسرّ حزب الإيمان من أخبار موكبنا الشريف بيوم كفر الدهر ذنب إساءته بالأمس وافتدى، صدّرت تخصّصه بشري عمّت بشائرها، وسرّت بالمسرّات الكاملة بوادرها، وتارّجت الأرجاء، فلولا أمانة الكتب لقيّل: تمت بأسرار السرور ضمائرها، وطارت بها مخلقات التهاني في الوجود، ووجب بسببها وجوب سجود الشكر على كل مؤمن يتعبّد عن تجدد النعمة بفرض السجود، وذلك أنه قد علم ما كان حصل من تأخر ركوبنا هذه الأيام، بسبب ما كان حصل من التقطر الذي كانت عاقبته بحمد الله مأمونة، وكبوة الجواد بحسن المآل ميمونة، بما ألقنا من عوائد تأييد الله وعنه مضمونة، وكان تأخر الركوب في تلك المدة اللطيفة لموافقة آراء الحكماء في خدمة المزاج، وملاطفة العلاج، وقد منّ الله سبحانه وتعالى في كمال الصحة، وشمول العافية، وزوال البأس، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٢) ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وسطرناها مبشرة / ٣٣٠ / بركوبنا الذي خصّعت له أعناق الكفر والشقاق، وسارت به ركائب البشائر ونجائب التهاني في الآفاق، وضافت به فجاج الأرض بأولياء الطاعة، فلولا سلوكهم آداب

الخدمة في الترحل بين أيدينا لزلزل ركض خيلهم بمصر أطراف العراق، فكان ركوبنا في موكبنا المنصور يوم كذا، وكان يوماً مشهوداً، ووقتاً من مواسم الزمن معدوداً، أربت فيه النعم على الحصر، ورفل به الدين في حلل التأيد والنصر، وسرى إلى أرواح العدا رعبه، وعزّ به في كل افق دين الاسلام حزبه، وتحقق به العدو الذي أملى له أن حركته حركة الذبيح، وجمعه الذي ألقه الشيطان بغروره للتكسير لا للتصحيح، وتضاعف شوقه إلى الجناب العالي في ذلك الموكب الذي أخذ الأولياء فيه من المسرة بأوفى القسم وأوفر النعم، ورفلوا فيه في مطارف الجبور، واتخذوه بينهم عيداً سمّوه عيد السرور، وقد عجلنا بأعلامه بذلك، لعلمنا بمحبته الصادقة وموالاته التي هي بمحض الصفا ناطقة، ولأنا نعلم بمضاعفة سروره بها، وأدائه نذور الشكر بسببها، فليسرّ الأولياء بإشاعتها، وتتقدم بضرب البشائر في وقتها وساعتها، والله تعالى يضاعف إقباله، ويبلغه من النعم منيته وآماله.

ومنه قوله في تقليد لنائب البيرة^(١) بالاستمرار:

وعلم العدو أنه الندب الذي كثرت في سبيل الله أيامه، وما قصده العدو إلا وتمنى الذهاب وحث للهرب الركاب، وقنع من الغنيمة بالإياب، وولى جمعهم الأدبار، ولم يعد إلى أهلهم سوى الأخبار، وما أقدموا عليه إلا وقد علموا القوة من بأسه أنهم لا ينصرون، وما نظروا إليه إلا وقد جعل الرعب من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فهم لا يبصرون، وما قاتلوه بعدما قابلوه إلا أن الله طمس على قلوبهم، واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون. وكم أرسلوا في أيامه إلى الثغر السوابق، فضرب بينهم بسور، وطارت إليهم من كنانة بأسه / ٣٣١ / حمام الحمام بأجنحة النسور، وسرت سراياه في بلاد العدو فسبقها الرعب إليهم وأحاط النهب بما لديهم، واستولى عليهم الذعر حتى صاروا يحسبون كلّ صيحة عليهم، وأطلع على خفايا أحوالهم، فما أجمعوا أمراً إلا وعلموا به إذ يأترون، ولا مكروا مكرأ إلا أظهره الله عليهم، والله أعلم بما يمكرون، وكان فلان هو الذي ماشام معه العدو بارقة ثغر إلا وأمطر^(٢) من الوبال بوابل، وأوقعهم من النكال في كفة حابل، فاقتضت الآراء الشريفة أن يزداد أمره تمكناً وقدره تحلياً بالنعمة وتزينا، وسره استقراراً بعلو رتبته وتوطناً، وثغره تحسباً بما افتتر من النعمة وتحصناً، ولذلك رسم بالأمر الشريف لا

(١) البيرة: بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصنية. (معجم البلدان - البيرة).

(٢) في الاصل: امطرتهم.

زالت الثغور بمهابته تبتسم، والجنود تتحكم بسطواته في ذخائر العدا وتقتسم، ان نجدد له هذا التقليد الشريف باستمراره في النيابة بالبيرة على أجمل عوائده، وأكمل قواعده، لنهوضه في مصالح الاسلام والمسلمين بما أحصى الله ونسوه، وإجراه عليه بما ألفه سلفنا الطاهر من رشد كفايته وأنسوه؛ ولأنهم غرسوه في هذا الثغر لتنمى به المصالح ويتعين أن يتعاهد بالإحسان سقيا ماغرسوه، فليتلق هذه النعمة بباع الشكر المديد، ويبرق بعلو الهمة إلى المزيد، من فضل الله عليه، فإن لديه المزيد، ويجرد على من جاوره من العدا سيف عزمه، فإن نصر الله باسيافنا أقرب إليه من حبل الوريد، ويجعل سراياه طلائع جيوشنا المنصورة، فإنها قد تكون بأقصى الممالك وماهي من الظالمين ببعيد، ويكون متيقظاً للعدو في حال سكونه، فإنه قد يتحامل الجريح، ويتحرك الذبيح، والحازم من تراه في الأمن في درعه، فلا يبدو ليله إلا وهو لها متيقظ في العدو وإن غفل، مشمراً له عن ساق العزم وإن أسبل ملابس غروره ورفل، فإنه إذا فعل ذلك لم يلحقه ندم ولا لوم، والخاسر من جلبت عليه تعب سنة راحة يوم، وليكن وله من الكشافة في كل فريق فرقة ناجية، ومن / ٣٣٢ / القصاد بكل طريق عصابة بأسرار القلوب مناجية، ليعلم ما يأتي ومايذر وإذا لم يأت بعدوه حراك، فما يضر مع الأمين مبيته على حذر، وليضم الأطراف التي يطمع العدو بها في فرصة يختلسها أو دنية يفترسها، ليتعاهد منه رجال الثغر بالاحسان الذي يؤكد طاعتهم، ويجرد قوتهم في الجهاد، واستطاعتهم فانهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وتقربوا بالجهاد في سبيله إليه، ولا يدع بالثغر مملوكاً نصرانياً، فإنه يطلع على الأسرار، ويتطلع إلى الكفار، ولعبد مؤمن خير من مشرك أولئك يدعون إلى النار. ومنه قوله:

وينهي أنه أرسل طيها قصيدة تنوب إلى حضوره، وتعتذر لقصوره، وتنبىء عن مساهمة خاطره لخاطره الكريم في مساءه وسروره: [من الطويل]

وَمَنْ سَرَّ أَهْلَ الْأَرْضِ ثُمَّ بَكَى أَسَى بَكَى بَعِيونِ سَرَّهَا وَقُلُوبِ
ولما سام المملوك قلمه السعي في ذلك، مال إلى النفور، وجنح، وقال ما عادتني أن اسعى إلى هذا الجنب الشريف إلا في التهاني والمدح، فقال له المملوك إن مساء تلك المساءة أوجب أجراً، واستقبل من المساء فجرأ، فكتب ما يقف الخاطر الشريف على مضمونه، ويتحقق به أن لمضمار حقه مدى نفق جياد القرائح من دونه.

ومن قوله:

يقبل الأرض رافعاً مجاب الدعاء، فاسحاً مجال الولاء، ناشراً على أعطاف

الطروس حلل الثناء، مبشراً نفسه والمسلمين بما من الله به من قدوم مولانا تحت ألوية الظفر والنصر، محبوباً بيمن العزمات التي قسمت أعداء الله وبلادهم بين الحصد والحصر، متوسلاً إلى الله تعالى أن يجعل عزماته المرهفة في سبيل الله، حيث سلكت ملكت، وسيوفه المحرّدة على أعداء الله أين سفرت من الغمود سفكت.
ومنه قوله من توقيع حسبة:

وبعد فإن أولى ما أنعم فيه / ٣٣٣ / نظر الاختيار، وأمعن فيه تدبّر الارتياح والاعتبار، أمر تعمّ الأمة منافعه، وتمم به بركات الرزق الذي تدبّر بالتقوى منابعه. ويزال به الغش عن الأمة في الملابس والمطاعم. وبزاد به البُخس في المكيال والميزان اللذين هما من أظهر المضار، وأخفى المظالم، وتراعى به الهيئات الدالة على إتمام المرؤة وإكمالها، وتدحض به النقائص التي تنتقد على أرباب المكنات في أقوالها وأعمالها، ولما كانت الحسبة هي الأمر الذي اشترك عموم نفعه، والمعنى الذي نبه على حصول الاضطراب إليه في إباحة الشيء ومنعه، والسبب الذي يحسم به مواد الأذى في التعرض إلى البيوع الفاسدة، والأقدام على مزج الأقوات النافقة بالكاسدة، والتحرّز من الغش في الأشياء التي لا يترك صانعها هو وأمانته، ولا يقنع منها بسوى اليقين، وإن غلبت على واضعها عفته وصيانته، فإن البلوى بها قد تعم، والحزم بها في ترك التقليد، وإذا كانت الأفراد لا تظهر مع الهيئة الاجتماعية فبين من يتحرّرها بالمباشرة، وبين من يتلقاها بالقبول بون بعيد، فلذلك يتعين أن يكون مباشرها ممن هدته العلوم الدينية إلى ما يعتمد من مصالح لا يخرج فيها عن حكمها، وحدته القواعد الشرعية إلى ما يستند إليه فيها من عوائد لا يعدل بها عن وسمها الشريف ورسماها.

وكان فلان هو معنى هذه الألفاظ المجملة، وسرّ هذه المقاصد التي كان يحتاج إيضاحها من ذكره إلى التكملة، وبتجاربه للفضائل قوة في الحق لا يستفزها الرقى، واستقامة في الانصاف لا تميلها الأهواء عن سنن التقى، ورسماً بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الحسبة الشريفة، تفويضاً يمضى حكمه في مصالحها، ويجمال نظره في داني الأمور ونازحها، فليفعل في ذلك ما تقتضيه هذه الرتبة من منع احتكار وقطع أسعار، وتفقد ما يصنع من منسوج ومرقوم، ومشروب ومطعموم ومجلوب ومخزون، / ٣٣٤ / ومكيل وموزون، ومعدود ومدروع، وباق على هيئة ومصنوع، ويجعل لذلك حدّاً في الجودة معلوماً، وقدرّاً في القيمة مفهوماً، ووصفاً في العلو والدنو والتوسط بينهما موسوماً.

ومنه قوله، توقيع خطابة:

وبعد: فإن صهوات المنابر لا تستقل بكلّ راكب، ولا تستقرّ إلا تحت كل فارس

يزاحم شرف عمله الكواكب بالمناكب، ولا تذعن إلا لمن امتطى أعوادها أطال في المعنى وأطاب، وإذا قال أمّا بعد لم تختلف الآراء في أنه دلّ على الحكمة بفصل الخطاب، وإذا ذكّر بأمر الله أضحَبَ كلَّ قلبٍ جامع، وغضَّ كلَّ طرفٍ طامح، وردَّ كلَّ عبدٍ عن طاعة ربّه نازح، وأصغى من صغى منه إلى قول مشفق في الله صالح، وخرجت الموعظة منه على لسانٍ صادق، فلم تعدّ حبات القلوب، وتتبع كلامه أدواء الضمائر فشاها، ولا داء أوجع من الذنوب، ووثقت النفوس في أنه قول إمام عصره فتلقته بالتسليم، وجلست العلماء تحته للاقتداء بفوائده، فكان على الحقيقة فوق كلِّ ذي علمٍ عليم، وأحق المنابر بارتداد مَنْ يصلح لاقتعاد غارِبها، وأولاها بالصدود عمن برز في صورة خاطبها، ما كان من أعظَمها رفعة، وأكرمها بقعة، وأفخمها جماعة وجمعة، وأقدمها شهوةً في الآفاق وسمعه، وأعجبها بناءً وأبناءً، وأحملها عن أئمة الأمة أثقالاً وأعباءً، وأكثرها زَجلاً بالتلاوة والأذكار، وأعمها بالقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، ولما كان المسجد الجامع بدمشق المحروسة، هو الذي زاحم الأرض المقدسة بمنكبيه، فلو كان للمساجد الثلاثة رابع لشدّت إليه الرحال، وتحقّق بالرفعة التي تُسامى أن نور المشكاة تشرق من أرجائه ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُوسِ وَالْأَصْمَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿١﴾ تعين أن يُختار لها من رجل المنابر، وبطل المحابر، وهو فلان الذي شفت مواعظه القلوب وأثمرت بالتقى، واستلّت سخائم الصدور، واستقرت من المصلّى على النقا / ٣٣٥ / ورسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه الإمامة بالمسجد الجامع بدمشق المحروسة، والخطابة بمنبره الكريم، عملاً بالأولى في التقديم، واحتياطاً للإمامة التي هي أثبت دعائم الدين القويم، فليجَلّ هذه الرتبة التي لم تقرب لغيره جياؤها، ولتُحلّ هذه العقيلة التي لا تُزان بسوى العلم والعمل أجياها، ويَرُقّ هذه الهضبة التي يطول إلا على مثله صعودها، ويلق تلك العصبة التي تجتمع للاقتداء به حشودها، ويعلم أنه في موقف الإبلاغ عن الله تعالى لعباده، والإنذار بما ورَدَ عن الله ورسوله على مراد الله ورسوله لا مرادِهِ، وتحت منبرِهِ من الأعيان من أن تلق غيره القول بتقليدِهِ، تلقاه بانتقائه وانتقادِهِ، فيعتصم بالله في قوله وفعله، ويتيقن أن الكلمة إذا خرجت من القلب لا تقع إلا في مثله، وليجعل خطبة كل وقت مناسبة لأحوال مستمعِيها، متناسبة في وضوح المقاصد بين إدارك من يعي غوامض الكلام ومَنْ لا يعيها، وليوشح خطبته

بالدعاء لإمام عصره، ومالك أمصار الإسلام مع مصره، وللأمة بعموم تخصيصه وحصره، وهو يعلم أنه يكون في المحراب مناجياً لربه، واقفاً بين يدي من يحول بين المرء وقلبه، فليلجأ إلى الله تعالى في الإعانة بالإخلاص على هول مقامه، ويسأله التثبيت بالعصمة في مستقره ومقامه، وليراع من وراءه من أهل التكليف، وتكثر جماعتهم بتجنب ما نهى النبي ﷺ معاذاً من ترك التخفيف، ولينظر في عموم استطاعتهم دون خصوصها، فإن فيهم العاجز وذا الحاجة والضعيف، وليحافظ على فروض الكفايات الوازنة، والسنن التي ينادي لها: الصلاة جامعة، وليغرس في كل قلب حبه، ليقوموا إلى الإلتزام به وهم فارهون، وليعمل في البداية في ذلك بصلاح نفسه، فقد جعل ﷺ ممن لا تجاوز صلاتهم آذانهم من أم قوماً وهم له كارهون.

وله: مما كتبه على قصيده:

فليس فيها بيت / ٣٣٦ / دخل في شفاة أخيه، ولا معنى يثبت على غير قواعد الصحة أو أخيه، ولا كلمة يصلح في مكانها سواها، ولا قافية أوهى السناد ركنها أو أضعف الإقواء قواها، وكل بيت منها بيت قصيد يُعقد بالخصائص عليه، أو سلك فريد يُشار ببنان البيان إليه، أو مقرّر معنى رئيس تجلس نفائس المعاني بين يديه.

وأما نظمه فمنه قوله: [من البسيط]

هذا ولم يبق لي في لذة أرب
وأين هم؟ خلفوني مفرداً ونأوا
وأين نيل مرامي من لقائهم
ومنه قوله: [من الكامل]

إلا اجتماعي بأصحابي والزامي
فبنت أسهر أجفاني لنوام
ضاق الزمان وهياً سهمه الرامي
ومنه قوله: [من البسيط]

أو مُعْتَدِ بجَدَالِهِ وجَلَادِهِ
فقصورُ لذته ظهور جِيَادِهِ
خبر المُدْرَعِ عن صميم فُوَادِهِ
جيشُ العَدُوِّ بها عن استعداده
بانوا بقلبي وقلبي سارَ يتبعه
ويح المُحِبِّ الذي سارت أَجْبَتْهُ
وخلّفوه ينجي الركبَ بعدَهُمْ
بانوا فَصَوِّحْ نبث الروضِ بعدَهُمْ
فلمستُ أطمعُ منهم في خيالِ كَرِي
عنه ولم يقضِ من توديعِهِمْ وَطَرَا
فلا يُبلِّغُهُ عن ركبِهِمْ حَبْرَا
هذا وقد غادروا دمعي به عُذْرَا

ومنه قوله يعزّي بنت: [من الطويل]
وكم أوجِهٍ قد غِبْنَ في ظُلْمَةِ الثُّرى
ولا كالتّي في المجدِ خالاتُ أمّها
ومنه قوله^(١): [من المتقارب]

فلم يَرها في ظلمة الليل كوكب
رقية بنت الهاشمي وزينب

وفاضت دموعي على الخدّ فيضا
فقلت صدقت وبالخضر أيضا

رأتني وقد نال منّي النحول
/ ٣٣٧/ وقالت: بعيني هذا السقام
ومنه قوله: [من الكامل]

والشعرُ قد رقت عليه ظلاله
وجه الغديرِ فلاح فيه خياله

ورأيتُه في الماءِ يسبحُ مرّةً
فظننتُ أن البدرَ قابلٌ وجّههُ
ومنه قوله^(٢): [من الكامل]

سوداءُ يسبقُ سيرها الشهباءُ
لأخذت كل سفينة غضبا

وسرّت به في البحرِ جاريةً
فلو أنّ حُكَمَ البحرِ طوعَ يدي
ومنه قوله: [من الطويل]

أداعبُه والطّبيّ يحسبُ إياهُ
فقال: وهل في البدرِ إلاّ محيّاهُ

أقولُ له والغصنُ يُشبهُ قدّه
أفيك سوى ذا الوجهِ يُسبى به الورى
ومنه قوله^(٣): [من الطويل]

كأنّ له عندي بقربهم قرضا
ولا عانقت أغصانه بعضه بعضا

مضوا فاستردّ الدهرُ أنسي الذي مضى
وبانوا فالى البان لا مالَ بعدهم
ومنه قوله: [من السريع]

به العلاماضاع من دئنها
طلعتّه خوفاً على عينها

هتئت بالطفل الذي استرجعت
تكاد تُخفي الشمسُ إن قابلت
ومنه قوله: [من الرمل]

عالجت سُكْرَ فؤادي فصحا
فعسى يرجع قلبٌ ترّحا

دع فؤادي والصّبا إن الصّبا
وأعد لي ذكرَ من حلّ الحمى

(١) الوافي بالوفيات: ٣٣٠/٢٥، والنجوم الزاهرة: ٢٦/٩.

(٢) الوافي بالوفيات: ٣٣٤/٢٥، وفوات الوفيات: ٨٥/٤.

(٣) فوات الوفيات: ٩٢/٤.

كَلْفِي فَهوَ الَّذِي قَدْ نَصَحَا
مَنْ بِبَذْلِ الرُّوحِ فِيهِ سَمَحَا

[من الطويل]

كريمٍ مضى والمهلكات نوادبُه
على المجد إذ أودى وهن صواجبُه
لقد طاش حلمي يوم زمت ركائبُه
فممسك دمع يوم ذاك وساكبُه
طويلاً على زواره متقاربُه
وأخطأ وهمي، أسوأ الظن كاذبُه
إلى رمسه فالجود لا أنا صاحبُه

ياصاحبي لتسّر خلاً مشفقاً
شدوا المآزر فوق كُثبان النقا؟

ومنه قوله يصف قناة احتفرت وأنبط ماؤها لقرية المعيصرة: [من البسيط]

سحائب الصيف لانهلّت غوادبها
نوراً كأن الثريا ركبّت فيها
ركضاً وليس تدانيه أعاليها
تقبّل الأرض إجلالاً لمنشيها

فمِلْتُ وعندي بعض الكسل
وعنّ حال سُمر القنّا لا تسَلْ

ومنه قوله يمدح المنصور لاجين أيام نيابته بالشام ويذكر إحراقه نصرانياً تعرض

بَلَعَّ المراد الدين من أعدائه
هذا المقام سواك من كفلائه
بك يقتدي من كان من أكفائه
لله غير مشارك في رائه

ياأخلائي ومن حسن لي
أرشدوني هل قضى حق الهوى

ومنه قوله يرثي شيخه مجد الدين ابن
بكتُه المعالي ولم ير قبله
/٣٣٨/ ولا غرو أن تبكي المعالي بشجوها
أما والذي أرسى ثبيراً وحلمه
وقفنا وقد جدّ الوداع عشية
أنودع نفس المجد بيتاً مصرعاً
ظننتُ بأني مخلص في ودايه
رجعتُ وأمسى الجودُ يصحبُ نفسه

ومنه قوله: [من الكامل]

قل لي عن الحمام كيف دخلتها
أدخلتها وأولئك الأقوام قد

ومنه قوله يصف قناة احتفرت وأنبط ماؤها لقرية المعيصرة: [من البسيط]

أعرتها نظرة غراً ولو لمحت
فأصبحت مثل ظهر الأرض باطنها
يكاد يقطعها الساري على فرس
تبدو على الثرب من بطن الثرى فترى

ومنه قوله: [من المتقارب]

إذا دغدغتني أيادي النسيم
فسل كيف حال قدود الملاح

ومنه قوله يمدح المنصور لاجين أيام نيابته بالشام ويذكر إحراقه نصرانياً تعرض

إلى مسلمة في رمضان: [من الكامل]

يامن به وبرأيه وزوائيه
ياكافل الإسلام قبلك لم يقم
أرسلتها بالعدل أحسن سيرة
وعضبت للإسلام غضبة ثائر

٣٣٩ / وحميت سرح الدين من متخلص
أخفى سراه إلى الحریم وما ذرى
جمع الخيانة والخنا في الأرض والد
فأمرت أمراً حازماً بحريقه
طهرت من دمه الثرى فقذفته
ورفعت قدر السيف عنه وإنه
أرعبت أهل الشرك منه فكلهم
وسلبتهم طلب الحياة فمن غفا
أو لو تخيل في المقام بحرمه
ياداعي الإسلام صنت السرب أن
ماغرت إلا لاله وخلقه
واستشهد الشهر الشريف فإنه
عظمت حرمة وأهلكت الذي
فاسلم لهذا الدين تحرس سره
واشكر الهك بالذي ألهمته

ومنه قوله يهنى ببلال من مرض: [من مجزوء الكامل]

صحت بصحتك الأماني
وجرى شفاؤك والسرور
برؤ أتى وضنى مضى
ولكل يوم سجدة

ومنه قوله في وداع الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: [من

الكامل]

ياسيد الثقليين دعوة من أتى
٣٤٠ / فارقت ربك أولاً لأداء ما
ورجعت أضحك للتواصل مرة

ومنه قوله وقد أشرف على مكة المعظمة: [من الطويل]

أقول لصحبي والفيافي كأنها
صحائف خطت بالمطي سطورها

فهذا حمى ليلى وهاتيك دورها

أُنْفَدَ الأدمعَ واستبقى الغراما
وجنة الصبِّ ولم يسقِ البشاما
ظلَّه الناحلَ وجداً وسقاما
علَّها أنْ تُبْلِغَ الحيَّ السلاما

وقد فُزْتُمُ دونَ المتيمِ باللقا
إذا الدمعُ منكم ثم أفصحَ منطقا

وهلْ عاينوا قلباً تركتْ هنالك؟
أقامَ وإلا فهو ما بينَ ذلك

أذابَ الحشأَ مِنَّا وزادَ الكرى عَنَّا
وليسَ بهِ لكتته قاربَ المعنى
وبينَ الحمى مقدارُ يومينِ أو أدنى
ولم يُرضِهِ ما قد وهبنا له زُذنا

وجيوشُ الفناءِ فينا تجوؤُ
ليسَ يدري متى يكونُ الرَّحيلُ
ذٌ وإن كانَ فهوَ نزرٌ قليل
يُدُّهُ فهوَ فارغٌ مشغولُ

بسنى الصباحِ وقد تنقَّسُ
الكواكبِ وهوَ أطلَسُ
فكانهُ ثوبٌ مُقنَّدَسُ
المورِّدِ أولاً ثمَّ المُسورِّسُ

دعوا طيَّ عَرَضِ البيدِ بالسيرِ والسرى
ومنه قوله: [من الرمل]

قاتلَ اللهُ رفيقاً بالحمى
عادَ مِنْ بَرَقِ الثنايا فسقى
وكثيبٍ في الحمى تحسبه
يرقبُ الأرواحَ إنْ هبَّتْ صبأ
ومنه قوله: [من الطويل]

كأني بكمُ والبيدُ تطوى لديكمُ
وقد عبَّرتْ عنْ وجدكمُ عبراتكمُ
ومنه قوله: [من الطويل]

سلوا الركبَ هلْ مرَّوا بجرعاءِ مالِكِ
وأحسبُهُ ما بينَ سَلعِ إلى قبا
ومنه قوله: [من الطويل]

إذا البرقُ مِنْ تلقاءِ كاظمةِ عَنَّا
حسبناه إيماضَ الشغورِ على النقا
متى قالَ حادينا رويداً فبينكمُ
وهبنا له شطرَ الحياةِ فإنْ أبى
ومنه قوله: [من الخفيف]

هل لحيَّ إلى اللقاءِ سبيلُ
/٣٤١/ أو يَلدُّ المقامَ ثاوٍ بدارِ
مزمَعٌ للمسيرِ عنها ولا زا
شغلتهُ وفُرَّغتْ مِنْ لهاها
ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

ولَّى الدجىَ وكأنكمُ
وغدا رداءِ دجى تدنَّبُ
عَلِقَ الظلامُ بذيلِهِ
والشمسُ تبدو في

كالحَود تُجلى بالثيا
ومنه قوله: [من البسيط]

تُبدي السماء لنا معنى الجَمَى بسنى
إذا ظمئنا توهمنا مجرّتها
كأنها روضة حَفّت أزاهرها
أو حلّة من بديع الوشي مُعلّمة
ومنه قوله: [من الطويل]

عسى وقفةً بالركبِ يا حاديَ الركبِ
فعهدي به لما استقلتُ ركابكم
وقد تُقعدُ الأقدارُ مَنْ قلَّ حظُّه
ولكنني لم أتّهم في تأخري
ومنه قوله^(١): [من الطويل]

أسألَ ما بينَ المحامِلِ عن قلبي
وقد قالَ للساوي إلى طيبةٍ سِرْبِي
على أنه وافى الهوى وافرَ الحُبِّ
على كثرةِ الأسبابِ شيئاً سوى ذنبي
وسرّوا إلى ليلى سراهم فما انجلى
كلانا غريقٌ في الدموع وفي الدجى
ومنه قوله^(٢): [من الطويل]

وباتَ كطرفي نجمُهُ وهو حيرانُ
كأن دموع^(٣) العينِ والليلَ طوفانُ
حوثُهُ وقد زانَ الثريا التئامها
بكفت فتاةٍ طافَ بالراحِ جامها
صفوفُ صلاةٍ قامَ فيها إمامها
ومنه قوله في الرثاء: [من الطويل]

كأنَّ الدراري والنجومَ ودارةً
/ ٣٤٢ / حبابٌ طفا من حولِ زورقِ فضةٍ
كأن سهيلاً والنجومَ وراءه
أبحرَ الندى طودَ المعالي وإنه
حللتَ برغمي في الرغام وإنه
أمرٌ على مغناه كي يذهبَ الأسي
وأقسمُ أن الفضلَ ماتَ لموتهِ
ومنه قوله: [من الطويل]

(١) الوافي بالوفيات: ٣٢٩/٢٥، وفوات الوفيات: ٨٣/٤.

(٢) في الاصل: الدموع.

(٣) الوافي: ٣٣٧/٢٥، وأعيان العصر: ٣٨٩/٥، وفوات الوفيات: ٨٦/٤.

ولا ذاقها قبلي مُحِبُّ ولا بعدي
وبان المصلى منعماً واحدٌ لي وخدي

أبكي الطلولَ مُصرِحاً ومعرّضاً
فزمامها بيدي وماضاقَ الفضا
[من الكامل]

تتري فمدّرْعُ وآخِرُ حاسِرُ
ووددتُ أني في الهزيمة طائرُ

في الجودِ لا بسواه يُضرب المثلُ
كرائمِ الخيلِ ممّن برّه الإبلُ
لا ناقةٌ لي في هذا ولا جملُ

ثوبَ الظلامِ كنجمٍ لاحٍ في أفق
يظفي الجوى أو يروّي غلّةَ الحرقِ
إمّا على صحنِ خدي أو على حدّقي
روحي وتدرّكُ ماتلقاهُ من رَمَقي
بالسوقِ يأتيك إن طالَ المدى وبقي

وزادُ سُروري وزالَ العَنّا
وهذا الرسولُ وهذا أنا
تملّى وإياك أن تغبنا
وأثاره من هُنا أو هُنا
وهذا التواصلُ قد أمكنا
وإن حَسَنَ الدمعُ عندَ الهَنا

شربتُ بكأسٍ ما رآها أخو أسى
فكرزُ بسمعي ذكرَ سَفْحِ طويلِ
ومنه قوله: [من الكامل]

بأنوا وخلفني الأسى في ربّهم
ولو استطعتُ فراقها لتبعثهم
ومنه قوله وهو من باب المغايرة: [من الكامل]

ولقد ذكرْتُكِ والفوارسُ نحونا
فنسيتُ حُبّكِ عنه ذاكَ فخامةُ
ومنه قوله: [من البسيط]

مَنْ حاتمٌ عنه واطّرخَ فيه^(١)
أينَ الذي برّه الآلافُ يتبعُها
لو مُثّلَ الجودُ سرحاً قالَ حاتمُه:

ومنه قوله: [من البسيط]

ياراكِبَ الناقةِ الوجناءِ مُشتملاً
يؤمّ قبلَ ازدحامِ الركبِ طيّبه كي
كن لي رفيقاً لاسعى نحوها عَجلاً
عساك تحيي بما توليه من كرمِ
وإن أتيتَ فقلّ خلفتُ مرتهاً
ومنه قوله: [من المتقارب]

بلغتُ مرادي ونلتُ المُنَى
فماذا ارتجى بعد ذا
فبُشراكِ بُشراكِ يا ناظري
فحيثُ التفتتُ رأيتُ الرسولَ
تملّى فهذا مكانُ الحبيبِ
وخلّ الدموعَ إلى وقتِها

(١) كذا ورد صدر البيت في الاصل.

وختمت ذكر شيخي رحمه الله بهذه الأبيات المتضمنة للمديح الشريف ليختم
بالصالحات عمله وإني لاؤمل أن يحسن في دار الكرامة نُزُلُه، وأن لا يخيب في الله
وفي رسوله ﷺ أَقْلُهُ، ﴿خَتَمَهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (١).
ومنهم:

[٢٥]

ابن حمائل

علي (٢) بن محمد بن سليمان بن حمائل، الشيخ الإمام، جمال

الدول، علاء الدين أبو الحسن

أهل هذا البيت تخدمهم الامم، من بيت صلاح ما فيه شبهة لمن يذم، وكتب
الإنشاء منهم جماعة، وتلقوا بالفطرة سرّ هذه الصناعة، فنفذوا لسلطان البراعة،
ونفثوا سحر البيان في عقد اليراعة، وكان هذا الرجل نسيج وحده، في العوارف
الحسان، ونسيب جدّه أعنى غانماً (٣) غانماً للإحسان، مع ملاسته للدول في أمورها،
وممارسته لها في أحوال حزنها وسرورها، إلا أنه كان يحجزه دينه، ويحجبه يقينه،
وكان أقوم أهل بيته برئاسة لاكبر فيها، ورياضة لا كدر لصابيها. ومرؤة كانت تلذ له
ولو أدت إلى الخطر، وأبدت / ٣٤٤ / الأهوال دون الوطر، ووقع على القصص،
فأولى منناً، وأجرى الله به الخيرات زمناً، ولم يقصد إلا وجه الله بفعله، ولا أسدى
المعروف إلا لأهله، ثم مات غائباً من جرى لهم به ذلك المعروف، وبقي في
بقاياهم، وحصل به الملوك الذين كتب منهم الآخرة ببعض دنياهم، ولم يكن أسرع
منه إلى أداء حق واجب، ولا أدعى لصحبة صاحب، ولا أسبق إلى عيادة مريض
وتشييع جنازة، وتنويع كرامة وغزارة، مع ملازمة الصلاة مع الجماعة، وتعهد
للمسجد، ولو قدر لما غاب عنه ساعة، ومداومة تلاوة لا تفتقر من ترادها، وصلوات
لا يخلّ بأورادها، هذا وبابه مفتوح، وسحابه ممنوح، وتجشمه مع جلسائه مطروح،
وتجهمه بالنسبة إلى غيره خفة روح، لبشاشة وجهه تروي غلة الصادي، وسعة صدره

(١) سورة المطففين: ٢٦.

(٢) وقيل في اسمه، علي بن محمد بن سليمان، ولد سنة ٦٥٢هـ ومات بتبوك سنة ٧٣٧هـ.

(٣) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٣٣/٢٢، وفوات الوفيات: ٧٨/٣، والدرر الكامنة: ١٠٣/٣،
وشذرات الذهب: ٢٠٠/٨، وتلخيص مجمع الآداب: ٥٨/٢/٤.

(٣) غانم جده لأمه، وقد شهر المترجم بنسبته إليه، فكان يقال: علاء الدين ابن غانم (الوافي: ١٩/٨).

تفيض على رحاب النادي، وسرعة إجابة تعاجل صوت المنادي، مع يدٍ في هذا الشأن لا يخونها بنانها، بل يزينها بنيانها.

ومن نثره ما اتعب القرائح في أثره قوله يصف قلعة^(١):

ذات أودية ومحاجر، لا تراها العيون لبعدها إلا شزراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نزرأ، ولا يظنّ ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر المحيط، إلا أن هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، ولها واد لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرّ الهواجر، وقد توعرت مسالكه. ولا يداس فيه إلا على المحاجر، يتفاوت ما بين مرآه العليّ وقراره العميق، ويقتحم راحبه الهول في هبوطه، وكأنما ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَّتْهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾^(٢).

ومنه قوله ولقد أحسن في وصف القلم فقال:

القلم الذي كم أعان من هو قارىء للحروف، ومن هو لصنوف الضيوف قاري. وهو الراكع الساجد في ملازمة الخمس طاعة للباري، شقّ لسانه فناطق، وأنار صباحه وهو على جلايبب / ٣٤٥ / غسق، ثم خضع له السيف، وزاره معنى تخيله لمامد، وهكذا في الظلام زور الطيف، ولم يزل يعظم ويتسود، ويحكى الرمح فيتخطر، والغصن فيتأود، ويقيم فلا يقات، ويسافر فيتزود.

ومنه قوله:

فسارعوا إلى انجاد من نازله العدو من إخوانكم المسلمين، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، وامضوا عليهم بقدمكم واقدامكم، وانصروا الله بجهادكم واجتهادكم، فانكم ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٤)، وكتاب الله أولى ما عمل به العاملون، قال الله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

ومنه قوله:

وقد تجردوا عن العلائق، واشتغلوا بخدمة المخلوق^(٦) عن الخلائق، وبرثوا من التكلف، وزهدوا في عرض الدنيا فهم من الذين تعرفهم بسيماهم و﴿بِحَسْبِهِمْ

(٢) سورة الحج: ٣١.

(٤) سورة محمد: ٧.

(٦) كذا في الاصل، ولعله أراد: بخدمة المخلوق.

(١) الوافي بالوفيات: ٣٤/٢٢.

(٣) سورة التوبة: ٣٦.

(٥) سورة التوبة: ٤١.

الجاهل أغنياء من التَّعَفُّفِ^(١).

ومنه قوله يصف الكرة.

وانتهى إلى حديث الرغبة في تلك اللعبة، وهي الجارية التي لم تزل بالضرب دانية شاسعة، متبدلة من الطراد والإبعاد، دائرة في أرض الله الواسعة، فلم تزل أيدي الأيديين، وحملات المؤيدين خافضة لها رافعة، تالية في مجال القتال إلى النجم، فإذا وقعت الأرض تلالها ﴿وَإِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾^(٢) من الشجر الأخضر كونها، وإذا سأل عنها سائل قيل: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾^(٣)، لاتزال الفوارس إليها كالجهاد بالجياد تتعادي، وعليها مع المرافقة والمصادقة بالتنافس تتعادي، تشبه الهامة الملقاة بين أرجل الجياد في الحرب، ولا تزال هاربة من طالبيها لكثرة مايقع فيها من الضرب، تنفر من الأبطال نفور حمر مستنفرة فرّت من قسورة، وتتواثب عليها الرجال تواثب الليوث الضارية، فكم لهم من الكرة على تلك الكرة.

ومنه قوله في توقيع رجل يعرف / ٣٤٦ / بالجمال إبراهيم:

فليعمل بتقوى الله في هذه الأعمال آتياً فيها من حسن التأني كل ما يليق أن تشاهده العيون من الجمال، وهو أدري بما يعتمده، إذ هو الصدر الذي كل أحمد بعلمه عليم، والرئيس الذي لا يخفى بين الرؤساء، وهلا يخفى مقام ابراهيم؟.

ومنه قوله من كتاب كتبه:

يقبل اليد لا زالت بمننها موسية، ولكلوم القلوب بطب كلامها آسية، ولعهود محبيها على ممر الأيام، وإن نسيها من نسيها غير ناسية، وينهي ورود الكتاب الكريم، فتسلى كل من حجبته النوى، وتملى بنضارته ومحاسنه عن وجهه بالجفاء قد جفت، وعصر بالذم قد ذوى، وعلم الإشارة العالية إلى أمر الحبيب النازح، والذي [إذا] جدّ في الصد كان غير مازح، وإنه استدلّ من كلام المملوك على شدة موجدته لبعده، وعدم صبره عن استجلاء وجهه واعتناق قدّه، ودعا بعودة ذلك الغائب قبل أن يذوى عوده، ورجوعه قبل أن تنطفئ بطلوع الذقن سعوده، وقد تحقق تفضله وهو نعم من أمّه الشاكي وأمّله:

[من الطويل]

ولا بُدّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجّع

ومنه قوله في كتاب إلى قاضي القضاة إمام الدين القزويني^(٤):

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

(٢) سورة الواقعة: ١.

(٣) سورة البقرة: ٦٩.

(٤) القاضي امام الدين، ابو المعالي، عمر بن عبد الرحمن بن عمر، القزويني، الشافعي، المتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٩ هـ. (البداية والنهاية ١٤).

أدام الله الأنس بقرب الجناب العالي القضائي الامامي، وجعله للمتقين إماماً، ورأيه للصواب زماماً، ولقائه بمنه حيث يحلّ تحيةً وسلاماً، ورد المشرف الكريم الذي تلقاه بقلبه قبل يده، وحلّ منه بمحل روحه من جسده، وناظره من أسوده وسرّ بما تضمنه من أخبار قربه، وبما دلّ عليه من فنون فضله الذي المملوك منه على بينة من ربه، ويحقق الإشارة الكريمة في تفويض قضاء القضاة إلى نظره الكريم، وحصول التعويل في ذلك على مقامه الذي يتشرف به كلّ عظيم، ولقد حال هذا المنصب من جلاله قدره ما سر به واغبط، وتحقق بمصيره إليه أنه على الخير / ٣٤٧/ به سقط، ووصل التقليد الشريف، وقبل وقوبل بالامتثال، وحصل السرور به وعم، وكمل به هناء القلوب وتم، وعرض له من الارتياح إلى لقائه ماسلبه القرار، وعظم به الشوق عنده، وأعظم مايكون، إذا دنت الديار من الديار، ولولا مايعلمه المولى من التصدي لمهمات الاسلام، لمانابت من قصد لقائه الاقلام عن الاقدام، والله تعالى يقدمه قدوم البدر بروج سعوده، ويديم في المعالي سموه إلى الغاية التي لا مزيد على غايتها في صعوده.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

بكيث بدمع فاق دمع الغمام
على جيرة جار الزمان لفقدهم
مضت لي بهم أيام أنس حميدة
وإني بأرض الشام اشتقاق أرضهم
فلله أيام الصبا حيث لا نرى
ومنه قوله^(١): [من الطويل]

وكم سرحة لي في الربى زمن الصبا
ويسكرني عرف الشذا من نسيوها
وأسأل فيها مبيم الروض قبلة
فلله روض زرتة متنزهاً
غدا الغصن فيه راقصاً ونسيمة
ترجلت الأشجار والماء خر إذ
تغنت لديه الوزق والغصن راقص
أشاهد مرأى حسنهما متمليا
فأقضى هوى من طيبه حتف انفيا
فيبرز من أكمامه لي أيديا
فأبدى لعيني حسن مرأى بلا ريا
يكر على من زاره متعديا
نسب الصبا أضحى [به] متمشيا
فيغرق وجه الأرض من كثرة الحيا

وهذه أبيات لله من سمع مثلها، لو حصلت لابن خاقان لجعلها واسطة قلائده،
أو ابن بسام لاتخذها من أفضل ذخيرته^(١).

ومنه قوله: [من البسيط]

فَعَدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ بِهَا
فَعَنْ قَلِيلٍ إِلَيْهَا سَوْفَ تَنْتَقِلُ
/ ٣٤٨ / وَاذْكُرْ مِصَارِعَ قَوْمٍ قَدْ قَضَوْا وَمَضَوْا
كَأَنَّهَمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدَمَا رَحَلُوا
يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا قَالُوا وَقِيلَ لَهُمْ
وَمَا الَّذِي قَدْ أَجَابُوا عِنْدَمَا سُئِلُوا

ومنه قوله^(٢): [من مجزوء الرمل]

سَلَبَ الْمَهْجَةَ مِنِّي بِالْجَفْوَنِ الْفَاتِرَاتِ
لَوْ يَزُورُ الْبَيْتَ لَمْ يَرِ مِ الْحَشَا بِالْجَمَرَاتِ
وَكُنْتُ قَدْ بَعَثْتُ لَهُ دَرَجِينَ أَحْمَرِينَ مِنَ الْوَرَقِ، ثُمَّ لَمْ أَعِدْ أَجْهَزْ لَهُ بَعْدَهُمَا شَيْئاً
فَكُتِبَ إِلَيَّ: [من البسيط]

يَا مَنْ مَكَارِمُهُ عَمَّتْ فَكَمْ شَمَلْتُ
قَدْ كُنْتُ أَرْسَلْتُ لِي دَرَجَتَيْنِ لَوْنُهُمَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ لَمْ أَفْرَحْ بِمَثَلِهِمَا
ذَا فَاقَةَ مَا بَقِيَ مِنْهُ سِوَى الرَّمَقِ
مِنْ حُمْرَةٍ مِثْلَ لَوْنِ الشَّمْسِ فِي الْأَفْقِ
مِنْ سَيْدِي لَا وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْوَرَقِ
فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ دَرَجِينَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَكُتِبَتْ إِلَيْهِ مَعَهُمَا: [من البسيط]

أَمْسِكْ سَحَابَكَ لَا يُفْضِي إِلَى الْعَرَقِ
بِدَائِعٍ مِنْ عِلَاءِ الدِّينِ بَتْ بِهَا
مَطْلُوبُهُ وَرَقٌّ مِنِّي وَيَا عَجَباً
وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ تَجَلَّى الْخُدُودِ لَهُ
وَمَا عَلَيَّ إِذَا أَرْسَلْتُ رَائِدَهُ
هَذَا عَلَيَّ وَهَذَا جُودٌ رَاحَتِهِ
فَقَدْ كَفَى مِنْهُ صَوْبُ الْوَابِلِ الْعَدَقِ
أَلَدَّ فِي طَيْبِ تَقْبِيلٍ وَمَعْتَنَقِ
مِنَ الْغُصُونِ إِذَا احْتَاجَتْ إِلَى الْوَرَقِ
فِي أَحْمَرِ شَرِقٍ أَوْ أَبْيَضِ يَقْقِ
وَعَادَ بِالشَّهْبِ مَخْبِوءاً مِنَ الْأَفْقِ
يَا مَنْ رَأَى الْبَحْرَ وَالْأَنْوَاءَ فِي نَسَقِ
وَمِنْهُمْ:

(١) الإشارة إلى كتاب (قلائد العقيان) للابن خاقان، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الشنتريني.

(٢) البيتان في الوافي: ٣٧/٢٢، والفوات: ٨٣/٣.

[٢٦]

عبد الباقي^(١) بن عبد المجيد بن أبي المعالي متى^(٢) بن أحمد بن محمد بن عيسى بن يوسف القرشي، المخزومي، أبو المحاسن، تاج الدين، المعروف باليماني، المكي مولداً

أحد مشاهير الأدباء، وأحد جماهير الأولياء. سرحه فضائل، ودوحة علم يتفياً ظلالها عن الأيمان وعن الشمائل، بحر يؤخذ منه در^(٣) بلا ثمن، وروض^(٤) تجد منه روح الرحمان من قبل اليمن. قدم مصر قديماً ثم الشام، وأقام بدمشق مدة، ثم هفت به ريح يمانية، وذهب بلبه برق علانية، / ٣٤٩ / فسلب قراراً، وغلب استقراراً، وعاد إلى وطنه آيباً، وعاود وسكنه لاذاماً ولا عائباً، واتصل بالملك المؤيد داود، ووصل منه بثقة ودود، فعول عليه وقلده كتابة السرّ لديه، وبقي حتى انمحي من اديم السماء هلاله، وأضحت في تلك الأفياء ظلاله، فقرّبه قريبه الملك الظاهر قرباً حقهه الملك المجاهد بن الملك المؤيد، فأخذ أمواله واجتاحها، ونزف أمواله وامتاحها، وتطلبه ليردي به ففرّ وسكن مصر، ثم ما استقرّ فقصد دمشق، ثم أتى القدس الشريف واستوطنه، واتخذ المسجد الأقصى موطنه، ورأيته به بين علوم ينشر جناحها، وتعبداً يضيء في حندس الليل صباحها.

ومن نشره قوله من رقعة كتبها إليّ قال فيها :

وكتبها المملوك في يوم توقّدت جمرته، وطالت في نهار القيظ حجوله وغرّته. ونارُهُ على الأكباد موقدة، لو لم يكن إلاّ لأن المملوك فارق سيده، ونسيم المملوك

(١) عبد الباقي بن عبد المجيد، المخزومي، أصله من اليمن، وبها ولد سنة ٦٨٠هـ، وقدم دمشق ومصر وحلب، ودرس بالمشهد النفيسي، ودخل اليمن فأقام بها مدة وولي الوزارة، ثم عزل وصودر، واستقر بالقدس، درس به واشتغل، وتردد بين دمشق وحلب وطرابلس، ورحل إلى الشام، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٣هـ. أو ٧٤٤هـ.

وكان أديباً، مؤرخاً صنّف كتباً، منها «إشارة التعيين إلى تراجم اللغاة والنحويين» في دار الكتب. و«القطعة العجلان في مختصر وفيات الأعيان» في جامعه اكسفورد. و«الاكتفا في شرح الفاظ الشفا» في دار الكتب، و«بهجة الزمن في تاريخ اليمن» وفي نهايته ترجمة كتبها مصطفى حجازي.

وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٤٢٣، وشذرات الذهب ٦/١٣٨، وفوات الوفيات ١/٢٤٥، والبدر الطالع ١/٣١٧، والوفاء بالوفيات ١٨/٢٣، والنجوم الزاهية ١٠/١٠٤، والأعلام ٣/٢٧٢.

(٢) في الشذرات: ابن عبد المجيد بن عبد الله، وفي الدرر: ابن عبد المجيد بن عبد الله بن متى بن أحمد.

(٣) في الاصل: درأ. (٤) في الاصل: روضاً.

سموم، وشربه يحموم وحشاه تكاد تذوب، وجفنه كراه في نهاره وليله مسلوب،
وهيهات ﴿ضَعْفُكَ الظَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(١).

فكتبت عنها إليه جواباً منه :

وكتبتها واليوم قد طال في أفقه جناح الشعاع، وأدهم الصبا وغرّ برقه اللماع،
وصرّ الجندب في نواحيه، وسكت الطير بعد تلاحيه، وغرق في آلة الليل وعرف
بسواده في كفّ ماحيه، والشمس في كبد السماء ترمي بشرر كالقصر، والأصيل قد
آلى أن لا يمد ولا يجنح للعصر.

ومن نثره أعني اليماني قوله :

وينهي أنه بلغه وفاة الولد، وأن الله نقله إليه ولم يعلق بشيء من الذنوب، وجعله
ذخيرة وفرطاً لمولانا يوم يجازى كلّ امرئ بما قدّم من سالف العمل المحسوب،
فلقد جرّع الاحشاء صابهُ، وجرح القلب لساعة التفريق مصابهُ، وقطع الاكباد فقدمه،
وأورث الأحزان بُعده، فباله من قرّة عين أورثها القدر قذى الأجفان، وغصن سؤدد
اقتطعته قبل الازهار يد الاحزان، وهلالُ حُسنٍ / ٣٥٠ / اعتوّرَ نوره الحدثان، وثمرة
جودٍ أودعت مدارج الأكفان، وربّع أنسٍ أمسى صاحبه بالخطوب خلاً، وفادح أمرٍ
أضحى بيان أمره جلاً، على أن الخطوب لا تزاحم إلا ثبيراً، ولا تعاند بورودها إلا
كبيراً، وفي سجايه الكريمة خلاً قل أن تكون لغيره من الناس، وصفاتٌ تفرّد بها
وهي الثبوت عند هجوم البأس، ولئن غاب من سماء علائه هذا النجم الزاهر، وذهب
أثره المنير الباهر، فكم في فلك محامدِه من نجم سيادةٍ بأنوار الرئاسة ساطع،
وكوكبٍ فضلٍ ما يقال له : هذا غارب حتى يقال لأخيه : هذا طالع.

ومنه قوله من كتاب كتبه إليّ :

وينهي أنه لما كان من خدم هذا البيت الشريف، والغني بسمة ولائه بين أوليائه
عن التعريف، وقد سارت مدائحه في هذه البقية العمرية مغربة ومشرّقة، ومنجدة
ومعركة، يهجم بها وجفنه لبعده عن باب سيده لا يذوق غمضا، ولا يعرف ليلاً أقبّل
أو يقضى، وقصارى مناه أن لا يقبل فيه قول حاسد، أو جاهل، حاشا المجلس
الشريف، أو عالم معاند، ومولانا يعذر المملوك، فإنه كتب هذه الضراعة والليل
أسفر دجنه، والسهر قد توسّم المملوك حتى تغيرّ ذهنه، والمملوك ما يتغيرّ في هذا
البيت المعمور العمري ظنّه.

فكتبت له جواباً منه :

وانتهى إلى هنا، والنسيم في السحر قد هلهل ثوب الظلام، وسحب رداه على أعقاب ذيول الغمام، والجوزاء قد انتشرت تحت مسبح السرطان، وشعاع الشمس المحمر قد غرق في مقلة الأسد الغضبان، والديك قد طلع على شرف الجدار، وصاح في الليل منه جاويز النهار، والمصاييح قد فرغ سليطها، وكثر في ضوء الصباح تخليطها، فوقف المملوك وقفة الحيران، وتلملم تلملم الغيران، وأراد أن يطيل القول بقدر ما يدعوه إليه رائد الشوق، ويحمله على أن يحمل السمع الكريم فوق الطوق، ثم رجع فعاتبه الطليح، وجاذبه قلمه الطريح، وابنه أدبه / ٣٥١ / وقال له :
قد آن لك أن تريح الرجل من تطويلك وتستريح.

ومنه قوله : أعني اليماني في كتاب يزعمه في معنى الكتاب الفاضلي بفتوح

القدس :

هذا وعلوم الديوان العزيزة محيطة باستيلاء أهل التثليث على البيت المقدس .
والمسجد الذي هو على التقوى مؤسس ، وأنهم جعلوه مفزع طريدهم ، ومقر شريدهم ،
ومعقل رهبانهم ، ومعلم أديانهم ، ومقر طالبهم ، ومنتجع هاربهم ، ومنهج شرعتهم ،
وعمود بيعتهم ، وعكاظ نفاقهم ، وموسم شقاقهم ، وبادي سمارهم ، ومظهر شعارهم ،
ومنار منارهم ، وملتقط أخبارهم ، ومنزل أخبارهم ، مع أن طوائف الفرنج بيعته طائفة ،
وأمم النصرارى على دين الصليب به عاكفة ، لا يعرفون عن الانجيل غير ما بدّلوه ، ومن
القرب غير ما مثلوه ، فهض إليه الخادم في جحفل من أولياء الدولة القاهرة ، يرون الموت
مغنماً ، والسلامة مغرماً ، والهزيمة عاراً ، والادبار ناراً ، ما حلّوا بأرض إلا وأبنت من
ساعتها قناً ، ولا نازلوا حصناً إلا بلغوا من شامخه المنى ، وبايعوا الله على أحماده
جهارا ، وعاهدوه على أن لا يذر ماضي سيوفهم على وجه الأرض من الكافرين دياراً ،
فلما شاهدنا رفعتها ، وميّزنا علوها ومَنَعَتها ، رأينا معهداً أخذ الشيطان على أهله أن
لا يخفر لهم عهداً ، وعلمنا أمسى لدين النصرانية على ما أدعوه فرداً ، قد كملوا عدتها
وعديدها ، واستخدموا للمحاربة شقيتها وسعيدها ، وإذا رأوا على أرجائها حفيراً لجمالها
سواراً ، ولحمايتها من التطرق إلى منازعة نزعتها إسواراً ، بناء ولكن تقصر عن مماثلته
يدان ، وإتقان هو بلا شك من صنعة الجان ، وعمارة ولكن من ساحر عتيد ، وتدبير ولكن
عن رأي شيطان مريد ، وتماثيل يخيل إلينا من سحرهم أنها تسعى ، وصحراء أرض ليس
لمن أقام بها ظلّ هناك ولا مرعى ، فاسترقينا مكاناً دلّنا عليه حسن الايمان ، نصبنا على
ارجائها منجنيقاً هدر بازله ، وهتّم نغر تلك الأبنية نازله ، وتجسّدت عصية حياتٍ تلقف ما

صنعوا، وفرقت ما جمعوا، وظل لنا / ٣٥٢ / ولهم يوم ولا كيوم ذي قار، وحرب ولكن أين حزب أهل الجنة من حزب أهل النار، سيوف مخروطة، وأيد منا ومنهم بالدعاء ميسوطة، وعجاج انعقد مثاره، وقسطل ولكن استعر بحوافر الصوافن إواره، قد بذلوا أنفسهم دونها، وراموا ولو بهلاكهم صونها، وعلا شرفاتها منهم أمم لأتخصى، وجمع آلت يد المنية لعددهم لا بد تستقصى، ولم تزل المنيا تشحن بقوة الله ذلك الحفير، وتورد سكان تلك البقاع بعون الله سوء المصير، ثم سارت رجافتنا، وحال النقب في أرجائها، وبلغت الأمانى من النصر غاية رجائها، وصيرناها بالحديد والطلل الدارس بعد المشيد، وحملنا عليهم بقلب رجل واحد، فانطمس محكم التثليث، واستبان طريق الواحد، وتفرق من بها بين أسير أثقلته أغلاله، وقتيل غرته بالاقدام أماله، وطريد لا يعرف له مكاناً، وخائف كلما تبدى له مرأى ظنه إنساناً، وفتحناها بكرة الجمعة، وعَلَّتْ أعلام الخلافة المعظمة على بقايا شرفاتها خافقة، وأطلاب الاسلام لاستئصال شأفتهم متلاحقة، وقام خطيبنا على صهوة المنبر الأقصى مرتجلاً، وصاغ أوصاف المواقف المعظمة والمواطن المكرمة لجيده حلى، وذكره الحرب وكان ناسياً، وألان له بالمواعظ قلباً وكان لعدم الأذكار قاسياً، وأعدنا إليه ما كان يعهده من الجمع، وتقدمنا بهدم ما استحدث من البيع، وشيدنا مادثر من كل مشهد، اعتمدوا تخريبه ومعبد، واستنقذنا معالم الصخرة الشريفة من الإشراك، فعادت إلى إخوة الحجر الأسود، وهذا الفتح، وإن كان المقصود منه مكاناً مخصوصاً، فهو فتح يشتمل على مدنٍ عامرة، ورباع غير غامرة، وقلاع مرفوعة، وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقرى ظاهرة، وركبان واردة وصادرة، وهذا المسجد شقيق الحرمين، وثالث الرحلتين، ومعبد الأنبياء وموطن بركة الأولياء، فله درّه فتحاً أقر نور الدين في ناظره، وشعار الإسلام في مشاعره.

قلت: ووقفت على رقعة ذكر فيها يوماً، أصبح والثريا فيه كأنها / ٣٥٣ / في بروج المطالع، كف جود تختمت في رؤوس الأصابع، والصبح جام لجين ملأته أشعة الشمس خمرا، والمجرة بحر مزيد يقذف الفواق دراً، والنسر قد حنجر مما حام، وسهيل قد تقدم خوفاً من الزحام، وقد عارضت وسط السماء الشعري، كأنها ياقوتة في مذكرى، والجوزاء قد مالت كشارب قهوة لم تمزج، أو حسناء تنفست في المرأة ونظرت محاسنها ولم تتزوج^(١).

(١) تضمين لقول أبي بكر الخالدي: (ديوان الخالدين ٣٤)

وتمايل الجوزاء يحكي في الدجى	ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنفست بخفيف غيم ابيض	هي فيه بين تخفّر وتبرج
كتنفس الحسناء في المرأة إذ	كملت محاسنها ولم تتزوج

والرقعة هذا مضمونها وهو:

أسعد الله مولانا بهذا اليوم الذي تمثّلت ثريّاه صورة كأس يطاف به على
الجلاس، وأتى نسرهِ إلى المجرّة حائماً على الورود، زارياً كأنه مجهود والجوزاء
مسبلة الذوائب، وسهيل لها خاطب، والشعري شعرها وغدائرها الغياهب، ومدّ الله
عمر مولانا، ومتّعهُ بشرف المناقب.

وبهذا ذكرت قولِي من قصيدة وهو: [من الكامل]

شَقَّ الصِّبَا حُ غَلَالَةَ الظُّلْمَاءِ وَجَلَا النَّهَارُ غَدِيرَ كُلِّ سَمَاءِ
لَوْلَا كَوَاكِبُ فِي الصَّبَاخِ تَأَخَّرَتْ كَحَمَائِمِ مَبْثُوثَةٍ فِي مَاءِ
بِصَبِيحَةٍ رَقَّتْ حَوَاشِي هُدْبِهَا وَوَشَى النَّسِيمُ بِهَا إِلَى الْأَنْوَاءِ
حَتَّى تَجَلَّتْ مِثْلَ حَوْدٍ خَتَمَتْ بِالنَّجْمِ تَحْتَ مِظَلَّةِ الْجَوَازِ
وَبَدَا سَهِيلٌ ثُمَّ وَالشُّعْرَى يَلِي الـ يَاقُوتَةَ الصَّفْرَاءِ بِالْحَمْرَاءِ
وَكَأَنَّ مَا زَهَرَ الْمَجْرَّةُ رَوْضَةٌ قَدْ كُتِلَّتْ بِجَوَاهِرِ الْأَنْدَاءِ
وَالنَّسْرُ فِي شَفَقِ الصَّبَاخِ مَشْمُرٌ كِي لَا يُبَلِّ لِبَاسُهُ بِدَمَاءِ

عدنا إلى اليميني. ومن شعره قوله: يذم عدن^(١): [من الكامل]

عَدْنٌ إِذَا رُمَتْ الْمَقَامَ بِرَبْعِهَا فَلَقَدْ تُقِيمُ^(٢) عَلَى لَهَيْبِ الْهَادِيَةِ
بِلَدِّ^(٣) خَلَا مِنْ فَاضِلٍ وَصُدُورُهُ أَعْجَازُ نَخْلٍ إِذْ تَرَاهَا خَاوِيَةً^(٤)

وقوله: [من الوافر]

إِذَا حَلَّتْ أَيَادِي الْبَرْقِ رَمَزَا عَلَى كَنْزِ الْعِمَامِ سَقِينِ حِرْزَا
وَأَمْطَرَتِ الْغَيُومُ خِيُولَ سَيْلٍ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى يَجْمَزْنَ جَمَزَا
أَثْرَنَ بِيَاتِهِ فَكَسَا رُبُوعاً تَعَرَّتْ عَنْ مَلَابِسِهِنَّ خِرَّزَا
وَبَاعَ الْمَشْتَرِي لِمَا تَوَالَى مَحَبَّتَهُ لَكِفِّ الْأَرْضِ بَزَا
وَاطْلَعَتِ الرِّيَاضُ نَجُومَ نَوْرٍ فَتُغْرِبُهَا أَيَادِي الشَّرْبِ حِرَّزَا
/٣٥٤/ وَوَلَى عَسْكَرُ الظُّلْمَاءِ هَزَمَا أَخَافَتْ مِنْ سَنَانِ الْبَرْقِ وَخَزَا
فَحِينئِذٍ تَرَى عُقْدَ الثَّرِيَا عَلَى جَيْدِ الْحَمَائِلِ قَدْ تَجَزَّى

(١) البيتان في الدرر الكامنة: ٤٢٤/٢، والوافي: ٢٦/١٨، والفوات: ٢٤٧/٢.

(٢) في الدرر والوافي: أقيمت. (٣) في الأصل: بدر، والتصويب عن الدرر والوافي.

(٤) في الأصل: هاوية، والتصويب عن الدرر.

فما هذا التأتّي يا نديمي لقد خالفت إذ خالفت عجزا
وجامُ الشّربِ يُنسبُ للثّريا وشمسُ الراحِ نحوَ الكرمِ تُعزى
فواصلني بها فلعلّ دائي يزولُ إذا شربتُ الخمرَ مُزّا
على نهرِ المجرّةِ والدراري عيونٌ حولها يُبدینَ غمزا
فجرّدُ جيشٍ لهوكٌ ياخليلي لغزوِ غنيمَةٍ مِنْ قَبْلِ تُغزى
ومنهم:

[٢٧]

ابن غانم عبد الله^(١) بن علي بن محمد بن سلمان^(٢)، عرف بابن جمال الدين،
أبو الفضل، غانم المقدسي

شاب برع وبهرّ، وطلع مثل الكواكب وظهّر، وما أعرف في أيّ وقت اشتغل،
ولا متى ألهب سَعْفُهُ واشتعل، كأنما لقن سحر البيان من حين ولدته أمّه، وبزغ في
الأفق نجمه، وأتى بلطائف الشباب، وتلاءم في الكؤوس جائل الحباب. هذا إلى
حسن خط كأنما نممه عذاره، وقيام حسنه عن المحبين باعذاره، وهذا كلّه في مدّة
أقصر من رجع النفس، واسرع من قدح الزناد للقبس، في زمان أعجل من إيماء
المليح، وأقلّ من مقام الضيف عند الشحيح، لكنّه لما جاء بالألفاظ يبهر حسنّها،
ويرجح وزنها، ظنّ أنه قد انتهى، وتناول بإحدى يديه القمر وبالأخرى السها، فترك
الطلب، وقد كان له انتصب، واستنزف ثمده البلى حتى نضب، وكان يشغله مايشغل
الشباب، ويصرفه عن الثبات على حال مايصرف النسيم الهاب، فكان لا يرى مستقرّاً
قدر دقيقة، ولا رجع طرف حقيقة، فكان يعيبه التهور^(٣)، ويزينه كثرة التصور، وما

(١) عبد الله بن علي بن محمد بن سلمان بن حمائل، جمال الدين ابن غانم، وقد تقدمت ترجمة عمه
شهاب الدين أحمد.

وكان أديباً شاعراً مترسلاً، ولد سنة ٧١١هـ بدمشق، واشتغل بالحديث، وولي إنشاء الديوان بالشام،
وله مع الصفدي مراسلات ورد بعضها في الوافي.
وتوفي شاباً بدمشق سنة ٧٤٤هـ.

انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٢٢٧/١، والدرر الكامنة: ٢/٢٨٢، والوافي بالوفيات: ١٧/
٣٥٠، وأعيان العصر: ٢/٦٩٦، والأعلام: ٤/١٠٦.

(٢) في الفوات: سليمان. قال الزركلي: وهو مضبوط في مخطوطتي من «الحن السواجع» بضمّة على
السين - سليمان وفيه مراسلاته مع الصفدي في نحو ١٢ صفحة.

(٣) في الأصل: الهور.

سلم حتى ودّع، ولا تلقته القوابل حتى شيعه من شيع.

ومن نثره قوله في جواب كتبه عن نائب الشام تنكز^(١) إلى نائب طريق في معنى الحريق^(٢) الذي حصل بدمشق سنة اربعين وسبعمائة:

أعزّ الله أنصار المقر الشريف، وحرس برّه الذي يتحرى، وحبوه الذي يتسرّع إلى القلوب ويتسرّى، وأمره الذي / ٣٥٥ / يبرد بنداه كلّ كبدٍ حرّى، وسره الذي إذا ناجته خواطر الإشفاق والإرفاق انشدهما: (قفانبك من ذكرى) المملوك يقبل الباسطة الشريفة، تقبيلاً يبرد به الغليل. ويداوى بطبه الفكر العليل، وينهي ورود مشرفة تتضمّن أمر الحريق الذي حصل بدمشق في هذه المدة، حتى أحرقتها بنارِه، وحفّ جنتها بالمكاره، وسلّ عليها سيف الضرام، وحكم عليها حكم الدهر على الكرام، وأطلع في وجه شامها لغير الحسن شاما، وكاد يأتي عليها لولا تدارك لطف الله بـ ﴿يَنَارًا كُوْنِي بَرْدًا وَسَلْمًا﴾^(٣) وهجم على جيرون^(٤) فغير وهشتها، وعلى الخضراء^(٥) فرمى فرشتها، وعلى اللبادين فكسر قلبها؛ لأنه كان زجاجاً، وعلى الوراقين فما شعرت حتى صارت باللهب كل وراق سراجاً، وكل طلحية وقد تفرّق طلحها المنضود، وكل كراسة وقد رد وجوها البيض وهي سود، واضحى فم الفوّارة يصّاعد حجرات انفاس، وسوق النحاسين يرسل منه إلى سور الجامع شواظ من نار ونحاس، وكل محبوبة بالطرائفين وقد رأت مكروهاها، وكلّ براعة دهماً وقد ابيض بالنار فودها، فلذلك سودت الدوي وجوهاها، وغادر كل دكان دكا، فأوسع قوائم العمد وأظلاع السقوف كسراً وفكّاً، واقعد بيت الساعات إلى قيام الساعة، ودخل إلى باب الجامع لكن لغير طاعة، وكان يصلي به من يُصلي، ويقبل على صف العابدين فيولّي، واهتزت المأذنة بحمى نافض، وتشعثّ وجه المشهد لأبي بكرى فكأنما أصابته عين الروافض، وترقرقت عيون العابدين من الألم، ورقّ صحن الجامع لمأتم هداة الساجدين من المأذنه بنار على علم، ومازالت مرآة اللهب حتى خربت المنار، وصف بعد ذلك في صحن الجامع ما فضل عن أكل النار، فيا لها داهية عمّت

(١) تنكز، ابو سعيد، سيف الدين، وكان نائب السلطان بالشام، وكان محمود السيرة، حازماً مهيباً، قبض عليه السلطان الناصر وقتله سنة ٧٤٤هـ، ودفن بدمشق. (الوافي: ١/ ٤٢٠، والبداية والنهاية: ١٤/ ١٨٧).

(٢) انظر خبر الحريق في البداية والنهاية: ١٤/ ١٨٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٤) جيرون، اسم قصر مقابل الباب الشرقي للجامع الاموي، لاتزال اطلاله باقية.

(٥) الخضراء: اسم قصر بناه معاوية بن أبي سفيان، جنوبي الجامع الاموي.

المسلمين ومصيبة سودت وجه الدنيا، فبيض الله وجه الدين، وواقعة لها اقتربت الساعة، وقارعة لولا المعوذات لما قُبلت فيها شفاعة، وباليها عيناً دخلت على هذه الأسواق فَخَلَّتْ، وبدأ استجدت منها محاسنها فأعطتها وما بَخَلَّتْ. /٣٥٦/ كانت لعمارتها رمانة. فأُمِسَّتْ جَلَنَار، وكانت محاسنها ليس عليها غبار، فأصبحت لا تعرف من الغبار، وماسكت لهذه النار لسان. ولا خفى لها شخص ولا عيان، ولا نشفت الدموع التي أطفأتها، ولا بردت ضلوع القياسير التي دفأتها، حتى طلعت شمس الفتنة من غربها، وتعالَت أصوات النائبة عن قربها، وأتى النقص من جهة الزيادة، وسعى الداء بما وسع العيادة، فصار سوق الكفت كفاتاً، وسوق الخام رفاتاً، وخرجت قيسارية القاس عن القياس، وتوارد الاياس والرجاء في أمر البلد بمجموعة ولكن غلب الاياس، فركب المملوك بنفسه ومن عنده من الأمراء، وبأيديهم أسلحة المعاول، وعلى عواتقهم لقطع عنق النار سيوف الجداول، فكم من أرسٍ قد داسته النار دوساً، وكم من قَدِّ وقوسٍ تصرَّفت فيهما، فصار القوس قَدًّا، والقَدُّ قوساً، وكم من أوتارٍ أخذت منها الأوتار، وكم من سهام نفذت لها في قلب الاسلام كما شاء الكفار، وكم من حلقة انقضت، وكم من عين بيضاء اسودت، وعين سواده ابيضت، وكم من لجام دخل فيه لسان النار فلاكه، وكم من بحر سرج رمى عليه اللهب شبكة فأكل أسماكه، وبقي المملوك كلما دار إلى دار سبقه إليها المقدار، أو أشار إلى دكان تداعث منها الأركان، هذا والصاغة تعوذ عين ذهبها من عين لهبها، والمأذنة ترجف فرائص تختها من مصرع أختها، وتدارك الله الحال بلطفه، ومنَّ بإطفاء ذلك الحريق، ولولا منه لم نطقه ولم نُظْفِه، ولم تقتصر الحال عن هذين الحريقين، بل تتابع بعدهما لهما أمثال، ومايشك المملوك في صدق ما أشار إليه مولانا من تلك الحكايات، وضربه من الأمثال، فإنه مايسعر هذه النار إلا عدوُّ أزرق، ومنَّ أحرق قلبه بحريق جانب من معبده، فلا غرو إذا أحرق.

ومنه قوله: [من الكامل]

يا سادة نرحوا دموعي عندما	نرَحُوا وعهندي منذ ذلك عام
أوما وجدتم ريّ دمعي عندما	وافاكم من ناظري غمام
كيف اعتقدتم سلوتي عن ذكركم	ايطيب إلا بالكمال كلام
/٣٥٧/ ها أنتم في ناظري مادمت يقد	ظاناً وتجلوكم لي الأحلام
أشجى فراقكم دمشق فغصنُها	قلق إذا ناحث عليه حمام
ونزلتم الشهباء فاجتالت لأن	علمت بأن النازلين كرام
طابت بكم ويطيب كل حمى غدا	يُعزى لابراهيم فيه مقام

وينتهي ورود مثاله الكريم، بعد أن وجدَّ عن بعدٍ ريحه، وشام برقه العالي، قبل أن يأتي قميصه بالبشرى الصريحة، وأحسن الخاطر بسروره الزائر، وإن كان ماكل روايات الخواطر صحيحة، ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾^(١)، وصدقت ظنون حبي، ويا أيتها الأيام التي قد طال بيني وبينها عَثْبُ النوى حَسْبِي، ثم عطف على الكتاب الكريم يغزله، ويصاعد فيه نظر اللوم وينازله، ويقول له: أين لطف الترسل إذْ عدنا لطف الكلام؟ قد احترقنا بنار إبراهيم ولا برد ولا سلام، قَدْ أَخَذَ بفراقه لذة أيامنا نهبا، وقد كنا ونحن بالشعراء لا نطيق جفاهه، فكيف وقد ركب علينا الشهباء، وشرع في فنون العتب ينسقها، وفي حمول الشكوى يوسقها، إلى أن فضَّ لطيمة الطرس ففاح عبيره، ولاح حبيره، وباح بالبيان صغير لفظه وكبيره، فكل زهرة حرف عليها للحسن ندى، وكل غصن سطر طفا حبَّ القلوب عليه نقطا، وبدا يوّد ابن هلال^(٢) لو استعار منه معنى الكمال، ويتطلع يا قوت^(٣) إلى أن يكون فصاً لخاتمه الذي ختم به على هذا السحر الحلال، ويتهافت المسك على أن يكون به تحرير ذلك الحرير، ويخلع صوف ذلك الغزال، فلما رأى المملوك نسمات تلك المحاسن قد ناوحت الهبوب، وترواحت بالشمال والجنوب، وأنشد لسان حالها: ومن أين للوجه الجميل ذنوب، قبل بشفاة حسنيه الأعدار، ونادى حرب العتب: ضعي الأوزار، وعاود وصف الشوق فيقول: مالربيع على أنس البلاد به، وتحلّى عاطل الروض بذهبه، واستطال صاحي الطير بخيامه المضروبة، حيث جبال الشمس من طنبيه / ٣٥٨ / باشد من شوق المملوك إلى تلك المحاسن التي من رأى خط شبابها تحقق ان مامحاه آسن، وقد آن للمملوك أن يهرب من الاستهداف لهذه الأوصاف، وألا ينسبه إلى انحراف كل قليل الانصاف، وما أكثر القليل ذكر مولانا المقام، ومقامه فشوق وما ذوق، وعرض بيتين انشرا من لسان المملوك وقلمه ميتين، فحذا حذوهما في اللفظ، وتصرف في المعنى، وقال في معنى ما مولانا بصدده من ملازمة الاشتغال:

(١) سورة النمل: ٤٠.

(٢) يريد أبا الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب. الخطاط المشهور المتوفي ببغداد سنة ٤٢٣هـ. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣/٣٤٢، وممعجم الأدباء: ١٥/١٨ وعبر الذهبي: ٣/١٣ والشذرات: ٣/١٩٩، وسير أعلام النبلاء: ١٧/٣١٥.

(٣) يريد به: يا قوت بن عبد الله المستعصي الرومي، جمال الدين المتوفي سنة ٦٨٩هـ، وكان ادبيا كاتباً شاعراً مصنفاً من موالى الخليفة المستعصم بالله العباسي، اشتهر بحسن الخط وأخذ عنه كثيرون، انظر ترجمة في: النجوم الزاهرة ٥/٢٨٣ و٨/١٨٧، والحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٥٠٠، البداية والنهاية ٦/١٤.

[من الوافر]

أَقَمْتُ مجاوراً في عُقْرِ بيتي لأنَّ تنقلي داءً عقام
إذا رُزِقَ الفتى عقلاً وديناً ودنيا برّةً طاب المقام
آخره تنمة:

مَلَلْتُ من المقام على خمولٍ وحلّ من الهموم بي انتقام
ولو أنني سعيْتُ لكسب مالٍ حلالٍ طال لي فيه المقام
وإذا وَصَلْتُ المقامة تمت المقامة، وإلاّ فكلام المملوك خبط عشواء في هذه
الحالة، نسق المملوك من كتابه (عرف الادب الوردى) فتنهّد وارتاح إلى ذلك الدين
الذي عرّى المملوك من فضله، مع أنه ما برح حتى للرياض بالكسوة يتعهد، فيا
شوقي إلى دنائره وقد ألقاها الشوق في بناني، وإلى وجناته الوردية وقد وَقَفْتُ نصب
عياني، ولكن ما أفعل في سوء الحظّ، غايتي أن ألومه، ومولانا يعرض عليه لهفاتي
وما يخفى عنه طريق اكرومة.
ومنه قوله:

وينهي ورود البشرى التي ملأت الوجوه بشراً، والوجود نَشْراً، وأقامت
بالسرائر سوقاً أضحت تباع به البشائر وتشرى، بما حَصَلَ لمولانا من الإقيال
الشريف الذي تَعَدَّدَتْ تشاريفُهُ وتحدّدت تكاليفُهُ، وتزيدت على وسع الآمال
مصاريْفُهُ، من تيجان غمام اعتدلت فوق مفرقِهِ، وألوان فراج أحرق في سمور
سجفها زركش النجوم، فلاحت تلك اللمع من محرقِهِ، ومن هالات طرحات كأنما
كن لشهابه المشرق فلك / ٣٥٩ / تدوير، ومن أبدان سنجاب حكّت بياض البطون
وزرقة الظهور طلوع الشمس في يوم مطير، فقابل المملوك وسائر المماليك المحبّين
هذه النعمة بحقّها من الشكر، وأفاق بهبوب نسيمها، وإن كان غرامه في هذه المدة
بمطالعة مسالك الأبصار لا يدعه يفيق من السكر، فله هذا الحبيب المشنف والغريب
المصنّف والمنوّع المنوّر، والدهر الذي هو بأهلِهِ من لدن آدم مصور، حرس الله هذا
الجمع الصحيح وهذا الفصل الذي نثر من الدر في حجور التراجم كل مليح، وهذا
السياق الذي سير الشموس من الطروس على نجائب، وهذا الوفاق الذي حصله بين
البر والبحر، وحدّث عن العجائب بعجائب، فما كان للمملوك دأب في هذه المدّة إلاّ
التقاط درره من أصداف الأوراق، واجتناء ثمرِهِ من غصون تلك السطور، وكلُّهُ قد
راق، فإن اعترضته عنبرة ثناء فَتَّها على جمر الشوق فتّاً، أو عارضته عرائش تصانيف
الأولين أقام تلك المجلّدات فتصير ستا، والمرجوّ من الله تعالى رؤية ذلك الوجه

الكريم على ما يسر الأولياء، ويسوء الأعداء، وحاشاه أن يكون له أعداء.

ومن شعره قوله^(١) في مليح نظر إلى الشمس عند غروبها مضمناً: [من الرمل]
 وغزالٍ غازلَ الشمسَ وقد وَقَفَتْ فوقَ ثنِيَّاتِ الأصيلِ
 فتعوضناهُ منها بدلاً (وتفارقنا على وجهٍ جميل)
 ومنه قوله غير مضمّن: [من السريع]
 وذِي دلالٍ حسنُهُ وافِرٌ تُقَصِّرُ الأوصافُ عَن كُنْهِهِ
 رنا من الشمسِ وقد عَرَبَتْ ففوّضتْ في الحسنِ من بعدها
 ومنه قوله مضمناً: [من المنسرح]

وربّ ظبي مخضراً شاربه قال وشمسُ الأصيلِ قد وَقَفَتْ
 /٣٦٠/ كعاشقٍ سارَ عَن هواه ففي (قفا قليلاً بها عليّ فلا
 رطبٌ حواشي اللَّمَى مورّدها على ثنايا الأصيلِ تُنشدها
 مقلته دمعاً يردها أقلّ من نظرةٍ أزودها)^(٢)
 ومنه قوله: [من الكامل]

نَعَسَ الحبيبُ فقليلَ ماذا شأنُهُ فاجابهمُ بالحاجِبِ المقرونِ
 وبظرةٍ أشرت وطرفٍ أدعج كالنونِ فوقَ العينِ تحتَ السّينِ

فهؤلاء أعيان كتاب المشاركة ممّن مات وفات، وبقي منه ما ينشر العظام الرفات، وأكثرهم قد جهل قبره وفني، وما فني ذكره ولا برّه. خلا عمّي الصاحب شرف الدين أبي محمد عبد الوهاب^(٣) رحمه الله، فإنني ذكرته في كتاب «فواضل السمر في فضائل آل عمر» إذا لم يكن بدّ من ذكره هناك مع أقربائه، وسلف أهل بيته وآبائه، وكذلك

(١) البيتان في الدرر الكامنة ٢/٣٨٣.

(٢) البيت للمتنبي.

(٣) عبد الوهاب بن فضل الله العمري، القرشي، سبق وأن أشار إليه المؤلف دون أن يذكر اسمه وهو

كاتب مترسل، من أهل مصر، خدم الملك الأشرف. والملك الناصر، وسيف الدين تنكز، وعمل

كاتبا للسر للملك الناصر في دمشق فتوفى بها سنة ٧١٧هـ.

انظر: فوات الوفيات: ٢/٢٢، والدرر الكامنة: ٣/٤٢، وشذرات الذهب: ٦/٤٦، والنجوم

الزاهرة: ٩/٢٤٠.

والذي تغمده الله برحمته وإن كان دون أخيه قدر مقال لا مقام، ودرّ نظام لا انتظام، وسيأتي ذكر جماعة من أهل هذا البيت في الكتاب المذكور ومنه يعرف خبر كل معروف غير منكور على أنني بشهادة الله لأنف لي ولسلفي أن ننحاز إلى هذه الفئة أو نلم كرى بعيونها المغفية، والله [در] المعري حيث يقول^(١): [من البسيط]

دع السيراع لقوم يفخرون به وبالطوال الردينيات فافتخر
فهنّ أقلامك السلاتي إذا كتبت يوماً أتت بمدادٍ من دم هدرٍ
فأما الأحياء بالجانب الشرقي ممن يطلق عليه هذا الاسم بالاستحقاق، فبقية.
ومنهم:

[٢٨]

زين الدين^(٢) الصفدي، أبو الحفص عمر بن داود بن
هارون بن يوسف الحارثي

من بيت قضاء وخطابة ببلاد صفد والساحل من زمان الفتوح، وهم أهل قرى لا يغلق بابهم المفتوح، وفيهم بنين^(٣) من يضيف الوارد والصادر، ويضيف كرمه بالعاجز والقادر، على قلة يسار وخلة إعسار، وبرع هذا الرجل فيهم، وتأدّب، وتذهب أدبه وتهذب، وأتقن علم العربية، وتم له تمام الفضائل الأدبية، إلى فقه درسه، وفضل نوعه وجنسّه، وعلم معقول / ٣٦١ / أدركه بمجرد التصور، ووازع إيمان منعه فيه من التهور، وإطلاع اشرف من يفاعه، وأطلّ عليه من شرف ارتفاعه، كل هذا إلى ذكاء يتدفق سيله، ويعرف من بين النجوم سهيله، وتفرد بمعرفة التنفيذ للمهمات قل من يحسنها، أو يحير جواباً حيث ينطق ألسنها. هذ مع خطّ كأنما الحف جناح الطاووس، أو تلالآت تحت جناحه أشعة الشمس، وحسن مصاحبة تطمئن بها النفوس. ومواظبة على علأ يسود بها ويسوس، صجبتّه من قديم، وعرفه أولياء الأمر،

(١) ديوان شروح سقط الزند ١٥٦/١.

(٢) ولد بصفد سنة ٦٩٣هـ، ولازم نجم الدين الصفدي فدربه واستكتبه عنده، وكتب لسنجر، ودخل معه دمشق حين انفصل بها، وكتب بغزة وعاد إلى دمشق، وعمل لتكنز بالرحبة، وكتب له في ديوان الانشاء، وطلبه شهاب الدين بن فضل العمري إلى القاهرة فكتب عنده في الانشاء. توفي بالقاهرة سنة ٧٤٩هـ.

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٤١، والوافي بالوفيات: ٢٢/٤٦٥، وأعيان العصر: ٣/٦١٠.

(٣) نين: قرية بمرج بني عامر من اعمال صفد (الوافي بالوفيات: ٢٢/٤٦٥).

وتنبه ذكره، ثم رقد، وهب لهب صيته ثم حَمَد، وجرى ماء حظه يتدفق ثم حَمَد، ورتب في كتابة الدرج في عدة مواضع من الممالك في أقرب مدة من الزمان، واشتهر برجاجة العقل والكتمان، ووفور الفضل والأدب، ثم كتب الإنشاء بدمشق ثم بمصر، فأنشأ غرّ التقاليد. ورقم برودها، ونظم ما استجدت منه أجياد الحسان عقودها، وحضر بين يدي المقام الشريف، وكان عندي موضع الثقة، وقدمته لأهليته، ثم بعد أن رفعت ذلك الشعار، وخلعت ذاك الرداء المعار، قلت الموت ولا العار، لبث قليلاً ثم تَبَعْتُهُ عوادي الضراء وروعه في وسط السراء، ثم كان في صفد بين قومه، إلا أنه لا يجد قوت يومه، وبقي حياً ميتاً، لا يملك بيتاً، ثم انفرجت حلقة ضائقته، وعادت لوامع شارفته، وفسح له في سكنى دمشق، فعاد إلى صدور مجالسها، ثم كتب في ديوان الإنشاء بها، وحلّ مفاخر رتبها، فتبلبل عودها بأندائه، وأشرقت سعودها باستظهاره على أعدائه، ثم طُلب إلى مصر، ووقع بالدست، وهو الآن جمال الأوان، وكمال الديوان، ويده الأزمّة، وإليه الأمور المهمة، وفضله يستحق التتمة.

ومن نثره قوله في ورقة كتبها إلى والدي:

وينهى أن إحسان مولانا وصل إلى ذلك الفقير الصالح، الذي من قرية نين، وهي قرية المملوك التي أخرجته، وإنما خدمته للبيت العمري هي التي خرّجته، وإلى طبقات الناس درجته، وقد بقي يعوزه كتاب كريم إلى مشدّ صفد، نظراً لكتاب الكريم الذي /٣٦٢/ صار في يده إلى نائبها، والمملوك يسأل الصدقة عليه بالمطلوب، وأن يكون كتاباً حسناً يعيره مولانا سماحة كرمه وقلمه، ويُلحفه جناح جاهه وكلمه، صدقة على المملوك دونه، ويداً يقبلها ويقبلها ممتنة غير ممنونة، والوفا الوفا، وقد ضجر المملوك وهو استحي، والله يرفع درجة مولانا حتى يكون على الكواكب مستفتحاً، ولنظرة في حديقة المجرة منزّها، وبعرف نرجسها مترنحاً.

ومنه قوله في تهنئة بعود الركاب السلطاني من الحج:

وجمع الحجيج في سنتهم الواحدة بين حجّتين، وكتب لمناسكهم بيمينه أجر مصلي القبلتين، وتم لتوجههم بأنواره، الهدى والنور، وحصلوا من صفقته الراححة على تجارة لن تبور، ووقاهم لفح الهجير تطوفهم بالكعبتين، ذات المقام وظله، وامنهم العقبى تمسكهم بالعروتين، من البيت العتيق وفضله، وعشوا إلى ضوئين من ناره التي هي أم القرى، ومكة المسماة في الذكر القديم أم القرى، فهذه المهاجرة التي جدّدت السنة بمحمّدها، والمثابرة التي أعلنت اللسنة بمدح سؤدها، وهو الجدير بأن يوفيهما من استبشاره وشكره أكمل وظيفة، وان يقدر موقعها حق قدره،

وإن كان مما لا يطيق الأمة تكليف.

ومنه قوله وقد أهدى إليه صاحب له طبق مشمش مع غلام مملوح:

وصل البرّ الذي زاد على منتهى الطلب، وأشهد النواظر بين يدي قضيب البان
كرات الذهب، وجاء بالبدر وقد اتسق، والنجوم وقد ركبت في دائرة الطبق، فبهت
لدنوّ صور الكواكب من اللمس، وتسيير القمر في منازل الأرض، وهو الذي لا ينبغي
أن تدركه الشمس، ثم تأمل وتملّى، واستجلى واستحلى، وقال شكراً للمرسل
والرسول ويأحسن الحامل، ويالذّة المحمول أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه، ومرحّباً
بكرم جمع بين تنوّعه وتسرّعه، أين الأمل من هذه الغاية؟ وكيف غفل الدهر حتى
تناهى في الإحسان إلى هذه النهاية؟ مولى يسعى إلى عبده، وغصن تجيء ثمرة تيمس
في أوراقه من برده.

/٣٦٣/ ومنه قوله في ذكر الدواة:

وقد أرسلها مشتعلة بالسرّ مفارق راسها، مستعدية على وضعها الذي انتزع
روحها باستمداد أنفاسها، واستحال عليها مع الدهر حتى عكس النقب في روعها من
قرطاسها، فهي بيضاء إلا أن السواد كان أنقى لسمائها، وناجية عندها أن الغرق
أسكن لروعتها من نجاتها، وأملها أن تسودها يد لك لا تسود إلا من النفس، وأن
تدليل لها من سالب صبغتها وهو الطرس، فيطيل لسان فمها، وهو القلم يمّج على
حواشيه لعاب الظلماء في لهوات الشمس.

ومنه قوله في أمر وفاء النيل:

وذلك أنه عند تسطيرها، وردها المثل الشريف يتضمن نبأه بسطوره التي كأنها
جداوله، وأنه جاء لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها، فكأن المسؤول لا شك
سائله، وماأظنه إلا حياً نزل دون تلك الديار مهابةً لمن حلّها من مطايا الغمام،
واحلّها من أحلّه أن يلّم بها ركباً، فمشى على وجهه إليها تناهياً في الإكرام، ولم يزل
يجري لمستقر له، ويضمّه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوله. ووارده في كل ساعة
يشهد بنجاح رأى الرائد على التحقيق، ومخلّقه المتواري بحجاب الماء يوميء بأصبعه
إلى حسن العاقبة على أنه في حالة الغريق، ولو قدر على المقال لظهر خافيه ونطق
بتوفية عوائده، وأنى ينطق والماء ملء فيه، حتى إذا تكمل سموّ أواجه حالاً على
حال، وتنور أقاصي الأرض من ثنية المقياس، فأدناها النظر العال، لم يملك طبعه
السيّال أن غطى مساوئها البادية، ورأى ظمأها إليه مع القصور عنه، فنقع بانتقاله إليها
غلة كبدها الصادية، وكان له الفضل على الثرى والورى في ذلك المسعى، وقالت

ألطاف الله المتتابعة: هذا الماء وسيتلوه المرعى، وكأن هواء المعتدل على اعتلاله عدلاً، فحمل قلب كل غدير ما أطاق، ولم تبق عين بقعة كانت فارغة إلا وكلها عند نظرة الدمع مائق.

ومنه قوله:

وينهى أنه لو أمكن دفاع القضاء، أو قبل غريم الموت المتقاضي أخذ الفداء، لحمى هذا المحترم بأنصار الرجال، لا بجواري العيون المحزونة، / ٣٦٤ / ولصرفت عنه المهج يد المنون يبذل نفوسها المصونة، فقد كان والله شقيق الشمس رفعة وهدى، ومباري غرة البدر في الندي، ورسيل الغيث في الندى، وإن أمسى الزمان لتواري شخصه آية ليلٍ مُحيث، وظلة غيم رأيت عليها لمحة بارقٍ لمعت ثم زويت، فلعهدي وهو بأية نهار حياته المبصرة أحسن^(١) اجتلاء، وأبهى وأبهر بين المشاهد في المعنى والصورة روية ورواء. طوبى له، حلّ في أمنع جوار، وحصل على سعادة في دار القرار، يفرح بها من ارث شقوة الحزن في هذه الدار، والمملوك مذ سمع نعيه يحسد صمّ الرماح، ويتزوّد من سواد مقلته ودمعها، في ظلمة باك من فقد نورها على الصباح، وما أدعو لمولانا وحده إلى سنة العزاء المشروط، ولا أقول له: مهلاً ليذهب بك فرط الجزع على أخيك مذهب القنوط، وإنما أشرك نفسي معه في التعزية والتسلية، وأتجلّد وإن كان لا جلد على نفوذه هذه الرمية المضموية، فاتعلل وأتمثل بقول الأوّل: [من الطويل]

ولو لم أكن منكم يعذبكم بكم ولكن حظي في المصاب جليل
إلا أن أخصه لاختصاص نسبه، وافرده بجامع ادبه، فلا أجمع لأقسام الكمال
من أدبه، وأستشهد بأن أنشد: [من الطويل]

ومن يك ذا نفسٍ كنفسك حرّةً ففيه لها مُغنٍ وفيها له مُسلي
ومنه قوله^(٢):

وينهى ورود المشرف الكريم، ووقت الصوم قد حان، وهلاله في عنان السماء مُرخى العنان، يُشار إليه بالبنان، كأنه الطليعة، وهي الراء من أول رمضان، أو الساقية وهي النون من آخر شعبان، أو الخائف اختفى عن العيان، وترامته الأبصار فاستعان، أو طالب حاجة مع الشمس أدركه الليل فوقف وقفة الحيران، أو كوة في غار فغار، أو رقيب وقد اختبا^(٣) ليطلع على مغيبات الأسرار، أو الحاجب لا جرم أنه حجب عن

(١) كلمة (احسن) مكررة في الاصل.

(٢) الوافي بالوفيات: ٢٢/٤٧٥.

(٣) في الوافي: ولذا اختبى.

الإفطار^(١)، أو كأنه ما انهار من جرف النهار، أو المجلب الصائل على النظار، الصائد ما / ٣٦٥ / جاوره من النجوم، لتتكمل فيه الأنوار، وتتم باجتماعها إليه في صورة الأقمار، أو المنجل الحاصد للأعمار، القاصد جنى ما علا نهر المجرة من الأنهار، أو طوق لم ينظّم أو مبدأ عمامة لمعمم^(٢)، أو قرط خائته العلاقة فانقطع، أو ما انخرم معه في شحمة الأذن لما وَقَعَ، أو علامة عضة، أو قلامة مبيضة، أو قطعة من سوار فضة، أو تشريف نواردة غضة، أو شفة فتاة بضة، أو حافر جواد حلى أرضه، أو وطأة حاف حلى من أثر كعبه بعضه، أو درهم فيه ثلثة، أو دينار مخسوف الجانب لحكمه، أو تمثال عشر في ختمة، أو نصف دائرة من خط بيكار ما أتمه، أو عرجون قديم، أو مامل من كأس نديم، أو شطر من كرة مقسومة، أو ضاحك أسنانه مهتومة. أو هالة والت قطراً منها غير مركومة، أو لثام على حنك، أو زورق من ورق حمولته من عنبر الحلك، أو حجل نزع من ساق، أو ورق راجع من الأوراق، أو ما انحل من الخصر من النطاق، أو وقف من عاج، أو صدع في زجاج، أو جدول منعطف، أو قفل في فلاة قد حذف، أو لبة فؤاد، أو غصن أثقله الثمر فاناد، وعقد سماء بأرضه أو كاد، أو ثغرة في سور، أو فم قذح مكسور، أو نؤي محفور، أو فخ منصوب على طول الدهور، أو عرق مغروس^(٣)، أو بعض ما في ريش الطاووس من المنقوس^(٤)، أو حلقة منقوصة، أو أذن ريم مقصوصة أو ضفيرة معقوصة، أو خاتم زال فضه ففغر، أو ما انداح من رمية في صفحة الماء بحجر، أو طيبة من المكان، أو سرة محققة في كشح ريان، أو ذؤابة مردودة. أو حزة من بطيخة مقدودة، أو خيزرانة ملتقية غير معقودة، أو قوس محني القرى، أو عروة مفكوكة من العرى، أو فتر مرفوع، أو طيلسان مقور مقطوع، أو قبضة إبريق مخلوعة، أو آلة للطيب مصنوعة، أو يد التفت على عناق حبيب، أو شعرة مشيب نصلت من خضيب، أو ما أحاط من الاكليل بالجبين، أو محراب لبعض المصلين، أو سالف تحسين، أو مشقة قاف أو سين، أو ما اندفع في جؤجؤة السفين، أو أحد / ٣٦٦ / الجفنين، أو عذار حول الخدين، أو رأس من كتابة صاد لم يلتحم أو عين، أو دال منقلب، أو طاء منفصل الطرفين سقط ألفه المنتصب، أو مبسم مثقوب، أو تعريفه جيم مكتوب، أو عقرب شائلة، أو شعلة نار لعبت بها الريح الجائلة، فهي مائلة، أو حية ملتوية، أو صولجان مقصوف لم يبق

(١) في الوافي: الاظفار، وبعده: أو الوافي مما تبادت به الاسفار في الاقطار.

(٢) في الوافي: لمعتم.

(٣) في الوافي: او عرف ديك مفروش.

(٤) في الوافي: من تخليق النقوش.

منه سوى الحنية، أو ترقوة بدا عظمها، أو طارة غرض خرق هيئاتها سهمها، أو فلكة مغزل مشتظاة، أو دفت أمسكت به كفت سوداء على أعلاه، أو ما تحت تنفس المرأة [في المرأة]^(١)، أو قنطرة منكوسة الوضع في البنيان، أو طبق قائم أخذ من حافته شيء فبان، أو غرة في أدهم من الخيل، صانعت بها الشمس عن نفسها لخاطف الليل، أو رداء أسبله الشرف فكفت الغرب منه الذيل، أو صعدة أو مكان ورقة من وردة، أو قفل على تجليد، أو احدى المطيفين بالوريد، أو لبب مركب، أو كوز مرتب، أو قتب مجرد، أو سرج مؤكّد، أو قربوس منه مفرد، أو واحدة من خشكان، أو حدقة نجلاء من إنسان، أو طعنة ميلها بسنان، أو سيف لان في يمين ضارب، أو مطرح القلادة من ترائب الكاعب، أو المملوك مما شفته الاشواق، وصنعت به عوادي الفراق، أو ماخذه في خده الدمع المهراق، وكان للناس اشتغال باستقبال الهلال، وقلب المملوك في اشتغال، مما عنده من البلبال، ومن ضنى جسده البال، وحالت الأحوال، وما استحال، وبات طرفه يتملى من المشرف الكريم حظاً ماله مثال. وتأمل منه لفظاً بمعانيه تضرب الامثال، وتقلب وجهه في افقه الدال على ودّ صحّ فليس به اعتلال.

ومنه قوله :

وعلمنا ما ذكره من أمر الصقر الذي وقع له، وما لحظه فيه من القبول، فأرسله وحمله إلى حيث حَمَلَهُ ووصل، وقد طرّز رقوم المحاسن حلله، وزانته بديباجة مكملة، وحلية مكلّلة، خالصاً كالذهب، متوقداً كشراة لهب، وموشى الصدر كما طَفَّتْ على الكأس فواقع الحَبِّ، أو كروضة منها ما لم يخرج من الأكمام، ومنها ما هبّ مع النسيم حين هبّ، حسن الاستعداد / ٣٦٧ / للتدريب، مدركاً فإذا دعي يجيب، مظفراً كجدّ مهديه فلا يجيب، وقد قبلناه تبركاً بما يهديه، واشتغلنا به اشتغالاً حقق ما لحظه من القبول فيه، ورفعناه من يدنا الشريفة إلى رتبة لا يصل معها، وإن كان بعدها يتيه، وقدمناه على ما عندنا من الجوارح على كثرة عددها، وغزارة مددها، كتقدم المقام على الملوك الصائلة في عديدها وعددها، فلو رآه وله في حلاوة الالتفات تشوّف الريم، وفي طلاوة الانصات دلّ الأغيد الرخيم، وإلى أغراض مرسله تشوّف الواله إذا ظلّ يهيم، واصابة الباع المستفيد بالسهم المستقيم، وعلى الصيد حرص الغريم على الغريم، وفي طلبه سورة الظالم وثورة الظليم، إن اعطى الكلمة فحليم، وإن كشف عنه غطاؤه فبصره حديد، ورأيه حكيم، فاقترب، فيد تطلقه وأخرى تحتطب، وسابق يحصل ما يجتذب ويجتلب، وسائق^(٢) يقد ثقة بعوايدِهِ ولا

(٢) في الاصل: سائقاً.

(١) الزيادة عن الوافي.

يرتقب، يهفو بقوادم أقوى من قوائم، وعزائم على النجح علائم، كأنه كبير قوم، أو ممسك لصوم، يعفو عما كسره، ويعف عن شره، إذا افترس حرس، وإذا احرز حرز، وإذا أدرك ترك، ولكن من مخالفه في شرك، كأنه يعرف التحليل فيبقي للتذكية، أو يحب الثناء فيعمل على التزكية. حتى إذا أدى الأمانة، وقضى إدمانه، وسطا في صيانة، تنحى جانبا، وانتحى مجانبا، واحتشم هائبا، انطوى على الطوى وأعرض مع الخوى على ما حوى، فإذا أباحه محضله مما يأكله، وأطلقه عما أوثقه، وخلقى ما بينه وبين ما صاد، بايته باقتصاد كأن عليه رقيباً بمرصاد، وتناول قدر الحاجة بشهوة مهاجة، ورجع إلى الكلمة بطرف غضيض وبطش غير مهيض، وثبات بعد وثبات كطرفي نقيض، بصره ثم تصرفه بين أيدينا في صيده، وحسن تلقفه، لما يعن له بلباقة كيده، ورشاقة أيده، ولا يثني عليه ثناء من أنهب سعيد، ورام ورمى فتم مرامه وصح رميه، ونحن نشكر مكارمه التي ملأت الحقائق والحقائب، ومدت عصائب جنود وجود يتبعها من الطير والعفاة عصائب.

/٣٦٨/ ومن نظمه قوله: [من الوافر]

أقول وقد سألت قصاص قتلني فقام لها الكرى بالاعتذار
كفاني من توفاكم بليل ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (١)
ومنه قوله: [من الطويل]

وما قيل: هذا اليوم يخلف دره فيخلفه بالدر بيض الغمام
وقد عكس التشبيه فيه فعهنه جبال لصلع الأرض مثل الغمام
ومنه قوله وقد أهدي إليه حلواء: [من الوافر]

ولما جاءني منك افتقاد حلا فحكى ثناءك حين يجري
حصلت بما أتى وحصلت مني على الحلوين من بر وشكر
ومنه قوله: [من الوافر]

أتى زيد إلى الحمّام يثني معاطفه كما مال الرديني
فكان الماء وهو عليه جار يُربنا لؤلؤاً فوق اللجين
ومنه قوله: [من الطويل]

ولما أراد الصب خطأ تسابقت مدامع عينيه تحاول محوه

كَأَنَّ بَعِينِيهِ مِنَ الْخَطِّ غَيْرَةٌ
ومنه قوله مما يكتب على عصا به ذهب
على وجه محبوبي إذا سار نحوه
لامرأة حسناء: [من الوافر]

تَأْمَلُ هَذِهِ الْوَجَنَاتِ تُزْهِى
تَرَى شَمْسَ الضُّحَى مِنْهَا وَمَنِي
وقد حَلَّى تجلّيتها الدَّلَالُ
يتوجّها على الرأس الهلالُ
ومنه قوله: [من السريع]

أَنْزَلْتُ مَنْ أَهْوَاهُ فِي مُقْلَتِي
فَجَاءَ قَلْبِي مِنْ طَرِيقِ الْكَرَى
صَوْنًا لَهُ مِنْ أَعْيُنِ الْحُسَدِ
يسرقها منها فلم يرقُدِ
ومنه قوله: [من الوافر]

تَبَسَّمَ ثَغْرُهَا وَالْخَالُ يَبْدُو
فَقُلْتُ: الصَّبْحُ؟ قَالَتْ: كَيْفَ يَأْتِي
عَلَيْهِ كَقَلْبِ ظَمَانَ إِلَيْهِ
وليل الخالِ بوابٌ عليه
/٣٦٩/ وكتب إليّ: [من البسيط]

إِنَّا لِيَمْلِكُنَا مِنْ هَيْبَةِ خَرَسُ
وإنْ خَلَوْنَا وَخَلْنَا وَحِشَّةٌ عَرَضْتُ
فَنَحْنُ مِنْكُمْ وَفِيكُمْ لَا يَزَالُ لَنَا
حَالَانِ فِي حَبِكُمْ مَا حَالَ بَيْنَهُمَا
وَهَلْ عَلِمْتُمْ وَحَكْمَ الْحَالِ وَاحِدَةٌ
إِذَا مَرَضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذَكَرِكُمْ
وَمَنْ لَنَا لَوْ لَثَمْنَا تَرَبِّكُمْ فَبِهَا
أَرْضُ لَهَا قَبَسٌ مِنْ نَوْرِكُمْ وَكَذَا
تَفْدِيكُمْ أَنْفُسُ مَنْ تَحَبَّبَكُمْ
فكُتِبَ إِلَيْهِ: [من البسيط]

مَرَّتْ عَلَى عَجَلٍ وَالرَّكْبُ مُحْتَبَسُ
وَيَانُ بَانَ الْجَمَى وَاهْتَزَّ إِذْ خَطَرْتُ
وَفَاحٌ مِنْ مَسْكِ دَارَيْنِ لَنَا سَحْرًا
وَبْتُ وَاللَّيْلُ يَرْمِينِي بِأَنْجُمِهِ
فَقَمْتُ فِي غَفَلَةِ النَّوَامِ أَشْرُبُهَا
وَمَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ اللَّيْلَ مَنْصَرِمُ
فَمَا شَكِكْتُ بِهَا وَالْأَمْرُ مُلْتَبَسُ
وَلَاخَ ضَوْءُ هَلَالٍ أَوْ بَدَا قَبَسُ
نَشْرُ الْخُمَّائِلِ إِلَّا أَنَّهُ نَفْسُ
مِثْلَ الْعَيُونِ وَمِنْهَا أَعْيُنُ نَعْسُ
صِرْفًا مِنَ الرَّاحِ إِلَّا أَنَّهُ لَعْسُ
حَتَّى تَجَرَّدَ مِنْ جَلْبَابِهِ الْعَلْسُ

وافت تذكرُ بالعهد القديم وما
 ثقي سلمي بودّ لا يغيرُهُ
 بل ماتجنّ جوّ منه القلوبُ ولا
 يا جيرة القدس ما قلبي كصخرته
 لم نعتقد بعدكم والله يعلمُ ذا
 قول ابن زيدون في حرّ الصّباية في
 / ٣٧٠ / عتباً وصلحاً ولا يدري بنا أحدٌ
 فسراً عاذلنا لا كان عاذلنا
 ومنهم:

[٢٩]

خليل^(١) بن إبيك الصفدي، أبو الصفا، صلاح الدين

هو خليلي الذي أنادي، وصاحبي إذا شكرت الأيادي، والذي أنادي منه خليل الصفاء، وصديق الوفاء، والذي أرضاني عن صنيع الليالي لما أتاني بنجومها قليلاً، والذي لم أحالل سواه إلا قلت ﴿يُوَلِّقُنِي لَيْتِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾^(٢)، والذي صحبت أبا الصفاء من وده الذي لم تشبهه الشوائب، والخليل إلا أنه كان لأحمد أكثر مما كان عنده ابنه في النوائب، والذي عاقدني منه خليل صدق فما ذممت له ذماماً، وأوقد لي من حميته ناراً خليلية كانت برداً وسلاماً، موسوية، فلهذا ما تركت ظلاماً، والذي لم يزل يرشد من خاطري مضللاً، ويريني في صفائه ما أردت ممثلاً، ويغنيني أن أقف عند سوى تصانيفه وأقول: [من الطويل]

خليليّ هذا ربّع عَزّة فاعقلا^(٣)

وملاً سمعي بأدبه حتى قلتُ يكفيكما، وأغنى ناظري بكتبه فقلت: [من الطويل]

خليلي هبّا بارك الله فيكما

(١) الكاتب المترسل، الأديب، الشاعر، صاحب المصنفات الكثيرة، المولود سنة ٦٩٦هـ، والمتوفي سنة ٧٦٤هـ.

انظر ترجمته في: المنهل الصافي: ٢١١/٥، والنجوم الزاهرة: ١٩/١١، والدرر الكامنة: ٨٧/٢، والبداية والنهاية: ٣٠٣/١٤.

(٢) سورة الفرقان: ٢٨.

(٣) صدر بيت لكثير عزة، تمامه: قَلُوصِيكَمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ.

وقررت له وأقررت، أنه إمام المحسنين، وبايعته واتبعته وأنا من الموقنين، وبسطت يدي فبايعت ملك البلغاء خليل أمير المؤمنين، وربحت في مزاد تصانيفه استزيرها، وقنعت بمذاكرته ولم أقل: [من الطويل]

خِليِّي هل من رقدَةٍ استعيرها

أقسم بالله وهو أوكد الأيمان، وأوثق ما يقف معه أهل الإيمان، ما إن رأيت منه أدب، ولا مع غناه عن التحصيل أداب، ولا أظنّ منه أجمع لمدحة وأبدة، وأخبار أمم باقية وبائدة، لديها وأقدة، ولا مُقلّ الفراقد عن التطلّع إلى هذا، وما كسا، الزمان مثله ثوبيه ولا حمل الوجود حفاً شبهه بين جنبيه، فهو محدث يحدث بالصحيح، وتروى عنه العجائب، والمعروف وكله غرائب، كم قال وكم ألجم بالحصر كل لسن، وقام بالسنة وكل سنه عليّ، وحديث حسن. هذا على أنه حامل فقه لا ينقل إلى أوعى منه، ومتقن علم لا يؤخذ القديم والحديث إلاّ عنه، نعم، وأنعم به من مؤرخ ينشئ الامم وينشر الرمم، وينشد ضوال الأنباء، وقد / ٣٧١ / أماتها البكم، وأقبرها الصمم، فشقّ أصداً للحدود عن دُررهم، وكشط جلد الدهماء عن غررهم، وأوجدهم فما كتب من التاريخ وجوداً ثانياً، فأقاموا به أرواحاً، وسئلوا فقالوا فصاحاً، ساقهم في تاريخه فكانما قاموا في صعيد واحدٍ لديه، وأتى بهم من عهد آدم وهلمّ جرّاً إليه، أجلّ، وهو أجلّ كاتب تخضع لطرسه مهارق السحائب، ويخشع لقلمه سيف البرق المسنون، ويسقط قلبه الواجب، وأضاء أيضاً له نور حكمة يغلبُ فجرها الطالع مشارق الأنوار، ويغلّ فكرها السابق يد القيرواني^(١) إن نظمت أبحار الأفكار، ويذهب التحصيل، وليس من بدره المنير درهم ولا من شمسهِ المشرقة دينار، وينبو دونه مضرب السيف، ولو أن الآمدي ذا الفقر ذو الفقار فأما ابن سناء فتخفى في طيّ البروق إشاراته، والرازي يرزأ كتبه وتجف في لسان القلم عباراته، وقل أن وجد في علم اقليدس مثله من يحل إشكاله وبجل أشكاله، ويغدو من قلّ علمه الاقلودي للأرض مقسماً، ولمقادير الكواكب متوسماً بل لو وصل إلى ابن واصل علمه لقتع بما فضل أو ابن العديم جمال الدين ما عدم ماتعنى إليه وما وصل، وكل هذا عولهُ على أدبه الذي هو أغصن من ورق النبات، وأحسن من تذهيب الحياء فضة حدود البنات، بقريحة أصفى من الماء، وأورى من النجوم في الظلماء، وأغرب من عنقاء، وأطرب من ورقاء، وكتب الإنشاء مصرّاً وشاماً، فكَبَت، وجَرَّتْ معه

(١) يريد به ابن رشيق القيرواني صاحب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده).

القرائح إلا أنها السوابق فكبت، وطاب به الواديان، وطال الناديان، وقد الممالك ما هو أعلق بها من أطواق الحمائم، وأعقب فيها من جنوب الغمام، وله التصانيف الكثيرة الكبيرة بنفسها، الأبقار التي ماوت إلا سراقق نَقَسها.

ومما كتب لي من نثره وأتبعه من شعره قوله: من ذلك كتاب كتبه بشارةً بوفاء النيل، وهو:

ضاعف الله نعمة الجناب العالي، وسرَّ نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من أنباء الهناء كل آية أكبر من الأخرى، وأقدم عليه من المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى، وساق إليه كل طليعة إذا تنفس صبيحها تفرق الليل وتفرى / ٣٧٢ / وأورد له من أخبار الخصب ما يتبرم به محلُّ المحلِّ ويتبراً، هذه المكاتبه إلى الجناب العالي تخصه بسلام يرقُّ كالماء انسجاماً، ويروق كالزهر ابتساماً، وتتحفه بثناء يجعل المسك له ختاماً، ويضرب له على الأرض النافحة خياماً، وتقصُّ عليه من نبأ النيل الذي خصَّ البلاد المصرية بوفادة وفائه، وأغنى به قُطرها عن القطر فلم تحتج إلى مدِّ كافة وفائه، ونزّهه عن مئة الغمام الذي إن جاد فلا بُدَّ من شهقة رعيه ودمعة بكائه، فهي الأرض التي لا يذمُّ للأمطار في جَوْها مطار، ولا يزم للقطار في بقعتها قطار، ولا تُرمد الأنواء فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورؤوس الجبال، ولا تبيت البروق ساهرة لمنع العيون من تعهد الخيال، ولا تفقد فيها حُلَى النجوم لاندرج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس، ولا يتمسك المساكين في شتائها كما قيل بحبال الشمس، وأين أرض يخمد عجاجها بالبحر العجاج، وتزدحم في ساحتها أفواج الأمواج، من أرض لا تنال السقيا إلا بحرب؛ لأن القطر سهام، والضباب عجاج، قد انعقد ولا يعم الغيث بقاعها؛ لأن السحب لا تراها إلا بسراج البرق إذا اتقد، فلو خاصم النيل مياه الأرض لقال عندي قبالة كل عين إصبع، ولو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل، وأنا بالملق أطعم، والنيل له الآيات الكُبر، وفيه العجائب والعبء، منها وجود الوفاء عند عدم الصفاء، وبلوغ الهرم إذا احتدَّ واضطرم، وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان إذا كُسِر، وهو كما يقال سلطان، وهو أكرم منتمى وأشرف منتمى، وأعذب مجتنى، وأعظم مجتدى، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه، وهو أنه في هذا العام المبارك، جذب البلاد من الجذب، وخلصها بذراعِهِ، وعصَمها بخنادقِهِ التي لا تراعى من يراعه، وحصنها بسواري الصواري، وماهي إلا عهد قلاعه، وراعى الادب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا كل يوم بخبر قاعه في رقاعِهِ، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت

سوابق الخير سراعاً / ٣٧٣ / وفتح أبواب الرحمة بتغليقه، وجدَّ في طلب تخليقه، تضرَّع بمد ذراعه الينا، وسلَّم عند الوفاء بأصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره، فرسمنا بأن يخلق، ويعلم تاريخ هنائه ويُغلق، فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوج موجّه، ويهيل كثيب سدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثه، ومرق كالسهم من قسيّ قناطره المنكوسة، وعلا زبَدَ حركته، ولولا ظهَرَتْ في باطنه من بدور أناسه، اشعتها المعكوسة، وبشر بركة الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المتحدِّر في السلاسل والأغلال، وملاً أكف الرجاء بأموال الأمواه، وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طلائعه بالطوالع التي نَزَلَتْ بركاتها من الله تعالى على العباد، وهذه عوائد الألفاظ الألهية بنا، التي لم نزل نجلس على موائدها، ونأخذ منها مانهيه لرعايانا من فوائدها، ونخص بالشكر قوادمها، فهي تدب حولنا وتدرج. ونخص قوادمها بالثناء والمدح، فهي تدخل إلينا وتخرج، فليأخذ الجنب العالي حظَّهُ من هذه البشرية، التي جاءت بالمن والمنح، وانهلَّت أيادها بالغدقة بالسحّ والسفح، وليلتقاها بشكر يضيء به في الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقداً تحيط منه بالعنق إلى النطق، وليتقدم الجنب العالي بأن لا يحرك الميزان في هذه البشرية بالجباية لسانه، وليعط كلَّ عاملٍ في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في اسقاط الجباية خيانة، والله تعالى يديم الجنب العالي لقص الانباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه، بمئه وكرمه.

ومن ذلك جواب كتبه عن النائب بالشام إلى الملك الأفضل صاحب حماة، وقد أرسل مشمشاً كافوريا:

لا زال إحسانه كالعلم المشهور، وجوذه المنظوم يهدي من الثمرات ما هو كالؤلؤ المنثور، وبرّه يتحف بما هو كالشهد في الطعم واللون، وكالنجم في الشكل والنور، وكرمه يتضوُّع نُشراً، / ٣٧٤ / وكيف لا وقد جاء بما ينسب إليه الكافور، وينهي ورود المشرفة العالية قرين ما أنعم به مولانا من المشمش الكافوري فوقف عليها، وقابل إحسانه بشكر يشرق نورا، وثناء يدير على الأسماع كأساً كان مزاجها كافورا، وواجه جوده بحمد يتلوه منه وجه الروض بمنثوره، وتجد الألسنة لمنظومه لذة تنسي الأسماع ما قاله أبو الطيب في كافوره، ومتع ناظره بتلك الكواكب التي اتسقت من العلب في أفلاك، وتنسقت كالدرر ومالها غير حسن الرصف أسلاك، وتأملها وهي كرات بلور،

اكتنفها الأصيل والشفق، وركبت حين ملأت الصدور طبقاً عن طبق، فأكرم بها هديّة كانت بحلل الأشجار أزرارا، ولجنات الأوراق نارا، كيف مكنت فروعها يد قاطفها من السلب؟ وكيف أقبلت في حلة الروع والوجل، وهي طيبة القلب؟ كأنها لم تكن لقسي الغصون بنادق، ولا في رقع الأوراق ببادق، فالله يشكر لمولانا هذا الإحسان العلويّ الذي جاد بالنجم زهرا، والجود الروضي الذي ملأ العيون حسنا، وملأ الصدور درّاً، وأدام الله أيامه التي تسبق فيها الغرائب، وتستبق إلى مكارمها الرغائب، بمنّه وكرمه. ومن ذلك جواب كتبه إليه أيضاً، وقد أهدى إليه زخاماً ملوناً:

وينهى وصول الرخام الملون الذي فتح به عين هذه الدار المكوّنة، وأهدى إلى روضها الذواوي أزهاره الملوّنة، ولا غرو فإن العيون توقظها الشمس بالأشعة من المنام، والأزهار توجد بالرياض من جود الغمام، ولو لم يكن كرم مولانا سحابا، لما جاد بألوان قوس قزح، ولو لم يكن علوه كالشمس لما انبعثت عنه أنوار تلهب شعاعها في هذه الدار وقدح، وتحاشى المملوك تشبيه ذلك بالزهر فإن هذا أبداً يانع، وذلك يؤول إلى الذبول، أو التمثيل بالأشعة، فإن هذا أبداً مشرق. وذاك بذهاب سره يحول ويزول، وهذه معجزة كرم لمولانا، فإن ريش الطاووس صار له جلمدا، وقوس السحاب تجسّد له على طول المدى، فلو ناظره مباحه بمحاسنِه لكان له الفخر، ولو حاولت المياه أن تبليه لما بالى بأنها عليه من الزخر، ولو أجرت / ٣٧٥ / دموعها عليه بماء لا يتلّ، فما كل باك خنساء، ولا كلّ جماد صخر، ولو رأته العيون لسبحت الألسن من راح له صانعاً، ولو أراد بليغ أن يقوم بحقه وصفاً لوجده مانعاً، والله يشكر لمولانا هذا الإحسان المديد الوافر، والفضل الأفضلي الذي أنبت في الروض أزاهر.

ومن ذلك مقامة انشأها في الحريق الذي اتفق بدمشق سنة أربعين وسبعمائة^(١) وسمّاها (رشف الحريق في وصف الحريق) وهي:

حكى شعلة بن أبي لهب عن أبي الزناد شهاب أنه قال:

لم تزل أذني متشّفة بأوصاف دمشق، مُتَلدِّدَةً بماء الأقلام في ذكر محاسنها من التعليق والمشق، حتى رأيت الحزم شدّ الكور إليها والحرم، فأزْمَعْتُ السير، ولم أجزر الطير، وقطعت أديم الأرض بالسير، وركبت إليها مطايا الشوق قبل مطايا السوق، ولم يتلّفَت القلب إلى الوطن، ولا منّ النجيب إلى العطن، حتى بلغت بعد مكابدة السرى، وإثارة العجاج من الثرى، فلما حلّلت مغناها وجَدْتُها: [من الكامل]

(١) انظر خبر الحريق في العبر وشذارت الذهب ١٢٦/٦.

بلدأ أعارتُهُ الحمامة طَوْقَهَا وكسأه حُلَّة ريشه الطاووسُ
وكأنما الأنهارُ فيه سِلافةٌ وكأن ساحاتِ الديارِ كؤوسُ
فألقيت العصا في ساحاتها، وألقيت زوال التعب في مصافحة راحتها، فما سرْتُ
فيها إلى روضٍ إلاّ وأجلسني من النرجس على أحداقه، وقام السرو من السرور بين يدي
على ساقه، وجرى الماء في خدمتي لكرم أخلاقه، وظلّلني الدوح لطيب أعراقه، ومدّ
الغصن لي ستور أوراقه، وغنّى لي الحمام على عودِهِ، ولو تأتّى أو تأبّى جرّه بأطواقه،
قال: فشفيت سقمي بنسيمها العليل، واستروحت إلى ما نقله عن بانه وبنفسجه لا إلى ما
يتحمّله من الإذخر والجليل، وخلتُ إنه بلطف مسّه يلين له الجندل، وجنت بعرفه
المنديلي، وما رأى الناس من جنّ بالمندل، وبردت بأنفاسه حرّ الصبابة والجوى.

وقلت: [من الكامل]

أضحى نسيمُ دمشقَ حيّاها الحيّا يمشي الهوينّا في ظلالِ جماها
فكأنه من مائها وهضابها ماداس إلاّ أعينا وجباها
/٣٧٦/ وقطعتُ بها زمناً ألدّ من وصال الحبيب، وأشهى إلى النفس من التشفي
بأذى الرقيب، فلا أبعده الله ما في بساينها من شجرات، ولا قدر الكسوف على ما
فيها من كواكب الثمرات، ولا ذلك هضبات أزهارها التي تزوع بطن نعمان بريّاها،
ولا بمن مشى به من الخفرات فأنها: [من الخفيف]

شوّقتنا إلى الجنان فزدنا في اجتنابِ الذنوبِ والآثامِ
قال: ولازمت جامعها الذي تحيّرت العقول في تكوينه وكنهه، وحسنه الذي لم
يكن فيه عيب سوى انه لم تقع العين على شبهه، والله من نظم درّاً فيه، حين قال فيه:
[من المتقارب]

دمشقُ لها منظرٌ رائقٌ وكلُّ إلى وصلها تائقُ
وكيف تقاس بها بلدةٌ أبى الله والجامعُ الفارقُ
فإنه يوقظ النائم بحسن رخامه القائم، ويجلو بهيم الدجى حصّة الفجر من
حصّه، وتروي لك زخرفته حديث الحسن بفضّه، كم زهّرت فيه ليلة النصف من ذبالةٍ
هي نجمٌ توقّد، وكم دار به دولاّب كانت قناديلُهُ تدور مثل الفرقد، وكم طلع في
سما صحنه من ثريا، وكم تمنى القمر لو كان بين نجومه، فما اتفق له ذلك ولا تهيأ.
وكم جَلَبَت عروسُهُ في عقود وقود، وكم تمتعت الأبصار فيه بوجوه تُخجل البدر
في ليالي السعود، وكم فيه من عمود قام على قاعدة، وكم به من منجور كغضون

أوجه العجايز وأزراره ناهدة، وكم من أعطاف رؤيت في صحنه مائدة، وكم من طائر لرفع نسره مخفوض، وكم حسن بناء عند بنائه يعرب أنه مرفوض، كم أظهرت الصناعات فيه بدائع لا يدعيها غيرهم، ولا يتعاطى؟ وكم أبرزوا فيه من معجز؛ لأنهم جعلوا الحجارة أوراقاً والرخام أخيطا؟ قد عمر الله تعالى أوقاته بالذكر، وأراح قلب مَنْ يراه من الهم، وأراح عنه الفكر، قال: فلما رأيت مجموعته المختار، وأن العيون تودُّ لو تُسج له من شعر جفونها استار، قلت: [من الطويل]

تقولُ دمشقٌ إذ تُفاخرُ غيرها بِجامِعها الزاهي البديع المُشيدِ
/ ٣٧٧ / جَرى لنهايِ حسنِهِ كلُّ جامعٍ وماقِصباتُ السَّبِقِ إلا لمعبدِ
قال: فبيننا نحن ذات ليلة وقد وردنا حمى المضاجع، ودخل ضيف الطيف على مقلة الهاجع، وإذا بالأصوات تعجّ، والدعوات تليج أبواب السماء وتليج: [من الطويل]

فلو نشدتُ نِعشاً هناكُ بنائهُ لَمات ولم يسمع لها صوتٌ منشدِ
فسألت عن الخبر ممن عبر، فقال: إن الحريق وقع قريباً من الجامع، وانظر إلى نسج الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع، فبادرتُ إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيتُ النار وقد نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء عذبات ذوائبها: [من الطويل]
ذوائبٌ لجت في علو كأنما تحاولُ ثاراً عند بعض الكواكبِ
وعلّت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ترمي بشرر كالقصر، فكم زميرٍ أضحّت لذلك الدخان جائية؟ وكم نفسٍ كانت في النازعات وهي تتلو ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَلَسِيَّةِ﴾^(١)؟ ولم تزل النار تأكل ما يليها، وتفني ما يستقلها ويعتليها، إلى أن ارتقت إلى المأذنة الشرقية، ولعبت ألسنتها المسوذة في أغراض أخشابها النقية، وثارَت إليها من الأرض لأخذ الثار، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء: [من البسيط]

كَأَنَّهُ عَلمٌ في رأسِهِ نار

فنكست وكانت للتوحيد سبابة ولمعبدها المطرب شبابة، وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة، وادار الحريق على دائرها رحيقه: [من المتقارب]

وبالأرضِ مِنْ حُبِّهَا صُفْرَةً فما يَنْبُتُ الرَوْضُ إِلَّا بَهَارًا
وترقى إليها أولو العزم من النظارة، وصبروا على النار، والشعث بعد النعيم
والنضارة، وكانت نارها تكون كنار القيامة، وقودها النار^(١) والحجارة، هذا وبنفسج
الظلام يذوى، ولينوفر النار يشبّ على الماء ويقوى، حتى نثرت غصون ذوائب النار
شررها في النواحي، وظننا الدخان روضة /٣٧٨/ سوسن تخللها نرجس وأفاحي،
وعقد الدخان سماءً أخرى، واطلع الشرار فيها كواكب زهرا، وكان أهل دمشق دعوا
طارق النيل والفرات ليُقرى، وخافوا ضلاله فرفعوا له من النار في الظلماء ألوياً
حمرا، إلى أن أتاها البحر لا زال نصره عجاجاً، ولا زالت سيوفه تكاثر البحار
أمواجاً، فأنكشفت لما أن رأت من وجهه سراجاً وهاجاً، وطفئت لما أن رأت جوده
عذباً فُرّاتا، وبأسه ملحاً أجاجا، وكاثرها بهمم أمرائه، فأحكم إخمادها، وتلقى
بصدره من خطب الزمان ما دهى، ولما طلع في روض السماء ياسمين النهار، وعاد
اهليلجاً ما رؤي بالليل من الجلنار، وقف النادبون على الرسوم، ورأوا صنع النار
التي عكست نار الآخرة، فكان لكل مكان منها جزء مقسوم: [من الطويل]

فلم يذُرِ رَسْمُ الدارِ كَيْفَ يُجِيبُنَا ولا نَحْنُ من فَرَطِ الجَوَى كَيْفَ نَسْأَلُ^(٢)

وأصبح باب الساعات^(٣)، وهو من آيات الساعة، وخالّت مصاطب الشهود من
السنة والجماعة، وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة، وحسنها البديع وقد
ثلّت النار عرشه، كأن لم أر بها سميراً، ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنّة
وحريراً، قد سلّط الله عليها النار التي ما لها ردة، وأحرق أزهار ثيابها الملونة بوردة،
ونظرت إلى الوراقين وقد زال ما بها من الطرائف، وطاف عليها من الدثور والخراب
طائف، فيا ضياع أوضاعها المكوّنة، ويا سواد وجوه أوراقها الملوّنة، ولمحّت
اللبادين^(٤)، وقد صارت كالعهن المنفوش، ومُحيت بأيدي النار سطور كل خاتم
منقوش، وأصبح أهلها كالحمام تنوح على أقفاصها، وتودّ اللآلي أنها لم تخرج
إليهم من مغاصها، فما منهم إلا رب نعمة سلبت أصبح بعد الجديد في خلق، أو غني
أمسى بعد ما ضم قفصه يكدي في الحلق، وكادت الخضراء تذهب بالنار الحمراء.
قال: فلما رأيت تلك الأطلال الدائرة، ونسخ هاتيك الظلال المتصلة بالهاجرة،

(١) كذا في الأصل، ولعلها: الناس. (٢) البيت للبحري (ديوانه: ٣/١٧٨٨).

(٣) باب الساعات: الباب الجنوبي للجامع الاموي، سمي فيما بعد باب الزيادة.

(٤) اللبّادين: نسبة إلى عمل اللبود موضع بدمشق، مشرف على جيرون (معجم البلدان ١٠/٥).

وخطوطها وزواياها كيف أحاط بها سوء الدائرة، قلت عند مشاهدة /٣٧٩/ تلك الحال في الحال: [من الطويل]

حريقُ دمشقٍ قد بدا لعياني ليُظهرَ لي عندَ البيانِ معاني
عَدَتْ نارُهُ في الجوّ تَعْلُو وترتقي كأنَّ لها عندَ النجومِ أمانِي
لقد ضوَأ الآفاقَ لامِعُ برقِها وما كلُّ برقٍ شَمَتَهُ بيماني
وقد كادَ يمحو آيةَ الليلِ ضوؤها ويُبدي نهاراً بعدَ ذلكَ ثاني
ونالتَ عنانَ الجوّ حتى رأيتها يصرِّفُهُ مِنْ تحتِها بعنانِ
وطالتَ إلى نهرِ المجرَّةِ في السما لتقصِدَ شيءَ الحوتِ والسَّرطانِ
فأبصرَ أهلُ النيلِ لما ترفَعَتْ نجومَ شرارٍ في سماءِ دُخانِ
كأن دُخانَ النارِ غبراءَ مُغزَلٌ وكلُّ شرارٍ فيهِ مثلُ سنانِ
ولو لم تكن نار الأعداي لما عَدَتْ وحنّاؤها بادٍ بكلِّ بَنانِ
ولا صَبَعَتْ بالزعفرانِ قميصَها سروراً ولا طالتَ بكلِّ لسانِ

قال: وما نفض الناس غبار ذلك الهدم، ولا رماد ذلك الصدع الشديد الصدم، حتى وقع بالمدرسة الأمينية حريق ثان، وَدَهَمَتْ شقراء النار دهماء الظلام، ولم يوجد لعنانها ثان، فجمعت بين عين الوداع وسين السلام، وكانت كحَمَى أبي الطيب، فليس تزور الا في الظلام^(١)، فيا لسوق الكفت كيف باد، وَفَتَّتْ الأكبَاد، علكت النار لجمه، وكسفت نجمه، أين بأسه الشديد، ومنافعه التي لا تبيد؟ سكن زبره، ورفع خبره، ويالسوق الخيم كيف ذهب، وعُدم النصر على الكافرين، فتبت يدا أبي لهب، لقد تمسكت النار بأطنابه، وتجلد لها والنار تحت ثيابه، وأمسى وكل عمود غصنه مهصور، وكل خام وهو على البلى مقصور، كأن الشاعر قديماً تخيل ما يحصل لها من الأوام، فقال: [من الوافر]

سُقَيْتِ الغَيْثِ ايتِها الخِيَامُ

ويالسوق القسيّ كيف محي من الوجود، ونسي، ولم يبق لقوس قلبها، ولم يعطها لباريها ربّها، كأنما كان للنار عند القسيّ أوتار، أو كأن نسخها كان محققاً فجاءهم بقلم الطومار، أو كأن امتهانها كان معلقاً بثلاث الليل /٣٨٠/ بعدما رقت

(١) إشارة لقول ابي الطيب المتنبّي: [من الوافر]

وزائرتني كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

حواشيها، ولم يقع عليها غبار، فكم قسيّ توفر من النار سهمها، وعظم بوهنها وهمها، واقامتها النار بعد ما كانت حنايا، وأفنت قرننها وما اختلطت بعظم أو الحوايا، لم تبطش ولها أيدي، ولم تهرب ولها أرجل، ولم تأنّ وهي مرنان، ولم تدفع الأذى عن نفسها، ونفثها يقتل، ولم ينسبط لها إلى الدفع قبضة، ولم تصل إلى غرض ولم ينبض لعرق وترها نبضة، وقد قال لها لسان النار: هل سمعت بهذه الحادثة في ملحمة ابن عقب؟ أو اتصل بناؤها بقوس السحاب فانتظره وارقب، كيف غفلت عن هذه النازلة، وأنت عدّة قوم قليلاً من الليل ما يهجعون؟ وكيف نمت ولا عجب لمن نعس وهو ذو قرون؟ قال: فينما هما في المناجاة وتكرار المحاجاة إذ جاء النار خبير مالك، واشرف زهيت به الدول والممالك، فجاس خلال ضرامها، ودخل لظاها، فتلقته ببردها وسلامها، وتتبع أثرها الذي آثر اقتلاعه وافتحمها، فتعلّقت إذ تألّقت في الجو، والفرار قدام الملوك طاعة، ولم ير تلك الساعة أحد أقرب منه إليها، ولا أسلط سطا منه عليها، وثب في جهاتها مماليكه وأمرأوه، وصغار بنيه وكبرأؤه، فهم قوم: [من الطويل]

إذا ركبوا زادوا المواكب بهجةً وإن جلسوا كانوا صدور المجالس
فلم يرَ أسهل من خمودها، ولا أسرع من إبطال حركتها وجمودها، ونصرٌ أعزّ
الله انصار هذه الملة المحمدية، وحاز بهذه النقبة الكرامة الأحمدية، ولما رأيت
مسك هذا الختام وأنّ الجيش تعالى وانحطّ القتام قلت: [من السريع]

جاء ليظفي النار من اسمه بحر فأخفى زندها الواري
ومن يكن بحراً فلا غرو أن تطغى لظى منه بتياري
وقام في الله لدفع الأذى مؤيداً بالقدر الجاري
وغير بدع أن يردّ الردى بمُرهف الحدين بتار
لأنه سيفٌ ولم يُدخِر إلا لخطب طارق طاري
واقتم النار بوجه حكي بدر الدجى إذ لاح للساوي
/ ٣٨١ / فانظر إليه وهو في وسطها تشاهد الجنة في النار

قال: ولم يزل الناس من أمر هذه النار في قلق، وحس نفي عن عيونهم القرار، ورمى جفونهم بالأرق، وحنق يودّ الصبح لو تنفس والفجر معه لو انفلق، حتى أظهر الله تعالى أن النصاري قصدوا الجامع بذلك، وتخيلوا أن النار تلعب في جوانب دمشق: [من الطويل]

وما الناس إلا هالك وابن هالك^(١)

وتوهموا أن فعلاتهم المذمومة تغطي مساويها الليلي الحوالك، فعل من صور الصور بيده وعبدها، وكفر بالوحدانية وجحدها، وعكف على الخيانة والخبائث، واعتمد على عقلٍ أذاه إلى أن الواحد تعالى ثلاثة، فتهيب بعض الناس رميهم بهذا الحجر، وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم، وفجر وخوف بانتصار الفرنج لأهل ملتهم، وإزاحة علتهم، وكشف غمتهم، والأخذ بثار رميتهم، فقال من صدق في إيمانه وكان من انصار الأسلام وأعوانه: [من الوافر]

أعباد المسيح يخافُ صحبي ونحنُ عبيدُ من خلق المسيح^(٢)
فما كان إلا أن صممت العزمات السيفية، وعمت بإحسانها الشامل، حتى خلصت النفوس البريئة من هذه (البرية) وايقظت عين حزمها الراقدة: [من الرمل]

واستبذت مرةً واحدة^(٣)

ورسم بإمساك من أبرم هذا الأمر وحرره، وبيت على فعله وقرره، فأقروا بما فعلوا ووجدوا ما عملوا، فضربوا بسياط كشطت غلظ الغلظ، من جلدتهم، وأوهنت قوى شجاعتهم وجلدهم، كم فيهم من أسود اللمة فتق جلدته الشيب، وخط وخطه على جنبه ما كان مخبوءاً له في الغيب، وأقبل بعضهم يوبخ بعضاً فيما أشار، ويتبرم هذا إذ يتبرأ ذاك من هذه الآثار، ويتسابون فيما بينهم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(٤)، ولقد قلت فيهم عند التشفي والانكفاء عن عقابهم بما يكف الحق ويكفي: [من الكامل]

حرثت جنوبهم وشقت أرضها ليلاً فجاد نباتها بشقيق
وأريد تاريخ الحريق فخطه الوالي على أضلاعهم بعقيق
ولما أخذ سُحت أموالهم في إيجاد ما أعدموه بفعالهم، نظر في سوء منقلبهم /٣٨٢/ ومآلهم، وتمام المقابلة على تجنيس أعمالهم، وورد المرسوم الشريف بتسميرهم على الجمال وإظهار ما لهذه الملة القاهرة من هذا العز والجمال، ففضى الله تعالى فيهم أمره، وجعلهم آية لأهل الصليب وعبرة، وأخرجوا وطباع

(١) من بيت لأبي نؤاس وتماه:

وذو نسبٍ في الهالكين عريق

وما الناس إلا هالك وابن هالك

(٢) البيت لابي العلاء المعري (سقط الزند: ٢٤٦/١).

(٣) من قول عمر بن أبي ربيعة لمسلم بن الوليد:

واستبذت مرةً واحدة أنما العاجز من لا يستبذ

(٤) سورة: ص: ٦٤.

الورى على عدم رحمتهم مجبولة، وقدموا في حلقة الناس فخرج كل واحد منهم
بجملٍ وست فحولة، وأقيموا رقباء للشمس كالحرباء فليس لهم من دونها ستر منسبل،
وتنوع الناس في شتمهم فقال اشبعتمونا شتما ورحنا بالإيل: [من الكامل]

انظر إليهم في الجذوع كأنهم قد فوّقوا يرمون بالنشاب
أو عصبه عزموا الرحيل فنكسوا أعناقهم أسفاً على الأحباب
وطيف بهم بياض يومين، ثم أنزلوا ليجعل كل سطل منهم دلوين، فجرّدوا من
ثيابهم، وجمل شمل السرور بتمزيق إهابهم: [من السريع]

ساقهم البغي إلى صرعة للحين لم تخطر على بالهم
كم أملوا المكروه في غيرهم فنالهم مكروه أمالهم
وسبق السيف فيهم العدل، وقال كل مسلم لمصرعهم:

تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل
وبقيت اشلاؤهم طريحة الحفير، وألقوا في جهنم وبس المصير.

ومن شعره قوله: [من البسيط]

أدعوك ياموجد الأشياء من عدم إن كنت تعرض يوم الحشر لي عملاً
وصانع العالم العلوي والارضي فلا تقدّر له طولا على عرضي
وقوله: [من السريع]

يارب إن لم ألق منك الرضا فعند حفر القبر لاتنسني
عمري وحاشا فضلك الغامر يا حسنه نقداً مع الحافر
وقوله: [من الوافر]

يقول الفكر لي دنت ثوب الشبا وتغسله بدمعك كل وقت
ب في غداة الشيب تتعب وماينقى لأن الطبع أغلب
/٣٨٣/ وقوله: [من السريع]

لا تسأل الناس فإني امرؤ واقنع ولا تجمع حطاماً فكم
في الدهر للدينار من صرف مطاب لي عرف من العرف
وقوله: [من السريع]

لا تجمع الدينار واسمخ به ما الدهر نحوي فينجو الهدى
ولا تقل كُن في حمى كنفي ويمنع الجمع من الصرف

وقوله: [من السريع]

يا زمناً أوقعنا شؤمهُ
الفضلُ يحتاجُ إلى عارفٍ

وقوله: [من السريع]

لا تُرْعَ للملاقَ عهداً ولا
أنتَ تري ما [قد] جنته يد

وقوله مضمناً: [من الطويل]

يقولُ لنا المقياسُ والنيْلُ هابِطٌ
ومَنْ يأمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ

وقوله: [من السريع]

لا تَطْعَ تلقَ الشرَّ كالنيْلِ إذْ
كمْ جاءهُ بالشرِّ شرٌّ إلى

وقوله: [من مجزوء الخفيف]

لِمَ لا أهيمُ بمصر
وما ترى العينُ أحلى

وقوله: [من البسيط]

لقد رأيتُ بمصرٍ مذ حَلَلْتُ بها
تسودُ في عيني الدنيا فلم أرها
/٣٨٤/ وقوله: [من البسيط]

قالوا: علا نيلُ مصرٍ في زيادته
فقلتُ: هذا عجيبٌ في بلادكم

وقوله: [من السريع]

قد زادَ هذا النيلُ في عامنا
وكادَ أن يعطفَ مِنْ مائه

وقوله: [من مخلع البسيط]

قد حاربَ الريحُ نيلُ مصرٍ
فجاءت الريحُ بانزعاجٍ

في محنةٍ ليس لها كاشفهُ
والحالُ تحتاجُ إلى عارفهُ

تُضغِ لما نمقهُ واختلقُ
الرامي على الطيرِ برعي الملق

لنقطعَ آمالَ المُنَى والمطالعِ
على الماءِ خائتُهُ فُروحُ الأصابعِ

طغى وزادَ الأمرُ في هيجهِ
أن كسَرَ الاضلاعَ مِنْ موجهِ

وارتضيها وأعشقُ
من مائها إن تملق

عجائباً ما رآها الناسُ في جيلِ
تبيضُ إلا إذا ماكنتُ في النيلِ

حتى لقد بلغَ الأهرامَ حينَ طمى
أن ابنَ ستةَ عشرٍ يبلغُ الهرما

فأغرقَ الأرضَ بإنعامهِ
عُرَى على أزرارِ أهرامهِ

وعَضَّ مِنْ غيظهِ الأصابعِ
كسَرَ مِنْ موجهِ الأضالعِ

وقوله: [من الهزج]

وعَيْنِ مَاؤَهَا صَافٍ وَلَمْ أَرِ قَبْلَهَا عَيْنًا

وقوله: [من البسيط]

رَكِبْتُ فِي الْبَحْرِ مَعَ أُخِي أَدِيبٍ شَرَحَتْ يَابِحِرُ صَدْرِي الْيَوْمَ قَلْتُ [له]

وقوله: [من الكامل]

لَكَ أَنْ تَغِبَ شَخْصٌ وَذَكَرَ أَصْبَحَا فَخِيَامُ جَفْنِي فَوْقَ ذَا مَضْرُوبَةٌ

وقوله: [من السريع]

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ إِذَا مَا دَجَا صَحِيفَةٌ سَوْدَاً وَشَخْصِي بِهِ

وقوله: [من الطويل]

أَتَانِي وَقَدْ أَوْدَى السُّهَادُ بِنَاطِرِي فَقَلْتُ لَهُ: يَاطِيبَ الْأَصْلِ هَكَذَا

وقوله: [من الكامل]

لَمَّا رَقَدْتُ أَتَى خِيَالِكَ بَغْتَةً / ٣٨٥ / لَوْ أَنَّ صَحْبِي شَاهِدُونِي فِي الْكَرَى

وقوله: [من المتقارب]

ضَمَمْتُ خِيَالَكَ لَمَّا أَتَى وَقَمْتُ وَمِنْ فَرَحْتِي بِاللِّقَا

وقوله: [من السريع]

عَجِبْتُ إِذْ زَارَتْ عَلَيَّ خُفْيَةَ هَذَا فَضُولٌ مِنْ نَسِيمِ الصَّبَا

وقوله: [من السريع]

قَلْتُ لَهُ: زُرْنِي فَلَا بُدَّ أَنْ فَالْرِيحُ مَا تَكْتُمُ نَشْرًا وَمَا

كَمَثَلِ الشَّمْسِ فِي الْأَوْجِ حَوَاجِبُهَا مِنْ الْمَسْجُوحِ

فَقَالَ: دَعْنِي مِنْ قَالٍ وَمِنْ قَيْلٍ لَا تُنْكَرِ الشَّرْحَ يَآنِحُوِي لِلنَّيْلِ

مَلَكَيْنِ فِي ذَاتِي وَذَلِكَ لِائِقُ وَلِوَاءِ قَلْبِي فَوْقَ هَذَا خَافِقُ

وَصَدَّ مَنْ قَلْبِي بِهِ مُغْرَى مِنْ انْتِحَالِي الْفُ صَفْرَا

يَمْرُقُ جُنْحَ اللَّيْلِ بَارِقُ فِيهِ أَخَذْتُ الْكَرَى مَنِّي وَعَيْنِي فِيهِ

فَعَدَا فَوَادِي خَافِقًا يَتَمَوِّجُ وَالْقَلْبُ يَرْقُصُ فِي الْخِيَالِ تَفَرَّجُوا

وَقَبَّلْتُهُ قَبْلَةَ الْمُغْرَمِ حَلَاوَةٌ ذَاكَ اللَّمَى فِي فَمِي

مَنْ أَعْلَمَ الْوَاشِي بِمَسْرَاهَا فَهُوَ الَّذِي يَنْقُلُ رِيَّاهَا

يَدْرِي بِنَا الْوَاشِي وَيُغْرَى الْعَدُولُ يَبْرُحُ رِيَّاكَ يُعَانِي الْفُضُولُ

وقوله: [من السريع]

إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ ابْتِسَامِ الصَّبَاحِ
ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فُضُولَ الْوَشَاحِ

قَالُوا: وَشَى الْحَلِيِّ بِهَا إِذْ مَشَتْ
فَقُلْتُ لَا خَلْخَالَهَا صَامِتٌ

وقوله: [من الكامل]

رَاحٌ يُعِيدُ الصَّبَّ بَعْدَ هَلَاكِهِ
لَكِنَّ هَذَا مِنْ فُضُولِ سَوَاكِهِ

عَلِمَ الْوَشَاءُ أَنَّ رِيْقَ مُعَذِّبِي
أَمَّا أَنَا لَمْ يَبْدُ هَذَا مِنْ فَمِي

وقوله: [من السريع]

أَسْكَرَنِي لِمَا تَرَشَّفْتُ فَاكٌ
اسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَكَرْتُ السَّوَاكُ

يَقُولُ لِمَا قُلْتُ: هَذَا اللَّمَى
سَوَاكٌ مَا ذَاقَ لَمَى مَبْسِمِي

وقوله: [من المتقارب]

وَقَدْ زُرْتُ فِي الْحِنْدِسِ الْمُظْلَمِ
وَخَلِّي سَوَاكُ فِي الْمِعْصَمِ

إِذَا شِئْتَ حَلِيكَ أَنْ لَا يَشِي
فَرْدِي السَّوَارَ مَكَانَ الْوَشَاحِ

وقوله: [من الخفيف]

إِنْ تَشْنَى وَاسْتَرَهُ خَوْفَ الْعُيُونِ
عِنَكَ هَذَا الْحَدِيثَ بَيْنَ الْعُصُونِ

قَالَ لِي: لَا تَفْهَمْ بِمِيلِ قَوَامِي
قُلْتُ: إِنَّ الصَّبَا الَّتِي قَدْ أَشَاعَتْ

/ ٣٨٦ / وقوله: [من البسيط]

فَوَادُهُ طَارَ حَتَّى لَيْسَ يَأْلُفُهُ
قُلْتُ: النَّسِيمَ الَّذِي مَا زَالَ يَعْطِفُهُ

أَقُولُ يَا غَصْنُ هَلَّا مِلْتِ نَحْوَ فَتَى
فَقَالَ: مَنْ قَالَ: قَدِّي مِثْلُ غَصْنٍ نَقَاً

وقوله مضمناً: [من الطويل]

قَوَامُكَ إِلَّا بِالصَّبَا فِي التَّنَسُّمِ
وَقِفْ وَفَقَّةً قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمِ

أَقُولُ لَغَصْنِ الْبَانِ: إِنْ كَانَ لَمْ يَمْسُ
فَعَارِضٌ حَبِيبِي حِينَ يَشْنَى قَوَامَهُ

وقوله: [من السريع]

بِأَنَّهُ لَمْ يَقْسُ يَوْمًا عَلِي
يَرْبِطُهُ الْغَصْنَ عَلَى غَيْرِ شِي

يَوْهْمُنِي مِنْ لَيْنِ أَعْطَافِهِ
وَيَخْدَعُ الْبِنْدَ إِلَى أَنْ غَدَا

وقوله: [من مجزوء الكامل]

وَالطَّيْرُ يَصْدَحُ فَوْقَ غُضْنِ
وَيَعْلَمُ الْغَصْنَ التَّشْنَى

لَمْ أَنْسَهُ فِي رَوْضَةٍ
فَأَعْلَمَ الْوُزُقَ الْبُكََا

وقوله: [من المجتث]

يهتَزُّ قَدُكَ لِيُنَا
يَغِيْبُ عَنِّي حِينَا

وقوله: [من الخفيف]

أَيُّهَا الْأَهِيْفُ الَّذِي قَدْ تَثَنَّى
لَكَ رَدْفٌ مِنْ وَافِرٍ وَبَسِيْطٍ

وقوله: [من المجتث]

يَقْوُلُ رَدْفٌ حَبِيْبِي
مَا أَنْتَ يَا غَصْنُ قَدِّي

وقوله: [من الهزج]

لَقَدْ أَضْعَفَنِي حُزْنِي
فَهَا أَنَا لَمْ أَزِنْ وَجْدِي

وقوله: [من البسيط]

أَلْبَسْتُهَا مِنْ عِنَاقِي وَهِيَ نَائِمَةٌ
يَاخِجَلْتَا فِي غَدٍ مِنْهَا إِذَا أَخَذَتْ

/٣٨٧/ وقوله: [من المنسرح]

يَا بَرَقُ بَلِّغْ رِسَالَتِي فَمَهَا
لَأَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ مَبْسِمِهَا

وقوله: [من مخلع البسيط]

قَلْتُ لَهُ: إِنْ بَعَدَتْ عَنِّي
أَمَا تَرَانَا لَمَا اعْتَنَقْنَا

وقوله: [من الوافر]

نَظَرْتُ إِلَى الرِّيَاضِ وَلِي مَجَازٌ
فَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ آسٍ تَبْدَى

وقوله: [من المتقارب]

عِذَارُكَ وَالظَّرْفُ يَاقَاتِلِي
وَقَدْ صَارَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ

وَفِي الْحَشَا مِنْهُ غُصَّةٌ
وَإِنْ أَتَى جَا بَرَقِصَّةٌ

عِظْفُهُ وَالتَّوَى مِنَ اللَّيْنِ غُصْنُهُ
لَا يُرَى فِي الرَّبَى وَفِي الكُتْبِ وَزْنُهُ

وَعِظْفُهُ الْمَتَثَنِّي:
وَلَا كَثِيْبِكَ وَرَئِي

وَضَاعَفَ خَالِقِي حُسْنَكَ
لَأَنِّي لَمْ أَجِدْ وَزْنَكَ

ثَوْبًا يُزْرُ بِلِثْمٍ غَيْرٍ مَنفَصَلٍ
مِرَاتَهَا وَرَأَتْ مَا أَثَرَتْ قُبَلِي

إِنْ انْكَرْتَنِي فَصِفْ لَهَا عَلَيَّ
لَيْلَةَ زَارَتْ عِلَامَةَ الْقُبَلِ

تَفَضَّلْتُ بَيْنَنَا الْعَوَازِلُ
مَا دَخَلْتُ بَيْنَنَا الْغَلَائِلُ

يُؤَدِينِي إِلَى الْمَعْنَى الْحَقِيقِي
وَمَا انْدَمَلَتْ جِرَاحَاتُ الشَّقِيقِ

يَحَاكِيهِمَا الْآسُ وَالنَّرْجِسُ
[ف] هَذَا يَدْبُ وَذَا يَنْعَسُ

وقوله: [من الخفيف]

إن عيني مُدْ غَابَ شَخْصُكَ عنها يأمرُ السُّهُدُ في كَرَاهَا وَيَنْهَى
بدموعٍ كأنهنَّ الغَوادي لا تسلُّ ماجرى على الخدِّ منها

وقوله: [من الكامل]

أَمَلْتُ أَنْ تَتَعَطَّفُوا بَوْصَالِكُمْ فرأيتُ مِنْ هجرانِكُمْ ما لا يُرى
وعلمتُ أن بعادِكُمْ لا بُدَّ أن يجري له دمعي دَمًا وكذا جَرَى

وجاءت شتوة، وشَّحت بروقها حاشية السحاب، ووشت لمم الجبال الشائبة
توشية الخضاب، وهَدَرَتْ رعودها الصائلة، ووفت عهودها السائلة، وتوالت مدة لا
يكشط فيها سماء، ولا يكشف بأيام الثلوج المصبحة ظلماء.

ودامت أياماً لا تفصل فصالها عن سحائب، ولا تولد بكرة يوم إلا وهي في
طفولتها شائبة النواصي والدوائب، هذا ولا تصبح صبيحة ضاحك إلا ووجه الأرض
عبوس، ومعطف السماء في بوس، وقوس السحاب ترمي بقسي ما لها / ٣٨٨ / وتر،
وغُدر الثلج الصافية كالبلُّور وكلَّها كدر، والسقوف قد أرَّقها المطر فأنهرها، والطرق
قد عرفها اللثق ونكرها، والبرد قد اشتدَّ كلبه، ولهذا غطى جمده الماء ولم يشف
حتى شرب العذب البارد ممزوجاً بمثل الدماء.

فكُتبتُ إليه:

كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل، يرعب مقدمه، ويرهب تقدِّمه،
ويريب اللبيب من برقه المومض تبسُّمه، وكيف حاله مع رعوِّه الصارخة وريحه
النافخة، ووجوه أيامه الكالحة، وسرر لياليه التي لا تبيت منها بليلة صالحة، وسحابه
وأواجه وجليده والمشى فوق زُجاجه، وتراكم مطره الحثيث، وتطاول فرع ليله
الأثيث، ومواقده السود الممقوتة، وذائب جمره المحمَّر، وأهون بها ولو أن كل
حمراء ياقوتة، وتحدر نؤيه المتصبَّب، وتحير نجمة المتصوب، وكيف هو مع جيشه
الذي ما ظلَّ حتى نصب مضارب غمامه، وظلَّل الجو بمثل أجنحة الفواخت من
أعلامه، هذا على أنه عرى الأبنية، وحلل مما تلف دمه سالف الاشتهية، فلقد جاء من
البرد بما رضَّ العظام وأنخرها، ودقَّ فخارات الأجسام وفخرها، وجَمَدَ في الفم
الريق، وعَقَدَ اللسان، إلا أنه لسان المنطيق، ويبس الأصابع حتى كادت أغصانها
توقد حطبا، وقيد الأرجل فكانت لا تمشي إلا تتوقع عطا، وأتى الزمهرير بجنود ما
للقوي بها قبل، وحمل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال ساوي إلى

جَبَلٍ، ومدّ من السيل ما استبكى العيون إذا جرى، واحتجف ما أتى عليه، وأول ما بدا الدمع بالكرى، فكيف أنت ياسيدي في هذه الأحوال، وكيف أنت في مقاساة هذه الأهوال، وكيف رأيت منها ما شَيَّبَ بثلجِه نواصي الجبال، أو جاء من البحر فتلقف ثعبانه ما ألقته هراوات البروق من عصي وخيوط السحاب من جبال، أما نحن فبين أفواج السحب تزدهم وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء إلا مَنْ رَحِمَ، وكيف سيدنا مع مجامر كانون وشرار برقعها القادح، وهم ودقها الفادح، وقوس قزحها / ٣٨٩ / المتلون، ردّ الله عليه صوائب سهامِه، وبدلنا منه بوشائع حلل الربيع ونضارِه أيامه، وجعل حظّ مولانا من لوافجِه، وما يذكيه ذهنه من ضرامِه ومن سوافجِه، ما يولده فكرُه من تؤامه، وعَوْضنا وإياه منه بالصيف إذا أقبل، وأراحنا من هذا الشتاء ومشى غمامه المتبختر بكمه المسبل.

فكتب إليّ جواباً:

وينهي ورود هذه الرقعة التي هي طراز في حلّة الدهر، والحديقة التي تذكر بزمن الربيع وما تهديه أيامه من أنواع الزهر، فوقف منها على الروض الذي تهدّلت فروع غصونِه بالأثمار، ونظر منها إلى الأفق الذي كل كواكبه شمس وأقمار، فأنشأت له أطرابه، وأعلمته أن قلم مولانا يفعل بالألباب ما لا تفعله نظرات الشباب، وأرشفته سلافاً كورسها الحروف، وكل نقطة حباية، وشاهد أوصاف هذه الأيام المباركة القدم، المتصلة الظلام، فلا أَوْحَسَ الله من طلعة الشمس وحواجب الأهلّة، وعيون النجوم، فما لنا ولهذه السحائب السحابة، والرعود الصخابة، والبروق اللّهابة، والغمام السكّابة، والثلوج التي أصبحت بحصباؤها حصابة، والبرد الذي أمّست ابره لغصون الجلود قطابه، والزميتا التي لا تروي عن أبي ذر، إلا ويروي الغيث عن أبي قلابه، كلّما أقبلت فحمة ظلام قدّحت فيها البوارق جمرتها، وكلّما جاءت سحابة كحلاء الجفون رجعت وهي مرهاء لما أسبكت من عبرتها، فما هذا طوبة^(١) إن هذا إلا جبل ثهلان وما هذا كانون، إن هو كنور الطوفان، التي متى قطن هذه الثلوج يطرح على حباب الجبال، وإلى متى تفاض دلاص الأنهار، وترشقها قوس قرح بالنبال؟ وإلى متى تشقق السحاب ما لها من الحلل والحبر؟ وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجوّ، وفي أطرافها على الغدران إير؟ وإلى متى تجمد عيون الغمام وتلحها البروق بالنار؟ وإلى متى نثار هذه الفضة وما يرى للنجم دينار؟ وإلى متى / ٣٩٠ /

(١) طوبة: من شهور القبط.

نحنُ نحنو على النار حنو المرضعات على الفطيم؟ وإلى متى تبكي هذه الميازيب.
بكاء الأولياء بغير حزن، إذا استولوا على مال اليتيم؟ وإلى متى هذا البرق تتلوى
بطون حياته، وتتقلب حماليق العيون المحمّرة من اسود غاباته؟ وإلى متى يزمجر عتب
هذه الرياح العاصفة؟ وإلى متى يرسل هذا الزمهرير أعواناً تصبح بها حلاوة الوجوه
تالفه؟ أترى هذه الأمطار تقلب من أزيار؟ أم ترى هذه المواليد تنتهي فيها الأعمار؟
كم من جليد يذوب له قلب الجليد، ويرى زجاجه الشفاف أصلب من الحديد، وكم
من وحل لا تمشي هريرة فيه الوحى، وكم من برد لا ينتطق فيه نوم الضحى، اللهم
حوالينا ولا علينا، لقد أضجرنا تراكم الثياب، ومقاساة ما لهذه الرحمة من العذاب،
وانجماع كل عن إلفه، وإغلاق باب القباب، وتخلل الضباب زوايا البيوت والأطفال
ضباب الضباب، وكل ضب منهم قد لزم باطن نافقائه، وقدم بين يديه الموت بدايةً
بدايته، قد حسد على النار من كان مذنباً وأصبح عاصياً، وتمنى أن يرى من فواكه
الجمرات عناباً أو قراصياً، فإن كانت هذه الأمطار تُكاثّر فضائل مولانا، فيا طول ما
تسفع، وإن كانت العواصف تشبهه ببأسه فيا طول ماتلفح، وإن كانت البروق تحاكي
ذهنه المتسرّع، فيا طول ماتألق، وإن كانت قوس قزح تتلون خجلاً من طروسه فيا
طول ماتأنق، وإن كانت الرعود تحكى جوانح أعاديه فيا طول ماتفهق وتشهق، وإن
كانت السيول تجري وراء جوده، فيا طول ماتجري على طول المدى، وما تلحق،
والأولى بهذا النوء الباكي أن لا يحاكي، والأليق بهذا الفصل المبعّض ألاّ يتعرّض،
ورحم الله من عرف قدره، وكفى الناس شرّه، وتحقق أن مولانا في هذا الوجود ندره.

فأجبتة:

وقف لمواقع القلم الشريف، ووقف عليه، وتيمن لمجرّد إقباله إليه، وقبله لقرب
عهده بيديه وعده، لجلاء المرّة لما أمره على عينيه، لا برح الشهد من جنى ريقه
المعلل، والطرب بكأس رحيقه المحلل، والتيه / ٣٩١ / وحاشاه منه في سلوك طريقه
المذلّ، والجهد ولو كلف لا يجيء بمثل سيره المذلّ، والسحاب لا يطير إلاّ بجناح
كرمه المبلّل، والروض لا يبرز إلاّ في ثوب زخرفه المجلّل، والبرق لا يهتز إلاّ في
مثل ردائه المشلّل، والنصر يفضي لمواضيه على حدّ حسامه المقلّل، والفجر لولا
بيانه الوضّاح لما أرشد دليله المضلل، والبحر لولا ما عرف من عبابه الزاخر لما ذمّ
على غزر المادة نواله المقلّل، والفخر لو شمع بأنفه لا ينافس عقده الموشّح، ولا
يتناول إلى تاجه المكلّل، وفهمه فهم، وعلمه فزاد صقال الافهام، وقصر عن معرفته
فما شك أنه الهام، وانتهى في الجواب إلى وصف أنواع تلك الليلة الماطرة، وما

مَوَّهَتْ به السحبَ من ذهبِ برقها، وقتلته الأنواء من خيوط ودقها، ونفخت فيه الرياح من حجر كانونها، وأظهرت حقيقته الرعود من سرِّ مكنونها، وما تبثه عارضة ذلك العارض الممطر الذي هو أقوى من شأبيها، وأوقى مما أرقته^(١) السماء من جلايبها، وأسرى من برقها المومض في غرايبها، وأسرع من سرى رياحها، وقد جمعت أطواق السحب وأخذت بتلايبها، وسبح المملوك من عجب لهذه البلاغة التي كملت الفضائل، وفَضَّلْتُ عن العلم، وفي الرعيل الأول علم الأوائل، وفَضَّلْتُ مبدعها، وحق له التفضيل، وآيته جملة الفضل وفي ضمنها التفضيل، وأنطقت لسان بيانه، واخْرَسْتُ كل لسان، وأَجْرْتُ قلم كرمه، وأحرزت كل إحسان، ونشرت علم علمه، وأدْخَلْتُ تحته كل فاضل، وارهمت شباحده، وقطعت به كل مُناظر وكل مناصل، وقالت للسحاب، إليك وقد طبق إليك، فإن البحر ود جاءك، وللنوء وقد اغدق، تنحَّ فإن الطوفان قد ضيَّق أرجاءك، وللرعد وقد صرخ أُسكت، فقد آن لهذه الشقائق أن تسكت وللبرق وقد نسخ آية الليل استدرِك غَلَطَكَ لئلا تبكت، أما ترى هذه العلوم الجمة وقد زخرفها وأثر في الألباب سحرها، وهذه الفضائل كيف / ٣٩٢ / تَفَنَّنَتْ فنونها، وفتنت عيونها، وتهدلت بالثمرات أفنانها، وتزخرفت بالمحاسن جنانها، وهذه الألمعية، وكيف ذهبت الأصائل، وهذه اللوذعية وما أبقت مقالاً لقائل، وهذه البراعة التي فاضت، وكل منها سكران طافح، وهذه الفصاحة، وما غادرت بين الجوانح، وهذه البلاغة التي سالت بأعناق المطي بها الأباطح^(٢)، وهذه الحكم البوالغ، وهذه النعم السوابغ، وهذه الهمم التي ترقّت بتوجهها إلى السماء، فكشفت غيابة عارضها، وكفت غواية البرق وقد ولع خط مشييه بخط عارضها حتى جلاها وأضحها، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾^(٣)، وجلا صدأ تلك الليلة عن صفحة ذلك اليوم المشمس، وبدل بذلك الصحو المطيع من ذلك الغيم المؤنس، وأترع غدير ذلك النهار خالصاً من الرنق، وضوع غير ذلك الثرى خالياً من اللثق، وأطلع شمس ذلك اليوم يوشع جانب مشرقها، ويوشى بذائب الذهب وراء أفقها، كما قلت: [من السريع]

(١) كذا في الاصل، ولعله اراد: أَرَقَّتْهُ.

(٢) من قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة
أخذنا بأطراف الاحاديث بيئنا
ومسّخ بالاركان من هو ماسخ
وسالت بأعناق المطي الاباطح

(٣) سورة النازعات: ٢٩.

كَأَنَّمَا الْيَوْمُ وَقَدْ مَوَّهَتْ مَشْرَقَهُ الشَّمْسُ وَلَا جَا حُدُّ
 ثَوْبٌ مِنَ الشَّرْبِ وَلَكِنَّهُ طَرَزَ مِنْهُ كُئْمَهُ الْوَاحِدُ
 اسْتَغْفَرَ اللَّهُ بِلِ ذَلِكَ بِشْرُ ذَلِكَ الْبَشْرِ، بِلِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ وَصَفِيحَةَ وَجْهِهِ الْمَتَهَلَّلِ
 الْوَسِيمِ، لَا بِلِ صَفِيحَةَ^(١) عَمَلِهِ، وَصَفِيحَةَ أَمَلِهِ، وَأَنْمُوذَجَ رَايَةَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَصَنُو يَدِهِ
 الْبَيْضَاءِ، وَصَنَعَ يَدِيهِ فَلِلَّهِ تِلْكَ الْيَدِ الْمَقْبَلَةَ، وَلِلَّهِ تِلْكَ الْيَدِ الْمُؤَمَّلَةَ، وَلِلَّهِ تِلْكَ الْمَوَاهِبِ
 الْمَجْزَلَةَ، وَلِلَّهِ تِلْكَ الرَّاحَةَ الَّتِي لَا تَقَاسُ بِأَنْمَلَةٍ، وَلِلَّهِ ذَلِكَ الْبِنَانُ السَّاحِرُ، وَلِلَّهِ ذَلِكَ الْبَيَانُ
 السَّاحِرُ، وَلِلَّهِ ذَلِكَ اللَّسَانُ الْمَذْرَبُ، وَذَلِكَ الْبَحْرُ الزَّاخِرُ، وَلِلَّهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي طَالَ
 بَاعَ عَمَلِهِ، وَطَارَ فَأَوْقَدَ ضِرَامَ ذَلِكَ الصَّحْوِ شِعَاعَ فَهْمِهِ، وَطَابَ حَتَّى ثَمَرِهِ، وَجَنَابَ
 حَلْمِهِ، وَطَافَ الْأَرْضَ صَيْتُهُ، وَنَفَقَ كَاسِدَ الْفَضَائِلِ بِاسْمِهِ، لَقَدْ أَلْبَسَ الْمَمْلُوكَ رِذَاءَ
 الْفَخَارِ، وَعَرَّفَهُ الْعُومَ، وَكَانَ لَا يَطْمَعُ أَنْ / ٣٩٣ / يَشُقَّ بَحْرَهُ الزَّخَّارُ، وَمَحَا عَنْهُ صَيْغَ
 دَجَّةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَفَرَجَ عَنْهُ لِبَاسَ تِلْكَ السَّحْبِ، وَقَدْ ضَمَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ، وَفَرَّقَ ذَلِكَ النُّورَ
 الْمَعْتَلِجَ وَقَدْ جَارَاهُ جَفْنَهُ، وَأَجْرَى مِثْلَهُ سَبْلَهُ، وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ مِنَ الْإِعْتِقَالِ، وَانطَقَ بَيَانَهُ
 فَقَالَ، وَحَمَى لَهُ هَجِيرَ الذِّكَاةِ فَقَالَ، وَوَقَفَهُ وَلَوْلَا إِيقَافَهُ لَهُ لَغَيَّرَ عَلَى آثَارِهِ وَجْهَهُ مِنْ سَبَقِ.

فكتب هو الجواب: [من الكامل]

جاء الجوابُ يَزِفُ مِنْهُ فَوَاضِلَا وَيَرْفُ فِي رَوْضِ الْبَيَانِ خَمَائِلَا
 أَغْرَقَتْ غُرَّ السَّحْبِ حِينَ وَصَفَتْهَا يَا مَنْ غَدَا بَحْرًا يَمُوجُ فِضَائِلَا
 لَوْ لَمْ تَكُنْ يُمْنَاكَ بَحْرًا زَاخِرًا مَا أَرْسَلْتَ تِلْكَ السُّطُورَ جَدَاوِلَا
 ضَرَبْتُ مِنَ السَّحْرِ الْحَلَالَ مَتَى تَشَا أَخْرَجْتَهُ فَيَعُودُ ضَرْبَا دَاخِلَا
 مَا إِنْ جَلَا رَاوِيهِ بَحْرَ بَيَانِهِ إِلَّا وَزَانَ مَشَاهِدًا وَمَحَافِلَا
 فَمَتَى يَرُومُ بِهِ اللَّحَاقَ مَقْضَرُّ وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ مِنْ مَدَاهُ تَنَاوِلَا
 أَبْرَزْتَهُ أَفْقًا فَكَلَّ قَرِينَةَ بَرَجٌ حَوَى مَعْنَاهُ أَفْقًا كَامِلَا
 فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْحُرُوفُ حَدَائِقُ أَمَسْتُ مَعَانِيهَا تَصِيحُ بِلَابِلَا
 وَكَأَنَّ ذَاكَ الطُّرْسِ خَدُّ رَائِقُ وَالسُّطْرَ فِيهِ غَدَا عِذَارًا سَائِلَا
 مَهَلًا أَبَا الْعَبَّاسِ قَدْ أَفْحَمْتَنِي وَتَرَكْتَنِي بَعْدَ التَّحَلِّيِ عَاطِلَا
 بِاللَّهِ قَلُّ لِي عِنْدَمَا سَطَّرْتَهُ هَلْ كُنْتُ تَحَسُّبُ أَنْ تَجِيبَ الْفَاضِلَا
 أَقْسَمْتُ لَوْ جَارَاكَ فِي إِنْشَائِهِ مَا كَانَ ضَمَّ عَلَى الْيِرَاعِ إِنْامِلَا

(١) كذا في الاصل، ولعله اراد: صحيفة.

حَرَكَتْ مِنْكَ حَمِيَّةَ عَدْوِيَّةَ
 كَمْ فِيهِ مِنْ لَامٍ كَلَامَةِ فَارِسٍ
 هَلْ شِئْتُ أَنْ تُنْشِيَ الْجَوَابَ سَحَابَةً
 يَا فَارِسَ الْإِنْشَاءِ رَفَقاً بِالَّذِي
 لَوْ رَامَ أَنْ يَجْرِيَ وَرَاءَكَ خَطْوَةً
 فَاحْبَسْ عَنَانَكَ قَدْ تَجَاوَزْتَ الْمَدَى
 /٣٩٤/ وَالْفَاضِلُ الْمَسْكِينُ أَصْبَحَ فَتَهُ
 فَاسْلَمْ لِتَبْلِيغِ النُّفُوسِ مَرَامَهَا
 كَمْ فِيكَ لِي أَمَلٌ يَرُوقُ لِأَنَّي

وكتبت أنا الجواب إليه: [من الكامل]

وَأَفَى الْكَمِيِّ بِهَا يَهْزُ مَنَاصِلَا
 سَبَقَ الظَّلَامَ بِهَا وَنَبَّهَ لَيْلَهُ
 حَمْرَاءَ قَانِيَةَ يَذُوبُ شِعَاعُهَا
 حَمْرَاءَ قَانِيَةَ تَحْتُ كَوْوَسَهَا
 ذَهَبِيَّةً مَاعَرَقَ عَانَةَ كَرْمَهَا
 كَفَّ لِمَنْبَجِسِ النُّوَالِ كَأَنَّمَا
 كَرْمٌ خَلِيلِيٌّ يَمُدُّ سَمَاظَهُ
 وَلَهَيْبُ فِكْرٍ لَوْ تَطِيرُ شَرَارَةٌ
 يُذَكِّي بِهِ فِي كُلِّ صُبْحٍ قَرَّةً
 عَجَباً لَهُ مِنْ سَابِقٍ مَتَأَخَّرِ
 دَانُوهُ فِي شَبِّهِ وَمَا قَيْسُوا بِهِ
 مَائِلٌ بِهِ الْبَحْرَ الْخَضْمَ فَإِنَّهُ
 وَافَتْ عَقِيلَتُهُ وَلَوْ بَدَأَ امْرُؤٌ
 جَاءَتْ شَبِيهَةَ الْخُودِ فِي حُلَلِ لَهَا
 قَدْ حُضِبَتْ بِدَمِ الْحَسُودِ أَمَا تَرَى
 حِلْلٌ عَلَى سَحْبَانَ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا
 خَلَّتْ الْهَلَالَ يَلُوحُ طَلَعِ نِقَابِهَا

مَلَأَتْ فِضَاءَ الطَّرْسِ مِنْكَ جِحَافِلَا
 قَدْ هَزَّ مِنْ الْفَاتِ خَطُّكَ ذَابِلَا
 تَنْدَى فَجَاءَتْ مِنْكَ سَيْلاً سَائِلَا
 نَازَلَتْهُ يَوْمَ التَّرْسَلِ رَاجِلَا
 نَصَبْتُ لَهُ تِلْكَ الْحُرُوفُ حَبَائِلَا
 وَتَرَكْتُ سَحْبَانَ الْفِصَاحَةِ بَاقِلَا
 مِنْ بَعْدِ مَا قَدَّرَ رَاحَ فِينَا خَامِلَا
 فَالْدَهْرُ فِي أَبْوَابِ فَضْلِكَ مَائِلَا
 أَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَخَيِّبُ أَمَلَا

وَيَرُومُ صَبْغاً لِلشَّبِيهَةِ نَاصِلَا
 وَلَوْ أَنَّهُ فِي الْفَجْرِ حَلَّى الْعَاطِلَا
 وَتَرَى حَصَى الْيَاقُوتِ فِيهَا سَائِلَا
 وَقَعَ الصُّوَارِمِ وَالْوَيْشِجِ الذَّابِلَا
 لَكُنْتَهَا كَفَّ الْكَرِيمِ شَمَائِلَا
 دَفَعُ السِّيُولِ تَمَدُّ مِنْهُ نَائِلَا
 وَيُشِبُّ نَاراً لِلْقَرَى وَفَوَاضِلَا
 مِنْهُ لَمَّا بَلَ السَّحَابِ الْوَابِلَا
 فَهَمَا لِنِيرَانِ الْقِرَائِحِ آكِلَا
 فَاتَ الْأَوَاخِرَ ثَمَّ فَاتَ أَوَائِلَا
 مِنْ ذَا تَرَاهُ لِلْغَمَامِ مُسَاجِلَا
 لَا يَرْضِي خَلْقاً سِوَاهُ مَمَائِلَا
 فِيهَا اسْتَقَلَّ مِنَ الْبُرُوجِ مَعَاقِلَا
 حَمْرٍ بِتَذْهِيبِ الْخُدُودِ لَهَا حُلَى
 اثْرَ السُّوَادِ بِهَا عَلَيْهِ دَلَائِلَا
 وَتَجَرُّ مِنْ طَرْفِ الذِّيُولِ الْفَاضِلَا
 حَتَّى نَضَّتْ فَرَأَيْتُ بَدراً كَامِلَا

حُسْنُ المَليحة أن تَواصل عَاجِلا
لا بَلْ تَحوِضُ مِنَ السَيولِ خِلاخِلا
إِنَّ المَتيِّمَ لا يَخافُ العَاذِلا
مَلاً الِوِجودَ لَه قَناً وقَنابِلا
صَادِ الغِزالَةَ حِثُّ مَدَّ حِبايِلا
قَد عَمَمَتْ بِالثَلِجِ شِيباً شامِلا
أَيدي البَروقِ وَقَد خَرَقنَ أَنامِلا
إِلا لُجَيناً جَامِداً أو سائِلا
صَهباءُ قَد عَقَدتْ حَباباً حائِلا
وَبِدا ذُبِالاً في الأَصائِلِ نَاجِلا
حَنقُ يَقْدُ مِنَ السَحابِ غَلائِلا
إِفرِندُهُ ذَهبٌ يَمَدُّ سَلاسلِلا
القِى خَليلاً مَنكَ لي وَمخالِلا
وَضَمَمَتْ في بَردِيكَ لَيثاً باسِلا
إِسأرُ فِما أَبقيتْ بَعدَكَ فاضِلا

ومجيداً قد فاقَ عبدَ المَجدِ
وَشَريكاً في الفِضْلِ لِلتَوحيدِ
مَ وَقَالَ الجَهِالَ بِالتَقليدِ
رَأمَ نَقضاً بِالجَهِلِ حَكمَ الِوِجودِ
جَاءَني مَنكَ [عِقدُ] دُرٌّ نَضيدِ
شَابَهُ السَحرَ شَابَ رَأْسُ الِوليدِ
مَن بَني هاشِمِ ذَوي التَأييدِ
حِينَ لَوَحَتَ لي بِذَكرِ الرَشيدِ

بَنتِ القَريحَةَ ماوَنَتْ في خِذَراها
جَاءتْ تَصوِغُ مِنَ العِناقِ أَساوراً
/٣٩٥/ قَبلتُها وَأَعدتْ تَقبيلِ لها
وَأَتتْ وَجيشُ النُّوءِ مَرهوبُ السَطا
وَالبَرقُ مَشبوبُ الضَرامِ لِأنَّهُ
وَأَتتْ وَرَأْسُ الطَودِ يَشكو لَمَّةً
وَكَأَنما نَثرَتْ قَراضَةَ فَضَّةً
مَلاَتْ بِه كَلَّ الفِضاءِ فلا تَرى
وَالأَفقُ كَالكَاسِ المَفضِّضِ مَلوؤُهُ
أَبناءِ يَومٍ قَد تَقهَقرَ ضوؤُهُ
وَالجَوُّ مَنخَرِقُ القَميصِ كَأَنَّهُ
وَالسَيلُ مَنحَدَرٌ يَسيلُ مَهِندا
لِلهِ أَنتَ أبا الصَفاءِ فَإِنني
أَنتَ الَّذي حَلَّقتْ صَقرأً أَجدلاً
يا مَن يَنفِقُ سَوقَ كَلِّ فَضيلَةَ
فَكتبَ هُوَ الجَوابُ: [مَن الخَفيف]

يا فَريداً أَلفاظُهُ كَالفَريدِ
وَإِمامَ الأَنامِ في كَلِّ عَليمِ
عَرفَ العالِمونَ فَضلكَ بِالعدِ
مَن تَمَنى بِأَن يَرى لَكَ شِبهأً
طالَ قَدَري عَلى السَماكينِ لَما
شابَهُ الدَرُّ في النَظامِ وَلَما
هي أُمُّ الأَمينِ ذَاتِ المَعالي
أَنتَ كَنتَ البَادي لَمَعاَهُ حَقاً

/٣٩٦/ وهذا آخر من ختمنا به أهل قطرنا أحياءً وأمواتاً، ولا حفلة بمن تخطيناه فوتاتاً، وإذ كان هؤلاء أعيان القوم من أول هذه الملة وإلى اليوم ممن اشتهر

لعلو قدره، أو لغلوّ درّه، وثم بقايا ما حلوا مع أحد هذين، ولا كانوا في قسميها اللذين.

وهذه جملة كافية في الكتاب المشاركة، وإنما أطلّعنا من شموسهم شارقة وهي دالة على ما بعدها من نهار يطنب في الخافقين، ويطيب ملأى النيرين الشارقين.

* * *

آخر السفر الثاني عشر من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

ويتلوه إن شاء الله تعالى

في السفر الثالث عشر: فأما الكتاب المغاربة، وما لهم من نجوم غير غاربة

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين

وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين

حسبنا الله ونعم الوكيل

* * *

مصادر ومراجع التحقيق

- اتعاظ الحنفا: للمقريزي، ط.د. جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٩١٧م.
- أساس البلاغة: للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، ط. مطبعة اولاد ارفاند، القاهرة ١٩٥٣م.
- أشعار اللصوص: جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحي، ط. دار الحضارة الجديدة، بيروت ١٩٩٣م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، ط. بيروت ١٩٧٩م.
- أعيان العصر: للصفدي، تحقيق: د. علي أبو زيد وجماعته، ط. دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.
- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، مصورة دار الكتب المصرية والهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- الأمالي: لأبي علي القالي، تحقيق عبد المجيد الاصمعي، مصورة دار الكتب المصرية، ط. المكتب التجاري، بيروت.
- أنساب الخيل: لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي، ط. القاهرة ١٩٦٥م.
- البيغاء: حياته، ديوانه، رسائله، قصصه جمع وتحقيق هلال ناجي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٩٨م.
- بدائع البدائ: لابن ظافر، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط. المكتبة العصرية، صيدا ١٩٩٢م.
- البداية والنهاية: لابن كثير، ط ٣، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٠م.
- بغية الوعاة: للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. الحلبي القاهرة ١٩٦٤م.
- البلغة في تاريخ أئمة اللغة: للفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، ط. القاهرة ١٩٦٢م.
- البيان والتبيين للجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٤٨م.
- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، ط. بيروت.
- تاريخ الخلفاء: للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة

المتنبي، بغداد.

• تاريخ الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م.

• التطفيل: للخطيب البغدادي، تحقيق د. عبد الله عسيلان، ط. دار المدني، جدة ١٩٨٦م.

• التكملة لوفيات النقلة: للمنزري، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط. الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

• تكملة المعاجم العربية: لدوزي، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ط. وزارة الثقافة بغداد ١٩٧٨م.

• تلخيص مجمع الآداب: لابن الفوطي، تحقيق د. مصطفى جواد، ط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٣م.

• ثمرات الأوراق للحموي: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧١م.

• الحوادث الجامعة والتجارب النافعة: لابن الفوطي، تحقيق مهدي عبد الحسين النجم، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م.

• حياة الحيوان الكبرى: للدميمري، ط. انتشارات ناصر خسرو، طهران.
• خريدة القصر: للعماد الأصفهاني (قسم مصر) تحقيق: أحمد أمين وجماعته، ط. لجنة التأليف - القاهرة.

• خريدة القصر: للعماد الاصفهاني (قسم العراق) تحقيق: محمد بهجة الأثري، بغداد.

• الدارس في تاريخ المدارس: للنعيمي، تحقيق جعفر الحسيني، ط. المجمع العلمي العربي، دمشق.

• الدرر الكامنة: لابن حجر، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

• ديوان امرىء القيس: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.

• ديوان البحترى: تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

- ديوان بديع الزمان الهمذاني: تحقيق يسري عبد الله، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
- ديوان أبي تمام: شرح الصولي، تحقيق: خلف رشيد نعمان، بغداد ١٩٧٧م.
- ديوان جرير: بشرح ابن السكيت، تحقيق محمد نعمان أمين طه، ط. الحلبي، القاهرة.
- ديوان جميل بثينة: تحقيق عبد الستار فراج، ط. نهضة مصر ١٩٦٧م.
- ديوان الخالدين: تحقيق د. سامي الدهان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩م.
- ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٧م.
- ديوان الشريف الرضي: ط. مكتبة البيان ببغداد.
- ديوان أبي الشيص الخزاعي: صنعة عبد الله الجبوري، ط. المكتب الاسلامي، دمشق ١٩٨٤م.
- ديوان الطغرائي: تحقيق د. علي جواد الطاهر و د. يحيى الجبوري، بغداد ١٩٧٦م.
- ديوان العماد الاصفهاني: جمع وتحقيق د. ناظم رشيد، ط. جامعة الموصل ١٩٨٣م.
- ديوان القاضي الفاضل: تحقيق د. أحمد أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦١م.
- ديوان كثير عزة: تحقيق د. احسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٧١م.
- ديوان المتنبي: ط دار صادر بيروت.
- ديوان نصيب بن رباح: جمع وتحقيق د. داود سلوم، ط. مكتبة الاندلس، بغداد ١٩٦٨م.
- ديوان أبي نواس: بشرح حمزة الاصبهاني، تحقيق ايفالد فاغنز، ط. فيسبادن.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني، تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٧٩م.
- الذيل على الروضتين لأبي شامة: ط. دار الجيل بيروت ١٩٧٤م.
- ذيل مرآة الزمان: لليونيني، ط. دار الكتاب الاسلامي، القاهرة ١٩٩٢م.
- رسائل بديع الزمان الهمذاني: بشرح الاحدب، دار التراث، بيروت.
- رسائل الصبائي والشريف الرضي: تحقيق د. محمد يوسف نجم، ط. مطبعة

- حكومة الكويت ١٩٦١م.
- الروضتين في أخبار الدولتين: لابي شامة، تحقيق ابراهيم الزبيق، بيروت ١٩٩٧م.
 - سنى البرق الشامي: للبنداري، تحقيق د. رمضان ششن، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١م.
 - سير أعلام النبلاء: للذهبي، ط. الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
 - سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي: للنسائي، تحقيق ضياء الدين موسى تونيادوف، ط. موسكو ١٩٩٦م.
 - شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي، بيروت.
 - شروح سقط الزند: للتبريزي وغيره، لجنة إحياء تراث أبي العلاء، ط. القاهرة.
 - شعر الخوارج: جمع وتحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م.
 - شفاء القلوب: للحنبلي، تحقيق د. ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٨م.
 - صبح الأعشى: للقلقشندي، ط. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣م.
 - الطالع السعيد: للأدفوي، تحقيق سعد محمد حسن، ط. الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.
 - العبر في خبر من غبر: للذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٨٤م.
 - العقد الفريد: لابن عبد ربه الاندلسي، تحقيق أحمد أمين وجماعته، ط. لجنة التأليف، القاهرة.
 - عيون التواريخ: لابن شاکر الكتبي، تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود، بغداد.
 - الغيث المسجم: للصفدي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.
 - الفهرست: لابن النديم، طبعة الاستقامة، القاهرة.
 - فوات الوفيات: لابن شاکر الكتبي، تحقيق د. احسان عباس، ط. دار صادر.
 - القاموس المحيط: للفيروزآبادي، تحقيق نصر الهوريني، ط. الحلبي ١٩٥٥م.
 - قلائد الجمان: لابن الشعّار (نسخة السليمانية - استانبول) نشرة فؤاد سزكين، ألمانيا ١٩٩٠م.
 - مجمع الامثال: للميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. السنة

- المحمدية، القاهرة ١٩٥٥م.
- المختار من رسائل الصابي: تحقيق شكيب ارسلان، ط. دار النهضة الحديثة، بيروت.
 - المختار من شعر بشار: للتجبيي، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، ط. لجنة التأليف، القاهرة ١٩٣٤م.
 - المختصر المحتاج إليه: للدبيشي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.
 - معاهد التنصيص: للعباسي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط. عالم الكتب بيروت ١٩٧٠م.
 - معجم الأدباء: لياقوت الحموي، بيروت.
 - معجم البلدان: لياقوت الحموي، ط. دار صادر بيروت ١٩٧٠م.
 - منتهى الطلب من أشعار العرب: لابن ميمون، تحقيق د. محمد نبيل طريفي، ط. دار صادر بيروت ١٩٩٩م.
 - المنهل الصافي: لابن تغري بردي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٥م.
 - المؤلف والمختلف للآمدي: تحقيق عبد الستار فراج، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.
 - النجوم الزاهرة: لابن تغري بردي، مصورة دار الكتب المصرية.
 - النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة: لابن سعيد، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة ١٩٧١م.
 - نكت الهميان: للصفدي، تحقيق أحمد زكي، ط. الجمالية، القاهرة ١٩١١م.
 - نهاية الارب: للنويري، مصورة دار الكتب المصرية والهيئة المصرية العامة.
 - الوافي بالوفيات: للصفدي، بإشراف جمعية المستشرقين الالمانية، بيروت.
 - وفيات الاعيان: لابن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، ط. دار صادر بيروت ١٩٦٩م.
 - يتيمة الدهر: للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الفكر بيروت ١٩٧٣م.

فهرس المحتويات

٣ مقدمة التحقيق
١١ القسم الأول
١١ [١] أبو إسحاق الصابي
١٥ فصل من رسالة في وصف الرمي عن قسي البندق
٣٣ [٢] محمد بن أبي محمد بن الفياض
٣٤ [٣] الحريري، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، صاحب المقامات
٤٤ [القسم الثاني]
٤٥ [٤] أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد القرشي المخزومي، المعروف بالبيغاء
٥٦ [٥] بديع الزمان الهمداني
٩٧ [٦] أبو نصر العتبي
	[٧] الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو اسماعيل مؤيد الدين، فخر الكتاب
١٠٠ الأصبهاني، المنشئ المعروف بالطغرائي
١٠٩ [٨] أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني
١١٢ [٩] القاضي الفاضل
١٩٢ [١٠] محمد بن محمد، عماد الدين، أبو حامد القرشي، الأصبهاني، الكاتب
	[١١] نصر الله بن محمد بن محمد، ضياء الدين، ابو الفتح ابن الأثير الجزري،
٢٠٤ الكاتب
٢٣٢ [١٢] قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن زيادة الشيباني
	[١٣] شهاب الدين النسائي، أبو المؤيد محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن المؤيد
٢٣٤ الخرنديزي
	[١٤] ابن ابي الحديد، موفق الدين، أبو القاسم بن هبة الله بن محمد بن محمد بن
٢٣٧ الحسين بن أبي الحديد المدائني، أبو حامد
٢٤١ [١٥] موفق الدين المدائني القاسم (أبو) المعالي عز الدين، ابي حامد، عبد الحميد ..
	[١٦] ابن بصاقه، فخر القضاة، أبو الفتح، نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي بن الحسين
٢٤٢ ابن يحيى الغفاري، الكتاني
٢٥١ [١٧] محمد بن نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أبو عبد الله

- ٢٥٧ [١٨] ابن قرناص ، محيي الدين
- ٢٥٨ [١٩] ابن العجمي ، كمال الدين أحمد بن عبد العزيز الحلبي ، أبو العباس
- ٢٦٠ [٢٠] تاج الدين ، أبو جعفر ، أحمد بن سعيد
- [٢١] شهاب الدين ، أبو محمد بن كمال الدين أبي العباس ، أحمد بن عبد العزيز بن
العجمي ٢٦٩
- [٢٢] أحمد بن أبي الفتح بن محمود الشيباني ، كمال الدين ، أبو العباس ٢٧١
- [٢٣] محمد بن عبد الله ، شرف الدين ، أبو محمد ، بن فتح الدين أبي الفضل بن
القيسراني القرشي المخزومي ٢٩٠
- [٢٤] محمود بن سليمان بن فهد الحلبي ، الكاتب ٢٩٣
- [٢٥] ابن حمائل علي بن محمد بن سليمان بن حمائل ، الشيخ الإمام ، جمال الدول ،
علاء الدين أبو الحسن ٣٣٠
- [٢٦] عبد الباقي بن عبد المجيد بن أبي المعالي متى بن أحمد بن محمد بن عيسى بن
يوسف القرشي ، المخزومي ، أبو المحاسن ، تاج الدين ، المعروف باليماني ، المكي
مولداً ٣٣٥
- [٢٧] ابن غانم عبد الله بن علي بن محمد بن سلمان ، عرف بابن جمال الدين ، أبو
الفضل ، غانم المقدسي ٣٤٠
- [٢٨] زين الدين الصفدي ، أبو الحفص عمر بن داود بن هارون بن يوسف الحارثي ... ٣٤٦
- [٢٩] خليل بن إيبك الصفدي ، أبو الصفا ، صلاح الدين ٣٥٤
- مصادر ومراجع التحقيق ٣٧٨
- فهرس المحتويات ٣٨٣